

هنري زغيب

هذا الرَجُل من لبنان

كتاب بازْبَرَه يونغ
ووثائِقُ جديدةٌ أَميركية ولبنانية



منشورات
مركز التراث اللبناني

هذا الرَجُل من لبنان

كتاب بارْبَرَه يونغ
ووثائِقُ جديدةٌ أَميركية ولبنانية

بطاقة مكتبية

اسم الكتاب: هذا الرجُل من لبنان

المؤَلِّف : هنري زغيب

الناشر : «مركز التراث اللبناني» في الجامعة اللبنانية الأَميركية

الموضوع: ترجمة كتاب باربره يونغ «هذا الرجُل من لبنان» مع مقالات وصُور ووثائق أُخرى

اللغة : عربية

عدد الصفحات: ٦٠٠ صفحة

القياس : ١٦,٥×٢٤ سنتم

الرقم الدولي: ٦-٥٤-٤٦١-٩٩٥٣

الطبعة الأُولى : ٢٠٢١

الغلاف : جبران في برونزيَّة لنَسيبِه النحَّات البوسطني خليل جبران
(بإِذْنٍ خاص من زوجته جين جبران لغلاف هذا الكتاب)

مركز التراث اللبناني

هاتف : ٦٤ ٦٤ ٧٨ (١ ٩٦١+)

بَريديًّا : ص ب: ٥٠٥٣-١٣ شوران ٢٨٠١ ١١٠٢ – بيروت – لبنان

إِلكْترونيًّا : clh@lau.edu.lb

موقِعًا : www.lau.edu.lb/centers-institutes/clh

ISBN: 9953-461-54-6
EAN: 978-995346154-0

Concept and design: LAU/Stratcom.
Designed by Marianne Gaby Ziadeh.

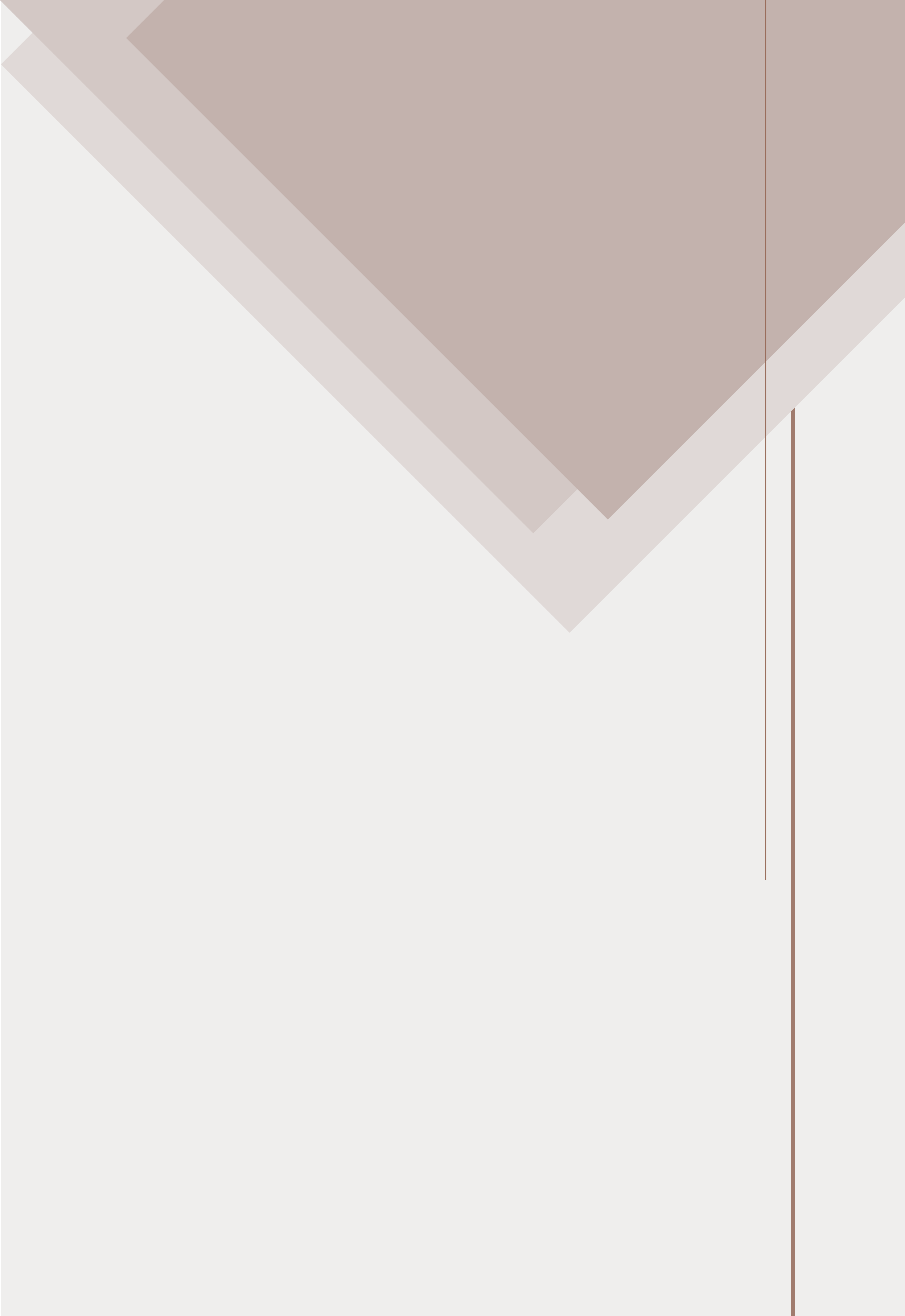


هنري زغيب

هذا الرَجُل من لبنان

كتاب بارْبَرَه يونغ
ووثائِقُ جديدةٌ أَميركية ولبنانية

منشورات
مركز التراث اللبناني



حياتي أَرفَعُها إِليكِ، لا إِهدائي

داناي:

لامَها كثيرون أَنْ كتَبَتْ عنه بانبهارِ التقديس

ولا لَوْم:

هكذا رَأَتْ هذا الرجلَ من لبنان، عرَفَتْهُ، عايَشَتْهُ

هكذا رأَتْ إِليه أَبْعَدَ من رجُلٍ عاديّ

أَرْفَعَ من كائنٍ بَشَرِيّ

ولا لَوْم:

العاديُّون لا يَعُون غيرَ العاديين

وهكذا أَنا

منذ فَتَحَتْ لِيَ الحياةُ فردوسَ حُبِّنا فَدَخَلْتُ

أَراكِ أَبعدَ من امرأَةٍ عاديَّةٍ

أَرى إِليكِ أَرْفَعَ من كائنٍ بَشَرِيّ

فلا لَوْم

أَنْ أَعيشَكِ بانبهارِ التقديس

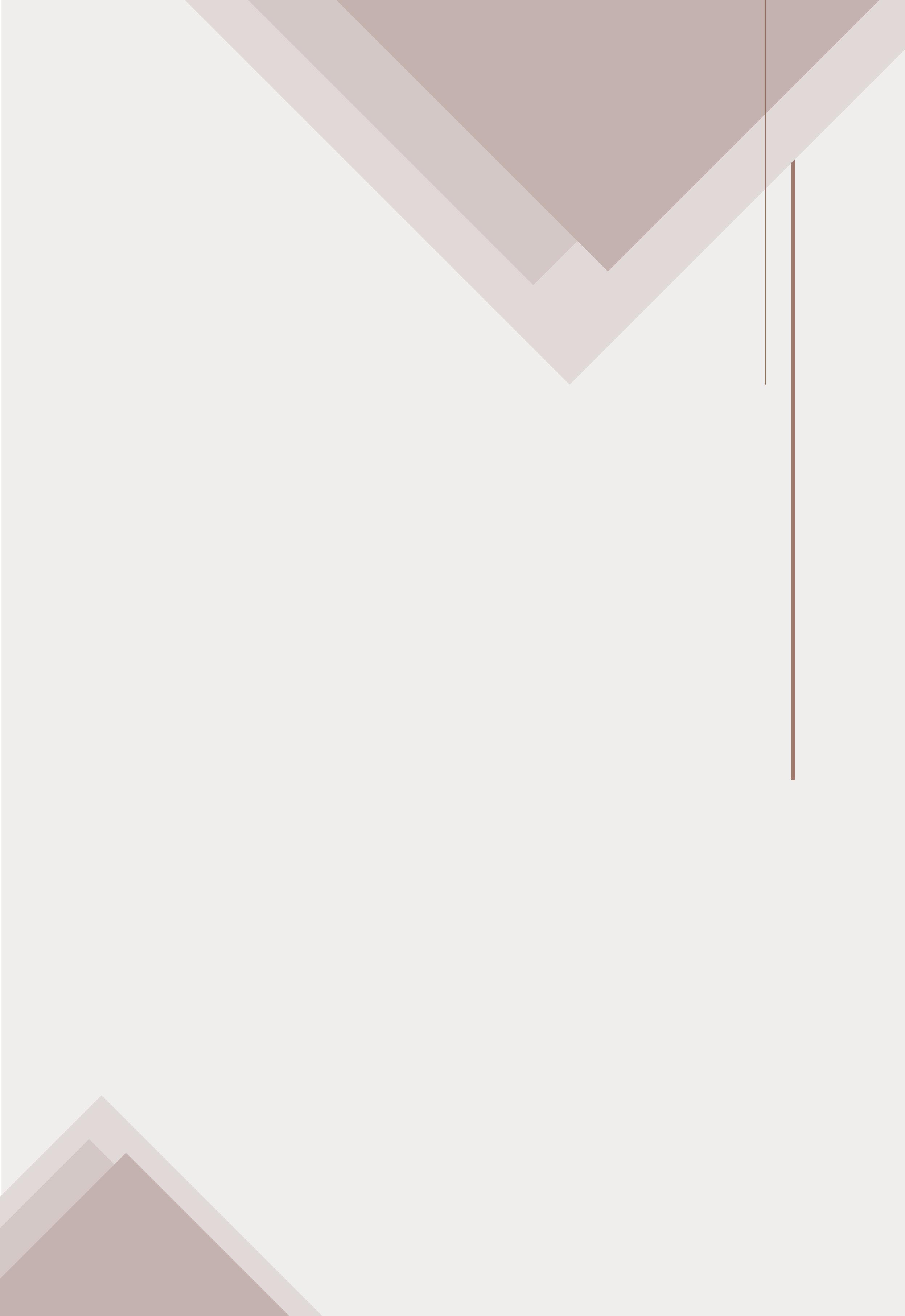
أَنْ أَرفَعَ حياتي إِلى هالتِكِ القُدسيَّة

لتكونَ **داناي** ولادتي الجديدة

لتكونَ **داناي** دنياي الباقية

على اسمِكِ، **داناي**، أَنقُشُ يوميًّا حياتي ظِلَّ نُورِكِ الإِلهيّ

٢٩ أَيلُول ٢٠٢٠



المحتويات

القسم الثاني: عنه بأَقلامهم – ترجمةُ نُصوصٍ إنكليزيةٍ متفرِّقةٍ عن جبران

مدخل إليه وإليها

بدايةً

أَيُّ داعٍ لترجمتي كتابَها بعدَ ما ليس يُحصى من كتُب بيوغرافية في لغاتٍ كثيرةٍ صدَرَت ترسم حياة هذا اللبناني الذي بَلَغ العالَم حتى بات اسمُه، مجرَّدُ اسمِه، عنوانًا حضاريًّا آخَرَ للبنان؟

في معظم الكتب التي أَعرفها عن جبران، يمر ذكْرُها عابرًا هنا أَو شاهدًا هناك، وفي الحالتين استنادًا إِلى معلومة عابرة عنه في كتابها «هذا الرجل من لبنان». حتى لدى البحث عن النساء في حياته يَردُ ذكْرها وميضًا كـ«واحدةٍ من تلك اللواتي»، ويذهب الاهتمامُ جلُّه إِلى المَريَمَات الثلاث: ماري هاسكل (الحب التبادُلي)، وماري (مي) زيادة (الحب التراسُلي) وماري الخوري (الحب التلابُسي)، ويتناثر اهتمام ثانوي على أُخريات عَبرنَ حياتَه، في قصص معظمُها منسوجٌ، أَو في رسائلَ يُحدث اكتشافُها بعدَه أَيَّما صدى!



بقِيْتُ على وهجٍ من تلك الحال حتى قرأْتُ «**هذا الرجل من لبنان**»، فعجِبْتُ أَنْ لم يكن له في كتابات سيرته ما يستحقُّه.

هذه امرأَةٌ عاشتْه في محترفه «الصومعة» ستَّ سنواتٍ متتالية في إِيقاع متواصل، لازمَتْه حتى باتت حاجةً له شبهَ يومية، يُملي عليها فتدوِّن، تدوِّن ثم تَطبَع على آلتها الكاتبة، تَطبع وتُعطيه فيصحِّح ويبدِّل وينقِّح قبل أَن يُرسل النص إِلى الناشر «أَلفرد كنوف» ليُصدِرَه في كتاب. وبقي في حاجةٍ إِليها: تُرتِّب أَوراقَه المكدَّسة عشوائيًّا، تجمَع تدويناتِه السريعةَ على قصاصات مبعثرة تنسِّقها وتسديها إِليه فيُطْلِقُها (كما حصل في مجموعة أَقوال «رمل وزبَد»)، تسجِّل صوتَه كلماتٍ يبثُّها وهو يمشي ذارعًا غرفةَ المحترف، مراتٍ مركِّزًا وأُخرى في شبه غيبوبة انخطافية، مراتٍ هادئًا وأُخرى صائحًا، وهي كَتومةٌ تدوِّن وعند طلبِه تُعيد له ما دوَّنَتْ من هدوئه أَو صياحه (كما حصل أَثناء تأْليف «يسوع ابن الإِنسان»)، وتساعده بتنسيق حِكَمٍ في أُقصوصات (كما حصل في «التائه») وتُتابع تَوَالي انهمالاته الشعرية (كما عند وضْعه «آلهة الأَرض»)، وغالبًا ما كانت تدوِّن حتى أَفكارَه وإِن لم تكُن للكتابة فالنشْر.



هذه المُلازَمة (أَكاد أَقول: الحميمة) بلغَت بها أَن كادت تحصي أَنفاسه وترتقب مسْبقًا ردود فعْله، وأَن تعرفَ خصائصَ طبعه ومزاجه، وسويعاتِ إِبداعه، وفتراتِ انخطافه، وثنايا طبيعته، وخفايا همومه، وما يُحب من مأْكل، وكيف يَمزح، وكيف يَغضب، وكيف يتصرَّف أَحيانًا في براءةٍ طفولية ساذجة، كما وضع ذات مساءٍ خطًّا وهميًّا في قصعة الحساء ليقسمها شطرين، وأَحيانًا في أَسئلة مفاجئةٍ بيضاء كما سأَلَها يومًا والهاتف يرن: «أَتَرَين أَن أُجيب»؟

هكذا، من هَيْبته أَمامها ورهْبتها أَمامه، رأَت فيه متفوِّقًا أَعلى من إِنسانٍ عاديٍّ ونبويًّا أَبعدَ من رجُلٍ بشريٍّ، فقاربتْهُ «هاجيوغرافيًّا»: رأَت إِليه كائنًا ذا هالةٍ رَسولية فكتبَت عنه لا بِـ«بيوغرافيا» السيرة المسطَّحة بل بِـ«هاجيوغرافيا» القدِّيسين والأَنبياء، وهو ما أَخذَه عليها كُتَّابٌ ونُقَّادٌ رأَوا في «مبالغاتها» نسْجًا من خيالها بعيدًا عن حقيقة جبران، ومبالغاتٍ جعلتْهم يشكِّكون في مصداق ما روَت في

الكتاب. الفارق بينها وبين جميع «تلك اللواتي» أَن نصَّها ثمرةُ ما عاينَت لديه مباشرةً فسردَتْه حتى بات مرجعًا مُعاشًا عنه، يضاف توثيقيًّا إِلى ما تكشَّف لنا من الرسائل بينه وبين ماري هاسكل (٣٢٥ رسالة منه إِليها، و٢٩٠ رسالة منها إِليه) ومن انطباعاتِها عنه في ٤٧ مفكِّرة يومية (صفحة الواحدة منها ذاتُ خمسة أَسطر) و٢٧ دفترًا سردَت فيها ومضاتٍ عن لقاءاتهما (الدائمة في بوسطن والمتقطِّعة لاحقًا في نيويورك) ونقلَت نُبَذًا من أَفكاره في الأَدب والفن والفلسفة والدِين وتفاصيلَ أُخرى عن مَلابسه وصحته وهمومه الفنية. سوى أَن هذه جميعَها توقَّفت عند زواج ماري (الجمعة ٧ أَيار ١٩٢٦) وتضاؤُلِ زياراتها إِياه في نيويورك وانقطاعِ متابعته المباشرة، ما صادف قُبَيلَذاك دخولَ باربره يونغ إِلى حياته واهتمامها به ومتابعتها إِياه مباشرةً بإِيقاع شبْهِ يومي.



مأْخذٌ آخَر لفحَها النقَّاد به: «حديقة النبي». اتهموها – وجبران تُوفي قبل إِتمامه كاملَ نصوص الكتاب – أَنها هي واضعةٌ نصوصًا فيه بأُسلوب جبران. لا أُناقش في الأَمر لكنني أَرى أَن ملازمتَها إِياه تلك السنوات الستّ جعلَتْها تعيش أُسلوبه وشاعريته ونسيج لغته المتفرِّد الخاص، وتكاد تتماهى به حتى تكون قادرةً على جمع نثار أَوراقه وتنسيقها وإِصدارها كما لو انه جامعُها ومُنسِّقُها ومُصْدِرها.



شكٌّ آخَرُ يهبُّ عليها من جهة النقَّاد: «استغلالها» اسمَ جبران وكتاباتِه ورسومَه لغاية أَدبية شخصية، وأَكثر: «مادية». وهو شكٌّ يقابله واقعٌ دامغ: التي أَقامَت في محترفه، بعد غيابه، معرضًا لأَعماله قبل أَن تتولَّى تدوينَ جميع محتويات المحترف وْوضعَ ثَبْتٍ بها والاهتمامَ المباشِر بتوضيبها وشحْنها إِلى بْشرّي تنفيذًا وصيتَه وتنسيقًا مع ماري هاسكل كما تمنَّى عليها جبران في وصيته، والتي أَقامت في مقارَّ أُخرى معارضَ له أُخرى في ولاياتٍ أَميركية وفي لندن وپاريس، والتي

نظَّمَت لقاءاتٍ كثيرةً لقراءاتٍ شِعرية ونثرية من كُتُبه وكتاباته وسّعَت جمهور قارئيه الأَميركيين وعرَّفَت به مَن لم يكونوا عرفوه بعدُ أَو عرفوا عنه ولم يقرأُوه، والتي اجتازت أَمواج الأَطلسي إِلى لبنان لتحجَّ إِلى بْشرّي فتجثو عند ضريحه وتزورَ معهد «الحكمة» في بيروت، وفي نيَّتها البقاءُ في لبنان سنةً كاملة نَحَر أَيامَها الأُولى اندلاعُ الحرب العالمية الثانية وصدُورُ قرار الحكومة الأَميركية بمغادرة الأَميركيين (غير المقيمين) أَرضَ لبنانَ سريعًا، والتي وضعَت عنه كتيِّبًا بعد أَشهر من وفاته (١٩٣١) ثم حيَّكَت، فلذةً فلذةً طيلة ١٤ سنةً، كتابَها الثاني عنه (١٩٤٥) بتفاصيلَ موثقة، لا يمكن التعاملُ معها بتلك التُّهم ولا بتلك الشكوك.

هذه هي باربره يونغ!



كلُّ هذا الأَعلاه تَحفَّزني من جديد إِلى قراءة كتابها بطبعته الإِنكليزية (وهي نافدةٌ من زمانٍ حتى في الولايات المتحدة وحتى لدى ناشره كنوف).

اليوم، بسبب هذا الأَعلاه، وإِنصافًا إِيَّاها وجبرانَ من خلالها، قررتُ وضعَ صياغةٍ في العربية لهذا الكتاب، رافقَتْني خلالها مسحةٌ شاعريةٌ في النص وصاحبتُه شاعرةٌ أَميركية مكرَّسة، وإِطلالاتٌ شخصيّةٌ جديدةٌ بفضلها على جبران، رجُلًا وكاتبًا ورسامًا، تفرَّدَت بها، وأَكثر: أَخذَها عنها كثيرون من واضعي سيرته لأَنها لم تَرِدْ في كتب سواها، منهم من أَشار إِلى كتابها ومنهم من لم يُشِر.

ولأَن أُسلوبها شاعريٌّ أَخَّاذٌ نَحَتُّ ترجمتي بما يحاكي شاعريًّا نصَّها الأَصلي، فتشدَّدتُ في الأَمانة التامة لجوهر النص حرفيًّا، وسكبتُ فيه أَحيانًا بعضَ شرحٍ (غير مبتعِدٍ) للمعنى، إِيضاحًا لتركيبٍ في الإِنكليزية لا تُؤَدّي معناه الحرفيَّ ترجمتُه الحرفية.

إِيضاحًا قلتُ؟ نعم. وأَكثر: ليس في كتابها أَيُّ هامشٍ أَو تعليقٍ في أَسفل الصفحة عن اسم أَو مكان أَو شخص أَو حدَث أَو تفاصيل قد لا يكون القارئُ

الأَميركي في حاجة إِليها لأَنها في واحة ثقافته، أَو هي خارجَ اهتمامه وهو يقرأُ سيرة جبران. لذا، لخدمة قارئي الجديد في العربية، أَكثرتُ في كل صفحةٍ من إدراج الحواشي والمعلومات، نصوصًا أَو صُوَرًا أَو وثائق، تقريبًا سياقَ النص من القارئ، وإِيضاحًا – بالكتابة أَو الصورة أَو الوثيقة أَو النقد أَو التعليق أَو التحليل أَو التوضيح – ما يكون قرأَ في متن النص.

وزيادة في الإِيضاح، أَدرجتُ بالحرف اللاتيني ثَبْتًا كاملًا بجميع الأَسماء الأَجنبية، تسهيلًا لفظَها وفهْمَها واستخدامَها اللاحق بالتعرُّف إِليها في لغتها الأُمّ.



في هذا السياق، جعلتُ كتابي هذا من أَقسامٍ ثلاثة، فيها:

١. ترجمةٌ حرفيةٌ كتابَ باربره يونغ «هذا الرجل من لبنان».
٢. نقلٌ عن الإِنكليزية نصوصًا من باربره يونغ أَو أَنشطةً قامت بها بعد وفاة جبران ولم تَرِدْ في كتابها، استقيتُها من مجلة «العالم السوري» لسلُّوم مكرزل.
٣. وثائقُ وصوَرٌ جلُّها غير معروف ويصدر في هذا الكتاب للمرة الأُولى.



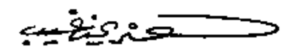
ختامًا

في مقدِّمة كتابي «جبران خليل جبران – شواهدُ الناس والأَمكنة» (٢٠١٢) تساءَلتُ بعنوانٍ جانبي تكرَّر عند مطلع كل فقرة: «يُلاحقني؟ أَم أُلاحقه»؟ لكثرةِ ما شغَلَ جبران حياتيَ الأَدبيةَ كتاباتٍ وأَبحاثًا وندواتٍ ومؤْتمراتٍ عقدتُها عنه، بين بيروت وپاريس ونيويورك.

وفي نهاية تلك المقدمة كتبْتُ: «لعلِّيَ اليوم، بإِصداري في هذا الكتاب كتاباتيَ الكثيرةَ عنه، أَفي تساؤُلي إِن كنتُ أَنا أُلاحقُه كيفما اتَّجهتُ شخصيًا أَو كتابيًّا؟

أَم هو يلاحقني كلَّما دار حديثٌ عنه، أَو حَلَّت مناسبةٌ، أَو انعقَد مؤتمرٌ مَحلّيٌّ أَو دُوَلِيّ»؟

لكنني، مع إِصداريَ هذا الكتابَ الجديدَ اليوم، أَشعر أَنْ لا بُعادَ عنه، وأَن سأَظلُّ أُلاحقُه ويلاحقُني طالَما لبنانُ جنَّتي الأَبديةُ وجبران عنوانٌ عالَميٌّ لهذه الجنة، هو الذي غادر لبنانَ ثلثَ قرنٍ لكنَّ لبنان لم يغادرْ عينيه. ظَلَّ يحنُّ للعودة كلَّ يوم، حتى عاد إِليه ذات يوم إنما... بدون النور في عينيه.





القسم الأَوَّل

هذا الرجُل من لبنان

ترجمة كاملة لكتاب باربَرَه يونغ

مع تحقيقٍ وهوامشَ ووثائِقَ
لأسماء وأماكن ومعلومات وَرَدَتْ في كتابها

THE KNOPF DOUBLEDAY GROUP

ALFRED A. KNOPF · ANCHOR · DOUBLEDAY · EVERYMAN'S LIBRARY
NAN A. TALESE · PANTHEON · SCHOCKEN · VINTAGE · VINTAGE ESPAÑOL

SR Contract #**85253**

AGREEMENT dated this **6th** day of **July, 2018** by and between **THE KNOPF DOUBLEDAY GROUP**, a division of Penguin Random House, LLC of 1745 Broadway, New York, New York, 10019, the United States of America ("Proprietor") and **LEBANESE AMERICAN UNIVERSITY** of **P.O. Box 13-5053, Chouran, Beirut 1102 2801, Lebanon** ("Publisher").

The parties hereto mutually agree as follows regarding a certain work (the "Work") published by the Proprietor as

THIS MAN FROM LEBANON
by Barbara Young (the "Author")

IN WITNESS WHEREOF, the parties hereto have duly executed this agreement the day and year first above written.

For and on behalf of	For and on behalf of
LEBANESE AMERICAN UNIVERSITY	**THE KNOPF DOUBLEDAY GROUP,** a division of PENGUIN RANDOM HOUSE, LLC
By: *Publisher*	By: *Proprietor*

Page 6 *SRC# 85253*

مقدمة وختام العقد بين الجامعة اللبنانية الأَميركية (بشخص رئيسها فترتئذٍ الدكتور جوزف جبرا)، ومنشورات كنوف في نيويورك.

بعدَ سبعة أَشهر على وفاة جبران (الجمعة ١٠ نيسان ١٩٣١)
صدَرَت الصيغةُ الأُولى من هذا الكتاب
بعنوان
دراسة عن خليل جبران – هذا الرجل من لبنان
مختصَرةً في كُتَيِّبٍ من ٤٨ صفحة (تشرين الثاني ١٩٣١)
على نَفَقَة المُؤَلِّفة باربره يونغ
عن «المطبعة السورية الأَميركية» (صاحبُها سلُّوم مكرزل)

وبعد زيارتها لبنانَ وأَماكنَ جبران سنة ١٩٣٩
وسَّعَتْ ذاك الكتيّب إِلى هذه الطبعة بين يديك
وصدر لدى منشُورات كنوف Knopf – نيويورك
طبعةً أُولى الإِثنين ١٥ كانون الثاني ١٩٤٥
وتعدَّدَتْ طبعاتُه متتاليةً مع السنوات

هذه الطبعة العربية
وهي ترجمةٌ حرفيةٌ للنصِّ الأَصليِّ الإنكليزي
تَصدُر بمُوجب عقْدٍ خاص (موقَّع في ٦ تموز ٢٠١٨)
بين منشورات كنوف في نيويورك، والجامعة اللبنانية الأَميركية في بيروت



مريانا بريشة جبران، وهي واحدة من لوحات عدة رسمَها لشقيقته الوحيدة الباقية من أُسرته بعد وفاة والدته وأَخيه بطرس وشقيقته الصغرى سلطانة. ولمساعدتها، بعدما ساعدتْه في مطلع حياته، خصَّص لها في وصيّته كل ترِكَته المالية بعد وفاته.

إلى مريانا جُبران◈

بَارْبَرَه (١٩٤٥)

◈ شقيقةُ جبران الوُسطى. وُلِدَت في بْشَرّي بعده بسنةٍ واحدة (١٨٨٤) وتوفِّيَت في بوسطن عن ٨٨ سنة (الثلثاء ٢٨ آذار ١٩٧٢). لم تتزوَّج. كرَّسَت حياتَها لخدمة جبران والعناية به. نهار الجمعة ١٧ نيسان ١٩٣١، أَي بعد أُسبوعٍ على وفاته، وافقَت مريانا لدى مكتب إدغار سپاير في نيويورك، وبمعرفة محاميه وليام ساكس، على أَن تتولى باربره يونغ تدبير شؤُون جبران في محترفه، وأَن تكون منفِّذةَ وصيَّتِه الأَدبية مخطُوطاتٍ وكتاباتٍ وكتُبًا ورسومًا ولوحات.



١ صبغَت باربره يونغ جميع مفاصل كتابِها هذا، بِمسحةٍ من الـ«هاجيوغرافيا»، وهي كتابةُ سيرةِ قدّيسٍ أو مقاربةُ أعماله. وباتت مع العصور تعني أيَّ كتابةٍ تتناول علَمًا بشريًّا يَرفَعُهُ كاتبُها إلى هالةٍ عُليا من التقديس والتعظيم والتسامي والرفعة، فيصبح أعلى من مستوى البشر وأقربَ إلى مستوى القداسة، حتى لَتُصبح هذه السيرة نوعًا من الـ«هاجيوغْرافيا» أكثَرَ منها مُجرَّد «بيوغْرافيا»، فيُنكرُ عليها مضمونَها الغنائيَّ، ولو صادقًا، مَن يجدون في مبالغاتها التبجيليةِ ابتعادًا عن الواقع (تفاصيلُ أوضحُ عن الـ«هاجيوغرافيا»، وعلاقةِ باربره يونغ باعتمادِها، في فصل خاص من القسم الثاني، ص ٢٩٩ من هذا الكتاب).

استهلال

على سطح هذا الكوكبِ عِرْقٌ من العابرين الغُرَباء، يُقيمون بيننا فترةً ويَدْعوننا خلالها إِخوَة.

لكننا نكتشف أَنهم من طينةٍ أُلوهيةٍ[1] أَرفعَ منا بشريًّا، حتى أَننا – حين نتلقَّى كلامَهم ونَفهمُه، ونقابل أَصواتهم الواثقةَ بأَصواتنا المرتعشة المتردِّدة – نرى كم انّ تلقِّينا إِيّاهم ضئيلٌ مَـحدودٌ حَيَال عطائِهم اللامحدود.

لذا علينا، حين نكتب عنهم، أَن نغُطَّ ريشتَنا بالنُور لا بالحِبر، وأَن نَنسُج كلماتِنا بخيوط الحقيقة العارية لا بأَنسجةِ السَرد المسطَّح. والأَفضلُ بَعد: أَن نجلس خاشِعِين عند قَدَمَي التَذكار، فلا نكتُب إِلَّا حين تَمَسُّنا أُعجوبةُ قُـوَّتِهم وحِكْمتِهم، فتُضرمُ النُور في أَشعّة قلبنا الساكنة، حتى تكونَ كتابتُنا عنهم تَوَهُّجًا يُضيْءُ عتمةَ ليلِنا الغامرة.

ب. ي.



من رسوم جبران

١ في كامل هذا النص العربي سأُبقِي على تسمية «خليل جبران»، الاسم الأَميركي الرسميّ الذي اعتمدَه هو في جميع كتاباته بالإِنكليزية رسائلَ ونُصوصًا ومؤَلَّفات.

قصة هذا الكتاب... كيف؟ لماذا؟

ليست رغبتي أَن أَكتُبَ مُجرَّد نصٍّ، ولو رائعٍ، كسيرة خليل جبران[1].

رغبتي أَن أَكتبَ، بكل بساطة وعفوية، عن جبران الذي عرفْتُه: الرجل بين أَصدقائه، المُنْكَبّ في محترفه على العمل المتواصل بالقلم والريشة، الدَؤُوب بلا كلَل، الحاضر للضحكة وحتى للغناء أَحيانًا، السريع الاستيعاب والمقَدِّر السريعِ نصًّا جيِّدًا من صديقٍ دَؤُوبٍ مثله، المتنبِّه الصائب لمن لا يضع «الكلمة المناسبة في حيثما لا يَصحُّ إِلَّاها».

الكتابةُ عنه بهذا الوضوح الشفَّاف، ليست مجرَّدَ استعادةٍ أُفُقيةٍ أَحداثًا ومناسباتٍ من حياته وإِنجازاته، ووضْعِها في تسلسل زمنيّ سرديّ. لا الوقائعُ، ولا تنسيقُها، ولا روايةُ أَحداثٍ واختباراتٍ، يمكن أَن تعطي صورةً صادقةً عن حقيقة جبران. إِنه من تلك الإِشارات النادرة لقوَّةٍ جبارةٍ لا اسم لها. كانت لصَوته ولشخصه سلطةٌ لا تقارَن بما لأَيّ بَشَريٍّ آخَر. لم يكن كُلِّيًّا من كائنات هذا العالم. المعطيات والنُظُم التي تسود بين الناس العاديين لا تصُحُّ قَطّ على العباقرة. كانت أُمُّ جبران تقول عنه في صباه: «ابني خارجَ أَيِّ تحليلٍ منطقيّ». لا أَصْدقَ من هذه العبارة تَختصره. كانت أُمه، بِحدْسها الأُمومي ونفَسِها الفطري، تعرف أَنّ لابنها دماغًا لن يكتشفَهُ إِلَّا مَن له عُمق التعرُّف لا مجرَّد المعرفة.

The Rev. Dr. William Norman Guthrie, rector of St. Mark's-in-the-Bouwerie, will preach tomorrow morning on "Shall We Rebuild the Temple on the Third Day?" In the afternoon the memorial presentation of Kahlil Gibran's "Prophet" will be given its fifth annual presentation.

إعلان في الصحافة عن قراءة القس وليام غُثري (بعد الظهر) مقاطع من كتاب «النبي» للسنة الخامسة على التوالي. وهذا يناقض قول ميخائيل نعَيمه إن غُثري قرأ من «النبي» مرة واحدة، بحضور جبران، وانقضى الأمر.

٢ عرفَتْ عنه سنة ١٩٢٣، تعرَّفت إليه في محترفه سنة ١٩٢٤، وعرَفَتْهُ منذئذٍ ملازمةً إيّاه باستمرار حتى اصطحابها إياه إلى المستشفى فانطفائِهِ أَمامها على سرير الغيبوبة الأَخيرة ليلة الجمعة ١٠ نيسان ١٩٣١.

٣ Saint Mark's In-the-Bowery ثاني أَقدم كنيسة أُسقفية پروتستانتية في مانهاتن، اشتُهرت بأَنشطتها العَلمانية الدينية كذلك. كان قسّيسُها وليم غُثْري يدعو إِليها الأَميركيين والهنود والبوذيين والبهائيين يقدِّمون فيها عُروضًا ثقافيةً وفنيةً متنوعة، سعيًا منه إِلى الإِكثار من تقاطُر المؤْمنين إِليها. سنة ١٩١٩ انتُخب جبران عضوًا في لجنتها الثقافية، فكانت تُقرأُ فيها، بإِيقاعٍ سنَويّ، مقاطعُ من كتاباته بالإِنكليزية. إِذًا قبل سنواتٍ على تلك القراءة الأُولى مساءَئذٍ من «النبي»، كان جبران معتادًا على قراءة نُصوصه في هذه الكنيسة.

٤ Butler Davenport كاتب وممثل مسرحي (١٨٧١–١٩٥٨) أَسَّس مسرحًا باسمه في نيويورك سنة ١٩٢٣ وأَداره حتى إِقفاله سنة ١٩٤٠.

أَحيانًا – بعد لحظاتٍ مطَّاطةٍ من الانهماك بفكرةٍ هناك، بعيدةٍ حتمًا عن مكاننا وزماننا – كان جبران يبادرُني:

– أُعذُريني. معظمُ الوقت لستُ في الـ«هُنا».

ومَن أَمضى معه، مثلي، ساعاتٍ طويلةً في جلسةٍ واحدة، يومًا بعد يوم، يغدو معتادًا على «غيبوباته» تلك. وأَكثر: يعرفها ويحترمها لديه.

خلال فترات الصمت المتكررة تلك، حين كانت تَنهمل عليه، كان للجلوس في حضْرته فيضٌ من سُمُوِّ الروح: يروح جوُّ الغرفة كلُّه يتعالى، يتسامى، يَمسُّ هواءَها مناخٌ غيرُ أَرضيّ، حتى لَيَحبس الجالسُ نَفَسَهُ خوفَ خَدْشِهِ هالةَ المعبد، وحتى لتُصبح جهدًا مُضْنيًا عودتُه إِلى الواقع الأَرضيّ.

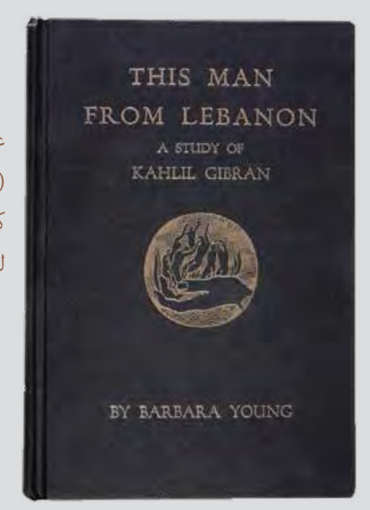
طيلة سنواتٍ سبع مع جبران، وحتى لحظة انطفائه[٢]، كانتْ لي الفرحةُ والنعمةُ معًا أَن أَعرفه شاعرًا ورسَّامًا، وصديقًا حبيبًا غاليًا.

سنواتٌ سبع هي، من الصداقة والعمل كنا خلالها، كما كان هو يقول: «شاعِرَيْن يعمَلان معًا بِاسْم الجمال».

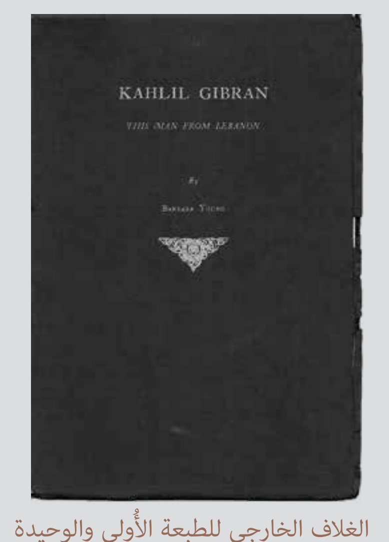
كان جبران يؤْمن عميقًا أَنْ ليس في هذه الحياة الأَرضية ما هو صغيرٌ أَو مصادفة. كان يسميه «استمرار الحياة»، قاصدًا بذلك هذه الحياة الحالية وجميعَ مراحل الوجودِ الحاضنةِ النفسَ البشرية في الآن كما في الما بَعد. كان يرى إِلى كل ذلك «قالَبَ» قدَرٍ حتميٍّ لا قدَرَ خارجَه.

من ذاك «القالَب» أَنْ لم يَكُن مصادفةً وُجودي ذاتَ غروبٍ من خريف ١٩٢٣ جالسةً في كنيسة سانت مارك إِن ذُ باوِرِي[٣]، في مدينة نيويورك، أُصغي إِلى باتْلر داڤِنْپورت[٤] يتلو فُصُولًا من كتاب «النبي» في قراءَةٍ علنيةٍ كانت تَحدُث يومها للمرة الأُولى.

وما إِلَّا طويلًا بعدذاك حتى علمتُ بأَنّ مؤَلِّف هذا الكتاب المذهل كان جالسًا كذلك في الكنيسة غُرُوبَئِذٍ، يصغي إِلى كلماته تتناثر على قلوب المئات من المُصغين الصامتين خُشُوعًا.



غلافُ هذا الكتاب الأَصليُّ في طبعته الأُولى (نيويورك – ١٩٤٥)، وهو ذو غلاف أَسْوَد كما صدرت جميع كتُب جبران بالغلاف الأَسْوَد لدى منشورت كْنوفْ.



الغلاف الخارجي للطبعة الأُولى والوحيدة من من الكُتَيِّب الأَوّل (تشرين الثاني ١٩٣١)، بعد ٧ أَشهرٍ على وفاة جبران.
وهي طبعة خاصة على نفقة باربره يونغ، صدرت عن المطبعة السورية الأَميركية – صاحبها سلُّوم مكرزل، مؤَسس ورئيس تحرير مجلة «العالم السُوري» التي كانت تنشرُ مقطوعات لجبران، وأَصبحت باربره يونغ المسؤولة عن الصفحة الشعرية فيها.



الغلاف الداخي من الكتيِّب



صفحتان داخليّتان من هذا الكتيِّب، مع إِهداء بخط المؤلفة باربره يونغ (كانون الأَول ١٩٣١، أَي بُعَيْد صدوره).

٥ كان محترف جبران في الطبقة العُليا من المبنى ٥١ في ذاك الشارع العاشر غربًا.

٦ كتُبُ جبران لدى منشورات كنوف كانت تَصدُرُ دائمًا بِحجمٍ صغيرٍ وغلافٍ أَسْوَد.

كلُّ ما علمْتُهُ في تلك الجلسة، أَنني سمعتُ حقيقةً جوهريةً ساطعةً تهلُّ عَلَيَّ بجمالٍ وسَطْوةٍ لم أَعرفْهما أَو أَقرأْ عنهما قبل تلك الأُمسية التي، غداتَها، كان ضروريًّا أَن أَقتني نسخةً من الكتاب وأَن أُشاطر بها أَصدقاء لي، أَصدقاء كثيرين. وكان ضروريًّا كذلك، بعد حين، أَن أَكتب إِلى مؤَلّفه الشاعر أُعبِّر له، ولو بتواضُع، عن أَيِّ مدًى عميقٍ رفيعٍ وسيعٍ أَضاف «نبيُّه» إِلى وعيي. وما هي حتى أَشرقَت عليَّ دعوتُه النبيلة أَن أَزور محترفَه «للحديث في الشعر»، وللاطِّلاع على لوحاته.

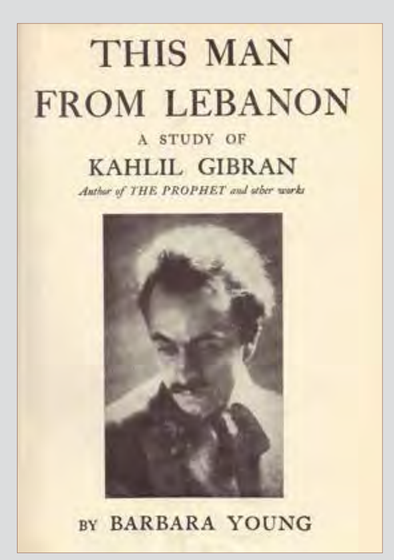
هرعتُ إِلى ذاك المبنى القديم[٥] في الشارع العاشر غربًا، قافزةً درجاتِه اللولبية، لأَلقاهُ هناك، باسمًا، مُرحِّبًا بي كما لو اننا على صداقةٍ أَليفةٍ قديمةٍ سُرعان ما ثبُتَ لنا بُعَيْدَئِذٍ أَننا فعلًا كنا صديقَين قديمَين.

في السائد عادةً أَنَّ أَيَّ تقديرٍ روحَ فنانٍ وجوهرَ نتاجِه يكونُ في مقاربة أَعماله بحياديَّةٍ موضوعيَّةٍ لا ذاتيّة. غير أَن هذه الـ«عادةً» لا تشكِّلُ الحقيقة. مستحيلٌ عليَّ أَن أُقاربَ شِعر جبران ورسمَه بنِظرةٍ حياديَّةٍ كُلِّيًّا. أَقصى ما أَمكنني، عبر السنوات، أَن أَنفصل عن علاقتي الشخصية به كي أَتبيَّن نُبوغَه، عن بعض بُعدٍ، فأَفهمَ نسيجَ عبقريَّته الفريدَة وأُؤْمِنَ بها من مَعرفتي الوثقى ذاتَه العميقةَ كما خَبِرتُها عن قُرب.

ولأَنّي عرفتُ نتاجه قبل أَن أَعرفَ شخصه، أَتَيْتُهُ من خلال شعره، ولم آتِ الشعر من خلاله. موقفي منه إِذًا سابقٌ لِقائِهِ، ولم يتغيَّر بعدَه، ساعدني على ذلك موقفُه: كان يعرف أَنَّ هدفي هو الكتابة عنه، ويودُّ أَلّا تأْتي كتابتي تحت تأْثير الصداقة. وبرغم الاختلاف بيننا في الرؤْية والتفكير، وإِمكان أَن يقول أَحدُنا للآخر: «لا تكتب هذا السطر ولو على جثتي»، كان يرى أَن صِدقيَّتي ككاتبة لن تسمح لأَيّ عاطفةٍ، مهما دَفِئَتْ، أَن تقلِّل من تقدير عمله العظيم.

طيلة سنواتي معه، كلما استعدَدتُ للذهاب إِلى مدينةٍ أَقرأُ فيها من «الكتب الصغيرة السوداء»[٦] أَو أَتحدَّث عن مؤلِّفها، كان ينبِّهُني:

– حين تقفين أَمام الحضور، إِنسي أَنكِ صديقتي.

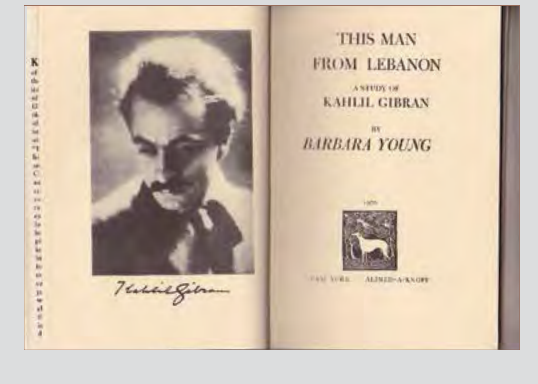




طبعات لاحقة مختلفة
من هذا الكتاب لدى كنوف،
بغلاف ورقي أَو كرتون مقوّى.



الغلاف الأَخير من طبعات كنوف المتتالية:
فوق الصورة عبارة من الناقد كلود براغدون عن جبران
تحت الصورة نبذة تعريفية مختصرة عنه.



الصفحتان الداخليتان الأُولَيان
من طبعات كنوف المتتالية:
على الصفحة اليُسرى دائمًا صورة جبران ذاتُها
وفي أَسفل اليُمنى شعار منشورات كنوف،
وهو من تصميم جبران ورسمه.

٧ كانت باربره تؤْمن، مثل جبران، بعقيدة التناسخ وبأَنّ الإِنسان يتقمَّص فينتقل من دورةِ حياةٍ إِلى أُخرى.

٨ الصفحة ١٤ من ذاك الكتيِّب الصادر سنة ١٩٣١.

٩ كانت تكتب هذه المقدِّمة سنة ١٩٤٤، وصدر كتابُها لدى كنوف سنة ١٩٤٥ في نيويورك.

هذا التنبيه راح يعينني تدريجيًّا لا على «نسيان» صداقتنا بل على الانفصال عنها والتحدُّث عنه كما قبل لقائنا. ذلك أَنَّ داخلَ أَغلفة كتُبه كلماتٍ ذاتَ قوةٍ وسطوةٍ تطْغَيان دائمًا على كل شعور آخَر، وكذا لا تزالان.

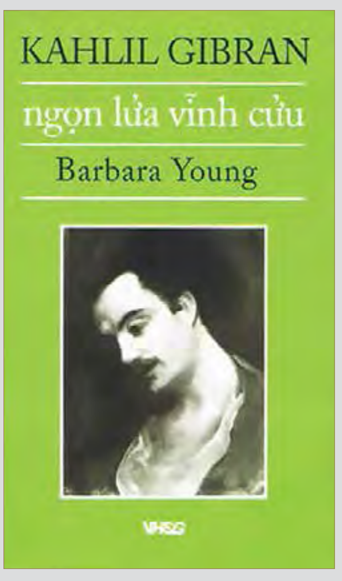
سنة ١٩٣١، بعد بضعة أَشهر من اختتام جبران دورتَه في هذه الحياة[٧]، وضعتُ كتيِّبًا ضئيلًا عن هذا الرجل من لبنان، تلبيةً أَسئلةَ مئاتٍ: «أَين يمكننا أَن نقرأَ معلوماتٍ عنه»؟، فلم تكن صدَرَت بعدُ عنه بالإِنكليزية سوى بضع مقالات موجزة.

ذاك الكتيّب كنتُ وضعتُهُ في حالةِ حزنٍ موجِعةٍ، وانهماكٍ متواصلٍ في جمعٍ دقيقٍ موادَّ وأَغْراضًا تركها جبران في المحترف الذي سَكَنَه ثمانيةَ عشرَ عامًا. كثيرةً كانت تلك الموادُّ وغاليةً على قلبه وعلى قلوب أَصدقائه الكثيرين. وغرباءَ كانوا طيلة السنوات يزورونه فلا يعودون غرباء. كان عليَّ أَن أَجمعَها وأُرسلَها، بناء على رغبته، إِلى بلدته بْشَرّي في لبنان.

مئاتٌ من الرسوم واللوحات في المحترف، نصفُها على الأَقلّ لم أَكن رأَيتُه. كانت مكدَّسةً على رفٍّ عالٍ، صفًّا فوق صفّ، مهمَلَةً يتآكلُها الغبارُ والإِهمال. ونشطَت أَيدٍ شابَّةٌ جاءت تساعدني في الجمع والحزم: لبنانيون وأَميركيون مُخْلصون تطوّعوا بدافع الفرح والحزن معًا، شاعرين بخصيصةِ هذا العمل حتى أَعانوني على إِتْـمامِه.

في ذاك الكُتيِّب الصغير كنتُ كتبتُ: «ما زلنا قريبين جدًّا من جبران مكانًا وزمانًا حتى نكتب سيرة حياته، وما زالت الأَرض تستشعر سحر حضوره حين تفتح أَبوابَها، وما زال صدى صوته يترجَّع في أُذنيها»[٨].

بعد ١٣ سنة على كلماتي تلك[٩]، أَراني لا أُغيِّر فيها كلمةً واحدة. بل أُؤَكِّد أَنْ لا «سحرُ حضورِه» خَفَّ، ولا «صدى صوته» خَفَتَ في أَسماع المُنصِتين. وما زالت تتناهى من أَربع جهات الأَرض عباراتٌ: «جبران ما زال حيًّا بيننا أَكثرَ من قبل»، «في هذه الأَيام الشاحبة ما زالت كلماته تقوِّي قلبي كلما اضطَرَب من حزن»، «كتابه حَدّي على مِنضدة السرير، لا أَدلُف إِلى النوم قبل أَن أَقرأَ منه ما أَحمله معي إِلى عتمة الليل الرهيبة».



لاقى كتاب باربره يونغ «هذا الرجل من لبنان» رواجًا واسعًا لدى صُدُوره بالإنكليزية، فتلقَّفَتْهُ ترجمات عدة إلى لُغاتٍ أُخرى.

لكلّ ذلك ولجميع هؤُلاء، كان هذا الكتاب الآنَ بين يديك: ليس سيرةَ جبران ولا تسلسلَ أَحداث. قال لي يومًا:

– أَن أَسرد لكِ ماذا أَنجزتُ، لا يعني أَنني قلتُ لكِ من أَنا.

لذا ليس كتابي الجديدُ هذا بحثًا في نسَبٍ ولا في شجرة عائلة. إِنه قصة بسيطة عن رجلٍ عظيمٍ كما عرفتُه طيلة سنواتٍ سبعٍ سبقَت غيابه، كانت خلالها لحظاتُ وعيه ونتاجه في أَرقى عطائها، رجلٍ عظيمٍ كان بسيطًا في ذوقه ورغباته بساطةَ الأَرض ذاتها، رجلٍ كان، وهو في بيته، يسكن العالم الأَعلى لا بيتَه على هذا الكوكب، رجلٍ كان يشتعل بلهب الشغف المضني في حياةٍ إِلهية ظلَّت تطوِّق أَحزمةَ جسده حتى قصَّفتها.

لا حدَّ لِما كان يودُّ عطاءَه في عالم الرسم والأَدب، عربيًّا وإِنكليزيًّا. لكن تلك العطاءات لم تكن القمةَ التي كان جبران ارتقاها. قمتُه الرائعة، والأَبقى على الزمان، ليست بقلمِه على الورقة ولا بريشتِه على القماشة، بل في روحه الخالدة الأَسمى من روح الجنس البشري.

كلماته إِذ يتكلم، حكمتُهُ إِذ ينصَح، فضاءُ إِيمانه المطلَق بالرب الواحد إِله جميع البشر، حبُّه المطلقُ الشَغوفُ المتفهِّمُ جميعَ الناس أَبناءِ الخالق الأَوحد، تلك عطاءاتُهُ آلافَ الناس كي يَهتدوا إِلى كنوز حياتهم ويُوْرثوها أَولادَهم وأَحفادَهم.

لو انه لم يكتب قصيدةً ولا رسَمَ لوحةً، وحده اسمُه على صفحة القدر الأَبدي كافٍ فلا يمحوه الزمن.

قوَّة شعوره الشخصي أَوسعُ من الشعور بالعُمر، وروحُه المقيمةُ في الزمان لا زمنَ يَحُدُّها ولا يطفئُها غياب.

هذا هو جبران.

ب.ي.

مدينة شارُن، ولاية كونيتيكت
نيسان ١٩٤٤



في إِحدى يوميات ماري هاسكل كلام عن نشأَتها.
هنا صورة لها (الدائرة حول وجهها) في صباها مع أُسرتها (مدينة كولومبيا – ولاية كارولاينا الجنوبية) قبل أَن تغادرها إِلى بوسطن حيث التقت لاحقًا بجبران وكان بينهما ما كان. (الصورة غير منشورة سابقًا، وهي هدية خاصة من إِليزابيت ديڤيس (نسيبة ماري هاسكل) إِلى هنري زغيب.

١ هذه «التسمية» ستُكرِّرُها باربره يونغ مرارًا في متن الكتاب، كأَنما تُردِّدُها بِإِيمانٍ وتقوى. لعلَّها تأَثُّرًا أَخَذَتْها عن «رجُل من لبنان»، عنوان الفصل الأَخير في كتاب «يسُوع ابن الإِنسان» الذي أَمضَت ساعاتٍ طويلةً متتاليةً في محترف جبران يمليه عليها وهي تدوِّنه ثم تَعمد إِلى طبْعه فصولًا على آلتها الكاتبة كي تعيدَها إِليه ينقِّح ويعدِّل، قبل إِرساله إِلى الناشر كنوف.

٢ هذا الشغف رافقَه دائمًا حتى عَنْوَنَ آخر كتبه العربية: «العواصف»، وَوَرَدَت العاصفة في أَكثرَ من سياقٍ بين كتاباته. وفي دفتر يوميَّات ماري هاسكل (السبت ١٤ كانون الثاني ١٩٢٢) تذكُر أَنْ قال لها يومًا: «أَوَّلُ لحظةٍ كبرى أَذْكُرُها من طفولتي: كنتُ في الثالثة يومَ هبَّت على بْشَرّي عاصفة مجنونة، فمزقتُ ثيابي وخرجْتُ عاريًا أَتلقَّاها. وكرَّرتُ ذلك مرارًا بعدها، ومن تلك الطفولة بدأَ تعلُّقي بالعَـواصف وانتظاري إِياها». وفي رسالة إِلى ميّ زيادة (الأَربعاء ٢٨ كانون الثاني ١٩٢٠) كتَب: «أُحبُّ عواصفَ الثلج محبتي كلَّ أَنواع العواصف. وسأَخرجُ في هذه الدقيقة وأَمشي تحت هذه العاصفة البيضاء».

٣ لوضع هذا الكتاب (بدأَت تكتُبُهُ في آذار ١٩٤٤) انعزَلَت باربره يونغ في «شارُن» (ولاية كونيكتيكَت)، وهي قرية صغيرة من نحو ١٥٠ كلم²، معظم مساحتها من المياه.

٤ ١٩٣١–١٩٤٤: انطفاؤُهُ في مستشفى سانت ڤنْسِنْت – نيويورك.

٥ ١٨٨٣–١٩٤٤: ولادتُهُ في بْشَرّي – لبنان.

كُنْتُ صغيرًا بركانًا

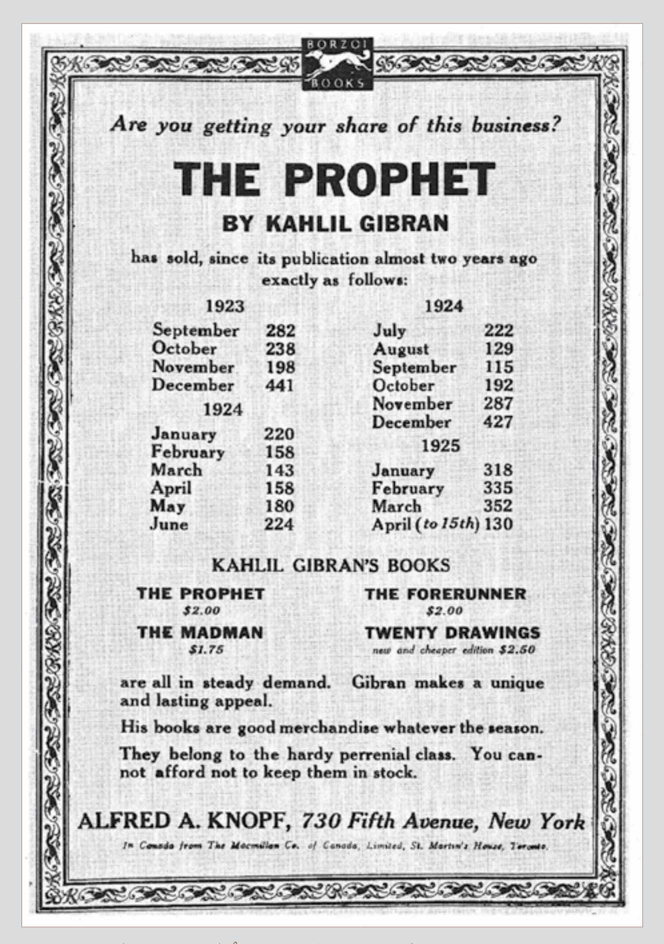
في الخارج عاصفةٌ تتقصَّفُ هائلةً من الفضاء: على الأَرض يتدحرج مهيبًا طوفانٌ عظيم، الأَشجارُ في دُوارٍ من جنون الريح، وأَنا في غرفتي أَكتُبُ هذه الكلمات عن خليل جبران، **هذا الرجل من لبنان**[1]. كأَنَّ ما يعصف في الخارج حولي فأْلُ خير لهذا الكتاب، فمنذ طفولة جبران كان لديه شغفٌ بالعواصف[2]. وكم قال لي أَنْ كلَّما هبَّت عاصفة، كان فيه ما يتفلَّت، يتحرَّر، ينطلق بكُل عظمة.

هذا النهارُ الجامح من آذار، في هذه القرية الصغيرة النائية[3]، مناسبٌ جدًّا هذه السيرةَ التي أَنا إِليها.

نحن في سنة ١٩٤٤، أَي بعد ١٣ سنة[4] على مغادرة جبران عواصفَ هذا العالم الذي أَحَبَّه، وبعد ٦١ سنة[5] على وُصُوله إِليه من باب الولادة. في مقياس الزمن الأَرضي قصيرةً كانت حياتُه. لكنه لم يعِشْها ولا كان يفكِّر بمقياس الزمن الأَرضي. كانت على شفتَيه دائمًا عبارةٌ: «لنا الخُلود»، لا اتفاقًا يردِّدُها بل إِيـمانًا وجَّهَ حياته كلَّها. كان يقول: «الروح أَوسَعُ من المكان، أَقوى من الزمان، أَعمقُ من البحر، أَرفعُ من النجوم».

طوال حياته كان منشغلًا بالأَعماق التي يعرف أَن روح الإِنسان قادرةٌ على الغوص إِليها، وبالقمم المقدَّر للإِنسان أَن يرتقيها.

ذات يومٍ كتب: «الخطيئةُ ليست موجودةً إِلَّا كما نحن خلقناها. لذا علينا نحن أَن ندمِّر شَرَّها. إِذا اخترنا أَن نخلق شيطان الشَرّ، سيبقى موجودًا حتى ندمِّره.



بيان إعلانيّ من منشورات كنوف (سنة ١٩٢٥) يُظهر تتالي طبعات كتاب «النبي» (منذ صدوره في أَيلول ١٩٢٣) وعدد النُسخ المباعة خلال سنتين من كل طبعة، والإعلان عن ثلاثة كتُبٍ أُخرى له (مع ثمنها) صادرة كذلك لدى كنوف: «السابق»، «المجنون»، «٢٠ رسمًا».

٦ تستعير باربره يونغ هنا هذا التشبيهَ من طبيعة العلاقة بين فْرِدِريك نيتْشِه (١٨٤٤–١٩٠٠) وريتشارد ڤاغْنِر (١٨١٣–١٨٨٣= سنة ولادة جبران)، وهي كانت نِظرةَ إعجابٍ متسامٍ من الفيلسوف أَمام المؤَلِّف الموسيقي العبقري، ظهرت في كتاب «هُوَذا الرَجُل» (سيرةً نيتْشِه الذاتية. أَنْجَزها سنة ١٨٨٨ قبل دخوله في الاختلال العقلي، ولم يظهر الكتاب إِلَّا سنة ١٩٠٨، أَي بعد ٨ سنوات على وفاته)، وفيه عبارتُه الشهيرة «أُحبُّ ڤاغنر»، إِثْر حضورِه أُمسيتَه الموسيقيةَ في مدينة بايروث الألمانية (باڤاريا – أَيَّار ١٨٧٢) وانطلاقِ مراسلةٍ بينهما ظهرَت فيها نِظرة نيتْشِه الإعجابيَّةُ إِلى ڤاغنر، هي التي استعارتها باربره يونغ فشبَّهت بها نِظرة الغرب إِلى جُبران.

أَمّا الخير فلا نخلقه نحن لأَنه موجودٌ أَصلًا في نَفَس الكون، وخيارُنا أَن نتنفَّسَه فنعيشَ به ومعه».

هذا هو جبران.

الغَربُ يعرفُه شاعرًا ورسَّامًا ومؤَلِّفَ «النبي»: «الكتَيِّبِ الأَسْوَد» الذي قال هو عنه: «فيما كنتُ أَكتُبُهُ كان النبيُّ يكتبني».

والغربُ يعرفُه رجلًا ذا رؤْيا روحيةٍ واسعة وأَحلامٍ بعيدة، رجلًا لطيفًا، مُحِبًّا ومَحبُوبًا، موهوبًا بِحِسٍّ فريدٍ للمرح، وبعطاءٍ سَماويٍّ للصداقة.

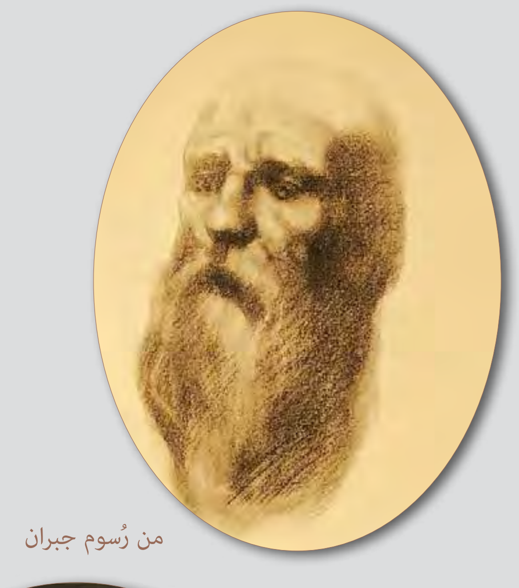
وفي الغربِ قلائلُ يرون إِليه ما كان نيتشه يرى أَنَّ ڤاغْنِر: «يُحقِّق جميع رغباتنا. إِنه روحٌ غنيةٌ عظيمةٌ عُليا، ذو طاقةٍ حيوية كبرى، ومرحٍ نادر، مستحقٌّ كلَّ الحب، متوهِّجٌ بالحكمة. لا يعرفه أَحدٌ في العالم، ولا يمكن أَن يحْكُمَ عليه أَحد، لأَن مبادئه مغايرةٌ بناءَ أُسس العالم، ولذا بقيَ ضائعًا في متاهات الدنيا. إِنه مؤْمنٌ بمثاليةٍ مطْلَقة وبإِنسانيةٍ عظمى، حتى أَنني في حضْرته أُحسُّني في حضرةٍ إِلهيَّة»[٦].

أَما في الشرق فيعرفون جبران الآخَر، أَو معظمَه. يعرفون الرجل الذي كان فولاذًا من مخمل، سيفًا من حرير، الذي كتابُه الجريْءُ «الأَرواح المتمردة» أَغضَب الكنيسة، وأَثار الأَمبراطورية العثمانية، والذي – في حياته القصيرة – تَمكَّن من ابتداع أُسلوبٍ مغايرٍ أَسَّس به مدرسةً أَدبيةً جديدةً في الأَدب العربي، وكان لسنواتٍ لاحقةٍ مثالَ شعراء عربٍ شبابٍ سيَرَون إِليه معلِّمًا وأَباهم الروحي.

على الصفحة الأُولى من كتابِ قصائدَ بالعربية، نحيلٍ وجدْتُهُ على طاولته صباحَ يومٍ في أَواخر حياته، قرأْتُ هذا الإِهداء:

إِلى قيامة الشعرِ الخالِدِ
إِلى الشُعلة الروحية التي أَيقظَت روحَ الشرق
إِلى جبران خليل جبران، معلِّمِنا
أُهدي كتابي هذا
وهو صدًى لصدَى صوتِه.

وفي الشرق مَن رأَوا إِلى جبران عقلًا نَيِّرًا، لا حدودَ لِوَساعته وعُمْقه، مُفكِّرًا بلغ مع السنوات ثقافةً معرفيَّةً شاملة، ومبْدعًا تَمَكَّن ذات يومٍ، للدُعابة التسلوية، من أَن



من رُسوم جبران



٧ لم أَجد مرجعًا عن جبران ذكَر هذا الأمر موثَّقًا، سوى أَن تكون باربره يونغ نقلَت الحادثةَ بأَمانةٍ عن جبران. ولعلَّ تلك النسخة من الكتاب بلغت أُمَّه كامْلة من منشوراتٍ إِرساليةٍ كرمليَّةٍ إِيطاليةٍ كانت عهدذاك تسكنُ دير مار سركيس في بْشَرّي.

يُملي في وقتٍ واحدٍ على ثلاثِ مساعِداتٍ، في ثلاثِ لغاتٍ معًا، ثلاثةَ مواضيعَ مختلفة، ورجُلًا اغتذى من ينابيع أَرضه الأُم في لبنان الذي كان دومًا يحلم له بمستقبلٍ زاهر، ويخطِّط له في صمته أَنظمةَ تحريجٍ وزراعةٍ وحلولًا لصعوباته الاقتصادية والسياسية. وفي ذلك كان يقول: «أَكثر ما يحتاجه لبنان: غنيٌّ بنحو خمسة ملايين دولار، وربما أَكثر، يعمل بضميره لنمُوّ لبنان وتطويره، ولتحقيق ذاته الوطنية».

الأَقلُّ شهرةً في العالم، شرقِه والغرب، هو جبران الرسام الذي ترك إِرثًا رائعًا لا يحلم به سوى بضع مئاتٍ على هذا الكوكب. وفي كتُبه الإِنكليزية العشْرة رسومٌ معبِّرةٌ وساطعة، هي لُمَحٌ جواهرُ من ميراثه العظيم.

لم يكن يحتاج لتدوين فكرةٍ سوى قصاصةٍ من ورق، وسوى قِرميَّةٍ من قلم رصاص وبضع لمَسات خفيفةٍ وُثقى يغمسها في جوهر الجمال فيُبدع على الورق إِبداعَه بريشته وأَلوانِه على قطعةٍ من قماش.

وأَرى، دون الخشية من تناقضٍ أَو مبالغة، أَنَّ جبران، حين يَصدر حُكْم السنين عليه، سيكون في اللاأَدنى من مرتبةٍ واحدةٍ مع أَسياد هذا الفن التشكيليّ، بفضل عطيَّة إِلهية لا نجد تسميةً لها. حين كانت يراعتُه تَمَسُّ الورقةَ أَو ريشتُه القماشةَ، تكتسي هاتان قوةً حيويةً نابضةً تنقلُهما من مَواتِهِما إِلى حياةٍ دائمة.

كان يُسأَل مراتٍ عن أَيٍّ يعتبرُه إِبداعَه الأَحَب: شعرَه أَم رسمَه، فكان يبتسم عميقًا، حتى أَنه يومًا أَجابَ والدَ توأَمين: «أَيُّ ولَدَيْك تُحسُّه الأَقربَ إِلى قلبك؟».

كلتا الموهبتين حملَها منذ طفولته:

كان في الرابعة حين شقَّ يومًا حُفرةً في حديقة البيت، زرع فيها نِثارَ ورَقة ممزقة آملًا أَن تُكوِّن جُذورًا تنمو جُذوعًا فأَشجارًا عاليةً يقطف منها أَوراقًا بيضًا يكتب عليها ويرسم.

وكان في السادسة حين أَهدتْهُ أُمُّه يومًا كتاب صُوَر لداڤنتشي، ما إِن قلَّبَ منه بضعَ صفحات حتى انفجر في نوبةِ بكاءٍ وخرج راكضًا من الغرفة كي يبتعدَ وحيدًا. ومنذئذٍ شُغِفَ بِليوناردو حتى أَنه، حين وبَّخه يومًا والدُه على ذنبٍ اقترفه، صاح في وجه أَبيه: «وما شَأْنُكَ بي؟ أَنا إِيطالي»[٧].



من رُسوم جبران

٨ غريبٌ أَنْ لا مرجع يَذكُر وجودَ مربِّية تعينُ كاملة رحمة على تربية أَولادها. ولعلَّ هذه من «شَطحات» جبران، مُدركًا أَنّ باربره ستكتُب سيرته، فكان يخبرها ما يريدُ هو أَن تَذكُر عن طفولته في تلك السنوات المبكرة.

٩ أَوردَت يونغ هنا كلمة «نيسان» بلفْظها العربي Nisan لا بمرادِفتها الإِنكليزية April، تَشَبُّهًا باستعمال جبران إِيَّاها. ففي الكتابة الأُولى للصفحة الأُولى من مطلع «النبي» كان جبران كتَب: «... وفي السنة الثانيةَ عشْرةَ، في اليوم السابع من نيسان، شهر التجدُّد...» [وكتَبَها بلفظها العربي Nisan]، ثم شطَب العبارة وكتَب: «... وفي اليوم السابع من أَيلول، شهر الحصاد» [وكتَبَها بلفظها العربي Ielool، لا بمرادِفتها الإِنكليزية September].

١٠ هنا أَيضًا أَوردَت يونغ كلمةَ «تموز» بلفظها العربي Tammuz للإِشارة باللفظ الأَصلي إِلى تموز إِله الخصوبة عند البابليين، وهو عند الفينيقيين الـ«أَدونُ» الذي صرعَه الخنزير البَرّيّ فتخضَّبَت بدمه مياهُ النهر ونبتَت حمراءَ الشقائقُ منذئذٍ. وهذه حتمًا من مرويَّات جبران لباربره عن أَساطير بلاده.

وكان يتساءَل أَمامي أَحيانًا: «لا أَفهم كيف كانا يحتملانني. وحدها أُمي، دون سائر الناس، كانت تَفهم ذاك الولد الغريب. بركانًا صغيرًا كنتُ، وزلزالًا فتيًّا».

أَخبرني يومًا عن مطرٍ عاصفٍ راح ينهمر ذات صباح وسمعه يناديه، باسمِه يناديه، فخلع ثيابَه، حتى الداخليةَ، وخرَج عاريًا يلبِّي نداء المطر، إِلى أَن لحقَت به أُمُّه ومربِّيتُه[٨]، لاهثَتَين، وأَعادتاه وهو يُعاند ويَرفض الدُخول إِلى البيت.

قصائدُه الأُولى لم تكن من كلماتٍ بل تماثيلَ من ثلجٍ ومحفورات من حجارة. هكذا وُلِدَت بين يديه في حديقة والده شتاءً أَشكالٌ غريبةُ الجمال غيرُ طفولية، يمر بها الجيران مردِّدين: «أُنظُروا ماذا صنعَت يدَا جبران الصغير».

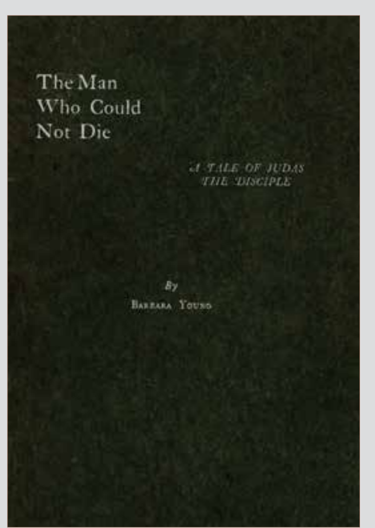
وحين يهلُّ الربيعُ، نيسانُ الشرق الجميلُ[٩]، ويذوبُ الثلج وتتفتَّحُ في لبنان الشقائقُ الحمر «مصبوغة بِدَم تموز[١٠]»، يحمل الصبيُّ الحجارة ويروح يشذِّبُها بانيًا بها كنائس وكاتدرائياتٍ في ظلال أَشجار الحديقة.

وما هي حتى بات يمكنه أَن يكتب، فأَشاح فترةً عن تشذيب الحجارة، وجعلَ يكتب في توترٍ، صفحةً بعد صفحةٍ يكتب، حتى إِذا قَرأَ ما يكون كتَب، مزَّق الورقة نتفًا. وشرح لي أَنْ «لم يكُن ذاك أَبدًا ما كنتُ أُريد أَن أَقول».

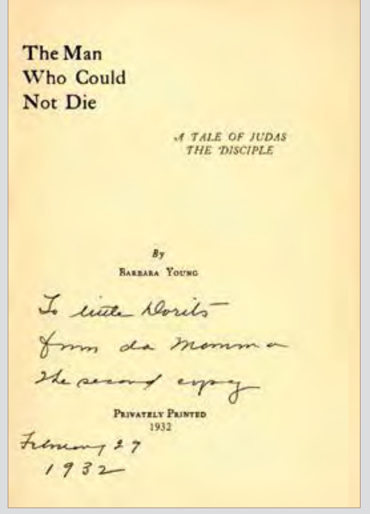
ثمَّ تسنَّت له أَقلامُ رصاصٍ وأَقلامُ تلوين، فأَخذَ يرسُم ويلوِّن بشغفٍ غريبٍ لصبيٍّ في سنه، لكنه فور انتهائه من الرسم كان يرتدُّ على الرسوم يُمزِّقها «لأَنها لم تكن أَبدًا كالتي كنتُ رأَيتُها وعينايَ مغْمَضتان».

يذكِّرني هذا بيَومٍ من ١٩٢٩، والمحترَفُ – الذي أَمضى فيه أَكثر من خمس عشرة سنة – غارقٌ في ورشة تجديدٍ ودِهانٍ، كيف كان يتأَمَّلُ في مئاتٍ من الرسوم والأَوراق والمخططات، ثم راح بكل هدوءٍ يمزِّقها بدون تمييزٍ رافضًا أَيَّ ثَنْيٍ عن ذلك.

تلك الفترةُ الباكرةُ من حياته بقيَت ماثلةً في باله فلم يخرُج من تذكاراتها حتى عند غروب حياته. كان يتحدَّث كثيرًا عن أُمِّه، ويردِّد عن حنانها أَحداثًا صغيرةً تُثير فيه وفِـيَّ لحظاتٍ من دموعٍ تعقبُها لحظاتٌ من ضحكٍ على أَننا بَكَينا.



غلاف كتاب باربره يونغ «الرجل الذي لم يستطع أَن يموت» – حكاية عن الرسول يهوذا (يوضاس، أَي رسول من رُسُل تلميذ يسوع). وهو صدر سنة ١٩٣٢ (بعد عامٍ على وفاة جبران) في طبعة خاصة على نفقة المؤَلِّفة.



إِهداء من باربره يونغ بخطِّها (٢٧ شباط ١٩٣٢)



نشرَت باربره يونغ في كتابها هذا رسمًا لجبران بتوقيعه (١٩٠٩). الأَرجح أَنه من مجموعتها الخاصة: كان جبران، خلال جِلساتها إِليه في محترفه طيلة ست سنوات متتالية، يهديها تباعًا رسُومًا له ولوحاتٍ نشَرَت منها لاحقًا في مؤَلفاتها.

١١ توفِّيَت، دون الخمسين، ليلةَ الأَحد ٢٨ حزيران ١٩٠٣، بعد ١٤ شهرًا على وفاة ابنتها الصغرى سلطانة (السبت ١٢ نيسان ١٩٠٢) وثلاثةِ أَشهُرٍ على وفاة ابنها البكر بطرس (الخميس ١٢ آذار ١٩٠٣). بعد خمس دقائق من انطفائها وصلَ جبران وصدَمَه منظرُها ميتةً، فأَصابهُ دُوارٌ قويٌّ وسقَط أَرضًا ينزف من فمِه وأَنْفِه.

حدَّثني يومًا عن لعبةٍ كان يزاولها معها. «أُمِّي كاملة رحمة» كما يجِبُّ أَن يَذْكُرَها. كان في طُفولته يرفعُ كَفَّيه الصغيرتَين إِلى عينيه ويصرخ لها:

– لن تقدِري بعدُ أَن تجدِي جبران. لا يُمكنُكِ أَن تَـرَي أَينَ هو.

فتجيبُهُ أُمُّه:

– صحيح، لا أَراه. أَين جبرانِيَ الصغير؟ أَضعتُه.

فيَحسُرُ كَفَّيه عن عينيه ويفتح ذراعيه فرِحًا: «ها أَنذا هنا. الآن تَرَينَني».

أُمُّ ذاك الصبيّ، كاملة رحمة، كان لها من الحكمة ما لم يكُن لأُمَّهاتٍ أُخْرَيات. منذ طفولته الأُولى حَدَسَت بأَنَّ في عروقه يسري شغَفٌ بالحرية كان بَعدُ مكبوتًا.

كم أَمضى ساعاتٍ، وهو طفلٌ، متأَمِّلًا في كتاب ليوناردو، أَو سارحًا في البعيد، أَو متَطلِّعًا إِلى الشمس بعينَين لم يكن يبهرهما نورُها الساطع.

وكم ساعاتٍ أُخرى يُمضي هادئًا كليًّا فيما أُمُّه تدندن له أُغنياتٍ جبليةً خفيفةً بـ«صوت كاملة رحمة» الذي «ما زال أُسطورةً في لبنان»، أَو فيما تروي له من حَكايا هارون الرشيد أَو من أَشعار أَبي نواس.

كان يقول عنها: «روَت مئاتِ القصائد لكنها لم تكتُب واحدة». وكان يقول: «الأُغنية التي تَسكُن صامتةً في قلب الأُم تزهرُ أُنشودةً على شفتي وليدها».

وهذا صحيح: حين كان يردّدُ قصائدَه الكثيرة، كان يُنشدُ أَغانيه وأَغانيها معًا. وحين ماتت[١١] قال: «ها حياتي تكفَّنَت. لا لأَنها كانت أُمي بل لأَنها كانت صديقتي».

وقد تكون تذكاراتُ طفولته هي التي دفعتْه إِلى القول بإِيمانٍ إِنّ «في كل إِنسانٍ بُذورَ فنان... قد يتعلَّم الطفل أَن يَرسم عصفورًا بسهولةِ أَن يكتب الكلمة. قد يصوغُ القوافي فيما يتدرَّبُ على صوْغِ الـجُـمَل. وقد يتلقَّنُ كيف يُشَكِّلَ بالطين فيما يتدرّبُ على البنيان بالحجارة الأُولى».

وبالفعل، هوَّمْنا كثيرًا حول هذه الفكرة في التربية والتعليم، لكننا لم نتنبَّهْ إِلى أَهمية ما قد يُنتِجُه منهجٌ تربويٌّ يُبْنى على هذه الفكرة. وما انتبَهْنا – حقًّا لم ننتَبِه؟ – إِلى أَنْ ليس في الدنيا إِلَّا لغةٌ كونيَّةٌ وحيدة لها تعبيرٌ كَونيٌّ واحدٌ: الفن.



من رُسوم جبران

١ فردريك أُوغدن ناش (١٩ آب ١٩٠٢ – ١٩ أَيار ١٩٧١): شاعرٌ أَميركي ساخر اعتمدَ أُلعبانياتٍ لفظيةً في مقطوعات هازلةٍ خارجةٍ عن كل وزن شعريّ ونُظُمٍ نَمَطيّة.

٢ صموئيل (سام) هوفِّنْشتاين (٨ تشرين الأَول ١٨٩٠ – ٦ تشرين الأَول ١٩٤٧) كاتبُ سيناريو سينمائي اشتهرَت أَفلامه بالسخرية والـهَزل والـمَرح.

«خَطِرٌ، ثوريٌّ، مُسمِّمٌ عقولَ الناشئة»

بين وجوه جبران المتعدِّدة، وجهُ طفلٍ يلهو بالحياة. ويمكنني القولُ، بكل صدقٍ، إن قليلين جدًّا رأَوا في ذاك الرجل العظيم وجهًا مُتغضِّنًا وساحرًا معًا، لا يتجلّى إلّا نادرًا، في ومَضاتٍ سِراعٍ، وعادةً بعد ساعاتٍ طويلة من العمل الإبداعي، حين يُرهقه ضَنى عبقريَّته فينزعُ ذاك الوجه، ينهض عن كرسيِّهِ، أَو – إذا كان يذْرع الغرفة – يستديرُ فجأَةً، وبتعبيرٍ في وجهه المُتغَيِّر أَقلُّ ما يوصف بأنه عَبوس، يبادرُني:

– الآن... سأُملي عليكِ أَبياتًا من الشِعر الأَميركي الحديث.

ويروح يرتجل فقْرةً مرحةً، أَو مقطعًا عبثيًّا لا معنى له، في نبرةٍ ساخرةٍ تبزُّ أُوغْدِن ناش[1] أَو صموئيل هوفِّنْشتاين[2] في أَفضل هزْلِهِما.

ونروح نضحكُ، نضحكُ في قهقهاتٍ طويلةٍ عميقةٍ مُنفرجةٍ مريحةٍ حتى لَتنزلق الدموعُ على وجَناتنا. وغالبًا ما كانت تتكرَّرُ محاولاتٌ شبيهةٌ ضاحكةٌ في لَحظاتٍ أُخرى من ذاك السياق الساخر. وقد يحلو له الرقص، فيَضَع يده على خصره، ويروح يدور مكانه، كراقصةٍ على المسرح محترفةٍ تتغاوى على رؤُوس أَصابعها، فيقلِّد بدِقَّةٍ غوايتها. ومن جديد: نغرق في لحظاتِ ضحكٍ وقهقهةٍ تريحه أُويقاتٍ من الإِرهاق والضنى.

خلف هذا الجبران الذي يكتب ويخاطب الكبار، بكل وعيِهِ قيمتَه وأَهمية نتاجه، يقف جبرانٌ آخرُ خَجولٌ، متحفِّظٌ، مُنْطَوٍ على ذاته، يتصرَّف أَحيانًا كالطفل

٣ ميخائيل نعيمه عرَّبَها: «أَنا نبأٌ كاذب» (فصل «نبأٌ كاذبٌ» من كتابه عن جبران). روى عن عشرة أَيَّامٍ من حزيران ١٩٢١ أَمضاها مع جبران ونسيب عريضة وعبدالمسيح حداد قرب شلاَّلٍ داخلَ غابةٍ في مزرعة كاهونزي (١٠٠ كلم عن مدينة نيويورك). كتَب نعيمه حرفيًّا: «... قطعْنا مسافةً من الطريق على وقْع أَفكارنا الصامتة، والأَشجارُ عن جانبَينا تستقبلنا وتشيِّعنا صامتة. ونحن كذلك، إِذا بِجُبران يقف فجأَةً ويضرب الطريق بعصاه، وينادي: «ميشا»، فأَقف مثلَه وأَلتفِت إِليه فأَرى بهجةَ الشلَّال قُربَنا طارت من عينَيه وحلَّت مكانها سحابةٌ من الكآبة المريرة. ثم ناداني ثانيةً وقال: «ميشا، أَنا نبأٌ كاذب». وأَطرَق من جديدٍ وعاد إِلى الصمت. ومِن كل الوِقفات التي وقفتُها وجبران خلال خمس عشرةَ سنةً، لستُ أَذكر وِقفةً كانت أَبعدَ أَثرًا في نفسي من تلك اللحظة. ومِن كلِّ ما قاله لي، منذ التقَينا حتى افترقنا، لم يَهُزَّني شَيْءٌ مثلما هَزَّتْني تلك الكلماتُ الثلاث» (نعيمه، ص ١٩٥). وفيلكس فارس (في كتابه «رسالة المنبر إِلى الشرق العربي») لام نعيمه بقسوةٍ حادَّةٍ على ترجمتِه عبارةَ جبران بهذا الشكل.

٤ روى القصةَ كاملةً في رسالةٍ إِلى ماري هاسكل (الأَربعاء ٢١ أَيَّار ١٩٢٤). هي صفقةٌ تورَّط بها، مع شريكٍ لبناني (فارس معلوف) في شراءِ بنايةٍ مزدوجةٍ رقم ٤٠٩–٤١١ ذات سبْع طبقات عند زاوية شارع مارلبورو على جادة ماساشُوسِتْس، بمبلغ ٢٤،٠٠٠ دولار. ثم اتفقا مع «نادي سيِّدات الأَعمال» بإِدارة السيِّدَتَين جوزفين كُوِيْنْبي وهارييت فُولِر على أَن يَشغل «النادي» جميع غُرف المبنى (١٥٠ غرفة)، شرطَ أَن يَعمدَ جبران ومعلوف إِلى ترميمه وتجديدِ بُنْيَتِهِ التحتية بلوازمِ تَهْيئتِه لصلاح السكَن، ما استوجب أَن يَستدينا مبلغ ١٢،٠٠٠ دولار بفائدة ٦٪. لكنَّ السيِّدتَين كُوِيْنْبي وفُولِر نَكَثَتا العقْد وعَدَلَتا عن الاستِئْجار فوقعَت الخسارة الكبرى. دفعَت ماري هاسكل للمصرف حصَّة جبران من الدَين (٦٠٤٥ دولار) مُنقذةً إِيَّاه من هُموم تسديده، فكتب إِليها رسالةً (الخميس ٤ أَيلول ١٩٢٤) يعلن لها اعتذاره: «... وعَيتُ فداحة غلطتي، وهي غلطةُ صغارٍ يسعون إِلى تحقيق أَعمالٍ كبرى. إِنها غلطةُ جَشِعٍ أَو غبيّ، وأَنا كنتُهُما معًا. سامحيني». وتانِكَ السيِّدتان هما اللتان ذكَرَهما جبران لباربره يونغ في هذا المقطع.

إِهداء جبران بخطه (سنة ١٩٢٤) نسخة من كتابه «النبي» إِلى السيدة هارييت فُولِر، بالرغم من الصدمة التي سبَّبَتْها له في تلك العملية التجارية الخاسرة (كما ورد في الحاشية ٤ أَعلاه).

٥ المقصود هنا كتابُ «النبي» ذو الغلاف الأَسْوَد كأَغلفة جميع كتُب جبران الإِنكليزية لدى منشورات «كنوف».

الحيِيّ فيستشيرني: «هل أَذهب للتعرُّف بهؤُلاء الناس الجُدُد»؟ أَو «هل أَقِف وأَخطُب في أُولئِك»؟، وقد تذهب رهافتُه الطفولية إِلى أَن يسأَلني: «الهاتف يَرنّ. هل أُجيب»؟

كلُّ هذا، تَـحَـفُّظُ مَن يَشعر أَنه كائنٌ جِيْءَ به إِلى عالَـمٍ غريب، كائنٌ ليس فكرُه وعقلُه من أَنماط هذه الأَرض. مرةً قال لي: «تَمُرُّ أَيامٌ متتاليةٌ أَشعر خلالها أَنني واصلٌ إِلى هنا من كوكبٍ آخر. أَنا رجلٌ بدون ماضٍ على حاضر هذه الأَرض. أَرى حولي غرباءَ أَصواتُهم غريبةٌ عني».

مع ذلك كان واعيًا تمامًا حدودَ قُدراته. اعترفَ لي مرةً لي: «أَنا لستُ إِنسانًا صالحًا. عليَّ أَن أَعملَ لصالح كلِّ مَن على هذه الأَرض الطيِّبة. لكنني لا أَستَطيع». كان يشعر أَنه فشِلَ في أَن يَـحقِّق المتوَقَع منه إِلَـهيًّا. وذات لحظةٍ مريرةٍ قال لي يومًا: «أَنا منَبِّهٌ غيرُ مُجْدٍ[٣]. لا أُنبِّهُ إِلى الحقيقة كما يُفترَضُ بي».

كانت العظَمةُ في رؤْياه وطموحه أَوسعَ من إِنجازاته البشرية. مع أَن حياته مضت خدمةً متواصلةً يَهَبُها باستمرارٍ أَصدقاءَه في سويعات حزنهم والكآبة. كانت روحُهُ سخيةَ العطاء بلا حدود، كما يشهد مواطنوه، وخصوصًا في أَزماتهم الصعبة.

كان يشعر أَحيانًا أَنه مخدوع، ويدرك أَن لم يخدَعْهُ أَحدٌ طويلًا، برغم اعتقاد سَـيِّئي النية أَنهم خدعوه. مرةً أَملى عليَّ: «لديَّ شكلٌ غريب من المسامحة الذاتية. قد أَقع أَحيانًا ضحيةَ غشٍّ أَو خداع، فأَضحك مِمَّن يظُنونني لم أَتنَبَّه إِلى وقوعي ضحيةَ غشِّهم وخداعهم».

أَتذكَّر فترةً كان خلالها ذا مزاجٍ مريرٍ من قهر وأَلَم. وسببُ ذلك قصةٌ أَخبرَنِيها عن تَوَرُّطِه في عملية عقارية خاسرة راهنَ فيها بمبلغٍ كبيرٍ من المال[٤]. كانت تلك الورطة مع سيِّدتَين. قال لي:

– كان عليَّ إِمَّا أَن آخُذَ تينَك المرأَتين إِلى المحكمة، أَو أَن أَخسَر مالي. جاءَتْني إِحداهما وهزَّت في وجهي الكتيِّب الأَسْود[٥] قائلةً: «أَنت الكاتبُ هذا الكتابَ، ما الذي تنوي أَن تقرِّر»؟



المبنى المزدوج على ناصية شارع مارلبورو (بوسطن) وهو الذي اشتراه جبران سنة ١٩٢٤ مع شريكه فارس معلوف، وكانت العملية خاسرة أوقعتْه في خسارة فاجعة (الحاشية ٤ صفحة ٤٦).



المبنى ذاته سنة ١٩٤٢



المبنى ذاته كما يبدو اليوم

٦ فترتئذٍ كان Brevoort الفندقَ الأجملَ والأعرَق (أَسَّسه هنري بريڤورت سنة ١٨٣٤) عند أَسفل الجادَّةِ الخامسة، وهي الأشهَرُ والأفخمُ بين الشوارع والجادَّات في مانهاتن – نيويورك. اشتُهِر ذاك الفندق شعبيًّا بنُزلائه من رؤَساء ونواب وأَعضاء مجلس الشيوخ وأَعلام فكر وثقافة، وخصوصًا بفُسحات فيه مخصصة للقراءة والندوات والمحاضرات والأَنشطة الأَدبية. كان عند زاوية الشارع التاسع غربًا، على أَمتارٍ من الشارع العاشر غربًا حيث محترف جبران.

وسكتَ جبران بُرهةً أَمامي ثم أَكمل:

– بعد ما كتبْتُهُ وما بِهِ أُؤْمِن، أَأَذهبُ فأَقفُ أَمام القاضي وأَتَّهم تينَك المرأَتَين؟ أَيمكنني الجلوسُ في مقاعد الشهود حتى إِذا سأَلَني القاضي أُطالبُهُ بإِدانتهما؟

طبعًا لم يكن يمكنه ذلك: كان في وجهه وصوته جوابٌ عن سؤَاله. لذا، حين اكتفيتُ بقَولي له:

– لا. ما كان يمكنكَ أَن تفعل ذلك، وأَنتَ من أَنتَ،

أَشرق وجهُه، وبادرني:

– جميع أَصدقائي قالوا إِنَّ عليَّ تَحصيلَ مالي. لكنني، لو حَصَّلتُه بِحُكم المحكمة، لَما عدتُ قادرًا أَن أَعودَ فأَفتحَ الكتيِّب الأَسْوَد.

قال هذا ثم أَخذ وُريقةً وكتَب ببُطءٍ: «مَن مَسح بثوبكَ يدَيه المُوحِلَتين، أَعطِهِ ثوبك. قد يحتاجُه ثانيةً، أَمَّا أَنت فَلَنْ».



كتب جبران مرةً: «من قلب الاضطراب والحيرة والقلق السعيد، يولد شِعر يُهدِّئُ القلب». وفعلًا، هوذا شِعرُهُ، كما هو قال، دارَ في الأَرض ونُقِل إِلى لُغاتٍ عدَّةٍ، حاملًا نورًا إِلى المُتعبين والحيارى في جميع أُمم الأَرض.

ومن تجربتي الشخصية معه – ولستُ إِلَّا واحدةً من المحظوظين بنشْر كلمته – لديَّ إِثباتٌ دامغٌ أَنَّ مضمون كتُبِه الإِنكليزية لامس أَفكارَ الكثيرين فأَعطاهم نور القوة. ويمكنني أَن أَملأَ كتابًا كاملًا من كلماتٍ وعباراتِ فرحٍ وامتنانٍ عميقٍ أَسرَّها لي لاحقًا كثيرون، أَو كتبوها إِليَّ من الأَربع الجهات في الأَرض. هنا أَمثلةٌ منها:

على الجادة الخامسة، في بهو فندق بريڤورت[٦]، مكتبةٌ صغيرةٌ كنتُ لفترةٍ مسؤُولةً عنها. بعد ظهر يومٍ دخلت المكتبةَ سيدةٌ عجوزٌ بثوب داكن. كانت على وجهها نِظرةٌ كئيبةٌ غلَّفتْها بابتسامة وهي تقترب مني ببعضِ خفَر:

– أَهلًا. كيف أُساعدُكِ؟







لقطات عدَّة لفندق بريڤورت، أَشهر فندق فترتئذٍ في مانهاتن. عند رُكن من مدخله الفخم أَنشأَت باربره يونغ مكتبةً، جرت فيها الحادثة التي تذكُرها هُنا في الصفحة المُقابلة.

٧ مطلع فصل «الأَلم» من كتاب «النبي».

– الحقيقة... لست أَدري... ولكنْ... أَتمنَّى أَن تتمكَّني من مساعَدَتي.

انتظرتُها ثواني بطيئَةً، ثم أَردفَتْ:

– إِنني... أَبحث عن كتابٍ... كتاب لا أَعرف عنوانه.

– مَن مؤلِّفُه؟

– ... ولا أَعرف حتى اسمَ مؤَلِّفه.

– من أَيِّ نوعٍ هو: شعر؟ رواية؟ بحث؟ سيرة؟

– لستُ... لا أَعرف... لستُ أَدري... لي صديقةٌ كتبَت لي رسالةً ذكرَتْ لي فيها هذا الكتاب. الرسالةُ أَضعتُها، وضاع معَها اسمُ الكاتب والكتاب. لكنني أَذكُر في رسالتها عبارةً من ذاك الكتاب هزَّتْني، جاء فيها: «أَلَمُكُم هو انكسارُ الصَدَفة التي تحتضنُ إِدراكَكم»[٧].

ردَّدَتْها مرتين بشغفٍ وتأَثُّر.

لم أَحتجْ إِلى أَكثر. توجَّهتُ فورًا إِلى رفٍ في المكتبة، أَخذتُ منه نسخة من كتاب «النبي»، فَتَحْتُهُ على صفحةٍ منه تضم تلك العبارة وأَعطيتُها إِياه. وما زلت أَذكرُ نِظْرتها كيف شعَّت من وجهها البريْءِ العجوز. أَخذَتِ الكتاب بِجُمعِ يديها، قرأَت العبارة، قرأَت الصفحة، استدارت إِلى أَقرب مقعدٍ في الصالة، جلسَت وأَخذَت تقرأُ، غائبةً كُلِّيًّا عمَّن وعمَّا حَولها. دخل بعدها كثيرون إِلى المكتبة، لكنها لم تنْتَبِه إِلى أَحد. انشغلتُ معهم لوقتٍ غيرِ قصير، حتى رأَيتُها مُقْبِلةً نحوي وبادَرَتْني: «هذا هو الكتاب. إِنه الذي كنتُ أَبحثُ عنه... لكنَّه... لكنَّه ليس كتابًا. إِنه خبزٌ ونبيذٌ للمُتْعبين مثلي».



قصَّةٌ ثانية: سنة ١٩٣٢، إِبَّان إِقامتي معرضًا لأَعمال جبران في محترفه، دخل عليَّ رجلٌ فهمتُ منه أَنه في قطاع البحث العلمي. وروى لي قصته كما يلي: ذات يومٍ، قبلَذاك بسنةٍ أَو أَكثر، كان يجتاز الجادَّةَ الثالثة مُسْرعًا إِلى موعدِ عمَل. مـرَّ



فارس معلوف، شريك جبران في العملية التجارية الخاسرة (الحاشية ٤ صفحة ٤٦)

4550
522

GIBRAN et al
to
McCLARY

sion Expires Sept. 26, 24----------February 16, 1924 at twelve o'clock M. Received, Entered and Examined------------------------------

----

We, Gibran K. Gibran, unmarried, of the City of New York, and Faris S. Malouf, of the city of Boston, County of Suffolk Massachusetts for consideration paid, grant to Grace M. McClary of Boston, Suffolk County with MORTGAGE COVENANTS to secure the payment of Eleven Thousand Eight Hundred Dollars ($11,800) Dollars in one (1) years with Six (6%) per centum interest per annum payable monthly, principal payable Monthly in installments of $200, and all in one year from date; as provided in one note of even date. First payment to be made April 15th, 1924 of $400.00 A certain parcel of land with the buildings thereon situated and now numbered 409 and 411 Marlborough Street, in Boston, Suffolk County, Massachusetts, and bounded and described as follows: SOUTHERLY by Marlborough Street 80 feet; Westerly by Massachusetts Avenue 112 feet; NORTHERLY by a passageway 16 feet wide 80 feet; EASTERLY by land now or formerly of Hammond by a line running through the middle of the brick partition wall 112 feet; Containing 8960 square feet of land, be all of said measurements and area more or less. Said premises are now subject to a first mortgage of $125,000 held by the Roxbury Institutions for Savings, and to a second mortgage of $35,200, payable $1500 quarterly on principal with interest at 7%. This mortgage is upon the statutory condition, for any breach of which the mortgagee shall have the statutory power of sale I, Hany F. Malouf, wife of said mortgagor, release to the mortgagee all rights of dower and homestead and other interests in the mortgaged premises. WITNESS our hands and seals this fourteenth day of February 1924 Gibran K. Gibran Faris S. Malouf Hany F. Malouf and each a seal COMMONWEALTH OF MASSACHUSETTS Suffolk ss. Boston, February 1924. Then personally appeared the above named Gibran K. Gibran and Faris S. Malouf and acknowledged the foregoing instrument to be their free act and deed, before me Elias F. Shamon Justice of the Peace My commission expires Jan. 5, 1928--February 16, 1924 at twelve o'clock M. Received, Entered and Examined---

----

VOLUNTEER
CO-OP BANK
DISCHARGE

KNOW ALL MEN BY THESE PRESENTS That the Volunteer Co-operative Bank, of Boston, Mass., the mortgagee named in a certain mortgage given by Michael J. Devine and Catherine T. Devine dated November 15th A.D., 1922, and recorded with Suffolk Deeds, Book 4418, Page 238 hereby acknowledges that it has received full payment and satisfaction of the same and in consideration thereof it hereby cancels and Discharges said mortgage. IN WITNESS WHEREOF, the said Volunteer Co-operative Bank has caused its

صك الملكية العقارية (١٦ شباط ١٩٢٤) وفيه التعهُّد من: «نحن جبران خليل جبران، عازب، من مدينة نيويورك، وفارس معلوف من مدينة بوسطن» بتسديد الدفعة الأُولى من ثمن المبنى (الحاشية ٤ صفحة ٤٦)

بمكتبة صغيرة، رمَقَ واجهتَها بِـنِظرةٍ وميضةٍ فرأَى فيها كتابًا على غلافه صورةُ وجه. واصلَ سيره، لكنَّ الوجه على ذاك الغلاف جعلَ يسير معه وبدأَ يتَّضح أَكثر في ذهنه مثيرًا فيه شعورًا غريبًا. بعد عبوره ثلاثةَ شوارع، استدار لاشعوريًا وعاد إلى واجهةِ تلك المكتبة كي يرى مجَدَّدًا ذاك الوجهَ على الغلاف. تَأَمَّله لحظاتٍ ثم دخل المكتبة واشترى الكتاب. وكان ذلك كتابَ «النبي».

أَخبرني قصته هذه، وأَردف: «هذا الكتاب كشَفَ لي حقيقةَ أَن العلْم – بدون النعمة المُحْيِيَة بالجمال والحنان – يبقى صَلْدًا من دون حياة».



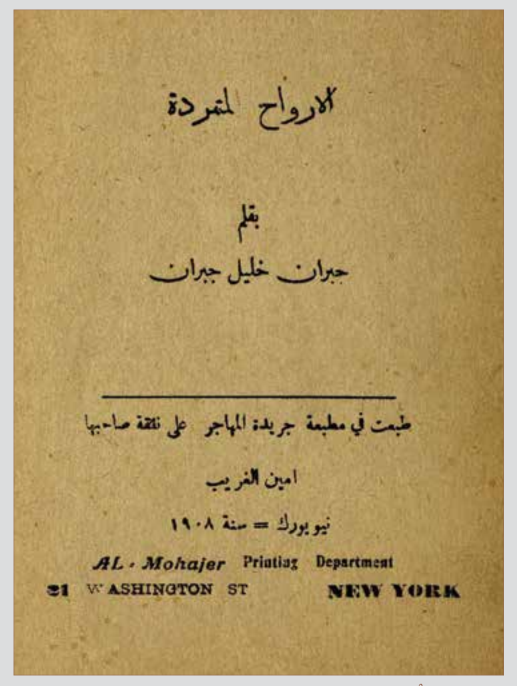
قصة ثالثة: في مكتبة صغيرة من فيلادلفيا، كان محامٍ في مقتبَل العمر يُصغي طيلة ساعةٍ إِلى قراءَةٍ جهورية من «النبي» أَمام جمهورٍ يُصغي بكل انتباه. عند المساء جاءَني المحامي، كما فعل كثيرون سواه، يروي لي انفعالاتِه وانفعالَ السامعين. قال لي: «أَنا محامٍ جزائيّ. لو انني قبل عشرين عامًا قرأْتُ فصل «الجريمة والعقاب»، لكنتُ اليوم رجُلًا أَكثرَ راحةً وسعادةً، ومحاميًا أَفضلَ في الدفاع».

هكذا بالفعل كتابُ «النبي»، يحمل إِلى كلِّ نفْسٍ وحدها ما تتوقُ إِليه: الفيلسوفُ يعتبره كتابَ فلسفة. الشاعرُ يرى فيه شِعرًا. الشابُ يقول: «أَجد فيه كلَّ ما في قلبي من مَشاعرَ وأَحاسيس»، والعجوز يقول: «بحثتُ طوال عمري عما لم أَكن أَعرف ماذا. اليوم في شتاء عمري وجدتُ ضالَّتي في هذا الكتاب».



أَيًّا يكن ما دار في بال الرجل الذي دوَّن أَقوال المصطفى، المختارِ الحبيب، فالقارئُ الرهيف يكتشف فيه التعبير الأَدَقَّ عن عُمقِ ما في قلبه وتفكيره.

تفسيرُ ذلك جوهريٌّ: جبران لم يكن مُنَظِّرًا. كان يقول: «إِن كان لكم أَن تُلَقِّبوني، فقولوا إِنني ابنُ الحياة». وعبارتُه هذه ليست مجردَ تنميقٍ لفظيٍّ لطيفٍ بل ترجمةٌ بسيطةٌ مباشِرة لحاجات الإِنسان الكبرى، وأَجوبةٌ ناصعةٌ عن تلك الحاجات.


الاوراح المتمردة
بقلم
جبران خليل جبران
طبعت في مطبعة جريدة المهاجر على نفقة صاحبها
امين الغريب
نيو يورك = سنة ١٩٠٨
AL - Mohajer Printing Department
21 WASHINGTON ST NEW YORK

الطبعة الأُولى (١٩٠٨) من كتاب «الأَرواح المتمرِّدة» الذي كتبَ مقدِّمتَه مكتشِف نُصوص جبران: الصحافي أَمين الغريِّب، وأَصدره على نفقته من مطبعة جريدته «المهاجر» في نيويورك.

ولعلَّ قصة إِحراقه في بيروت (وهي غير صحيحة ومن نسْج خيال جبران) أَشكلَت على باربره يونغ عند وضْعها كتابَها بعد ١٣ سنة من وفاة جبران، فسمَّتْهُ «قصيدة» ولم تفهم من جبران أَنه «كتاب» لا قصيدة.

٨ هذا دليلٌ آخرُ على إِيمان باربره يونغ، مثل جبران، بعقيدة التقَمُّص.

٩ تستعير باربره يونغ هنا تعبير «الزَيْلوتيّين» من رجال دينٍ ينتمون إِلى طائفةٍ يهوديَّةٍ عبرانيَّة قديمة (القرن الأَول للميلاد)، شديدةِ التعصُّب، ظهرَتْ في منطقة اليهوديَّة الجبلية (جنوبيّ فلسطين: تشمل القدس والخليل وبئْر السبع)، واشتُهرت بمقاومتِها الاحتلالَ الرومانيَّ أَرضَ فلسطين.

كيف تأَتَّت له هذه الأَجوبة؟

في ختام كتاب «يسوع ابن الإنسان» كلامٌ وضعه جبرانُ الشاعرُ على لسان «رجل من لبنان بعد تسعة عشر قرنًا» جاء فيه: «سبعَ مرَّاتٍ وُلدتُ، ومُتُّ سبعَ مرَّات. وها أَنا الآن أَعيشُ من جديد». قد يكون هذا هو الحلّ والجواب. جبران لم يقُل لنا جديدًا. ليس لديه ولم يكن لديه جديدٌ ليقوله. عبارتُه تعبيرٌ مكرَّرٌ لجوهر الحقيقة التي بَلَغها عبر الأَعمار[٨]. فـ«النبي» ليس ابنَ مُخيِّلة جبران بل تراكمٌ من الحب والحكمة. من هنا قولُه: «سبعَ مرَّاتٍ عِشتُ... وها أَنا الآن أَعيشُ من جديد».

كان جبران أَوسعَ من مجرَّد شاعرٍ خَطَّ تلك الكتُبَ الجميلةَ العميقة، وأَبعدَ من مجرَّد رسامٍ لمْلمَ نُتَفًا من خلودٍ وخطَّطها على ورقة بيضاء. كان عالِمًا نفسيًّا من دون بصْمة المُحَلل. كان فيلسوفًا بَسَّط الفلسفة إِلى عناصرها الأُولى. كان لُغَوِيًّا غاص على تاريخ الكلمات الذهبيّ لِـمتعة الغوص لا للغرَض اللُغويّ. مع ذلك، مع كلِّ ذلك، كان عالِمًا عميقًا، إنما كاتمًا معرفتَه الوسيعةَ وحاجبًا، ما أَمكنه، إِنجازاتِه الفكريةَ عبر السنوات.

كان يلقَّب بـ«الروح القوية والجريئة»، وإِنه حقًّا كذلك: كانت جرأَتُه بعيدةً عما في رغبته ونيَّتِه البشريَّتَين، وطبيعتُه قوةً تسكنه بدون أَيِّ ادِّعاء. لم تكُن فيه ذرَّةٌ من عدائية.

جرأَته تلك تجَلَّت منذ شبابه: كانت بلاده، تحت نير الأَمبراطورية العثمانية، مكمومةَ النفَس، يائسَةً من القُدرة على تفَلُّتِها خارجَ تلك الشرنقة. فقام جبران يكتب بِلُغته العربية الأُمِّ قصيدةً أَسماها «الأَرواح المتمردة»، حين صدرَت وانتشرَت تم إِحراقُها سريعًا في ساحة بيروت العامَّة، بتحريضٍ من زَيْلُوتِيِّين[٩] متعصِّبين اتَّهموا جبران بأَنه «خَطِرٌ، ثوريٌّ، مُسَمِّمٌ عقولَ الناشئة». وكان ذاك الكتاب أَوَّل قبضةِ حريةٍ فترتَئِذٍ رفعَها الشباب في وجه الأَمبراطورية العظمى فهَزَّتْها بِقُوَّةٍ صائبة.

ولو انَّ ذاك الحدث حصل اليوم لكانت وكالات الأَنباء تناقلَتْه، واحتلَّ خبرُ الشاعر الشاب مطالعَ نشرات الأَخبار العالمية قبل منتصف الليل، وغدا حديثَ



زيتية بريشة جبران للسيدة زوجة أَلكسندر مورتن صاحب غالري مونترُس التي أَقام فيها جبران (١٩ كانون الأَول ١٩١٤) معرضه النيويوركي الأَول (الحاشية ١٠ أَدناه)

١٠ تنقُل باربره يونغ حرفيًّا هنا ما رواه لها جبران (وكان رواه هكذا أَيضًا لماري هاسكل) عن علاقته بالنحَّات الأَشهَر عهدئذٍ أُوغُست رودان (١٨٤٠ – ١٩١٧)، وهي لم تكن «علاقة صداقة» كما ادَّعى، بل لَحظاتٍ عوابر. ففي رسالة من پاريس إِلى ماري (الجمعة ١٧ نيسان ١٩٠٩) يكتب: «كان سروري عظيمًا بزيارتي محترفَ رودان أَكبرِ نَحَّاتي العصر الحديث... كان لطيفًا معي وأَراني أَعمالًا رائعة بالرخام والجفصين... وقبل أَيَّامٍ زار معرضَ پاريس الشهير، ورآني فعرَفَني، وحدَّثَني بكلماتٍ قليلةٍ عن نحّاتٍ روسيّ. شرفٌ عظيمٌ لكلِّ فنَّانٍ أَن يُحدِّثَه رودان». وفي رسالة السبت ١٩ كانون الأَول ١٩٠٩ كتب لها أَنه وضع رسمًا لرودان بالقلم الرصاص، ليَضُمَّهُ إِلى سلسلة رُسُومه «هيكل الفن» التي عرَضها لاحقًا، ورسْمُ رودان بينها، في معرضه النيويوركي الأَول (افتتَحَهُ مساءَ الاثنين ١٤ كانون الأَوَّل ١٩١٤) في غالري مونترُسّ (على الجادَّة الخامسة). وتوردُ ماري في دفتر يومياتها (الأَحد ٢٠ كانون الأَول ١٩١٤) قولَه لها: «... إِني فنانٌ فرنسيٌّ حديث... أَنا تلميذ رودان». ولدى وفاة رودان السبت ١٧ تشرين الثاني، كتب فيه (كانون الأَول ١٩١٧) مقطوعةَ رثاءٍ نقَّحتْها له ماري.

١١ لم يَثْبُتْ واقعًا حدَثُ إِحراقِ بيروتَ الكتابَ في ساحتها العامة، ولا صُدورُ قرارِ الكنيسة بحُرم جبران وقرارِ الدولة بنَفْيه. الحاصل أَن الأَب لويس شيخو اليسوعي هاجَمَ الكتاب بقسوةٍ في مجلة «المَشرق» وطالبَ بمصادرته. والكنيسة لم تحرمْه، بدليل أَن مأْتمه جرى بجميع الطقوس الجنائزية الكنسية في بوسطن وبيروت. وواضحٌ أَنَّ باربره يونغ، لإِيمانها بجبران مُطلَقًا لامحدودًا، تنقُل الأَحداث بحرفيَّتها كما رواها لها جبران، منها أَن «الأَرواح المتمرِّدة» هي «قصيدة» (وهي ليست كذلك بل أَربعةُ نصوصٍ قصصية)، ومنها تَتَلْمُذُهُ على رودان في پاريس وصداقتُه (وهو ما لَم يَحدُث)، ومنها الحُرْم والنفي. وهو روى بعضًا من ذلك أَيضًا لماري هاسكل شفَويًّا فدوَّنتْهُ في يومياتها ولَم يذْكر لها أَيًّا منه خطيًّا في رسائله إِليها. لذا يمكن تسجيل كل ذلك في سياق الـ«أَسْطَرَة» التي كان جبران يتعمَّدُها في إِبراز شخصيته، وفي سياق الـ«هاجيوغرافيا» التي، بهالتِها التقديسية المُنْبَهِرة، وضَعَتْ باربره يونغ كاملَ كتابِها.

الناس عند تناوُلهم فطورَ الصباح. لكن الحاصلَ أَن شرارات تلك الحرائق اندلعَت فيما صاحبُ هذا الكتاب «المُسَمِّم»، ابنُ العشرين «الخطِرُ والثَوريُّ»، كان روحًا صامتةً هادئةً يدرس بدقَّةٍ أُصولَ الرسم في پاريس، تلميذًا لرودان وصديقَه[١٠].

ولو أَحاطَ به الصحافيون، وهذا ما لم يحصل، وكان له أَن يعبِّر يومئذٍ عما جرى، لكان قال بتعبيرنا المُعاصر إنَّ إحراق «الأَرواح المتمردة» في شبابه لم يَعْنِ له شيئًا. ولكانَ أَضاف أَنه «سببٌ ممتازٌ ليُصارَ فورًا إِلى إِصدار طبعة جديدة من الكتاب».

غير أَن إِحراقَ الكتاب لم يَنْتَهِ هنا. ففي پاريس بلغَ جبرانَ خبرُ أَن الكنيسةَ عاقبتْه على كتابه ذاك بالحُرْم الكَنَسي، والدولةَ أَصدرَت أَمرًا بِنَفْيِه من البلاد عقابًا على اقترافه هذا الجرم غير المسبوق: تحريضه الشبيبةَ من أَبناء أَرضه الأُم على أَن يُشَرِّفوا إِرثهم العريق فيُحيُوه بالجرأَة والقوّة والمجد على خطى آبائهم المتميِّزين المفْرَدين، المتحدِّرين من جدُودهم الفينيقيين الكلدانيين.

على أَنّ قرارَ النفي ذاك، سَقَط تلقائِيًّا سنة ١٩٠٨ مع تشكيل حكومةٍ جديدةٍ في تركيا. واليوم، في بيروت وأَنطاكية، كما في القاهرة والإِسكندرية، ها هو الكتاب الذي تمَّ إِحراقُه[١١]، أَصبحَ من تراث الأَدب الكلاسيكي، وبهذه الجلالة يتناولُه الطلَّابُ الشباب في دروس الأَدب العربي.

Whereas in times not so far past it was almost impossible for an artist to make his entree into a dealer's gallery, it is now so easy that the New York dealers fairly clamor for artists to come and use their space. One-man shows follow each other at intervals of two weeks at all the leading galleries. Kahlil Gibran, an Armenian artist, will open an exhibition of paintings and drawings at the Montross Galleries tomorrow, to run to December 30. Mr. Gibran returned from Paris some years ago and established himself in Boston. After his exhibition closes pictures by Bryson Burroughs, of the Metropolitan Museum, will occupy the Montross Galleries for another two weeks, January 2 to 16.

خبر صحافي عن معرض رسوم ولوحات لجبران في غالري مونترُس (لغاية ٣٠ كانون الأَول ١٩١٤)، ورد فيه أَن «السيد جبران عاد قبل سنوات من باريس وكان يسكن في بوسطن». (الحاشية ١٠ في الصفحة ٥٦).

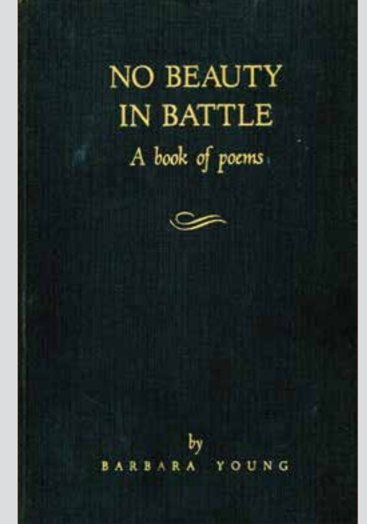
١ بعد تَخَرُّج باربره يونغ من المدرسة الرسمية في مدينتِها الأمِّ آلْباني (عاصمة ولاية نيويورك) درَّسَت اللغةَ الإنكليزية في مدارس خاصة، قبل أَن تنتقل لتَعيشَ في مانهاتن وتُزاولَ حياتها الأَدبية.

سَخَّرْنا هذا الكوكب

في رأْيي أَن القيمة الأَساسية لتأْثير فنانٍ في جمهور متلقِّيه، ليست محدودةً عند ما يَسْكب في عمله من إِدراكه الذاتي، بل تتوسَّع من نتاجِ حبه وعمله إِلى ما يعكسُ نتاجُه على جمهوره من توعيةٍ وإِدراك.

واتَضح لي أَنَّ لِمئاتِ مَن بحثوا عن فرصةٍ لمُشاهدتِهم أَو سَماعِهم نتاجَ جبران حيثُما وعندما أُتيح لهم، إِدراكًا أَعلى مستوًى مما كنتُ توقَّعت. ويسودُ اليوم أَن معدَّل الذكاء، في هذه الحقبة من تطوُّر العالم، يبلغ ما لدى فتى في الثانيةَ عشْرةَ. وهو مستوًى جديرٌ بالاعتبار. فبعدما تعاملتُ تربويًّا سنواتٍ عدَّةً مع تلامذة في تلك السنّ[١]، وجدتُ أَن معدَّل الذكاء لدى فتًى أَو فتاةٍ في الثانية عشْرَة، عدا تعادُلِهما في أُمور أُخرى، أَفضلُ مما لدى شخصٍ في ضعف سنهما قد يكون معدَّل ذكائِه مثيرًا الشفقةَ أَو مُعيبًا.

وهنا تأَكّدَت لي حقيقةُ أَن الذين جاؤُوا وشاهدوا واستمعوا، من عجوزٍ أَو يافعٍ، أَبيضِ البشَرة أَو أَسمَرِها، متعلِّمٍ أَو أُمي، يهوديٍّ أَو مسيحيٍّ أَو وثنيٍّ، لم أَرَ بينهم أَكثر من نصفٍ في المئة فقط لم يتأَثَّر عمقُ طبيعتهم ولم يُعجَب لُبُّ كيانهم مِمَّا شاهدوا أَو سمعوا، ما يُؤَكِّدُ لي أَن إِسهام جبران في الأَدب والفن العالَميَّين ليس مساهمةً فيهما وحسْب بل يتوسَّع تأْثيره الساطع حتى لَيُؤَدِّي إِلى شفاء الأُمم.



غلاف مجموعة
شعرية لباربره يونغ:
«لا جمال في الصراع»

إهداء بخط باربره يونغ على نسخة من مجموعتها الشعرية، «إلى وُورن ميلِر» – كانون الأَول ١٩٣٧.


Of This First Edition, Two Hundred and Fifty Copies Are Especially Numbered and Signed by the Author. This Is No. 7

صدرت من هذه الطبعة
الأُولى ٢٥٠ نسخة مرقَّمة
وتحمل توقيع المؤَلِّفة.
هذه النسخة رقم ٧.

٢ شاعرٌ ورسامٌ إنكليزيّ (١٧٥٧/١١/٢٨–١٨٢٧/٨/١٢). وجهٌ بارزٌ شعرًا ورسمًا من الفترة الرومنطيقية في عصره. تميَّزَت أَعمالُ قلمه وريشته بتعابيرَ إِبداعيةٍ بين الفلسفي والروحاني. يجد باحثون تشابُهًا بين لوحاته ولوحات جبران في غرابات الأَشكال والمواضيع.

٣ لم يَرِدْ هذا التشبيهُ كتابةً في مصدرٍ أَو مرجعٍ بل شفاهةً منقولًا عن جبران ذاته في حديثه إِلى باربره يونغ عن فترة دراسته في پاريس، وفي يوميات ماري هاسكل (لا في رسائِله إِليها)، ما يرجِّح أَن هذا القول لم يصدر عن رودان بل عن جبران نَسَبَهُ إِلى رودان.

قلتُها مرارًا لِجمهورٍ ضئيلٍ أَو حاشدٍ، وأَكرِّرُها الآن هنا: يكفي البدءُ مع خمسين شخصًا لديهم النيَّة والقدرة أَن يعيشوا مضمون كلمات «المصطفى»، حتى نكون فعلًا عند فجرِ أَلفيةٍ جديدة.

يزورني أَحيانًا طلَّابٌ وطالباتٌ من جامعاتنا الأَميركية يكتبون عن جبران في رسائل اختصاصهم الأَكاديمي، ويطلبون تَوَسُّعًا عنه، بكثير من الإِعجاب والتساؤُلات عن شخصه. وهذه لي إِشارةٌ أَنَّ إِرثه الروحيّ ضالعٌ في وعي شبيبتنا، وواعدٌ بثمارٍ تبشِّرُ – عند جنى موسمها – بـحصادٍ وفير.

من تلك الأَسئلة المتكرِّرة غالبًا: «أَلا تجدين تشابهًا في النتاج بين جبران ووليم بلايك[٢]»؟

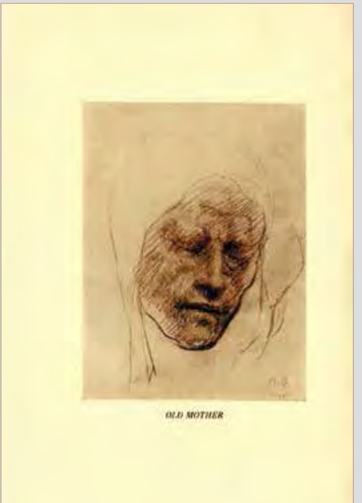
مصدر هذا السؤَال: مقولةٌ ساريةٌ كثيرًا، نِيَّتُها المديحُ، منقولةٌ عن لسان رودان أَنَّ «جبران هو وليم بلايك القرن العشرين»[٣].

أَمَّا جوابي فحاسم: لا أَعرف فنَّانَين متباعدَي الشبَه تمامًا في نتاجهما، لا جامعَ قطٌّ بينهما سوى أَنهما شاعران ورسامان وصوفيَّان.

جبران رسم الإِنسان إِلهيًّا مُرهَفَ الجمال، جسدًا غيرَ شهواني، جسمًا مفْرَغًا من جسمانيته الأَرضية، روحًا شفيفةَ الحجاب. وهذا ما لا نراه لدى الإِنكليزي بلايك. أَشخاصُ جبران لم يكونوا قدِّيسين، ولا ملائكةً، ولا شياطينَ من الأَساطير والخرافات بل كائناتٍ من الحُلُم بالكمال، لا عيوبَ فيها ولا شوائب.

في أَعمال بلايك جوٌّ من النشوة، لذةٌ في التهتُّك، جموحُ تخيُّلاتٍ لروحٍ تكتنفُها الأَلْغاز. الجوُّ في أَعمال جبران مختلفٌ تمامًا: إِنه رفرفةُ الروح نحو خيالاتٍ تيَّاهةٍ في أَحلام اللانهاية، لكنها صافيةٌ، متناغمةٌ، أَليفةٌ غيرُ عنيفة.

صحيح أَنهما فنانان واسِعَا الرُؤْيا، لكنَّ في أُسلوبِ كلٍّ منهما افتراقًا واسعًا عن الآخَر في التعبير عن الجمُوح البَشريِّ وغموضِه. لكلٍّ منهما إِنسانُه الخاص وطابَعُه الشخصي.



«الأُم الكبرى»
من رسوم جبران في الكتاب

NO BEAUTY IN BATTLE

A Book of Poems

BY

BARBARA YOUNG

Illustrations by Kahlil Gibran

NEW YORK
THE PAEBAR COMPANY, Inc.
Publishers
1937

الغلاف الداخليّ للكتاب.
منشورات پيبار – نيويورك – ١٩٣٧
وعليه أَنّ «الرسوم لخليل جبران»
ما يُشير إِلى استخدامها رسُومَهُ
في مؤلفاتها بعد غيابه.

FIRST EDITION
Copyright, 1937
by
THE PAEBAR COMPANY, Inc.
All rights reserved

No part of this book may be reproduced in any form without permission in writing from the publishers, except by a reviewer who may quote brief passages in a review to be printed in a magazine or newspaper. Manufactured in the United States of America.

الصفحة ٣ من الكتاب:
الطبعة الأُولى – ١٩٣٧
الحقوق محفوظة لمنشورات پيبار
إِذًا هي لم تنشره على نفقتها الخاصة
كما بعض كتُبها السابقة.

٤ قولُه هذا يشير بوُضوحٍ إِلى أَنه كان يعيش في نيويورك لكنَّ أَحلامه كانت باقيةً في لبنان، وكان دومًا يفكِّر بالعودة إِليه ولو جسدًا بدُون روح، وهو ما حصل، تلبيةً وصيَّتَه الأَخيرة. وهذا يُؤَكِّد أَن جبران غادر لبنانَ ذات يوم لكنَّ لبنان لم يغادِرْهُ أَيَّ يوم، فظَلَّت ملامِحُه ومناظِرُه ومَشاهدُه ووُجوهٌ منه تنبُض في كتاباته وفي خلفيَّات لوحاته.

في أَيٍّ من أَعمال جبران وُضوحُ إيمانه بالإنسان الطبيعة وبالطبيعة الإِنسان. كان لا يعترف إِلَّا بأَصلٍ واحد، بقانونٍ واحد، بحُبٍّ لانهائيٍّ واحد، ويترجم ذلك دائمًا بأَبسط التعابير سُطورًا وأَلوانًا.

في كثيرٍ من رسومِهِ ميزةٌ استثارت تعليقات. في تذكارات الوجوه شعورٌ بالحياة والتنفُّس، رقَّةُ جفن، رعشةُ شَفَة، شُروقُ نَهْدٍ يتنهَّد، لُهاثُ نسيمٍ على وجهٍ مُحجَّب، مَن يتأَملها يسيح فيها بعيدًا، حتى أَنَّ زائرًا محترفَه قال يومًا: «هذه ليست تذكاراتِ وُجوهٍ بل ذكرياتُ أَرواحٍ حية».

قلتُ مرارًا إِنَّ جبران كان واعيًا تمامًا قيمة عمله. وأَمام رسومٍ له لم يوقِّعْها، كان بين أَصدقائه مَن يسأَلُه عن السبب، فيبتسمُ لحظةً ويُجيب: «ولِمَ أُوَقِّعها؟ سيُعرف أَنها من جبران، ولو طويلًا بعدما أُمسي مُمدَّدًا في عتمة الأَرض الطيِّبة تحت أَشجار الأَرز»[٤].

«عتمة الأَرض الطيّبة»! غالبًا ما تردَّدت هذه العبارةُ على شفتَيه. كان يحب التراب الحسِّيَّ وكلَّ ما يَنْبُت فيه، من هنا شعوره حيال الأَشجار بالاحترام والتقديس، وقولُه: «لو لم تكن في الأَرض إِلَّا شجرةٌ واحدة، لوَجَبَ على شعوب جميع الأُمم أَن تَحُجَّ إِليها وتركعَ أَمامها وَتَتَعَبَّدَ لها».

كان يحب أَن يلْمس الخشب في الطبيعة. وكم مرةً لَمَّ غصنًا مكْسورًا في بستانٍ أَو غابةٍ وحافظَ عليه كَنزًا عنده، وقد يَنحَتُه إِلى شكل جميل. وفي المحترف أَيضًا مجموعة حَصًى صغيرة جمَعَها «عن كل شاطئٍ عند كل بحر من الكوكب»، ويدُلُّ عليها بشغفٍ يفوق لذةَ من يعتزُ بمجموعاته النادرة من الذهب اللمَّاع.

اهتمامه بتشكيل الحجارة بادٍ في معظم أَعماله. ففي لوحته «الصمت»، وجهُ امرأَةٍ أَبيضُ، كأَنها من مرمر، إِصبعاها على شفتَيها، وخلفَها في عمق اللوحة مشهدُ صخورٍ عند التدقيق به عن قُربٍ تَظهر في الحجارة الصغيرة وجوهُ ناس متلازَّة.

اتِّحادُ الإِنسان بالطبيعة، بالصخرة، بالغيمة، بالشجرة، بالنهر، بالشلال، ظاهرةٌ تتكرَّر في أَعماله، بالقلم الرصاص أَو بالريشة. وسعادتُه، حين يُنهي رسمَ إِحدى هذه

MANY of the poems in this book appeared originally in *The New York Times;* "Remedy," was published in *Delineator;* and "Eaglet" first saw publication in *Pictorial Review.*

إشارة إلى أَنّ عددًا من قصائد هذا الكتاب صدرت قبْلًا في جريدة «نيويورك تايمز» والمجلة النسائية «ديلينياتور»، و«المجلة المصوَّرة» (وهي أيضًا مجلة نسائية).

To
Anne Sherman Hoyt

"Your friend is your needs answered.
He is your field which you sow with love
And reap with thanksgiving.
And he is your board and your fireside."

Kahlil Gibran

إهداء الكتاب «إلى آنَّا شيرمان هُوْيْتْ» (١٨٧٥–١٩٥١). وهي صديقة باربره، وكانت تسكن في مدينة شارُن (ولاية كونيكْتيكَت) حيث كتبَت باربره كتابها عن جبران.

على الصفحة ذاتها عبارة لجبران من فصل «الصداقة» في كتابه «النبي». والعبارة هي: «صديقُك هو جوابُ حاجاتِك. هو حقلُك الذي تزرعه بِحُب، وتحصده بشُكران. وهو جنبُكَ وجانبُك».
خليل جبران.

٥ كان وسَّع الفكرةَ في فصل «الجمال» من كتابه «النبي»: «أَين تبحثُون عن الجمال، وكيف تجدونه إن لم يكُن هو ذاتُه طريقَكُم ودليلَكُم إِليه؟ يا أَبناءَ أُورفليس: الجمالُ نبْضُ الحياة حين تَكشِفُ عن وجهها المقدس. أَنتمُ الحياة وأَنتم الحجاب. الجمال هو الخلُود معكوسًا في مرآة. وأَنتمُ الخلُود وأَنتم المرآة».

الروائع الصغيرة ويقارنها مع رفيقاتها السابقات، تفوق سعادةَ ولَدٍ أَمام اكتشافِهِ كنزًا. كانت شهقته تشعُّ ساطعةً كأَنه أَمام عملٍ لسواه ولا يَدَ له فيه.

وجبران، كسائر العباقرة الكبار، لا يفكّر في متلقِّيه إِبّانَ لحظاتِ إِبداعه. كان يكرَه أَن يرى عملَه غيرُ أَصدقاء من حلقته الأَقرب. في سنواته الناضجة، كان يمانع في عرض أَعماله، ويصُدُّ محاولاتِ إِقناعِه بإِقامة معرضٍ، صارخًا: «أَبدًا. لن أَعرض رسومي لناسٍ يريدون أَن يشتروها».

عملية الشراء والبيع لم تكن في حسبانه. كانت نظرتُه تغوص إِلى أَبعد، فيرى عالَمًا فيه نزاعاتٌ وإِرهابٌ وتـمزُّقٌ ودمار. كان يعي، كما جميع الرجال الرائين، أَن الحرب التي اصطرعَت بها قوى العالم العظمى لم تَؤُلْ إِلى الخير ولم تحقِّق السلام.

كان يقول: «لا تندلع حرب لمزيد من الحرية بل لمزيد من الوعي». وفعلًا: هذا الـ«مزيد من الوعي» هو الذي يعطي الأُمم إِرادة عنيدةً لتحقيق نصرٍ سيعطي عالم اليوم مزيدًا من الحرية.

هكذا كان هذا الرجل من لبنان يسنُّ على طريقته سلاحًا يحقِّق سلامًا موعودًا. إِنه «خَلْقُ الجمال» كما كان يسمِّيه. ويضيف: «كل ما عداه فَلْينسحقْ إِلى الجحيم». وطبَّقَ حرفيَّة عبارته، مؤْمنًا بأَنَّ خَلْق الجمال في العالم وتَبَنّي البشر إِيَّاه في أَهدافهم ونتاجهم°، يُؤَسسان لنهضةٍ عظيمة من العدالة والشغَف والعبادة. عندها تصبح الأُرض الخضراء الطيبة واقعًا سماويًّا.

لم يكن واهمًا بل مُدركًا أَنَّ دون تحقُّق ذلك مرحلةً طويلةً من النزاع والصراع والانتظار. كان يعرف – أَفضل من كل الناس – أَنَّ هذا القرن هو الفجر الذي يسبق الفجر. كان يعلم ذلك، ولم يكن يتردَّد في القول إِنَّ التطوُّرَ فكرةٌ خاطئةٌ هائلة يجب وقْفُ دروبها الشريرة حتى تبلغَ العقولُ والنفوسُ إِرثها الذي تستحقُّه.

كان يقول: «لا دين ولا علْم فوق الجمال». وكان يثور بنقمةٍ صارخة على سخافاتٍ خفية يمارسها كثيرون باسم الدِين وباسم العلْم. لذا كتب قبل وفاته بأَيَّام: «سخَّرنا كوكبنا الأَرضيّ لِجياد العلْم النارية، وها هي تصهل بنا جارفةً كوكبَنا إِلى جحيم الآلات».

٦ هي الحرب العالمية الأُولى التي عاش جبران، ولو عن بُعد، ويلاتِها على شعبه في لبنان وكتب لهم وعنهم، ونشط في لِجانٍ عملت على المساعدة والتحرير، منها «لجنة إعانة منكوبي سورية ولبنان» (حزيران ١٩١٦) برئاسة نجيب شاهين معلوف، وأَمين الريحاني نائب الرئيس وجبران أَمين السر، ثم «لجنة تحرير سورية ولبنان» (تشرين الثاني ١٩١٨) وكان جبران من مؤَسِّسيها.

٧ في بال جبران هنا «تمثال الحرية» المُنتصب على جزيرة صغيرةٍ قُبالة ميناء نيويورك في أسفل مانهاتن. وهو «هدية من الشعب الفرنسي إلى شعب الولايات المتحدة»، صمَّمَهُ سنة ١٨٨٦ المهندسُ الفرنسيُّ غوستاق إيفل صاحب البرج الشهير باسمه «برج إيفل» (پاريس ١٨٨٩).



رسْم «الأَعمى» (١٩١٥) وفيه يرمي جبران، وفْق باربره، إلى أَنّ «الأَعمى هو أَعمى القلب لا العينين».

إِبَّانَ الحرب الأَخيرة[٦] تكوَّنت لجبران فكرة مُرَّة مَقيتة عن رؤْيا تشكَّلت لديه عما سيكون لغزو الفضاء من أَذًى للعالم ولأُمم الأَرض. قال مَرة في حلقة أَصدقاء: «لو كان لي لحطَّمتُ كل طائرة فوق الأَرض، ونزعتُ من بال البشر كلَّ ذكْر لهذا الشيطان المحلِّق». وإِذ استغرَبَ أَحدُهم كيف يتلفَّظ بهذا الكلام أَجابه بعُنف: «لأَن الإِنسان لم يُخلَقْ كائنًا للفضاء بل للأَرض. الأَرض بيتُه ومملكتُه، ومع ذلك لم يتوصل بعد إِلى السيطرة على هذه المملكة فكيف على الفضاء. إِن جميع الملائِكة ورؤَساء الملائكة وسكَّان العالم العلوي سينتقمون من الإِنسان إِن لم يَتَخَلَّ عن إِزعاجه الشرِّيرِ أَثيرَهم الحُرَّ النقيّ. وحدَها روحُ الإِنسان المجنَّحةُ فَلْتطِرْ إِلى العَلَوات غير المرئية».

لم يكن يمكنه التحدُّثُ في هذا الموضوع إِلّا بحُزنٍ ونقمة. من هنا قولُه: «سيُصيبُ مدنَ الأَرض دمارٌ كثيرٌ ويتساقط الشباب والعذارى حياله كما براعمُ مقصوفةٌ تسقطُ من شجرة لوز أَو زيتون، ولا ثمارَ عليها».

هكذ حَدَسَ بانهيار مدُنٍ، واستشهد مرَّةً بكلام من «النبي»: «أَسلافكُم ضَمُّوكم في خوفهم إِلى بعضكم بعضًا. وهذا الخوف سيطول حتى تنْشُبَ أَسوارُ مدينتكم فتفصل بيوتكم عن حقولكم».

وأَكمل: «سوف يطلُّ فجرٌ بيومٍ جديد فنعود مجدَّدًا وإِذا كلُّ شيء تغيَّر، والأَرضُ أَصبحت أَرضَ الرب، ويكون خيرٌ كثير».

كانت له رؤْيا أُخرى في حلْمٍ وصفَه لي كما يلي: «سأَبني مدينةً ذاتَ ميناء، وعلى جزيرةٍ قُبالةَ الميناء سأُقيم تمثالًا، لا للحرية[٧] بل للجمال. تمثال الحرية يقام لمن أَقدامُهم سعَت دومًا إِلى التقاتل والصراع، وتمثال الجمال لمن أَمام وجهه تتكاتف أَياديهم كالإِخوة».

كان جبران واعيًا جدًّا ما يعانيه معظم الناس في العالم من فقْر مادّيّ وروحيّ وعقليّ. كان يعرف عَماهُم. من هنا رسْمُه لوحة «الأَعمى» راميًا بها لا عميانَ العيون بل عميانَ القلوب.



من رُسوم جبران

٨ كان محترف جبران في الطبقة العليا من المبنى، يُرقى إليه بدَرَج خشبيٍّ عتيقٍ طويلٍ شبْهِ مظْلم.

كانت أَحزان الإِنسانية وآثامُها تستحوذ كثيرًا على تفكيره بحُرقةٍ بالغة. كان يعرفُها جيدًا وكان له من حياته ما يجعلُه يعرفها.

مضت سنواته في المُحترف سلسلةَ خدَماتٍ ومساعداتٍ واستشاراتٍ متواصلة يُسديها إِلى مَن يشْكون من الكُربة والاضطرابات. يومًا بعد يوم، كان مُعانون من الحيرة والقلق يرتقون خطوات الدرج الطويل ليبلغوا المحترف[٨] ويُلقوا همومهم أَمام هذا الرجل الذي من بلادٍ أُخرى، من عالم آخر، وقد يبدو لهم أَحيانًا من زمنٍ آخر. استيعابُه السريعُ همومَهم لم يُخطِئْ مرةً، ولا قصَّر يومًا عن إِيجاد حلٍّ فوريٍّ لمشاكلهم، أَو أَقلَّهُ لتحفيز صبرهم وشجاعتهم. كان حلُّه بسيطًا: تذكيرٌ بحقيقةٍ لازمنيةٍ ولاأَرضية، بقانونِ حياة، ليس لها من شفتَيه عقيدةٌ ولا مذهبٌ بل شفاءٌ سحريٌّ لِجُرحٍ غيرِ مرئيّ.

البساطة... هذه هي الكلمة التي تعكس حقيقةَ هذا الرجل الكامل الشخصية والنتاج، وصلابةَ تفكيره وعُمقَ أَفكاره. وهذه الكلمة ذاتها تنطبق على قلَّةٍ من عظماءَ عبر العصور بينهم أَربعةٌ كَتَبَ جبران عنهم: «سقراط، يسوع، جانّدارك، لنكولن... أَبهى أَربعةٍ عرفهم العالم ودفَعَ بهم إِلى الموت فيما تتردّدُ وسْعَ الفضاء ضحكةٌ هازئة».

هذه البساطة كان يزاولها في حياته اليومية وعمله اليومي. وذات حقْبة من حياته، حين كان يُكَرَّمُ بعشاءٍ غالبًا في مطعمٍ، أَو يحتفي به أَصدقاؤُه بفرَح، كان يلتزم بما يسمِّيها «فسحة صيام، كي أَقوى على احتمال عاطفتهم الصادقة وما عملوه من أَجلي».

في المحترف، كان يحبُّ حساء بسيطًا متقشِّفًا يُرفِقُهُ بمزحة طريفة كانت إِحدى طرقه لتخفيف الضغط لحظاتٍ من عناء عمله المتواصل. مرة قال لي:

– في الشرق تقليدُ تناولِ الطعام من قصعةٍ واحدةٍ كبيرة. فلْنتناول حساءَنا الليلة في قصعة واحدة.

وقام فحضَّر الحساء (الشورباء) ورتَّب الطاولة الصغيرة للعشاء وجاء بقصعةٍ كبيرة نثر فيها فُتاتًا من الخبز اليابس المُحمَّص، وكان حساءً مصفًّى ودسمًا. جلسنا للعشاء. ثم أَخذ ملعقةً ورَسَم بها خطًّا وهميًّا في القصعة قائلًا لي بكل وقار:



«اليدُ المباركة»، رسْم كان جبران رسَم مثيلًا له
في أَسفل رسالته إِلى مي زيادة في الإِثنين ١٢ كانون
الثاني ١٩٢٥، وكتب تحتَها: «إِلى ماري من جبران».

- هنا نصْفُكِ أَنتِ من الحساء والخبز المحمَّص، وهنا نصفي أَنا من الحساء والخبز المحمَّص. فلنحتسِ بدون أَن يتناولَ أَحدُنا من حصة الآخر.

ونروحُ نضحكُ، نضحكُ، وكلٌّ منا يتناول من الحساء حصته في نصف القصعة صوبه. ويكون على الطاولة الصغيرة كأْسُ نبيذ، ومعه كسراتُ خبز نغْمسها في النبيذ. وهذه أَيضًا من عاداتٍ له يحبُّها. ثم يختم العشاء بتدخينه سيكارة.

أَمام هذا المشهد الطريف، لا يتصوَّرُ أَحدٌ أَنَّ الرجل الذي مارس بكل طيبةٍ عفويةٍ هذه المزحة، وبكل مرحٍ ضاحك، هو ذاته الذي قال يومًا عن شخصه: «يؤْسفني أَنَّ الناس لن يُشكِّلوا لي إِكليلًا إِلَّا يومَ يصبح رأْسي أَعلى من أَن يطالوه بأَيديهم كي يُتَوِّجُوني به».

كان أَحيانًا يثير تعقيداتِ الحياة العصرية، شَغوفًا بالإِبقاء على كلِّ جميلٍ قديمٍ يوائمُهُ مع حياة أَبناء العصر وبَناته، ويقدِّمه لهم بسيطًا طبيعيًّا.

قال لي مرةً:

- الحياة والحب والموت، أَعظمُ ثلاثةِ أَحداثٍ في الحياة، سواءٌ في الشرق حدوثُها يكونُ أَو في الغرب.

كان يرى أَنَّ هذه الأَهمياتِ الثلاثَ خاضعةٌ لمصيرٍ مصطَنَع بلا معنى.

وفي يوم آخر صرَخَ لي:

- الرمزية؟ ... إِخلعي هذه الكلمة. فَلْنقُل بـ«الحقيقة المرئية»، بـ«الجمال الملموس»، بالبساطة لا بالرمز.

البساطة...

كان يرى إِليها ميزةً إِلهيةً، بفُقدانِها يضيعُ البشر ويضلُّون تائهين في الزمان والمكان.



شعار «الرابطة القلمية» كما صمَّمه جبران بهذا الخط ذي الزوايا القائمة.

وفوقه رسمُ كتاب مفتوح وراء مصباح في طرفه الأَيمن ريشة، وفي طرفه الأَيسر شعلة.
على الصفحة اليُمنى عبارة: «للّه كنوزٌ تحت العرش»
على الصفحة اليُسرى تتمة العبارة: «مفاتيحها أَلْسنةُ الشعراء»
والعبارة مأْخوذة من حديث نبَوي شريف.

١ ليس حسابُها دقيقًا. فجبران كان في الثانية عشرة (٦ كانون الثاني ١٨٨٣ – ٢٥ حزيران ١٨٩٥) حين وصل إِلى نيويورك من بْشَرِّي مع عائلته، ثم غادر بوسطن (٨ آب ١٨٩٨) إِلى بيروت للدراسة في مدرسة «الحكمة»، ممضيًا ثلاث سنوات عاد بعدها (٢٠ نيسان ١٩٠٢) إِلى بوسطن. فتكون سنواته في لبنان نحو خمس عشرة سنةً لا أَكثر.

٢ أُرجِّحُ أَن تكون هي تلك «السيدةَ الأَميركية»، لأَن إِجابةً من هذا النوع شبيهةٌ بـما لاقت باربره في لبنان من هالةٍ لـجبران لدى مواطنيه.

سحرُ اللغة العربية

سعِدتُ بالتعرُّف إلى كثيرين من نخبةِ مواطنينا الأَميركيين من أَصلٍ لبناني، وبمعرفةِ ما كانوا يَكُنُّون لمواطنهم الشاعر من عمْق حُبٍ ورفعةِ اعتزاز. فجبران أَمضى أَول عشرين سنة من حياته، إِلَّا اثنَتَين منهما، على الأَرض التي أَطلعَت رائين وأَنبياء[١].

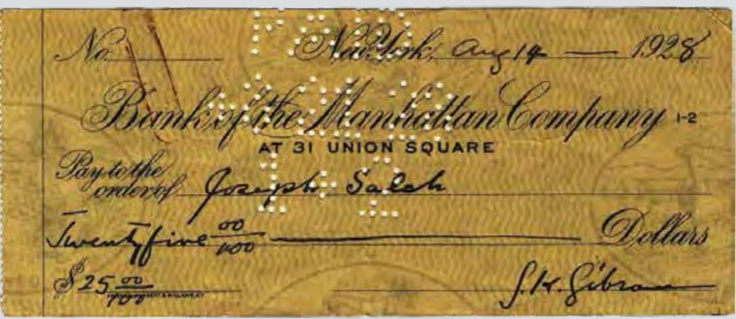
وحتى في تلك السنوات الباكرة، تَمكَّن جبران، بالجمال والجرأَة في حياته وأَقواله، من أَن يَرسم لشخصه وشخصيته هالةً ساميةً في قلوب ١٥٠ مليونًا من الطلَّاب وعُشَّاقِ الجمال قُرَّاءِ العربية، وأَكثر منهم أَيضًا بين الناطقين بها ولو لم يكونوا يقرأُون بها أَو يكتبونها وهُم، يا لدهشتي إِذ علمْتُ، يشكِّلون ٣٠٠ مليون نسمة على وجه الأَرض.

عن سيِّدةٍ أَميركية كانت تزور لبنان أَنها الْتَقَتْ شاعرًا شابًّا بادرَتْه: «أَعرف مواطنًا لكَ في نيويورك اسمه خليل جبران. هل تسمع به»؟ فعاجَلَها بالجواب: «هل تسمحين، سيِّدتي، بأَن أَسأَلَكِ إِن كنتِ تسمعين بشكسبير»[٢]؟

كثيفٌ نتاجُ جبران بالعربية كتاباتٍ وكُتُبًا. أَوَّلُ هذه الأَخيرة كُتيِّبٌ عن «الموسيقى» سرعان ما اجتذب قرّاء الفن في العالم العربي. وتَلَتْه كتبٌ أُخرى: «دمعة وابتسامة»، «العواصف»، «عرائسُ المروج»، «الأَجنحة المتكسِّرة»، فـ«الأَرواح المتمردة» أَجْرَأُها وأَشهرُها، ثم «البدائِع والطرائِف» المقتطَفُ من كتابات جبران



جوزف صالح وزوجتُه وأَولاده
وأَدناه شيكّ له من جبران بخطّه وتوقيعه
في ١٤ آب ١٩٢٨، قيمته ٢٥ دولارًا.
وهو من حساب جبران المصرفي
في «بنك مانهاتن».



No. New York, Aug 14 — 1928
Bank of the Manhattan Company 1-2
AT 31 UNION SQUARE
Pay to the order of Joseph Saleh
Twenty five 00/100 Dollars
$25 00/100
G.K. Gibran

٣ وإِنه فعلًا مجموعة نُصوص سابقة. في كتابي «جبران خليل جبران – شواهدُ الناس والأَمكنة» (ص ٣٨) وقائعُ لقائيَ الخورأُسقف منصور أسطفان (أَيلول ١٩٨٣) متقاعدًا في بيته (غوسطا – كسروان) وهو روى لي قصة الكتاب كما يلي: «كنتُ في القاهرة منذ ١٩٢٤ أُدَرِّس العربية لدى مدرسة الآباءِ اليسوعيين في الفجالة، قريبًا من «مكتبة العرب» التي تعرَّفتُ بصاحبها اللبناني يوسف توما البستاني، ورُحتُ أَتردَّدُ عليه فيَطلبُ مني أَحيانًا أَن أُساعدَه في التنقيح والإِشراف على صدور بعض المؤَلفات العربية. ذاتَ يومٍ قال لي: «لِـجبران خليل جبران مقالاتٌ مبعثَرةٌ منشورةٌ في مَجَّلاتٍ وصحفٍ متفرِّقة بين مصر ولبنان وأَميركا، أَنْوِي جَمْعَ باقةٍ منها لإِصدارها في كتاب. ما رأْيُك لو تَتولَّى ذلك»؟ وافقتُ على الفور، تُغريني شُهرةُ جبران، فانكبَبْتُ أُراجع مقالاتٍ له كثيرةً في كتابَيه «دمعة وابتسامة» (نيويورك ١٩١٤) و«العواصف» (آخِر كتُبه في العربية، صدر عن منشورات «الهلال» في القاهرة سنة ١٩٢٠) وفي صُحفٍ ومَجلَّاتٍ عدَّة، انتَخَبْتُ منها ٣٦ نصًّا بين نَثْرٍ وشِعرٍ، بَوَّبْتُها واخترتُ لها ١٣ رسمًا من جبران، وبقيتُ أُفكِّـرُ يومَين في عنوانٍ لهذه المجموعة، حتى وجدْتُ لها اسم «البدائِع والطرائِف»، وأَشرفتُ على طَبْعَتها الأُولى في حُلَّة لائقة سنة ١٩٢٣ لدى منشورات «مكتبة العرب» ليوسف البستاني بعد خلافٍ له على النشْر مع إِميل جرجي زيدان الذي كان يريد هو إِصدارها في منشورات «الهلال». وفي تلك السنة ذاتِها أَصدر جبران في نيويورك كتابَه «النبي» لدى منشورات «كنوف».

أراءٍ ومقالاتٍ وقصائدَ منثورةً في كُبرَيَات المجلات والصحف العربية[٣]. وحين صدر الكتابُ حاملًا تلك المنتخبات وتسَلَّمه جبران، قال لي مدهوشًا:

– كنتُ ناسيًا كلِّيًّا هذه الرسوم. لا أَذكُر أَين وضعتُها، ولا من أَين حصل عليها الناشر.

وهي رُسومٌ كان، وهو في السابعة عشرة، وضعَها بالحبر الصيني وبالقلم الرصاص لشعراء عرب، قال لي عنها يومًا:

– لم تكن لِهؤَلاء العِظام صُوَرٌ فوضعتُها لهم من مُخيِّلتي.

وأَراني منها وجهَ ابن سينا قائلًا:

– أَلَا يُشبه ليوناردو داڤنتشي؟

كان جبران طوال حياته كريمًا متساهِلًا في سماحه بنشْر نُصوصه ورُسومه. فكتابُهُ «النبيّ» بدأَ يرفدُه بِمردودٍ، وبدأَت ترجماته تَصدُر في نحو عشرين لغةً.

قال لي يومًا:

– جاءني مبلغُ ٢٤ دولارًا من دار نشر هولندية أَصدرَت «النبي» بالأَلمانية، مع أَنني لم أُطالبْهم بأَيِّ حقوق.

في كنيسة القديس مرقس (الباوري، أَسفل مانهاتن)، وهي إِحدى أَقدم الكنائس في المدينة، تَجري سنويًّا قراءةُ منتخباتٍ من «النبي» في طقس تَقَويّ شبْهِ ديني. وهناك، كما ذكرتُ سابقًا [في مطلع هذا الكتاب]، جَرَت للمرة الأُولى قراءةٌ علنيةٌ من الكتاب بُعَيْدَ ظُهوره.

وفي تلك الكنيسة أَيضًا احتفالٌ دوريٌّ طقسيٌّ مسائيٌّ كاملٌ: «أَناشيدُ خليل جبران، شاعرٌ نبيٌّ من لبنان». ومن يُصغي إِلى تلك التراتيل الساحرة ترافقُها أَنغامُ الأُرغن، لا يمكن أَن ينساها كلَّ حياته.

جميعُ هذه الاحتفالات من تنظيم الدكتور وليم نورمان غُثري الذي كان راسخَ الإِيمان برسالة جبران كَـ«نبيٍّ معاصر». وكان يقول عن كتاب «يسوع ابن الإِنسان» إِنه «الإِنْجيل بِحسَب جبران».



بابره يونغ في محترف جبران، بعد وفاته، وهي بقيَت أَشهرًا في المحترف، تعمل على تنفيذ قرارٍ أَوصت به شقيقتُه مريانا.
وهي هُنا مع ابنتها الوحيدة مارجُري (تزوَّجت لاحقًا ولها ولدٌ وحيد: كريستوفر، هو الذي اصطحبتْه باربره معها لاحقًا (تشرين الأَول ١٩٣٩) في مجيئها إِلى لبنان وزيارة بيته وضريحه في بشري، ومدرسة «الحكمة» في بيروت.
ولاحقًا (سنة ١٩٤٧) أَصدرت كتاب قصائد للأَطفال بعنوان «يا كريستوفر» أَهدتْهُ إِلى حفيدها.

٤ هكذا باربره يونغ سَـمَّت «الرابطة القلمية». وذِكْرُها أَنَّ هذه وُلِدَت بُعَيد انتقال جبران إِلى نيويورك (١٩١١) يُشير، عن صوابٍ، إِلى ما يرى دارسُون أَنَّ «الرابطة» تأَسست بِصيغتها الأُولى في نيسان ١٩١٦، وعاشت فترةً ضئيلةً بسبب اشتداد الحرب العالَمية الأُولى وانصراف أَعضاء تلك «الرابطة» (وفي طليعتهم جبران والريحاني) إِلى العمل المضْني في «لجنة تحرير سوريا وجبل لبنان». بعد انحسار الحرب وتَرَدُّداتها عادت «الرابطة» إِلى التشكُّل، بصيغتها المعروفة، إِبّانَ اجتماعٍ أَول في جريدة «السائح» مساءَ الثلثاء ٢٠ نيسان ١٩٢٠، في ختامه دعا جبران رفاقَه المجتمعين إِلى اللقاء في مُحترفه («الصومعة») مساءَ الأَربعاء ٢٨ نيسان. وفي ختام هذا الاجتماع وُلِدت الصيغة الجديدة لـ«الرابطة القلمية» كما دَوَّن ميخائيل نعيمه مَحضرَ جلستِها التأْسيسية التي تَمَّ خلالها بالإِجماع انتخابُ جبران عميدًا لها، وميخائيل نعيمه مستشارًا، ووليم كاتْسِفْليس أَمين الصندوق.

٥ هو ميخائيل نعيمه، نظرًا لـ«الوُدّ المفقود» المُتبادَل بينهما.

من حيث الشكل، لا تُشبه «أَناشيدَ» جبران الشعريةَ إلَّا ترجمةُ الملك جيمس الإِنكليزيةُ الكتابَ المقدس: صفاءٌ في التعبير، بساطة، قوةُ سحر، عباراتٌ وصوَرٌ نابعةٌ تلقائيًّا من الأَرومة ذاتها.

الإِرثُ الثمينُ الذي وَسَمَهُ جبران في الشعر العربي يبقى خفيًّا عن العالم الناطق بالإِنكليزية. و«سِحر العربية منقولًا إِلى سحر الإِنكليزية» يلزمه لا أَقلَّ من شاعرٍ مبدعٍ بالإِنكليزية متمكِّنٍ من المضامين في العربية ومهاراتها، وليست المهمةُ مُجرَّدَ ترجمةٍ مسطَّحةٍ سليمةٍ بل يجب أَن تكونَ عمليةَ إِعادةِ خلقٍ شغوفةً من لغته العربية الأُمُّ إِلى الإِنكليزية التي اعتنقها.

بعد فترة وجيزةٍ من انتقال جبران إِلى السكنى في نيويورك وِلدت في محترفه الأَكاديميا العربية[٤]. وصدف أَن وَجدتُ في المحترف قطعةً من ورقة بيضاءَ عليها هذه الكلمات بِخَطّ جبران: «أَكاديميَّتُنا مشَكَّلةٌ من ١٢ شاعرًا سوريًّا معظمُهم من الشباب ولن يزيد عددُهم عن ذلك. وحدَهُ الموت يُفسح في انضمام شاعرٍ جديدٍ إِلى الحلقة التي هي أُمُّ الشعراء في حلَب والقاهرة ودمشق وبيروت وطرابلس».

كانت الغايةُ، لدى أُولئك الاثنَي عَشَر، رفْدَ الشعر العربي بـ«شغفٍ مثلَّثٍ: الإِيمان والحب والعمل حتى تستطيعَ البُذُورُ من مَطالع الجمال والحقيقة تحقيقَ نُمُوِّها وتَفَتُّحِها في أَدب الشعب العربي كما في قلوب بَنِيه».

منذ تأْسيس تلك الأَكاديميا حتى اليوم، توفي قائدُها جبران وثلاثةٌ من أَعضائها. وبين الباقين واحدٌ لن أَذكُرَ اسمه[٥] خَرَج عن الإِيمان بغايتها، فيما يواصل الآخرون ولاءَهم للإِرث النبيل ووفاءَهم لذكرى زميلهم الحبيب ومواطنهم الذي سبَقهم إِلى العالم العُلويّ.

ولا نظُنَّنَّ لبرهةٍ بأَن وَلاءَ أُولئك الرفاق لجبران كان لُطفًا إِخوانيًّا أَو إِخلاصًا عاطفيًّا وحسْب. كان كلُّ واحدٍ منهم ذا موهبةٍ مُمَيَّزة، لكنهم كانوا مدركين أَيَّ عبقريٍّ كان بينهم، ويرَون إِليه ذا قوّة عظمى وحكمةٍ عليا، مستقيًا هالتَهُ من مصدرٍ صوفيٍّ علويٍّ يَجهلونه. وكانوا يجتمعون حوله بِلَذَّةٍ ويتحادثون بفرحٍ، فيقرأُون أَمامه


مجموعة الرابطة القلمية لسنة ١٩٢١

الصفحة الأُولى من كتاب «مجموعة الرابطة القلمية لسنة ١٩٢١»، وهي بخط جبران زخرفيًّا مع زخرفة صغيرة منه في أسفل الصفحة.


جبران خليل جبران
عميد
ميخائيل نعيمه
مستشار
وليم كاتسفليس
خازن

الرابطة القلمية
ARRABITAH
51 WEST 10TH ST. NEW YORK

ندره حداد
ايليا ابو ماضي
وديع باحوط
رشيد ايوب
الياس عطا الله
عبد المسيح حداد
نسيب عريضه

الورقة الرسمية لمراسلات «الرابطة القلمية»، إلى اليمين، «وظائفها» الثلاث: جبران عميدًا، ميخائيل نعَيمه مستشارًا، وليم كاتسفليس خازنًا.
وإِلى اليسار، الأَعضاء: ندرة حداد، إِيليا أَبو ماضي، وديع باحوط، الياس عطاالله، عبدالمسيح حداد، نسيب عريضة.



جلسة مع «العميد جبران».
عن يمينه نسيب عريضة، وعن يساره عبدالمسيح حداد وميخائيل نعَيمه.

قصائدَهم ويُصغون إلى قصائد رفاقهم، ويتناقشون ويتحاججون وقد «يتعاركون» – كما كان جبران يقول – لأَنهم أَقوياءُ ولا يَحيد واحدُهم عن موقفه بدون اقتناع.

مراتٍ كثيرةً سمعتُ جبران يسميها «أَكاديميايَ». كان أَعضاؤُها إِخوةَ روحِه ومواطنيه الأَرضيين، يتكلَّمون لغتَه، لا عربيَّـتَهم الأُمَّ بل لغةَ قلبه، لغةَ الشاعر، لغةَ الجمال والحقيقة، لغةَ كلِّ قديمٍ وجميل، لُغةَ الشرف والعدالة والشغَف.

كانوا – وسْطَ ضجيج أَميركا وصخبها عند مطالع القرن العشرين – يؤْمنون بكل أَمر خيِّر وعنه يدافعون. فلا غرابة أَن كان جبران يسمِّيها «أَكاديميَايَ» بحماسةٍ تَقْرُبُ من قوله «بلادي». كان عميقَ الإِيمان بآلافِ لبنانيين وسوريين باتوا اليومَ مواطنين أَميركيين يُسهمون في نهضة حياتنا الوطنية الأَميركية وفي فنوننا والآداب.

ظلَّ جبران حتى آخر حياته يَكتب بلغته الأُم الغالية على قلبها ومَشاعره. ومع مرور الأَشهر كان يحب أَن يقرأَ بها جهوريًّا ويلتذُّ بسماعه رنَّة كلماتها.

وكان مُحَبَّبًا إِليه أَن يتناول الكتاب المقدَّس ويقرأَ فيه مقاطع من كتاب راعوث أَو إِشعيا أَو أَنبياء آخرين، مترجِمًا بعض الآيات كي نستطيع مقارنتها بالترجمة الإِنكليزية أَمامَنا. ومما آسَف له بكل ندَمٍ أَنني، إِبَّان عملنا معًا، لم أُدوِّن لَحَظاتئذٍ ترجمتَه تلك الآياتِ من العربية إِلى إِنكليزيةٍ مصقولة، وأَحيانًا بارعة، كم كنت أَوَدُّ حفظها.

كان له اهتمامٌ خاص بأَداء كلمات يسوع، لمعرفته الفروقات في الآرامية التي تكلَّم بها يسوع، حتى أَن ترجمَته إِيَّاها توضحها أَكثر، لأَن الترجمة الإِنكليزية المتوافرة تبتعَد أَحيانًا في بعض معانيها عن مقاصد الناصريِّ الشاب. تلك المعاني الأَساسية كانت ماثلةً بقُوَّةٍ في باله وهو يؤَلِّف «يسوع ابن الإِنسان». فمرارًا كان يقولُها بالعربية متمتِّعًا بأَنْ ليس في الإِنكليزية لفظةٌ مرادِفةٌ تعبِّر بالضبط عن المعنى الذي يريده، فيعلِّق:

– في العربية خمسون كلمةً لمَشاعر الحب، وليس لها في الإِنكليزية سوى كلمة واحدة.



الغلاف الخارجي لكتاب «مجموعة الرابطة القلمية لسنة ١٩٢١» كما زخرفه جبران خطًّا وإطارًا.



شعار «الرابطة القلمية» على الغلاف الداخلي من منشور لـ«الرابطة» – نيويورك ١٩٢٠

٦ يوميَّة محليَّة صدَرَت سنة ١٨٩٦ في مدينة سْـپْـرِنْغْفيلد (ولاية ماساشُوسِتْس)، واحتجبَتْ سنة ١٩٧٦.

٧ يومية صدرَتْ بهذا الاسم سنة ١٨٢١ في مدينة مانشِستر، حتى تغيَّر اسمها سنة ١٩٥٩ إلى «الغارديان» وانتقلَت تَصدُر من لندن.

٨ مهندسٌ وكاتبٌ أَميركي (١٨٦٦–١٩٤٦) كان صديقًا مقرَّبًا من جبران، ومؤْمنًا مثْله بالتقمُّص. في سيرته الذاتية «أَكثرُ من حياةٍ في واحدة» (نيويورك ١٩٣٨) كتَب عن جبران أنه «نبيٌّ حديثٌ من لبنان». وفي احتفالِ تأْبين أَقامه الدكتور تشارلز فْلِشِر مساء الأربعاء ٢٩ نيسان في متحف رُوريتْش (نيويورك)، أَلقى براغْدُن مَرثيَّتَه «جبران ما زال حيًّا وسيبقى حيًّا إلى الأَبد» (عن مجلة «العالم السوري»، السنة الخامسة، العدد ٨، نيسان ١٩٣١، ص ٢٩ و٣٠).

٩ ذكَر معنًى شبيهًا في فصل «الدين» من «النبي»: «الدِين هو كلُّ ما في الحياة من مآثر وأَفكار... مَن ذا يستطيع فصْلَ إِيمانه عن أَعماله؟ حياتُكم اليومية هي دِينُكم، وهي هيكلُكم فادخُلوه بكلّ ما فيكم وما لديكم».

كان تضلُّعُهُ الواسعُ بعربيَّتِهِ الأُمّ دونه في لغته المتبَنَّاة. ولعلَّ هذا ما جعل إنكليزيتَه بِتَيْنِكَ البساطة والنقاوة.

حين ظهَر «يسوع ابن الإنسان» سنة ١٩٢٨ صدَر في جريدة «سْـپْـرِنْغْفيلد يونيون»[٦] مقال جاء فيه: «إنكليزيةُ جبران تتميَّز بِجَمالها ونصاعَتها، وتبلغُ درجةً من الكمال ذاتَ تأْثيرٍ حتى في أَبناءِ الإنكليزية الأُم». ولا أَشُكُّ مطلقًا بفعالية هذا التأْثير.

في تلك الفترة ذاتها صدَر في جريدة «مانشِسْتر غارديان»[٧] البريطانية مقالٌ عن أَشهر الكُتَّاب المعاصرين، ذكَرَ ستَّةً منهم اعتبرهم أَهَمَّ مَن أَبدعوا في الإنكليزية، بينهم اثنان ليسَا من أَبنائها: خليل جبران وجوزف كونراد.

وفي تلك الفترة أَيضًا كتب كلود براغْدُن[٨]: «سِرُّ شخصية جبران وعُمقُ تأْثيره على كل العالم العربي أَنه أَطل بما يمكن نَعْتُه «الأُسلوب الجبراني» الذي لا يَصعب على قرّاء الإنكليزية وَسْمُهُ بالرؤْيا الصوفية وجمال إيقاعه ومقاربتِه «مشاكلَ» الحياة ببساطةٍ ونضارة، وبِقُوّةٍ فائقةٍ وثقافةٍ عميقةٍ وحدْسٍ ساطعٍ وحياةٍ غنائيَّةٍ وتَمَكُّنٍ لُغَويٍّ وجمالٍ يُوَشّي كلَّ ما يلمسه».

كل هذا فائض من ينبوعٍ اختصَرَه الشاعر، في فصل «العمل» من كتاب «النبي»، بعبارة سامية: «العمل هو الحبُّ مرئيًّا».

أَما المتزمِّتون المحدُودُو الفكْر فكانوا يَرَون إلى جبران خارجَ التَوَقُّع. وحيال سؤَاله يومًا عن نُظُمٍ وقوانينَ لحياةٍ منتظِمَةٍ مُقَوْنَنَة، أَجاب:

– أَنا لا أَسنُّ قوانينَ للسلوك. إفعلُوا ما شئْتُم كيفما شئتُم ما دمتُم تفعلونه بِجمال.

نسيجُ تفكيرِه وعيشِه كان من البساطة والمباشرة بما يُربك كلَّ رجُل وامرأَة يبحثان عن نُظُمٍ معقَّدة للأَخلاق والفلسفات والمذاهب. وفي جوابٍ له عن معنى الدِين قال يومًا:

– ما الدِين؟ أَنا لا أَعرف إلَّا معنى الحياة. وهي تعني الحقل والكرْم والنَول. الكنيسةُ في داخلكُم، وكلٌّ منكم كاهِنُها»[٩].



غلاف الطبعة الأُولى من كتاب «رمل وزبَد»
وهو أَسود كجميع كتُب جبران لدى كنوف
وعليه رسم «اليد المباركة»

١٠ كان جبران ذكَرَ هذا المعنى ذاتَه في بيتين عند مَطلع المقطع الرابع من قصيدته «المواكب»، هما:

والدِينُ في الناس حقـلٌ ليس يزرعُهُ	غيرُ الأُلى... لَـهُمُ في زَرعِهِ وَطَرُ
مِن آمِـلٍ بِنعيمِ الـخُلْـدِ مُـبْـتَـشِـرٍ	ومِن جَـهـولٍ يَـخاف النارَ تَسْتَعِرُ

١١ مجموعةُ نُصوصٍ فلسفيةٍ (تُعزى إِلى الفترة ما بين ٨٠٠ و٥٠٠ ق.م.) تشكِّل البُنية النظرية للديانة الهندوسية التي، بواسطة تلك النُصوص، عَرَفتْها أُوروبّـا مع مطلع القرن التاسع عشر. تأَثَّر بها في أَلمانيا الفيلسوف أَرثِر شوپـنهاور (١٧٨٨–١٨٦٠) وفي فرنسا تَرجَمَ ڤـيكتور هوغو (١٨٠٢–١٨٨٥) مقاطعَ منها في كتابه الملحمي «أُسطورة الأجيال» (١٨٨٣).

١٢ دليلٌ آخَر على أَن لبنان بقي دائمَ النبض في بال جبران، ليس فقط في كتاباته بالعربية الموجَّهَة إِلى أَبناءِ لُغته الأُمّ، بل حتى وهو يكتُب إِلى قُرّاء الإِنكليزية.

١٣ هو الخورأُسقُف فرنسيس واكيم، راعي أَبرشيَّة مار يوسف المارونية – نيويورك.

وفي جوابٍ آخَر قال:

– الدِين بين الناس حقلٌ يَحرثُه مَن لهم فيه غاية: منهم طامحون إِلى نعمة الخلود، ومنهم جَهَلةٌ يخافون نار الما بعد»[10].

وأَضاف:

– كلُّ أَمرٍ جديرٍ فكرٌ حُرّ. ما يعني وجودَ أَفكار حُرَّةٍ بعدَد أَبناء البشر.

وكان بديهيًّا أَن يُثيرَ موقفُه «الجريْءُ» من التزمُّت اعتراضًا محمومًا. وهذا ما حصل، وانفلتت ضدَّه حملاتٌ قاسيةٌ لم تؤَثِّر رقَّةَ جفنٍ واحدةً في مواقفه. وذاتَ سَأَلَهُ أَحد أَشرس معارضيه:

– ما الذي أَنتَ مُحاولٌ إِنشاءَه؟ طقسَ عبادةٍ جديدًا؟

برَقَت عينا جبران وَارتجَّ في جوابه صوتٌ مُعَبَّأٌ توَجُّسًا وسُخريةً:

– يا صديقي، سأَنحَتُ صخرةً أُركِّزها في حَقلٍ حجرَ الزاوية في هيكلٍ جديد. وإِذ أَموتُ وأَكونُ أَنجزتُ ببساطةٍ ما أَستطيع، سيأْتي طويلًا بَعدي مَن يُضيف حَجرًا آخرَ، وستُولد أَجيالٌ وتموتُ أَجيال، وفي كلِّ جيل سينحتُ أَخٌ لي صخرةً ويضيفها على البناء حتى يكتملَ بناءُ الهيكل فيكونَ بيتًا للعليّ القدير».

لم تستهْوِ جبرانَ شَرائعُ الأَديان ولا كان يُناقش فيها، وإِذا طائفيٌّ تقليديٌّ حاول إِقناعه بقيمةٍ عاليةٍ لمذهبٍ أَو عقيدةٍ كان يجيب:

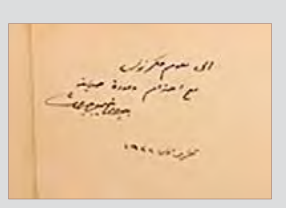
– نعم. كلُّه في طريقٍ واحد.

ويردِّد بعدها من «الأوپانيشاد»[11]: «لا تُجادِلوا مَن لم يولَدْ سوى مرة».

في كتابه «رمل وزبَد»، الحاملِ كنوزًا من الحِكَم، كتَب: «مرَّةً كلَّ مئة سنةٍ يَلقى يَسوعُ الناصريُّ يَسوعَ المسيحيَّ في بستان بين تلال لبنان[12]، يتحادَثان طويلًا، وكلَّ مرة يُغادر يَسوعُ الناصري وهو يقول ليسوع المسيحي: «يا صديقي، شُعوري أَننا لن نتفق أَبدًا».

حين لفظَ جبران نَفَسَه الأَخير سرى قلقٌ في شعبه. فجبرانهم «الحبيب» لم يُجِبْ كاهنًا مارونيًّا حاول إِيقاظه من غيبوبةِ ساعتِهِ الأَخيرةِ كي يمنحَه البركة الطقسية[13].

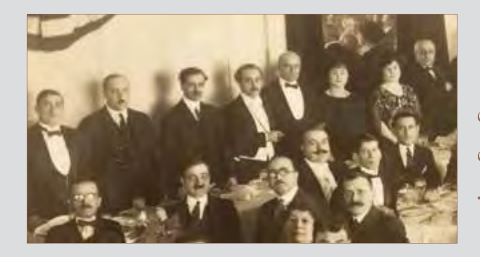




نعوم مكرزل (١٨٦٤–١٩٣٢) صاحب جريدة «الهدى»، وإلى جانبه إهداءٌ إليه من جبران بخطه: «إلى نعوم مكرزل مع احترام ومودة صديقه جبران خليل جبران – تشرين الأَول ١٩٢٥».



صورة عامة للاحتفال باليوبيل الذهبي (١٨٩٨–١٩٢٣) لجريدة «الهدى».



صورة مقرّبة للاحتفال ذاته: في أَقصى اليمين صاحبُها نعوم مكرزل، إلى يمينه ٣ أَشخاص ثم جبران وإلى يمينه ميخائيل نعَيمه وعبدالمسيح حداد.

١٤ وُلِد في الفريكة سنة ١٨٨١ وتُوُفِّي في نيويورك سنة ١٩٥٢. أَسس مجلة «العالم السوري» (تموز ١٩٢٦) ونشَر في عدَدها الأَوَّل مقطوعةَ جبران الشهيرة «إِلى الأَميركيين الشبان من أَصل سوري» وقصائد له أُخرى في أَعداد لاحقة. سنة ١٩٣٢ تُوُفِّي شقيقُه نعوم مؤَسسُ جريدة «الهُدى»، فتخلَّى عن إدارة مجلَّته وتولَّى شؤُون الجريدة.

١٥ من أَشهر الشعراء الصوفيين (١١٨١–١٢٣٥). معظمُ شعره في العشْق الإِلهي. عاش حياةَ زُهْدٍ كامل. لُقِّبَ بـ«سُلطان العاشقِين».

ولأَنَّ جبرانَ شاعرَهم الكبير ومواطنَهم الفريدَ العبقريةِ لم يكن يمارسُ الطقوسَ الكنسيةَ التقليدية، تساءَل البعض عن حقِّه في أَن يُدفَن وفْق مراسِم المؤْمنين. لكن تساؤُلهم لم يَطُل لأَن مشاعر الحب والإِيمان والاعتزاز الوطني انتصرَت على صغائر الطائفيين، ونال هذا الرجل من لبنان، لدى وفاته، كلَّ ما يستحقُّه من الكنيسة المارونية التي كان من أَبنائها.

في هذا السياق هنا، أَستشهد بما كتبَهُ مواطنٌ صديقٌ قريبٌ من جبران: الناشرُ والكاتبُ اللبناني سلُّوم مكرزل[١٤] أَحدُ قادة الجاليَتَين اللبنانية والسورية في الولايات المتحدة، وهو من أَبناء الكنيسة المارونية. ففي «العالم السُوري» – مجلَّته التي كانت لسنواتٍ طويلةٍ تنبض بقلوب المواطنين الأَوفياء لبلادنا – كتَب:

«يبدو تَناقضًا للكثيرين أَنَّ الرجُل الذي، بنُصوصه المناهِضةِ طائفيةً اتِّباعيَّةً (تَحُدُّ من نعمة اللّٰه وتَحتكِرُها لقِلّة من الطائفيين التقليديين) أَثار نَقمة بعض رجال الدِين النافذين واستهجانَهم أَنْ تقامَ له مراسمُ الدفن المتَّبَعة كنَسيًّا. ولكن، واقعًا، ليس في هذا أَيُّ تناقض. فجبران، ككبار الصوفيين، كان في قلْب الدِين. ولأَنه كان كذلك، ثار على جميع القُيُود والتكبيلات التي تُبعِد الروحَ عن مشاركتها الشرعية والحرة حضرةَ اللّٰه. إن الغضبة العارمة التي اضطرمَت في قلب يسوع حتى انهال طردًا على التجّار والصيارفة من الهيكل، هي ذاتُها التي جعلَتْ جبران، في أَحد نُصوص كتابه «التائه»، يُسقط صاعقةً على رأْس مطرانٍ عقابًا له على طردِهِ من الكنيسة امرأَةً جاءَت تَسأَلُهُ إِن كانت ستَخْلُصُ من نار جهنم وهي ليست مسيحية. وكما يَسوعُ غفَرَ لعشَّارٍ تاب إِلى اللّٰه عن خطاياه، كذلك جبرانُ اعتبر الملايين من جميع الأَعراق واللغات والمذاهب مُخلَّصين ولو لم يعتمدوا بالماء والروح.

وقبْل جبران بمئاتِ السنوات كان الصوفي الكبير ابنُ الفارض[١٥]، وكان جبران معجبًا بـ «تائِيَّتِه»، أَنشَد:

«إِذا عابدٌ بوذا انْحنى أَمام صخرةٍ، فإِنني أُقِرُّ بعبادته وأَنحني مثلَه أَمامها».

The way seemed long and rough
The path lost among hills
Loneliness spoke with yearning
And silence hearkened.
Ay, silence, the eternal voice of the Unknown.
The birds sang of deep sorrow
The brooks murmured painfully as if wounded by the sharp edges of rocks.
The breeze passed sighing as the bereaved mother
All the flowers lowly bent their withered necks and wept heavy eyelids
And I, with my heart alone, journeyed with heavy limbs.
Behind me silence
Before me loneliness
Within me fear.

I came to the place where all the roads of life meet.
There I fell a wounded prey before the face of despair.

It was there that I heard unseen great wings moving about me
And as I turned my eyes I saw thee standing before me as the cedars of God in Lebanon
I knew thee because the light was in thine eyes and the motherly smile on thine lips
You blessed me with a touch and whispered to my soul these words
"Follow me, child, I am thy guide"
"I shall reveal what sorrow doth hide"
I followed thee
The path before us wide and adorned with countless flowers.
Silence releasing hidden secrets and unveiling dreams of love.
The birds singing of joy as if welcoming an eternal spring.
The brooks dancing
The breeze gently kissing the [illegible] of the branches
All the flowers looking upward and greeting the sun with smiles.
And I beside thee a found child;
Behind me contentment.
Before me joy
Within me love.

قصيدة غير منشورة بخط جبران.
ترجمتُها كاملةً وأَورَدْتُها في الفصل ٢٠ من القسم الثاني – صفحة ٥١٩، مع قصيدتين أُخرَيَيْن.

١٦ محيي الدين ابن عربي (الأَندلس ١١٦٤ – دمشق ١٢٤٠) لعلَّه أَشهر المتصوِّفين. كان شيخَ طريقة «الأَكبريَّة الصُوفيَّة». لقَّبَه مُريدُوه بـ«الشيخ الأَكبر».

وكان ابنُ عربي، ولعلَّه أكبرُ شاعر صوفي في كلِّ زمان[١٦]، أنشدَ بِهالةِ الحب الكوني ذاتها:

لقـد صـار قلبـي قابِـلًا كلَّ صـورةٍ	فمرعـى لغـزْلانٍ، وديـــرٌ لرُهبـانِ
وبيـتٌ لأَوثـانٍ، وكعبـةُ طائِـفٍ	وأَلـواحُ تـوراةٍ، ومصحـفُ قـرآنِ
أَديـن بِدِيـنِ الحـب أَنَّـى توَجَّهَـتْ	رَكائِبُـهُ... فالحـبُّ دِينـي وإِيمانـي»



بهاتين القوة والسلطة من تلك المبادئ العليا، اتخذ جبران مكانته في الـموكب المتَّجه من الأَزل إلى الأَبد.

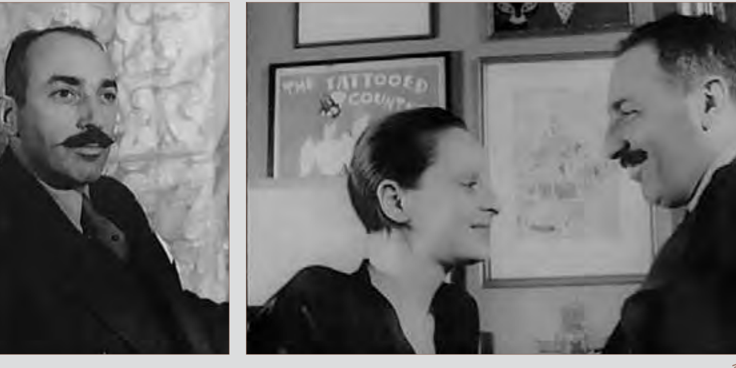
اليوم جبران «مات» - كي أَستعمل كلمتَنا الزَوالية -. مات لكنه قال: «حين أَمُوت لن أَبتعدَ طويلًا عن هذه الأَرض الخضراء الطيِّبة».

وبالفعل لم يكن في قلوب مَن عَرفوهُ جيِّدًا أَيُّ شعورٍ بالخسارة أَو بالأَسَى الكسير. فروحُه الوسيعةُ المُحبَّةُ تحيا في كلٍّ من كلماته، ونعرفها ونُحسُّ فعلًا بها. باقٍ منه نَـفَسٌ على السنوات والعُهود في الظلّ المنبسِط تحت أَرز الرب، وعظامه ودماغه ومفاصله ستغُور أَخيرًا في ظلمة الأَرض الطيبة وتبلغُ أَعمقَ جُذورها وأَعلى أَغصانها.

كلُّ ما كان فيه «ترابيًّا» - كي أَستعملَ تعبيره الدقيق - سيعرف قيامةً دائمةً وجمالًا أَبديًّا وسْعَ فُصولٍ وأَمطارٍ وثلُوجٍ، وعبْر قصفِ رياحٍ وعواصفَ كان يحبُّها جبران.

إن حُبَيْباتِ ترابه ستولَدُ وتعيشُ وتموت آلافَ آلافِ المرَّات في لبنان. وآلافُ الحجَّاج سيأْتونَ آلاف المرات، يَـجثُون على تراب ذاك المرج، ومنه يَتَبَاركُون.





الناشر ألفرد كنوف وزوجته بلانش

وهو ناشر جميع كتب جبران الإنكليزية وبقيت دارُه محتفظة بحقوق النشر والترجمة حتى سنة ٢٠١٨ (أي بعد ١٠٠ سنة على إصدارها سنة ١٩١٨ كتاب «المجنون» أول كتاب لجبران بالإنكليزية). ومنذ ٢٠١٨ أَصبحت جميع كتُب جبران الإنكليزية مُلْكًا عامًّا مُشاعًا، متاحةً بدون أيِّ حقوق ملْكية فكرية لأَحدٍ عليها.

١ أَلْفْرِد أَبْرَهام كنوف (Knopf): ناشرٌ أَميركي (١٨٩٢/٩/١٢ – ١٩٨٤/٨/١١) أَنشأَ مع زوجته بلانش (١٨٩٤/٧/٣٠ – ١٩٦٦/٦/٤) دارًا للنشر في نيويورك سنة ١٩١٥. في أَيَّار ١٩١٨ دعاه صديقُهُ الكاتب جيمس أُوپِّـنهايْم إِلى غداءٍ في مطعم صغير من «غْرينْويْتْش ڤـيلِدْج» ودعا إِليه جبران كي يُعَرِّفه به. وبعدما كان الناشر ماكميلان رفض مخطوطة «المَجنون»، اهتَمَّ لها كنوف في ذاك اللقاء ووافَق على نشرها. بعد أَيام (الأَربعاء ٢٩ أَيَّار) كتب جبران فرِحًا إِلى ماري هاسكل: «اتفقتُ مع كنوف على كلِّ شيء. وقَّعْنا العقد صباحَ أَمس، وفي الجلسة ذاتها أَرسَلَ كنوف رسمَ الغلاف إِلى الزنكوغرافيّ كي يحفرها. وسيكون في الداخل رسمان آخَران. يريد كنوف إِصدار الكتاب في منتصف تشرين الأَوَّل المقبل مع مطلع الموسم. هو شاب لطيف، كلَّما اجتمعتُ به أَنِسْتُ إِليه أَكثر. له ذَوق دقيق في جَـمال الطباعة والإِخراج». وبالفعل: الثلثاء ٢٢ تشرين الأَوَّل أَرسل إِليها أَوَّلَ نسخة مطبوعة من الكتاب، خطَّ على صفحتها الأُولى الإِهداء التالي: «إِلى م. إ. هـ. هذا أَيضًا أَدينُ لكِ به. خ.ج.». وظلَّ تاريخ الكتاب مميَّزًا في ذاكرة جبران لأَن ذاك الشهر ذاته أَيضًا شهد توقيع الاتفاق على السلْم الذي أَنهى الحرب العالمية الأُولى.

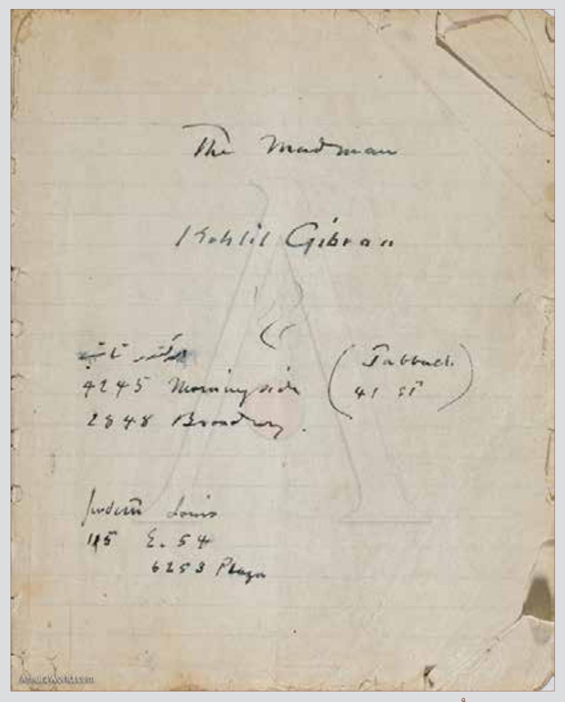
لِمْ أَنا هنا؟

أَولُ الكتيِّبات السُود بالإنكليزية كان «المجنون». أَصدَرَه سنة ١٩١٨ أَلفرد كنوف[١]، صاحبُ دار نشرٍ حديثة، ذو حدس صائبٍ بالقِيَم الأَدبية.

بعضُ هذا الكتاب ترجمَه من كتاباتٍ له بالعربية، والآخَرُ كتبَه رأْسًا بالإنكليزية. وهو من ٧٠ صفحة، حوى أَقوالًا وأَمثالًا رمزيةً وحكاياتٍ قصيرةً كتبَها الشاعر في صباه ومطلع شبابه، وكانت منذئذٍ واعدةً بما سيكون عليه كاتبُها. جاء الكتيِّبُ شرقيَّ النفَس، لا ملمحَ فيه لفكْرٍ غربيّ. كان تعبيرًا عن شغفٍ بحياةٍ داخلية لم تضبطْها بعدُ حكمةٌ حليمةٌ عميقةٌ ظهَرَت براعمُها لاحقًا في «السابق»، وأَزهارُها في «النبيّ».

في نصوص «المجنون» سخريةٌ ذكيةٌ، تلميحٌ إِلى كسْر الوهم، مرارةٌ ساخطة ضد الحياة، كما في المقطوعة الختامية التي منها:

يا إِلهَ النفوس الضالَّة، أَيها الضائعُ بين الآلهة،
أَصْغِ إِليّ:
أَنا، أَكثرُ الناقصين، أَعيش بين أَكمل الناس.
أَنا التشوُّش البشري، الغَشْيُ المضطربُ العناصر،
أَحيا وسْط عوالِمَ تامةٍ، بين شُعوبٍ لها قوانينُها المكتملة ونظامها العادل...
أَسرق جارًا وأَنا أَبتسم



الصفحة الأُولى من مخطوطة كتاب «المجنون» (١٩١٨)،
وعليها بخط جبران أَسماء وعناوين وأَرقام هواتف لأَصدقائه.

أَمتدح بترقُّب

أَلُوم بِـحذَر

بكِلْمةٍ أَهدم روحًا

بنَفخةٍ أُحرق جسَدًا

ثم أَغسل يديَّ مُنجِزًا عملَ النهار.

فَلِـمْ إذًا أَنا هنا، يا إِله النفوس الضالَّة؟

ولكنَّ في الكتاب كذلك تعابيرَ ساميةً عن ذاكرة الخلود، منها:

... وبعد أَلفِ سنةٍ،

صعدتُ إِلى الجبل المقدس

وكلَّمتُ الرب:

«إِلهي، يا غايتي وكمالي،

أَمْسُكَ أَنا، وأَنتَ غَدي،

جَذرُكَ في التراب أَنا، وأَنتَ زهرتي في الفضاء،

وكـلانا ينمو في وجه الشمس».

وها هو الشاعر الشاب يصرخ بصوت المجنون عند سرقة أَقنعته:

مبارَكون مبارَكون لصوصٌ سرقوا أَقنعتي.

ويفرح، إِذ هكذا:

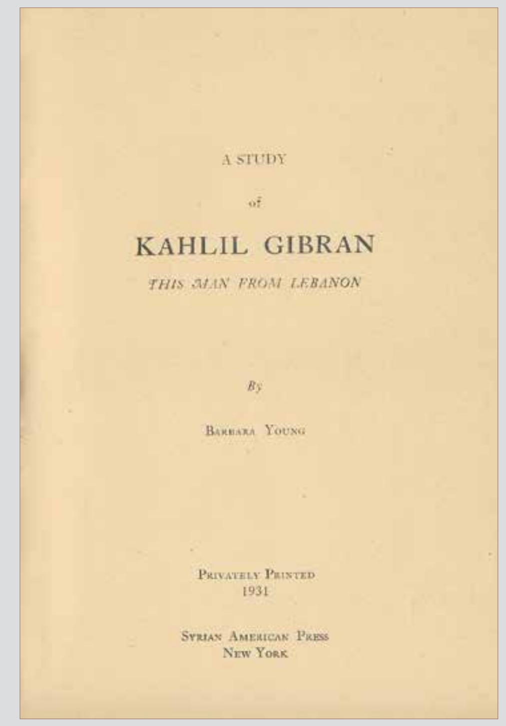
وجدتُ في الجنون الحريةَ والنجاة:

حريتي في الوحدة، ونـجاتي مِن أَن يفهمَني أَحدٌ،

لأَن مَن يفهموننا يَستعبدون بعضَ ما فينا.

وفي هذه الأَقوال ثورتُه على الخبث والعَمَهِ والغباء، وأَزمتُه الجَوَّانية مع ذاته السُباعية التي يكتب عنها.

هنا جبران، للمرة الأُولى، يُفصحُ عن حسِّه بالوحدة التي طوال حياته ظلَّت تُحرقه حتى أَطفَأَتْهُ. كان دائم الشعور بأَنه غريب عن هذا الكوكب، عن هذا الزمن



A STUDY

of

KAHLIL GIBRAN

THIS MAN FROM LEBANON

By

BARBARA YOUNG

PRIVATELY PRINTED
1931

SYRIAN AMERICAN PRESS
NEW YORK

الصفحة الداخلية من كُتَيِّب باربره يونغ الأَوّل:
«دراسة عن خليل جبران هذا الرجل من لبنان»
طبعة خاصة – ١٩٣١
عن المطبعة السورية الأَميركية – نيويورك
وهو الكتيِّب الذي ذكرتُهُ في الصفحة ٣١
من هذا الكتاب.

COPYRIGHT, 1931, BY
BARBARA YOUNG
ALL RIGHTS RESERVED

على الصفحة الداخلية من الكتيِّب:
الحقوق جميعها محفوظة لباربره يونغ – ١٩٣١

٢ صدر أَيضًا لدى منشُورات كنوف، واستمرَّت الدار بنشر جميع كتُب جبران اللاحقة، حتى التي صدَرَت بعد وفاته.

وأَحداثه، ومع ذلك بقي يَـجْهد في تقصير المسافة بين ذاته وذواتنا، لكنَّ هذا، كما قال هو مرة، «لن يَكون».

ما ذكرتُه آنفًا من نيتشه عن ڤاغْنِر، ينطبق حرفيًّا على جبران: «العالم كلُّه مبنيٌّ على أُسس لا تعنيه، لذا هو ضائع في أَجوائه». هكذا كانت تفيضُ أَحيانًا مرارةُ وحدته الرهيبة فتهاجمه بقَسْوةٍ خانقة، ويتوقَّف صارخًا عند تلك اللحظة من الخلود: «لِمْ أَنا هنا يا إِلهَ النفوس الضالَّة، أَيها الضائعُ بين الآلهة»؟

فور صدور «المَجنون» تُرجم إِلى الفرنسية والأَلمانية والإِيطالية والإِسپانية، وانتشر في دول اللغات اللاتينية، كما في أَميركا الجنوبية حيث آلافُ أَبناء العربية يُجِلُّون اسم جبران وكل كلمة منه وكتاب.

ولجبران ذكريات ملوَّنةٌ عن تلك الحقبة: تعرَّف بكتَّابٍ أَميركيين شبَّان معاصريه، ونَعِمَ بزمالة متبادَلَة الفرح والاغتناء. نفَثَ في فكرهم جوهرًا عريقًا قِدَمَ الزمن، ونفثوا له ما لدى شعراء هذا العالم الغربي من عُمقٍ وجمال.

كان انتشار «المجنون» حافزًا تلقائيًّا ليُتْبِعَه جبران بـ«السابق» سنة ١٩٢٠[٢]، وبعضُه أَيضًا مترجَمٌ عن كتاباتٍ له عربية. وهو كتابٌ ذو رؤْيا أَوسع وحكمةٍ أَعمَق وشغَفٍ أَكثرَ دفئًا ونضارةً، تغمُره مسحةُ سخريةٍ منضبطة، ثاقبةِ الرؤْية ولو من خلال نقاب الوهم، لا في ظلِّ المرارة بل في مناخٍ من الحُب والتَوق.

من ذاك المناخ، مقطوعةُ «الحب»: رائعةٌ، ضئيلةُ الأَسطُر، أَحَديةُ المَقاطع، ينضح منها اعترافٌ ساطعٌ بالتَوق:

يقال إِنَّ ثعلبًا وخُلدًا يشربان من جدولٍ يَـرِدُهُ الأَسد أَيضًا
ويقال إِنَّ نسرًا وغُرابًا يغرزان منقاديهما في جثةٍ واحدة مُتَصالِحَيْن أَمامها
أَيُّها الحب
الذي يدُهُ الربانيةُ كَبَحَت شَهَواتي
ورفعَت جوعي وعطشي إِلى الكرامة والفَخَار
لا تدَعِ القويَّ الراسخَ بـي


Miss Barbara Young Will Talk on Gibran

BARBARA YOUNG

Miss Barbara Young, one of the founders of Poetry House in New York City, and friend and secretary of the late mystic poet and painter, Kahlil Gibran, will tell of his life and his work at 8:30 p. m. tomorrow in the Rochester Club ballroom.

Miss Young, whose lecture will be open to the public,l wil show many of Gibran's original drawings and wood carvings which he used to illustrate his work. Gibran died two years ago in New York City, after some of his works had been translated into 20 lenguages. "The Prophet" is perhaps the best known of all his works.

Dr. Ewald Eiserhardt, professor of art at the University of Rochester, will preside at the lecture.

عمود من جريدةٍ، فيه خبر عن إحدى قراءات باربره يونغ من كتابات جبران.

العنوان: «باربره يونغ تتحدث عن جبران»

وفي النص أَنَّ «السيدة باربره يونغ، من مؤسسي «بيت الشعر» في مدينة نيويورك، وصديقة الشاعر الصوفي والرسام الراحل خليل جبران وسكرتيرته، ستتحدث عن حياته وأَعماله غدًا الساعة ٨:٣٠ مساءً في قاعة نادي روتشستر. اللقاء مفتوح للجميع، وسوف تعرض السيدة يونغ رسومًا ومنحوتات خشبية أَصلية من جبران صدر بعضها في مؤلفاته. وجبران توفي قبل عامين في مدينة نيويورك، وتُرجم عدد من مؤلفاته إلى نحو ٢٠ لغة، ولعلّ أَشهَر مؤلفاته: «النبي». البروفسور إيوالد آيزرهارد أُستاذ الفنون في جامعة روتشسِتر سيفتتح هذا اللقاء».

يأْكل من خبزٍ ويشرب من خمرٍ كلاهما يُغوي ذاتِيَ الضعيفة
بل خلّني أَتَجفَّف جوعًا، وقلبي يتضوَّر عطشًا
ولْأَمُتْ وأَتَحلَّلْ قبل أَن تطال يدي كأْسًا لم تَمْلَأْها، أَو قَصعةً لم تَنَلْ بَرَكَتَك.

«الهجعةُ الأَخيرة»، آخرُ مقطوعةٍ في الكتاب، تَشي بفهمٍ واسعٍ عميقٍ في كيان الشاعر يلغي كلَّ ما قبلَه من شعورٍ أَدنى أَو فهمٍ أَقلّ. من هنا جاء «السابق» سَابقًا فعلًا ظُهُورَ «النبي» بعد ثلاث سنوات.

جمَعَ «السابق» بسرعةٍ حول هذا الرجل من لبنان أَصدقاءَ ومُعجَبين كُثُرًا، وتتالت ترجماتُه. وخلال قراءاتي المتتالية من كتُب جبران، وجدتُ حكاياتٍ كثيرةً من «السابق» انتشرَت وتُطلَبُ مني قراءتُها تكرارًا. بينها: «قالت ورقةُ ثلجٍ بيضاءُ»، «العالِم والشاعر»، «من أَعماق قلبي»، وكانت مقطوعة «البهلول»، أَكثرَ من سائر الحكايات الرمزية في الكتاب، تلقى تجاوبًا خاصًّا لتأْثيرٍ فيها وجمال.

في الكتاب شكلٌ من القصص متميِّزٌ في الشرق، قديمٌ لكنه غيرُ غامض، اعتمدَه جبران أُسلوبًا فريدًا صائبًا وسريعًا لإِيصال الحقيقة. ولا أَعرف كاتبًا معاصرًا عالج هذا النمط بهذه البراعة. إنه تَحَدٍّ كلَّ كاتبٍ معاصر.

أَثار اهتمامي هذا النمط فاعتمدتُهُ في إِحدى سنوات جبران الأَخيرة، ذاتَ قال لي مرة: «أَنتِ، لو رغبتِ، يمكنكِ نسجُ حكاية رمزية بهذا النمط». ردَدْتُ أَنْ لنْ أَستطيع، فعاجلني بحزم: «أَتحدَّاكِ». كان يعرف أَن تَحَدِّيه إِياي يُجدي، فعزمتُ على المحاولة.

جاء ذلك حين تذكَّرتُ قصة كان جبران رواها لي عن مصادفةٍ حدثَت له ذات ليلةٍ وهو عائدٌ إِلى المحترف من دعوةِ عشاءٍ، إِذ تعطَّلت سيارةُ التاكسي وأَكملَ سيرًا فصادف رجلًا خالَه بَحارًا طالعًا من المرسى، دنا منه سائلًا إِياه نقودًا يشتري بها خمرًا...

ورقة رسائل ذات عنوان «ستوديو جبران – ٥١ الشارع العاشر غربًا – نيويورك».

وهي رسالة من باربره يونغ إلى السيدة كروفْتْسْ في ٢٧ كانون الثاني ١٩٣٢، تُجيبها فيها بأَن «دفاتر رسُوم جبران ليست للبيع، وهي جزء من مجموعة رسوم موضَّبَة للإرسال إلى بْشرّي، بعدما تنتهي معاملات حصر الإرث».

والسيدة مارغريت لي كْرُوفْتْس كانت، وزوجها فردريك على صداقة مع جبران، ولديها منه رُسوم وزيتيات (تفاصيل عنها في الحاشية ١ – صفحة ٤١٣ من هذا الكتاب).

من موجز هذه القصة انطلقتُ، ورُحت أَنسُجُ حكايةً عليها فكتبتُ ما يلي:

الأَمير والمَلّاح

كان الليل يغلّف الطريق الملكي، والأَميرُ في مركبته الملكية عائدٌ إِلى القصر من مأْدبة عشاءٍ كبرى على شرفه. عند آخر دُغلٍ كثيفٍ، ارتطم دولاب المركبة بصخرةٍ كبيرة فتعطَّل. ترجَّل الحوذيُّ، وإِذ وجدَ أَن لم يعُد آمنًا إِيصالُ الأَمير إِلى القصر، انهار أَمامه على ركبتَيه راجيًا: «مولايَ صاحبَ السُمُوّ، ماذا سيحل بي وأَنا سبَّبْتُ لك هذا الحدث المشؤُوم»؟ أَجاب الأَمير بكل شهامة: «اللّٰه حيٌّ، وهو صانعُ الليل والصخور في الأَدغال. لا تَخَف. هاك القصر على مرمى حجر خَيِّرٍ من هنا. الطقس لطيف وسأَمشي تحت هذه النجوم إِلى قصر أَبي، ولا خطرَ عليَّ أَو عليكَ».

أَكمل الأَمير ماشيًا، تتردَّد في قلبه كلماتُ حوذِيّه المُحِبّ، حتى بلغ الساحة العامَّة، فتأَمَّل فيها الذين رأَوه ولم يأْبهوا له لأَنهم لم ينتبهوا أَنه أَميرُهم. وفيما يقترب من نزْل المدينة تَقَدَّم إِليه مَن سأَله صدَقة. رآه الأَمير ملَّاحًا فتوقَّف يصغي، لأَنه أَميرٌ ولأَن في روحه تَوقًا إِلى البحر. قال: «أَراك بحارًا لا متسوِّلًا، فما تبتغي من صَدَقتي؟». أَجاب الغريب ببسمة مُرَّة: «صَدَقْتَ. أَنا بحار بلا سفينة ولا ميناء. أَنام بين أَربعة جدران وعلى شفتَيّ مذاقُ الموت. أَسأَلكَ صدَقةً كي أَدخل هذا النزل فأَشتري خمرًا أَحتسيها كي أَنسى». حنَّ عليه الأَمير لأَنه هو ذاته كان بحارًا ونام يومًا بين جدرانٍ أَربعة في سبيل مَملكته، ويعرف مذاق المرارة التي طعمُها الموت. قال: «ما تتوقَّع كمية الذهب التي تتمنَّاها تلبي حاجتك»؟ أَجاب الغريب بمرارة: «أَتوقَّعُها وفيرة». سأَل الأَمير: «يعني»؟ تفرَّس البحَّار مُفاجَأً من موافقة الأَمير فأَجاب بنَهَم: «ثلاثمئة قرش». وإِذ رأَى الأَمير أَنَّ هذا الغريب بدون عباءَةٍ، والليلُ يسُحُّ بَردًا، فتح صُرَّة الذهب، سحَب منها المبلغ وقدَّمه إِلى الغريب مردِفًا: «هاك المبلغ يا صديقي. إِذهب واشتَرِ خمرًا كي تنسى. إِنما لي طلبٌ واحد: لحظةَ تقترب من النسيان لا تنسَ أَن تؤُوبَ إِلى جدرانكَ الأَربعة. لا أُحبُّ أَن أَراك ثَمِلًا مرميًّا في الشارع بعد إِقفال بابِ النزل وغَرَقِه في صمت العتمة».

قال البحَّار: «تقدِّم لي ثلاثمئَة قرش لأَدخل النزْل فأَخرجَ ثَمِلًا؟» قال الأَمير: «أَليست هذه حاجتَك»؟ ساد صمتٌ قصير قال البَّحار بعده: «بل حاجتي قصعةُ

رسالة ثانية أَرسلَتْها باربره يونغ (من فندق هولِنْد – نيويورك) إِلى السيدة مرغريت كْرُوفْتْس تذكر فيها أَنَّ مريانا حوَّلت إِليها الرسائل التي تلقَّتْها إِثر غياب شقيقها جبران. ولأَنها لا تستطيع أَن تجيب عنها (لم تُكن تعرف الإِنكليزية) طلَبَت إِلى باربره الكتابة إِجابةً إِلى أَصحاب تلك الرسائل وذِكْر تقدير مريانا وشُكرانها إِياهم.

٣ The New Orient: علاقةُ باربره يونغ بالمجلة تعود إِلى علاقة جبران بها: بعد صدور «النبي» وذُيُوع شهرة جبران، طلب إِليه صديقُه سْيُود حسين أَن ينضمَّ إِلى عضوية «جمعية الشرق الجديد» في نيويورك، وأَن يساهم في تحرير مجلتها الفصلية. وافق جبران لأَن تلك الجمعية ذاتُ أُفْق دولي كان يسعى إِليه فوجد حاجته لديها لأَن بلوغه ذاك الأُفقَ يحقِّق طموحه أَن يكون «مواطنًا عالَميًّا». فبين أَركان الجمعية أَعلامٌ بارزون، منهم الماهاتما غاندي الذي كان جبران يراه «أَحد أَعظم الأَحياء إِطلاقًا». وترحيبًا بجبران، كتب سْيُود حسين افتتاحية عدد أَيَّار/حزيران ١٩٢٤ من مجلة «الشرق الجديد»، جاء فيها: «لم نجِد مثل خليل جبران أَكثرَ صدقًا وأَعمقَ أَصالةً وأَرفع موهبةً تمثل الشرق في الغرب». وحين أَقام الرسَّام المكسيكي خوسيه كليمانتِه أُروزكو في محترفه سهرةً مساءَ الأحد ٦ كانون الثاني ١٩٢٩ احتفاءً بالذكرى ٤٦ لمولد جبران، كان سْيُود حسين في طليعة الحاضرين، وأَلقى كلمةً تكريمية في جبران.

٤ جاءَت إِلى لبنان سنة ١٩٣٩، فزارت بْشَرّي نهار الأَحد ٨ تشرين الأَول، ومدرسةَ «الحكمة» نهار الثلثاء ١٠ تشرين الأَول، وغادرَت لبنان على عجَل نهار الخميس ١٢ تشرين الأَول لِتَبَلُّغِها ضرورةَ مغادرةِ الرعايا الأَميركيين أَرضَ لبنان بسبب اندلاع الحرب.

عدَس. أَعطِني ثلاثةَ قروشٍ فقط». أَصرَّ الأَمير: «بل المبلغُ كلُّهُ لك، اشترِ به ما ترغب، خمرًا أَو عدسًا».

لم يقتنِع البحار، ورافقه الأَمير حتى باب النزْل وظلَّ غيرَ مقتنع. سحَب ثلاثة قروش فقط، دلَفَ إِلى النزل، وأَكمل الأَمير ماشيًا إِلى القصر.

ذلك أَنْ ليس للأَمير ولا للبحّار خمرٌ اسمُه النسيان.

تلك كانت الحكاية الرمزية التي نسجْتُها ونشرتُها لاحقًا في مجلة «الشرق الجديد»[٣].

أَمَّا الحكاية الواقعيَّة التي جرت فعلًا مع جبران ليلتَئِذٍ على الجادة السادسة، فانتهت هكذا: سأَل جبران ذاك الغريبَ كم يحتاج كي يشتري خمرًا فيسكر، فأَجابَهُ: «دولارًا واحدًا». وحين أَصبح الدولار في يده تنبَّهَ ضميرُه فرفض الدولار وقال لجبران: «بل أَعطِني عشرة سنتات ثمن فنجان قهوة».

حين قرأْتُ لجبران نص «حكايتي»، بادرني بكل نُبل: «أَرأَيتِ كم أَنتِ لبنانية»؟

كانت تلك العبارة تلميحًا إِلى دعابةٍ زاولْناها أَحيانًا لتخفيف ضغطٍ كثيفٍ من وطأَة العمَل الفكري. وإِذ أَكونُ مرتديةً عباءةً طويلةً من حرير، عاجيةً مذهَّبةً تلتفُّ على كتفيَّ، وأُغطِّي بعض وجهي بحجاب، وأُصبح «لبنانية»، يبادرني: «إِخالُكِ ستنطُقين بالعربية في أَيِّ لحظة». هذا اللهو الصبياني كان يُسعِدُهُ ويجعلني أُحسُّ بشعورٍ بعضُهُ نَسْيٌ بعضُه تَذَكُّر: لبنان، والأَرز، والجبال. والغريبُ فعلًا أَنني، حين زرتُ تلك البلاد بعد سنواتٍ[٤]، مُصعِّدةً تلك الجبالَ الفائقةَ الوصف، قاصدةً بْشَرِّي والأَرز، لم أَشعر أَنها زيارتي الأُولى، بل كأَنني غادرتُ العالَم الغربيَّ المُعاصر وجئتُ إِلى العالَم القديم السحيق، ووصلتُ إِلى بيتي محمولةً بغبطةِ اكتفاءٍ وفيضِ سلام. كأَنَّ أُولئك الناس الطيِّبين، بأَهازيجهم وجمال روحهم وضيافتهم الغامرة، لم يكونوا من هذا العصر، ولا كانوا غرباء عنّي. كنت بينهم واحدةً منهم.

وهذه، كما يقال، حكايةٌ أُخرى لها ظرفٌ آخَر.



بلاطة تذكارية وسْط ساحة كوپلي العامة في بوسطن.
اللوحة المعدنية بالرسم النافر للنحات البوسطني خليل جبران:
جبران أَمام ظلال أَرزة، والكتابة: «خليل جبران ١٨٨٣–١٩٣١».
على صدر البلاطة: «خليل جبران – مولود في بْشرّي لبنان. نهَل غذاءه الأَدبي والفني من دنيسُون هاوس، ومدارس بوسطن الرسمية، ومكتبة بوسطن العامة.
وهذه المدينة الوفيَّة تُقِرُّ بالتناغم الأَوسع بين الناس والتماسك في شمولية الفكر كما أَطلقهما جبران إِلى شعوب العالم».
وفي مقدمة البلاطة عبارة جبران: «في قلبي أَن أُساعد بالقليل لأَنني لقيتُ من المساعدة الكثير» (من رسالة له إِلى ماري هاسكل).
تمَّ تدشين الساحة والبلاطة في احتفال رسمي سنة ١٩٧٧.

١ هذه المعلومة وردَت هنا لدى باربره يونغ، وفي يوميات ماري هاسكل، ولم تظهر كتابيًّا في أَيِّ وثيقة أُخرى، ما يشير إِلى أَنها شفويًّا من جبران، قالها لهما مدركًا أَنهما ستكتبان سيرته.

٢ الأَدقُّ أَنه كان في الثانية عشرة (كانون الثاني ١٨٨٣ – حزيران ١٨٩٥).

٣ الأَدقُّ أَنه كان في الخامسة عشرة (كانون الثاني ١٨٨٣ – أَيلول ١٨٩٨).

ها هُنا الحقيقة

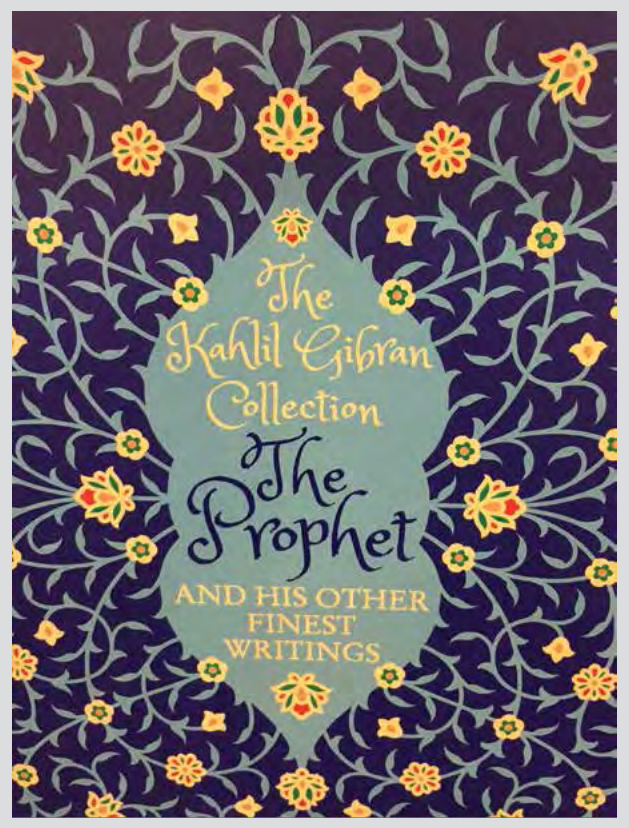
ختامُ كتاب «السابق»، هذا المقطعُ:

«... فجأَةً رَفعَ رأْسه، وكمن يستيقظُ من نومٍ عميق، بسَطَ ذراعيه وقال: «الليلُ ينسحب. ونحن أَبناء الليل، حين الفجر يطلُّ علينا واثبًا فوق التلال، علينا أَن نموتَ كي يولدَ من رمادِنا حبٌّ أَقوى، سيَضحكُ لوجه الشمس ولن يموت».

بعده بسنواتٍ ثلاث وُلِدَ كتابُ «النبيّ» شاهدًا على «الحبّ الأَقوى» الذي «يَضحك لوجه الشمس». وأَيقَن الآلافُ من قُرَّائه أَنه «لن يموت».

فكرةُ الكتاب وُلدَت حين الشاعرُ في الخامسة عشْرةَ[١]، تلميذُ «مدرسة الحكمة» في بيروت. كان في الحاديةَ عشْرةَ حين جاء إِلى أَميركا[٢] وسكنَ في بوسطن مع أُمه وأَخيه بطرس وشقيقَتَيْه مريانا وسلطانة. وفي سنته الرابعة عشْرَةَ أَصرَّ على العودة إِلى بلاده[٣] ليصقل العربية أَدبًا وثقافة. مع مطلع الخريف أَبْحر صوب الشرق وحدَه إِلى أَرض مولده. لم يقصدها فتى لَعوبًا ينطلق إِلى مغامرة مَرِحة في حياة تلميذ، بل شابًا فتيَّ الروح ناضجَها، مُثقَلَ القلب، واعي الفكر على الموت أَكثر مما على الحياة، مُدركًا أَنه زائرٌ غريبٌ جاء يستطلع طاقاته في وُجهتها النهائية وكامل قدراتها.

مرةً واحدةً، أَظنُّها وحيدة، حدَّثني عن تلك الرحلة إِلى بيروت، ولن أَنسى أَبدًا هاتيك المرة.



كثيرةٌ هي الطبعات التي صدرَت من مؤلفات جبران، معظمها بدون إِذْن من أَصحاب الحقوق (منشورات كنوف)، وبعضُها مقتطفات من كتُبه، كما هذه الطبعة المُزخرفة وفيها «النبي» و«كتابات مختارة أُخرى».

٤ غامضةٌ هذه المعلومة. لا هو أَوضحها لباربره، ولا تناهى إِلينا أَنَّ أَحدًا كتبَ يُوصي به لدى مدرسة «الحكمة».

قال:

– كنتُ في حُلمٍ غيرِ واضحٍ وغيرِ مريح، متأَرجحًا على اضطراب. في بوسطن: أَخي بطرس وشقيقتايَ وخصوصًا أُمي، أُمي التي روَت قصائدَ لا تُحصى ولم تَكتُب واحدة. وفي جبل لبنان: أَبي قريبًا من الأَرز. وأَنا الفتى العنيد المصِرُّ على تحقيقهِ إِرادتَه ضدَّ إِرادتهم جميعًا. كنتُ واثقًا أَن لن أَكونَ ذاتي إِلَّا إِذا عدتُ إِلى بلادي. كان حلمي أَن أَكون شاعرًا ورسَّامًا.

توقَّف برهةً عن الكلام، ضرب على الطاولة بكفٍّ كأَنْ من حديد. نهض وأَكمل:

– وها أَنا شاعر ورسَّام. شاعرٌ مبدعٌ ورسام مجدِّد، وأُحبُّ قصائدي ورسومي. ولأُعلِنَنَّ هذا جَهارًا في الشارع لو رغبتُ فيه.

كان يصرخ ذلك في المحترف بصوت فتًى يَؤَكِّد براعته في هوايته المُفضَّلة.

فجأَةً... حانت منه ابتسامة غريبةٌ غَشِيَت ضبابَ عينَيّ، وبادرني: «أَأَنا مغرورٌ طاووسيٌّ، أَم انَّكِ أَنتِ أَيضًا تحبين قصائدي ورُسومي؟».

قبل أَن أَتَنَفَّسَ كي أُجيب، وضع إِصبعيه على شفتيه وقال: «شْشْ... أَعرف أَنا، أَعرف». وعاد يذرع الغرفة مكملًا تذكاراته: «يوم بلغتُ بيروت وذهبتُ إِلى المعهد لأَتسجل، بادرني المسؤُول: «من أَتى بك إِلى هنا؟ ومَن معَك؟». تَمطَّيْتُ صعُدًا، وأَنا كما تعلَمين لست طويلًا، وأَجبتُه: «لم يأْتِ بي أَحد إِلى هنا. وليس معي أَحد». طبعًا كانوا يعرفون ذلك من الرسائل[٤]. بعدها صفا ذهني. لم يعد مشوَّشًا ولا عدتُ متأَرجحًا على اضطراب. كنتُ منسجمًا مع ذاتي، وذاك كفاني».

في تلك الحقبة، إِذًا، بعد سنتَين، كتب الصيغة الأُولى من «النبيّ»، لكنه تركَها بين أَوراقه مدركًا، كما قال لي، أَنها ثمرةٌ غيرُ ناضجةٍ بعد، وأَنْ سيَجيْءُ يومٌ يسحبه مجددًا من بين أَوراقه ويكون قويًّا بين يديه. وأَردف: «هذا الكائِن [**المصطفى**] أَظُنُّه كان دومًا معي».

وأَنا أَيضًا أَظنُّ، كما كثيرون سواي، أَنَّ المصطفى هو جبران ذاتُه، ومن تطلَّبَ سيرةَ فكرِهِ وَجَدَها في «النبيّ»، وفي «حديقة النبي» الصادر بعده.

٥ هذا الكلامُ ليس دقيقًا، لأنه لم «يُقِمْ» في باريس (١٩٠٢) كي «ينطلق منها إلى المغامرة الكبرى في حياته الفنية رسامًا»، بل كان عابرًا مرورُه فيها، استعجَلَه لمُغادرتها تبلُّغُه خبرَ وفاة شَقيقته سلطانة، فأَبْحرَ عائدًا إلى بوسطن. وما إلَّا بعد سنوات ست (١٩٠٨) حتى أَبْحر مُجدَّدًا من نيويورك (الأربعاء ١ تموز ١٩٠٨) إلى باريس لسنَتَين كي يصقل دراسته الفنية.

٦ هذه العبارة قد تكون من جبران لا من أُمِّه. فالنحَّات خليل جبران، وهو الأَقربُ إليه نسَبًا وسيرةً، ذكَرَ في كتابه «**جبران، حياتُه وعالَمُه**» (الفصل الأَوَّل «فُقَراء في بْشَرِّي») أَنَّ «كاملة كانت فقيرة التعلُّم إنما قديرة التدبير». وهذا «الفقر في التعلُّم» انسحَب على ابنتَيها مريانا وسلطانة اللتَين كانتا كذلك أُمِّيَّتَين تجهلان القراءَة العربية (والإِنكليزية طبعًا). ويروي الكاتب، في مقدِّمة كتابه، أَنَّ مريانا نادَتْهُ ذات أُمسيةٍ من نيسان ١٩٣١ (وكان يومها فتًى في العاشرة)، كي يقرأَ لها الأَسماءَ على ظُروف رسائل وصلتْها تعزيةً بموت شقيقها، لعجزها حتى عن قراءة الأَسماء، ثم وضعَتْها كلَّها في كيسٍ كبيرٍ (في تقدير الكاتب: نحو ٢٠٠ رسالة من جميع أَنحاء العالم) وطلبَت منه أَن يُحرِقَها جميعَها فَفَعل. وذكر لاحقًا في كتابه أَنه «نادمٌ بِقَهْرٍ شديدٍ» على فعْلته التي كانت «مشاركةً في تدمير ثروةٍ أَدبيةٍ كبرى عن جبران».

٧ المركيز ڤيكتور هنري دو روشفور (١٨٣١ – ١٩١٣) علَمٌ فرنسيٌّ في الصحافة والمسرح والسياسة.

٨ آشيل كلود دوبُسِّي (١٨٦٢ – ١٩١٨) مؤَلِّفٌ موسيقيٌّ كلاسيكيٌّ فرنسيٌّ.

٩ الكونت موريس مايترلِنْك (١٨٦٢ – ١٩٤٩) علَمٌ بلجيكيٌّ في المسرح والشعر والبحث الأَدبي. نال نوبل للآداب سنة ١٩١١.

١٠ إدمون أُوجين روستان (١٨٦٨ – ١٩١٨) علَمٌ فرنسيٌّ في الشعر والمسرح والبحث الأَدبي، اشتهر بمسرحيته الخالدة «سيرانو دُبِرجُراك» (١٨٩٧).

١١ جيوزيپي غاريبالدي الثاني (١٨٧٩ – ١٩٥٠)، ضابط ثائر معروف بـ«پيـﭘينو»، حفيد غاريبالدي موحِّدِ إيطاليا.

١٢ أَبحر من باريس السبت ٢٢ تشرين الأول ١٩١٠، بلغ مرفأَ نيويورك الإِثنين ٣١ تشرين الأول، بقيَ في بوسطن ستة أَشهر، والأربعاء ٢٦ نيسان ١٩١١ انتقل بالمركب إلى نيويورك وبلغَها صباح اليوم التالي، وسيعيش فيها عشرين سنةً، حتى وفاته ليلة الجمعة ١٠ نيسان ١٩٣١.

بعد سنواتٍ ثلاث ختَم جبران حياة التَلْمَذَة بتنويهاتٍ عالية، وأَبـحرَ إلى پاريس كي ينطلقَ منها إلى المغامرة الكبرى في حياته الفنية رسامًا[٥]. ومسارُ تلك الفترة نهجُ انصرافٍ إلى هدفٍ لن يتغيّر: العمل ثم العمل ثم العمل. جرت في حياته لاحقًا أَحداثٌ شتّى، وعرف صداقاتٍ كثيرةً، كان لها جميعها تأْثير على مستقبل حياته، لكنه على أَيِّ حال بقي يعيش في جوانيته، «يُفَولِذ» قواه متصدِّيًا للسنوات الآتية غير مدركٍ، مع حدسه بالشر، ما كانت تُخَبِّئُ له من صراعاتٍ وآلام تلك السنواتُ الآتية.

مسيرة كتاب «النبي»، منذ ولادتها، كانت في رأْيي فريدة: حمله جبران معه من بيروت إلى پاريس فإِلى بوسطن حين استدعي، وهو في العشرين، إلى سرير أُمه، وقرأَ لها ما كتَبَه عن المُصطفى الشاب. لكنها، بالحكمة التي تعالج بها فتاها كما عالجته في طفولته، قالت له: «جيِّدٌ عملُك يا جبران، لكن وقته لم يَحِنْ بعد. دعه جانبًا»[٦]. وأَطاع.

وهنا التفت إِليَّ: «كانت تعرفني أَكثر مني في تلك السن اليافعة».

كان في الخامسة والعشرين حين أَعاد كتابةَ النص بالعربية أَيضًا. يومها كان في پاريس، وشهرته كرسَّام شاب بدأَت تسطع، وعملُه استلفت ملاحظةَ رودان وصداقتَه، ومرتين شارك في «معرض پاريس». هناك، وأُمه لم تعُد في الحياة كي تنصحَه، قرأَه وحده جهارًا ففكَّر: «جيِّدٌ عملُك يا جبران، ولكن بَعد... وقتُه لم يَـحِنْ بَعد. دَعْهُ جانبًا».

ومن جديدٍ بقيَت جانبًا قصةُ «المصطفى المختار الحبيب» عشر سنوات أُخرى. وأَمضى اثنتَين من سنوات پاريس يعمل، يدرس، يعقد صداقات، ويرسم وجوه كبارٍ من العالم فترتئذٍ: هنري دو روشفور[٧]، دُبوسِّي[٨]، مايترلِنْك[٩]، إِدمون روستان[١٠]، غاريبالدي الحفيد[١١]، ورودان.

بعد عودة جبران إِلى أَميركا، لم تطُل إِقامتُهُ في بوسطن فانتقل إِلى نيويورك[١٢] شاعرًا أَنه فيها يسكنُ قلبَ العالم الغربي ويمكنه منها شقُّ طريقه إِلى تحقيق

N. E. Montross

Works of Art

Montross Gallery

550 FIFTH AVENUE

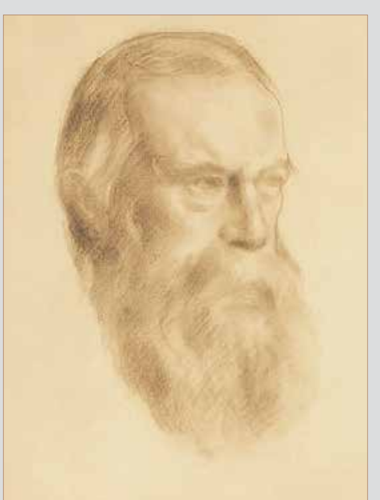
NEW YORK

كُتَيِّب «غالري مونْتْرُس» مع العنوان:
٥٥٩ – الجادة الخامسة – نيويورك
وفيها أَقام جبران معرضه
(١٤ كانون الأول ١٩١٤).

١٣ لم ينتقل إِلى هذا المبنى إِلَّا الجمعة ٢٢ أَيلول ١٩١١، بعدما أَمضى خمسة أَشهر متنقِّلًا في مساكن مُوَقَّتة.

١٤ صمَّمَهُ المهندس المعمار الشهير ريتشارد موريس هانْطْ (١٨٢٧ – ١٨٩٥). تمَّ بناؤُه سنة ١٨٥٧، وتمَّ ترميمُه مرارًا، حتى هدَمَتْهُ بلدية نيويورك سنة ١٩٥٦. أَهمية هانطْ تأْثيرُه في تحديث مدينة نيويورك عمرانيًّا. من إِنجازته الكثيرة: قاعدةُ تمثال الحرية (١٨٨١)، تصميمُ واجهة متحف متروپوليتان لكنه توفي قبل إِنجازها فنفَّذ التصميمَ ابنُه سنة ١٩١٢.

١٥ رسام أَميركي (١٨٤٧–١٩١٧)، غريب الشخصية، مستوحِد، اشتُهر بلوحاته الرمزية ومشاهد البحر. تأَثَّر بشخصيته جبران، وكتب فيه قصيدةً (كانون الثاني ١٩١٥) ووضع له رسمًا بالقلم الرصاص في نيسان من السنة ذاتها. وكان رايدر حاضرًا افتتاح معرض جبران في غالري مونترُس الإِثنين ١٤ كانون الأَول ١٩١٤وأُعجِبَ برسومه. وحين مرض رايدر وأُدخِل المستشفى ظلَّ جبران يَعودُهُ كلَّ يوم تقريبًا حتى وفاته السبت ١٧ آذار ١٩١٧ وحَزِن عليه جبران عميقًا.



Ryder

رغبته في أَن يُبدع بالكلمات والصوَر معنى الجمال والحقيقة وجوهرَ الحياة. ولكي يعيش حياة الفنان كاملةً، اتخذ محترفه في المبنى القديم رقم ٥١ على الشارع العاشر غربًا[١٣]، وهو أَوَّلُ مبنى في الولايات المتحدة مُخصَّصٍ بكامله مُحترفاتٍ لسُكنى الرسامين والنحاتين[١٤].

أَحسَّ جبران أَن هذا الجوّ المحيط يوفر لرغبته الوحدة وحرية العمل.

في هذا الجو عقَد صداقةً مع أَلبرت رايدِر[١٥]، شبيهِه في الشعور بالوحدة والإِحساس الضاغط بحزنٍ في الروح غامض.

في هذه البيئَة – وهذا الرجلُ من لبنان واحدٌ من كوكبة خالدين يَزورون هذا الكوكب مرةً كلَّ أَلف عام حاملين رسالةً من القدرة العليا – كان يتهيَّأُ ليُعطي العالم رسالته: شاعرًا بكلماته الغنَّاءَة، ورسامًا بريشته خطوطًا وأَشكالًا وأَلوانًا.

في هذا المناخ إِذًا، كتَب «النبيَّ» بالإِنكليزية في صيغةٍ أُولى كانت بدايةَ رسالةٍ هيَّأَ لها في «المجنون» و«السابق» إِشاراتٍ تؤَذِّن بالولادة. وإِذا كانت تلك جداولَ تنبع نقاطًا أُولى مترقرقةً من عمق التربة في روح هذا الكائِن الأَرضي، فـ«النبيّ» هو النهر. وهذه المرة جاء تأْليفًا بالإِنكليزية لا ترجمةً من العربية. كتَبَه وهو يَذْرع محترفه خَطواتٍ ساهمة، متوقفًا أَحيانًا ليُدوِّن على ورقةٍ بيضاء، ثم مواصلًا ذرعه، ومتمشِّيًا لياليَ كاملةً وسط غابات «سنترال پارك» في رياح الشمال القارسة، أَو صيفًا وسط غابات الشاطئ في منتجع كوهاسيت، مُحوِّلًا سحرَ عربيَّة جبران إِلى سحرِ إِنكليزيَّته. ولم يصدُر مطبوعًا هذا الكتابُ المدهش إِلَّا بعدما خطَّتْه يدُ جبران خمس مرات في خمس سنوات.

كتابته نُصوصَه مباشرةً بالإِنكليزية كانت دائمًا شاقَّةً عليه. لذا كان ينطلقُ أَكثرَ في إِبداعه حين يذرع المكان، يفكِّر بالعربية، ويُملي فكرتَه بالإِنكليزية شفاهةً من دون أَن يقطع تفكيرَه بجلوسه إِلى الطاولة كي يدوِّن كلماتِه. مرةً قال لي: «استغرقتُ سنواتٍ خمسًا لكتابة «النبي» بالإِنكليزية. ولَكُنْتُ معكِ أَنجزْتُهُ في سنة واحدة».



غلاف أحد أعداد مجلة «بوكْمَن» الأَدبية الشهرية.

١٦ هذا الاهتمام بالتفاصيل الدقيقة يتجلَّى واضحًا في رسائله إِلى الناشر إِميل جرجي زيدان («الهلال» – القاهرة) وأَلفرد كنوف (نيويورك) عند إِرساله المخطوطةَ إِليهما، مُفَصِّلًا لهما حجمَ الحرف الطباعيّ، وطريقةَ إِخراج الصفحات، ومكانَ وضع الرسوم، وكيفيةَ ترتيب المنمنمات الزخرفية في أَعلى الصفحات وبين المَقاطع.

١٧ مجلة أَدبية شهرية صدرت في نيويورك (شباط ١٨٩٥) عن شركة دود وَ مِيد Dodd & Mead (إِحدى أَقدم دُور النشْر في الولايات المتحدة). ومنذ عددها الأَول دَرَجَت على نشْر لائحة الكُتب «الأَكثر مبيعًا هذا الشهر»، وكانت تلك فترتئذٍ فكرةً طليعية. توقفت عن الصدور سنة ١٩٣٣. وفي لندن كذلك مجلة بالاسم ذاته صدرَت بين ١٨٩١ و١٩٣٤. ولم تُشِر باربره يونغ إِلى أَيٍّ من المجلتَين صدَر فيها هذا النص.

١٨ يومية أَسسها الناشر جون وُلْتر في لندن (عددُها الأَول الجمعة أَول كانون الثاني ١٧٨٥). كان فيها قسمٌ للكتب الصادرة حديثًا. لا تزال تصدر حتى اليوم بطبعةٍ وَرَقية وأُخرى إِلكْترونية.

كان دائمًا يكتب على دفاتر ذات ورقٍ أَسمر. كتب يومًا: «ليتَ مَن يُريحني مِن الاهتمام بالشؤُون اليومية. فأَنا أَنشغل بـ«أَمر واحد»، ولا وقت لديَّ كي أَختار بينه وبين أَمرٍ آخر». مع ذلك كان يهتمُّ مدقِّـقًا بأُمورٍ تفصيلية كثيرة[١٦].

منذ طفولته كان يكتُب على دفاتر سمراء الورق، كتلك التي للتلامذة. قال لي يومًا: «نعلَم ما لا يعلمون، أَنَّ القصائد لا تُكتَب إِلَّا على ورقٍ أَسمر». وضحكَ هازئًا من قولتِه تلك.

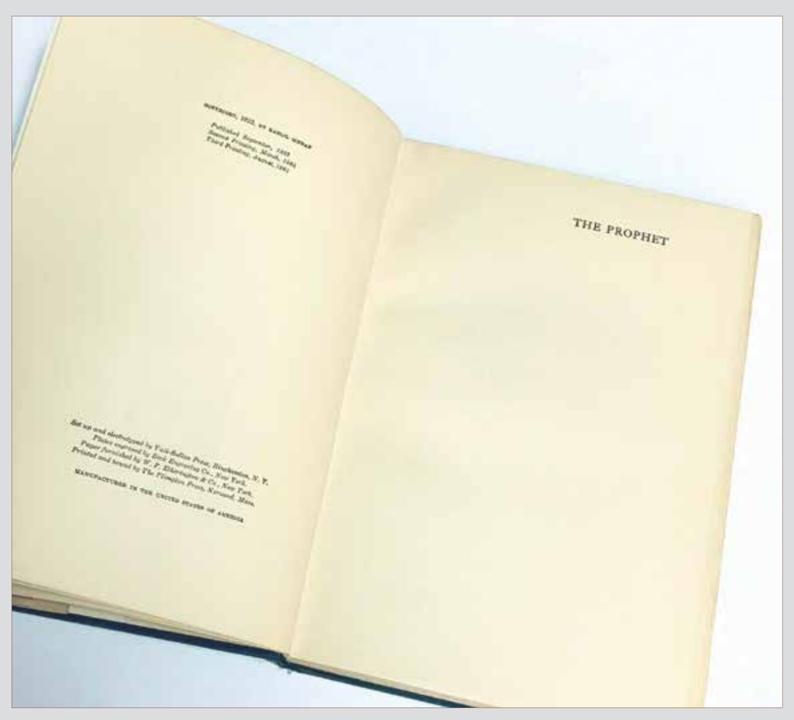
كان في عاداته، أَمام دفتر أَسمر جديدٍ إِلى طاولته، أَن يكتب على صفحته الأُولى كلماتٍ بعَرَبِيَّتِه الحبيبة. وعلى تلك الصفحة من آخر دفتر لديه، كتب: «أَعِنَّا يا رب أَن نكتب على هذا الدفتر حقيقتَك ساطعةً بجمالِك». وعلى الصفحة الأُولى من دفترٍ قبلَه كان كتَب: «يا أَخي، كلُّ مسأَلة شغلَتْك، شغَلَتْني أَنا أَيضًا».

أَخيرًا أَنْجَزَ «النبي» فصَدَر، على غلافه وجهُ المصطفى، وداخلَه أَحدَ عشر رسمًا تحمل إِلى عيون زماننا وروحِه صورةً بيِّنةً عن قوةٍ لدى جبران حقيقيةٍ لم يُظهِر قبلُ إِلَّا بعضًا منها فظهَرت في هذا الكتاب كاملةَ المقدرة الشاملة والجمال النقيّ.

نقَّادُ الصحافة تلقَّفوا الكتاب بغير حماسةٍ ولا اندهاش، بل ببعض امتداحاتٍ خجولة. منها ما ظهر في مجلة «بوكْمَن»[١٧]: «في الفلسفة الشرقية سحرٌ على العقل الغربي، تَزيد من وهجه كتابتُها بنثْر شاعريٍّ بسيطٍ وجميلٍ كما في «نبي» خليل جبران الموَشَّى بلمسة صوفية طرَّزتها ريشتُه باثني عشر رسمًا لعُراةٍ هادئِي البهاء طالعين من الفوضى إِلى التصفّي من الأَفكار المعقَّدة».

وفي جريدة «تايمز»[١٨] اللندنية جاء: «خليل جبران شاعر من الشرق الأَدنى يجمع في هذا الكتاب أَجمل ما لدى الفكْرَين المسيحي والبوذي في سلسلةِ أَجوبةٍ يُلقيها نبيٌّ مصطفى على سائليه عن شؤُون الحياة وسرّ الموت الذي يحسه دانيًا».

ومن الطرافة، بل الإِشفاق، مراقبةُ هؤَلاء السادة النُقاد كيف، بعد عشاء دسْمٍ مساءَ الخميس، يقلِّبون سريعًا صفحاتِ كتاب جديد، يلتقطون فكرةً من صفحةٍ



صفحة داخلية من كتاب «النبي»
تظهر فيها ثلاث طبعات في أَقلّ من سنة:
الأُولى: أَيلول ١٩٢٣
الثانية: آذار ١٩٢٤
الثالثة: آب ١٩٢٤

١٩ جريدة مسائية يومية صدرت في شيكاغو بين الإِثنين أَول آذار ١٨٨٦ والسبت ٢٩ تشرين الأَول ١٩٣٢. منذ ١٩١٣ تولَّت صفحةَ الكتُب فيها الناقدةُ الأَميركية مرغَريت كارولاين أَندرسون (١٨٨٦ – ١٩٧٣) قبل أَن تُؤَسِّس بعد سنةٍ **The little review** (١٩١٤) مجلَّتها الأدبية النقدية التي نشرت مطالع أُدباء وشعراء كبار مثل ت.س. إِليوت، أَزرا پـاوند، إِرنسْت همنغواي، جيمس جويس، ... إِلى أَن احتجَبَت سنة ١٩٢٩.

٢٠ صدرَت طبعتُه الأُولى في أَيلول ١٩٢٣، وتلَتْها طبعة ثانية في آذار ١٩٢٤، فثالثة في آب ١٩٢٤.

وغيرَها من صفحة أُخرى، ثم يَصوغون بضعة أَسطُر يرسلونها إلى الجريدة على أَنها «نقْدُ كتاب».

غير أَن نصًّا وجدتُه بين المقتطفات الصحافية في جريدةٍ إنكليزية لم أَجد اسمَها، دلَّ على أَنَّ بين أُولئك «السادة النقّاد» كاتبًا «ي.و» (Y.O.) تأَنّى مَليًّا في قراءَة «النبي». ومما كتب: «لم أَر منذ سنواتٍ كتابًا أَجملَ منه فكرًا. قرأْتُهُ ففهمتُ، أَفضلَ من قبلُ، قَولة سقراط في «المأْدبة» عن جمال الفكرِ الأَبلغِ تأْثيرًا من جمال الشكل. فما أَعمق سخرية جبران من عاشقِي الحرية الـ«مُعتنقِينَها نِيرًا وغِلًّا».

وفي جريدة «شيكاغو إِيڤْنِنْغْ پوست»[١٩] صدَر نقدٌ جاء فيه: «قد لا يثير ضجةً هذا الكتاب. لكن قيمةَ الكاتب ليست في صخبِ ما يُثيره من ضجيج. هي ذي هنا الحقيقةُ... يَصُوغها سوريٌّ بأَجمل ما لديه من موسيقى وجمال ومثاليَّات. كلمات جبران تحمل الى السَماع إِيقاعاتٍ جليلةً تذكِّر بـ«سِفْر الجامعة». فخليل جبران لم يخشَ أَن يبدو مثاليًّا في عصر الهازئين، وأَن يهتمَّ بالحقيقة البسيطة وسْط من يتطاولون كي يَبلغوا الذكاء. إِن فصولَ هذا الكتاب الثمانيةَ والعشرين تشكِّل كتابًا مقدَّسًا صغيرًا يقرأُه ويحبُّه جميع المُهَيَّإِين لاقتبال الحقيقة».

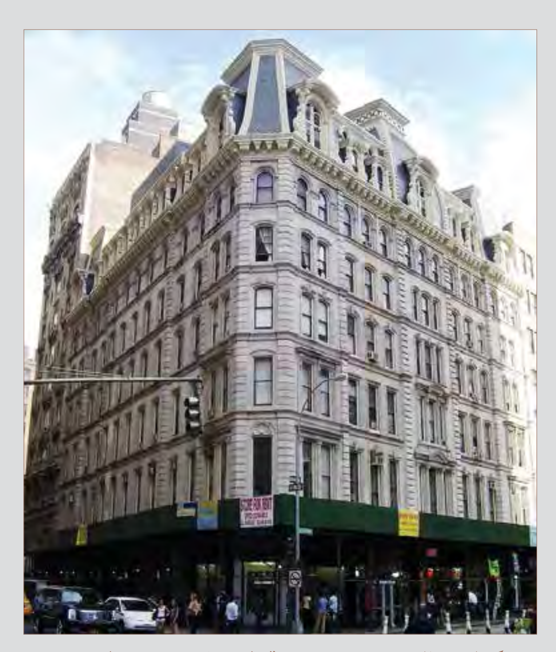
وكان على حقٍّ كاتبُ هذا النقد. فليس في الكتاب ضجيجٌ بل مطلعُ هَـمسٍ وُلِدَ وتنامى فانتشر بين الناس نسَمًا خفيفًا راح ينمو وسْط العاصفة: «النبي»... «هل سمعتُم بـ«النبي»؟ هل قرأْتُمْ «النبي»؟

بُعَيْدَ ظُهور الكتاب[٢٠] بقيَ مئاتُ المصْغين يتابعون قراءاتٍ منه في كنيسة القديس مرقس في الباوري، كما سبَق وذكرتُ، ومنذئذٍ ورسالةُ الكتاب تنتشر بين آلاف الناس وتَعُمُّ العالم. تلقَّاه شعراءُ من بلدانٍ أُخرى، وبلغَت قلوبَ رجالٍ ونساءٍ رسالتُه الساطعةُ فنقلوه إِلى لغاتهم ليقرأَه مواطنوهم في أَكثر من ثلاثين لغة ولهجة. كل ذلك بلا ضجيجٍ بل بسقسقةِ نهرٍ علويٍّ يحمل الانتعاش النفسي والغنى الروحي إِلى «المُهَيَّـإِين لاقتبال الحقيقة».

سنة ١٩٣٣ سعدتُ بالتوجُّه إِلى جمع غفير من حضور مؤْتمر «جماعة الإِيمان العالمية» في شيكاغو: جَمعُ نساءٍ ورجالٍ من عقائد وطوائف مختلفة عبر الكوكب



«الفندق الكبير» Grand Hotel سنة ١٩١٠...



... وكما هو اليوم بعد ١٠٠ سنة (صورة من ٢٠١٢)

٢١ فندق قديم تأَسَّس سنة ١٨٦٨ وسْط مانهاتِن في حيٍّ حيوي يزخر بالفخم من المسارح والفنادق والمطاعم. سنة ١٩٧٩ دخل هذا الفندق لائحة الأبنية الأثرية في مدينة نيويورك، ومنذ ١٩٨٣ أَصبح من المعالم الوطنية التاريخية في الولايات المتحدة.
وهو على زاوية الشارعين ٣١ وبرودواي.

جاؤُوا يتحاورون في معتقداتهم الروحية. يومها اخترتُ موضوع «التبشير بالثقافة»، ورحتُ طوال نصف الساعة المُعطى لي أَستشهدُ بِمقاطع من «النبي»، كما أَفعل دائمًا منذ العشرين سنة الأَخيرة كلَّما وأَينما أَقف خطيبةً في حلقة أَو مجموعة.

في ختام جلسة بعد الظهر من ذاك المؤْتمر، جاءَني شابٌّ هندوسي حادقُ العينين يسأَلني عن اسم الكتاب الذي استشهدتُ بمقاطعَ منه. وكانت من سؤَاله وجوابي بدايةُ صداقةٍ غاليةٍ امتدَّت سنواتٍ طويلة. ذاك الشاب كان راما مورتي المعاونُ الخاص لمهراجا النيپال، جاءَ يرافقه إِلى المؤْتمر.

حين عادا إِلى الهند، حمل راما معه نسختين من «النبي»، واحدةً له والأُخرى لشقيقه الأَصغر وهو شاعر هندي شاب يكتب الشعر بإِنكليزية رشيقة. بقيتُ سنواتٍ أَتلقَّى رسائلَ رائعةً من ذاك الشاب، في الأَخيرة منها أَخبرني أَنه يُدَرِّس الإِنكليزيةَ تلامذةً يابانيين لدى مدرسة إِعدادية في طوكيو. كان ذاك من سنواتٍ أَربع، وما عادت وصلتْني أَيُّ رسالةٍ من ذاك الصديق الشاب الرائع. إِنما عرفتُ أَنَّ كتاب «النبي» فتح له آفاقًا لم يكن عرَفها عن الحقيقة والجمال، وأَنَّ مسار حياتِه فموتِه بات أَغنى وأَكبر مما لو لم يعرف «النبي».

في مقدّمة كتابي هذا، رويتُ لقائي الأَول بكلمات جبران. وفيما أَكتب الآن هذه الأَسطر، تتداعى إِلى ذاكرتي قصصٌ أُخرى عن أَول لقاء لآخرينَ بكلمات جبران.

ومما أَذكر: لقاءٌ ذاتَ سادسٍ من كانون الثاني، ذكرى مولد جبران، في غرفتي من «الفندق الكبير»[٢١] في مدينة نيويورك. كانت غرفتي عالية السقف، عريضةً وطويلةً، تطلُّ على زاوية جادةِ برودواي والشارع ٣١، ذاتَ خمس نوافذ عالية تتدلى عليها ستائر حريرية، وحين تُضاء الشوارع ليلًا وغرفتي في العتمة، تروح الأَلوان تتمايل على السقف والجدران في منظر أَخَّاذ يوحي بالشفَق عند المغيب.

ذاك المساء جمعتُ في غرفتي أَصدقاء كي نتذكَّر جبران ونتحدَّث عنه ولا نور في الغرفة. كانوا نحو عشرين أَو أَكثر، جوُّ الغرفة متوهِّج، ومشاعرُنا في ذروةٍ لا يبلُغُها وصف. وراح كلٌّ منهم يروي كيف دخل حياتَه كتابُ «النبي».



TELEPHONE LONGACRE [illegible]

GRAND HOTEL
BROADWAY & 31ST STREET
NEW YORK CITY

26 April

Dear Mr. [illegible]:
You have been many times in my thoughts, since the hour you spent with the great pictures & the studies. All that is now on. We are sailing May 4th on the American [illegible], for England – then the continent and eventually Syria. The pictures may go almost intact to Bsharri. [illegible] to remain in the Metropolitan Museum here.
I am sending you a sketch which Gibran once sent me in a letter – [illegible] therefore guided by his own hand. This is my recognition of your beautiful understanding of his work. May all blessing abound with your heart and life.
Yours faithfully
Barbara Young.

رسالة من باربره يونغ لأَحدهم في ٢٦ نيسان
كتبتْها على ورقة «الفندق الكبير»
وعليها عنوانه: شارع برودواي
والشارع ٣١ – مدينة نيويورك.
وتذكر فيها باربره أَنها ترسل إِليه مخطط رسْمٍ
كان جبران أَرسله لها في رسالة منه إِليها.
وهي تفعل ذلك تقديرًا منها فهمه العميق
كتاب جبران (أُرجِّحُ أَنها تقصد كتاب «النبي»،
لأَنها قرأَت منه كثيرًا في ندوات مختلفة
بعد غياب جبران).

٢٢ سلسلة جبال صخرية عالية في الجهة الغربية من أَميركا الشمالية، تمتد على ٤٨٠٠ كلم بين كندا ونيو مكسيكو. فيها واحاتٌ وغابات ومحميات وفسحات سياحية جميلة للتنزُّه والتزلُّج.

كانت بيننا صبيَّةٌ روسيَّة اسمها ماريًّا. روَت كيف كانت يومًا تتسلَّق مع شلة من شبان وصبايا واحدًا من «الجبال الصخرية»[٢٢]. انتحَت بعيدةً عنهم قليلًا وجلسَت تستريح على صخرةٍ رأَتْ أَمامها كتيِّبًا أَسود. فَتَحَتْهُ. لا اسمَ عليه ولا علامة. كان كتابَ «النبي». لم يَعْنِ لها شيئًا. قرأَتْ في صفحةٍ، ثم في ثانية ففي ثالثة، ثم نشبتْ واقفةً وجعلَت تنادي رفاقَها: «تعالوا جميعًا... تعالوا انظروا إِلى ما أُمضي حياتي باحثةً عنها وها أَنا وجدتُها: الحقيقة».

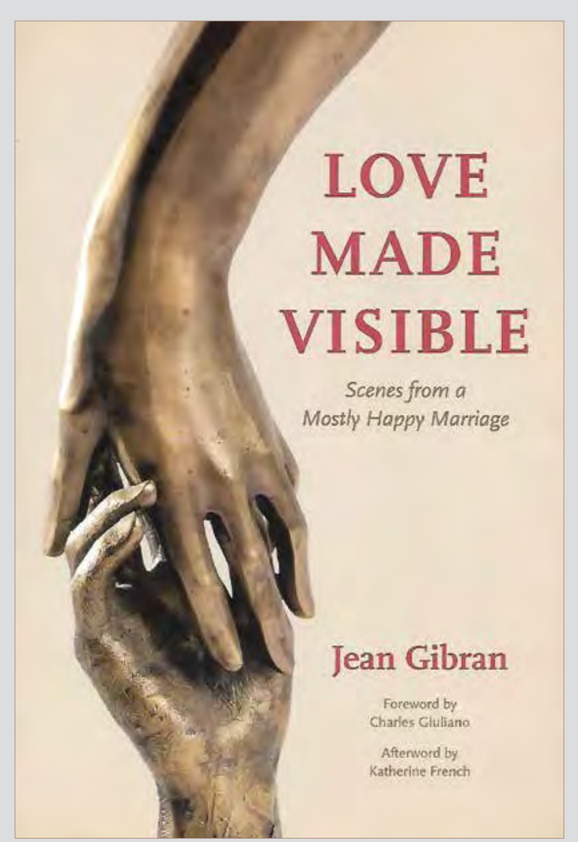
وكانت بيننا أَيضًا صبيَّةٌ مُدَرِّسةٌ في مدرسة خاصة، وهي شاعرة رهيفة. روت لنا أَن الغرفة التي تدرِّس فيها قريبةٌ من رواقٍ يؤَدِّي إِلى الباب الخارجي. ذات صباح وهي تدرِّس تلامذتها، فتحَ البابَ رجلٌ غريبٌ في يده كتابٌ مفتوحٌ وقال بدون أَيِّ تمهيد: «لديَّ ما أَتلوهُ عليكم وهو مهمٌّ جدًّا». وقرأَ علينا فصل «الأَولاد» من «النبي». ذُهلَت المُدَرِّسة من فُجاءَة هذا الرجل ومن كلماتٍ أَخَّاذَةٍ قرأَها فلم تقاطعه. ثم خرج مغلقًا وراءَه الباب. وهكذا عرفَتْ كتاب «النبي».

وأَعرف في مدينة نيويورك مديرَ مؤَسسة عقارية شهيرة، أَخبرني أَن لدى زوجته في البيت ثلاثَ نُسخ من كتاب «النبي». فـ«كلَّما تعرفنا بشخصٍ جديدٍ جديرٍ تهديه نُسخة. ومن ردَّة فعله حَيال الكتاب نشَكِّل رأْينا في جدارته».

صدِّقوني: جميعُ هذه القصص واقعةٌ حقيقةً، لا لأَن الكتابَ شاعريٌّ، أَو لِـما فيه من سحر وجمال، من إِيقاعاتٍ وموسيقى، وإِنما لأَنه مكتوبٌ بأُسلوبٍ سهلٍ بسيطٍ يُمكِّنُ أَيَّ فتى ذكي أَن يقطف منه بقلبه وعقله أَفكارًا هي أَعمقُ الحقيقة وأَسطَعُها في وجودنا البشري. إِنه كتاب نابضٌ حـيٌّ يلامس الروح ويحرِّكها بإِصبعٍ من نار، فلا يمكن أَن تقرأُوا صفحةً منه ولا تُحرِّك أَعمقَ ما في وعيكم، إِن كنتم حقًّا من «المُهَيَّإِين لاقتبال الحقيقة».

وهنا منه أَنفاس:

– تحابَّا إِنما لا تَنسُجا من الحب وِثاقًا بل اترُكاهُ بحرًا يتماوجُ بين شواطِي روحَيكُما.



عبارة جبران «العمل هو الحُبّ مرئيًّا» (من فصل «العمل» في كتاب «النبي») اتَّخذتْها الكاتبة جين جبران عنوان كتابها (٢٠١٤)، وهو مجموع «مشاهد من زواج سعيد جدًّا»، تسرد فيه حياتها الهانئة مع زوجها النحات البوسطني خليل جبران (توفّي سنة ٢٠٠٨).

"Love is winging the day through work" and "work is love made visible." P.24
To Marie Louise from her devoted friend Kahlil
April 1928

... وهو استعمل عبارته
(من فصل «العمل» في «النبي»)
إهداءً في نيسان ١٩٢٨
«الحب هو النهار مجنَّحًا بالعمل
والعمل هو الحب مرئيًّا»
إلى ماري لويز من صديقها المُخلص خليل»

- أَولادُكم ليسوا أَبناءَكُم... من خلالكُم يولَدون، لا منكُم. وليسوا ينتمون إِليكُم ولو انهم معكُم يعيشون.

- لا يمكنكم تفريقُ العادلِ عن الجائر، والصالحِ من الشرير، لأَنهما معًا واقفان في وجه الشمس كما الخيطُ الأَسودُ والخيطُ الأَبيضُ منسوجان معًا، وحين ينقطعُ خيطٌ أَسْوَدُ يدقِّقُ الحائكُ في كامل القماش ويتفحَّص جميعَ مفاصل النَول.

- حياتُكُم اليومية دِيانَتُكُم وهيكَلُكُم.

- ذات يومٍ ستعرفون الغاياتِ الخفيَّةَ في كلِّ شيْء، وتباركُون العتمةَ مثلَما تباركون النور.

- العملُ هو الحبُّ مرئيًّا.



الزوجان السعيدان جين وخليل جبران في صورة لهما إِبان رحلة إِلى لندن (٢٠٠٦).

HARCOURT STUDIOS DESTROYED

Fire Wrecks Building, Causing Loss of $200,000

By Associated Press.
BOSTON, Nov. 11.—The Harcourt studios, a two-story brick building in the Back bay, was gutted by fire tonight, causing a loss of $200,000.
The building was occupied by the Hutchins Votey Organ company, George H. Walker, publisher and lithographer, the Ranchard Machine company, the Pennsylvania Metal company and about thirty artists' studios.
Many artists slept in the building and several who were asleep when the fire broke out were rescued by firemen.

خبر في الصحافة عن احتراق مبنى هاركورْت (من طابقين) ومعه احترقت (ليلة ١٠-١١ تشرين الثاني ١٩٠٤) جميع رسوم جبران التي كانت هناك في عُهدة فْرِدْ هولند داي.

١ صدر لدى كنوف مطلعَ كانون الأوَّل ١٩١٩ في طبعة فاخرة ملوَّنة، وعلى غلافه رَسَمَ جبران «البُرزيّ» (كلب روسيّ لمطاردة الذئاب) واعتمده كنوف، منذئذٍ، شعارًا لدار النشر على أَغلفة جميع منشوراته.

٢ ... وكان صدَر قبل سنةٍ (١٩١٨).

٣ ... وهو صدَر بعد سنةٍ (١٩٢٠).

٤ وهو أَول معرضٍ لجبران. أَقامه له فْرِدْ هولَند داي في محترفه (مبنى هاركورْت – شارع إرڤنغتون – بوسطن) بين الجمعة ٣٠ نيسان والإثنين ١٠ أيار ١٩٠٤. وفي اليوم الأَخير من هذا المعرض (مساءَ الإثنين ١٠ أَيار) جاءَت ماري هاسكل والتقَت جبران للمرة الأُولى التي كانت، منذ ذاك اليوم، منعطفًا رئيسًا في حياته وحياتها وحياتهما معًا.

٥ «بوسطُن إيڤْنِنْغ تْرانْسْكْرِيپْت»: يومية مسائية محافظة. صدرَ عددُها الأول مساءَ السبت ٢٤ تموز ١٨٣٠. انهار مبناها كلِّيًّا في حريق بوسطن الهائل ليلةَ ٩ تشرين الثاني ١٨٧٢، فأُعيد بناؤُهُ وتوسَّع وظلَّت تصدُر منه حتى احتجبَت مع عددها الأَخير مساءَ ٣٠ نيسان ١٩٤١. وبلغَت من الشهرة أَن كتبَ فيها قصيدةً عنوانُها «بوسطُن إيڤْنِنْغ تْرانْسْكْرِيپْت» الشاعرُ الأَميركي ت.س. إليوت (١٨٨٨-١٩٦٥) – «نوبل الأَدب» ١٩٤٨).



مبنى صحيفة «بوسطن إيڤنِنغ ترانسْكريپْت»، التي نشرت أَوّل مقال عن أَوّل معرض لجبران في عددها الثلثاء ٤ أَيار ١٩٠٤.

٦ «بوسطُن إيڤْنِنْغ تْرانْسْكْرِيپْت» – عدد الثلثاء ٤ أَيّار ١٩٠٤ – صفحة ١٠.

ضبابةٌ منحوتة في صورة

أَولُ اتصال عامٍّ للجمهور الأَميركي بفن جبران تَمّ سنة ١٩١٩، عند صدور كتاب «عشرون رسمًا»[١]، بعد «المجنون»[٢] وقبل «السابق»[٣]. وهو لم يكن سوى لمحةٍ من عالم إِبداعٍ كان جبران يَتَلَمَّسُه.

قبله، أُقيمت معارضُ لرسومه، في بوسطن أَوَّلًا ثم في نيويورك.

عن معرض بوسطن[٤] صدر مقالٌ في صحيفة «ترانسكريپْت»[٥] أَشار باعترافٍ تقييميٍّ إِلى ذاك الفنان الشاب:

«السيد جبران شابٌّ سوريٌّ يجسِّد في رسومه طبيعةً لجذوره شاعريَّةً وخياليَّةً، ومسحةً لافتةً لإِبداعٍ شخصيّ. جميلٌ ولَعُهُ بالجمال والنبل في رُسومه، وعنيفٌ رفضُه كلَّ ما عداهما. من هنا تأْثيرُ رسومه على مشاهديها وإِبداعُه، على رغم سنِّه الباكرة، في فرادةٍ وعُمقٍ رمزيَّين. تَوقُه إِلى التعبير عن أَفكار ماورائية جعلَه يتخطَّى محدودية التقنيات التقليدية إِلى فلواتِ خيالٍ جمحَ إِلى التعبير تجريديًا عن الفكرة وجمالها الخُلُقي»[٦].

لافتًا كان فَهْمُ رسومه هكذا في مرحلةٍ كان الفن خلالها بعيدًا جدًّا عن كُنْه «الجمال الخُلُقي» و«العُمق الرمزي». من هنا ما تركت رسومه من نجاحٍ هدَّمتْه كارثةٌ كانت تنتظر الرسام الشاب بعد ستة أَشْهر: اندلع في المبنى حريق رمَّدَه كُلِّيًّا ورمَّد معه جميعَ رسوم جبران الجميلة.

٧ مدرسة خاصة ذات محترفات عدّة لتدريس الرسم والنحت أَسسها سنة ١٨٦٦ الرسَّام الفرنسي رودولف Julian جوليان (١٨٣٩–١٩٠٧). خرَّجَت كثيرين ممن باتوا لاحقًا أَعلامًا كبارًا في الرسم والنحت.

٨ مساءَ الأَربعاء ٢٦ نيسان ١٩١١ أَبحرَ جبران، على متن باخرة الخطوط البحرية «جُوْيْ»، من بوسطُن إِلى إِقامته الدائمة في نيويورك، بَلَغَها صباحَ الخميس، وتوجَّه إِلى المبنى ١٦٤ شارع واڤِـرْلي، في شُقَّة صديقته شارلوت تِلِر التي كانت فترتَئذٍ خارج نيويورك في جولةٍ مسرحية.

٩ انتقل إِليها الخميس ١١ أَيار، وهي في نَزْلٍ ذي شُقَقٍ مفروشة يشكّلُ المبنى ٢٨ من الشارع التاسع غربًا، وفيه أَيضًا شُقَّة صديقه أَمين الريحاني.

Charlotte Teller 1909

١٠ هو المبنى ٥١ من الشارع العاشر غربًا، انتقل إِليه الجمعة ٢٢ أَيلول، مستأْجرًا فيه أَوَّلًا (بـ٢٠ دولارًا شهريًّا) غرفةً ضئيلةً في الطبقة الثانية، بقي فيها حتى الخميس أَول أَيَّار ١٩١٣ حين انتقَل منها إِلى الطبقة الأَخيرة (الثالثة) من المبنى ذاتِه، مستقِرًّا نهائيًّا في ردْهةٍ أَوسعَ من تلك بثلاثةِ أَضعاف (٧٠ مترًا مربَّعًا) ذاتِ فُتحةٍ في السقْف، وخمس نوافذ شمالًا وجنوبًا تساعد إِضاءتَها على الرسم، إِيجارُها الشهريُّ ٤٥ دولارًا، هي التي عاش فيها بقية حياته واضعًا سائر مؤَلَّفاته ورسومه ولوحاته، وهي التي سمَّاها رفاقُه «الصومعة».

١١ عباس عبدُ البهاء (طهران ١٨٤٤–حيفا ١٩٢١). زعيم الطائفة البهائية من ١٨٩٢ حتى وفاته. بكرُ مؤَسس البهائية الميرزا حسين علي النوري «بهاء الله» (طهران ١٨١٧–عكَّا ١٨٩٢).

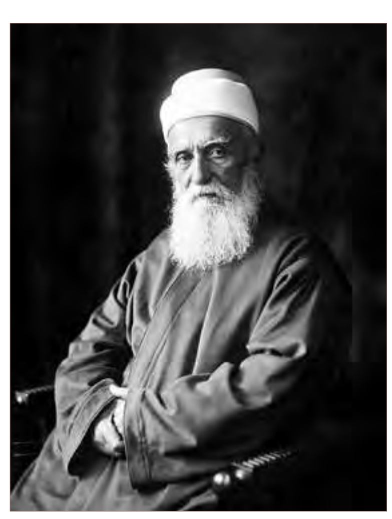
١٢ وليَم بَطْلِر ييتْس شاعر إِيرلندا الكبير (١٨٦٥–١٩٣٩). جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٢٣. رسم وجهَهُ جبران في أَقلَّ من ساعة صباح الأَحد أَول تشرين الأَول ١٩١١ في غرفة ييتْس من فندق تورين – بوسطن. ثم عاد فالتقاه في نيويورك حين زارها ييتْـس بين شباط ونيسان ١٩١٤.

١٣ جون إِدوارد مايسفيلد (١٨٧٨–١٩٦٧)، شاعر وكاتب إِنكليزي. زار نيويورك سنة ١٩١٥ بعد عودته سَنَتَئِذٍ من معركة غالِّيبُلي (أَو الدَرْدَانيل) ومآسيها وفواجعها. وضعَ عنها كتابًا سنة ١٩١٦.

كانت تلك ضربةً قاسيةً أَصابت أَعمالَه الأُولى لا يُمكن تقديرُ طعنتِها على رهافته وطبيعته الرقيقة. غير أَنه، بعد سَنَتَي دراسته الرسمَ في پاريس لدى أَكاديميا جوليان[٧] ومزاولتِه الرسمَ الزيتي في محترف الفنون الجميلة، صرَّح:

«النار التي أَحرقَت رُسومي الأُولى كانت نعمةً من الخالق الرحيم. يومها قالوا إِنها رُسُومٌ جيِّدة لكنني اليوم أَعرف أَنها كانت فجَّةً غيرَ ناضجة... فحين كنت في پاريس أَدركتُ أَنِ انقشَعَت الضبابةُ التي كانت بيني وبيني».

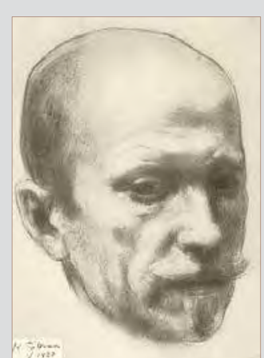
في سنواته اللاحقة كان يحب الحديث عن سنواته السابقة في پـاريس، عن سنواته الأولى في نيويورك[٨]، عن غرفة محترفه الأَول[٩] – وكان يسمِّيها «قفصي الضيق» – وأَخيرًا عن المحترف الأَرحب في الطبقة العليا من مبنًى آخَر[١٠]، قاعتُه وسيعةٌ منحَتْه كأَنْ حريةً جديدةً، و«يمكنني فيها أَن أَبْسطَ على وسعِهما جناحَيَّ» كما قال لي. وكان في المحترف الأَوّل رسَم سنة ١٩١٢ وجهَ عبدالبهاء[١١] القُدُّوسيَّ، وهو طلَب أَن تكون جِلْستُه إِليه في السابعة صباحًا. أَذكر أَنه قال لي: «بقيتُ سهرانَ طوالَ الليل، ليقيني أَنْ لو نِمْت طويلًا لن أَستطيعَ السيطرة على عينيَّ ويديّ».



Abdul Baha

وفي المحترف الأَخير رسَم وجوهَ مَن زاره من كبار الشعراء: ييتْس[١٢]، مايسفيلد[١٣] (العائد حديثًا من معركة غالِّيبُلي «وفي عينيه بقايا أَشباحها»)، جورج

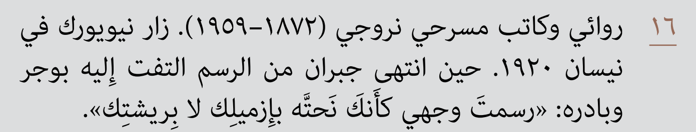
١٤ كاتب، شاعر، رسام إيرلندي (١٨٦٧–١٩٣٥)، نشر معظم مؤلفاته بتوقيع AE. زميل جبران في «جمعية الشرق الجديد» (أسسها سُيُود حسين في نيويورك سنة ١٩٢٤). ولاحقًا (١٩٣٨) قال راسْل عن جبران: «لا أظُن الشرقَ تكلّم بصوتٍ ساطعٍ نقيٍّ كما تكلَّم جبران في كتابه «النبي».



يوهان بوجر كما رسمه جبران (نيسان ١٩٢٠)

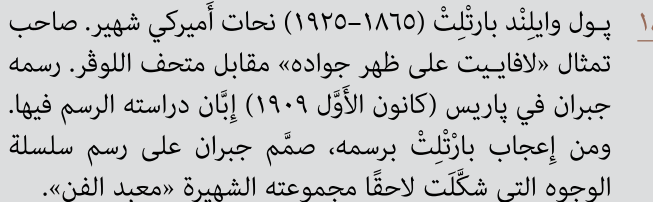


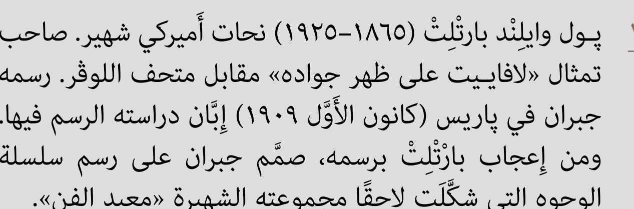
١٥ كاتب ومؤلِّف مسرحيّ إنكليزي (١٨٦٥–١٩٥٩). زار نيويورك في كانون الثاني ١٩١٧.



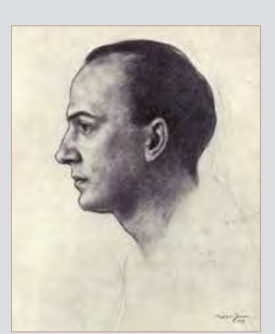
١٦ روائي وكاتب مسرحي نروجي (١٨٧٢–١٩٥٩). زار نيويورك في نيسان ١٩٢٠. حين انتهى جبران من الرسم التفت إليه بوجر وبادره: «رسمتَ وجهي كأنكَ نَحتَّه بإزميلِك لا بِريشتِك».

١٧ أحد كبار الشعراء الأميركيين (١٨٥٢–١٩٤٠) كان رَسَمه جبران في أيار ١٩١١ بُعَيد وصوله من بوسطن إلى نيويورك.

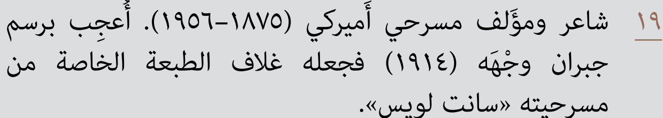


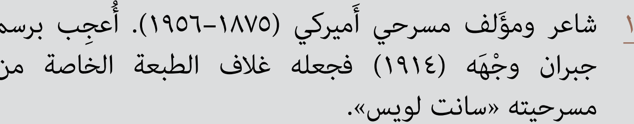


١٨ پـول وايلِنْد بارتْلِتْ (١٨٦٥–١٩٢٥) نحات أميركي شهير. صاحب تمثال «لافاييت على ظهر جواده» مقابل متحف اللوڤر. رسمه جبران في پاريس (كانون الأوَّل ١٩٠٩) إبَّان دراسته الرسم فيها. ومن إعجاب بارْتْلِتْ برسمه، صمَّم جبران على رسم سلسلة الوجوه التي شكَّلَت لاحقًا مجموعته الشهيرة «معبد الفن».

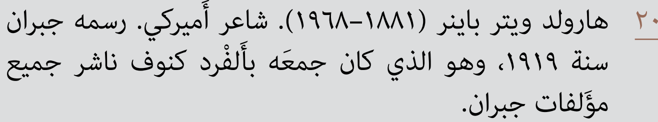


ويتر باينر كما رسمه جبران سنة ١٩١٩





١٩ شاعر ومؤَلف مسرحي أميركي (١٨٧٥–١٩٥٦). أُعجِب برسم جبران وجْهَه (١٩١٤) فجعله غلاف الطبعة الخاصة من مسرحيته «سانت لويس».



٢٠ هارولد ويتر باينر (١٨٨١–١٩٦٨). شاعر أميركي. رسمه جبران سنة ١٩١٩، وهو الذي كان جمعَه بألْفْرد كنوف ناشر جميع مؤلفات جبران.

٢١ كان افتتاحُه مساءَ الاثنين ١٤ كانون الأول ١٩١٤. وكانت تلك من أفخم صالات العرض على الجادة الخامسة. تحمل اسمَ مؤسِسها سنة ١٨٧٨ نيومان إمرسون مُنْتْرُسّ (١٨٤٩–١٩٣٢). اشتُهرت بعلاقاتها القوية مع هُواة جمع اللوحات الفنية، ما أمَّن نجاحَ معارضها لكبار فناني أميركا، ثم توسَّعَت إلى فناني أُوروپـا الطليعيين يومها (پُـول سيزان، هنري ماتيس، ...). ظلَّت ناشطةً حتى إقفالها سنة ١٩٤٢ (بعد عشْر سنوات على وفاة مؤَسِّسها). كان افتتاحُ معرض جبران ناجحًا. عَـرَضَ فيه ٤٤ لوحةً ورسمًا، باع منها في الأُسبوع الأوَّل خمس لوحات بقيمة ٦٤٠٠ دولار.

٢٢ مصمِّمةُ رقصٍ أميركيةٌ (١٨٧٨–١٩٦٨) رائدةُ الرقص الحديث فَتْرَتِيْدِ. أَسسَت سنة ١٩١٥ في لوس إنجلِس (كاليفورنيا) مدرسةً للرقص الحديث كانت بين طالباتها الراقصة الشهيرة لاحقًا مارتا غراهام.

وليم راسْل[١٤]، لورنس هيوسمان[١٥]، يوهان بوجر[١٦]، إدوين ماركهام[١٧] عميد شعراء أَميركا، پـول بارتْلِتْ[١٨]، پـيرسي ماك كاي[١٩]، وِيْتِر باينر[٢٠]، وكثيرين سواهم من كبار المبدعين.

... وتطول اللائحة، تطولُ أَكثر، مثيرةً أَعلى الإِعجاب بأَنه كان طوال الوقت رسَّامًا وشاعرًا معًا، يكتب بعربِيَّته الحبيبة وبإِنكليزيَّته الربيبة التي بلغ حَدَّ أَتقانها.

أَول معرضٍ له في نيويورك كان إِبّان كانون الأَول ١٩١٤ في صالات غالري منْتْرُسّ[٢١]. وأَجد ضروريَّةً هنا إِعادةَ نشْر النص الكامل لمقالٍ يَذكر بوضوحٍ تأْثير أَعماله فَترتَئِذٍ. وهو من محفوظاتٍ صحافيةٍ، لا يَظهر فيه اسمُ الجريدة المأْخوذ منها، لكنَّ مضمونه لافت. أُورِدُه بِحرفيَّتِه:

«رسْمُهُ وجوهَ ناس معروفين يدل على تقنيةٍ عاليةٍ تعتمد الخطَّ الدقيقَ المُذهل بالقلم الرصاص، في توشيحاتٍ يتداخل غامُقها مع الفاتح في براعةٍ نادرة تبُثُّ نورًا لونيًّا متماوجًا، نادرًا ما يُعطيه الرسمُ بالفحم.

بين الرسوم مجموعةٌ للراقصة روث سان دنيس[٢٢] في وضعية الرقص، بضربات سريعة على طريقة رودان، وبنجاحٍ في التقاط جوهر الهنيهة إِبَّان ومضة الرقص في نبضتِها الحية. وبين الرسوم أَيضًا مخططاتٌ في العري تركِّز على التعبير بالشكل والجسد والحركة. وفي المعرض نحو ٢٤ زيتية كافية لتحملَنا إِلى عالَمِ الخيال لدى الرسام، وهو عالَمُ إِبداعٍ فريدٌ ينبسط أَمامنا بفضائه وجباله الضئيلةِ الخُضرة، أَحيانًا بـجوٍّ من الوحدة والانفراد، ودائمًا بِإِيماءةٍ إِلى وساعةٍ كبرى برغم المساحة الضئيلة. وعند التآلُف مع المناظر تتجلَّى رموزُ عالمٍ وسيعٍ من الروح، في بداية التأْثير، كما القوى الكبرى تتهيَّأُ في رحم اللانهاية استعدادًا لمخاض الولادة. وهذا رمزُ عالَم الروح، كما قد يبدو لروح بشرية مفردة تتفتح على وحدة الوعي الذاتي عند سر الإِيقاع في وحدة الحياة والموت.

إِنه، جُزئيًّا، عالَمٌ لا وهْم فيه ولا خداع، لا ثرثرة ولا تيَهَان ولا مواربات، عالَمٌ عارٍ يسكنُه العري، عالَمُ الغرائِز الأَساسية كما كانت في البدء «حين كان الرجل والمرأَة



لقطتان من داخل غالري كْنودْلِر، أَهم صالات العرض في زمانها (عرَض جبران فيها سنة ١٩١٧ من ٢٩ كانون الثاني إِلى ١٠ شباط). ولاحقًا أَصدر أَعمال هذا المعرض في كتاب «عشرون رسمًا» (١٩١٩).

٢٣ من أَعرق صالات العرض في مدينة نيويورك، على الجادة الخامسة الشهيرة. تأَسست سنة ١٨٤٦ وظلَّت تعمل ١٦٥ سنة حتى إِقفالها سنة ٢٠١١، وكانت أَهمَّ صالة عرض تجارية للفنون التشكيلية في الولايات المتحدة.

٢٤ امتدَّ من الإِثنين ٢٩ كانون الثاني إِلى السبت ١٠ شباط ١٩١٧. عرضَ فيه جبران ٤٠ مائيَّةً تمحورت حول ثلاثة مواضيع: الصنتور، الأُمهات والأَطفال، والراقصات. كان رَسَمَها خلال صيفَيْن (١٩١٥ و١٩١٦) أَمضاهما في كوهاسيت (قرب بوسطن) وهي مدينةٌ جميلةٌ ذاتُ مناظرَ أَوحت لرسامين كثيرين لوحاتٍ ورُسُومًا عن طبيعتها المميَّزة.

٢٥ أَليس رافايل إِكشْتَاين (١٨٨٧ – ١٩٧٥) ناقدة فنية أَميركية تتلمذَت على يونغ في زوريخ، وترجَمَت «فاوست» غوته. لها مجموعة دراسات سيكولوجيَّة. شُغفَت بالرسم فدَرَسَتْه في كونيكتيكَت، ونشرَت عددًا من المقالات النقدية عن معارضَ زارتْها، ومنها معرضُ جبران.

٢٦ صدَرَت أَوَّلًا مقالًا نقديًّا عن المعرض لرافايِل بعنوان «فن خليل جبران» في مجلة «الفنون السبعة» (ص ٥٣١–٥٣٤). ثم عاد كنوف أَصدرَها مقدمةً لكتاب «عشرون رسمًا». ومجلة «الفنون السبعة» كانت شهريَّة متخصصة أَسَّسها في نيويورك الشاعر جيمس أُوپِّـنهايْم(١٨٨٢–١٩٣٢). صدر عددُها الأَول في تشرين الثاني ١٩١٦ وعددُها الأَخير في تشرين الأَول ١٩١٧. وكان جبران عضوًا في هيئة تحريرها.

عاريَيْن بدون خجل». ذلك أَن القوة التي تنام حينًا في سُكان هذا العالَم وحينًا تحركهم، هي الغريزةُ الجنسية في أَنقى الطبيعيِّ من مظاهر إغوائِها. وهي لا تُثير الوعيَ الجنسي بقدْرِما تثير انجذابًا لاواعيًا إلى الجسد، إنجذابَ الجسَد إلى الجسَد، جسَد الرجل، جسَد المرأَة، جسَد الطفل.

مع ذلك هو عالَم تتجاذبه النزاعات: فيه الجسدُ ضحيةُ شهواتٍ في قبضة ولعٍ مربِكِ العنف، ينسلُّ إليه الإِرباكُ الأَخير: الموت. فهذا جسَد الأُم مُرتَمٍ باردًا ممتقِعًا على التراب كي يتحلَّل فيه، وهذا جسَد الطفل الطري وهو عبثًا يبكي طالبًا الدفْءَ والقوت، لقيطًا هزيلًا في خُواءِ وحدةٍ بلا نبض.

وما إِلَّا في اللوحة الأَخيرة: «ولادةُ مأْساة» حتى يبلغَ الفنان بَصْمَتَه الأَعمق، في معرضٍ متميِّزٍ بعمق الهدف والإِحساس. وهو معرضٌ، برغم العناوين المعلَّقة على اللوحات، يتجنَّب تفاهةَ التعبير الإلماحي، ويندَهُ أَوَّلًا جمال الخيال عبر جمال التأْليف والأَلوان ورهافة الحس، وعبْر حدسٍ وغريزةٍ يخترقان الوعي الروحي.

لافتٌ أَنَّ فنانًا متأَثِّرًا بالميل للعودة إلى البدائي والأَولي، ذا قُدرةِ خيالٍ عاليةٍ، يوجِّه هذا الميلَ نحو قنواتٍ من أَعمق المعاني». [نهاية المقال]

لم أَقرأْ كلامًا بهذه الشفافية عن مجمل رسوم جبران ولوحاته. كأَنما كاتبُ المقال التَقطَ حلْم جبران هدفًا وإنجازًا، ودخل منه إلى عالَمه الكامل. وإِني واثقة أَن هذا الرأْيَ الصائبَ السخيَّ أَدفأَ قلب الرسام الشاب المرهف الذي كان يعرض نتاجه للمرة الأُولى في حاضرة العالم الغربي. ويؤْسفني أَنْ لَم أَعرف اسمَ كاتبِ ذاك المقال.

بعد سنواتٍ ثلاث كان لجبران معرض آخر في صالة كْنُودْلِر[٢٣]، لا كرسامٍ جديد هذه المرة، بل كرسام رسَّخ حضوره لدى جمهورٍ ولو محدودٍ قياسًا على جمهور مدينة نيويورك وضواحيها. كان إِقبالٌ لافتٌ على المعرض[٢٤] نتجَ عنه صدورُ كتاب «عشرون رسمًا»، قدَّمَت له أَليس رافايل[٢٥] بكلمة نقْدية[٢٦]، وهو الكتاب الوحيد الذي صدَر لجبران من دون نصوص. هنا بعضُ ما جاء في المقدمة:



من رُسوم جبران في معرض غالري كْنُودْلِر

٢٧ أَقامته باربره في المحترف شهرًا كاملًا (آذار ١٩٣٢).

«خصائصُ الشرق والغرب متآلفةٌ لديه بفرادة في التعبير، حتى أَنه في آنٍ: رمزيٌّ بأَعمق معنى الكلمة، وغيرُ تقليديٍّ التعبير كما قد يكونه لو اتَّبع أُسلوب الشرقيين. ومع أَنه يَسرد المشهد بالأسلوب السابق الرافائيليَّة، فهو يفعل بدون بهرجةِ الظروف التاريخية وبدون عناصرَ رمزيةٍ تقريرية. ليس في فنه أَيُّ تضادٍّ بين أَن تطغى الفكرةُ على التعبير، أَو أَن يطغى الإِحساس على الفكرة. العنصران متناغمان لديه حتى فلا طغيانَ لأَحدِهما على الآخَر. وفي انصهار هذَين الميلَين المتضادَّين يترفَّع فنُّ جبران عن ديماغوجيات المدارس الفنية، ويعلو عن مفاهيمَ جامدةٍ تُقيِّد الاتِّباعات الكلاسيكية أَو الرومنطيقية».

«عشرون رسمًا» فتَحَ لعالم الفن حقيقةَ قوة الجمال وسلطته ورهافته في موهبة هذا الرجل التصويرية، وللعاديِّين مِمَّن عندهم الفنُّ مُجرّد كلمة ينغلق معناها عليهم، فتَح مروحةَ أَلوانٍ وسحْرٍ وأَشكالٍ تعطيهم اللذةَ بدون حاجتِهم إِلى استيعاب التفاصيل.

انشدادُ أُولئكَ العاديين إِلى رسوم جبران، يُؤَكِّده ما يحصل أَحيانًا في هذا السياق. فعصرَ نهارٍ إِبَّان أَيام المعرض في محترف جبران[٢٧] بعد سنةٍ على غيابه، إِذا بالمرأَة الأَجنبية القصيرة – التي كانت تساعدُني في تنظيف المحترف وتهيئَتِه للمعرض – تدخلُ عليَّ بثياب الأَحد وتبادرني: «جئتُ كي أَرى المعرض».

قالتْها بإِنكليزية معوجَّة متوكِّئة إِنما بلهفة دافئة تائقة. استقبلتُها كأَيِّ زائرٍ ضيفٍ فراحت تتنقَّل بِتُؤَدة في أَرجاء الغرفة، متوقفةً هنا، متأَمِّلةً هناك، مدقِّقةً هنالك. بعد جولتها عادت إِليَّ تسأَلُني:

– هل لي بجولةٍ أُخرى؟

– طبعًا. خُذي وقتكِ.

– شكرًا. سأَقوم إِذَن بجولَتَين.

وهكذا فعلَت. استغرقَت جولاتُها الثلاثُ نحو ثلاثة أَرباع الساعة، ثم دنَت مني ممسِكَةً يدي:

LIST OF OBJECTS IN SUITCASE TO BE KEPT BY BARBARA YOUNG, Apr. 18, 1931, 51w.10th St, NY

Leather box, square
-Alabaster jar, very small
Sandalwood(?) inlaid and carved box, with key. Key attached and marked, separate from box
-2 painted glass bottles, one larger, one smaller, gay
-Ebony pedestal in 3 pieces, with black bronze figurine on top
-Fragment of printed fabric, black, tan and henna, lined with black silk, old and frail
Wee sandalwood stampbox, sliding cover, flower-carved top
Silver matchbox, repoussee
Tiny silver matchbox
-Gibran carving, crouching woman, face buried in arms, wood
Shell, mother of pearl, damaged
-Crucifix, small, white on old black ebony, broken
2 attar of roses bottles
-Blue glass bottle with self stopper sapphire dark
-Antique pottery bust of goddess, crude, on wooden pedestal, conventionalized
Coffee cup, white, gilt edged, in silver holder with handle
-Gibran carving, woman, face turned over left shoulder, small, wood
- " " " holding child
Wee unused notebook, brown leather, Florentine
-Small old silver ring, with red stone worn dull like a pebble, in box
A small meteorite in blue jewel box
" fine unmounted amethysts in box
-Large silver watch key, old filagree, and Arabic seal , both on black ribbon watch fob
-String of blue Egyptian beads
-Several old Egyptian beads, as if speckled with tiny print on yellow ground
-Crystal seal, gold mounted, with monogram and lion rampant above
Uncut seal of white carnelian(?), gold mounted
-1 labelled black Babylonish bead, intaglio on one side; 2 red ones similar but not labelled,
and a white one, larger but similar
9 old silver buttons, heavy filagree
-Agate marble, white, with as it were an Eye on one side
-6 little pieces of red carved jade, one an ape, the others flowers etc
Old silver pencil and seal, bloodstone monogram
-Silver thumbring with green turquoise
Silver Arabic coin, thin, large; brass Chinese coin; copper or bronze Roman coin with S.C.
on one side and warior on obverse; wee reddish cross, hung on gold; 2 scarfpins and
3 old Egyptian beads, all together
-Fragment of antique tablet, white stone, red color on it, small
Chinese embroidered hat tag on red ground, gold etc; fine silver chased matchbox, marked GKG
3 large old coins, various
Gilt (or gold) ring and chain
-Broken bit of heavy chain of large openwork silver beads and woven silver chain, Eastern
Silver bead chain like so called "Betty chain", broken
Pierced bead like scarab (?) flat side intaglio
-2 fine small silver snuffboxes, one with cupids, one with heart; hinged lids
-8-12-inch (?) image of royal or priestly mummy, black, fine
-Grape bunch and leaf of alabaster and onyx, a bottle, stopperless, small
Silver peasant link button, set with rose foil underglass
Wee green pitcher, wee blue one, tiny doe with 3 fawns, separate, in fine Copenhagen ware,
all in carved inlaid sandalwood box above
Tiny silver matchbox for watch chain, in tiny sandalwood box with sliding lid above
-Flemish (?) crucifix, from Bruges, excellent condition, but no cross, rare
2 wee pendants, such as are blessed by pope, and a black pebble, in small blue handkerchief
-5 worn notable stones, 3 arrow points, 1 shell, a seated brass cat(?), a coin worn smooth,
a gold(?) religious pendant with saints and assumption, 2 large agate smoke color
beads, wrapped together in pink tissue

أَغراض من محترف جبران، موضَّبَة في حقيبة كبيرة، وهذه لائحة بها كما نسَّقَتْها باربره يونغ وطبعتْها على آلتها الكاتبة (الجمعة ١٨ نيسان ١٩٣١ – أَي بعد أُسبوع على وفاة جبران)، تمهيدًا لإرسالها إلى بْشرّي. والمجموعة هي حاليًا في متحف جبران، محفوظة بكل دقَّة وأَمانة وتنظيم.

٢٨ هي العاشرة قبل الخاطرة الأخيرة من خاتمة كتابه «رمل وزبد» (نشره «كنوف» سنة ١٩٢٦).

٢٩ الحاديةَ عشْرة قبل الخاطرة الأَخيرة من الكتاب ذاته.

- أَشكُرُكِ... وأُريد أَن أَقول إِنَّ هذه... لا أَعرف كيف أَعبِّر... وكيف تُسَمَّى هذه... لكنني أَشعُر... أَنها ليست مجردَ صُوَرٍ على جدار.

صحيح. «ليست مجردَ صُوَرٍ على جدار». لم تعرف كيف تُسمِّيها: كلاسيكية، رومنطيقية، تقليدية، قديمة، مُعاصرة، حديثة،... لم تجد لها تسمية. لكنها أَحسَّت، كما عبَّر عنها نوٌّر في عينيها، أَنَّ في هذه الغرفة ما هو أَعلى من الغُرفة وأَبعد، رفعَها، خاطَبَها، حرَّكَها عميقًا. لم تكن تلك رسومًا بقلمٍ أَسودَ على ورقٍ أَبيضَ، أَو لوحاتٍ زيتيَّةً بِريشةٍ على قماشة. لم تكن... «مُجرَّدَ صُوَر».

وإِني واثقة أَنَّ انطباعَها كان سيُفرح جبران أَكثر من جميع النقاشات الفكرية التنظيرية حول الرمزية والصوفية والتيارات الفنية والحقائق والوقائع وما إِليها.

ذات يوم قال جبران: «العملُ الفنيُّ ضبابةٌ محفورةٌ في صورة»[٢٨].

نعم. بهذه البساطة.

وقال أَيضًا: «الفنُّ خطوةُ الطبيعةِ صوب المُطْلَق»[٢٩].

وهو خطاها، تلك الخطوة، بثقةٍ وجمالٍ، وبشُكران مَن اقتبَلوا سِلال ثماره، حكماءَ كانوا أَو مجانين، علماءَ أَو رُعاةً، مع أَن ميله الفطْري كان ينحو إِلى المجانين والرُعاة.

١ هي أَقدمُ الصحف اليومية الأميركية التي ما زالت تَصدر حتى اليوم باسم «نيويورك پوسْت». أَسَّسها أَلكسندر هاملتون (١٧٥٥–١٨٠٤) أَحدُ الآباء مَؤَسسي الدولة الأَميركية. صدَرَ عددُها الأَوَّل نهار الاثنين ١٦ تشرين الثاني ١٨٠١. سنة ١٩٣٤ اشتراها الناشر يوليوس ديڤيد ستيرن (١٨٨٦–١٩٧١) وجعلها باسمها الحالي.

٢ صحافي وكاتب (١٨٨١–١٩٥٠). نشَر مقالاتٍ وتحقيقاتٍ في صحف نيويوركية عدَّة، منها الـ«نيويوركِر»، و«إِيڤنِنغ وورلد». وكان مندوبَ وكالات أَنباء عدة، بينها «أَسُّوشيايتد پْرِس»، و«يونايتد پْرِس». أَجرى مقابلاتٍ مع أَعلامٍ كبار، بينهم جورج برنارد شو وأَناتول فرانْس. وهذا الحوار مع جبران صدَر في «إِيڤْنِنْغ پُوسْت» بعنوان «شاعر عربي في نيويورك» نهار السبت ٢٩ آذار ١٩١٩ في ملحق «الكتب» على الصفحات ١ إِلى ١٠.

٣ رسَّامٌ ونحَّاتٌ إِنكليزيّ (١٨٣٠–١٨٩٦) حمل رسميًّا لقب «البارون النبيل». عالج في أَعماله مواضيع تاريخية وتوراتية وتَقَوية وكلاسيكية.

٤ شارع رئيس طويل في مدينة نيويورك (نحو ٢٥ كلم في مانهاتن وحدها) شهير بعددٍ كبيرٍ من المسارح ذات الأَعمال الاستعراضية والراقصة والمسرحية والغنائية.

٥ ساحة عامةٌ رئيسةٌ في بوسطن، شهيرةٌ بمعالمها الفنية وصروحها الثقافية. كانت تُعرَف بـ«ساحة الفنون» حتى ١٨٨٣ حين حملَت اسم الرسام الشهير المولود فيها جون سِنْغِلْتُون كوپـلي (١٧٣٨–١٨١٥).

٦ شارعٌ رئيس في مدينة وِستْمِنْسْتِر (لندن) على الضفة الشمالية من نهر التيمس. كان بين القرنين الثاني عشر والسابع عشر مقتصرًا على طبقة النبلاء الإِنكليز. عاش فيه، أَو قريبًا منه، عددٌ من كبار الأَعلام، بينهم تشارلز ديكنز، ڤيرجينا وُوْلْف، رالْف والْدو إِمِرسُون.

٧ شارعٌ عريض طويل في قلب پـاريس، يَعبُر الدائرتَين الأُولى والثانية. ينطلق من ساحة أَندريه مالرو، يَمُرُّ بِمسرح الـ«كوميدي فرنْسِيز» وصولًا إِلى ساحة مسرح الأوپرا. والشارع شهير بمعالمه الثقافية وخُلُوِّه من الشجر كي يَنكشف بكامله للناظر من أَيِّ مكانٍ فيه.

٨ حيٌّ غربيَّ جزيرة مانهاتن (مدينة نيويورك). في مطلع القرن العشرين كان معروفًا بـ«القرية»، وكان ملتقى الفنانين والبوهيميين وعدد كبير من الحركات الرافضة اجتماعيًّا ودينيًّا. في أَسفله بُنِيَ سنة ١٩٧٣ «مركز التجارة العالَمي» ببرجَين كانا أَعلى بناءٍ في العالم. دُمِّرا بعملية انتحارية في ١١ أَيلول ٢٠٠١.

«أَهْوَ صوتُ الشعبِ العربي»؟

في مطلع ١٩١٩، سنة ظهور «عشرون رسمًا»، صدَرَ في ملحق «الكُتب» من جريدة «إيڤنِنْغ پُوسْت» النيويوركية[١]، مقالٌ مطوَّلٌ كتبه جوزف غُولُّومْبْ[٢]، استشهد فيه غير مرة بكلمات حرفيَّةٍ من جبران، وهو خلاصة حوار ممتع أَجراه مع جبران في أَفضل تجلِّياته، إذ وجدَه الصحافي في مزاجٍ سائغٍ، وسردَ لنا باستفاضةٍ جَـوَّ تلك المجالسة.

بدأَ بالمقارنة بين جبران وطاغور:

«كلاهما كتَب بإنكليزيةٍ يُتقنها كإِتقانِهِ لغتَه الأُمّ. وكل منهما فنان في حقلٍ آخَرَ غيرِ الشعر. عدا ذلك، بينهما تناقضات تبدأُ خصوصًا من مظهرِهما: طاغور طويلٌ، كثيفُ الشعر واللحية، فضفاض العباءَة، كما صوفيٌّ زاهدٌ في لوحةٍ دينيةٍ بريشة فْرِدِريك لايتون[٣]. وجبران أَنيقُ اللباس مدينيُّه كأَيِّ مواطنٍ متحرِّرٍ في قلب العالم الغربي، كأَنه من سُكَّان برودواي[٤] أَو ساحة كُوْپْلي[٥] أَو السترِند[٦] أَو جادة الأُوپرا[٧]. وهو، بسَوَاد حاجبَيه وشاربَيه، وشَعره الضئيل المجعد فوق جبينه العريض، وعينَيه العسليتَين بتعبيرهما البعيد إِنما غير الشارد، وثوبِه الأَنيق البسيط غير المُهمَل، يبدو لي متقلِّبًا إِنما سهْل التكيُّف. فهو داخلَ محترفه، في الشارع العاشر غربًا، مواطنٌ رهيفٌ من «قرية» غْرينْويْتْشْ[٨]. وأَنا واثقٌ أَنْ لو صادفتُه في مؤْتمر اقتصادي، أَو في مقهى من ڤيينَّا، أَو في بلاده السورية، لكان سيبدو هندامُهُ مطابقًا





رسمان لجبران بالقلم الرصاص.
لجأَ إِلى القلم الرصاص (وهو برع جدًّا في الرسم به) بعدما أَمست أَسعار الأَلوان الزيتية غاليةً وكذلك الأَقمشة البيضاء الخاصة باللوحات.

٩ لعلَّ جبران هنا، بإِسپانيا، يقصد الشكل الذي انتقل إِلى الإِيطاليين من الشعراء العرب في الأَندلس.

كُلًّا من هذه الأَماكن. وليس هذا انتقاصًا من فردانيته بل هو على العكس حسٌّ لديه غيرُ عاديٍّ ودماثةٌ ذكيةٌ يتخطيان الفروقات المكانية ويتيحان له التأَقلم في أَيِّ محيطٍ فلا يشعر أَو يبدو أَنه غريب».

بعد تحليلٍ مُطوَّلٍ أَعمالَ جبران، يواصل غُولُّومْبْ: «مع شعور مستر جبران أَنه مواطنٌ عالمي، يشعر أَنه سوريٌّ أَوَّلًا. ولا يرى تناقضًا في ذلك، فهو يعمل من أَجل عالم ليس فيه سوى مواطنيةٍ واحدةٍ كبرى من الفهم والأُلفة. وشرح لي أَنَّ الشعب، في هذه المواطنية، لا يتخلَّى عن تراثه الوطني بل يُشْرِك به الآخرين، والشعب العربي قدَّم الكثير للعالم، وهو مهيَّأٌ ليقدِّم بعدُ أَكثر. حين يطَّلع على أَدبه الغربُ قد يجدُهُ أَغنى الآداب في العالم، وتاجُه القرآن. فحتى في الجاهلية السابقةِ الإِسلامَ كان شعر كثيرٌ، رجوليٌّ، مُحَرِّكٌ، ذو رؤْيا عظيمة كان لها تأْثيرها في العالم الغربي. فسِفْر أَيوب، مثلًا، نَصٌّ عربي ترجمه العبرانيون وتبنَّوه. ذاك الغنى الفائض من الشِعر استوجب نشوءَ أَشكال كثيرة لضبطه. وأَلْفِتُكَ إِلى أَن الشعر لدى الشعب العربي، كما هو اليوم أَيضًا، ليس قصرًا على النخبة المثقَّفة بل في متناول الجماعات، حتى الأُمية منها. بدأَ من الغناء والارتجال والرواة وقصص العرب قبل الإِسلام أَيام الشعرُ لم يكن يدوَّن. وفي السياق ذاته يمتد أَدبنا اليوم في صفوف الناس بفضل قوة الذاكرة الشفوية. ومعظم الشعر الحكمي والهجائي وسائر كنوز الأَنماط الشعرية حفظَها السامعون عند إِنشادها واكتنَزوها وراحوا يروونها فأَخذَت تنتقل من جيل إِلى جيل. ولأَن الذاكرة، في تجربة الشعوب، يضبطها الشكل، راحت نهاياتُ العبارات تنضبط في نُظُمِ نَظْمٍ ونثر، فكانت للشعر القوافي في آخر الأَبيات، وفي آخر الجمَل النثرية كان السجع الذي أُنزِلَ على النبي محمد في آيات كثيرةٍ من القرآن. بعدذاك ظهرَت قواعد الوزن والعروض وبحور الشعر، ثم تنامت أَشكالًا تعبيريةً تبنّى بعضَها العالـمُ الغربي، منها شكل القصيدة القصيرة ذات المقاطع، انتقل من العرب إِلى الإِيطاليين عن طريق إِسپانيا[٩].

بعد قرنٍ على غياب النبي محمد، أَنشأَ العرب أَعظم أَمبراطورية في تاريخ العالم، امتدَّت من نحو ٦٠ ميلًا عن پاريس وبلغت قلب الصين، ومعها انتشرت



ماري هاسكل في إحدى رحلاتها الريفية. وكانت هوايتها تسلق الجبال والمشي في الريف وتمضية الأَيام والليالي في مخيمات كشفية.

١٠ جبران يقصد هنا «بيت الحكمة». أَسَّسه في بغداد هارون الرشيد ووسَّعه ابنُه المأْمون. استقطب المترجمين والمؤَلفين والعلماء فكان واحةَ النهضة العربية في العصر العباسي.

١١ ﭘيتر إِيليتش تشايكوﭬسكي (١٨٤٠–١٨٩٣) مؤَلِّف موسيقي روسي أَدخل في أَعماله نكهة تجديدية أَثَّرت حتى في معاصريه.

١٢ جيوزيـﭙـي ﭬـيردي (١٨١٣–١٩٠١) مؤَلف موسيقي إِيطالي، وضع أُوﭙرا «عايدة» بناء على طلب الخديوي اسماعيل احتفالًا بالانتهاء من شق قناة السويس سنة ١٨٦٩. وتـمّ عرض الأُوﭙرا عند انتهاء مبنى الأُوﭙرا في القاهرة سنة ١٨٧١.

١٣ كلود دوبُسِّي (١٨٦٢–١٩١٨) مؤَلف موسيقي فرنسي. التقاه جبران في پاريس سنة ١٩٠٩ ووضع له رسمًا ضمّه لاحقًا إِلى سلسلته «معبد الفُنون».

١٤ موريس مايترلنك (١٨٦٢–١٩٤٩) شاعر وكاتب مسرحي بلجيكي كتب بالفرنسية. نال جائزة نوبل للأَدب سنة ١٩١١. كان جبران في الرابعة عشرة حين طلب منه فرد هولند داي (سنة ١٨٩٧) أَن يقرأَ كتابه «كنز المتواضعين» (صدر سنة ١٨٩٦ وتُرجم إِلى الإِنكليزية سنة ١٨٩٧). تأَثَّر جبران كثيرًا بفكره التحرُّري الثوري، حتى أَنه لاحقًا، في رسالة إِلى ماري هاسكل (السبت ٧ أَيلول ١٩١٢) كتب لها: «بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة من عمري، كان مايترلنك هو مثالي الأَعلى لشدّة ما تأَثَّرتُ بكتابه «كنز المتواضعين».

آداب العرب ومعارفُهم. في تلك الحقبة كانت لهم المدارك العلمية الوحيدة في العالم. هم اكتشفوا طويلًا قبل غاليليو أَن الأَرض كرويةٌ. وكانت المناظير والمراصد مركَّزةً على قبَب مساجدهم وأَبراج كنائِسهم، ثم اجتاحهم الإِسـپان فبدَّلوا المراصد بالأَجراس.

فترةَ كانت أُوروپـا في عصور الظلمة إِبان القرون الثامن والتاسع والعاشر، كان للعرب مركزٌ للترجمة يعرِّب الفلاسفة الإِغريق[١٠]، وكان معظمُ المترجمين سوريين شكَّلوا حلقةً بين الثقافة اليونانية ونهضة الثقافة العربية. وفي القرن الخامس عشر دمَّر الأَتراك الأَمبراطورية العربية فغاصت ثقافتهم في عصر انحطاطٍ دام حتى ما قبلَ ثمانين أَو مئة عامٍ قبل اليوم. ولكن حتى إِبَّان تلك المرحلة الطويلة بقيَت الروح العربية نابضةً، لاعتيادهم على قسوة الصحراء، ما رفدَهم بِقُوَّة حصَّنت شِعرَهم حين أَشرقَ بعد ظلمة تلك العصور.

الفنون التشكيلية بقيت ضئيلةَ النموّ بين المحمَّديين إِذ كان مُحَرَّمًا «رسمُ صورة لأَفعال الله». لذا لم يسطع لهم تراثٌ في الرسم والنحت. لكن أَشكال الطبيعة، وكانوا يقدِّرونها، ظهرت بكثافةٍ في حياكة البُسُط لدى العشائر والقبائل وانتشرت واسعًا.

وكان للعرب تأْثير على الغرب في الموسيقى. فأَغاني الجنوب الروسي يعرفُها شعبنا لأن جذورَها عربيةٌ ظهرت ملامحُها في أَعمال تشايكوڤسكي[١١] وڤيردي[١٢]. وأُوپرا «عايدة» منسوجة بنغمات إِيطالية ذات نكهة عربية. وقال لي دوبُسِّي[١٣] إِنه هو أَيضًا استلهم من نغماتنا وبنى عليها بعض أَعماله.

نهضةُ الثقافة العربية التي ازدهرت في القرن الماضي تداخلت فيها تأْثيرات غربية. نحن نأْلف كباركم. ففي سوريا ومصر نعرف دانتِه وشكسپير وهوغو وشعراء فرنسا من ڤيُّون إِلى مايترلنك[١٤]. ولن يفاجئَني إِحصاءٌ يُثبت أَن شكسپير معروف لدينا ونقرأُ مؤَلَّفاته مثلكم وربما أَكثر. فالمثقَّف العادي في سوريا يتكلم على الأَقل الإِنكليزية والفرنسية مع لغته. ومن تجربتي الشخصية أَنَّ في جبل لبنان مَن يقرأُون



من رسوم جبران بالقلم الرصاص.

الآداب العالمية الكبرى، بل يحفظون منها ويغنُّون من أَشعارها. الأَدب عندنا ظاهرة صوتية واسعة الانتشار.

وحتى دخول جيوش الحلفاء في الحرب الكبرى، كان العرب تحت نير أَحد أَكثر طغاة التاريخ قسوةً واستبدادًا. والآن، ونير تركيا انحسَر عن شعبنا، قَوِيَ عندنا الأَمل في تقرير المصير. سنبحث طبعًا عن هداية، وإِحدى دُول الحلفاء، ربما فرنسا، ستأْخذ بيدنا. إِذا تَمَّ ذلك، وحَلَّ التبادل الثقافي الطبيعي، سيكون لشعبنا أَن يقدِّم الكثير. ففي لغتنا إِرث غنيٌّ من الشعر الرومنطيقي والملحمي، وفي أَدبنا «ليالٍ» عربيةٌ غيرُ مترجمةٍ بعد، أَكثرُ من تلك التي في «أَلف ليلة وليلة» التي تعرفون. لدينا كنوزٌ من الفلسفة الصوفية لم تنكشفْ لكُم بعد. وحين يضاف هذا الإِرث إِلى تراث العالم، سيشكِّل مساهمةً عظيمة من شعب عظيم».

وختم غولُّومْبْ مقاله، معجَبًا متأَثِّرًا، بطَرحِه هذا التساؤُل: «السيد جبران أَطلَّ على الحياة عند نحو ميلٍ واحدٍ من أَرز لبنان الشهير، ويطلُّ على العالم الجديد بِمُواطنية عالَمية. فهل الذي يطل هو جبرانُ الفَردُ، أَم صوتُ كلِّ الشعب العربي وعبقريتُه»؟

أَيًّا يكن الجواب عن سؤَال غولُّومْبْ، فالحال فعلًا كذلك: لم ينبغ من الشعب العربي اسمٌ بلَغ مكانة جبران العالية، واحتل مثله قلوبَ قرائِه في أَزهى فترةٍ من نهضة ذاك الشعب المميز.

وإِني، شخصيًّا، مَدينةٌ للسيد غولُّومْبْ أَن يكون، بين مقالاته في تلك الجريدة، حفظ هذا الحوار الغني بمعلوماتٍ وآراء نادرة فاضت على قلمه من جِلسته الحوارية إِلى جبران.

لا عُمْرَ للكلمات

عَصْرَ نهار الأَحَد من خريف ١٩٢٥، قصدتُ المحترف لساعة أَو اثنتين بدعوةٍ من جبران الذي، طَوال صداقتنا معًا، لم يعتبر مرَّةً واحدةً أَنَّ قبولي دعوتَه تلقائيّ.

كان عادةً يهاتفني: «إِن كان لديكِ وقت، أَتُمضين بعضًا منه مع رجلٍ كئِيب»؟ وفعلًا كنتُ أَجده غالبًا كئِيبَ النفْس.

أَحَدَئِذٍ كان بابُه مشقوقًا كالعادة. طرقْتُه ودخلتُ. كان جالسًا إِلى طاولته يكتب. تقدَّمتُ صامتةً إِلى مقعدي المعتاد. تنبَّه إِليَّ فرحَّبَ بي مُردفًا: «أَكتُبُ قصيدةً عن شاعر أَعمى».

ثم نهض يمشي في الغرفة بضعَ دقائق ويعود إِلى طاولته يكتُب سطرًا أَو اثنين.

كرَّر ذلك فخَطرَتْ لي فكرة: ما إِن نهضَ يمشي حتى جلستُ إِلى طاولته وتناولتُ قلمَه. ولحظةَ استدارَ ورآني هكذا، عاجَلْتُه:

– أَنتَ تُملي القصيدة وأَنا أُدوِّنُها.

– لا. أَبدًا. كلَّا. لن تُدَوِّني ما أَقول. أَنتِ تدوِّنين قصائدَكِ.

– لكنني أُحِب أَن أُدوِّن كلماتَك. لعبةٌ بسيطة: أَنتَ تَجولُ في الغرفة وتتكلَّم، وأَنا أَنقلُها إِلى الورقة.

That was Gibran's kind of friendship.
And here is the poem made and written down that day.

The Blind Poet

I have been blinded by light,
The very sun that gave you your day
Gave me my night, deeper than dream.

And yet I am a wayfarer,
While you would sit where life gave you birth
Until death comes to give you another birth.

And yet I would seek the road
With my lyre and my staff,
While you sit and tell your beads.
And yet I would go forth in darkness
Even when you fear the light.

And I would sing.

I cannot lose my way.
Even when there is no sun
God sees our path and we are safe.
And though my feet shall stumble
My song shall be wingéd upon the wind.

I have been blinded by gazing
At the deep and the high.
And who would not yield his eyes
For a sight of the high and the deep?
Who would not blow out two little
flickering candles
For a glimpse of the dawn?

You say, "Pity he cannot see the stars,
Nor the buttercups in the fields."

And I say, "Pity they cannot reach the stars,
And hear the buttercups.
Pity they have no ears within their ears.
Pity, pity they have no lips
Upon their finger-tips."

هذه هي النسخة الإنكليزية من «الشاعر الأعمى»، أول قصيدة أملاها جبران على باربره يونغ في مطلع صداقتهما، كما تروي ذلك في كتابها عنه (ص ٨٤ – ٨٥).

١ ترجمتُ عن الإنكليزية هذه المقطوعة من كتاب باربره يونغ، إبّان ترجمتي كتابها كاملًا، قبل أن أكتشف نُسختها العربية كما أصدرَها جبران في «السائح».

سأترك ترجمتي المقطوعةَ كما وضعتُها، وأُثبتُ نصها بالعربية كما نشره جبران في «السائح»، وأترك للقراء المقارنة بين ترجمتي النصَّ والنص العربي كما نشره جبران.

– لا... لا أَقْدر على ذلك مع أَيٍّ أَحد.

– آمِنْ أَنني لستُ «أَيَّ أَحد». اعتبِرْني آلةً كاتبة.

– (ببعض غضب) أَنتِ امرأَةٌ عنيدة.

– هي ذي طبيعتي منذ كنتُ طفلة.

تأَفّفَ لحظةً خلتُه بعدها سينْفُثُ غضبَه.

لكنه فجأَةً ضحِك، ثم ضحِكنا معًا، وكان ما تمنيتُ: جعَل يمشي ويتكلَّم، وأَنا أُدوِّن.

ومن يومها بات هكذا عملُنا معًا: هو يقول وأَنا أَكتب.

أَكمَلَ يُملي بِبُطْءٍ قصيدةَ «الشاعر الأَعمى»، مع وِقْفاتٍ متأَنية بين أَسطرٍ كان، على طريقته الثابتة، يفتكِرُها بالعربية ثم يترجمها بتَأَنٍّ إِلى الإِنكليزية.

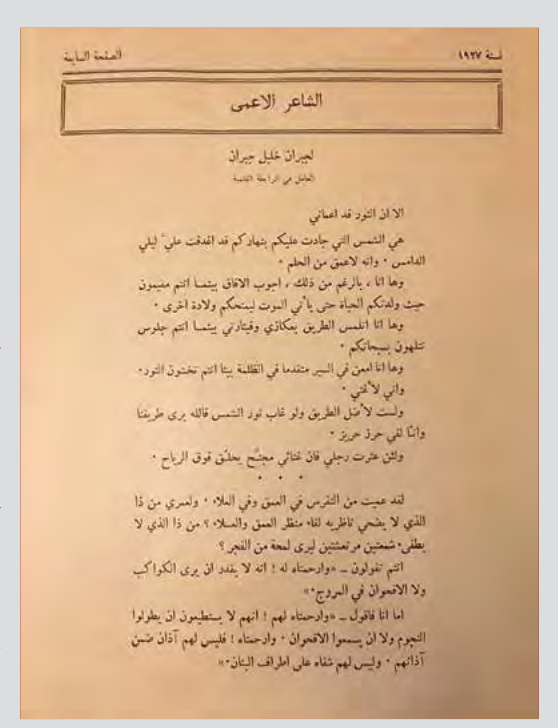
مع السطر الأَخير تقدَّم مني. تأَمَّل الصفحة بِخَطِّي وبادَرَني:

– كنتُ دائمًا أُؤْمن أَنْ لن أَستطيع تأْليف قصيدة فيما أُمليها على أَحد. لذا كنتُ أَرفض إِحضار مساعِدَةٍ إِلى المحترف حين أَكتُب أَو أَرسم. لكنكِ اليومَ أَثبَتِّ خطأَ تفكيري. نحن شاعران يعملان معًا (صمت قصير). نحن صديقان. لا أُريد منكِ شيئًا ولا تريدين شيئًا مني. نتَشارك الحياة معًا.

تذكَّرتُ من [فصل «الصداقة» في كتاب] «النبي» قَولتَه: «لا تجعلوا من صداقتِكم هدَفًا إِلَّا التعمُّق في الروح».

تلك كانت نِظرةَ جبران إِلى الصداقة.

وهذه هي القصيدةُ[١] التي أَملاها عليَّ ذاك الأَحد ودَوَّنتُها بِخطِّي:



سنة ١٩٢٧ — الصفحة السابعة

الشاعر الاعمى

لجبران خليل جبران

العامل في الرابطة القلمية

الا ان النور قد اعماني

هي الشمس التي جادت عليكم بنهاركم قد اغدقت عليّ ليلي الدامس · وانه لاعمق من الحلم ·

وها انا ، بالرغم من ذلك ، اجوب الآفاق بينما انتم مقيمون حيث ولدتكم الحياة حتى يأتي الموت ليمنحكم ولادة اخرى ·

وها انا انلمس الطريق بعكازي وقيثارتي بينما انتم جلوس تلهون بسجاياكم ·

وها انا امعن في السير متقدما في الظلمة بينا انتم تخشون النور· واني لآلفني ·

ولست لأضل الطريق ولو غاب نور الشمس فالله يرى طريقنا وانا لفي حرز حريز ·

ولئن عثرت رجلي فان غنائي مجنّح يحلّق فوق الرياح ·

· · ·

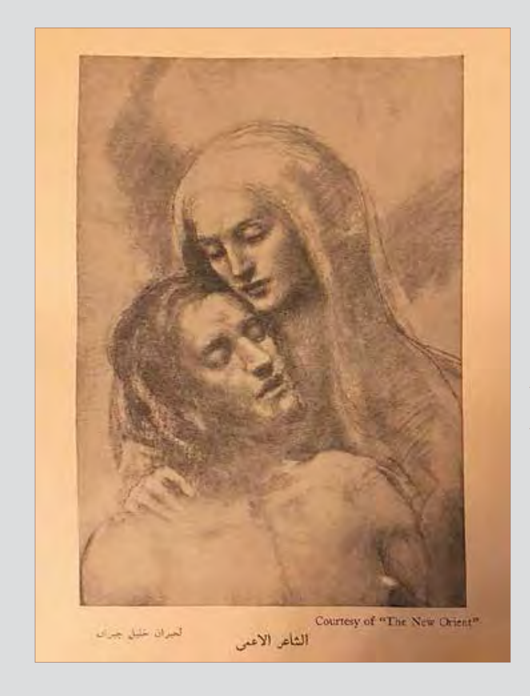
لقد عييت من التفرس في العمق وفي العلاء · ولعمري من ذا الذي لا يضحي ناظريه لقاء منظر العمق والعلاء ؟ من ذا الذي لا يطفئ شمعتين مرتعشتين ليرى لمحة من الفجر ؟

انتم تقولون ـ «وارحمتاه له ! انه لا يقدر ان يرى الكواكب ولا الاقحوان في المروج·»

اما انا فاقول ـ «وارحمتاه لهم ! انهم لا يستطيعون ان يطولوا النجوم ولا ان يسمعوا الاقحوان · وارحمتاه ! فليس لهم آذان ضمن آذانهم · وليس لهم شفاه على اطراف البنان·»

مقطوعة «الشاعر الأَعمى» كما ظهرت في عدد «السائح» السنوي الممتاز سنة ١٩٢٧ على الصفحة ٧ «لجبران خليل جبران العامل في الرابطة القلمية».

فهل يكون جبران ترجمها عن كتابته إِياها قبلًا بالإِنكليزية؟ أَم ان أَحدًا سواه ترجمها؟ وأَيُّ الصيغتين سبَقت: العربية؟ أَم الإِنكليزية؟ وكيف «أَملاها» بالإِنكليزية على باربره يونغ إِن كان كاتبَها قبلًا بالعربية؟



رسْم لـ«الشاعر الأَعمى» صدر في عدد «السائح» السنوي الممتاز على الصفحة المقابلةِ المقطوعةَ أَعلاه.

وفيها أَن هذا الرسم مأْخوذ بإِذْن من مجلة «الشرق الجديد» التي كانت صدَرَت فيها هذه المقطوعة قبلًا بصيغتها الإِنكليزية.

الشاعر الأَعمى

أَعمانِيَ النور.
والشمسُ التي منحَتْكُم نهارَكُم
هي ذاتُها منحَتْني ليلًا أَعمقَ من حُلم.
جَـوَّالٌ أَنا
وأَنتم جامدون حيث وَلَدَتْكُم الحياة
إِلى أَن يبلُغَكم الموت فيمنَحَكُم ولادةً جديدة.

بعُكَّازي ونايـي أَشُقُّ طريقي
فيما أَنتم جالسون تَتَلَهَّون بـحَبَّات سُبحاتكم.
وفي الظلمة أَتقدَّم
فيما أَنتم واقفون تَـخافون النور.

وأُغنّي... أُغنّي ولا أَضلُّ طريقي.
فحيثُ لا شمسَ تنير، يرى الربُّ طريقنا فَنَأْمَنُها.
وحتى لو تزَلُّ قدمي تظَلُّ أُغنيتي مرفرفَةً في الريح.

أَعمانِيَ سَبْرُ الأَغوار، أَعمَقِها وأَعلاها،
ومَن لا يَبذلُ عينيه لرؤْية الأَعمق والأَعلى؟
مَن لا يطفئُ شمعتَين مرتعشَتَين كي يلمحَ وَمضةً من فجر؟

تقولون:
- ما أَتعسَهُ! لا يمكنُهُ أَن يرى النجومَ فوق
ولا الأَزرارَ الذَهَبيَّة في ربيع الحقول.
وأَقول:
- ما أَتعسَهم! لا يمكنُهم أَن يُحاكوا النجوم
ولا أَن يصغوا إِلى الأَزرار الذهبية.
ما أَتعسَ أَلَّا تكونَ في أَسَماعهم آذان
وعلى أَهداب أَناملهم شفاه.

٢ مجلة فصلية تعنى بشؤون الشرق الفنية والدينية والأَدبية. أَسستْها سنة ١٩٢٣ «جمعية الشرق الجديد» في نيويورك. صدرَت أَولًا كل شهرين حتى ١٩٢٤ حين حوَّلها فصليةً بين ١٩٢٤ و١٩٢٧ سْيُود حسين، وهو باحثٌ وخطيب ومفكر هندي، خرّيج جامعة كلكوتا، متخصص في العلاقات بين الشرق والغرب. سنة ١٩٢١ مثَّل الهند في مؤتمر الحد من التسلُّح في واشنطن. وبقي في الولايات المتحدة يحاضر في كبرى الجامعات. عرف جبران في إِحدى الحلقات الأَدبية وطَلب منه أَن ينضم إِلى «جمعية الشرق الجديد». وافق جبران لأَنه رأَى في انضمامه إِليها والنشر في مجلتها تجسيدًا لإِيمانه أَنه «مواطن من العالم». فالمجلة كانت ذات انتشار عالمي، وتسعى في مواضيعها إِلى «الجمع بين الشرق والغرب في غاية إِنسانية كونية».

Syud Hossain

٣ يرى النحات خليل جبران في كتابه «جبران في حياته وعالَمه» أَنَّ التاريخ أَشكَل على باربره يونغ (القصيدة منشورة في عدد الصيف من «الشرق الجديد»: تموز – أَيلول ١٩٢٥)، وأَنَّ مهمَّتها مُدوِّنةً كلامَ جبران (خريف ١٩٢٥) بدأَت مع الأَقوال التي صدَرت لاحقًا (١٩٢٦) في كتاب «رمل وزبد». وهذا التوضيح منطقِيٌّ لأَن باربره وضعت كتابها سنة ١٩٤٤، أَي بعد ١٣ سنة على غياب جبران. وقد تكون ذاكرتُها ابتعدَت عن الحدَث لأَنّ هذا التفصيل لم يَرِد في الطبعة (المختصَرة) الأُولى من كُتَيِّبها «خليل جبران هذا الرجل من لبنان» (٤٨ صفحة – تشرين الثاني ١٩٣١) أَي بعد سبعة أَشهر على غياب جبران، حين كانت ذاكرتها لا تزال حيةً في استذكار ما كان يجري من أَحاديث لها مع جبران في المحترف لم تذكُر أَيًّا منها بصيغة الـ«أَنا» في ذاك الكتَيّب.

بعد أَيامٍ صدرت القصيدة في «الشرق الجديد»[٢] – مجلة أَدبية ثقافية كان يُصدرها سْيُود حسين، كاتبٌ وناشرٌ مُسْلِم لامع، ومُحاضِرٌ بارعٌ ذو شهرة دُوَلية – ومع القصيدة صدَر رسمٌ وضعه جبران سَمَّاهُ «الشاعر الأَعمى وأُمُّه».

منذئِذٍ[٣] بات تلقائيًّا وسهلًا عليَّ أَن أُدوِّنَ كلماتٍ تلفَّظَت بها شفتا الشاعر، ولو كانت أَحاديث عادية، مع أَن الحديث العاديَّ مع جبران ليس عاديًّا. لذا كان معي دائمًا دفتر صغير أُدوِّن فيه سريعًا عبارة أَو اثنتَين بدون أَن يراني، لأَنه مرارًا سأَلني: «أَتحفظين كلَّ ما أَقول، كي تستعمليه ضدي»؟

عندها صمَّمتُ، بما أُعطَى من حسٍّ وحكمةٍ، أَن أَكتُب يومًا عن هذا الرجل الذي، حَتَّئِذٍ، لم يكن صدَر عنه بالإِنكليزية إِلَّا بضع مقابلات صحافية، وآراء له منثورة في الصحُف، وكتابات موجزة بقلم كاهن أَو حاخام.

سرَّه عزمي سرورَ طفل بِـخَبرٍ مفرح. ومن يومها راح غالبًا يخبرني عن طفولته، عن أُمِّه، وعن أُمور يتمنى أَن يتذكَّرها «لو هي تَذَكَّرَتْني». وكان أَحيانًا يستهلُّ كلامه بعبارة: «إِذا متُّ الليلةَ، تذكَّري ما يلي...».

تلك «التذكُّرات» هي التي يضمُّ معظمَها هذا الكتاب.

مُذَّاك أَيضًا جاءَتني فكرةُ أَن أُلَمْلِمَ عباراتٍ كان يقولها لي إِبَّان ساعاتٍ من أَحاديثنا في المحترف، وشقيقاتٍ لها أُخرياتٍ وجدْتُها بخطِّه منْتَثِرَةً هنا على قُصاصة، هناكَ على وُريقةٍ، كتبَها وتركَها في أَيِّ مكان، وأَن أَجمعَها في كتاب.

حين عرضتُ عليه الفكرة هزِئَ منها في البدء وقال: «سيكون فيها الكثير من الرمل والزبد». وحين التقطْتُ عبارته وأَن يكونَ «رملٌ وزَبَد» عنوان الكتاب، لفَتَه الأَمر وأَخذ يهتمُّ له فراح من يومها يعطيني، ببعض خجل، قصاصةً من مطوية برنامج مسرحي، أَو قطعةً كرتونية من علبة سكائر، أَو غلافًا مطويًّا، وعلى كلٍّ منها أَسطُر بِخطِّه، قائلًا: «إِنك تَجمعين خطراتٍ مجنونةً من رملٍ وزبَد». لكنه راح تدريجًا يستمتع فيَنسج بتأَنٍّ عباراتٍ، بعضُها من أَجمل ما قال أَو كتب، هي التي شكَّلت لاحقًا ذاك الكتاب.

٤ هو الكتاب الوحيد الذي صدر لجبران دون أَن تقرأَه ماري هاسكل وتُنَقِّحَه. ذلك أَن الناشر كنوف استعجل الحصول على المخطوطة فأَرسلها إِليه جبران، وفيها عباراتٌ كثيرةٌ كان دوَّنَها ليَضُمَّها إِلى أَقوال «المصطفى» في «النبي»، فضمَّها إِلى شقيقاتها في «رمل وزبد» الذي كان عنوانه «درب الأَيام الستة» كما كان ذكَر لماري هاسكل قبل ٦ سنوات في حديث بينهما سنة ١٩٢٠، إِبَّان اشتغالهما على «النبي».

٥ في السنة ذاتها أَنهى الأَرشمندريت أَنطونيوس بشير تعريبَه وصدَر في القاهرة سنة ١٩٢٧. حرص جبران أَن يصدِّرَ بالعربيةِ تلك الطبعةَ فكتب: «ليس هذا الكتاب الصغير بأَكثرَ من اسمه: «رمل وزبَد»، حفنة من الرمل وقبضة من الزبَد. ومع كلِّ ما أَلقيتُ بين حبَّاته وحبَّات قلبي، وما سكبتُ على زبَده من عصارة روحي، فهو الآنَ، وسيبقى أَبَدًا، أَقربَ إِلى الشاطئِ منه إِلى البحر، وأَدنى إِلى الشوق المحدود منه إِلى اللقاء الذي لا يَحُدُّه البيان. بين جانِحَي كلِّ رجلٍ وكلِّ امرأَةٍ قليلٌ من الرمل وقليلٌ من الزبَد. بعضُنا يبيِّن ما بين جناحَيه، وبعضُنا يَخجَل. أَما أَنا فلم أَخجلْ، فاعذُروني وسامحوني. جبران خليل جبران – نيويورك – كانون الأَوَّل ١٩٢٦».

قال لي يومًا:

– رجاءً أُكتبي هذه العبارة: «كلُّ فكرةٍ كبَّلتُها في التعبير، عليَّ أَن أُطلقَها في العمل». وتَذَكَّري أَن تكونَ آخرَ عبارة في الكتاب.

أَما أَول عبارةٍ في الكتاب فهي هذه:

«أَنا سائرٌ أَبدًا على هذه الشواطئ بين الرمل والزبَد.

المدُّ سيمحو عن الرمل آثار خُطاي والريحُ سوف تُبدِّدُ عن الموج الزبَد.

لكنَّ الشاطئَ لن يَـمَّحي، ولن يتبدَّدَ البحر».

بعد فترةٍ، وكنتُ جمعتُ عددًا كبيرًا من تلك الأَقوال والعبارات، طبعتُها على آلتي الكاتبة وأَخذْتُها إِلى المحترف. تناولها جبران وجلس نحو نصف ساعةٍ يقلِّب الصفحات. لا هو تكلَّم ولا أَنا. ثم رفع رأَسه عن الأَوراق وقال بابتهاجٍ على وجهه:

– أَأَنا أَلَّفْتُ هذه كُلَّها، أَم اَنَّ لكِ فيها حصة؟

– أَبدًا. لا كلمةَ واحدةً لي فيها. وأَنت تعرف ذلك. كلُّ سطر في هذه الصفحات هو من جبران ولا يمكن أَن يكتبَه إِلَّا جبران.

ذهب الكتابُ إِلى الناشر[٤] وصدر سنة ١٩٢٦ بعنوان «رملٌ وزبَد»[٥]، وبعنوانٍ ثانوي «كتاب حِكَم».

عند استلامِه النسخة المطبوعة سأَلني:

– أَضروريٌّ أَن نسميها «حِكَمًا»؟ لِمَ لا نستعمل الكلمة الأَجمل والأَبسط: «أَقوال».

وإِذ كان رأْيُ الناشر عدمَ استعمال الكلمة الأَبسط، ظلَّ جبران يسميه «كتيِّب الأَقوال».

في رأْيي، ورأْي كثيرين سمعتُه منهم، ليس في الإِنكليزية كتابٌ بهذا الطابع، لا ثلاثة أَبعادٍ له فقط: العلُو، العُمق، والرحابة، بل له بُعدٌ رابع: الخلود، وهو مرادفٌ الزمنَ اللامحدودَ اللانهائِي.

SAND AND FOAM.

Our mind is a sponge. Our heart is a stream. Is it not strange that most of us choose sucking rather than running?

* * *

Remembrance is a form of meeting.

* * *

Some of our children are our justifications, and some are but our regrets.

* * *

Perhaps the sea's definition of a shell is the pearl. Perhaps time's definition of coal is the diamond.

* * *

Pity is but half justice.

* * *

We are all prisoners, but some of us are in cells with windows, and some without.

* * *

How stupid is he who would patch the hatred in his eyes with the smile of his lips.

* * *

The only one who has been unjust to me is the one to whose brother I have been unjust.

صفحة من «رمل وزبد» كما هيَّأَتْها باربره يونغ
على آلتها الكاتبة. وعليها بعض التعديلات من جبران
قبل ذهاب الكتاب إلى الناشر كنوف وصدوره سنة ١٩٢٦.

في الكتاب أَقوال قصيرة تعبِّر عن حكمة أَجيال – وأَقصد بهذه العبارة معناها الأَصليّ لا شعارًا لأَيّ عقيدة – وهي في شكل حقيقةٍ ساطعةٍ لا يخلو منها إِيمانٌ ولا مذهب.

من هذه الأَقوال:

– كيف تتوقعُ أَن تتفتَّحَ في يدكَ أَزهارٌ، وقلبُكَ بركان؟

– مَن يستطِعْ لَمسَ الفصل بين الخير والشر، يلَمسْ طرفَ ثوب الله.

– عن العندليب أَنه يَحُزُّ صدرَه بشوكة كلَّما غرَّدَ أُغنيَة حبه. هكذا جميعُنا. وهل نحن نفعل غيرَ ذلك؟

– صامتةٌ دائمًا أَعماقُنا، مع أَننا دائمًا مغمورون بموج الكلمات.

– الإِيمانُ واحةٌ في القلب لن تبلغَها قافلةُ التفكير.

– السخاء ليس أَن تُعطيني ما أَحتاجُهُ أَكثر منكَ بل ما تَحتاجُه أَنتَ أَكثر مني.

– البؤْسُ أَن أَمُدَّ يدي فارغةً فلا أَتلقَّى شيئًا. لكنَّ اليأْس أَن أَمدَّ يدي مَلأَى فلا يتلقَّى أَحدٌ ما فيها.

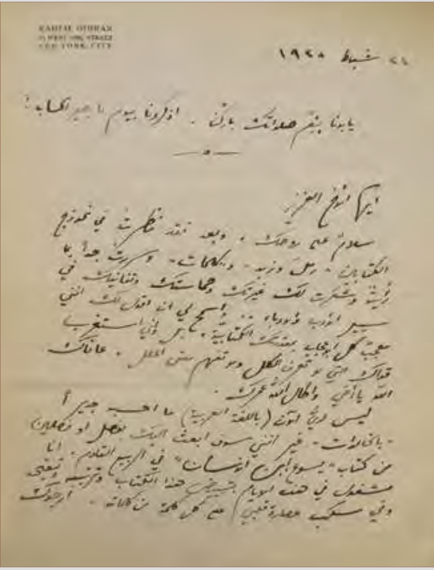
لدى صدور الكتاب سأَلَني سْيُود حُسين كتابةَ مقالٍ عنه في مجلته، فكتبتُ ما أَراه هنا أَفضلَ تقديم للكتاب:

«لا عُمرَ للكلمات. فلتنْطِق بها أَو تكتبْها واعيًا خلُودها». هذا السطر، إِن كان سطرٌ كافيًا، قد يحدد بُعْدَ وعيِ هذا الشاعرِ اللبنانيّ ملَكَةَ الكلام وقُدرتَه البشرية.

على غلافِ الكتاب أَن «المؤَلِّف فيلسوفٌ يراقب من نافذته مَشاهدَ تمرُّ به». وهي عبارةٌ لطيفةٌ لكنها معكوسةٌ لأَن المؤَلِّف كتب: «أَودُّ أَن أَسيرَ مع السائرين لا أَن أَتوقَّفَ مُراقبًا مَن يَمُرُّون بي».

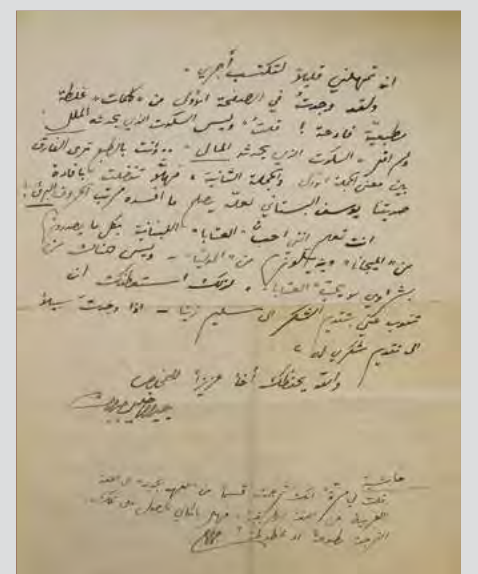
هذه الأَقوالُ الوجيزة والحِكَمُ الظَرفية، خطَّتْها يدُ مَن لَمسَ بها نبضَ الحياة وتناوَل خبزَها وشربَ كأْسها، لا من اقتصَر على المراقبة والتعليق.

جبران سيّدُ العربية، في كتابه الإِنكليزي الرابع هذا أَعطى قراءَ الإِنكليزية ما لا يشبهُه في لغتهم أَيُّ كتابِ «أَقوال». ففيه مُجَدَّدًا ما في «النبي»: ثوبٌ خاطَه لنا



٢٤ شباط ١٩٢٠

ايها الأخ العزيز

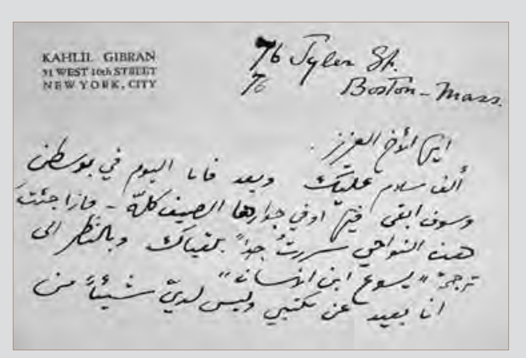


رسالة إلى الأَرشمندريت أَنطونيوس بشير من جبران في ٢٤ شباط ١٩٢٠ حول ترجمة الأَرشمندريت كتاب «رمل وزبد» شاكرًا إِياه عليها، وعلى إِصدار الأَرشمندريت كتاب «كلمات جبران» منتخِبًا مقاطع من كتب أُخرى.

رسائل الأَرشمندريت، وهو أَصبح لاحقًا مطرانًا، موجودة حاليًّا في متحف تأَسس على اسمه داخل بيته الوالديّ في بلدته الأُم دُوما.



الأَرشمندريت أَنطونيوس بشير زمن كان يعرّب مؤلفات جبران الإِنكليزية.



KAHLIL GIBRAN
51 WEST 10th STREET
NEW YORK, CITY

76 Tyler St.
Boston - Mass.

ايها الأخ العزيز
ألف سلام عليك. وبعد فأنا اليوم في بوسطن
وسوف ابقى فيها او في جوارها الصيف كله - فاذا جئت
هذه النواحي سررت جداً بلقياك وبالنظر الى
ترجمة "يسوع ابن الانسان"
انا بعيد عن مكتبي وليس لدي شيئاً من

مطلع رسالة إِلى الأَرشمندريت أَنطونيوس بشير من جبران على ورقة من عنوانه في نيويورك. لكنه كتبها من بوسطن مع عنوانه فيها (٧٦ شارع تايلِر) يدعوه فيها، بكل لطف، إِلى زيارته لـ«النظر في ترجمة يسوع ابن الإِنسان» التي كان الأَرشمندريت أَنجزها حديثًا.

مـما رآه «بين الولادة والـموت» إنما بنسيج مغاير. تَناول الحِكَمَ القديمة عن الحقائق وصاغَها بأَبسط التعبير أَنْ «لن يَفهم أَحدُنا الآخرَ إِلّا حين تتقلَّص اللغة إِلى كلماتٍ سبعٍ». ويمكن فهْم ذلك من تأَمُّل رسوم الكتاب السبعة، فريشةُ جبران صولَجانُه الآخَر.

في قولته: «الرجلُ اثنان: أَوَّلُ صاحٍ في العتمة والآخَر غافٍ في النور»، ومضةٌ نَـحتيةٌ رشيقةٌ تتجلَّى في صفحات هذا الكُتيِّب الذي تعطي قراءَتُه انطباعَ مَن يسير في رواقٍ عالي السقف عريضِ الـمَعبَر، على جدرانِه صوَرُ الحقيقةِ منقوشةٌ في الرُخام.

إِنه كتاب يَـخترق الوعي حتى أَعمقِهِ كما قبلَه اخترقَه كتابُ «النبي».

ذكرتُ أَعلاه قولةَ جبران عن «**تقَلُّص اللغة إِلى كلماتٍ سبعٍ**». وأَذكرُ جيِّدًا ولادتَها ذاتَ مساءٍ في المحترف.

كنا نستريح بعد سحابةِ كتابةٍ، فبادرَني فجأَةً:

- افترضي أَنَّ عليكِ نسيانَ جميع الكلمات إِلَّا سَبْعًا، فما تكون هذه السبْع؟

أَجبته بعد برهة تفكير: الله، الحياة، الحب، الجمال، الأَرض. ولم أَستطع تعداد الاثنتَين الباقيتَين، فبادرتُه:

- وأَنتَ، ما تكون كلماتُكَ السبْع؟

- نسيتِ أَهمَّ كلمتَين يظلُّ عقيمًا كلُّ ما عداهما.

أَذهلني رأْيُه، فأَكمل:

- أَهمُّ اثنتَين هما: أَنتِ وأَنا، بدونهما لا وجود لباقي الكلمات. علينا أَوَّلًا أَن «نكون» ثم أَن «نأْخذ».

قالها ثم أَكمل متمهِّلًا ببعض همس:

- كلماتي السبعُ هي: أَنتِ، أَنا، ثم الأَخذ، الله، الحب، الجمال، الأَرض.

وساد بيننا صمتٌ طويلٌ لا أَذكر مثيلًا لطوله وخفَقانه ورِعشته. استعدتُ كلماته مرارًا طيلة ذاك الصمت. هي كلٌّ متكاملٌ، فيها جميع معاني الحياة، ومعاني الموت الذي هو جزءٌ من الحياة، ومعاني الأَبد الذي هو الله.



رسوم من جبران بالقلم الرصاص

وحين تدريجًا عاد إِلى شفاهنا الكلام، تناولْنا تلك السبعَ الكلمات، ونسَجْنا بها قصيدةً قصيرةً غيرَ مضيفَينِ إِليها كلمةً واحدةً سوى تصرُّفِنا بياء المتكلِّم:

وهذه هي القصيدة:

خُذْني أَيها الحب

خُذْني أَيها الجمال

خُذِيني أَيتها الأَرض

وإِذ آخُذُ

الأَرضَ، الحبَّ، الجمالَ

أَكونُ أَخذتُ الله.

الحياةُ دوراتٌ متَّصلَة مُتعاقبة

أَعرف وَلَدًا في السابعة، واعيًا تمامًا أَنَّ حياته سائرةٌ في مدارٍ «مثل النجوم والكواكب» كما يسميها مزهوًّا. ولكي يجعل حياته ساطعةً كما مقدَّرٌ لها، عليه أَن يبقى سائرًا في ذاك المدار. ويرى أَن «الأَرض لا تستطيع أَن تضلَّ عن مدارها. أَنا أَستطيع، لو شئتُ، إِنما عليَّ أَلَّا أَخرج عن مداري».

تساءلتُ مرارًا لِمَ، في قَدَر العوالم، تَقاطَعَ طريقي مع هذا الطريق الآخر بالذات في وقتٍ معيَّنٍ بالذات من هذه الحياة في دورتها الحالية؟

ذات مساءٍ، خلال اشتغالنا على كتاب «رمل وزَبَد»، راكمتُ وسْط الغرفة طنافس جلستُ عليها عوض مقعدي المعتاد. شعرتُ فجأَة بحميمية غريبة في جِلستي، فقلتُ له:

– أُحس كأَنْ مرارًا جلستُ إِليكَ هكذا، مع أَنني لم أَقُم بذلك قبلًا.

سكتَ برهةً – كما عادته أَحيانًا قبل أَن يجيب فأَظنُّهُ ينسج جوابه بالعربية – ثم نطَق:

– بلى. جلسنا هكذا قبل أَلْف عام، وسنجلس مجدَّدًا بعد أَلف.

أَحيانًا، إِبَّان اشتغالنا على «يسوع ابن الإِنسان»، كان مثيرًا حديثُه عن وقائعَ معيَّنةٍ حتى لأَبادره:

١ التيوصوفيا (أَو التِيُوسَفْسَطِيَّة) فلسفةٌ ذاتُ عقائدَ مغْلَقةٍ إِلَّا على النُخبة المتضلِّعة. شعارُها: «لا دينَ يعلو فوق الحقيقة». نشأَت في العصور القديمة، ظهرَت ملامحُ منها في كتابات أَفلاطون وأَفلوطين، وبلغَت الغرب مع القرن السابع عشر في كتابات التيوصوفي الأَلماني جاكوب بوهْمْ (١٥٧٥–١٦٢٤). وسنة ١٨٧٥ بلغ الولاياتِ المتحدةَ تيارُ «الجمعية التيوسَفْسَطِية» التي أَسستها الفيلسوفة الروسية هيلينا بِتروڤنا بلاڤاتْسْكي (١٨٣١–١٨٩١) وفيها تأْثيراتٌ من البوذية والبراهمانية، وإِيمانٌ بعقيدة التقمُّص أَو تناسخ الأَرواح.

٢ أَتباعُ الرُوزيكْرُوشِيا (الصليب الوردي = الصليب يرمز إِلى الجسد والوردة إِلى الروح): جمعية سرّية ظهر بيانُها الأَول في أَلمانيا سنة ١٦١٤. تعاليمُها متأَثِّرة بالنُسك المسيحي والأفلاطونية المُحْدَثة والفيتاغورية وتعاليم لوثر. انضم إِليها لاهوتيون وأَطبَّاء وفلاسفة، وانتشرت تدريجًا في كل أُوروپا. تأَثَّرت بها الماسونية في القرن الثامن عشر. كانت تؤْمن بالتناسُخ.

٣ وعاش حياته كلَّها على هذه القناعة. من هنا أَنه، قبَيل وفاته ودخولِه في الغيبوبة الأَخيرة، حين سأَلته راهبة المستشفى إِن كان كاثوليكيًّا، أَجابها بنبرةٍ قويةٍ «كلَّا»، كما روى ميخائيل نعيمه عن باربره يونغ التي كانت إِلى سرير جبران وسَـمِعَـتْ جوابَه.

– صحيح! أَحسُّ كأَنْ كنتُ هناك.

فيَجيئُني جوابُه مغمَّسًا بِبَعْضِ غصَّة:

– أَجل، كنتِ هناك. وأَنا أَيضًا.

هكذا كان جبران كلَّ مرةٍ يعبِّر عن إِيمانه بما يسميه «دورات الحياة المُتصلة المُتعاقبة»، وهو ما يؤْمن به التيُوسَفسَطِيُّون[1] والرُوزيكْرُوشِيُّون[2] وأَتباعُ عقائدَ ومذاهبَ أَخرى، ويُسَمُّونه «التقمُّص» (أَو التناسُخ). سوى أَنَّه لم يستعمل أَبدًا هذه التسمية. كانت ثقتُه راسخةً أَنَّ الحياة، وهي روحُ البشر، كانت وستبقى ولا زمنَ محدَّدًا لها، وأَنَّ روابط الحب والإِخلاص والصداقة ستَجمع دومًا مَن تتواصل ولاداتُهم باستمرار، وأَنَّ للعدوانية والعلاقات الشريرة والحقد الأَثَرَ ذاتَه في إِعادة الجماعات ذاتها من دورة إِلى دورة. ويكون للَّامبالاة تأْثير في التفرقة. فتلك الأَرواح التي لا تُحِب ولا تَكره، بل تبقى مكتفيةً كليًّا بمراقبة واحدَتِها الأُخرى، هي التي تلتقي مرة وحيدة في جميع الدَورات.

ذلك كان إِيمانَه وكان معتقدَه، ثابتيَن كالليل والنهار في قناعةٍ راسخة. لم يستخدم يومًا تعابيرَ معتقداتٍ ومذاهبَ أُخرى، ولا انتمى يومًا إِلى طائفةٍ ولا إِلى مذهب.

كنتُ غالبًا أُسأَل: «أَلم يكن جبران مسيحيًّا»؟ فأُجيبُ: بلى، وكان أَكثر مسيحيَّةً من جميع أَتباع الطوائف المسيحية، إِنما غيرَ مُنْتَمٍ ولا متعصبٍ لأَيٍّ منها[3]. وإِنْ لا بُدَّ من توصيفٍ – ليس أَصلًا يحتاجه –، فأَنه كان مسيحيًّا صوفيًّا بأَسمى معاني الصوفية.

وحين يُسأَلُ عَمَّن هو الصوفي، كان يجيب مبتسمًا: «ليس لغزًا سرِّيًّا ولا إِنسانًا مدهشًا. إِنه، ببساطة، من أَزاح حجابًا آخَر».

مرةً قال: «ثلاثَ مراتٍ رأَيتُه، سيدَنا وأَخانا، وكلَّمْتُه».

ومَن نَحن لنَشُكَّ؟ أَلم يقل يسوع يومًا لتلامذته: «ستفعلون هذه وأَكبر منها بَعد، لأَنني ذاهب إِلى أَبي»؟

٤ جوابُها هذا مستَمَدٌّ من معرفتها رأْيَ جبران في يسوع، وموقفَه حَيالَ طقوس الكنيسة. وهو ما كتبه مرارًا، كما في نَصّ «يسوع المصلوب»، وفيه: «... لم يهبط يسوع من دائِرة النور الأَعلى ليَهدم المنازل ويَبني من حجارتها الأَديرة والصوامع، ويستهوي الرجالَ الأَشدَّاء ليقودَهم قُسُوسًا ورهبانًا... ولم يَجِئْ ليعلِّم الناس بناءَ الكنائِس الشاهقة والمعابِد الضخمة، بل جاء ليجعلَ قلب الإِنسان هيكلًا ونفْسَه مذبحًا وعقلَه كاهنًا...». وهو مقالٌ نَشَرَه أَوَّلًا نهار الجمعة العظيمة في جريدة «مرآة الغرب» (العدد ١٣٥٧ – الجمعة ١٤ نيسان ١٩١١)، ثم عادَ فضَمَّهُ بالعنوان ذاته إِلى كتابه «العواصف» (القاهرة – منشورات «الهلال» – الطبعة الأُولى ١٩٢٠) وهو آخِر كتابٍ له بالعربية. وما ظهر له بعده في القاهرة («البدائع والطرائف» – ١٩٢٣) كان مجموعة مقالات وقصائد سبق نشرُها في الصحف، جمعَها الخورأُسقف منصور أسطفان بناءً على طلب يوسف توما البستاني الذي أَصدرها في منشورات «مكتبة العرب» وهي دار النشر التي كان يملكها في الفجالة.

مرةً وحيدةً، طيلة سنواتِيَ السبعِ معه، ذكَر جبران ثلاثَ تجاربَ صوفية، عبَّر لي عنها من أَعمق كيانه البشَري المُتعَب: «هي المرة الوحيدة في حياتي أَتحدث عنها لَبَشَريٍّ آخَر، إِنما لا تتحدَّثي عنها لأَحدٍ حتى بعد موتي».

جلستُ صامتةً كصخرة، وأَصغيتُ إِليه. ولأَنني أَنا أَيضًا مُلِمَّة بالرؤْيا الصوفية وقوَّتها، عرفتُ أَنَّ ما سينطُق به حقيقةٌ أَزليةٌ لن أَبوح بها.

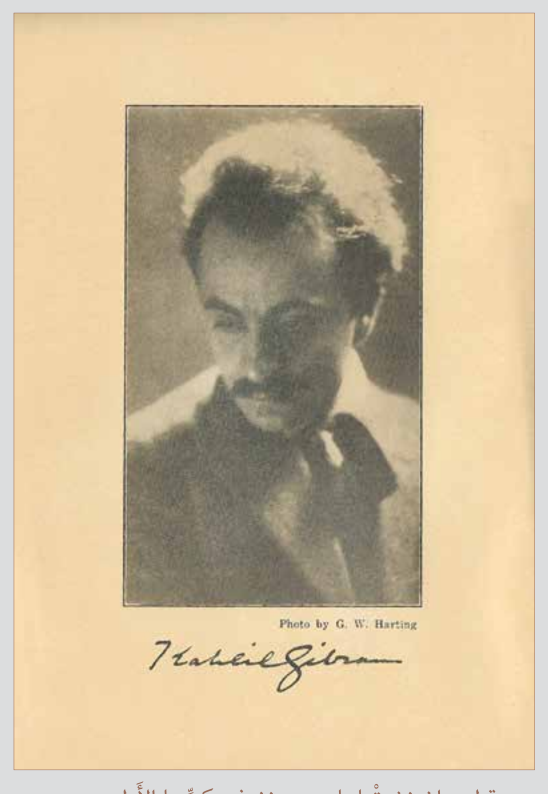
كنتُ يومًا أُخاطبُ جمعًا غفيرًا في مدينةٍ من الغرب الأَميركي، حين قاطعني بتهذيبٍ ذاك السؤَالُ إِياه: «هل كان جبران مسيحيًّا»؟ فبادرتُ بجوابي المعتاد: «إِن كان المقصودُ مزاولتَه الطقوسَ عبر الكنيسة الكاثوليكية[٤]، فهو لم يكن ذا صلةٍ بها ولا بأَيٍّ أُخرى. وإِن كان المقصودُ إِيمانه بتعاليم طائفةٍ مسيحيةٍ، جوابي كذلك أَن لم يكن منتميًا إِلى أَيِّ طائفةٍ أَو مذهب. وحين كان يُسأَل عن أَعجوبة الحبَل بلا دنس، كان يجيب: «أَلَيس كلُّ حَمْلٍ أُعجوبة»؟ كان يرى يسوعَ أَكثرَ بشَريٍّ مُتَنَوِّرٍ زار الأَرض، وأَكثرَ المُلْهَمين اطِّلاعًا بـحكمةٍ وقوةٍ لا تُحَدَّان، وشاعريةٍ متفوِّقةٍ، وشخصيةٍ فريدةٍ خارقةٍ مقْنِعةٍ مكتملةٍ وعيَها قدراتِ البشر ومسؤُولياتِهم. كان جبران يؤْمن أَنَّ يسوع عاش حياته البشريةَ كاملةً، لم تتقدَّم له كأْسُ بهجةٍ إِلَّا شربها، ولا عاينَ قلقًا بشريًّا إِلَّا تَفَهَّمَهُ وأَشركَه بأُلوهيته، ولَم يَشُب حياتَه طيفُ ملامة».

هذا الجواب لم يكن يُرْضي المتشدِّدين، لكنه يُرضي جبران.

هو المولود من والدَين مارونيَّين، تلقَّى تربيتَهما الدينية. وكان يروي أَقاصيصَ حنونةً عن الخوري يوسف الذي كان أَحيانًا يزور قرية بْشَرِّي في جولاته التبشيرية على الرعايا في القرى والدساكر. وكان الصبي جبران يراقب الخوري يوسف، وأَحيانًا يمشي معه، يدُه الطريَّةُ في تلك اليد الصَلبة، سائلًا إِيَّاه، متأَمِّلًا في أَجوبته.

قال لي عنه يومًا:

– تعلَّمتُ منه عن الله والملائِكة. كان قريبًا من الله، وكنتُ أَتأَمَّله بفضولٍ حتى أَنني مرةً سأَلْتُه: «أَأَنتَ الخوري يوسف أَم أَنتَ الله»؟ إِلى هذا الحد كنتُ أَجِده طيِّبًا ومثاليًّا. أَحببْتُهُ بشغفٍ ما زلت أُحسُّه كلَّما فكَّرتُ به. قُربُه من الله جعلَني أُحِسُّ



صورة لجبران نشرتْها باربره يونغ في كتيِّبها الأَول
عن جبران (١٩٣١) ونشرت تحته توقيع جبران.

٥ لافتٌ أَنَّ جبران، في كتاباته وكتُبه، لم يستعمل تسمية «المسيح» بل «يسوع»، مُشَدِّدًا على عظمة يسوع بطبيعته البشرية وفَرادته الساطعة في التاريخ.

بِحُبِّيَ الله. لم يُحدِّثني مرَّةً عمَّا كنتُ تعلَّمتُه في تلك الكنيسة الصغيرة بل عن أُمورٍ في العالم العلْويِّ لم أَكُن أَراها أَو أَسمعُها بل كنتُ أُحسُّ بها في قلبي. وكان قلبي الطفلُ يومها يلهف أَحيانًا إِلى زيارة ذاك العالم العلْويِّ كي أَراها وأَسمعَها بدَلَ أَن أَبقى حيث أَنا فأُحسَّ بوحدةٍ غريبة وحزن غير طفوليّ.

إِذًا لم يكن جبران اتِّباعيًّا حتى وهو وَلَد. لم يولَد في عالم نهاية القرن التاسع عشر كي يتَّبِع، بل وُلِدَ رسولًا من الله ليُعيدَ صياغة فهْم البشَر جوهرَ الحياة، ويُسمِعَ مَن لهم آذان، ويُلقِّنَ الروحَ المغامِرة كيف تشقُّ طريقَها إِلى مَراقي الله المتلأْلئَةِ أَمام بَني البشَر.

منذ مجانبَتِه الخوري يوسف كان جبران الصبي يرى أَنه خارج الإِيمان الديني الذي نشأَ عليه. ولم يَجِد «دِينًا» بديلًا منظَّمًا يؤْمن به.

هكذا شُغِفَ طفلًا بيسوع، ووعاهُ يافعًا «الأَكثرَ حكْمة وصَلاحًا من جميع الحكماء والصالحين الذين جاؤُوا هذا الكوكب. هو يسوع، سيدُنا وأَخونا، هو يسوعُ ابن الإِنسان»[٥].

ولنقلْها جليَّةً، لا تَجنبًا ولا نكرانًا مكانتَه، فجبران لم يقصد أَبدًا ذلك. يسوع جبران هو ابنُ الإِنسان، الذي بلغَ قمة التصفِّي بعد سلسلةٍ طويلةٍ من دورات الـحَياة، فجاءَ مكتملَ الحكمة والفضائل والقوة والمجد بما لم يَبْلغْه قبله بشريٌّ يعبِّر عن الله الآب بمجموعةٍ من ذاك الحصاد الأَبدي.

كان جبران يؤْمن أَنه عاش على الأَرض زمنَ عاش في بلاده يسوع، وأَنَّ يسوع حتمًا زار شمال لبنان، فيقول: «رأَيتُه هناك. أَنا واثقٌ أَنني رأَيتُه هناك».

تلك المشاعر كانت في عمق قلبه وكيانه. وإِذ يتحدَّث نادرًا عنها لبضع لحظات، كان يتحوَّلُ كمَن مَسَّتْه إِصبع نار إِلهيةٌ فلا أَشكُّ في حديثه كما لا أَشُكُّ بوجودي. في تلك اللحظات، النادرة إِنما المكثَّفة الحقيقية المحسوسة، كان المحترف – عند أَعلى تلك البناية القديمة – يتحوَّل كما تلةً عالية في بلادٍ بعيدةٍ لم أَكُن رأَيتُها بعدُ في هذه الدورة الحالية من حياتي، فلا أَعودُ أَسأَل لماذا أَنا مع هذا الشاعر في هذا

We Came as a Mist



ND now I say unto you,
Beloved, seek us no more,
For we have neither hut nor bower.
And search not for our name,
For it is not written in books,
Nor is it traced on any canvas.
We came as a mist;
We passed away as a cloud,
The one, without dew,
The other, without rain.
And now if you would, in truth, know
what we have known,
You must needs walk the road to death,
Even as we have walked.

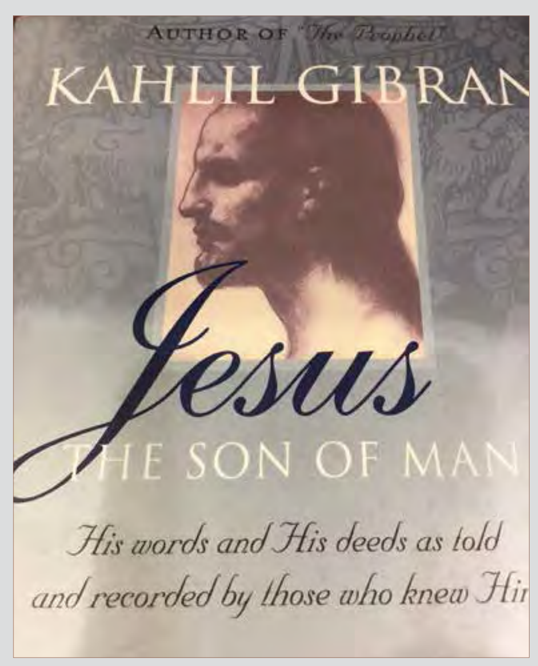
KAHLIL GIBRAN

«جئنا كما ضبابة»
مقطوعة لجبران نشرتْها باربره يونغ
على صفحة من كتيِّبها الأَول عن جبران (١٩٣١).

٦ هذه هي الهاجيوغرافيا التي أَوضحتُها في الصفحة ٢٩٩ للدلالة على أَنَّ باربره يونغ كانت ترى إِلى جبران في هالةٍ إِلهيَّة لا بشريَّة، وبهذه النِظرة كتبتْ تجربتَها معه في هذا الكتاب.

الزمن، بل أُوقِنُ أَنْ فعلًا سبَق وعشْنا معًا وتنقلنا معًا في الأَماكن ذاتِها قبل أَلفٍ من السنوات أَو أَلفَين.

جميعُ هذه التجارب والاختبارات البهيجة عشتُها معه إبَّان كتابة «يسوع ابن الإنسان». وساعةٌ واحدةٌ من مراقبتي إِياه خلال ساعاتٍ لا تُحصى نتجَ عنها ذاك الكتاب، كانت تكفيني لأُوقنَ أَنَّ هذا الرجل من لبنان كان فعلًا من نسيجٍ إلهيٍّ[٦] وكيانٍ أَكثرَ أُلُوهيةً من كياننا. مراقبتي إِياه هكذا، مخطوفًا أَمام عينيَّ البشريتين، شكَّلَت قناعتي بأَنه حقًّا هو المصطفى الحبيب في سماوات الآلهة.



إحدى طبعات «يسوع ابن الإنسان»

١ ما عادَ أَكملَه ليُصدِرَه، فانهمَكَ قبل إنهائه بإصدار «رمل وزبَد» (١٩٢٦)، فـ«يسُوع ابن الإنسان» (١٩٢٨)، فـ«آلهة الأَرض» (١٩٣١)، فـ«التائِه» (١٩٣٢ صدر بعد وفاته)، وعملَت باربره يونغ على جمْع ما كان أَملاه عليها من نصوصٍ أَصدَرتْها في «حديقة النبي» (١٩٣٣)، وجميعها طبعًا لدى «كنوف».

«صديقُنا وأَخُونا»

طويلًا عاش كتابُ «يسوع ابن الإنسان» في بال جبران. كان يقول:

– ذات يوم، ذات بادرة، سنكتب عن صديقنا وأَخينا. بعد سنواتٍ خمس، وربما عشْر.

فجأَةً، ومن دون مقدِّمات، مساءَ [الجمعة] ١٢ تشرين الثاني ١٩٢٦، سطعَتْ لحظةٌ ستبقى حيَّةً في ذاكرتي ما بقيَت في ذاكرتي حياة: كان جبران يذرع الغرفة بلا توقُّف، متحدِّثًا بتقَطُّعٍ عن كتاب «حديقة النبي» وكان يتهيَّأُ له تفكيرًا وتصميمًا[١]. فجأَةً جَمَدَ مكانَه، وغمرَتْ وجهَه نِظرةٌ غريبةٌ قاتمةٌ، في تحوُّلٍ مثيرٍ ذي مُحيًّا أَعرف من تجربتي معه أَنه نذيرُ بدايةٍ عاجلة.

تردَّدَتْ في الغرفة أَجواء خبِرتُها في مثل هذه اللحظات. تناولتُ الدفتر الأَسمر من حَدِّي سريعًا وتهيَّأْتُ.

حنى رأْسه فتجهَّم وجهُه وشاخ، اسْوَدَّ ذاك الإِشعاعُ الجميل إِلى هيئةٍ صارمةٍ كئيبة، ارتَجَّ رأْسُه هرَمًا وشيخوخةً، ثم تعالى صوتٌ – كأَنْ ليس صوتَه – ضئيلٌ مهزومٌ متَهدِّجٌ اخترَقَ قلبي أَلَمُهُ ويأْسُه كأَنه خنجر. ثم نَطَقَ الصوت: «في مثل هذه الليلة قبل خمسين سنةً – والذكرى عقرباء ملتفَّةٌ على قلبي كأْسًا أَمَرَّ من المرارة، سوَّدَت جميع أَيَّامي ودنَّسَت جميع صباحاتي آلاف المرات – زارتْني ذكرى تلك الليلة...». وسَكَتَ. عاد يمشي في الغرفة ويردِّد تلك الكلمات ذاتَها وأَنا أُدَوِّنُها.

« Defeat »

Defeat, my Defeat, my solitude and my aloofness;
You are dearer to me than a thousand triumphs,
And sweeter to my heart than all world-glory.

Defeat, my Defeat, my self-knowledge and my defiance,
Through you I know that I am yet young and swift of foot
And not to be trapped by withering laurels.
And in you I have found aloneness
And the joy of being shunned and scorned.

Defeat, my Defeat, my shining sword and shield,
In your eyes I have read
That to be enthroned is to be enslaved,
And to be understood is to be leveled down,
And to be grasped is but to reach one's
fulness
And like a ripe fruit to fall and be
consumed.

Defeat, my Defeat, my bold companion,
You shall hear my songs and my cries and
my silences,
And none but you shall speak to me of the
beating of wings,
And urging of seas,
And of mountains that burn in the night,
And you alone shall climb my steep and
rocky soul.

Facsimile of a page manuscript

مخطوطة «خيبة» لجبران نشرتْها باربره يونغ على صفحة من كتيِّبها الأَول عن جبران (١٩٣١).

تجمدْتُ في جِلستي مسحورةً: راح الصوت القلِقُ المأْساويُّ الغريبُ يتردَّد فينفطر قلبي على كائنٍ معذَّبٍ لم أَعرفْهُ من قبلُ مع أَنَّ وَهْنَه ليس جديدًا عليَّ. عجزتُ عن التدوين.

فجأَةً، وبسرعةِ ما كان تَحَوَّلَ قبل لحظاتٍ رجلًا غريبًا، عاد جبران إلى وجهه الأَليف، تَوَجَّهَ صامتًا إلى كرسيِّه، جلَس مغمِضًا عينَيه، ثم فتَحَهُما، تطلَّع بي في صَحْوةٍ طبيعيَّة وقال:

– أَتعرفين مَن كنتُ؟

– كلَّا.

واصل بصوتٍ عميقٍ كما آتٍ من البعيد:

– كنتُ يوضاس [يهوذا]. مسكينٌ يوضاس. لو افترضْنا أَنه لم يتخلَّص من حياته، وأَنه عاش خمسين سنةً أَو مئَة، كيف ستكونُ حياته؟

انتصَب واقفًا، على وجهه مسحةُ ملاكٍ معذَّبٍ يَسحقُه الأَلم والقلَق، وبومضةِ إشراقةٍ باهرةٍ على وَجهه صرخ:

– الليلةَ يُمكنني أَن أُباشرَ الكتاب.

وبالفعل: ليلتئذٍ بدأَ تأْليف «يسوع ابن الإنسان»، الكتابِ الْكان يُسكِنُه قلبَه سنواتٍ طويلةً. غير أَن الفصلَ الأَولَ الذي أَملاهُ وكتبْتُه لم يكن عن يوضاس بل قصةً على لسان يعقوب ابن زبَدى. راح يَمشي من جديد، يُملي عليَّ بطيئًا، لا بصوته المعتاد وطريقتِه المأْلوفة بل وازنًا كلماتِه الإِنكليزيةَ إِذ يلفظها. هكذا أَلَّف الفصلَ الأَوَّل من الكتاب. لكن «أَلَّف» ليست الكلمة بل هو «عاش» الفصلَ كأَنه هو يعقوب يستعيدُ كلماتِ الرب ناهرًا بغضَبٍ يوضاس المتزلِّف:

«تراجعْ عني أَيها الشيطان. أَتَخالني انحدرتُ من جبال السنين لأَحكُم يومًا تلَّةَ نـمْل؟ عرشي أَبعدُ من أَن يطالَه بَصرُك. أَيُـمكنُ مَن جَناحاه يلُفَّان الأَرض أَن يبحثَ عن ملْجإٍ في عشٍّ ضئيلٍ مهجور؟... كثيرةٌ هي الديدانُ الـمُتَزاحفةُ حول قَدَميَّ لكنني لن أَدهَسَها... يشتهي كاهنُكُم وحاكمُكُم هدْرَ دمِيَ. وسوف ينالانِهِ قبل أَن أُغادر هذا

٢ انتحارُ يوضاس ورَدَ على لسان رجلٍ روى أَنَّ يهوذا زاره ليلةَ الجمعة العظيمة عشيةَ الفصح وقال له، بين ما قال: «أَسلمتُ يَسُوع الناصريَّ إِلى أَعدائه وأَعدائي... صلَبُوهُ اليوم... وعندما مات على الصليب مات ملكًا... مات في العاصفة كما يَموت العظماء... هو مات ملكًا وأَنا خائنًا سأَموت...». هكذا تكلَّم يهوذا ثم فتح الباب وخرج إِلى العاصفة... بعد ثلاثة أَيامٍ زُرتُ أُورشليم وسمعتُ بكل ما حدَث فيها. وعرفتُ أَن يهوذا ارتمى من قمَّة الصخرة العالية («يسوع ابن الإِنسان – أَقوالُه وأَفعالُه كما رواها ودوَّنَها مَن عرفُوه» – الفصل ٦٧: «شهادة رجلٍ من خارج أُورشليم»). وفي الفصل ٧٦ «سيبُورية أُمُّ يهوذا تَصِف ابنَها وأَطوارَه»: «يقولون لي إِن ابني مات منتحرًا بارتمائِه عن الصخرة العالية إِذ وبَّخَهُ ضميرُهُ على تسليمِهِ صديقَه يسُوع الناصريّ».

٣ غير أَنَّ جبران، قبل إِرسالها إِلى الناشر (كنوف، طبعًا، ناشر جميع مؤَلَّفاته)، تناولَ تلك النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة، ومن دون علْم باربره أَرسلها إِلى ماري هاسكل الجمعة ٩ كانون الأَول ١٩٢٧. واستلمَتْها الأَحد ١١ كانون الأَول ظنًّا منها أَن جبران أَرادها بادرةَ هديةٍ في عيد ميلادها الثالث والخمسين (وُلِدَت نهار الخميس ١١ كانون الأَول ١٨٧٣ في مدينة كولومبيا – ولاية كارولاينا الجنوبية). ولاحقًا، طيلةَ الشتاء ومطلع ربيع ١٩٢٨، ظلَّ يرسل إِليها تعديلاتٍ أَو إِضافات جديدةً إِلى فصولٍ تكون نقَّحَتْها سرًّا في غفلةٍ عن زوجها أَو ليلًا إِبَّان نومه لأَنه كان حرَّم عليها أَيَّ اتصالٍ مع جبران. وليلةَ الأَربعاء ٤ نيسان ١٩٢٨ أَنهت تنقيح الأَسطر الأَخيرة من النصوص وأَعادتْها إِليه صباحَ اليوم التالي. أَصدر كنوف الكتاب نهار الخميس ١١ تشرين الأَول ١٩٢٨، وبعد أَربعة أَيَّام (الإِثنين ١٥ تشرين الأَول) كان جبران يُرسل إِليها أَوَّل نسخةٍ مطبوعة وصَلتْهُ.

العالم. لن أُغيِّر مسارَ الشريعة ولن أَحكُم جهَلة. فلْتَتَجَدَّدِ الجهالةُ ولْتَتَناسلْ حتى تَـملَّ من ذَرِّيَّتها... مملكتي ليست على الأَرض بل حيثما يلتقي بينكم اثنان أَو ثلاثةٌ على الحـُب، على تَذَوُّقِ جمال الحياة، وعلى الغبطة والبهجة في استذكاري».

مع أَني كنتُ سمعتُ هذا الفصلَ ودَوَّنتُه، حين قرأْتُهُ ناجزًا أَذهلَني أَن يَخرُج هذا الكلام من قلْبِ رجلٍ وفمِه بهاتيك القوَّة والدقَّة والتراكيب. لكنه هكذا تكوَّن في فكره وسال من فمِه. وحين نسَج قصة يوضاس، لم يُعطِهِ ملامح رجلٍ عاش سنواتٍ من الحقد بل شخصيةَ رجلٍ ارتمى من صخرة عالية وتَحطَّم ميتًا[٢].

قلتُ إِن تلك الليلة، ١٢ تشرين الثاني، لن أَنساها في حياتي. وتَواصَل العمل ثمانيةَ عشَر شهرًا: هو يُملي وأَنا أَكتُب، فيما كانت عينايَ – ولا تزالان حتى اليوم – تتأَمَّلان وجهَه ساحةَ معركةٍ تتغيَّر ملامِحها في لَمعة برقٍ وفْق التَعابير. كم كان يُشرق وجهُه بِما تَصْعب عليّ الإِشاحة عنه! وكم كانت تَعرى روحُه العظيمة فيلبَس وجهُه ما لا تراه عينٌ بشرية!

كلُّ واحدٍ من الأَشخاص السبعين في الكتاب كان «يَحضر» حيًّا في المحترف، وينطق بلسان هذا الرجل من لبنان. وغالبًا ما كان مُضنيًا بل مرعبًا إِرهاقُهُ عند إِنهائه قصةَ الشخص. أَحيانًا قليلةً كان نورٌ، شفيفٌ رقيقٌ لكنه بَيِّنٌ، يشعُّ فوقه وحَوله إِذ يَمشي. مرةً وحيدةً، إِذ توقَّف عن المشي وهو يُمْلي عليَّ بصوتٍ خفيضٍ عباراتٍ بطيئةً، لَمحْتُ ذاك النور واضحًا ساطعًا أَبيضَ باهرًا فصرختُ غصبًا عني: «خليل... النُور»!!! جَفلَ لحظةً، تنفَّس عميقًا، وعاد يَمشي فاختفى النور.

هكذا كانت الجَلَسات تمضي إِلى أَن انتهى الكتاب. طبعتُ الصيغة الأَخيرة على آلَتي الكاتبة وهيَّأْتُها للإِرسال إِلى الناشر[٣]. فكأَن الشاعر وصاحبَةَ اليد التي دوَّنَتْ، بلغا خاتمةَ صراعٍ مُضْنٍ بجراحٍ مشتركة في عمْق قلبَيْهما. وبقيَت رائعةً ذكرى كلِّ ذلك، ولا تزال، وظلَّت تلك الجراح وندوبُها جُزءًا من ذاك الكنز الذي كانتْهُ تلك التجربةُ الغنية والفريدة.

رسوم الكتاب كانت تولَدُ تَوازيًا مع التأْليف. ويهمُّني هنا أَن أَتوقَّف عند رسم رأْس يسوع على غلاف الكتاب. كنت شاهدةً على بداية تفكيره برسم «ابن



رسمٌ من جبران بالقلم الرصاص، يرجِّحُ الباحثون أَن هذه شقيقته مريانا تتفجّع فوق رأْس أُمها كاملة عند وفاتها.

الإنسان». ذات مساءٍ تناول جبران لوحًا كرتونيًّا سميكًا يتَّسع لرسم رأْسٍ في حجمه الطبيعي، ووضعَه على مَلْوَنِه. كانت حركتُه لاهثةً كأَنه يحمل جسمًا حيًّا. التفتُّ إِليه وفي عينيَّ سؤَال، لكنَّه كان يتضايق مِمَّن يكلِّمه وهو يعمل أَو يسأَله عما هو فاعل. حمل أَمام عينيَّ أَرومةَ قلمٍ رصاص قصيرةً من نحو ٥ سنتم، وجَّهها إِلى اللوح، وضع إِصبعَين على شفتَيه فارضًا عليَّ الصمت، بدأَ من أَعلى اللوح وراح برشاقةٍ مذهلةٍ وسرعةٍ عجيبةٍ يضع الخطوط الأُولى واضحةً محدَّدةً جميلةً للجهة الجانبية من الوجه. وبدأَ الرسم يولَد.

بقي اللوح على المَلْوَن أَيامًا وليالي. وكان جبران من وقت إِلى آخَر يقف أَمامه، يلامسُه بالقلم الرصاص، يمحو بعض الملامح الصغيرة بقطعة قماش سوداء صغيرة، أَو يعدِّل خطًّا بإِبهامه. ثم يعود فيمشي من جديد، ويُملي عليَّ مقاطع جديدة من القصة التي يكون بدأَ بإِحياء أَشخاصها.

هذه الحركة، من المَشي والعمَل ثم الوِقْفات ثم المَشي مجدَّدًا، كانت تتواصل ساعاتٍ مطَّاطةً حتى عمق سواد الليل. وغالبًا ما كان يلتفت إِلى كوَّة السقف فيبادرني مدهوشًا: «هاكِ... النافذَةُ ابيَضَّت». وبالفعل كانت كذلك، لحظةَ الفجرُ يتسلَّل منها بعد عملٍ متواصلٍ طوال الليل.

أَحيانًا كان يسأَلني: «أَما تزالين هنا؟ وهل كنتُ أَقُصُّ عليك الحكايات كلَّ هذا الوقت؟ سامحيني، لا بدَّ أَنك تَعبى حتى الانهيار».

فعلًا أَكون مرهَقَةً جدًّا لكنني كنت دومًا أُبادره بسرعة: «لا، أَبدًا، لست متعَبَةً لكنكَ أَنت...» فيُجيب بالسرعة ذاتها: «أَنا... أَنا ميتٌ كثيرًا»، وينكسِر نُطقُهُ وتشرق على شفتيه ابتسامةُ إِرهاقٍ إِنما مشعَّةٌ تحلُّ مكان شحوبِ وجهه المُتْعَب. وما هي حتى يرتمي بثيابه على كنَبَته العريضة، خالعًا خُفَّهُ كما يفعل دومًا، ويغرق في النوم قبل أَن يصل رأْسه إِلى الوسادة، فأُبادر إِلى حرامٍ سميكٍ أُلْقيه على جسَده الغافي، وأُغادر بصمتٍ فلا يسمع إِغلاقيَ البابَ ورائي وأَنا خارجةٌ أَستقبلُ الشفَق، مترنحةً في شوارع نيويورك الصامتة الخالية من العابرين، أَجرُّ خطواتي المُتعَبة إِلى



Washington Square Park

٤ قوسُ نصرٍ رُخاميٌّ مهيبٌ على اسم جورج واشنطن (١٧٣٢–١٧٩٩) أَول رئيس على الولايات المتحدة (١٧٨٩–١٧٩٧). تمَّ تشييدُهُ سنة ١٨٩٢ وسْط ساحةٍ عامةٍ باسمه في أَسفل مانهاتن عند آخر الجادة الخامسة.

٥ لم يكن ذلك تقصيرًا من جبران بل مقصودًا أَن رأْس يسوع يتخطَّى قياس اللوح الكرتوني المحدود، لإِيمانه أَن روحَ يسوع العظمى لا تَحصُرُها صورةٌ ولا يَحُدُّها إِطارُ لوحة أَو رسْمَة.

راحة غرفتي الصغيرة من فندق بريڤورت القديم. في تلك اللحظة بين تثاؤُب الفجر في سماء مانهاتن وضبابةٍ تغيم حول ساحة قوس واشنطن[٤]، كنتُ أَشعر أَنني أَملكُ هذا المشهدَ الهادئَ لي وحدي، وأُحسُّني مغمورةً كأَنْ بنعمةٍ تهلُّ بعد جِلسَة تعَبُّد، فلا أَعود آبَهُ لعدد الساعات الطويلة التي أَمضيتُها في العمل مع جبران.

أَخيرًا... انتهى رسْم الرأْس وانتهت كتابةُ جميع النصوص. إِنّما ذلك لم يمرَّ من دون حادثةٍ عند صدور الكتاب مزعجةٍ لكنها جعلَت وجه يَسوع جبران أَليفًا للمئَات بل للآلاف من الشباب والصبايا من جميع أَنحاء العالم.

الحادثةُ أَن الرسم، حين تلقَّاه المدير الفني لدى الناشر كنوف، المعتادُ على التصوير الزخرفي العاديّ، وجدَ خطَّ الرأْس مبتورًا غير مكتمِلٍ في الأَعلى وفي مؤَخرة الرأْس، وتاليًا لم يكن الوجهُ كاملًا داخل حدود اللوح الأَربعة[٥]، فأَعادَه إِلى جبران الذي، حين تلقَّاه، قال لي بصوتٍ غريبٍ مقَنَّع: «يقولون أَنْ لم نُعطِ يَسُوعَنا مساحةً كافيةً على اللوح». كان مجروحًا في عمق حسِّه الجمالي وقياساته الفنية. وكان مستحيلًا تعديلُهُ الرسمَ حتى لو شاء. فانصرف يرسُم وجهًا آخَر هو النهائيُّ الذي عاد فظهَر على غلاف الكتاب، معطيًا «يَسُوعَنا مساحةً كاملةً على اللوح». كانت في صوتِه سخريةٌ، وفي يدِه رعشاتُ توتُّرٍ وهو يرسم النسخة الجديدة لإِرضاء المدير الفني.

ظلَّ يسمِّي الرسم الأَول «يَسُوعنا»، وخرَج الرسم الآخَر ناقصًا لَـمسةَ الشعلة وحرارةَ الإِبداع اللتين قادَتا يدَه عند وضْعه الرسمَ الأَوَّل، فإِذا بالنسخة الجديدة تنقُصُها نبضةُ الحياة ونعمةُ الوحي.

أَغضبَني ذلك ونويتُ أَن أُناقشَ المدير الفني لكنَّ جبران لم يرضَ. حدَّقَ بي، على شفتيه بسمةٌ وفي عينيه شراراتُ إِرهاق، وسأَلني:

– أَتقبلينَهُ مني، ولو ان مساحةَ اللوح الكرتوني أَضيقُ من وجهه؟

هكذا آلَ إِليّ أَغلى كنز من مجموعة الرسوم! ولاحقًا حملتُ الرسم معي عبر الأَطلسي إِلى جمهورٍ إِنكليزيٍّ بُهِرَ به، في لندن وفي ست مُدُنٍ أُخرى، بينَها بايدْفورد



لوحة رخامية في پاريس على المبنى رقم ١٤ – جادة ماين Maine، عامَي كان يدرس فيها الرسم.
في اللوحة:
«هنا عاش من ١٩٠٨ إلى ١٩١٠ جبران خليل جبران ١٨٨٣ – ١٩٣١ – رسَّام وشاعر لبناني أَميركي».

٦ بايدْفورد مدينة تاريخية عند مصبّ نهر توريدْج الشهير شماليَّ دُڤُون (أَو دُڤُونشاير) جنوبِيَّ غربِ إِنكلترا.

٧ شارعٌ طويلٌ رئيسٌ يعبر الشطر الشمالي من الدائرة السادسة عشرة في پاريس.

٨ تأَسَّس في نيويورك سنة ١٩٢٤ بِهِبةٍ من جون روكفلر الابن (١٨٧٤–١٩٦٠) مركزًا طلابيًا لا يبغي الربح ليكون نَزلًا للجامعيين والباحثين وأَنشطةٍ ثقافية، حيث جامعات كبرى (كولومبيا، نيويورك، معهد مانهاتن للموسيقى،...). يستوعب نحو ٧٠٠ طالب من جميع دول العالم. أَدرَجَتْهُ بلدية نيويورك سنة ١٩٩٩ على «اللائحة الوطنية للأَبنية التاريخية».

قريةُ أَهلي في مقاطعة دُقُون الجميلة[٦]. وأَنَّى عرضتُهُ كانت ردة الفعل ذاتها: «لا بُدَّ أَنْ هكذا كانَت ملامِحُهُ».

وفي پاريس، حين سرى خبرُ أَنَّ ذاك الرسم موجودٌ معي – وكانت شهرتُه سبقَتْه إِليها – غصَّت بالزوَّار شقَّتي الصغيرة في شارع ميكالانج[٧].

في الولايات المتحدة، إبّان جولاتي على مدُن أَميركية كثيرة، كان للرسم التأْثير ذاتُه على مَن تقاطروا لرُؤْيته. في كليڤلنْد جاء قسيس في إِحدى كبرى الكنائس مصطحبًا ولَدَيه ليُريهِما الوجه. أَحدُهما، في الثامنة، تفرَّس به صامتًا ثم قال بهدوء: «أَبتاه، هكذا كان وجهُه. لِمَ لَمْ يرسمه الآخرون هكذا من قَبْل»؟ وفي تلك المدينة ذاتها شاهدَهُ غلام في السادسة عشرة فعلَّق مَرحًا: «لا أَتَّبع الطقوس الدينية ولا أَنوي ذلك. لكنني أَتْبَعُ يسوعًا كهذا».

في نهاية التطواف، استقرَّ رسمُ يسوع ابن الإِنسان، هديةً مني، لدى «البيت الدولي» في مدينة نيويورك[٨]، وهو يستقبل سنويًّا من دولٍ عديدةٍ آلاف الشبان والصبايا المتعطِّشين إِلى المعرفة والفنون، يأْتون من أَقاصي الأَرض يتأَمَّلون «الوجه» بعيونهم ويقتَبِلونه بقلوبهم التي لن تَعود تَنسى ما أَحسوا به أَمام ذاك الوجه.

كلَّما أَقرأُ الكتاب بكامله، كما كان لي قبل أَيَّام، تعود لي تلك القشعريرة الأُولى الْكانت تسكُنُني كلما أَصغيتُ إِلى فُصُوله طيلة النهارات والليالي إِبَّان تأْليفه، فأَسمع كلماتِه مقروءةً، وأَسمع صوت الشاعر يبادرني، كما حصل مرارًا عند إِطلاقه مقولةً ساطعة: «يا إِلهي، لم أَكُن أَعلَم أَنني سأَقول كلَّ هذا».

واليوم أُدرك أَنَّ هذا الكتاب لن يكون لي كتابًا، مُجَرَّد كتاب، بل مجموعَ أَشخاصٍ يتحرَّكون وينطِقون. وذلك، لا لأَنه لخليل جبران، صديقي الأَحَب، بل للحياة النابضة في شخصيات حنَّة أُمِّ مريم، ومتَّى وموعظة الجبل، ويوسف الرامي ونقْله أَقوالَ يسوع، وسوسن الناصرية وحكايتِها عن أُمِّ يسوع، ومريم المجدلية، وسيبورية أُمِّ يوضاس. هؤُلاء هم الأَحياءُ في صفحات الكتاب، لا الرجل العظيم الذي أَحبَّهم فَخَلَقَهم.

٩ زيادةً في الاستعلام كان جبران، خلال تأْليفه الكتاب وكلَّما عاد إلى بوسطن لزيارة شقيقته مريانا (الرقم ٧٦، شارع تايلِر)، يزور صديقَه راعي كنيسة «سيِّدة الأَرز» المارونية الخورأُسقف أسطفان الدويهي مستفسرًا منه عن بعض الآيات في الإِنجيل، وطالبًا منه أَحيانًا أَن يُنشِد له بعض التراتيل السريانية وخصوصًا «الإِفراميات». كانت الكنيسة ملاصقةً تمامًا شقَّة مريانا لكنَّ جبران لم يكُن أَبدًا يَدخُلُها لمتابعة الطقوس الكنَسية.

١٠ يومية إِنكليزية أَسَّسها جون إِدوارد تايلُر سنة ١٨٢١ في مانشِسْتر (٢٦٠ كلم شمالي غرب لندن). تَغيَّرَ اسمُها إِلى الـ«غارديان» سنة ١٩٥٩. وتغيَّرَ حجمُها إِلى تابْلُوْيد سنة ٢٠١٨ وما زالت تصدر بهذا الحجم.

١١ جوزِف إِرنست رينان (١٨٢٣–١٨٩٢) مؤَرِّخ وكاتب فرنسي، أَمضى في لبنان سنتَين (١٨٦٠–١٨٦١) منقِّبًا عن الآثار، مقيمًا بين عمشيت وغزير حيث بدأَ بوضع الأَفكار الأُولى من كتابه «حياة يسوع» (صدر في پاريس سنة ١٨٦٣، وأَثار صدُوره ضجةً بين أَوساطٍ فوجِئَت بطروحاته الصادمة).

١٢ فرِدِريك وليَم فَرَّار (١٨٣١–١٩٠٣) قسيس أَنكليكاني خدَم طويلًا في كنيسة دير وستمنستر (لندن). كتابُه «حياة يسوع» (١٨٧٤) لاقى رواجًا واسعًا وتمَّت ترجمتُه إِلى لغاتٍ عدة.

١٣ وليم سَاندَاي (١٨٤٣–١٩٢٠) لاهوتي أَنكليكاني. حاز على الزمالة من الأَكاديميا البريطانية، وعلى الدكتوراه الفخرية من جامعة كمبردج. كتابُه «حياة المسيح في الأَبحاث الحديثة» (نيويورك ١٩٠٧) كان لفترة طويلة مرجعًا لاهوتيًّا رئيسًا.

١٤ آرثر هِدْلام (١٨٦٢–١٩٤٧)، لاهوتي أَنكليكانيّ، كان أُسقف غلوسِسْتِر (مقاطعة كانتربُري، إِحدى مقاطعَتَي كنيسة إِنكلترا) من ١٩٢٣ إِلى ١٩٤٥. بين مؤَلَّفاتِه اللاهوتيةِ الكثيرةِ، كتابُه: «يسوع المسيح: حياته وتعاليمُه» (نيويورك ١٩٢٣).

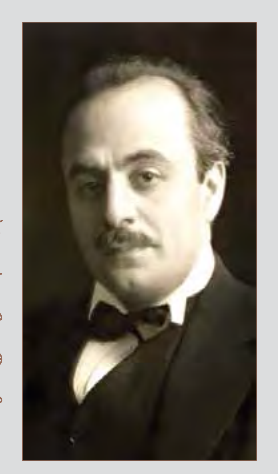
أَبدع جبران متقِنًا عمله بِقوّةٍ فريدةٍ، لوَعيه تمامًا أَحوالَ فلسطين وسورية وروما اجتماعيًّا وسياسيًّا ودينيًّا في تلك الحقبة، ونشْأَتِهِ في بيئَته على غنى التقاليد ومعناها، وعلى تاريخ بلاد يسوع ولغتِها. فالآرامية التي نطَق بها يسوع كانت لغةَ جبرانَ الأُخرى، وأَجواء اليهودية تسحر القارئَ، وهو يتنقَّل بين أَحداث تلك الأَيام وهاتيك البلاد، أَبعدَ مما تعبِّرُ له عنها الكلمات في الكتاب، فإِذا بذاك الشاب من الناصرة لم يظهر لنا، منذ كتابة الأَناجيل، كما ظهر للمرة الأُولى في كتاب جبران الذي كتَبَهُ مواطنٌ ليَسُوع ناقلًا كلماتِه وصنائعَه[٩].

كثيرون عبر العصور حاولوا أَن يكتبوا عن تلك المأْساة التي حدثَت قبل أَلفَي عام. وفي القرن الأَخير ظهرت أَدبياتٌ عن يسوع أَكثر مما ظهر في القرن الأَول بعد موته. ولا يزال كثيرون يكتبون عنها إِنما لا كما كتبها هذا الرجل على أَلْسِنة مَن عرفوا يَسُوع أَو عرفوا عنه: سبعون شخصًا، بينهم أَصدقاؤُه وأَعداؤُه، منهم الروماني واليوناني واليهودي والفارسي والبابلي والكاهن والشاعر والفرِّيسي، كلٌّ منهم يروي قصته الشخصية يتردَّد صوته في أَسماعنا. فجبران أَعاد توزيع أَقوالٍ وأَفعالٍ واردةٍ في الأَربعة الأَناجيل، وأَعاد سَردها بطريقته الخاصة، حتى أَنني سمعتُ غالبًا من يَسِمُ الكتاب «الإِنجيل بِحسَب جبران».

الناقدُ الأدبي في جريدة «مانشِسْتِر غارديان»[١٠] كتَب عرضًا للكتاب جاء فيه:

«القارئُ التائه في غابةٍ هائلةٍ من الكتب الصادرة عن الأَربعة الأَناجيل، يجد أَخيرًا متعةً حين يجد كتابًا ذا جمال خاص وتَـمَيُّز مغاير. هذا ما وجدتُه في كتاب خليل جبران: «يسوع ابن الإِنسان:كلماتُه وأَعماله كما رواها مَن عرفوه». وهو ليس سَردًا إِضافيًّا لسيرة يسوع يَصدر بعد رواج ما أَلِفْنا عنه في كُتُب رينان[١١] وفَرَّار[١٢] وسَانْدَاي[١٣] و هِدْلام[١٤] وآخرين. هو بالأَحرى نصٌّ إِبداعيٌّ تناولَهُ من نصوص الأَناجيل فكْرُ شاعرٍ كبيرٍ أَعاد نسْجها من دون أَن يتقيَّد بِحرفيَّتِها.

خليل جبران رأَى يسوع، ويُعين الآخَرين على أَن يَرَوه. وحتى الأَصواتُ العدائيةُ تجد مكانَها في السرد وتكشف القوى التي أَدَّت بيَسُوع إِلى موته. فهذا كاهن شابٌّ من كفرناحوم يدَّعي: «كان ساحرًا ضالًّا فَظًّا دنَّس كلمات أَنبيائنا ومقدَّساتِ أَجدادِنا...».



كان جبران يحرص شديدًا على قيافته وأَناقته
حين يخرج، بينما في المحترف يُمضي وقته مرتديًا
مريولَ الرسم النصفيَّ متنقِّلًا بين مَلْوَنه راسمًا،
وطاولته كاتبًا.
هذه الصورة نموذج من أَناقته.

15 قسيس پروتستانتي (١٨٧٩–١٩٦٤) كان راعي كنيسة المسيح الموحِّدة في نيويورك (١٩٠٧–١٩١٨)، ثم انفصل عنها لأَنه ناهض الحرب العالمية الأُولى وبشَّر بالسلام واللاعنف بين الشعوب. هذا المقطع هو من مقاله عن جبران في مجلة «الشرق الجديد».

على أَنَّ أَصدقاءَ له كانوا أَخلَص الناطقين بكلماته. هوذا الشاعر اليوناني رومانوس يقول: «كنتُ أَزعم أَنني شاعرٌ. لكنني لحظةَ وقفْتُ أَمامه في بيت عنيا عرفتُ ما معنى أَن أَحمل آلةً من وترٍ واحدٍ أَمام من يُسيطر على جميع الآلات». هوذا كتابٌ لمن يمكنهم أَن يقرأُوا ويفهموا ما يقرأُون».

وكتب جون هاينز هولْمْز[١٥] عن الكتاب مقالًا جاء فيه:

«أَقدَمَ خليل جبران على تجربة جريئة وفريدة... وإن كان لأَحدٍ أَن يحاولَ الإِقدام على هذه التجربة، فهو جبران... كأَنه معاصرٌ يَسُوعَ جلس في ساعةٍ متأَخرةٍ ليَكتب إِنجيلًا آخرَ مُغايرًا... فها هو الشاعر يجرُؤُ على مقارعةِ العهد الجديد مباشرةً، كما فعلَ في مَثَل الراعي الذي من جنوب لبنان. سمعتُ جبران يومًا يقرأُ هذا المَثَل ففكَّرتُ، وما زلت مقتنِعًا، بأَنه يعادل أَيًّا من الأَمثَال الواردة في الكتاب المقدس».

كان جبران، إِبَّان وضْعه هذا الكتابَ، يشعر أَنه معاصرٌ أُولئِكَ الذين روَوا ذكرياتهم عن الجليليّ الشاب. وفي ختام الكتاب، راحَ «رجلٌ من لبنان بعد تسعة عشرَ قرنًا» - بكلماتٍ مُصَفَّاةٍ سبعَ مرَّات - يتحدَّثُ عن ذاك الشاعرِ الشابِّ المُعَلِّم الذي عُلِّق على صليبٍ عند تلَّةِ الجُلجُلة خارجَ أَسوار أَورشليم، فيُخاطبُه:

يا سيّد
أَيُّها المُعلِّم المُنْشِد
يا سيِّدَ كلماتٍ لم يُنْطَقْ بها بَعد
سبعَ مرَّاتٍ ولدتُ، وسبعَ مرَّات متُّ
منذ زيارتِكَ العجلى ولقائِنا القصير.
فانظُرْ إِليّ:
ها أَنذا أَعيش في دورةِ حياةٍ جديدةٍ
متذكِّرًا كيف رفَعَنا فيضُكَ بين التلال
ذاتَ نهارٍ وليلة.
ومنذئذٍ
قطَعتُ فَلَواتٍ مديدة

١٦ مطلع الفصل الأَخير من الكتاب.

وعبَرتُ بِحَارًا بعيدة
وحيثما كنت أَمُرُّ، مُمتَطيًا أَو مُبْحرًا،
كان اسمُكَ حُجَّتي أَو صلاتي.
صادفتُ ناسًا يتباركون بكَ وآخرين يجدِّفون عليكَ
كان التجديفُ تعويضَ الفشل
والبَرَكةُ نشيدَ صيادٍ عائدٍ من التلال
حاملًا لقَرينَتِه بعضًا من زاد.[١٦]

أَمَّا تَذَكُّرُ «ذات نهارٍ وليلةٍ بين التلال» فلم يكن خَطْرةَ شِعرٍ بل ذكرى حيةً عاشها جبران حقيقةً كأَيَّةٍ من حكايات طفولته أَو ذكريات صباه.

OF THE FIRST EDITION OF SAND AND FOAM ONE HUNDRED COPIES HAVE BEEN PRINTED AS FOLLOWS: FIVE ON BORZOI RAG PAPER SIGNED BY THE AUTHOR AND NUMBERED FROM A TO E: NINETY-FIVE COPIES ON BORZOI RAG PAPER SIGNED BY THE AUTHOR AND NUMBERED FROM 1 TO 95

THIS IS NUMBER
39

Kahlil Gibran

الصفحة الداخلية من الطبعة الأُولى لـ«رمل وزبد»، وفيها أَن ١٠٠ نسخة منه مطبوعة هكذا: خمس نسَخ على ورق بُرْزُويْ مرقَّمة من A إلى E، عليها توقيع المؤلف، و٩٥ نسخة على ورق بُرْزُويْ مرقَّمة من ١ إلى ٩٥ عليها توقيع المؤلف.
ويظهر هنا توقيعه على النسخة رقم ٣٩.

١ صدر السبت ١٤ آذار ١٩٣١، والإثنين ١٦ آذار أَرسل النسخة المطبوعةَ الأُولى إِلى ماري هاسكل مع رسالةٍ إليها هي آخرَ ما كتبه لها. وكان الإثنين ٧ تموز ١٩٣٠ أَرسل إِليها مخطوطة النص كي تنظر فيها.

حين حلَّت ليلةُ العُمر الثاني عشر

«آلهةُ الأَرض» آخر أَثرٍ مطبوعٍ لجبران رآه إِبّان حياته في هذا العالم[1]. وصلَهُ قبل أُسبوعين من مغادرته جميعَ الآثار الأَرضية. حمَل هذا الكتيِّب الأَسود بين يديه مقلِّبًا صفحاتِه باستغراقٍ عميق، وبصوتٍ جهيرٍ غريبِ البُعد، كأَنه يقرأُ له وحدَه، راح يتلو منه في هدوءٍ:

سوف نعبُرُ الشفَق غُروبًا
وقد نُشرقُ فجرًا في عالم آخَر
لكنَّ الحب باقٍ فينا ولن تَـمَّحي لـمساتُ أَنامله.

الكُورُ الـمبارك متأَجِّج
شراراتُه تتصاعد، كلُّ شرارةٍ شمس
والأَفضلُ حكمةً
أَن نبحث عن ظلِّ من ركْنٍ ننام فيه بناسوتنا الأَرضي
ولْنَدَعِ الحبَّ البَشريَّ الشفيفَ يُسَيِّر يومَنا الجديدَ الآتي.

كان لجبران شعورٌ خاص بالحنوِّ على هذا الكتاب، مختلفٌ عن شعوره حَيال سائر كتبه. قال لي عنه يومًا: «... كُتِبَ بالنار في جحيم الشاعر، بمرحلَتَي المخاض فالولادة».

٢ تشيرُ إِلى ذلك رسالةُ ماري هاسكل إِليه الأَربعاء ٧ تموز ١٩١٥: «... وضع الله يدَه على وجهك. وفيما روحُكَ تنسَّمَت لمسة يده، أَدار وجهَكَ صوبه كي ترى وجهَه».

وهو كان، بين ١٩١٤ و١٩١٥، كتب في نيويورك نحو ثُلثَي هذا الكتاب «محاولًا تدرُّبي على التعبير مباشرةً بالإنكليزية»[٢]. وكلّما قرأْتُ هذا الكتابَ أَجزم، وأَنا مُدرِّسةُ اللغة الإنكليزية، أَنَّ هذا اللبناني حقَّق في كتابِه وكتابَتِه نجاحًا مجيدًا. وأَكثر: أَرى أَنَّ نصَّه من أَهمِّ النصوص في لُغَتنا.

وكما كتَب معظم «النبي» وتركَه لأَكثرَ من عشْر سنوات، هكذا، بعد أَكثرَ من سنةٍ على صدور «يسوع ابن الإنسان»، حدَّثَني يومًا عن فكرة «آلهة الأَرض» ببعض خفَر متسائلًا: «يجب أَن نُنجزَه ذات يوم، إِن كنا نرى جديرًا إِكمالَه». وكأَنه تركه ونسيَ ما كتب فيه، حتى قرأَ لي منه مطالعَ صفحاتٍ فبادرتُ فورًا إِلى حثِّه على إِكماله. تردَّد برهةً ثم سأَلني: «ولن تُعطيني فترةَ راحة؟» وابتسم، لأَن الراحة كلمةٌ مجانية عنده، فلو لم يكُن ليشتغل بنهَمٍ وضنى على «آلهة الأَرض» لكان اشتغل نهِمًا ومُضنًّى على كتابٍ آخر. كان يُدرك ذلك كما أُدركه.

بعدذاك، وباندفاعةٍ كأَنْ ما إِلّا أَمسِ كان يعمل على المخطوطة، بدأَ حركتَه المعتادة في المشي، وأَخذ يُملي عليَّ النص بادئًا بكلام الإِله الثاني:

... وأَيُّ معنى لأَن نولدَ ونُشرقَ ونذوبَ أَمام الشمس الحارقة؟
وماذا أَن نعيشَ، وأَن نراقب ليالي الحياة كما يراقبنا الجوزاء
وأَن نَجبَه الرياح الأَربع برأْس متوَّج مرفوع
ونشفي أَمراض الإِنسان بنَفَسٍ لا مَدَّ له ولا جَزْر؟
الخيَّام جالسٌ قاتمَ الروح أَمام نوله
الخزَّاف يُدير دولابه بدون نَفَس
بينما نحن، الصاحين العارفين،
تحرَّرنا من التقدير والقدَر
لا نرتاح ولا نتوقف برهةً للتفكير
ونبقى أَبعدَ من التسآل المتواصل.
فَلْنَقْنَع ولنخرجِ من الحُلم
ولْنَجْرِ كما الأَنهار إِلى البحر

37

First God

Let my soul be serene this night.
Perchance I may drowse, and drowsing
Behold a brighter world
And creatures more supple to my mind.

Third God

Now I rise and strip me of time and space.
And I will dance in that field untrodden,
And the dancer's feet will move with my feet;
And I will sing in that higher air,
And a human voice will throb within my voice.

We shall pass into the twilight, ~~perchance~~
Perchance to wake to the dawn of another world.
But love shall stay,
And his finger-marks shall not be erased.
The blessed forge burns,
The sparks rise, and each spark is a sun.
Better it is for us and wiser
To seek a mossy nook and sleep our earth divinity,
And let love, human and frail, command the coming day.

The End

الصفحة الأَخيرة من كتاب «آلهة الأَرض» كما نقلَتْهُ باربره يونغ إِلى آلتِها الكاتبة كي ترسله إِلى كنوف لصُدوره مطبوعًا.
وتبدو على الصفحة ملاحظات من جبران بالقلم الرصاص.

فلا تجرَحَنَّنا شعابُ الصخور
وحين نبلغ قلْب البحر ونغوص فيه
لن نعودَ نضيعُ في الجدال والتفكير في الآتي.

صعبٌ شَرحُ نسيجِه هذا الكتاب. وهو يبدأُ هكذا:

حين حلَّت ليلةُ العمر الثاني عشر
وابتلع التلالَ صمتٌ هو مـدُّ الليالي العالي
ظهر على قمم الجبال الثلاثةُ الآلهةُ
جبابرةُ الحياة المولودون على الأَرض.
الأَنهار هرعَت عند أَقدامهم
الضباب تهادى حول صدورهم
فتعالت رؤُوسُهم جليلةً فوق العالم.
ثم نطقوا
فتردَّدَ فوق السُهول صوتُهم رعدًا يقصف في البعيد.

هؤُلاء هم آلهةُ الأَرض الثلاثة: الأَول أَتعبَتْه أَعمار متتاليةٌ من الحُكْم، الثاني ما زال راغبًا في الحكْم، والثالث، وهو أَصغرُهم، توَّاقٌ اكتشفَ الحُبَّ في الأَرض فوجدَ رغبةً به وطموحًا إِليه أَجدرَ من حُكْم أَيِّ كوكب. لم يكن الأَوَّلان عابِئَين بكلام أَخيهما الأَصغر، بل موغلَين في الانقياد إِلى رغباتهما والانصياع إِلى منطقهما.

قوَّةُ مفهومهم وحججهم أَضفَت على النص ميزتَه الـملحمية التي بها عرَض الشاعر مفهومَه للرجل المُثَلَّث الذي يتجاوز ذاته إِلى حالةٍ من الأُلوهة. وكانت تلكَ مهمَّة جريئةً في تَحدِّيها. إِنها أَنتَ وأَنتِ وأَنا عند أَعلى نقطة من التفاهم، إِنما أَيضًا عند كل نقطة من كياننا الصامت في حقيقته غير المكتَشَفَةِ بَعد.

إِيمانُ جبران بمستقبل الحياة على الأَرض، تختصرُه تلك الأَسطر الأَخيرة التي قرأَها لي جهارًا حين وصلَه الكتاب مطبوعًا، وهي تبدأُ بـ«سوف نعبُرُ شفَق الغروب» وتنتهي بلَمعةٍ عُظمى هي قمةُ حلمه البعيد: «ولْنَدَعِ الحبَّ البشَريَّ الشفيفَ يُسيِّـر يومنا الجديد الآتي».

٣ كان قبلًا سمَّاه «الدرويش» ثم غَيَّر اسمه إلى «التائه»، كما قالت شقيقتُه مريانا لحبيب مسعود مضيفةً أنه أَنْـجزَه وهو في عذاب قاسٍ من الآلام («جبران حيًّا وميتًا»، الطبعة الأُولى، ساو پاولو – البرازيل ١٩٣٢، الطبعة الثانية، بيروت، دار الريحاني ١٩٦٦، ص ٢٢).

٤ بل هي تحديدًا ٥٢ أُقصوصة قصيرة جدًّا، أُولاها «التائه» وأَخيرتُها «التائه الآخَر».

٥ هو الذي ورَد ذكْره في الفصل العاشر من هذا الكتاب.

٦ كاهنٌ وأَديبٌ ولُغويٌّ (١٨٦٥–١٩٤٩). درَّسَ جبران العربيةَ في «الحكمة». ولتدريسه إِياها قصةٌ طريفةٌ منذ لقائهما في تشرين الأَول ١٨٩٨، رواها مارون عبُّود («الحدَّاد وجبران» في كتابه «جُدد وقدماء») بناءً على سؤَالٍ وجَّهَهُ إِلى ابن عمته الخوري الحداد حول ذكرياته عن تلميذه جبران، فأَجاب الحَّداد برسالةٍ إِلى ابن خاله مارون عبود في ٩ آذار ١٩٣٦. ورواها الياس أَبو شبكة في مقاله «جبران في مدرسة الحكمة» («مجلة المكشوف» – ١٩٣٨) كما حدَّثه بها الخوري الحداد.

من هنا أَنَّ «آلهة الأَرض» كتابٌ صوفيٌّ للمتصوِّفين، شِعريٌّ للشعراء، وأُفْقُ أَحلامٍ وسيعٌ للحالمين. وصادفتُ من وَجدوهُ كتابَ قوةٍ وغَرابةٍ مع أَنهم يدَّعون الواقعية ولا يؤْمنون بما هو صوفيٌّ وغامض.

ذات يوم طلبَ مني طفلٌ في السابعة أَن أَقرأَ منه مقطعًا، فاستعادني قراءَةَ المقطع ربما لتأَثُّره بموسيقى الكلمات وبجماليائيَّةٍ في إِيقاعه غير مأْلوفة.

يوم وصلَت إِلى المؤَلف نسخٌ مطبوعةٌ من الكتاب الجديد، كانت على طاولته مخطوطةٌ كاملةٌ جاهزةٌ لكتاب حِكَمٍ عنوانه «التائه»[٣]، كان آخِر ما دوَّنه الشاعر بخطِّه. وهو كتيِّب أَصغرُ من سابقَيه، إِنما لا عبارةَ دوَّنها في حياته إِلَّا خارجة من قلبه مطرَّزةً بالنصاعة والجمال.

عن هذا الكتاب، كتب كلود بْراغْدُن: «قوَّتُه فائضةٌ من ينبوعٍ كبيرٍ لحياةٍ روحية، وإِلَّا لَمَا جاء هكذا كونيًا خصيبًا، بفرادته الشخصية التي بها نسَج جمالَ لغته وجلالها».

وكما المصطفى في «النبي»، كذلك في هذا الكتاب شخصٌ رئيسٌ لا اسمَ له سوى «التائه»، قال فيه جبران:

التقيتُه عند تقاطع طرقٍ مدَّثِرًا بعباءَة، مُتَّكئًا على عصا، مقنَّعًا بِمِسحة حزن. تبادلْنا التحية، وأَردفتُ: «تعالَ ضيفًا إِلى بيتي» فجاء. وروى لنا قصصًا ليلتئذٍ وغداتَها. وما أَسرُدُه هنا وليدُ مرارةٍ في أَيامه، وبقيَّةُ غبار من صبره ومسرته.

في الكتاب خمسون أُقصوصةً أَو أَكثر[٤]، كلٌّ منها منسوج بِخيوطٍ شرقيةِ التفكير والتعبير. لا نَفَس غربيًّا فيها. كأَنّ الشاعر، مع مَيَلان حياته إِلى الغروب، سكنَت كيانَه مناخاتُ بلاده الأُم كما أَفكارُه وأَحاديثُه الأَخيرة. لذا كان يكرِّر لي حديثَه عن طفولته وصباه، وعن أُمِّه والخوري يوسف[٥]، وعن كاهنٍ آخَرَ قال لي عنه إِنه «الوحيد الذي علَّمني ما أَفادني»: الخوري يوسف الحدَّاد[٦] في مدرسة «الحكمة»، معهد «الحكمة» حاليًّا في بيروت.



من تخطيطات جبران الزخرفية لكُتُبه لدى كنوف

في «التائه» عودةٌ إلى السخرية التي عاينّاها في «المجنون»: امتشق الشاعر سوطًا رفيع الحبال مجدولَها وانهال به ضربًا. ففي أَكثر أُقصوصات الكتاب لذعةٌ تنهال على وجه سخافات العالم وعماه. هذا كتابٌ لا يستطيبه مَن يَطلبُ التشجيع من روحٍ هادئةٍ بل مَن يطلب الدفاع عن حالات القلق والضَيَاع.

من ذلك، أُقصوصةُ «البَدر»:

طلع البَدر بهيًّا فوق المدينة، فتلقَّاهُ كلابُها بالنُباح، إلَّا واحدًا صرخ بهم غاضبًا: «لا توقظوا السكون من غَفْوته، ولا تسحَبوا القمر إلى الأَرض بنُباحكُم». سكَتَ الكلابُ عن النُبَاح وساد سكون، إلَّا الكلب الذي أَسكتَ رفاقه ظلَّ يَنبحُ مقلقًا سكونَ تلك الليلة.

١ كان جبران، صباحَ الجمعة ٣ نيسان ١٩٣١ (الجمعة العظيمة قبل الفصح الغربي، أَي قبل أُسبوعٍ تمامًا من وفاته) أَنجز مائياتٍ ثلاثًا هيَّأَها لتَصدر في «التائه»، هي «الفرح والحزن»، «الراقصة»، و«التوق إلى الأَبدية». والأَخيرة كانت آخَر ما رسَمَتْ ريشتُه: روحُ امرأَةٍ في جسدٍ أَثيريٍّ، محاطةٍ بثمانية أَشخاص ذوي أَجسادٍ حِسِّيَّة.

٢ بعد أَسابيع ثلاثة على وفاته أَرسلَت ماري هاسكل إلى باربره يونغ النسخةَ المنقَّحة من «التائه» مع رسالةٍ (الجمعة ٨ أَيار ١٩٣١) أَوضحت فيها: «لا تفاجئَنَّكِ التعديلاتُ في النص، فهكذا أَجريتُها عليه مع خليل وبِرِضاه، كي يبدو إِنكليزيَّ السياق فلا يكون خليل كتَبَه كأَجنبيّ. المخطوطةُ باتت الآن جاهزةً للذهاب إلى الناشر كنوف». غير أَنَّ باربره رفضَت جميعَ تعديلات ماري وأَعادَت إِليها المخطوطة الأَصلية مع رسالةٍ قاسية (الثلثاء ١٩ أَيار ١٩٣١) للإِصرار على أَنْ «هكذا يجب أَن تصدر الكلماتُ المبارَكَة كما كتبَها جبران». فأَجابتْها ماري برسالة جوابية (الجمعة ٢٩ أَيار١٩٣١) موافِقةً على صدور المخطوطة لدى كنوف «كما كتبَها جبران».

٣ فعلًا، في مطلع الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب ص ١٦٥، كتبَت باربره: «... فجأَةً، ومن دون مقدِّمات، عشية ١٢ تشرين الثاني ١٩٢٦، سطعَتْ لحظةٌ ستبقى حيَّةً في ذاكرتي ما بقيَت في ذاكرتي حياة: كان جبران يَذرع في الغرفة بلا توقُّف، متحدِّثًا بتقَطُّعٍ عن كتاب «حديقة النبي» وكان يتهيَّأُ له تفكيرًا وتصميمًا...».

يا تَعْسَها أُمَّةً...

صدر «التائه» سنة ١٩٣٢[١]، بعد عام على وفاة جبران[٢]. وسنة ١٩٣٣ صدر «حديقة النبي» الكتابُ الذي ظلَّ الشاعر ينسجه حتى النهار الأَخير قبل مغادرته هذه الأَرض[٣].

وكان جبران صمَّم لكتابَين يُكملان ثلاثية «النبي»، ثالثُها «موت النبي» الذي، أَسفًا، لم يكتُب منه حرفًا. حدَّثني عنه غالبًا قائلًا: «سنكتب فيه كذا وكذا»، إنما لم يكتُب منه سوى سطرٍ واحدٍ عن نهاية المصطفى المأْساوية: «... **سوف يعود إلى مدينة أُورفليس... وفي ساحتها يرجمه أَهلها حتى الموت فيعطي اسمًا مبارَكًا كلَّ حجر**». كان ينوي لهذا الكتاب أَن يكون عن العلاقة بين الإِنسان والله، كما كان «النبي» عن العلاقة بين الإِنسان والإِنسان، و«حديقة النبي» عن العلاقة بين الإِنسان والطبيعة.

كان جبران يقول عن «حديقة النبي» إنه «على الطريق». وهو كان بالفعل أَنجزَ معظم نصوصه دون تصميمِه سياقَها وبدون الخيوط التي ينسجُ بها حَبْك جواهر أَفكاره. لذلك تردَّدتُ بكثيرِ حذرٍ، وتهيبتُ بعالي المسؤُولية أَن أَتولى وضْعَ ذاك السياق وحياكةَ هذه الخيوط. وبقيْتُ ردحًا طويلًا لا أَجرؤُ على ذلك فأُقْدِمُ على هذا العمل، إِلى أَن تراءَى لي في وضوحٍ أَنَّه امتيازٌ أُعطاهُ بقدْرِما هو ضروريٌّ، وربما واجبٌ لا مفرَّ لي من الإِقدام عليه ذاتَ نهارٍ أَو ليلة، إِلى أَن سكنني إِلحاحٌ



VOL. XIII NO. 1420 — PART II. — ١٤٢٠

SUBSCRIPTION
In the United States, Colonies and Mexico
PER ANNUM $5
In Canada & Foreign Countries $6
Entered as Second class matter at The N. Y. Post Office.
NAJEEB M. DIAB,
Proprietor and Editor
93 Washington Street
New York City
U. S. A.
Telephone Call: 1334 Rector.
"Cable Address" NAJEEB, New York

مرآة الغرب
MERAAT-UL-GHARB
"MIRROR OF THE WEST"
Published Three Times a Week

New York Wednesday September 13, 1911 — ١٣ أيلول سنة ١٩١١

العبودية

جميع البضائع
معوشي اخوان
Moshy Bros.
NEW YORK

GEORGE KASSAB & Co.
New York City

السجاد تركي وعجمي
NADRA J. GEHA

Greek & Syrian Grocery & Liquor Co.
NEW YORK CITY

روث بنك
ROTH'S BANK & SAVINGS CO.
506 Grant Street, Pittsburg, Pa.

العدد ١٤٢٠ من جريدة «مرآة الغرب» – الأَربعاء ١٣ أَيلول ١٩١١، وفي صدر الصفحة الأُولى صورة جبران وتحتها «رسم جبران أَفندي جبران النابغة السوري اللبناني»، ومقاله «العُبودية».

وهذا النص أَدرجه جبران لاحقًا في كتابه «العواصف» – القاهرة ١٩٢٠ (وهو النص الثاني في الكتاب بعد «حفار القُبور»).

غريبٌ، ضاغطٌ وغامضٌ، أَيقظني فجأَةً من نومٍ عميقٍ ذاتَ ليلةٍ مُسائِلَني بوضوح: «متى ستبدَإِين»؟

حين صممتُ أَخيرًا على المباشرة بتنسيق الكتاب في صياغته النهائية، لم أُلاقِ أَيَّ صعوبةٍ أَو تَرَدُّد. فالإِطار الذي رسمه جبران بكلماتِه المتوهِّجة جعلَني أُحسُّ كأَنه هنا ويُمليه عليّ. وهكذا انتهى الكتاب. واستعدْتُ في بالي ما كنتُ أَظنُّني نسيتُه عن مشاهدَ شاءَها ترِدُ في «حديقة النبي»، منها عن تسعة رجالٍ معه في حديقة أُمه، تَذَكَّرتُهم فجأَةً لكنني نسيتُ مَن يكونون. ثم، في سياق طبيعي تمامًا، كما لو ان إِحدى قصائدي تراءَت لي، انجلَت الرؤْيا: إِنهم بحارة ثلاثةٌ من سفينته، وثلاثةٌ كانوا خدَموا في الهيكل، وثلاثةٌ من أَتراب طفولته.

هؤُلاء كانوا رفاقَه المُلازمين، وأَخذ نسيجُ الكتاب يَنْحَبِكُ قطعةً قطعةً حتى ارتأَيْتُهُ اكتمَل. وأَخذ أُولئِكَ التسعةُ أَدوارهم في قصة المصطفى و«كريمة»، آخِرِ أَجزاء الصورة الكاملة التي كوَّنَت المشهد النهائي. وشكَّل تَتَلْمُذُهُم على المصطفى حافزًا لمخاطبتِهِ إِيَّاهم:

... وذات صباحٍ تحلَّقَ تلامذتُه حوله. كانت في عينيه خيالاتُ أَبعادٍ وتَذكَارات، فبادره التلميذ الذي اسمُه حافظ :

- يا معلّم، حَدِّثْنا عن مدينة أُورفليس، تلك الواحةِ التي أَمضيتَ فيها سنواتِكَ الاثْنتي عشْرة.

صمَتَ المصطفى برهة، وبصراعٍ خفيٍّ في صمتِهِ تطلَّع صوب التلال إِلى الأَثير الوسيع، ثم قال :

- أَصدقائي ويا رفاقَ الطريق،

* تَعْسَ أُمَّةٍ مليئةٍ بالـمَذاهب فارغةٍ من الدِين
* تَعْسَ أُمَّةٍ تلبَس ثوبًا لم تنسجه، وتأْكل خبزًا لم تَحصُدْ قمحَه، وتَحتسي خمرةً ليس من معاصرها
* تَعْسَ أُمَّةٍ تعلنُ الـمتسلِّطَ بطلًا وترى إِلى الغازي المبهرَج جوَّادًا
* تَعْسَ أُمَّةٍ تستخف بالانفعال في حلمها وتستسلم إِليه في يقظتها

٤ مضمونُ هذه المقطوعة كان وَرَدَ بالعربية في مقاطع من جواب جبران عن استفتاءٍ طرحَتْه مجلةُ «الهلال» (القاهرة)، وصَدَّرَتْهُ هكذا: «نقتصر في هذا العدد على رَدّ جبران خليل جبران أَديب المهجر الكبير، وهو الردُّ السابعُ من الرُدود التي نشرناها». وكان الاستفتاء من ثلاثة أَسئلة، الأَوَّل: «هل تعتقدون أَنَّ نهضة الأَقطار العربية قائمةٌ على أَساس وطيد يضمن لها البقاء؟ أَم هي فَوَرانٌ وقتيٌّ لا يلبث أَن يخمد»؟ والسؤَال الثاني: «هل تعتقدون بإِمكان تضامُن هذه الأَقطار وتآلُفها؟ ومتى؟ وبأَيِّ العوامل؟ وما شأْنُ اللغة في ذلك»؟ والسؤَال الثالث: «هل لأَهل الأَقطار العربية اقتباسُ عناصر المدنية الغربية؟ بأَيِّ قَدْر؟ وعند أَيِّ حدٍّ يجب أَن يقف هذا الاقتباس»؟ وأَجاب جبران عن هذه الأَسئلة الثلاثة في نص طويل نشرتْه «الهلال» في عدد شباط ١٩٢٣.

* تَعْسَ أُمَّةٍ... لا ترفع صوتها إلا وهي سائرةٌ في جنازة،
ولا تتباهى إلَّا وهي بين الخراب،
ولا تثور إلَّا وعنقُها بين النَطْع والسيف
* تَعْسَ أُمَّةٍ قائدُها مُتَثَعلِبٌ، وفيلسوفُها مشعْوِذٌ، وفنُّها ترقيعٌ وتقليد
* تَعْسَ أُمَّةٍ تستقبل حاكمَها الجديد بالنفير، وتشيِّعه بالصفير، لتستقبل الحاكم الجديد بنفيرٍ جديد
* تَعْسَ أُمَّةٍ أَخرسَت حكماءَها السنواتُ، وما زال أَبطالها مقمَّطِين
* تَعْسَ أُمَّةٍ تتجزَّأُ فِرَقًا وكلُّ فرقةٍ تدَّعي أَنها أُمَّة[4].

هذه الأَقوال الخصيبة كان جبران يسميها «التَعَاسات التِسْع»، وكان يتلفَّظ بها في حدَّة هامسة. مع أَن ميزة هذا الكتاب لطفٌ كثيرٌ وحُنوٌّ سماويٌّ كبعض ما ورد في «النبي» وسمَّاه جبران «أَلَمًا يفيض حنانًا»، لعله طيفٌ مُسبَقٌ للفراق بين هذه الأَرض الخضراء والشاعر الذي كان أَحد أَكبر عشاق هذا الكوكب.

مرةً قال لي:

– كيف يمكننا تصوُّرُ سماءٍ أَجملَ من كلِّ هذا الحَولَنا هنا على هذه الأَرض الفريدة التي هي جوهرُ حلْم الله الأَوسع؟

وقال مرةً أُخرى:

– كلُّ ما يطلع من هذه الأَرض القاتمة: الجذورُ، الأَشجارُ، الأَغصانُ، ... كلُّ برعُم، كلُّ غصن، كلُّ ثَمَرة، كلُّ عشْبة، ... جميعُهُم أَولادي الأَحبَّة.

وواضحٌ في «حديقة النبي» حُبُّه قطرةَ الندى والثلجَ المنهمِل والحجرَ المَنسيَّ على الدرب وعنه قال: «**أَنت وهذا الحجر واحِد. لا فرق بينكما إلَّا في دَقَّات القلب. قلبُك ينبض أَسرع قليلًا، لكنَّه ليس بهُدوء قلب الحجر**». ذلك أنْ كان في قلبه حبٌّ كثيرٌ لـ«**البساتين والكروم**» لـ«**السواقي التوَّاقة إلى النهر في الوادي**»، ولـ«**أَشجار الآس والغار**».

ذات مساءٍ قال المصطفى لرفاقه التسعة وللمرأَة «كريمة»: «**ضروريٌّ أَن نفترقَ اليوم**». وفجأَةً، بعد كلماتٍ وَدَّاعيَّةٍ وجيزة، «**خرج المصطفى من حديقة أُمِّه**

٥ في سيرة جبران – وباربره يونغ جزءٌ أَساسيٌّ منها – شكَّل هذا الكتابُ جدَلًا رئيسًا في مآخذَ عليها أن تكونَ أَضافت من كتابتها مقاطعَ أَو نُصوصًا دبَّجتْها بأُسلوب جبران وضمَّتها إلى نصوص الكتاب. وعزَّز بعضَ الشَّك فقدانُ مخطوطتِه الأَصلية التي ذهبَت إلى الناشر كنوف. ففي حزيران ١٩٣٢ كتبَت ماري هاسكل إلى باربره تسأَلها أَن تُرسل لها (إلى بيتها في ساڤانا–جورجيا) مخطوطَتَي «حديقة النبي» و«التائه» مع أَغراضٍ في المحترف هي ملْكُها الشخصي. حين وصلت الشاحنةُ الحاملةُ الأَغراض لاحظَت ماري أَنْ ليس بينها المخطوطتان. طالبتْها بهما مُجدَّدًا فأَجابتْها باربره (في رسالة الأَربعاء ٢٠ تموز ١٩٣٢) أَنهما، عند وفاة جبران، كانتا عندَها هي لا في المحترف، وأَردفَت: «**كان غالبًا يقول لي: خُذي هذه الأَوراقَ واحفظيها لي فأَطمَئِنَّ أَنها آمنةٌ لديكِ»... ومخطوطة «التائه» أَنتِ قلتِ لي أَن أُتلِفَها فلَم أَفعل. لكنني عدتُ أَتلفتُها حين صدَر الكتاب مطبوعًا. على أَيٍّ حال لن أَحفظَ عندي ما ليس لي من أَيٍّ بين أَعمال جبران الموجودة في المحترف**». ولاحقًا، حين أَنجزَت باربره العمل على «حديقة النبي» وأَصدره كنوف سنة ١٩٣٤، كتبَت ماري إلى مريانا شقيقة جبران رسالةً (الإثنين ١٨ حزيران ١٩٣٤) جاء فيها: «**أَمامي النسخة المطبوعة من «حديقة النبي». إني سعيدةٌ أَن تكون باربره عملَت عليه ليَصدُر، ووجدتُ أَن عمَلها عليه كان مُـحِبًّا وممتازًا. إن كنتِ تعرفين عنوانَها أَرسليه إلَيّ**».

بِـخُطى رشيقةٍ حافية، وبلمحة عجلى نأَى عنهم كورقةٍ قذفَتْها ريح، فما عادوا يرونَ إِلَّا نورًا ضئيلًا يَصَّاعدُ صوب الأَعالي».

عندها تذكَّروا كلمات وداعه: «**أَنا ذاهبٌ، إِنما إِن ذهبتُ ولم أَنطق بالحقيقة ستبحث هي عني وتجدني ولو مفتَّتَ العناصر في سكون الأَبدية، فأَعودُ إِليكم وأُخاطبكم بصوتٍ جديد يوُلَدُ من قلب ذاك السكون الوسيع. فالله يتأَلم إِذا احتجَب عن الإِنسان وظلَّت كلمته الإِلهيةُ مكمومةً عند هوَّةٍ سحيقةٍ في قلب البشر**».

كنتُ أَسمع أَحيانًا عن «الكتابة المُوحى بها» ولم أَكُن آبَه لهذا الكلام، وأُبرِّرُ للشعراء مصدرًا يخاطبون منه العالم. لكنَّ الذي بدا لي، وما زلت أُؤْمن به، أَنَّ جميع صفحات «حديقة النبي» جاءت مباشرةً من وعيٍ واضحٍ مطَّلع فإِذا هي، كما كان جبران حدَّد الشعر، «الكلماتُ الصحيحة حيثُما لا يَصُحُّ إِلَّاها».

هكذا أَنْجَزْتُ الكتاب[٥].

وسادَ روحي سلامٌ ليقيني أَنْ كان جبران باركَ صياغتي كتابَه وساندَني حتى إِنجازِه.


Barbara Young

HER BOOK

The Keys of Heaven

This is the first volume of verse by Barbara Young, whose work is recognized by critics as of unusual beauty and power. As one authority expresses it "her poetry contains the sweetness of the violin, the lute, the harpsichord." Miss Young has been a contributor to "The New York Times" for five years, and averaging one poem a week for the past three years; to "Scribner's," "Good Housekeeping," "The Common Weal," "The Sun," "The Herald," and others.

THE MUSICAL COURIER says: "Barbara Young's verse has created unusual interest by reason of its rare beauty. Such work as she is doing should be welcomed by everyone who believes in beauty as the basis of artistic utterance."

F. C. MORTIMER (for forty years New York Times editor): "Almost every day and from all parts of the country we receive letters inquiring about the poems of Barbara Young, and whether any book of hers is available."

الطبعة الأُولى (أَول كانون الثاني ١٩٢٧) من أَول مجموعة شعرية لباربره يونغ: «مفاتيح الجنَّة».

١ يقصد هنا كتابه «النبي» ذا الغلاف الأَسود.

٢ استعملت باربره هنا كلمة جهنم بلفظها العربي Jahannum ولم تستخدمْها بالإِنكليزية Hell، كما رغبةً منها في استعادة اللفظة من فم جبران، لشدّة وفائها له وانبهارها بكلماته العربية.

... بل أَنا ذاتي مشكلة

في السنوات الأَخيرة من حياة جبران، كان أَحيانًا يتلقَّى ضغوطًا للعودة إِلى لبنان. كان مواطنوه هناك يرَون إِليه قائدًا شعبَهُ إِن هو يرضى بقبول هذه المهمّة. وكان يتأَثَّر برغبتهم أَن يكون بينهم، لكنه مقتنعٌ بأَن عودته إِلى لبنان ستكون غلطةً كبرى. قال لي مرةً:

– قد أَكون قادرًا على مساعدة مواطنيَّ هناك، ويمكنني أَن أَقودهم، لكنهم لن ينصاعوا. صحيحٌ أَنهم، في قلقهم واضطراب أَفكارهم، يبحثون عن حل لمشكلاتهم لكنني لستُ أَنا هذا الحل. أَنا ذاتي مشكلة. لو ذهبتُ إِلى لبنان حاملًا الكتيِّب الأَسْوَد[1] وقلتُ لهم: «تعالوا كي نعيش في هذا النور» لانطفأَت فورًا حماستُهم حِيالي. أَنا لستُ رجلَ سياسةٍ ولا أُريد أَن أَكون. لذا لن أُشبعَ لديهم تلك الرغبة.

ذات يومٍ تلقَّى من مسؤُولٍ كبيرٍ رسالةً حادَّةً غاضبةً يتَّهمه فيها بأَنه يعيش في الغرب حياة سائغةً مترَفَة وبأَنه يضلِّل شعبه. أَجابه برقيًّا في إِحدى أَشد لحظاته غضبًا رائعًا: «إِذهب إِلى جهنَّم»[2]، ومن يومها لم يعُد يَذكُر قط ذاك الموضوع. مع ذلك، وبعد بضعة أَشهرٍ، جاءَه وفدٌ مصغَّـرٌ عبَرَ ستةَ آلاف ميل في المحيط الأَطلسي، ليسأَلَ مغفرة «الحبيب» عما جرى.

فوراتُ غضَب جبران، على نُدرتها، كانت عنيفةً. لم يكن يستفزُّهُ إِلَّا الظُّلم أَو الجُبْن. من ذلك أَنَّ زائرًا دخل عليه يومًا في المحترف من دون موعدٍ عارضًا عليه

٣ نحو ١٦٣ سنتم.

مشاركتَه في صفقة تجارية. أَصغى إِليه جبران من دون مقاطعة، لكنَّ وجهَه كان يتلبَّدُ غضبًا حتى إذا توقَّف الرجل عن الكلام استدار جبران فجأَةً وسحبَ عن طاولته دليلَ الهاتف الضخمَ، فتراجع الرجل مذعورًا لكنَّ جبران فتَح الكتاب بين يديه وببرهةٍ شَقَّه قطعتَين ورماه ممزَّقًا على الأَرض، صارخًا:

– مزّقتُ الكتاب عوضَ أَن أُحَطِّمَكَ قِطَعًا. أُخْرُج فورًا.

كان جبران معروفًا بِقوَّةٍ في يديه خارقةٍ أُسطورية. قال لي يومًا:

– قبل أَن أُصافح يدَ صديقٍ أَتجنَّبُ الضغط عليها كي لا أُؤْلِمَه.

وكان ذلك صحيحًا، فغالبًا ما كنتُ أُلاحظ زُوّارًا بَدينين ينقبِضون شاحبي الوجه لدى مصافحته إِياهم.

كان يُربِكه أَنه قصير القامة[٣] ويُغيظُه أَلَّا يكونَ أَطْوَل. لكن قوَّة عضلاته وصلابةَ جسده كانتا أُسطوريَّتَين. مع ذلك لم يكن يتعمَّد إِظهارهما للآخَرين بل كان يرغب صادقًا في أَن يبدو عاديًّا مثْلهم. في سنواته الأَخيرة، حين لم يعُد قادرًا على تَلافي إِطراء البعض، كان يقول: «لولا تلك الأَقوالُ لما استفاق بي وعيٌ كان حتَّئِذٍ مبقيًا إِياي في الضباب».

كان طيلة حياته غير واعٍ عيونَ الناس وآذانَهم. ولا تدويناتٍ تكشف رغبةً في تسجيل ما يَعمل أَو ما تلقَّى في شبابه من مدائح. ولا تفسير في معاييرنا العلْمية لِما في عالَمه الذهني من عمقٍ واتِّساع. فهو قادرٌ، لا بذكاء فقط بل بمهارة، على التحدُّث في أَيِّ موضوع، وعلى بسْط مداركه المعرفية الخاصة بما لا يتجاوزُها حتى اختصاصيون في ميدانهم. كان فعليًّا يعيش حياته في عالم الروح، ولعلَّ وعيه الروحي هو الْكان يولِّدُ ذاك التأْثير الساطع الذي يرافقه حيثُما يكون. فعند دخوله أَيَّ مكانٍ «يحوم فيه جَوٌّ أَثيريٌّ» كما وصفه يومًا أَحدُهم، وفي نحو عشر دقائق يُـؤْخذ بكلماته الحاضرون. كان قلبُهُ طيرًا كبيرًا يسمعُ أَيٌّ حوله خفقَ جناحَيه. وفيما شفتَاه تبتسمان كان في عينيه حزنٌ وِسْعَ العالَم.

ولا عجب، فغرفتُه العالية الهادئةُ البسيطةُ في قلب المدينة الكبرى كانت يوميًّا طيلة سنواتٍ مَحطَّةَ حجيج أَخيرةً. ونادرًا ما كان معروفًا – لأَن جبران لم يشأْهُ أَن

تأثَّر جبران عميقًا بالمآسي التي حلَّت بلبنان إبَّان الحرب العالمية الأُولى. وزاد من تأثُّره ما كان يبلغ الصحفَ من أخبار المجاعة التي سبَّبت آلاف الضحايا، ما دعا أَبناء الجالية إلى تشكيل لجانِ إعانةٍ تعمل على إرسال المساعدات المالية والعينية إلى الأَرض الأُم.

من تلك اللجان: «لجنة إعانة المنكوبين في سوريا ولبنان». اجتمع أَركانُها وانتخبوا نجيب كسباني رئيسًا، وأَمين الريحاني وشكري رحيِّم نائبَي الرئيس، وجبران كاتم أَسرار («أَمين السر» بتسميتنا اليوم). وبهذه الصفة كتَبَ جبران رسائل عدة يستحثُّ فيها أَبناء الجالية على التبرُّع والمساعدة.

من تلك الرسائل، هذه المنشورة أَعلاه (٢٨ تموز ١٩١٦) ويبدو أَنَّ أَحدًا صاغَها بخطه (فهذا ليس خط جبران) ثم ختَمَها باسم جبران وصِفَته ولو بدون توقيعه.

في تلك الفترة الصعبة صرف جبران الكثير من وقته في الاهتمام بشؤُون أَهالي الوطن في الحرب، وكتب مقالاتٍ توعويةً في هذا الموضوع الجارح (منها مثلًا مقطوعته «مات أَهلي»). وفي الغالب أَن ذاك الانصراف هو الذي عطَّل نشاط «الرابطة القلمية» في صيغتها الأُولى سنة ١٩١٦ (وكان أَمين الريحاني كذلك من أَركانها) لتعود إلى الحياة لاحقًا بعد ٤ سنوات.

على مقلب الرسالة، مسوَّدةُ ردٍّ عليها بالقلم الرصاص

٤ يبدو أَنها تعرفهُنَّ فلم تذكُر أَسماءَهُنَّ احترامًا لِمَشيئَتِه ولو بعد غيابِه.

يُعرف – كم كان يقصده على مدار الساعات والأَيام توَّاقون متعَبون لائذون. وغالبًا ما كان أَوهى منهم لكنه لم يكن يردُّ أَحدًا بل يلمس الجراح بأَنامل حكْمته وحنانه، ناطقًا بكلمة الحقيقة البسيطة فتخفُّ آلامهم. هكذا كان للكثيرين طبيبًا مداويًا.

من قلب ضَناه إِرهاقًا كان يبادرني:

– محبتُهم وأَحزانهم تمتصُّ دمي فأَجنح إِلى امتشاق عصايَ ومعطفي والخروج إِلى صومعة بعيدة. لكنني أَعجَزُ من أَفكِّر في ذلك.

هكذا كان جبران ضحيةَ رفْضِهِ كلَّ ما يَـحرُم إِنسانًا كسْرةَ خبزٍ أَو جُرعةَ ماء. كانت روحه جبارةً في جسدٍ واهنٍ حتى الضنى. وإِلى ترديده لي «أَنا مصابٌ بداء العمَل» كان أَيضًا مصابًا بداء السخاء ونُكران الذات.

كان يُغيظُه الخبث، ويُسامحُ أَيَّ سلوكٍ آخَرَ خاطئٍ أَو أَرعن، مبرَّرٍ أَو غبيٍّ، ويقول عن الفاعلين: «هوذا سلوكُهم. فَلْيَكُن». أَما الخبثاء فينفجر في وجهِهم، خصوصًا لدى ذِكْرِهم أَسماءَ نساءٍ ثلاث[٤]. وفريدًا كان تَلَقِّيه رأْيَ النساء فيه. كثيراتٌ أَحبَبْنَه بحنانٍ وتَفَانٍ نابِعَين من عرفانٍ واحترام، حبًّا مجرَّدًا لم يَطَّلِبْ منه أَيَّ مبادلة. لكنَّ نساءً أُخرياتٍ عَشِقْنَهُ حتى قال فيهنّ:

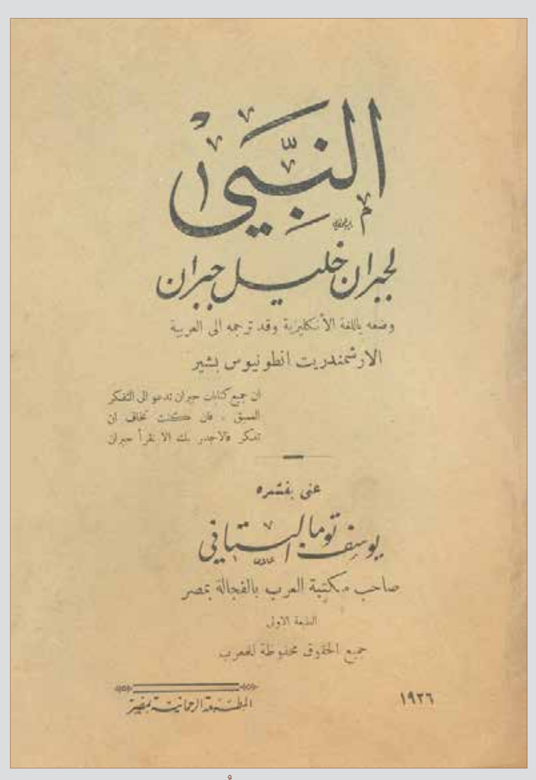
– أَنا مَدينٌ لِحُبِّهِنَّ وحنانِهنَّ، إِنما يَرَيْن إِليَّ أَفضل مما أَنا. يُحْبِبْنَ الشاعر والرسام ويرغَبْنَ في امتلاكِ بعضٍ منه، لكنَّهُنَّ لا يرينَ ذاتي العميقةَ ولا يَعرفْنَها أَو يُحْبِبْنَها.

عصرَ نهارٍ في المحترف، بعدما قرأَ للحضورِ فصل الزواج من «النبي»، كان بينهم نساءٌ ثلاثٌ سأَلتْه إِحداهُنَّ ببسمةٍ غامزة:

– قُل لنا لمَ لَم تتزوَّج؟

وبغَمْز البسمة ذاته أَجاب:

– لو كنتُ متزوِّجًا، وأَكون منهمكًا في رسْمٍ أَو كتابة قصيدة، لكنتُ سأُغفِل وجودَ امرأَتي أَيَّامًا متتالية. وحتمًا تعرفين أَنَّ أَيَّ امرأَةٍ، مهما تكُن مُحِبَّةٍ زوجَها، لن تحتملَه طويلًا بهذا السلوك.



النبي
لجبران خليل جبران
وضعه باللغة الانكليزية وقد ترجمه الى العربية
الارشمندريت انطونيوس بشير
ان جميع كتابات جبران تدعو الى التفكر
العميق . فان كنت تخاف ان
تفكر فالاجدر بك الا تقرأ جبران
عني بنشره
يوسف توما البستاني
صاحب مكتبة العرب بالفجالة بمصر
الطبعة الاولى
جميع الحقوق محفوظة للمعرب
١٩٢٦
المطبعة الرحمانية بمصر

الغلاف الداخلي للطبعة العربية الأُولى من «النبي». ونقرأ:
النبي لجبران خليل جبران
وضعه باللغة الإنكليزية، وقد ترجمهُ إلى العربية
الأَرشمندريت أَنطونيوس بشير عُنيَ بنشره يوسف توما البستاني
صاحب مكتبة العرب بالفجالة بمصر
الطبعة الأُولى ١٩٢٦
جميع الحقوق محفوظة للمعرب
المطبعة الرحمانية بمصر
وفي صدر الصفحة هذه العبارة:
«إِن جميع كتابات جبران تدعو إِلى التفكُّر العميق. فإِن كنت تخاف أَن تفكِّر فالأَجدر بك أَلّا تقرأَ جبران» (وهذه العبارة واردة في المقدمة التي كتبها الأَرشمندريت لهذه الطبعة العربية).

وإِذ لم يُقْنِعها فضُولها بالجواب، أَردفَت بغمزٍ أَعمق:

- ولكنْ... أَلم تعشَقْ ولا امرأَة؟

تغيَّر وجهُه بلمحَة برقٍ، فنهضَ وأَجاب وقاحةَ ضيفتِه بصوتٍ غاضبٍ إِنما بأَعصابٍ مشدودة:

- إِسمعي ما قد لا تَعرفين: أَكثرُ الرجال رهافةً جنسيةً، منذ بدْء التكوين على هذا الكوكب، هم المبدعون: شِعرًا، نحتًا، رسمًا، موسيقًى. حياتهم الجنسية هبةٌ عذْبة رائعةٌ يتمتَّعون بها إِنما في حميميةٍ حَيِيَّة.

ثم استدار وجعل يمشي في أَرجاء الغرفة حتى وقفَ، الْتَفَتَ بنِظرةِ إِشفاقٍ على السائلة الجاهلة وأَضاف:

- عدا صغارِ الحصى في مجرى النهر، وحبَّات الرمل على شواطئِ البحار الكبرى، لا أَعرف في هذا العالم ما ليس في تكوينه انشدادٌ جنسيٌّ، فهل أَنت تعرفين؟

بعد مغادرة النساءِ الثلاث عاد يمشي مَحنيَّ الرأْس متجاوزًا ما جرى، ثم قال عبارةً بالعربية لم أَحتملْ أَن يفوتَني منها صدى صمته، فبادرتُه:

- ماذا قلتَ، خليل؟

تفرّس بي كما مُفَاجَأً أَني ما زلت معَه، فارتسَم شغفٌ طفولي على وجهه وفي صوته وقال:

- من أَسرار الحب: الصمت.

بُعَيْدَ وفاته، إِبّان لقاءٍ حول ذكراه، كان بين الحضور كاتبٌ أَميركيٌّ معروف، قال في مداخلَته:

- لا أَعرف أَيًّا من فصول حياته العاطفية.

طبعًا، وكيف له أَن يعرف؟ ذو الجلالة لا يعرض حميمياتِ معبدِه ولا يُناقش فيها. رغبةُ جبران لم تكن أَن يتزوَّج بل أَن يعيش حياتَه بكل جمالِها وأَلَمها. ومَن عرفَ غِنى شخصيته وعمقَ ذاته يدرك أَنه عاش فعلًا حياتَه كما ارتَسمَها: لم يرشف

٥ واضحٌ من هذا المقطع أَنَّ باربره يونغ تقصد، تحديدًا، ماري هاسكل، لأَنها طيلة معايشتها السنواتِ الستَّ الأَخيرةَ مع جبران، لم تعرف منه أَو عنه أَيَّ علاقةٍ نسائية. وحين اجتمعَت بماري هاسكل في المحترف، بعد ثلاثة أَيامٍ على وفاة جبران، واكتشفَت ماري رسائلَها إِليه محفوظةً في صندوقةٍ خاصة، فوجئَت بها باربره وأَدركَت عندها عُمق العلاقة الحميمة بين جبران وماري. وحين وضعَت باربره كتابَها هذا (١٩٤٥) كانت مُطْمَئِنّةً تظُنُّ أَنَّ الرسائل ستبقى لدى ماري في ساڤانا ولن تنكشفَ علانية. لذا استساغت اتِّهامَ ماري بادِّعائِها العلاقةَ مع جبران وإِمكانَ إِعلانها بعد وفاته فأَلْمحَتْ إِلى أَنَّها هي (باربره) «المرأَة/العزاء» التي بها «استجابت له نعمةُ الله». وعلى هذه القناعة تُوفِيَّت سنة ١٩٦١ ولم تَدْرِ أَنَّ ماري، قبل وفاتها (سنة ١٩٦٤) بسنواتٍ عدَّة، أَهدَت مجموعَ الرسائل إِلى مكتبة جامعة نورث كارولاينا في تشاپِّـل هِلّْ. وبقيَت المجموعة هناك: ٦١٥ رسالة (٣٢٥ من جبران إِلى ماري، و٢٩٠ من ماري إِلى جبران) و٤٧ دفترًا هي يوميات ماري ومذكِّراتها، حتى لَبَّت الباحثة ڤرجينيا حلُو ورثةَ عائلة فلورنس ماينِس (زوج ماري)، واطَّلَعَت عليها مقتَطِفَةً منها أَجزاءً حقَّقَتْها وصدَرَت لدى منشورات كنوف (نيويورك ١٩٧٢) بعنوان «النبي الحبيب – رسائل الحب بين خليل جبران وماري هاسكل، ومقتطفات من مذكِّراتها اليومية». وصدَرَت بالعربية (ترجمة الأَب لوران فارس – مراجعة يوسف حوراني) لدى منشورات «الأَهلية للنشر والتوزيع» (بيروت ١٩٧٤).

عازبٌ مثله كأْسَ المُر والعسَل حتى آخر نقطة، ولا عاشقٌ كبيرٌ مثله تحدَّث عن تلك الكأْس بعد رَشْفها. ولم يكن يرضى أَن يُشْرِكَ أَحدًا معه في مذاقِ تلك الكأْس.

كان جبران منذ صباهُ فائقَ التهذيب حتى أَن نساءً كثيراتٍ برعنَ في استغلال تلك الصفة المَلَكية. كانت في عروقه كلُّ عادةٍ لطيفةٍ من بلاده، تَسري بغناها فيَدفُق منها بسخاءٍ للخُلَّص من أَصدقائه. قد يقرأُ كثيرون أَسْطُري هذه فيدركون بقلوبهم كم تعجز الكلمات في التعبير عن كلِّ ذلك.

من حكمةُ الاحتراز من امرأَةٍ تَبرز فجأَةً وتدَّعي أَن رجُلًا أَحبَّها في حياتها، خصوصًا إِذا كان تُوُفِّي. ولكنْ: مَن لا يتضرَّعون علانيةً «يا رَبّ... يا رَبّ» بل ينفِّذُون بصمتٍ وصاياه، أَفلا تكون أَيديهم فعلًا تخدمه، وقلوبهم تُدرك هالتَه الكثيرة؟ أَنا لا أَشُكُّ بأَنَّ جبران، خلال سنواته العاصفة، كان توَّاقًا إِلى المرأَة/العَزاء، وكان حتمًا يُناديها بصرخةٍ كونيةٍ طالعةٍ من آخِ شعورِه بالوحدة الراعبة، حتى استجابت له نعمةُ الله. وفي نكران ذلك غباءٌ وسخافة[5].

فلنتذَكَّرْ أَنَّ الرجل العظيم، بعد وفاته، يُصبحُ فريسةَ مَن كان، في لحظةٍ من ظلال لحظات صداقته النقية، مدَّ لهنَّ يدَه الكريمة، فتدَّعي الواحدةُ منهنَّ علاقةً حميمةً به لا وجودَ لها إِلَّا في رغباتها. عن هؤُلاء كان جبران سيقول: «فَلْنَدَعْهُنَّ يعِشْن ذلك في أَحلامهنَّ».

تحدَّث جبران كثيرًا عما كان يُسميه «الكيمياء الروحية لدى اللقاء في الأَثير» ويعني بها القرينةَ الروحيةَ للاتحاد الجسدي. ذات يومٍ قال لي:

– في حميمية الصداقة بين رجلٍ وامرأَةٍ لحظاتٌ روحيةٌ مشتركةٌ عميقةٌ تمنحُهُماها الحياةُ فيولدُ منهما كيانٌ جديدٌ كما من حَمْلٍ فولادة. ولهذا الكيان الحيّ قوةٌ غيرُ مرئيةٍ قابلةٌ بدورها للحياة فالإِنجاب. وبذلك يكونان أَنشَدَا للحياة أُغنيةً خالدةً من قصيدةٍ لا تموت. لذا، في كون الله كيانٌ بيننا معًا لن يموت، لأَننا صديقان.

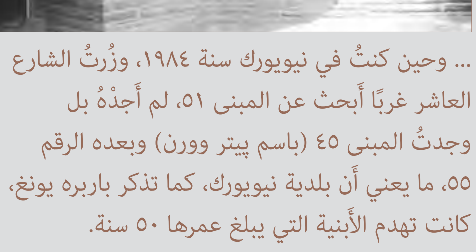


رسمان لجبران من مجموعة باربره

غالبًا إِبَّان ساعاته الإبداعية كان يتوقَّف عن المشي، ويبادرني بنَفَس هامس: «أُحِسُّ هَمْسَ حياةٍ جديدًا». يحدُثُ ذلك بعدما يكون تلفَّظ بحقيقةٍ ذاتِ قوَّةٍ وجمالٍ حتى ليرتعش في صدره قلبُهُ لِإحساسه أَنَّه أَشركَ أَحدًا بارتعاشته.

هذه هي «الكيمياء الروحية»، هذا هو «اللقاء في الأَثير»، عبْر علاقةٍ مُمْكنة الحصول لا يحدُّها وصفٌ ولا مقياس.





... وحين كنتُ في نيويورك سنة ١٩٨٤، وزُرتُ الشارع العاشر غربًا أبحث عن المبنى ٥١، لم أَجدْهُ بل وجدتُ المبنى ٤٥ (باسم پيتر وورن) وبعده الرقم ٥٥، ما يعني أَن بلدية نيويورك، كما تذكر باربره يونغ، كانت تهدم الأَبنية التي يبلغ عمرها ٥٠ سنة.



المبنى ٥١ كما كان حين سكنه جبران...

١ وهذا بالضبْط ما حصل للبناية ذاتها التي فيها محترفُه. فهي كانت من أَجمل بنايات المدينة. عُرِفَتْ بـ«مُحترفات الشارع العاشر» (العقار ٥١ غربي الشارع العاشر بين الجادَّتين الخامسة والسادسة في قلب مانهاتن). اشترى أَرضَها رجُل المال والأَعمال المصرفي النيويوركي جيمس بورمان جونستون (١٨٢٢–١٨٨٧) وأَوكَلَ تصميمَها إِلى شهير عصره المهندس المعماري ريتشارد موريس هانْطْ (١٨٢٧–١٨٩٥). تمَّ تدشينها سنة ١٨٥٧ كـ«أَول بناية مصمَّمة خصِّيصًا لتناسب الرسامين بقُبَبِها العليا التي تتسرَّب منها أَشعة الشمس (متوازيةً) إِلى جميع الغُرَف الخمس والعشرين في الطبقات الثلاث». ولأَنها كذلك اشتُهرت كـ«مركز نيويورك العالَميّ للفنون في القرن التاسع عشر»، وفيها جعل هانْطْ من محترفه أَول مدرسة للهندسة المعمارية في الولايات المتحدة. وسرعان ما تهافت إِليها كبارُ الرسامين مستأْجِرين محترفاتها (بين ٢٨ و٥٦ مترًا مربَّعًا)، ما جعلها واحة الفنون في حي غرينتش، يرسم فيها الفنانون ويعرضون أَعمالهم ويبيعونها. سنة ١٨٧٩ حوَّلها مالكُها إِلى شقيقه جون تايلُر جونستون الذي أَصبح لاحقًا أَول رئيس على «متحف نيويورك للفنون». سنة ١٩٢٠ اتفق المستأْجِرون (وجبران منهم) على شراء محترفاتهم لقاءَ حصص في المبنى، فاشترى جبران محترفه لقاء أَربعين سهمًا (كما ورَدَ في وصيَّته الأَخيرة التي فُتِحَتْ بعد وفاته). سنة ١٩٥٦ هدمَت بلدية نيويورك المبنى (كما كان جبران توقَّعَ)، وقام مكانه «مبنى پيتر وُورْنِ» للشقق المفروشة (العقار ٤٥ غربي الشارع العاشر). سنة ٢٠١٠ اشترَت الطبقةَ العليا منه الممثلة الأَميركية السينمائية جوليا روبرتس.

ناشطٌ مُمتلئٌ قوةً نابضة

كان جبران يكنُّ اهتمامًا بالحياة في تلك المدينة التي اختار سُكناها، ويجد فيها ارتياحًا كبيرًا. كان يرى إليها، كما قلائلُ فقط رأَوا، بالمقارنة مع الحضارات القديمة. من هنا أَسَفُهُ على السرعة في حلول الآلات لدى كلِّ فرعٍ من المصانع، وعلى التخلِّي عن الأَشغال اليدوية القديمة. كان بين أَصدقائِه حِرَفيَّان عَجوزان يتحدث إِليهما ساعاتٍ طويلةً عن الروائع المشغولة يدويًّا عبر العصور، وما زالت تُنتَج يدويًّا في الشرق الأَدنى وأُوروبا. وكانوا يُجْمِعُون أَن حِرَفياتٍ ثمينةً تضيع بتَعامُل العمَّال حاليًّا مع آلاتٍ ينتشر عمَلُها متشابهًا كالوباء في هذه البلاد. من هنا قوله مرة: «إِحدى أَجمل عباراتٍ نكاد نفتقدها: **شغْلٌ يدوي**».

كان له شغَف خاص بالحفر في الخشب، وترك عددًا قليلًا من الوجوه المحفورة تتوازى قيمتها التقْنية والتعبيرية مع رسومه على الورق. حين يُتْعِبُهُ أَيُّ عملٍ، ويُرهقه التفكير، كان يحفر في الخشب «لأُريح ذاتي من ذاتي ومن أَيٍّ سِوى».

وكان يستنكر التطرُّف المجنون في فن العمارة الحديث: عُلُوَّ أَبنيةٍ، وغيابَ جمالٍ ونِسَبٍ، وكلْفةَ بناءٍ ضخمةً، وينزعج من هدْم أَبنيةٍ ذاتِ هندسة معمارية جذابة ما سوى لأَنها بلَغَت الخمسين من السنوات أَو أَكثر[١].

وإِذ يُخاطبُني كأَميركية...

٢ توماس جِفِرْسُن (١٧٤٣–١٨٢٦)، من الآباء المؤَسسين، ثالث رئيس جمهورية على الولايات المتحدة (١٨٠١ – ١٨٠٩). واضعُ «إعلان الاستقلال» (٤ تموز ١٧٧٦، اليوم الذي بات «عيد أَميركا الوطني»).

٣ بنيامين فرنكْلِن (١٧٠٦–١٧٩٠) من الآباء المؤَسسين، كاتب وصحافي ودپـلوماسي، أَول سفير لبلاده إلى فرنسا (١٧٧٩–١٧٨٥).

٤ رالف والْدو إِمِرسُن (١٨٠٣–١٨٨٢) كاتب وشاعر أَميركي من قادة الحركة الأَدبية في القرن التاسع عشر.

٥ والْتْ وِتْمَن (١٨١٩–١٨٩٢) شاعر أَميركي بالغُ التأْثير على جيلٍ من شعراء أَميركا الشباب انتهجوا خطَّه الشعري في الحداثة.

٦ أَبرَهام لنْكُولْن (١٨٠٩–١٨٦٥) الرئيس السادس عشر على الولايات المتحدة (١٨٦١ حتى اغتياله في ١٤ نيسان ١٨٦٥) إبان الحرب الأَهلية. اشتُهر بـإِلغائه العبودية.

٧ لَفَتَني أَنَّ هذه العبارة وردَت حرفيًّا في رسالةٍ من جبران إِلى ماري هاسكل (الخميس ٨ كانون الأَوّل ١٩٢١). أَيكون جبران عاد فقالها أَيضًا لباربره يونغ؟ أَم ادّعَت باربره أَنَّ جبران قالها لها فأَثبَتَتْها هنا بعدما اطَّلعَت على صفحاتٍ من رسائلَ أَرسلَتها إِليها ماري (خريف ١٩٣١) بناءً على طلب باربره لتهيئة كتيِّبها الأَول عن جبران (تشرين الثاني ١٩٣١)؟

- أَنتم كالأَطفال النَكِدين: تصنعون أَلعابكم، تتلهَّون بها فترةً، ثم تحطِّمونها ولو انها لا تزال جميلة. كيف تحلمون بمحاكاة الشرق وأُوروپا في عظمتهما وجمالهما الساطع؟ الأَبنيةُ هنالك شادتْها الأَيدي والقلوب، ولهذا هي باقية.

... كان لديه إِيمانٌ كبيرٌ بما ستبلغُه بلادنا من تَمامٍ وعظمة:

- ما زلتم في مطلع الصبا، سكارى بإِنجازاتكم، مصابين بمرض الـ«أَسرع» والـ«أَكبر»، تائِهين عن دروبٍ سلَكَها كبارُكم الصالحون. لكنَّ هذه الولايات المتحدة يحرسها ملاكٌ جليلٌ عنيدٌ يعمل على جعلكم تتخلَّون عن كلمتَين: الذكاء والإِعلان، فلَهُما رائحةٌ نتنة في شَمِّ الملائكة والآلهة. وتذَكَّري هذا المسار: ستعود هذه البلاد من جديدٍ إِلى المسالك التي اختَّطها كبارُكُم المبارَكون: جِفِرسُن[٢] وفرنكْلِن[٣] وإِمرسُن[٤] ووِتْمَن[٥] وأَبرَهام لنْكُولْن[٦].

وفي يوم آخر قال، كذلك بقلب كسير وإِيمانٍ بالبلاد التي اختارَها سُكناه:

- قد يكونُ العالم حديقةً سماويةً معلَّقَة، زهورُها أَعراقٌ وحضاراتٌ، تَبزُغُ فيها بتلاتٌ وتتناثرُ أُخرى، هنا واحدةٌ ذاويةٌ، حدَّها جذعٌ عارٍ يُذكِّرنا بأَنه كان يحمل برعمَ زهرةٍ حمراءَ جميلة. قد تكون أَميركا اليوم أَجمةَ وردٍ يتهيَّأُ للتفتُّح فيها بُرعمٌ ما زال بعدُ أَخضرَ طريًّا من دون أَرج لكنه ناشطٌ مُمتلئٌ قُوَّةً نابضة.

قد تكون «برعمٌ ناشطٌ مُمتلئٌ قوةً نابضة» من أَصدق عبارات جبران، هو الذي، في حياته القصيرة، أَثبَت أَنَّ ما كان «يتهيَّأُ للتفَتُّح» تَفَتَّحَ وانتشَر عطْرُه.

ذات يوم قال لي:

- كم أَتمنى أَن أَرى مدينةً عصريةً حديثةً بدون أَنوار في شوارعها. ولكان الحيُّ الأسفل من مانهاتن بهيًّا، ومَهيبًا كأَهرام مصر، لو كان مُضاءً بأَنوار النجوم والقمر الفضي دون أَيِّ نورٍ آخر. ما أَوسع الفُتْحةَ بين إِضاءةٍ طالعةٍ من الأَرض ونورٍ منهمِلٍ من الفضاء[٧].

كان جبران مختارًا من الله في نظَر مواطنيه الشبَّان المولودين في الغرب لأَهلٍ جاؤُوا من أَرضهم الأُم. كانوا يقصدونه مثْقَلين بِحِيرتهم فيتلقَّى قلقَهم باستيعابٍ واسعٍ ولُطْفٍ إِلهي يجعلانهم مُمتَنِّين له بكل وفاء.

GIBRAN'S MESSAGE TO YOUNG AMERICANS OF SYRIAN ORIGIN

I believe in you, and I believe in your destiny. I believe that you are contributors to this new civilization. I believe that you have inherited from your forefathers an ancient dream, a song, a prophecy, which you can proudly lay as a gift of gratitude upon the lap of America. I believe you can say to the founders of this great nation, "Here I am, a youth, a young tree, whose roots were plucked from the hills of Lebanon, yet I am deeply rooted here, and I would be fruitful." And I believe that you can say to Abraham Lincoln, the blessed, "Jesus of Nazareth touched your lips when you spoke, and guided your hand when you wrote; and I shall uphold all that you have said and all that you have written." I believe that you can say to Emerson and Whitman and James, "In my veins runs the blood of the poets and wise men of old, and it is my desire to come to you and receive, but I shall not come with empty hands." I believe that even as your fathers came to this land to produce riches, you were born here to produce riches by intelligence, by labor. And I believe it is in you to be a good citizen. What is it to be a good citizen? It is to acknowledge the other person's rights before asserting your own, but always to be conscious of your own. It is to be free in thought and deed, but it is also to know that your freedom is subject to the other person's freedom. It is to create the useful and the beautiful with your own hands, and to admire what others have created in love and with faith. It is to produce wealth by labor and only by labor, and to spend less than you have produced that your children may not be dependent on the state for support when you are no more. It is to stand before the towers of New York, Washington, Chicago and San Francisco saying in your heart, "I am the descendant of a people that builded Damascus, and Biblus, and Tyre and Sidon, and Antioch, and now I am here to build with you, and with a will." It is to be proud of being an American, but it is also to be proud that your fathers and mothers came from a land upon which God laid His gracious hand and raised His messengers. Young Americans of Syrian origin, I believe in you.

مقطوعة جبران «إلى الأَميركيين الشباب من أَصل سوريّ» على الآلة الكاتبة كما طبعتْها باربره يونغ لتُرسلها إلى مجلة «العالم السوري».

٨ هنري جيمس (١٨٤٣–١٩١٦) كاتب أَميركي ذو تأْثيرٍ على المرحلة الوُسطى بين الأَدب الواقعي وموجة الحداثة الجديدة في عصره.

كان لديه إِيمانٌ ثابتٌ بأَنَّ قوةً من إِرث العالم العربي ما زالت نابضةً في حياة السُوريين الجدد وأَفكارهم. ولَهُم كتَبَ رسالةً «إِلى الأَميركيين الشباب من أَصلٍ سوريّ» صالحةً أَن يتأَمَّلَ فيها الأَميركيُّون الشباب من أَيٍّ جذور كانوا.

وهنا رسالة جبران:

أُؤْمِنُ بكم، وأُؤْمِنُ بِقَدَرِكُم.

أُؤْمِنُ بإِسهاماتكُم في هذه الحضارة الجديدة.

أُؤْمِنُ بأَنكم ورِثْتُم عن أَسلافكُم حُلمًا قديمًا، أُغنيةً، نُبُوءَةً، وجئْتُم تُلْقونها باعتزازٍ بادرةَ امتنانٍ في حضن أَميركا.

أُؤْمِنُ بإِمكان واحدِكُم مخاطبةَ مؤَسسي هذه الأُمة: «ها أَنذا شجرةٌ ناشئَةٌ فتيَّةٌ، جُذورُها مشتولةٌ في تلال لبنان، لكنها انشَتَلَت هنا وسوف تُثْمِر».

أُؤْمِنُ بأَن يقولَ واحدكُم للمُكَرَّس أَبرَهام لنْكُولْن: «حين تكلَّمْتَ كان يلْمِس شفتَيكَ يسوعُ الناصريّ وحين كتبتَ كان يَهدي يَدَكَ، وسوف أَتَّبِعُ كلَّ ما قُلتَه وكتَبْتَه».

أُؤْمِنُ بأَنْ يقولَ واحدكُم لِإمِرسُن وَوِتْمَن وجيمس[٨]: «في عروقي يَسري دمُ أَعرق الشعراء والحكماء، ورغبتي أَن أَجيءَ فأَتلقّى منكُم إِنَّما لن آتِـي ويدايَ فارغتان».

أُؤْمِنُ بأَنْ مثلما آباؤُكم جاؤُوا هذه الأَرضَ وحقَّقوا الغنى، أَنتُم وُلِدتُم هنا لتحقِّقوا الغنى بذكائكم وعملكم.

أُؤْمِنُ بِنيَّـتِكُم أَن تكونوا مواطنين صالحين.

ومَن يكون مواطنًا صالحًا؟

إِنه:

مَن يعي حقوقَه إِنما لا يفْرضها على السوى قبل اعترافه بحقوق هذا السوى.

مَن يكونُ حرًّا بكلمته وعمله، إِنَّما واعيًا ارتباطَ حريته بِحُرِّيَّة السوى.

مَن يُطلِعُ بيديه الجميلَ المفيدَ ويقدِّرُ ما أَطْلَع السوى بإِيمانه من جميلٍ مفيد.

مَن يجتني من عمله وما إِلّا من عمله، ويصرفُ أَقلَّ مما يَجتني فلا يتَّكل أَولادُه بعدَه على إِعالة الدولة.

مَن يقف أَمام أَبراج نيويورك وواشنطن، وشيكاغو وسان فرنسيسكو، مخاطبًا إِيَّاها في صمته: «أَنا سليلُ شعبٍ بنى دمشق وبيبلوس وصور وصيدا وأَنطاكية، وها أَنا هنا عازمٌ على أَن أَبني معكُم».

4 THE SYRIAN WORLD

To Young Americans of Syrian Origin

By G. K. Gibran.

I believe in you, and I believe in your destiny.

I believe that you are contributors to this new civilization.

I believe that you have inherited from your forefathers an ancient dream, a song, a prophecy, which you can proudly lay as a gift of gratitude upon the laps of America.

I believe you can say to the founders of this great nation, "Here I am, a youth, a young tree whose roots were plucked from the hills of Lebanon, yet I am deeply rooted here, and I would be fruitful."

And I believe that you can say to Abraham Lincoln, the blessed, "Jesus of Nazareth touched your lips when you spoke, and guided your hand when you wrote; and I shall uphold all that you have said and all that you have written."

I believe that you can say to Emerson and Whitman and James, "In my veins runs the blood of the poets and wise men of old, and it is in my desire to come to you and receive, but I shall not come with empty hands."

I believe that even as your fathers came to this land to produce riches, you were born here to produce riches by intelligence, by labor.

And I believe that it is in you to be good citizens.

And what is it to be a good citizen?

It is to acknowledge the other person's rights before asserting your own, but always to be conscious of your own.

It is to be free in thought and deed, but it is also to know that your freedom is subject to the other person's freedom.

It is to create the useful and the beautiful with your own hands, and to admire what others have created in love and with faith.

It is to produce wealth by labor and *only* by labor, and to spend less than you have produced that your children may not be dependent on the state for support when you are no more.

JULY, 1926. 5

It is to stand before the towers of New York, Washington, Chicago and San Francisco saying in your heart, "I am the descendant of a people that builded Damascus, and Biblus, and Tyre and Sidon, and Antioch, and now I am here to build with you, and with a will."

It is to be proud of being an American, but it is also to be proud that your fathers and mothers came from a land upon which God laid His gracious hand and raised His messengers.

Young Americans of Syrian origin, I believe in you.

مقطوعة جبران «إِلى الأَميركيين الشباب من أَصل سوري» كما صدرت على الصفحتين ٤ و٥ من مجلة «العالم السوري» – عددها الأَول – تموز ١٩٢٦.

٩ صدَرَت هذه المقطوعة في أَوَّلِ عددٍ للسنة الأُولى (تموز ١٩٢٦) من مجلة «العالم السوريّ» على الصفحتين ٤ و٥ مباشَرَةً بعد افتتاحية ناشرها سلُّوم مكرزل الذي أَوردَ نبذةً عن جبران استغرقَت كامل النصف الأَسفل (٢٠ سطرًا) من الصفحة ٥٦، وامتدحَت عطاءاته، كتابةً ورسمًا، خاتمةً بأَنَّ «مقطوعته الجديدة في مجلتنا تَعكس اهتمامَه وإِيمانَه بأَجيالنا الجديدة في أَميركا». إِنما اللافت أَنَّ جبران كان قبل سبعِ سنواتٍ نشَر هذه المقطوعة في مجلة «فتاة بوسطن» (عدد تشرين الأَول/تشرين الثاني ١٩١٩).

مَن يفخَرُ بأنه أَميركي إِنما يفخَرُ أَيضًا بأَنَّ أَهلَه جاؤُوا من أَرضٍ بسط اللهُ عليها يدَه النُعْمى ومنها نَشَرَ رسُلَه.

هو هذا إِيماني بكُم، أَيها الأَميركيون الشباب من أَصلٍ سوري[٩].

كان جليًّا أَنَّ ذاك الشاب، بما كان وما قُدِّرَ له لاحقًا أَن يكون، عانى بـمرارةٍ من قهر شعبه تحت النير التركي، فانتفض ضدَّه بغضبٍ. وما عاشهُ في سنواتِه الاثنَتَي عشرةَ الأُولى ظَهَر أَثرُهُ في «الأَرواح المتمرِّدة» التي كتَبها حين عاد إِلى بيروت.

كان يلذُّ له أَن يقارن بين ما عاينَه الجيل الجديد من السوريين في بلادهم هناك، وما جاؤُوا يعيشونه في أَميركا. وكان يتوقَّع الكثير ممّا يتوسَّم في عزمهم وأَصالتهم وذكائهم.

كثيرون من أُولئِك السوريين واللبنانيين كانوا ذوي وسَامةٍ وعيونٍ عميقَةِ السواد على هدوءٍ، للتأَمُّل بها خارج الوصف. فهم يتحدثون بإِنكليزيةٍ ممتازة، بعضُهم يتكلَّمها بشاعرية مصقولةٍ من أَرضه الأُم. وجميعُهم موهوبُون في أَكثرَ من وُجهة.

مرةً قال لي جبران: «بينكُم، أَنتم الأَميركيين، مَن يظُنُّ أَنْ ما جئْنا من سورية إِلى هذه البلاد إِلَّا كي نبيع الليمون والموز، أَو البُسُط والنحاس». غير أَنني، فيما أَكتب هذه الأَسطر، أَعرف أَنَّ آلافًا من مواطنيه بارعون في الفنون والعلوم والمهن على وسْع بلادنا، منهم أَساتذةٌ لامعون في الجامعات، وأَطبَّاء بارعون، ومؤَلِّفون موسيقيون مبدعون، وشعراء وصحافيون ومحاضرون، ورجالُ مالٍ وأَعمالٍ وديبلوماسيون ومحامون. وبات لدينا منهم اليوم ضبَّاطٌ في جيشنا ووحداتنا البَـحْرية وسلاحنا الجوي، وكثيرون في طليعةِ مَن هُم «أَميركيون شبابٌ من أُصول سورية»، وكلٌّ منهم «ناشطٌ مُمتلِئٌ قوةً نابضة».

جميعُهم، في أَيِّ مكانٍ من بلادنا، يعرفون «جبران خليل جبران» -كما يسمُّونه في بلاده-. في المدن يعرفونه، ويعرفونه في المطاعم السورية اللذيذة المآكل المُحضَّرَةِ بفنٍّ راقٍ والمقدَّمةِ بذَوقٍ رهيف. لم أَدخُل مرةً مطعمًا منها إِلَّا وسمعتُ اسمه يتردَّد، وأَحيانًا يسأَلُني منهم: «أَلَسْتِ صديقة جبران»؟ ويروحون، على اسمه، يتولَّون خدمتي بحفاوةٍ مميزة. وحين أَتناول العشاء في أَحد هذه المطاعم، أَتذكَّر



لوحة غير منتهية يرجّح الباحثون أَن تكون للسيدة فردريكا هاسكل (١٩١٢).

كيف كان جبران يقول لي مبتَسمًا بثقة: «أَنتِ لبنانية»، إِذ لم أَذُق في أَيٍّ مطعمٍ من أَيِّ بلدٍ وجبةً أَطيَب من المآكل السورية. وجبران كان متقشِّفَ الطعام بسيطَهُ، يستَذْوِقُ منه «الخبزَ الأَسمر والزيتونَ المعتَّق والجبنةَ السورية والنبيذَ الأَبيض». وهي وجبةٌ في ذاتها مكتملةُ الغذاء. وفيما يتناولُها كان غالبًا يحلو له أَن ينسُج حكايةً جميلةً وينبِّهني: «لا لتكتُبيها بل لأُشْرِكَكِ بها فقط». وفعلًا لم أَكُن أُدَوِّنُها لكنني اليوم أَتمنى لو كنتُ دوَّنْتُ ملامحَ منها في ذاكرتي.

من تلكَ، حكايةٌ عن غابة بلورية بدأَها هكذا: «تعَالي نَتِيْه»، وترَك خيالَه الغنيَّ يسيح، متحدِّثًا عن أَغصانٍ متوهِّجةٍ وأَجمةٍ كثيفةٍ تلتمِع بِحُبَيْبَاتٍ لؤْلُؤِيةٍ جليديةٍ تجمَّدَت على الأَغصان، عن أَشجارٍ تتعانق مُشَكِّلَةً أَقواسًا عاليةً في أَروقةٍ طويلةٍ ذاتِ سجَّادةٍ بهيجةٍ من أَمواج الثلج المتجعِّدة، عن كوخٍ بلوريٍّ نوافذُه متجمِّدةٌ بِخَيالات مُخرَّمة «إِنما لا يمكُننا أَن نرى من خلالها»، وعن كاتدرائية «لا تستطيعين أَن تَرَيها إِلَّا ببصَرِكِ الداخلي. لا يمكنني أَن أَصِفَها لَكِ: جمالُها ليس من هذا العالم».

وهذه حكايةٌ أُخرى، عن كهفٍ بين صخورٍ على طرفِ غابة بعيدة. هناك يَطيب له أَن يتيه ساهِمًا: «ها هو الثلج ينهمل». في أَرض الكهف فِراشٌ من أَغصانِ بَلسمٍ وشربينٍ متكوِّمةٍ على الأَرض، وفي زاويته نارٌ خفيفةٌ تَصَّاعدُ من موقدةٍ تتأَجَّج بحزمة قضبانٍ يابسة. قال لي:

– تعالي نفْترش هذه الأَغصانَ أَمام الموقدة ونتأَمَّل خارجًا في الغابة انهمالَ الثلج.

في تلك الحكاية عصفورَا ثلجٍ يُمضيان الشتاء في شمالِيِّ البلاد بينما يتَّجه سائِر العصافير جنوبًا. يَحُطَّان متجانِبَين على غصنِ شجرةٍ عند طرف الغابة قرب الكهف و«لا يُزقزقان إِلَّا عندما ينهملُ الثلج». ويروحُ يُردِّد العبارةَ الأَخيرة، مرةً بعد مرَّة، كأَنها لازمةُ أُغنية. كان استيهامُه تامًّا قويًّا مُقْنعًا يُذهلُ سامعه الذي، عند نهاية الحكاية بانتهاءِ الطعام، يتلفَّت فإِذا لا كهفٌ، ولا ثلجٌ، ولا عصفوران يُزقزقان. إِنما



جلسة في حضن البرية مع الشاعرة جوليا فورد،
عن يمينها سْيود حسين، وعن يسارها جبران.
وكتبَت جوليا بخطها تحت الصورة:
«تحت الشجرة التي كان خليل يسميها قيثارة الريح».



جبران مع الشاعر جوليا فورد
عند مدخل بيتها

يكون، طيلةَ تلك اللحظات، عاشَ في ذاته أَطيافَ «لقاءَات في المدى»، وكيمياءً روحية، وولادةَ كيانٍ جديد.

عندئذٍ كنتُ أَفهمُ قولتَه لي: «لا لتكتُبيها بل لأُشْرِكَكِ بها»: ليس في الغابةِ البلَّوريةِ دفترٌ، ولا في الكهف، ولا كان ممكنًا تدوينُ زقزقةِ العصفورَين «عندما ينهملُ الثلج».

١ مطلع مقدِّمتها ص ٢٥ من هذا الكتاب.

٢ السبت ٦ كانون الثاني ١٨٨٣. في بعض المراجع (منها كتاب ميخائيل نعيمه) وَرَدَ ٦ كانون الأوَّل. لكنَّ جبران في رسالة إلى ماري هاسكل وأُخرى إلى مي زيادة حدَّد مولدَه في ٦ كانون الثاني، وهو يصادف عيد الغطاس (أَو الدِنْح) لدى الطوائف المسيحية تذكارًا لاعتماد يسوع في نهر الأُردن.

٣ هو ميخائيل جبران، أَحدُ مؤَسِّسي أُسرة جبران في بْشَرّي مع شقيقَيْه يوسف وموسى بعد نزوحهم من بلدة بْشِعْلة (قضاء البترون).

٤ هي «الخورية» التي أَخذَت عنها ابنتُها «كاملة» قوَّةَ شخصيَّتها وذكاءَها وصلابتَها.

«مرةً أُخرى... عَبرَت»

كما ذكرتُ منذ البداية[١]: ليست رغبتي أن أَكتب عن خليل جبران مُجَرَّد سيرة، بل أَنْ أَجعلَ الآخرين يعيشون معه كما عشتُ أَنا معه، فيبقى حاضرًا نابضًا كما لو انه ما زال معنا على هذه الأَرض. لذا دوَّنتُ تفاصيل من سنَواتِ صداقتنا كما عشناها معًا لا كما تَسلْسَلَت أَحداث حياته.

تبقى تفاصيلُ لا بدَّ من ذكْرها عن خلفية هذا الرجل من لبنان: أَنه وُلِدَ في ٦ كانون الثاني١٨٨٣[٢] لأَبَوَين لبنانيَّيْن في بْشَرّي، وهي قرية جبلية عريقة ترقى إِلى نحو أَربعة آلاف سنة، تتفيَّأُ أَشجارَ أَرز الرب، وأَنَّ جدَّه لأُمه، الخوري أسطفان رحمة، كان كاهنًا مارونيًّا عالِمًا قليلَ الكلام رخيمَ الصوت، وأَنَّ أُمَّه كاملة كانت صُغرى بنات الخوري أسطفان الذي كان متعلِّقًا بها ويسميها «قلبي الذي يمشي أَمامي»، وأَنَّ جَدَّ الشاعر لأَبيه[٣] كان يملك أَراضيَ شاسعةً في شمال لبنان ويدرك تمامًا مواهبَه الشخصية وأَهميَّتَه، وخصوصًا حذاقتَه في تدوير معنى إِلحاده فلا يُطال. وعن قوة شخصيته أَنَّ مطرانًا أَرسل إِليه كلمةً أَثارت كرامتَه فانتهر الرسولَ: «قُلْ للمطران إِنَّ سورية أَعظمُ مقاطعةٍ في كلِّ الأَمبراطورية العثمانية، وإِنَّ لبنانَ تاجُ سورية، وإِنَّ بْشَرّي لؤْلؤَةُ هذا التاج، وإِنَّ أُسرةَ جبران أَرقى أُسَر بْشَرّي، وإِنني أَنا رأْسُ هذه الأُسَر».

أَخبرَني جبران هذه القصةَ بحماسةٍ، وقصصًا أُخْرى عن جدَّته رحمة التي كانت ذاتَ شخصيةٍ قويةٍ[٤] فلُقِّبت بـ«الفيلق» في عائلتها، ومُرشدةً زوجَها الخوري

٥ في شجَرة العائلة، كما سَرَدَها «الفَلْيُون» النحَّات خليل جبران، مستمِدًّا إيَّاها من وثائقه العائليَّة، أنْ بعد حوادث الجبل سنة ١٨٤٠ وصل إلى بْشَرّي فارِسَان شقيقَان مسْلمان: عبدالقادر وعبدالسلام، استقرَّا فيها وتزوَّجَا فتاتَين من آل رحمة وانتسبا تاليًا إلى تلك الأُسرة المارونية. وُلِدَ لعبدالقادر صبيٌّ وحيدٌ سمَّاه أسطفان، هو الذي لاحقًا أَصبح كاهنًا تزوَّج ورُزِقَ «كاملة» سنة ١٨٥٨، وَوُلِدَ لعبدالسلام صبيٌّ سمَّاه حَنَّا، هو الذي، على عادات بْشَرّي عهدَئِذٍ بزواج أَولاد العمومة، تزوَّج لاحقًا من كاملة حفيدة عمِّه عبدالقادر ورُزِقَ منها الصبي بطرس سنة ١٨٧٧. غير أَن الأَوضاع الصعبة في الوطن فترتئذٍ دفعَت حنًّا إلى الهجرة فأَبْحَرَ إلى البرازيل، وسرعانَ ما صعَقَه هناك مرَضٌ خبيثٌ قضى عليه، تاركًا في بْشرّي طفلَه بطرس وزوجته «كاملة» وهي في مطلع العشرين.

٦ ربَّما أَشكلَ الأمر في ذاكرة باربره يونغ بنقْلها هذا التفصيلَ عن جبران. فالأَصحُّ، وفْق الوثائق، أَنَّ «كاملة» دخلَت دُكَّان اسحق جبران (لبيع العقاقير والأَعشاب الطبية) تشتري مرهمًا لتضميد إِصبعها، فعرَّفها اسحق بابن شقيقه خليل (المولود سنة ١٨٥٢). بَـهَرَهُ جمالُها فظلَّ حتى تَقرَّب منها وتزوَّجها نهار السبت ٨ كانون الثاني ١٨٨١ (نقلًا عن «تاريخ بْشَرّي» للأَب فرنسيس رحمة، وفيه أَيضًا أَن كاملة رحمة، قبل تعرُّفها بخليل جبران، عقدَت زواجًا ثانيًا مع نسيبها يوسف الياس جعجع السبت ١٤ آب ١٨٨٠). لكنَّ زواجها الثاني لم يدُم سوى ثلاثة أَشهر وانتهى إلى الطلاق. وبذلك يكون خليل جبران زوْجَها الثالث.

٧ ما لم تعرفْه باربره يونغ، أَو لم يقُلْهُ لها جبران، أَنَّ المُدَرِّسة الأميركية في مدرسة كوينسي التي التحق بها جبران في بوسطن بُعَيْد وُصوله إلى المدينة (١٨٩٥–١٨٩٧)، استغربَت أَن يُعرَّف بالاسم الثُلاثيّ جبران خليل جبران، فاختصرتْه إلى خليل جبران، وحوَّلتْه من خليل (Khalil) وفْق الكتابة الـمُتَّبعة، إلى (Kahlil) لسهولة لَفْظِ «كاليل» وصعُوبةِ لفظِ الأَميركيِّين حرف الخاء. وهكذا اعتمَد جبران اسم «خليل جبران» لِمؤَلَّفاته الإِنكليزية، وأَبقى لِمؤَلَّفاته العربية وجميع مقالاته العربية على اسمه الثلاثي جبران خليل جبران.

وأَولادها. كانت في السادسة والخمسين حين وَلَدت كاملة، آخر أَولادها، ثم عاشت قرنًا وعشْر سنوات، لكنها بدلالٍ أُنْثَويٍّ لم تكن تعترف إلا بمئة وسِتّ سنوات، وكانت في الثمانين حين امتَطَت حصانًا وجالت على معظم نواحي لبنان، وحافظَت على ظرفها وقوَّة شخصيَّتها حتى يومها الأَخير. وذات يوم من شيخوختها المتقدِّمة قالت لجبران: «أَوصَيتُ بجميع حِلِيِّ الفِضيةِ لحفيدي الآخَر كي لا يَكْرَهَك».

وحين عاد جبران يومًا من مدرسة «الحكمة» إلى بْشَرّي حاملًا تنويهاتٍ وجوائزَ، جلست جدَّتُه «الفيلق» مع جدَّتِه الأُخرى زوجة جدِّه لأَبيه، تتحدَّثان في مواهب حفيدهما وذكائه وشخصيته. قالت هذه بلُطفها المعتاد: «إِننا فخورون جدًّا بذكائِه ومواهبة النادرة»، فأَجابتها الجدَّة «الفيلق»: «وما فضلُكُم جميعًا في كلِّ هذا؟ إِنه حفيدي أَنا». ويومَ الاحتفال بعيدها المئَوي في اجتماع عائلي موسَّع، تجمَّعَت أَجيالٌ متتاليةٌ من الحفَداء حتى أَن أَصغَرهم، مُرسَلًا ليدعو إِحدى كبيرات العائلة، قال لها: «جَدَّتي، جَدَّتُكِ تَوَدُّ أَن تَراكِ».

ترمَّلت الابنة الصغرى كاملة، وكان لها طفلٌ يدعى بطرس[٥]. وذاتَ يوم كان خليل جبران، وهو يكبُرُها ببضع سنوات، يَمُرُّ فسمِعَها تغَني في حديقة والدِها الخوري[٦]. لم يهدأْ حتى التقَاها فانسحَر بِجمالها وأُنوثتها، ولم يهنأْ حتى طلَب يدَها وتزوَّجها. وحين ولدَت له طفلَهُما الأَول سمَّاه على اسم أَبيه جبران، لكنَّ جبران أَحبَّ اسم أَبيه فاعتمدَه لاحقًا اسمه الأَدبي[٧]. واسم خليل معناه: «المختار أَو الصديق الحبيب»، كما كاملة معناها «التامة»، ومعنى جبران «الشافي ومُبَلْسِم الروح»، فللاسم في العربية دائمًا معنًى وتفسير.

كانت كاملة جبران تُتقن أَكثر من لغةٍ، ما أَثَّر لاحقًا في مهارة ابنها اللغوية. وهي ورثَت عن أَبيها الحبيب الكاهن صوتًا جميلًا، وبين ما كان يُبهجُ الطفلَ جبران في سنواته الأُولى أُغنياتٌ شرقيةٌ تدندنُها وأَوتار العود بين أَناملها. ومراتٍ حكى لي كيف كانت تغنّي له في الليالي إِلى أَن «تتساقط النجوم». ذلك أَن السماء ليلًا فوق لبنان تبدو كأَنَّ النجوم تتلأْلأُ فيها مدَلَّاةً من القُبَّة الزرقاء. وحين يأْتي تلك القريةَ

٨ تصغُرُه بسنتَين. ولدَت سنة ١٨٨٥. كرَّسَت حياتها لِـخِدْمته. عاشت وحدَها بعدَه ٤١ سنة: اشتدَّ مرضُها سنة ١٩٦٨ فانتقلَت إلى مأْوًى للعَجَزة توفيَت فيه الثلثاء ٢٨ آذار ١٩٧٢.

٩ تاريخ وفاته ليلةَ الجُمعة ١٠ نيسان في المستشفى.

الجبليةَ زائِرٌ يُبادره أَهاليها: «إِذا تَمدَّدْتَ على سطح البيت كي تنام، يمكنك أَن تَطال نجمةً فتقطفَها وتضعَها تحت وسادتِك».

هكذا كانت كاملة ترندح لطفلها أُغنياتٍ قديمةً وأُخرى من تركيبِها غيرِ المُدَوَّن. وكانت تنسج له حكاياتٍ قديمةً عن هارون الرشيد وأُخرى من التراث العربي الباهر. كأَنها كانت تحدُس باكرًا جدًّا بأَيِّ وَلَدٍ هو. لذا قالت لاحقًا: «إِن ابني خارجَ كل تحليلٍ نفسيّ»، فهو كان صعبًا ذا تصرفاتٍ غيرِ مرتَقَبَة: مرةً يحنو على زهرة ذاوية، وأُخرى يزأَرُ كغضنفرٍ حيالَ ما يُفرض عليه. وبالفعل قال لي مرَّاتٍ:

– لم أَكُن طفلًا هادئًا بل دائمَ التململُلِ لإِحساسي الدائم بالغُربة والضَياع. لم أَكُن أَرى طريقي بعد. كانت أُمي تُحِّسُ ذلك بي من دون أَن أَقوله لها. لم أُضطَرَّ إِلى أَن أَقولَه لها.

وكان ذلك صحيحًا. فهي كانت تراقبه منذ سنواته الأُولى حين كان يجلس ساهِمًا ساعاتٍ طويلةً أَمام كتابٍ فيه رسومٌ ولوحاتٌ من ليوناردو داڤنتشي. وكانت تحضُنه كي تُهدِّئَ غضباته الفَورية السريعة حيال ما لا يعجبه. لاحقًا، وبعكس إِرادتها وحنان قلبها الأُمومي، وإِيمانًا بإِرادته وحكْمته، هي التي تجاوزَت جميع الاعتراضات ووافقَت على إِلحاحه بالعودة إِلى لبنان للدراسة.

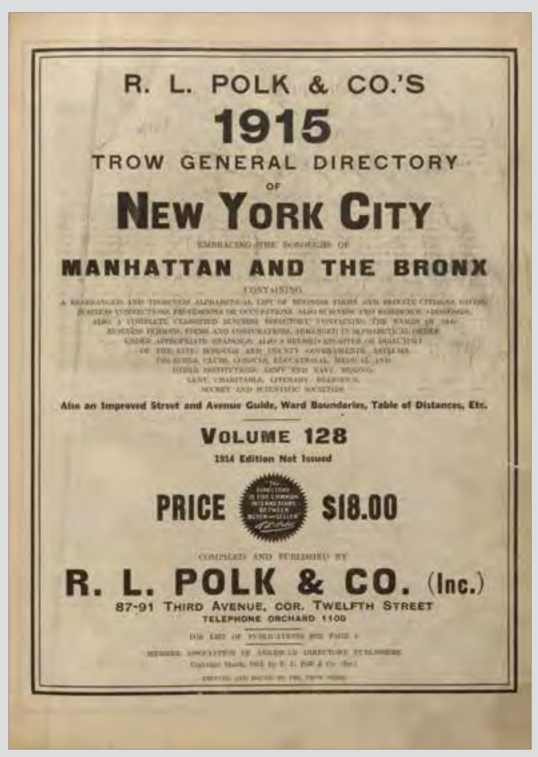
في الأَسابيع الأَخيرة من حياته كان يحدِّثني كثيرًا عن صباه، عن أُمِّه، عن شقيقته مريانا[8]، الوحيدة التي بقيَت له من عائِلته. عن مريانا قال لي مرَّةً:

– إِنْ على وجه الأَرض قديسةٌ حيةٌ، فهي مريانا جبران، ابنةُ أُمي كاملة.

أَظنُّهُ لَحظَتَئِذٍ كان يحدس بقُرب رحيله عن هذه الحياة، مع أَنه لم يكن ينطق بذلك. لكنه ذات مساءٍ، قُبَيل ذاك العاشر من نيسان[9]، لاحظتُ على ملامحه حزنًا بعيدًا وكآبةً عميقة، فاستفسرتُ منه: «ما بكَ؟ ماذا جرى فأَحزنَكَ»؟ سكتَ لوقتٍ بدا لي مطَّاطًا، ثم أَجاب:

– أُريدُكِ أَن تعلَمي أَمرًا... من دون أَنْ أَقُولَه لَكِ... هل تُدركين ما قد يكون؟

سأَلني هكذا لأَننا غالبًا ما كان أُحدُنا يُدرك ما في بال الآخَر بدون كلام.



غلاف دليل الهاتف سنة ١٩١٥ لمنطقتَي نيويورك وبرونكس (في مدينة نيويورك).

Ghosn, Bernard, Mgr. — Study — الارشندريت برنادوس غصن
103 Washington St. — BOWling Green 0639
Gibran, Kahlil. G. — Artist & Author — جبران خليل جبران
51 W. 10th St. — ALGonquin 9709
Gorab, S. — صادق غراب
11 W. 28th St. — LEXington 8820
Gorayeb, Geo. N. — Exporter — جورج غريب
59 Washington St. — WHItehall 0395

اسم جبران وعنوانه ومهنته (فنان ومؤلف) في دليل هاتف نيويورك.
رقم هاتفه: ٩٧٠٩

Elias Feldman) 135 W27th
Gil[illegible]lter Paul dresses h981 Union av
" [illegible] designer h202 Brown pl
Gibran Kibel artist 51 W10th
Gibriano Rose (wid Giuseppe) h66 Mott
Gibroy Thos J foreman h307 E65th
Gibson Abr slsmn h2 E112th
" Addison H v-p Richmond, Levering & Co r Hotel Imperial

اسم جبران ومهنته وعنوانه كما جاء في دليل أميركي. وواضح أنَّ اسمه ورد مغلوطًا: Kibel عوض Kahlil

١٠ أي الجُمعة ٣ نيسان ١٩٣١، تمامًا قبل أُسبوعٍ من وفاته.

لحظتَها لم أُدرك من سؤَاله ما كان في باله. وفيما هَمَمْتُ مساءَئذٍ بمغادرة المحترف بادرني:

- إذا أَدركتِ ما أُريد أَن تعلَميه، أَتقولينَهُ لي؟

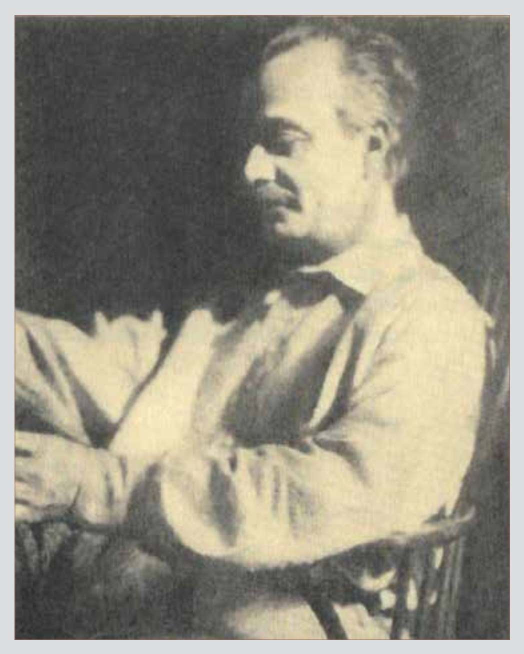
وَعَدْتُه أَن أَقول، وخرجتُ تضطرب في بالي أَفكارٌ متضاربةٌ عمَّا يمكن أَن يكون في باله. لكنني لم أَعرف. وما إِلَّا لاحقًا، بعد فترةٍ على رحيله، حتى أَدركتُ أَن قلبه البشريَّ المستوحِدَ كان في حاجة إِلى إِشراك أَحدٍ معه في شُعُوره بِدُنُوِّ الرحيل، لكنه لم يشَأْ يومَها أَن يُحزِنَني بذاك الهاجس إِن لم أَحدُسْ به لوحدي. واليوم أَرى أَنَّ ذلك كان أَفضل. فلو عرفْتُ يومها ما كان في باله لَكان صعبًا على قلبَينا أَن يواصلا الغناءَ كما بقينا نغنِّي حتى تلك الأَيام الأَخيرة.

مرت بنا أَيامٌ كانت تَمتلئُ بالعمل الطويل، وهو يُنهي رسم المائيات الأَخيرة لكتابه «التائه»، مستعملًا لها مزجًا جديدًا من التَدَرُّجات اللونية، بين ظلالٍ بُنِّيَّةٍ وأُخرى بيضاء، شكَّلَت جمالًا ساطعًا في لوحات «الفرح والحزن»، «الراقصة»، ووجه تلك المرأَة السحري في لوحةٍ سماها «كما إِلى الأَبد»، وجميعها انتهَت تقريبًا قبل فجر الجمعة العظيمة[١٠].

كان في عادة الشاعر أَن يُمضي نهار الجمعة العظيمة وَحده في وِحدة التَأَمُّل، حتى إِذا طلع الفجر ومرَّت ساعةُ ذكرى الصلب، يهاتفني ليقول: «مرةً أَخرى... عَبَرَت». وهذا ما جرى أَيضًا غداة تلك الجمعة الحزينة.

نهار أَحدِ الفصح كان مغرقًا في العمل، مبرِّرًا ذلك بـ«أَنا مصابٌ بمرَض العمَل». وإِنه كان فعلًا فريسةَ شعلةٍ حارقةٍ من الشغف تشدُّ على أَحزِمة جسَدِه، هي نارٌ هائجةٌ مرعبةُ الإِحراق كما في تَنُّورٍ مُجَمَّرٍ سبْعَ مرات. ومرارًا كثيرةً كان يصرخ لي في لحظات إِبداعه القُصوى «أَنا أَحترق... أَحترق»، غير واعٍ أَنه قالها لي بهذا الصراخ.

أَحدَ ذاك الفصح، قبل خمسةِ أَيامٍ من مغادرته هذه «الأَرضَ الطيبةَ الخضراء»، قال لي بِحزم: «أَنا أَعرف قَدَري». وبالفعل، كان يعرف قدَرَه طويلًا قبْلَذاك.



جبران في مريول الرسم.
أَوردت باربره يونغ هذه الصورة في كتابها (ص ١٧١)
على أَنها «آخر صورة له قبل وفاته».

١١ يَثْبُتُ باستمرارٍ حدْسُه هذا. فها هو ماتَ ذاتَ يومٍ، وما زال يُولَدُ كلَّ يومٍ في كتابٍ جديد، في لغةٍ جديدة، في بلادٍ جديدة، كأَنه ما زال بيننا يُنتج بكامل حَيَويَّتِه النابضة. أَما هكذا الخُلُود؟

كثيرون أَسفوا بمرارةٍ لمُغادرته باكرًا نحو الغامض، مردِّدين: «لم يَنْتَهِ عمَلُه بَعد»، لكنه هو كان قال:

- أَعرف أَنني لن أُغادر هذه الأَرض الغريبة السحرية الجمال قبل أن ترى الملائكة أَنني أَنجَزْتُ عملي، وأَعرف أَن «أَنا»يَ لن تموت ولن تغرق في البحر الكبير المسمى الله.

لا أَشُكُّ لحظةً واحدةً بأَنَّ ذاك الرجل الذي كانت له قوةٌ فريدةٌ لاستيعاب الحاجات البشرية ومساعدتِها كليًّا، كان هو أَيضًا مدركًا حاجاتِه لعملٍ مُضْنٍ وصبرٍ كَتومٍ عاشَهما بدماثةٍ وجرأَةٍ مُجَنِّبًا أَحبابَه كلَّ ما تُؤْلِمُهم معرفتهم عنه. وهو نطَقَ بحقيقةٍ محَت كلَّ ادعاءٍ بـحقِّه في أَيامه الأَخيرة، وسيطر على قلق الحاضر بعبارة واحدة: «لنا الخلود»[11].

كان غالبًا، قبل تعبيره عن رغبةٍ، يُمَهِّد لها بعبارة «إِذا متُّ الليلة، ...». وذات مساءٍ كانت رغبَةُ قلبه قولَه لي:

- تذكَّري أَنَّ أَحد أَغلى أَحلامي: أَن يجيْءَ يومٌ ما، في مكانٍ ما، تُعَلَّقُ فيه مجموعةٌ من أَعمالي، خمسون أَو خمسٌ وسبعون لوحة، في صالةٍ ما، لمؤَسسةٍ ما، في مدينةٍ كبرى، فَيَتَسَنَّى للناس أَن يُشاهدُوها، وربما أَن يُحبُّوها.

في «حديقة النبي» ترَكَ هذا الرجل من لبنان لَمسةَ إِيمانٍ بسيطةً وعميقةً عما خلْف هذا الباب الذي نسمِّيه الموت:

سأَحيا إِلى ما وراءَ الموت وسأُغَنِّي في مسامعكم
حتى بعدما موجةُ البحر الوسيعةُ تُعيدني إِلى أَعماق البحر الوسيعة
من دونِ جسَدٍ سأَجلس معكم إِلى مائدتكم
وسأَذهب معكُم إِلى الحقول روحًا غيرَ مرئية
وآتيكم حتى مواقدِكُم ضيفًا خفيًّا
الموت لا يغيِّر إِلَّا الأَقنعة على وجوهنا
الحطَّابُ باقٍ حطابًا، الفلَّاحُ باقٍ فَلَّاحًا
والذي أَطلَقَ أُغنيتَه للريح باقٍ يغنّيها للكواكب السيَّارة.





مدخلان (شرقي وجنوبي) لمستشفى سانت ڤنسنت.
توفي جبران في الغرفة ٣١٠ (ضمن الدائرة).

١٢ استعملَت باربره يونغ هنا اسمَ جبران الثلاثي، كما وقَّع به مُؤَلفاتِه العربية، وهي نادرًا جدًّا ما استعمَلَتْه هكذا. لكنها كانت تعرف أَنه يحب هذه التسمية في أَوساطه الخاصة.

١٣ وهو يومُ الجمعة العظيمة لدى الطوائفِ المسيحيةِ.

١٤ قال لها هذه العبارةَ حين لاحَظَ قلقَها وارتباكَها فيما كانت تُساعده على نُزُول درَج المبنى وهي ترافقُه إِلى المستشفى، بعد سَهَرِها عليه طوال الليلة السابقة. وكانت تلكَ آخِرَ كلماتٍ قالَها واعيًا عند العاشرة والنصف صباحًا، قبل أَن يدخلَ عند الثانية والنصف بعد الظهر في الغيبوبة الأَخيرة على سرير المستشفى، ويلفظَ نفَسَهُ الأَخير عند الحاديةَ عشرةَ إِلّا عشْر دقائِق.

جميع هذه الرؤَى في خيال جبران كانت كنوزًا من عالم الروح باقيةً قريبةً من كوكب الأَرض الذي أَحبَّهُ كثيرًا. فهو قال:

– أَنهَدُ إلى حيثُ الخلود لأَنني هناك سأَلتقي قصائدي غيرَ المكتوبة ولوحاتي غيرَ المرسومة.

هكذا جبران خليل جبران[12] قدَّم ذاتَه للعالم، وهذا الحبُّ العميق الخالد سيبقى «شَرَفَهُ وعَزَاءَه». فعلى قمَّة سنواته كان يتقدَّم بكل جَلالٍ وهَيبةٍ وحكمةٍ وُثقى، قائلًا: «الآنَ سأُشرقُ عاريًا من أَيِّ مكانٍ وزمان».

وهو ما يتطابق مع المقطع الأَخير من «آلهة الأَرض»:

إلهُ قلبي الذي بين ضلوعي البشرية، ينادي إلهَ قلبي الذي في المدى
وجَحيمَيَ البشريُّ الذي أَرهقني يَنهدُ إلى الأُلوهة
والجمال الذي نَشَدْناه منذ البدء يَنْشُدُ الآنَ الأُلوهة
كنتُ متنبِّهًا إلى كلِّ نداء، لكنني الآن أَتخلَّى عما مضى.
الجمالُ دربٌ يُؤَدِّي إلى الذاتِ الطاعِنَةِ ذاتَها
انْقُرْ أَوتارَك فأَعبُرَ هذا الدربَ الممتدَّ أَبدًا إلى فجرٍ آخَر.

عند الساعة ١١:٠٠ ليلةَ ١٠ نيسان من أَولِ نهارِ جمعة بعدَ فصح[13] ١٩٣١ رحلَ جبران إلى المدى.

وكان قبيل ذلك بادرني: «خلِّيكِ حَدِّي... لا تَتركيني... أَنا بِخَير»[14].

وما رحيلُه هذا، بعد ساعاتٍ من الصمت التام، سوى نَفَسٍ طويلٍ عميقٍ، كأَنَّ عصفورًا خفيًّا فرَّ أَخيرًا إلى نشوة التحليق والحرية.

١ من مقطوعة غير منشُورة وجدَتْها باربره يونغ بين أَوراق جبران في المحترف، واحتفظَت بها بين أَوراقها.

جاهزٌ أَنا للرحيل

تعالوا وَدِّعُوني يا بني أُمّي
ومعكُم أَولادُكم بأَناملهم الزَهرية المُتَزنْبِقة
وليأْتِ كبارُكم فيباركوا جبيني بأَيديهم الراجفة
وبناتُ المروج والحقول فَيَريْنَ ظلال المجهول تعبُرُ تحت حاجبَيَّ
ويُصغين إلى صدى اللانهاية في رَمَقي الأَخير.
ها إنِي بلغتُ القمة وتجاوزْتُ نَشيج البشر
ولم أَعُد أَسمع إلَّا نشيدَ الخلود الوسيع[1].

في نيويورك كما في بوسطن – سكَنه الأَميركي الأَوَّل – بدا من آلاف المُشيِّعين أَنَّ «أَنا» جبران «لن تغيب عن الأرض». فطيلةَ يومَين كاملَين في بوسطن، وبينهما ليلةٌ كاملة، كان الراقدُ مُمدَّدًا بين شبَّانٍ من بلدته الأُمّ يحرسون جثمانه على مدار الساعة، فيما سيلٌ طويلٌ من المُعَزِّين، معظمُهم من شعب بلاده، يَمرُّون خاشعين، على شفاههم – كبارًا ويافعين – تَمتمةٌ باكيةٌ واحدة: «حبيبي».

كنتُ جالسةً قبالتَهم، في زاوية شبه مظْلمة، فَخُيِّل إليَّ ذاتَ لحظةٍ أَن ما يجري أَمامي كأَنه من زمن آخر، في مكانٍ ناءٍ، وبين هؤلاء الحضور مَن قد يكون بطرس، أَو يوحنا الحبيب، أَو ناسكًا مُلْتَحِيًا أَو تائهًا من الصحراء، لشدَّة ما حافظ هؤُلاء المعزُّون على شخصياتهم الأَصلية. وكم مرةً جثا أَحدُهم وبكى مُجهِشًا، فيما حرَسُ




الخورأسقف أسطفان الدويهي (١٨٨٢ – ١٩٥٩) ابن إهدن،
صديق جبران وجارُه.
كان له فضْلُ الإصرار، لدى المراجع الدينية، على إقامة الجناز لجبران
في كنيسة سيدة الأَرز المارونية (بوسطن) بعدما تعالت أَصوات
ترفض إقامة مراسم الدفن لاعتبارهم أَن جبران لم يكن مؤمنًا
ولا ممارسًا الطقوس الدينية.

٢ وهو طبعًا شعورٌ يولِّده إِيمانُها بالتقمُّص، وبأَن الروح في هذا المسجَّى أَمامها انتقَلَت إِلى جسدٍ آخَر حيّ.

٣ إِلى كونه صديقَه الـمُخْلص كان جارَه في بوسطن، ساكنًا في المبنى الملاصقِ المبنى ٧٦ (شارع تايلُر) الذي تسكن في طبقته الثانية مريانا شقيقةُ جبران. حين كان جبران يأْتي إِلى بوسطن كان الخورأُسقف يزوره عابرًا السطح المُلاصق سالكًا سُلَّمَه الخارجي إِلى تلك الطبقة الثانية حيث جبران، من دون نزوله إِلى مدخل المبنى في الشارع. وهو وُلِد في إِهدن سنة ١٨٨٢، بدأَ حياتَه الرهبانية أَمينَ سر البطريركية المارونية في بكركي مع البطريرك الياس الحويِّك، وبهذه الصفة رافق الحويِّك إِلى مؤتمر الصلح في پاريس سنة ١٩١٩. ثم انتدبه البطريرك لاحقًا راعي أَبرشية سيِّدة الأرز في بوسطن فتوَثَّقت علاقته بجبران. وبشخصيته القوية الحازمة نجح لدى المرجعيات المارونية في إِقامة المراسم الدينية لدَفْنةِ جبران وفق الطقس الماروني مع أَنَّ جبران، قبل ساعات من وفاته، رفض اقتبالَ المَشحة الأَخيرة لدى إِدخاله إِلى المستشفى. سنة ١٩٥٩ شب حريق في كنيسة سيدة الأَرز وهرع الخورأسقف الدويهي لينقذ أَواني المذبح والقربان المقدَّس لكنَّ الدخان تكثَّف في الداخل فمات مُختنقًا.

الشرف حول النعش مسمَّرون بلا حراكٍ إلَّا مِن تَرَقْرُق الدموع حافيةً على خُدودهم الحزينة.

وباقيةٌ غريبةً حتى اليوم ظاهرةُ أَنْ طيلةَ أَيام مراقبتي فصولَ تلك الطقوس المارونية القديمة، ضئيلًا كان في قلبي شعورُ الحزن والفِراق[٢]، ولكنني لن أَنسى إِعجابي بها وبتأَثُّر أُولئِك الناس الطيِّبين، والسناءَ المأْساوي على وجوههم، وكلماتٍ خاطبوني بها عن هذا الرجل الحبيب الراقد ساكنًا أَمامهم. كنتُ كأَنما أُخاطبني: «لَهُم هو. ينتمي إِليهم. أَنتِ أُعطيتِ نعمةَ صداقتِه فترةً وجيزة، أَمَّا هو فمن نسيج نفَسِهم وكيانهم. خلِّيكِ بعيدةً، ودَعيه لِحبِّهم إِياه وحنانِهم الكَسِير».

في كنيسة «سيدة الأَرز» كانت مراسمُ، وكان كاهنٌ هو الخورأُسقف اسطفان الدويهي، صديقُ الشاعر فترةً طويلة[٣]، يرئِس الجنَّاز بالسريانية، فيما قندلفتٌ شابٌّ يلوِّح بمبْخرةٍ، وصبيَّةٌ سوريةٌ تُنْشِد بِلُغَتِهِ الأُمِّ ترنيمةً قديمةً من بلادها كان جبران أَحيانًا يَسمعُها منها.

كانت الكنيسة الصغيرة مكتظَّةً حتى الأَبواب، في جَوٍّ من الحزن العميق، وخارجَها مئاتٌ لم يَجدوا مكانًا لهم فيها. عند انتهاء الجنَّاز، لدى خروجي بين جمهور المُحتشدين، رأَيتُ ما لا نراه في مدينة غربيَّة: مئات الراكعين على الأَرصفة ووَسْط الشوارع، ويَسري بينهم صوتُ نحيبٍ خفيضٌ كأَن إِيقاعه عُلويٌّ غيرُ أَرضيّ.

بعد مرور النعش كان الراكعون ينهضُون ويمشون خلفه. وتوقَّف السير في مدينة بوسطن نحو عشرين دقيقة خلف موكب المُشيِّعين السائر إِلى مقَرٍّ مُوَقَّتٍ يضُم رفات هذا الرجل من لبنان.

بعد أَسابيع، بدأَت رحلةُ عودة جبران الصامتةُ إِلى وطنه. ذات صباحٍ مُوَشًّى بضبابٍ كم كان يحبُّه، نُقل جثمانه من المقبرة في بوسطن إِلى رصيف مرفإِ پروڤيدِنْس، استعدادًا للرحلة الأَخيرة في هذا الحجِّ الأَرضيّ. وكان موكبُ سياراتٍ طويلٌ يخترقُ مطرَ الشوارع غربًا ذاكَ الصباح لوَداع الشاعر الرسام، وتعزية شقيقتِه مريانا التي ترافق حبيبَها إِلى بيروت فبْشَرِّي.

٤ «نشيدُ الحُجَّاج»: مقطع من أُوبّرا «تانْهَاوْزِرْ» (١٨٤٥) للمؤَلف الموسيقي الأَلماني ريتشارد واغْنِر (١٨١٣–١٨٨٣). والنشيد يستعيد رحلة الحُجَّاج إلى روما تائبين طالبين المغْفرة عن خطاياهم.

٥ مشهدٌ وداعيٌّ موسيقيٌّ حزينٌ لدى وفاة الأُم الفلَّاحة «آسا»، والدة الفتى «پير» الذي على اسمه وضَع الكاتب المسرحي النروجي هنريخ إِبْسِن (١٨٢٨–١٩٠٦) مسرحيته «پِيرْ جِنْتْ» (١٨٦٧). أَلَّف موسيقاها سنة ١٨٧٥ النروجي إِدوارد غريغ (١٨٤٣–١٩٠٧).

٦ كَتَبَتْها الشاعرة الإِنكليزية سارة فولر آدامز (١٨٠٥–١٨٤٨) مستوحيةً إِياها من روايةٍ في العهد القديم (سفر التكوين، الفصل ٢٨، الآيتان ١١ و١٢) عن النبي يعقوب الذي رأَى في حُلْمِه سُلَّمًا مُمتدًّا إِلى السماء ترتقيهِ الملائِكةُ، فشعر أَنه بذلك يكون أَقربَ إِلى رؤْية وجه الرب.

ولأَني كنت أَعرف شغفَه بالمطر والثلج وبِـ«كلِّ ما ينزل من السماء»، تذكَّرتُ كم قال لي عند عصْف الريح، ودمْدَمَةُ العواصف تضربُ نافذةَ محترفه العالية: «أَشكُر الله عليها. إِنها تُحرِّرُ ما يكون فيَّ مكبوتًا». وكم شعورُه ذاكَ يطابق هذا المطرَ الهاطلَ في وَداعه كأَنه شاهدٌ على كلِّ ما كان مكبوتًا فيه وتَحرَّر.

في ميناء پروڤيدِنْس احتشَد الرصيف بِمئاتِ مَن جاؤوا حُبًّا وحزنًا يودِّعون الراحل.

وأَمام النعش المُغَطَّى بالعلَمين الأَميركي واللبناني، أُلقِيَت كلماتُ فخْر وأَسى، كانت خاتمتُها كلمات هذا المقطع من «النبي» بلسان «الميترا»:

يا بني أُمِّيَ الدهرية، يا مُمْتَطي الأَمواج،
طويلًا أَبْحَرتم في أَحلامي، وها جئْتُم إِلى يقظتي التي هي حُلْمِيَ الأَعمَق.
جاهزٌ أَنا للرحيل
أَشرعَتي منصوبةٌ، ولَهفتي تنتظرُ هبوب الريح.

بعد كلمةِ رثاءٍ ووَداع من الخورأُسقف اسطفان الدويهي، حُمِلَ النعش، ملفوفًا بالعَلَمَين اللذين أَحبَّهما هذا الرجل، وأُدخِلَ إِلى السفينة فيما آلاتُ النفخ تعزفُ «نشيدَ الحُجَّاج» من أُوپرا «تانهاوْزِر»[٤]، ومقطوعةَ «موت آسا»[٥] من مسرحية «پِيرْ جِنْتْ»، وأُنشودةَ «بتُّ أَقربَ إِليك يا ربّي»[٦].

أَقلعت السفينة عن رصيف الميناء خاتمةً آخرَ فصلٍ أَرضيٍّ من حياة عظيمٍ عاش على هذه الأَرض الغربيَّة التي من حجَر وفولاذ، وغادرَها تاركًا صمْتًا بعيدًا وفراغًا في قلوبٍ وأَمكنةٍ عَرَفَتْه ولن تراه بعد اليوم، إِنما تاركًا ذاكرةً حيةً تنضَحُ في كلماته:

وداعًا يا أَهلَ أُورفليس
هوذا النهارُ انقضى
ما أُعْطِيْناهُ هنا، نحتفظ به
وإِذا لم يَكْفِ نَعودُ فنلتقي ثانيةً، ومعًا نَرفعُ أَيدينا صوب الوهَّاب الأَكبر.
تَذَكَّروا أَنني سأَعود إِليكم.



Salloum Mokarzel, editor of the *Syrian World*
(reprinted from *Al-Hoda, 1898-1968*, New York: Al-Hoda Press, 1968)

سلوم مكرزل (١٨٧٩ – ١٩٥٢) صاحب مجلة «العالم السُوري» التي نشر فيها جبران مقطوعات إنكليزية كثيرة. وخصصت له ملحقًا خاصًا بعد وفاته.

Annotated Index to the *Syrian World*, 1926-1932

Immigration History Research Center

UNIVERSITY OF MINNESOTA

فهرس كامل لجميع المواد في مجلة «العالم السوري»، من عددها الأَول (١٩٢٦) حتى الأَخير (١٩٣٥) بحسب الأَسماء وحسب عناوين النصوص. وفيه ثَبْتٌ كامل بنصوص جبران.
الفهرس من إعداد «مركز أَبحاث تاريخ الهجرة» في جامعة مينيسوتا.

THE SYRIAN WORLD

SALLOUM A. MOKARZEL, *Editor.*

PUBLISHED MONTHLY BY THE SYRIAN-AMERICAN PRESS

104 GREENWICH STREET, NEW YORK, N. Y.

By subscription $5.00 a year. Single copies 50c.

Entered as second-class matter, June 25, 1926, at the post office at New York, N. Y., under the act of March 3, 1879.

مجلة «العالم السوري» – الناشر: سلوم مكرزل – تصدر شهريًّا عن المطبعة السورية الأَميركية
عنوانها: المبنى ١٠٤ – شارع غرينويتش – مدينة نيويورك – الاشتراك السنوي: ٥ دولارات.
مسجلة لدى دائرة البريد في نيويورك (٢٥ حزيران ١٩٢٦).

٧ خطبة «الوداع»، الفصل الأَخير في كتاب «النبي».

٨ العالم السوري» – السنة السادسة – العدد الأَوَّل – أَيلول ١٩٣١ – الوصف الكامل: ص ١٤ إلى ١٧.

قليلًا بعد، ويَـجمعُ تَوقي حفنةَ زبَدٍ وغبارٍ لِـجسَدٍ آخَر.
قليلًا بعد، لَـحظةَ راحةٍ في رَحِم الريح، وتَلِدُني امرأَةٌ أُخرى[٧].

حين غاصت المرساة ورَسَت السفينةُ عند ميناء مار جرجس الجميل في بيروت، أَثبَت وطنُهُ لبنان شهادةً أُخرى على تكريمٍ واعتزازٍ «لم يعرفْهما من قبلُ تاريخُ لبنان العريقُ». وشهدَت الصحافة العربية أَنْ لم ينَلْ بعدُ هذا التكريمَ رجل حَيٌّ أَو ميت.

من بعيدٍ ومن قريبٍ تقاطر المُشيِّعون إِلى عاصمتهم بيروت، وبينهم مَن جاء من خارج لبنان، من سوريا الكبرى. ذلك أَنَّ الأَجراسَ أَعلنَت النبأَ في جميع الأَنحاء عن وفاة هذا الرجل من لبنان، هو الذي حقَّق أَجمل أَحلامهم فهاجَ حزنُهم يومَ وداعه. من دمشقَ التاريخية جاؤُوا، من حمص، من حماة، من أَنطاكية، من صيدا، من طرابلس، من الأَراضي المقدسة في الجنوب، جميعُهم جاؤُوا يُكرمون الراحل.

ونشرت مجلة «العالم السوري» وصفًا رسميًّا للمأْتم، منه:

استُقبِل الجثمان باحتفال رسميّ ضخم. حضر رجالُ الدولة إِلى الميناء بلباسهم الرسمي، وحضر الكهنةُ بلباسهم الكنَسي، وحضرَت حشودٌ ممن كانوا الأَحبَّ والأَقربَ إِلى قلب الشاعر الميت.

من الميناء حُمل الجثمانُ إِلى كنيسة مار جرجس المارونية، فاستقبلَه على مدخلها الأُسقف أَغناطيوس مبارك مطران بيروت مُحاطًا بالإِكليروس، وسْط تراتيلَ جنائزيةٍ سريانية.

ولفَتَ بين الحضور مشهدُ نساءٍ ورجال جاؤُوا من بْشَرّي في شمال لبنان، مرتدين ملابسَهم التقليدية وعلى وجوههم الشامخة ملامحُ حُزن عميق[٨].

وحضر كذلك رئيسُ لبنان ووزراء، وأَعضاء من المفوضية الفرنسية العليا، وعناصرُ من البحرية الفرنسية، يودِّعون الرجل الصامت في نعشه، «مُتَخَلِّين عن فوارقهم الاجتماعية والسياسية والدينية». وغادر رجالُ الدين المسيحيون أَديارَهم، والمحمديُّون مساجدَهم، واليهودُ كنُسَهم، ليكونوا حول النعش، وجاء مئَاتٌ من الأَولاد والفتيان عرفوا اسم جبران وتعلَّموا أَن يُـحبُّوه.

Gibran, G. Khalil, *The Plutocrat*, Oct. 1928, III, 4: 10.
A Man from Lebanon Nineteen Centuries Afterward, Nov. 1928, III, 5: 21-26.
Night (Translation by Andrew Ghareeb), Dec. 1928, III, 6: 10-12.
Defeat (Poem), Jan. 1929, III, 7: 23.
The Great Longing, Feb. 1929, III, 8: 8.
The Saint, Mar. 1929, III, 9: 13.
Fame (Translation by Andrew Ghareeb), Apr. 1929, III, 10: 28.
Out of My Deeper Heart, May 1929, III, 11: 14.
The Two Learned Men, Jan. 1930, IV, 5: 29.
On Giving and Taking, Mar. 1930, IV, 7: 32.
Helpfulness, Apr. 1930, IV, 8: 13.
On the Art of Writing, May 1930, IV, 9: 26.
On Hatred, June 1930, IV, 10: 28.
Greatness, Sept. 1930, V, 1: 41.
On Giving and Taking, Oct. 1930, V, 2: 38.
Song, Dec. 1930, V, 4: 13.
A Marvel and a Riddle, Jan. 1931, V, 5: 18.
Past and Future, Feb. 1931, V, 6: 40.
Speech and Silence, Mar. 1931, V, 7: 36.
Gibran's Message to Young Americans of Syrian Origin (Reprinted from the First Issue of the *Syrian World*, July 1926), Apr. 1931, V, 8: 44-45.
Revelation (Translated by Andrew Ghareeb), June 1931, V, 10: 24-25.
Reflections on Love, Oct. 1931, VI, 2: 44.
The Deeper Pain, Nov. 1931, VI, 3: 10.
The Great Recurrence, Dec. 1931, VI, 4: 12-14.
The Wanderer (Book Review), Jan. 1932, VI, 5: 42.
Freedom and Slavery (Poem), Feb. 1932, VI, 6: 43.
To Young Americans of Syrian Origin, July 1926, I, 1: 4-5.
Youth and Age, Dec. 1926, I, 6: 3-5.
O Mother Mine (Moulaya), (In Syrian Folk Songs), Mar. 1927, I, 9: 13.
I Wandered Among the Mountains, (In Syrian Folk Songs), May 1927, I, 11: 11.
Three Maiden Lovers, (In Syrian Folk Songs), Aug. 1927, II, 2: 13.
The Two Hermits, Oct. 1927, II, 4: 10.
When My Sorrow Was Born, Dec. 1927, II, 6: 18.
War, Jan. 1928, II, 7: 5.
Said a Blade of Grass, Mar. 1928, II, 9: 11.
Critics, Apr. 1928, II, 10: 34.
War and the Small Nations, May 1928, II, 11: 23.
Love (Poem), June 1928, II, 12: 11.
The King of Aradus, Sept. 1928, III, 3: 17.

ثَبْتٌ كامل بنصوص جبران في مجلة «العالم السوري»،
بحسب العناوين والأَعداد وأَرقام الصفحات.

٩ هو رائد النحت في لبنان (١٨٨٣–١٩٦٢). زامل جبران في مدرسة «الحكمة» (١٨٩٨–١٩٠١)، وفيها أَصدرا معًا مجلَّة «النهضة» برسوم الحويك ونصوص جبران. وعادا فالتقَيَا معًا سنتين في پاريس (١٩٠٩–١٩١٠) حيث درسا الرسم في محترف جوليان Julian. والحويك واضعُ «الباكيَتَان»، أَول تمثال للشهداء في لبنان، تَمَّ تدشينه في احتفالٍ رسميٍّ نهار الثلثاء ٢ أَيلول ١٩٣٠ في ساحة البرج. نَزَعَتْه بلدية بيروت سنة ١٩٤٨، وهو حاليًّا عند مدخل متحف سرسق – بيروت.

الأَبلغُ تأْثيرًا كانت الرحلة ساحلًا من بيروت إِلى طرابلس ثم جبلًا: على طول الطريق كانت كلُّ دسكرةٍ وقريةٍ ومدينةٍ حاشدةً بالأَهالي خرجوا لملاقاة الموكب. وراح شبَّانٌ يلاعبون السيوف أَمام العربة الحاملةِ النعشَ ببُطء، في تقليدٍ تراثي لتكريم مُحاربٍ عائدٍ ميتًا إِلى بلاده. وكان شعراء يَرْثون فيتمهَّل الموكب، ونساءٌ يندُبْن بالدَقّ لَوعةً على صدورهِنَّ وَفْق أَلحان المراثي. ولدى اقتراب الموكب من جبيل – بيبلوس التاريخية حيث كان معبد الإِلهة عشتروت –، راحت صبايا بملابسَ بيضاءَ وخصلات شعرٍ طائرة في الهواء، ينثُرن الورود على الطريق، ويُنشِدْن زغاريد استقبالِ «عريس الأَحلام الوسيم» كأَنه عائدٌ حيًّا لا ميتًا، ويَرشُشْن على التابوت العطور والأَزهار.

هذه المشاهدُ – وقد تبدو للعقل الغربي مظاهرَ وثنيةً –، كانت من شعبٍ هو أَكثر الشعوب في العالم وفاءً وحُبًّا في حالات الحزن، على طريقة أَجدادِه منذ عصور.

في بْشَرّي، على الطرف الآخر من الكرة الأَرضية، عند أَقدام أَرز الرب، مُدِّد جثمان جبران، صديقِنا وأَخينا، والأَكثرِ من أَيٍ سواهُ شاعرُ الأَرز. هناك، سيتآلفُ البشرَّاويُّون: الباقون في مدينتهم الجبلية والمُهاجرون منها إِلى جميع أَنحاء الأَرض، ليَبنوا ضريحًا يكون مزارًا لجثمان مواطنهم البشرَّاوي. وهناك سيُبنى متحفٌ من رخامٍ صقيل، صمَّمه وينفِّذُه النحَّات اللبناني الحيُّ الوحيد يوسف الحويك[٩] الذي كان صديقَ جبران الأَقرب إِبَّان صباهما تلميذَين في مدرسة «الحكمة». وستكون في المتحف تَماثيلُ تُخلِّد في الحجر أَحلامًا خطَّها جبران على الورق أَو على قماش الرسم، وباتت الآن في عهْدة صديقه النحَّات.

Gibran, Barbara Young (Poem), Feb. 1929, III, 8: 32. An effusive testimonial: "Let me pour wonders on his wondrous name . . . All of my days I would lift up his name."
Gibran a Year After, The Editor, Apr. 1932, VI, 7: 26-33. The first anniversary of the Lebanese poet's passing finds him a universal figure beloved and honored everywhere in the world.
Gibran Kahlil Gibran, Apr. 1931, V, 8: 18. The Editor pays tribute to Gibran as "one prophet who was honored during his lifetime by his own countrymen."
Gibran Lives, Claude Bragdon, Apr. 1931, V, 8: 29-30. "Great prophets and great poets are never so alive in the consciousness of men as after they have put off the body. Gibran lives, increasingly and eternally."
Gibran, The Artist, Dagny Edwards, Apr. 1932, VI, 7: 34-36. An exhibition of Gibran's artistic works at his studio in New York City attracts a distinguished throng of admirers from the realm of the arts and letters.
Gibran, Tributes to, Gibran's Place and Influence in Modern Arabic Literature, Dr. Philip K. Hitti, Feb. 1929, III, 8: 30-32. Dr. Hitti pays fitting tribute to Gibran not only as an artist and a poet concerned with beauty, but also as a prophet and teacher of mankind.
Gibran, The Spirit of (Poem), Amin Beder, May 1931, V, 9: 18. The poet speaks to Gibran's soul now on the "boundless shoreless sea." Gibran answers that his eyes and heart are still with his people.
Gibran's Funeral in Boston, Barbara Young, Apr. 1931, V, 8: 23-25. "Never have I beheld expressions of greater tenderness nor of deeper grief." "This profound and deathless love through which he gave himself in ceaseless measure to the world shall be ever his honor and his reward."
Gibran's Message to Young Americans of Syrian Origin (Reprinted from the First Issue of the *Syrian World*, July, 1926), G. K. Gibran, Apr. 1931, V, 8: 44-45. Gibran expresses his faith in young Syrian Americans and their potential for contributing to the building of a new civilization in America.
Gibran's Tears, S. A. Mokarzel, Feb. 1929, III, 8: 32-33. Mr. Mokarzel relates an incident in Gibran's life during World War I that reflects the poet's intense feelings for suffering humanity.
Gibran's "The Prophet," On First Viewing (Poem), Gertrude Magill Ruskin, Apr. 1932, VI, 7: 33. "Only a pictured face upon a wall / But I well knew / That I had touched God's hand."

ثَبْتٌ كامل بما صدر عن جبران في مجلة «العالم السوري»، وفق عناوين النصوص وكتَّابها وأَرقام الأَعداد وصفحاتها.

١ وُلِدَ في عيتا الفخّار (جنوب لبنان) سنة ١٨٩٨. التحَق بوالده سنة ١٩١٣ إلى الولايات المتحدة (ماساشوستس). تَرجم إلى الإنكليزية مقطوعة جبران «أَيُّها الليل» (منشورةً في «مرآة الغرب»)، وأَرسلها إلى ميخائيل نعيمه الذي أَطْلع جبران عليها فأَعجبَتْه. وبمسعى من نعيمه، تعرَّف إندرو بجبران سنة ١٩٢٨، وقرأَ له ترجمتَه مقطوعةَ «الشُهرة». ارتاح جبران إلى أَن الترجمة نقلَت روحَه لا كلماتِه فقط، فأَعطاهُ إذنًا خَطِّيًّا بنقْل نصوصه العربية إلى الإنكليزية، هي التي شكَّلت كتاب «قصائد من نثر» الذي تَذكُرُه باربره يونغ هنا في هذا الفصل. توُفِّيَ إندرو في ماساشوستس عن ١٠١ سنة (الأَحد ١٢ آذار ٢٠٠٠).

٢ العباراتُ التي اقتَطَفَتْها باربره يونغ من ترجمة إندرو غَرِيْب الإنكليزية، أَنقلها هنا بالعربية من نَصِّها الأَصليّ في كتُب جبران.

٣ من مقطوعة «على باب الهيكل» في «العواصف» (١٩٢٠).

٤ من المقطوعة ذاتها.

سلامٌ لَكُم

خيوطٌ قليلةٌ بعدُ، وأُكْمل نَسْجَ القصة.

بعد ثلاث سنواتٍ على وفاة جبران، صدر كتاب «قصائد من نثر»، أَرى فيه ملامحَ مفيدةً لِمَن يهتمُّون بالغوص أَعمقَ على الجذور التي نبعَ منها إرثُ الشاعر في عالم الكلمة المكتوبة. الكتابُ ترجمةُ نصوصٍ لجبران كان كتبها بالعربية في سنوات مبكِّرة، مأْخوذةٍ من بعض كتبه العربية. ندين بالفضل في هذا الكتاب إلى عملٍ دَؤُوبٍ دقيقٍ قام به مواطنٌ لجبرانَ شابٌّ لبنانيٌّ دَفَعَه تقديرُهُ النصوصَ الأَصليةَ وفهمُهُ جوهرَها إلى ترجمةٍ إنكليزيةٍ بديعةٍ لاثنَي عشَرَ نصًّا منها. ذاك الشابُّ هو إندرو غَرِيْب[١] الذي، بشغَفِه المُخْلص، أَنْجزَ هذا الكتاب وهو الوحيد المُترجَم عن نصوص جبران العربية. وكان إندرو غَرِيْب يتردَّد على المحترف، ونال إِذْنَ جبران للقيام بِهذا العمل المُضني المُحَوِّل صياغةً إنكليزيةً سحْرَ جبران بالعربية. وكان أَن صدَر هذا العمل بأَفضل حُلَّةٍ وأُسلوب.

الصدى العام الذي سمعْتُه عن هذا الكتاب أَنه «مُغاير». ورأَى البعض أنه لا يُشبه جبران تمامًا. لكنهم مخطِئُون. فيه نَفَسُ جبران، وفيه جوهرُ جبران، وفيه ذاتُهُ الفتيَّة على مدى الكتاب تتكلم بلسانه هو لا بأَلسنة الآخرين كما في كتبه اللاحقة.

يقول[٢]: قد طهَّرتُ شفتيَّ بالنار المقدَّسة لأَتكلم عن الحب[٣].

ويقول: وقفتُ بالأَمس على باب الهيكل[٤].

٥ من مقطوعة «رُؤْيا» في «العواصف».

٦ من مقطوعة «وعَظَتْني نفسي» في «البدائِع والطرائِف» (١٩٢٣).

٧ من مقطوعة «يوم مولدي» في «دمعة وابتسامة» (١٩١٤).

ويقول: ... التفَتُّ فإِذا بثلاثة أَشباحٍ جالسين على صخْر قريب[٥].

ويقول: وَعَظَتْني نفسي، يا أَخي، فَعَلَّمَتْني[٦].

ويقول: في مثل هذا اليوم وَلَدَتْني أُمِّي... في مثل هذا اليوم قبل خمس وعشرين سنةً وضَعَتْني السكينة بين أَيدي هذا الوجودِ المملوءِ بالصُراخ والنزاع والعراك[٧].

وفي المقطوعة ذاتها يقول:

... وقد أَحبَبْتُ الناس. أَحبَبْتُهم كثيرًا. والناسُ في شَرعي ثلاثة: واحدٌ يَلعَن الحياة، وواحدٌ يُبَاركُها، وواحد يتأَمَّل بها. أَحببْتُ الأَوَّل لتَعاسته، والثاني لسَماحته، والثالث لمَداركه.

ويختم جبران هذه المقطوعة بابتهالٍ للسلام بديعٍ بموسيقاه وجماله، ومنه هذه الأَسطر:

سلامٌ أَيتُها الأَعوامُ الناشرةُ ما أَخفَتْه الأَعوام.

سلامٌ أَيتُها الأَجيال المُصْلِحَةُ ما أَفسدَتْه الأَجيال.

سلامٌ أَيُّها الزمنُ السائرُ بنا نَحو الكمال.

واضحٌ هنا أَنَّ المتكلِّم ليس «النبي» ولا «يسوع ابن الإنسان» ولا أَيًّا من أَلْسِنَةٍ أُخرى، بل هو جبرانُ ذاتُه. ومرارًا سمعْتُهُ يقرأُ تلكَ الكلمات بالذات مترجِمًا إِيَّاها ارتجالًا من نصه العربي، وأُؤَكِّد أَنْ ليس في جميع كتبه الإِنكليزية ذرَّةٌ واحدةٌ من جوهر الشاعر تزيد عن جوهره في تلك الكلمات. ولو انها كانت من ترجمته المشغولة، لَمَا كنا افتقدنا لَمسةً ليس ينسُجَها مثله أَحد. مرارًا قلتُ، وأَنا واثقةٌ من قولي، أَنْ ليس يستطيعُ ولن يستطيعَ أَحدٌ أَن يترجِم عربيةَ جبران إِلى إِنكليزيةِ جبران كما كان يمكنه هو أَن يترجمَها.

لكنه لم يفعل. ولا يمكنُ الغوصُ على كنوزٍ له وكَشْفِها، إِلَّا بعملٍ مُخْلِصٍ دَؤُوبٍ مِمَّن يَمتلك اللُغَتَين ببراعة.

٨ في حديث إندرو غَرِيْب إلَيَّ (الأحد ١٧ حزيران ١٩٩٠ في منزله – سْپِرِنْغْفيلد، ماساشُوسِتْسْ) قال لي: «سنة ١٩٣٣ حملتُ المخطوطة إلى كنوف فبادرني: «عليكَ أَن تُراجع باربَرَه يونغ. هي الوكيلةُ اليوم على آثاره ومنفِّذَةُ وصيَّتِه». اجتمعتُ بها للمرةِ الأُولى (والوحيدة) في محترف جبران حيث كانت هي وابنتها. وَجَدْتُها امرأَةً طويلةً على بَدَانة، قويةَ الشخصية... اشترطَتْ علَيَّ، كي تَسمحَ بصُدور كتابي لدى كنوف، أَن تكتُب هي مقدِّمة الكتاب. قلتُ لها إن صديقي ميخائيل نعَيمه طلَبَ أَن يَكتُب المقدِّمة، فرَفَضَت في حِدَّةٍ وقَسْوة وأَجابت صارمةً: «إِذَن لن يَصدُرَ الكتاب ولن أَسمحَ لكَ بِنَشْره». قلتُ لها إِنني أُصدِرُه لدى أَيِّ ناشرٍ آخَر بما أَنني أَحمل تفويضًا خطِّيًّا من جبران، وأَرَيتُها التفويض فانتفَضَت: «هذا يتيحُ لَكَ الترجمةَ لا النَشْر. أَنا وحدي المُولَجَة بالنشْر وأَنا أُعطي الإِذْن الأَخير». وقعْتُ في حيرةٍ لأَن نعَيمه كان عاد إِلى لبنان سنة ١٩٣٢، وكنتُ أَنا أَيضًا أَتَهَيَّأُ للعودة إِلى لبنان، فلم يَعُد لي إِلَّا القبول. وصدر الكتاب سنة ١٩٣٤ مع مقدمةٍ منها ذَكَرَتْني فيها بأَنني نَجَحتُ في «استيعاب الأَصل العربي لروح جبران ونقْل سِحْره إِلى الإِنكليزية». وأَجرَت تعديلاتٍ على بعض المقطوعات (منها «أَيها الليل») ساكبةً عليها بعضَ النثرية، مُخَفِّفَةً من ترجمتي شطحاتِ جبران الشاعريةَ في الأَصل العربي (حديثي الكامل مع إِندرو غَرِيْب صدر في كتابي «جبران خليل جبران – شواهدُ الناس والأَمكنة – الطبعة الثالثة ٢٠١٣ – ص ١٥ إِلى ٢٩).

في مقدِّمة الكتاب التي كانت لي حظْوَةُ كتابتها[٨]، جاء:

عَلَّ يكون في هذه القصائِد المُترجَمَة بعضُ الوهج من تلك النار الـمُقدَّسة التي غذَّت أُصولَها العربية.

عَلَّ تُكتَشف فتَسري لُـمَحٌ من وعي الشاعر عميقًا جمالَ الحياة وصدقَها وإِيمانَه العلْوي بأَنَّ «لنا الخُلود».

علَّ في إِيقاعاتها الرائعة أَصداءَ نبضاتٍ من قلب شاعرها.

عَلَّ في هذه الترجمة بعضَ آمال إِندرو غَرِيْب وآمالي».

قراءتي اليوم هذا الكتيب من جديد، تُعيدُ بي هزَّةَ ما فيه من قوَّةٍ وجمالٍ في كل ما يُعلِن وكل ما يُضْمِر. وهو كتابٌ كان جبران سيبتهج به خَفِرًا، كما بأَيٍّ من الكتُيِّبات السُود السابقة، قائلًا: «يمكننا القولُ إِنه جيِّد».

قلتُ سابقًا إِنَّ الخبيث هو مُسبِّبُ الشرِّ الوحيدُ الذي استثناه جبران من تَفَهُّمه أَو غفرانه، فيما كان يغفر لأَيٍّ سواه مهما كانت خطيئتُه. وفي مقطوعةٍ له فتًى، بين أُولَيَات محاولاته الكتابةَ بالإِنكليزية، عبَّر في سذاجة طفولية عن اقتبالِه «مَن أَخطأُوا» كما سمَّاهم.

ذات عشيةٍ تلاها أَمامي، تلك المقطوعة، من ورقة مصفَرَّة مرقَّطة الزوايا راح يتأَمَّلُها ثم قال لي: «بلى، ذات يومٍ سنقوِّمُها فتُصبح صالحة». لكنه لم يقوِّمْها، بمعنى أَنْ يعيدَ النظر فيها ويُشذِّبها بإِضافة كلمةٍ أَو بِحَذْف أُخرى، وهو ما لم يفعلْهُ في أَيِّ نصٍّ له من «أَيام الفُتُوَّة». والقصيدة التي سأُوردها هنا، أَنقلُها تمامًا كما كتبَها بِإِنكليزيَّتِه «أَيام الفُتُوّة»، وهي في رأْيي «صالحة»، لِمَا فيها من شغَفٍ إِلهيٍّ وحنانٍ يُضيئَان على روحه الفتيَّة منذ مطالع شبابه. وهذه هي القصيدة:



كتاب «النبي» في عدد من الطبعات في لغات عالمية كثيرة، يرى الباحثان فرنشسكو ميديتشي (إيطاليا) وغلِن كَلِمْ (أُستراليا) أنها بلغت حتى اليوم ١١١ لغة في العالم.

يسوع يَقرعُ بابَ السماء

أَيُّها الآبُ، يا أَبَتِ: إِفتح بابَك
جئتُ ومعي صُحبةٌ صالحة
فافتَح الباب كي ندخل
إِننا، واحدَنا وكُلَّنا، أَولادُ قلبك
إِفتح، يا أَبَتِ، افتَح لنا بابَك.

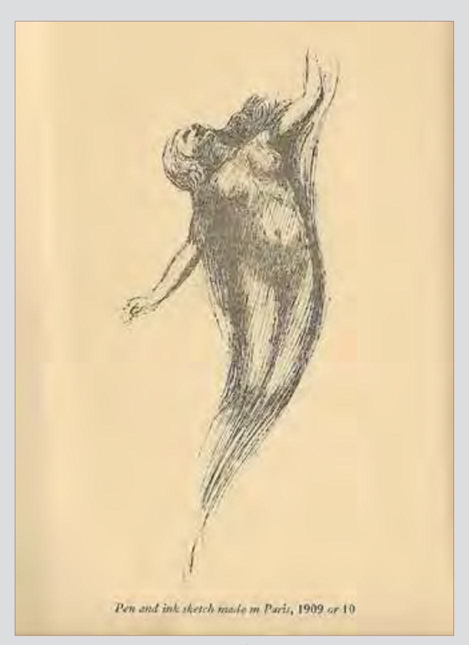
◆◇◆

أَيُّها الآبُ، يا أَبَتِ:
إِنّي أَقرعُ بابَك
... ومعي لِصٌّ صُلِبَ اليوم معي
لكنَّ روحَه دمِثَةٌ ويرجو أَن تستضيفَه
سَرَق رغيفًا لأَولاده الجياع
إِنما في عينيه نورٌ أَعرف أَنه يُرضيك.

◆◇◆

أَيُّها الآبُ، يا أَبَتِ، افتَح بابَك
... ومعي امرأَةٌ وهبَت جسَدها للحب فَرَجَمُوها بالحجارة
لكنني، وأَنا العارفُ جوهرَ قلبِك، دفعتُهم عنها
ما زال في عينيها البنفسجُ نابضًا
وعلى شفتيها ربيعُكَ نيسانًا
وفي يديها وفيرًا حصادُ أَيامِك
وإِنها راغبةٌ في الدخول معي إِلى بيتك.

◆◇◆



من كتيِّب باربره يونغ الأَول عن جبران،
وهي كتبَت تحت الرسم: تخطيط بالحبر وضعه
جبران في پاريس سنة ١٩٠٩ أو ١٩١٠.

أَيُّها الآبُ، يا أَبَتِ،
... ومعي قاتلٌ على وجهه ملامحُ من خيوط الشفَق
كان يصطاد ليُطْعِم صغارَه لكنه اصطاد بغَير دُربة
كانت على زنديه حرارةُ الشمس
وفي عروقه حيويةُ أَرضكَ
راحَ يبحث عن صيدٍ حيثما الصيدُ مُحَرَّم
وكان قوسُه وسهمُه مشدُودَين فارتكب القتْل
ولأَجل ذلك جاء الآن معي.

أَيُّها الآبُ، يا أَبَتِ، إِفتح بابَك
... ومعي سِكّيرٌ عطِشٌ إِلى غيرِ هذا العالَم
توّاقٌ للجلوس بكأْسِهِ إِلى مائدتكَ
في يده اليمنى الوِحدةُ، والوحشةُ في اليسرى
تفرَّسَ عميقًا في كأْسه فرأَى نُجومَك تتلأْلأُ في الخمرة
عبَّها نَهِمًا حتى النقطةِ الأَخيرة
لعلَّه يَبلغ سماءَكَ
لعلَّهُ يَبلغ ذاتَه الكبرى
لكنه ترنَّح في خَطْوِهِ فوقَع
نهضتُ به يا أَبتِ عن باب الخمَّارة
وجاء معي وهو يضحك معظَمَ الطريق
لكنه الآن يَبكي وتُوجِعُه رحمتُكَ
لذا جئْتُ به عندَ بابك.



صورة غير معروفة لمريانا جبران (بوسطن – حزيران ١٩٥٩).
وهي هنا مع جين جبران (زوجة النحات خليل جبران) حاملةً طفلتها نيكول يوم تنصيرها، وكانت مريانا هي العرَّابة في المعمودية، مثلما كان جبران خليل جبران عرَّاب النحات خليل يوم تنصيره سنة ١٩٢٢.
والطفلة نيكول، سُميَت رسميًّا نيكول روز: نيكول على اسم جدِّها لأَبيها نقولا جبران (ابن عم الشاعر)، وروز على اسم جدَّتها لأَبيها روز زوجة نقولا جبران.



مريانا جبران (٧٨ سنة) في آخر صورة معروفة لها (تموز ١٩٦٢).
بعدها أَخذت صحتها تتدهور عامًا بعد عام حتى ١٩٦٨، حين لم تعُد قادرة على الحركة، فنُقِلَت إلى بيتٍ للعُجَّز بقيَت فيه أَربع سنوات حتى وفاتها مساءَ الثلثاء ٢٨ آذار ١٩٧٢.

أَيُّها الآبُ، يا أَبَتِ، افتح الباب
... ومعي مُقامرٌ كان ينوي تحويلَ ملعقةِ الفضة شمسًا ذهبية
وكعنكبوتٍ من عناكبكَ شاء أَن ينسجَ بيتَه بِخُيُوطكَ
ويترقَّبَ ذبابةً كانت بدورها تَصطاد صغار الذُباب
لكنه خسر، كما يَخسر الـمُقامرون،
حتى إذا التقيتُهُ تائهًا في شوارع المدينة
ورأَيتُ في عينيه أَنَّ فضَّته لم تتحوَّلْ ذهبًا
وأَنَّ خيوط حلْمه تقطَّعت
عرضتُ عليه مرافقتي إِليكَ قائلًا:
«تَأَمَّلْ في وُجُوه إِخوتكَ وَوَجهي
وهيَّا: نحن ذاهبُون إِلى الأَرض الخصيبة خلْف تلال الحياة، تعالَ معنا»
وها هو جاء.

◆◇◆

أَيُها الآبُ، يا أَبَتِ، ها بابُكَ انفتح
عينَكَ على أَصدقائي
بحثْتُ عنهم في بُعْدٍ وفي قُربٍ
وكانوا على جَزَعٍ فخافوا أَن يَـجيئُوا معي
حتى كشفتُ لَهم عن وعْدِكَ ورحمتِكَ

◆◇◆

الآن...
وبابَكَ فَتَحْتَ
واستقبلتَ رفاقي وبِـهم رحَّبْتَ
لم يَعُدْ في الأَرض خطأَةٌ مَنْفيُّون عن لقاءِ وجهِكَ الـجَـمّ
ولم يَعُدْ جحيمٌ ولا مطهرٌ
ما عادَ إِلَّاكَ في السماء
وعلى الأَرضِ الإِنسانُ ابْنُ قلبكَ الدهريّ.

٩ هو النحات خليل جبران الذي وَضع لاحقًا، مع زوجته جين، كتاب «خليل جبران – حياته وعالَمُه» وهو، منذ صدر سنة ١٩٧٤، أَفضلُ سيرةٍ دقيقةٍ شبهِ يوميةٍ عن جبران. كان نقولا جبران هاجر من بْشَرّي إلى بوسطن سنة ١٩٠٥، وفيها تزوَّج من نسيبته روز، وكان جبران إشبينَهما في العرس، ثم عرَّابَ أَولادِهما الخمسة في المعمودية، وهو الذي سمَّاهم جميعًا على التوالي: هوراس، سوزان، خليل (النحَّات لاحقًا، وُلِدَ في بوسطن سنة ١٩٢٢)، حافظ، سلمى. وهكذا كلٌّ من أَولاد نقولا كان فَلْيُونَ جبران. وطبيعيٌّ أَن يَكتُب خليل أَفضل سيرة عن عَرَّابه جبران لأَنه الأَقربُ إِليه نسَبًا وإقامةً إِذ عاش قريبًا من مريانا شقيقة جبران، وهي التي زوَّدَتْه بمعلوماتٍ حيةٍ عن حياة شقيقها، وبوثائقَ أَصليّةٍ أَدرجَها في كتابه. وهو ما لَـم يتوفَّر لسواه من كُتَّاب سيرة جبران.

١٠ هذه الرؤْيا عادَ فَنَسَجَها قطعةً جميلةً على لسان الجدَّة ذاتِها في الفصل الثاني «حنَّة أُمُّ مريم» من كتابه «يسوع ابن الإِنسان»، ومَطْلعُها: «يسوع، وَلَدُ ابنتي، وُلِدَ هنا في الناصرة، في شهر كانون الثاني، وليلةَ مولدِهِ زارَنا رجالٌ من الـمَشْرق، ...».

هكذا كان جبران.

وجوانبُه المتعددةُ واضحةٌ في جميع كتاباته وكتُبه. وجدتُ كتاباتٍ منثورةً على قصاصاتِ ورقٍ محفوظةٍ بحرصٍ كثير، كأَنها ومضاتٌ تشعُّ فتضيْءُ فَلَكَ حياته. بينها فقْرةٌ بِخطِّهِ عن مُخيَّمٍ في لبنان مع رفاقٍ له إبَّان دراسته هناك:

حين أَنام في العراء قُبالةَ النجوم، كان رفيقٌ يسأَلني: «كم عالٍ أَنت؟» فإِن كنتُ على نعاسٍ أُجيبُه بصوت متثاقل: «جِدًّا»، وإِن لم أَكن على نعاسٍ أُجيبُه: «قليلًا». وحين يسأَلُني آخَر: «والآن، كم بعيدٌ أَنت أَيها المجنون»؟ لا أُجيبُه لأَنني أَكونُ عاليًا.

ومن قُصاصةٍ أُخرى قرأَ لي يومًا:

غريبٌ جمالُ الصحراء. إِن سمعْتِ نايًا في بحر الليل واستدرْتِ تسأَلينني: «خليل؟ أَأَنتَ مَن ينفخ في الناي»؟ أُجيبكِ: «كلَّا. إِنه صوتٌ يأْتينا من أَميالٍ خمسةَ عشَر أَو سبعةَ عشَر». الليل ساكنٌ والنجومُ دانية.

وكثيرًا ما قال لي خواطر غنيَّةَ القِيمة والجمال. منها:

رويتُ لكِ كيف في طفولتي كنا نذهب، كجميع أَهل القرية، إِلى الكنيسة عشيةَ الميلاد، مُصَعِّدين في الثلج الصامت، كلٌّ يحمل قنديلَه المُضاء ثاقبًا عتمة الليل، وكيف عند انتصاف الليل تتصاعد أَصواتُ الأَجراس مع أَصوات الكبار والأَطفال بترتيلةٍ قديمةٍ من الجليل، فأُحس كأَنَّ سقْف الكنيسة الصغيرة انفتَح على وساعة السماء. اليوم ما زال في تلك الكنيسة ذاتها منبرٌ للقراءَة نَحَتَهُ ابن عمِّي نقولا، وهو والدُ الفتى خليل[9]، فَلْيُوني بالمعمودية. كم أَتمنَّى رُؤْيةَ هذا المنبر والإِصغاءَ إِلى كلماته الحافية.

ومنها:

كنتُ أُفكِّر في جَدَّة يسوع واعتزازها به. تَخيَّليها تَحملُه بِحنانٍ وفرحٍ إِلى سطح البيت مساءً كي تُريه نُجوم الليل. وحين شَبَّ، تَخيَّليها، وعلى شفتَيها بسمةٌ، ترفع إِصبَعها بِزَجْرٍ حَنون. صحيح أَنه كان صبيًّا كسائِر الصبيان، لكنَّ تصرُّفاته كانت حكيمةً وناضجة، ولم يكن يُطيعُ من النساء نصائحَ خاطئة[10].

١١ أَيكون هنا يتماهى مع سنوات عُمر المسيح الثلاث والثلاثين؟

١٢ من مصر القديمة: مجموعةُ وثائِقَ دينيةٍ ونصوصٍ جنائِزيةٍ وتعاويذَ سحريةٍ، كانت دليلَ الميت كي تساعدَه في رحلة الآخِرة إلى العالم الآخَر.

١٣ مجموعة أَقوال زَرَدَشْت، يقال إِنها كُتِبَت على ١٢ أَلف قطعة من جلود البقر، اندثر معظمها مع الزمن. هو الكتاب المقدس لدى أَتباع الديانة الزَرَدَشتية، مكتوب باللُغة الأَفِسْتِيَّة القريبة من السنسكريتية الهندية القديمة التي فيها كلمة «أَفِسْتا» تعني «أَساس البناء القويّ».

١٤ أَحد كتُب التوراة في العهد القديم. رأَى فيه المؤَرخون مجموعة قصائد في موضوع الشر وتجادلوا: كيف يمكن أَن يكون الله خالقَ هذا الشرِّ الذي يعذِّب البشرية.

١٥ كائنٌ أُسطوري من بلاد ما بين النهرَين، له رأْس إِنسانٍ وجسمُ أَسدٍ وجناحا نسْر. جاء في الأُسطورة أَنه لامرأَةٍ تحرس المعبد وتقتُل كلَّ مَن يقترب منه إِن لم يكن صالحًا ونقيًّا كي يستاهِلَ دخولَ المعبد.

ومنها:

لو كان علينا، أَنتِ وأَنا، أَلّا نقول في خمس دقائق إِلّا الحقيقة الكلية، لانصرفَ عنا جميعُ أَصدقائنا، وفي عشْرٍ لَنُفينا من البلد، وفي خمسَ عشْرةَ لشُنِقنا.

ومنها:

أُؤْمنُ أَنَّ في العالم جماعاتٍ وأَفرادًا أَقاربُ أَيًّا يكُن عِرْقهم، يعيشون في حالة وعيٍ واحدة. هذه، في ذاتها، قربى.

ومنها:

حين وُلدتُ قلتُ إِني سأَعود. حين كنتُ في الثالثة هبَّت على بُشَرِّي عاصفةٌ فمزَّقتُ ثوبي صارخًا: «أَنا ذاهب مع العاصفة». في الثانيةَ عشْرةَ قلتُ: «سأَبقى هنا بعضَ الوقت لأَنَّ لدَيَّ ما أَقُوله». في العشرين نسيتُ ما كان لديَّ لأَقولَه. في الثالثة والثلاثين بدأْتُ أَتذَكَّر[11].

ومنها:

لو لم تكُن في الـجَلَد إِلّا نجمةٌ واحدة، وعلى الأَرض إِلّا زهرةٌ واحدة بيضاءُ دائمةُ الأَرج، وإِلّا شجرةٌ واحدةٌ ناشبةٌ في السَهل، ولو لم يكُن الثلج يسقط إِلّا مرةً كلَّ مئةِ عام، لكُنَّا وَعَينا جُودَ ذاك اللامحدود.

ومنها:

فلْنَخلقِ الجمال، وَلْيَسْقُطْ كلُّ ما عداه.

ولجبران كلماتٌ كثيرةٌ في الفن والشِعر دوَّنها في أُويقاته. منها:

أَرى أَنَّ الفنَّ اليوم مَدينٌ بأَفضل عناصره للعَرَب الذين حافظوا بأَمانةٍ على روحِ ما جاء في «كتاب الموتى»[12]، والـ«أَڤِسْتَا»[13]، و«سِفْر أَيوب»[14]، وأُسطورة الثَور الكلداني الـمُجنَّح[15]. وبـ«الفن اليوم» أَعني شغَفًا شبهَ دينيّ لم يبلُغ عمره القَرْن بعد، هو الرابط الذهبي بين الإِنسان اليوم والإِنسان الأَعظم غدًا. فالفنان الإِغريقي كان ذا عين أَذكى ويدٍ أَمهرَ من الكلداني أَو المصري، إِنما لم تكُن له عينٌ ثالثةٌ كما لهما. واليونان استعارَت آلهتَها من كلدانيا وفينيقيا ومصر، وأَخذَت عنها كلَّ دُربةٍ إِلّا الرؤْيا والبصيرةَ

٨ في الميثولوجيا اليونانية هو الذي سرقَ النار المقدَّسة من الأُولِمپ وحملها إِلى البشر كي يستمدُّوا منها نار التدفئة ونورَ الإِضاءَة. عاقبَه زوس كبير الآلهة بتقييده إِلى صخرةٍ في جبال القوقاز يقصدُها نهارًا نسرٌ ينهش كبده الذي يَنمو ليلًا ليعود النسر ينهشه نَهارًا، في رمزٍ إِلى عذابٍ أَبديٍّ لا ينتهي.

٩ شاعر إِنكليزي (١٧٩٥–١٨٢١) شكَّل مع اللورد بايرون و پرسي شِلِي ثلاثي الأَدب الرومنطيقي الإِنكليزي. انقصف في ربيعه الخامس والعشرين.

١٠ شاعر إِنكليزي (١٧٩٢–١٨٢٢) اشتُهِر شِعرُه بالغنائية والنفَس الفلسفي. ظهَر تأْثيره بعد وفاته الباكرة في ربيعه التاسع والعشرين.

١١ شاعر إِنكليزي (١٥٥٣–١٥٩٩) اشتُهِرَ بملْحمته «الملكة الجِنِّيَّة» (١٥٩٠– ستة أَجزاء) وهي من أَطْول ملاحم الأَدب الإِنكليزي.

١٢ شاعر إِيطالي (١٢٦٥–١٣٢١) من أَشهر شُعَراء القُرون الوُسطى. رائعتُه «الكوميديا الإِلهية» (١٣٢٠) بالمحكية التوسكانية أَسَّست للُّغة الإِيطالية.

ووعيَ ما هو أَعمقُ من العُمق وأَرفعُ من العُلُوّ. جلَبَت من بيبلوس ومصر القديمة الكأْسَ والإِبريق لا الخمْرة. شَكَّلَت من الإِبريق البسيط والكأْس العادية أَوانِيَ ذهبيةً لكنها لم تملأْهما إِلَّا بالواقعية السائلة. في رأْيي أَنَّ الكائن الأَسمى في الميثولوجيا اليونانية هو پروميثيوس[٨]، إنما لا نَنْسَيَنَّ بأَن حاملَ النار الأَصليَّ ليس يونانيًّا بل كلدانِيّ، عرفَتْهُ شعوبُ آسيا الغربية قبل حرب طروادة بأَلْفَي سنة. قليلةٌ في العالم هي الشعوب التي تحب الفن الإِغريقي مثلي، لكنني أُحبُّه لِما فيه لا لِمَا ليس فيه. أُحبُّ ما فيه من فتنةٍ ونضارةٍ وجمال وكل جلالٍ ماديٍّ إِغريقيٍّ، لكنني في جميع هذه لا أَجدُ الإِلهَ الحيَّ بل أَتلمَّس ظلًّا لظِلِّه.

ومن آرائه في الأَدب:

لعلَّ أَعظمَ الآداب: العربيةُ – أَو بالأَحرى السامية لأَنني أُضمِّن فيها العبرية – ثم اليونانيةُ فالإِنكليزية. العبقرية أَلاَّ نقبَلَ ظواهر أُمور كما هي. كيتس[٩] وشِلِي[١٠] لم يقبَلاها. أَحبَّا المَشهد الأَدبي الإِنكليزي إِنما أَعطياه بُعدًا مغايرًا من عالَمٍ خيالي. وكذا فعَلَ قبلهما سپنسر[١١]. كان اليونان والرومان داخلَ بيئَتهم في العالَمَين الإِغريقي والروماني ولم يكونوا غرباءَ فيها. وكذا كان الفرنسيون في بيئَتهم وارتضوها. دانتِه[١٢] ثار على بيئَته وكان أَعظمَ الرافضين.

وعن شِلي كتب:

كان في ذاته عالَمًا. وكانت له روحُ إِلهٍ وثَّابٍ. وبرغم حُزنه وضعفه وحنينه إِلى بيئته، راحَ يُمضي وقته يغنّي عوالِمَ أُخرى. هو الأَقلُّ إِنكليزيةً بين الشعراءِ الإِنكليز، والأَكثرُ شرقيةً بينهم بالمنظار الشرقي.

أَخيرًا، قبل أَسابيعَ قليلةٍ من قراره المفاجئ البدْءَ في كتابة «يسوع ابن الإنسان»، كتب في بوسطن رسالةً، منها:

ليلة أَمس رأَيتُ مُجدَّدًا وجهَه أَوضحَ من أَيّ مرةٍ قبلًا. لم يكن وجهُه صوبي بل كان يتطلَّع بعيدًا إِلى وساعة الليل. رأَيتُ جانبًا من وجهه. بدا صافيًا وصارمًا معًا. تَهَيَّأَ لي في لحظةٍ أَنه سيبتَسم لكنه لَمْ. كان فتيًّا، خالدًا، بلا ملامحِ عُمْر. لم يكن إِلهًا بل ابنَ الإِنسان، مواجهًا كلَّ ما يواجه الإِنسان، مدركًا كلَّ ما أَدركه الإِنسان أَو سيُدركه.



اسم مجلة «فتاة بوسطن» كما خطه لها جبران



VOL. 5 NO. 4

FATAT BOSTON

W. E. Shakir

Annual Subscription

فتاة بوسطن

FATAT BOSTON

BOSTON, TUES. FEB. 12. 1918

جريدة «فتاة بوسطن» لوديع شاكر، تصدر مرتين في الأُسبوع، وعنوانها: ٤٠ شارع تايلِر (الشارع ذاته الذي كان جبران يسكن فيه – المبنى ٧٦).

هنا العدد ٤ من السنة الخامسة – الثلاثاء ١٢ شباط ١٩١٨.

كان له وجهُ مَن لا يُغلَب، وجهُ عاشقٍ وأَخٍ وصديق. شَعرُه مرتدٌّ إلى الوراء حاسرًا عن وجهه على جهتَي رأْسه كأَنْ جناحَان مُنَوَّرَان، عنقُه أَسمرُ قويٌّ، عيناه كأَنْ جمرتَان متَفَجِّمَتَان. للمرة الأُولى يا صديقي أُحسُّني أَستطيع أَن أَرسُمَ هذا الوجه رأْسًا على مقدَّم سفينة كبرى. رأَيتُهُ يمشي كما رجلٌ يَجْبَهُ الريح الهائجة وهو أَقوى من الريح. حين ارتدى ثوبَه الصوفيَّ الخشِن، ومشى مرفوعَ الرأْس، حافي القَدَمين الـمُغْبَرَّتَين من الطرقات الأُفعوانية، رأَيتُ مُجدَّدًا يدَيْه الصلْبَتَين ومعصَمَيه الـمَفْتُولَين كَغُصْنَين، وعلى مُحيَّاه لَـمَحتُ مرمًى بعيدًا، وتَوقًا مُغَلَّفًا بالسُكُوت.

[1] وصلَت باربره يونغ إلى بْشرِّي الساعة ١٠:٠٠ صباحَ الأَحد ٨ تشرين الأَوَّل ١٩٣٩، فزارت بيت جبران ومتحفه وضريحه والبطريرك أَنطون عريضة في الديمان، وعادت مساءً إِلى بيروت. وفي اليوم التالي زارت مدرسة «الحكمة» وغرفة جبران فيها. ونهار الخميس ١٢ تشرين الأول غادَرت عائدة إِلى نيويورك. وكانت إِقامتُها في «فندق بسُّول الكبير» على شاطئِ بيروت (التفاصيل في جريدة «السياسة»، السنة الأُولى، العدد ٣٧، الجمعة ٢٠ تشرين الأَول ١٩٣٩).

لنا الخلود

زيارة وادي قاديشا[1] - وادي النهر المقدَّس - هي الخروج من العالم الحديث، والتوغُّلُ روحًا وجسدًا إلى عالم قديم لا عُمْر له. فما حفَرَه هذا النهر من شخاريبَ وَوِهادٍ يشكّل حكاية من الزمان تَخطف النَفَس وتَحتَبِس الكلام.

لبلوغنا هذه المنطقةَ الأُسطوريةَ الرموز مررْنا بالطريق الساحلي من بيروت إلى طرابلس وما فيه من دروبٍ جيِّدة الرصف، وأَراضٍ بطول أَميالٍ خصيبةِ الزَرع أَشجارَ مَوزٍ وأَغراسَ تبْغٍ وقصبَ سُكَّر، وبساتينَ صغيرةً زاخرةً بالتين والزيتون والمشمش والتوت والليمون. بقاعٌ خصيبةٌ وسيعةٌ تمتدُّ بين البحر والجبال، وكل بقعة منها اعتنى بها لبنانيُّون مُشْرِقو الطَلعة ذوو دُربة وبَراعة.

مررنا أَيضًا بقطعان أَغنام دسمة أَرجعتْني ملامحُ رعاتِها إلى رعاة العصور السحيقة. بعد عبورنا جبيل، وهي بيبلوس التاريخ، انعطفْنا إلى طريق جبلية مُصَعِّدَةٍ صوب «أَرز الرَب» توصلُ إلى بْشَرّي المُتَفَيِّئَةِ ظلالَ تلك الشجرات المَهيبة في الغابة المَهيبة.

في أَسفل الوادي الذي بدأْنا الارتقاء منه إلى نحو تسعة آلاف قدَم، بساطٌ أَخضرُ خصيبٌ غنيٌّ بالأَشجار، يلتقي فيه النهر بِجَداولَ مُهرْوِلةٍ من أَعالي القمَم مسقسِقةٍ من أَفواه الينابيع وذَوْب الثُلوج. وكلما عَلَوْنا تصبحُ العَلواتُ صخريةً يَعرى معظمُها

٢ تَقصد الأَمير موريس شهاب.

٣ تَقصد فؤاد افرام البستاني.

٤ تَقصد إدمون وهبه.

٥ تَقصد ديڤيد أَزرق.

من الخضْرة إِلَّا بضع أَرزاتٍ منثورةٍ متباعدة. لكن جمالَ هذه الجبالِ الجليلَ أَقربُ من أَن يُنسَى وأَصعبُ من أَن يوصَف.

القمَمُ العُليا رماديةٌ كأَنها ذاتُ سِرٍّ عنيد، لكنها – مع أَشعَّة الشُروق الأُولى أَو خيوطِ الغُروب الأَخيرة – تتحوَّل عطوفةً متأَنِّقةً تهلُّ منها ملامحُ ورديةٌ بنفسجيةٌ ذهبية. إِنه جمالٌ بَريٌّ منسرحٌ ذو قوةٍ ربانيةٍ تستدعي إِلى البال صدى عبارة جبران: «لنا الخلود».

هنا الزمنُ وضغْط الأَحداث متخاصران وسْط مسافة مبهمة. كأَنَّ عصورًا لا أَميالًا تفصل مدينة بيروت – المُحتشدةِ بالضوضاء والأَلوان والحياة المُهَرولة – عن هذه الجبال المتباطئَة بسكونها، برعيانها المُصَبَّرين خلْف قطعانهم، وبنُسَّاكها المُستوحِدين في عمق تأَمُّلاتهم داخلَ مغاورَ وكهوفٍ مُجَوَّفةٍ في الصخور.

هكذا نطلُّ على مطالع السحْر لدى هذا الرجل من لبنان. هوذا بيتُه، وفيه ما لم يغادر عينَيه ولا روحَه. هوذا الجمال الذي إِليه ينتسب طفلًا وعاشقًا. هنا نغيب عن كل إِحساسٍ بحربٍ وشيكةٍ دلَّ عليها مرورنا بمعسكراتٍ جنودُها مستنفَرون.

نحن في تشرين الأَول ١٩٣٩. هنا ننسى أَن بيروت ودمشق مدينتان معتَّمتَان ليلًا، وشوارعَهما تعجُّ بأَفواج الجنود الفرنسيين المُشاة، من سنغاليين عُتاة جِيْءَ بهم لصدِّ أَيِّ عدوانٍ على جمهورية لبنان الصغيرةِ التي بدون جيش ولا بَحْرية، ولا تَحميها سوى فِرَقٍ من الدَّرك غيرِ مُجَهَّزة.

نُصَعِّد صوب بْشَرّي. يتردَّد في البال صوتٌ داخليٌّ: «إِنها بْشَرّي جبران خليل جبران». نعلو ثم نعلو، يخفُّ الهواء مع الارتفاع لكننا لا نشعر بضيق النَفَس بل بوسْع الفرح على هذه الدَرب المتأَفعنة الملتَمِعة.

مررنا بقريةٍ سَمَّاها لنا مَن يَحُجُّ معنا من أَصدقاء. هم لبنانيون طيبون مُميَّزون: حافظُ متحف بيروت الوطني[٢]، كاتبٌ رائد في صحافة لبنان[٣]، عضوُ المفوضية الفرنسية العليا[٤]، أُستاذُ علومٍ شابٌّ من الجامعة الأَميركية[٥]. جميعُهم «أَصدقاؤُنا» يُرافقونَنا من أَجل جبران، وفي إِخلاصهم له ولذكراه ما أَدفأَ قلبَ التي قطعَتْ ستة آلاف مِيل كي تجيْءَ إِلى أَرض جبران.

٦ ذكر ميخائيل نعيمه هذه الأُمنية في الفصل الثالث «الفجر» من كتابه عن جبران (١٩٣٤). ومما كتَب على لسان جبران: «لا بُدَّ لي ولكَ يا ميشا من الرحيل عن هذه البلاد... نفسي تطالبني بعِزَّتها، وفكري يُطالبني بِحُرّيته، وجسمي يطالُبني براحته. ولن أَستعيدَ عزَّةَ نفسِي وحريةَ فكري وراحةَ جسمي إِلَّا في لبنان. ليتَكَ تعرف الصومعة التي اخترتُها هناك... هي ديرٌ قديمٌ مهجورٌ في ضاحية من ضواحي بْشَرِّي اسمه دير مار سركيس، قائم في جبهة وادي قاديشا، عند سفح جبل الأَرز. غُرفُهُ قليلةٌ، محفورةٌ في قلب الجبل الكلسيّ، بينها كنيسة صغيرة. أَمامه منحدرٌ من الأَرض لا تزال فيه بعض أَغراس من الكرمة. هي خلوةٌ يا ميشا لا أَظنُّ في السماء أَجملَ منها... هناك سنعتزل العالَم يا ميشا... وسنعمل في الأَرض فنحوِّل اليابسَ منها أَخضرَ، والقاحلَ خَصبًا، وستباركنا الرياح، وتفرح بنا الشمس، ويحمل إِلينا الوادي أَنفاسَه المُلهمة... لن نَجِدَ يا ميشا أَجملَ وأَهنأَ وأَقدسَ من دير مار سركيس. وأَنت ستحب تلك الصومعة كما أَنا أُحبُّها...».

واضح من هذه المَقاطع أَن جبران كان يصفُ لنعيمه المَكان من ذاكرته التي بقيَت مختزنةً تلك الصوَر والذكرياتِ من أَيام طفولته وصباه، كما تذكُر باربره يونغ هنا عن أُمنِية جبران الغالية.

هذه قريةٌ، وتلك أُخرى. بيوتٌ بِلَون عاجٍ عتيق، سُطوحها بِحُمرة الصدَأ. راعٍ يراقب قطيعه يرعى خُضرة العشب بين أَكمام التلال. نتقدَّمُ ببُطْء، يتقدَّم الأَهالي منا. عيونُهم جميلة، ابتساماتهم رحبةٌ وَدُودَة، ملابسُهم غيرُ ملابسنا أَحببتُ انتماءَها إِلى حضارة بسيطةٍ عريقة.

بادَرني رفاق الدرب: «يعرفون مَن أَنتِ. سمِعوا أَن صديقةَ جبران الأَميركيةَ آتيةٌ تزور الديرَ اليوم. لذا خرجُوا مستقبلين مرحِّبين. ليتكَ تبادلينهم ببسمةٍ وتلَويحة يَد». لوَّحتُ لهم لكنّي لَم أَرَ وجوهَهم بوضوحٍ لأَن دموعي فاجَأَتْني عند إِدراكهم حبَّهم العظيمَ شاعرَهم، شاعرَ الأَرز.

ها هي الدرب التي كم دَرَجَ عليها. ها هي البلدة التي عرفَها وأَحبَّها. ها هم شيوخٌ بين الأَهالي عرفوه صبيًّا وسَمعوه. على طول الطريق كرومُ العنب المُخَطَّطةُ كرمًا تلو كرم في ترتيب وأَناقة، يتمُّ قطافُ عناقيدها السخيَّة المتلأْلئة.

بعيدون نحن هنا، ومرتفِعون عن أَيِّ ما يُذكِّرنا بما يجري هناك في سائر مدن العالم الخارجي. هنا نحن في عالم قريبٍ من السماء، ندخُلُه وعيوننا إِلى فوق، فوق، حيث الثلجُ يتمدَّد على تلال لبنان، نقيًّا أَبيضَ صامتًا، سِرِّيًّا كأَنه حاضنٌ سرَّ الله.

أَخيرًا... بْشرّي!

في الكنيسة داخلَ دير مار سركيس، تجويفٌ سردابيٌّ. هنا مدَّدوه، وإِلى هنا يكونُ الحج. هنا يقف الحجاج صامتين أَو يركعون خاشعين أَمام التابوت الجاثم داخل الكوة المحفورة في الصخر. هنا تضاءُ الشموع، ويتلو الصلواتِ مؤْمنون من معتقدات مختلفة، لأَن جبران كان أَخًا روحيًّا لجميع الناس، وهم يعرفون ذلك فلا يقف بينهم وبينه أَيُّ مذهبٍ أَو معتقدٍ أَو لونِ بَشَرة.

الدير عتيقٌ لا يعرف أَحد تاريخه السحيق. وهو وسْطَ وعرٍ محفورٌ في خاصرة الجبل، حتى أَن جدران بعض غرفه هي صخرةُ الجبلِ ذاتُها. هنا المكان الذي أَحبَّه جبران وكان أَحيانًا يأْتي إِليه في صباه، وكانت أُمنيته أَن يعودَ إِليه[٦] ويعيشَ فيه تحت ظلال الأَرز الذي أَحبَّه ولم يغادر باله. كانت أُمنيته أَيضًا أَن يرقد في «اسمرار

٧ تذكيرًا: زيارة باربره يونغ كانت سنة ١٩٣٩، وهي نسجَت كتابها سنة ١٩٤٤، أَي بين بداية الحرب العالَمية الثانية ونهايتها.

الأَرض الطيبة». وإِخال روحه الحرَّةَ اليوم تُـحَوِّم في هذا المكان أَملًا برؤْية كسائه البَشَري الراكد هنا مغلَّفًا بالوحدة الهادئة في التراب المنتظِر.

في مبنى صغيرٍ متواضعٍ من بْشرّي خُصِّص لهذه الغاية: عددٌ كبيرٌ من الرسوم واللوحات، نحو ٧٥٠، والأَثاث الحبيب الذي كان للشاعر طيلة سنواتٍ في محترفه النيويوركي. هوذا الكرسيُّ الذي كان يجلس عليه، وهي ذي الطاولة التي كانت تستقبل دفاتره السمراء، وعليها كتَب فصول «النبي» وأَعادها واستعادها خمس مرات.

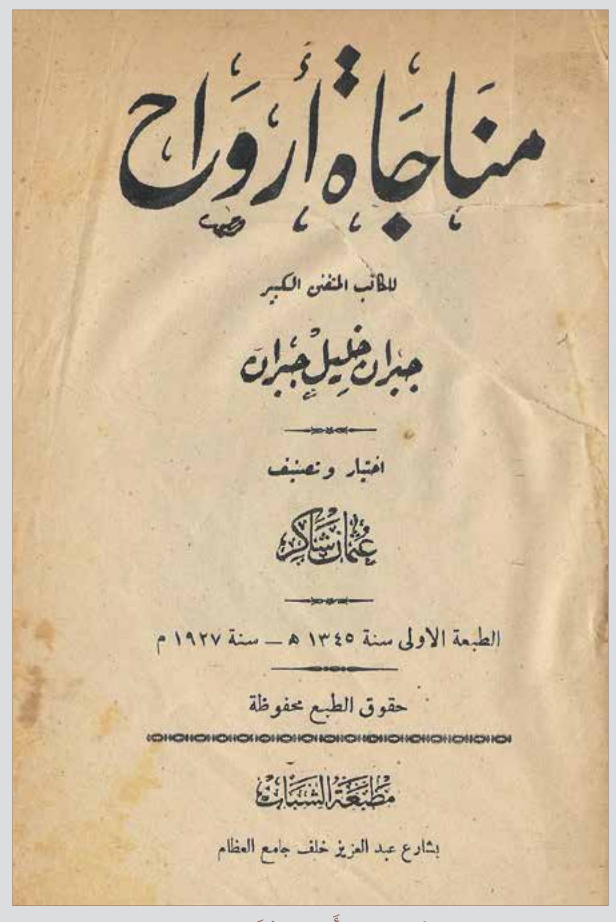
وها هي اللوحات الزيتية الكبيرة معلَّقةٌ إِلى الجدران الواطئَة، وهنا رُسُوم «الأُم الكونية»، «التضحية»، «آلهة الأَرض»، «شجرة الحياة»، ومئاتٌ أُخرى رسمها بالقلم الرصاص لا تقلُّ جمالًا، ممددةٌ على طاولاتٍ طويلة في ملفَّات تأَنَّى عليها الرسام مرارًا حين كان بعدُ بيننا.

عرفتُ أَنَّ كثيرين رغبوا في نقْل هذه الكنوز الثمينة إِلى بيروت لوضعها في متحفٍ مخصص لجبران. وبلغني أَنَّ لبنانيًّا مرموقًا عرض أَن يُقدِّم للمدينة قطعةَ أَرضٍ ملائمةً لبناء متحفٍ يضم مجموعة أَعمال جبران.

وإِذا الحرب عرقلَت كلَّ ما كان يمكن أَن يتمّ[٧]، فالأَمل عميقٌ أَن يتحقق هذا المشروعُ النبيلُ بعدما يعودُ السِلْم إِلى البلد الصغير والعالم الأَكبر.

في عودتنا نهارئذٍ نزولًا من الجبال، عاينَّا مسحورِين بهاءَ الليل اللبناني وجَلالَه: مع انسحاب نُور النهار ارتدَت جبالُ لبنان روعةً أَخَّاذة، تتماوجُ أُرجُوانيةً بنفسجيةً ياقوتيةً كما مياهُ المتوسط. ومع انبساط المساء تَحوَّلت السماء لازَوَرديَّةً ورديَّةً فضيَّةً، وراحت الجبال – تحت لأْلأَة ثُريَّات النجوم المُطِلَّة – تلتمع بسوادٍ جميلٍ كالعاج والبرونز المصقول. كانت ليلةً من حلْمٍ لا من الواقع.

ساحلًا تحت، بعد دروب الجبل، هي ذي مدينة طرابلس. نعبر شوارعَها المطفأَة بسبب الحرب، أَنوارُها الزرقاويَّة تتسلَّل مُحَجَّبةً خفيضة من شقِّ بابٍ هنا، من كوَّةِ نافذةٍ هناك، من غرفةِ نزلٍ هنالك، وتتناهى إِلينا أَنغامٌ غريبةٌ كأَنها صراخٌ يتناثَر في الجو. هي أُغنيةٌ عربيةٌ يرافقها العود، سمعناها خلال اجتيازنا المدينةَ مخترقين



كان جبران يشكو دائمًا لباربره أَن الصحُفَ في العالم العربي تنشر مقالاتٍ له من دون إِذنه، وتنشُر له الطبعات العربية من كتبه من دون احتساب حقوقه المادية.

هنا نموذج:

مختارات من كتاباته المتفرقة، صدرت بدون معرفته «مناجاة أَرواح»
للكاتب المتفنن الكبير جبران خليل جبران
اختيار وتصنيف عُثمان شاكر
الطبعة الأُولى سنة ١٣٤٥هـ. – سنة ١٩٢٧م. (يعني على حياة جبران)
حقوق الطبع محفوظة (لِمن؟؟!!؟؟)
مطبعة الشباب بشارع عبدالعزيز خلف جامع العظام (كذا).

الشوارعَ بتُؤَدَةٍ وحَذَر، بعضٌ من لحنها حزينٌ والآخَر حماسيٌّ، يُنْشِدها لبنانيون – مسيحيون ومحمديون معًا – تجمَّعوا في الباحات وعلى الشرفات يطرِّزون الليل غناءً لا يستطيعون القيام بسواه في المَدينة المُعَتَّمة.

في طريقنا الساحلي إلى بيروت، كانت تتردد في بالي كلماتُ جبران عن المدينة الحديثة التي بلا أَنوار. وها في بلاده مدينةٌ كانت ذات فترةٍ مشعشِعَةً ولا يُضيئُها اليوم إلَّا، كما كان يتمنَّى، نورُ القمر والنجوم، لأَن المصابيح المَوَقَّتة الزرقاء في الشوارع لا تبدو أَكثر من بصيصِ حباحِب وسْط عتمة. طبعًا لم يكن يتمنى أَن يتم ذلك في بلادِه الصغيرة الحبيبة وهي تحوَّلَت معسكرًا مسلَّحًا، مع أَنه كان يحدُس بالخطر الذي يتهدَّدها.

هذه البيروت اليوم ليست بيروت زمانه. فإِلى الخليط التقليدي من الأَلوان والأَزياء أُضيفت أَشكالٌ من كلِّ نوع: جنودٌ محتشدون في كلّ شارع وفي كلّ حافلة، ضباط يملأُون الفنادق مداخلَ ومقاصفَ، مسلَّحون في غرف الفنادق: فندق سان جورج الحديث الفخم، ونزْل سان شارل الجذَّاب الجميل بإِدارة راهباتٍ أَلمانيَّات، وفيه كنتُ مصمِّمَةً أَن أُمضي أَيَّامَ إِقامتي.

شُلَّت حكومة البلاد وبات رئيس الجمهورية صُوَريًّا مع فريق صغير من المعاونين. العالَم في حرب، ولبنان الصغير، المنتَدَب فرنسيًا، مَمسُوكٌ بِحزمٍ داخل شَرَك.

ربَّ سائل: ما علاقة هذا كلِّه بالسبع السنوات من الصداقة التي أَسترجعُها في هذا الكتاب. وجوابي: ذكرتُ كلَّ هذا لأَنني، على الرغم من هستيريا الحرب الداهمة، أَينما سِرْتُ كان اسمُ الشاعر كما مِدَالية مميَّزة على صدري.

فمع اقتراب السفينة «إِكْسْكالِبُر» من الرسُوِّ في ميناء بيروت، بدأَ إِجراءُ ختْم جوازات السفر. ولدى قراءة الموظف على جوازي كلمة «كاتبة» (في خانة الوظيفة)، سأَلني حازمًا ببعض اتهام:

– ماذا ستكتُبين؟



يسوع

ابن الانسان

اقواله وأفعاله كما اخبرها ودونها الذين عرفوه

وضعه بالانكليزية فقيد الشعر والفن

جبران خليل جبران

نقله الى العربية

الأرشمندريت انطونيوس بشير

[سنة ١٩٣٧ م * سنة ١٣٥٥ هـ]

إحدى الطبعات المزوّرة لـ«يسوع ابن الإنسان» من دُون ذكر الناشر

وعلى الغلاف:

يسوع ابن الإنسان

أَقوالُه وأَفعالُه كما أَخبرَها ودوَّنها الذين عرفوه

وضعه بالإِنكليزية فقيد الشعر والفن

جبران خليل جبران

نقله إلى العربية

الأَرشمندريت أَنطونيوس بشير

١٩٣٧م – ١٣٥٥ هـ.

– كتابًا عن شاعر ورسَّام لبناني.

– (ببعض الريبة) ما اسمُه؟

– جبران.

– جبران خليل جبران؟

– نعم.

وكان الاسم تعويذَة دخولي. اكتفى الموظَّف به وختَم جوازي بلحظة عاجلة.

جميعُ مَن لقيتُهم كانوا يعرفونه. في كلِّ مكانٍ كانوا يعرفونه. وسَرَت الكلمة انتشارًا سريعًا: في بيروت صديقةٌ لجبران من أَميركا. أَحسستُ كأَنَّ المدينةَ كلَّها باتت صديقتي، باسمه ومن أَجله.

في الفندق زارني رجالٌ مرموقون كانوا أَترابه في المدرسة. جاؤُوا يحدِّثُونني عنه ويسأَلونني كثيرًا عن حياته في أَميركا، بينهم قائدُ الدرك الكولونيل الياس المدوَّر، المُكَرَّم فترَتَذَاك تقديرًا لموقفه مع الحلفاء.

وكان أَنَّ يومَ الإِبحار عودةً إِلى أَميركا بات حتميًّا. جميع الأَميركيين غير الساكنين في لبنان استُعجِلوا للمغادرة إِلى بلادهم. إِنما كان عليَّ بعدُ أَن أَزور مكانًا قبل مغادرتي.

في حرَم المبنى القديم لمدرسة «الحكمة»، صرحٌ حديثٌ مؤَاتٍ متطلباتِ المؤَسسة التعليمية. نهار الأَحد الأَخير من زيارتي لبنان، ذهبتُ إِلى هناك، مصطحبةً ابن السنوات الأَربع: حفيدي كريستوفر الذي رافقني في كلِّ زيارتي. وكما طوال زياراتي إِلى بْشَرّي ومدينة دمشق القديمة وكل مكانٍ آخر، رافقني ديڤيد أَزرق، أُستاذُ العلوم الشابُّ في الجامعة الأَميركية، مَن لِكياسته واندفاعه واهتمامه فضلٌ على كل جميلٍ ومفيدٍ عاينْتُهُ في وطن جبران. وكان هو الذي بَرْمَج زياراتي بعدما تبلَّغْتُ بأَن عودتي إِلى أَميركا حتميةٌ، فكان مُترجمي ودليلي، وفوق كلِّ ذلك، صديقًا بأَنبل معنى الكلمة، لم يتركني حتى اللحظة الأَخيرة من صعودي إِلى السفينة للمغادَرَة.

ثلاث لقطات لـ«فندق بسُّول الكبير» الذي نزلت فيه باربره يونغ إبّان زيارتها لبنان.







٨ الأَب يوحنا مارون (١٩٠٣-١٩٧٦)، رئيس معهد الحكمة بين ١٩٣٢ و١٩٤٤.

في ذاك الأَحد الأَخير، ذهبنا معًا: ديڤيد وكريستوفر وأَنا، إلى مدرسة «الحكمة»، وعاينَّا ما تمَّ فيها صالحًا لتعليم التلامذة اللبنانيين أَرفعَ ما في العالم العربي من تقاليدَ وثقافة. استقبَلَنا الأَب يوحنا مارون[٨]: كاهن طويل، نحيل، أَسود العينين، واصطحَبَنا إلى رواق طويلٍ حتى توقَّف فجأَةً عند بابٍ عتيقٍ صغيرٍ رَثٍّ واطئٍ بدا غريبًا عمّا يُحيط به من بناءٍ حديثٍ جديدٍ وأَنيق.

وضع الكاهن يدَه على قبضة الباب، فبادرني ديڤيد: «في هذه الغرفة كان صفُّ جبران. يسمونها «قلب المدرسة»، ويحرصون أَن يُبْقوها كما هي بدون أَيِّ تعديل. ولكي لا يمَسُّوها، بنَوا حولها الجناح الحديث».

دخلْنا. غرفةٌ عتيقة فعلًا. مقاعدُها متهالكة، طاولاتها جَرَّحتْها أَثلامًا سكاكينُ التلامذة من تلك الأَيام، المنبرُ الذي كان يجلس إِليه الخوري الحداد (الوحيدُ الذي أَفاد من تعليمه جبران)، اللوح الأَسْوَد العتيق. وضَع الكاهن قطعةَ طبشور في يد الصغير كريستوفر الذي يُحِبُّ صديقه خليل الساكنَ «في الضباب»، فرسمَ الطفلُ على اللوح الأَسود أَشكالًا مبهمَة، وسْط صمتِنا جميعًا.

في المساء التالي، عشيةَ السفر، زارَني في الفندق نفرٌ من أُولئك الأَصدقاء الطيِّبين. لم يُجيئوا كُرمى لي بل استذكارًا هذا الرجلَ من لبنان. أَقول هذا للتعبير عمَّا كانوا يكْرمون يوميًا، بكل طريقةٍ وسلوك، ذكرى مُواطنِهم الذي عاش معظم حياته في بلادنا، وفيها ماتَ تاركًا لعالَمِنا وعالَمهم إِرثًا فيه كنوزٌ لا يُحصيها كلامٌ ولا قياس.

بين مَن جاءَ مساءَئِذٍ: ديڤيد أَزرق، الكولونيل الياس المدوَّر، النحَّات يوسف الحويك، الموظَّف في المفوضية الفرنسية العليا إِدمون وهبه، الصحافي والكاتب المرجعي في الأَدب العربي فؤَاد البستاني، حافظُ متحف بيروت الوطني الأَمير موريس شهاب، وسعدتُ كثيرًا أَن يجيء أَيضًا رئيسُ الجامعة الأَميركية بايارد دودج وزوجتُه وكانا سهَّلا كثيرًا مهمَّتي واستضافاني مرارًا في حديقتهما اللطيفة.

تحدثنا عن جبران طبعًا، وعن إِمكان رجوعي إِلى لبنان بعد انتهاء الحرب، للعمل على إِبراز إِرثِ الشاعر كي يكون أَكثر فائدةً لِمَن يرغَبون.



الجرس الكبير في أَعلى برج كلية كولورادو الجامعية، وفي أَسفله عبارة جبران «أَمس ذاكرةُ اليوم، والغدُ حُلمُه».

٩ عن جريدة «السياسة» (عدَدِها يوم الجمعة ٢٠ تشرين الأَول ١٩٣٩) أَن لعودتها المفاجِئَة سببًا آخَر: «... وصلَتْنا معلوماتٌ عن سبب عودتها المُسرعة، فإِذا هي: في لندن سيِّدة أَلْمانية معجَبة بِجبران جدَّ الإِعجاب. لَمَّا علِمَتْ أَنَّ باربره يونغ رافقَت جبران في السنوات الأَخيرة من حياته، راسلَتْها إِلى نيويورك مقترحةً عليها أَن تُسافرَ إِلى لبنان وتضَعَ كتابًا مُطَوَّلًا عن جبران. وقدَّمت لها مبلغ أَلْفَي دولار لقاءَ نفَقات الرحلة. وافقَتْ باربره يونغ على الاقتراح، وقبضَت سِلْفةً من المبلغ قيمتُها خمسمئَة دولار، وتركَت نيويورك في منتصف آب الماضي. فاجأَها خبرُ إِعلان الحرب وهي في عُرض البحر فلم تعبَأْ لذلك، وتابعَت سفَرَها إِلى بيروت. وفي لبنان نفدَت منها السِلْفة فراسلَت تَطلب بقيَّة المبلغ من تلك السيِّدة الأَلمانية فاعتذرَتْ عن ذلك بسبب نُشوب الحرب. عندئذ رأَت السيِّدة يونغ أَن تعود إِلى بلادها ملتَجِئَةً إِلى رئيس الجامعة الأَميركية في بيروت المسْتر بايارد دودج الذي مدَّ مواطنتَه الشاعرةَ بمبلغٍ يُساعدها على بُلُوغ نيويورك».

١٠ وَفْق كلامها، يكون موعدُ سفرها صباحَ الثلثاء الذي تلا زيارتَها مدرسةَ «الحكمة» نهار الأَحد. بينما جريدةُ «السياسة» (في العدد ذاته) تَذكُرُ أَنَّ باربره زارت بْشَرّي صباح الأَحد ٨ تشرين الأول، و...«عادت إِلى نيويورك صباح الخميس ١٢ تشرين الأَول قبل أَن تُتِمَّ المهمةَ التي جاءت من أَجلها».

١١ كان في التصميم الأَوَّل لكلِّيَّة كولورادو الجامعية سنة ١٨٧٤ أَن تُقام في حرَمها كنيسة. سنة ١٩٢٧ اقترح رئيس الجامعة تشارلز ميرو تشييد الكنيسة في مبنى مستقلٍّ عن مباني الجامعة. سنة ١٩٢٨ تبرَّع بمصاريفها عضو مجلس الأُمناء رجلُ الأَعمال يوجين ﭙـيرسي شوڤ (من طائفة «الكْويكِرْز)، وكانت ٣١٦ أَلف دولار، تُضاف إِليها ١٠٠ أَلف دولار لتأْمين الصيانة الدَورية. شُيِّدَ المبنى على طراز كاتدرائية وِسْتمِنْسْتِر من القرن الخامس عشر. تَمَّ تدشينُ الكنيسة باحتفال التخرُّج نهار الثلثاء ٢٤ تشرين الثاني ١٩٣١، فكانَ ذاكَ أَولَ مبنًى جديدٍ في الحَرَم منذ ١٩١٤، وآخِرَ مبنًى حجَريٍّ شُيِّدَ فيه. برجُ الكنيسة يضُمُّ خمسةَ أَجراسٍ وُصِفَت بأَنَّ لها «أَجمل طنينٍ في الغرب الأَميركي، يُسمَعُ صوتُه في محيط الجامعة البعيد كلَّ ربع ساعة، وله صوتٌ آخَر كلَّ ساعة». ولأَهَمِّيَّةِ المبنى التاريخية أُدرِجَ سنة ٢٠٠٥ على لائِحة «المباني الوطنية التراثية في الولايات الـمُتَّحدة».

ثم غادروا متمنِّين لي سفرًا سعيدًا. وانطوت الصفحة الأَخيرة من الفصل الأَخير.

في سكون تلك الليلة، خرجتُ وحدي إِلى شرفة الفندق الجذَّاب الصغيرِ ذي اللافتة العريضة: «أُوتيل بسُّول الكبير»، فوَق تَكَسُّر الموج على الرصيف الجميل لجُون مار جرجس عند زاوية شارع شاتوبريان وجادَّة الفرنسيين. رددتُ في صمتي ذينَك الاسمَين الفرنسيَّين الجميلَين لشعوري برفضٍ غريبٍ أَن أُغادر بيروت، أَن أُغادر لبنان. فأَنا جئْتُ إِليه كي أُمضي فيه سنواتٍ فأَدرسَ العربية لأَتمَكَّنَ من الترجمة، وكي يتلقى حفيدي دروسَه الأُولى هنا، فأَسمعَه في طفولته ينطق بكلماتٍ عربيةٍ، ويغني أُغنياتٍ عربيةً، ويعيش في الجو الذي كان ينتمي إِليه جبران.

كانت لي بْشَرّي جَوهرةَ جمالٍ بسيطٍ وصدْقٍ فِطريّ. كنت أَنوي أَن أَعيش جزءًا من السَنَة في بْشَرّي، والآخَرَ في بيروت. لكنها الحرب داهَمَتْني[٩].

الْتفتُّ من شرفة الخليج إِلى الجبال المحيطة في البعيد، فبَدَت لي تُجَسِّدُ السلام الأَزلي، مُمَدَّدَةً تحت عناقيد النجوم المُتَدلِّية فوق، في سماء الليلة الزرقاء.

وَ... فجأَةً: أَميركا، بلادي، بيتي. لاحَ لي كلُّ ما ومَن تركتُ هناك، أَحبابي الأَقربون، فَغمرَت قلبي موجةٌ من فرحٍ، أَني غدًا[١٠] مُبْحِرةٌ إِليهم.

اختار جبران أَميركا وطنه الثاني. فيه عاش معظَم سنواتِه وفيه أَتمَّ أَعمالَ حياته وحبِّه. واستقبلتْه أَميركا بِإِخلاصٍ وتهليل.

ولن تنساه أَميركا.

وربما هنا في أَميركا، لا في لبنان، ستجدُ قوةُ كلماتِه وأَعماله قنواتِها الأَوسع والأَعمق فتُصبح نهرًا يُنعش عالَمًا خَرِبًا عقيمًا.

في المَقلب الآخَر من المُحيط، عندنا في الغرب، برجٌ كبير لكنيسة متحف شوف لدى كلية كولورادو الجامعية[١١]، فيه مجموعةٌ أَجراس مصبوبةٌ في كْرُوْيْدُن– إِنكلترا، أَكبرُها ضخمٌ من ستة أَطنان يَطنُّ كلَّ ساعة. وعلى هذا الجرس مَحفورةٌ هذه الكلمات: «**أَمس ذاكرةُ اليوم، والغدُ حُلْمُه**» – خليل جبران.

١ للأمانة العلْمية والأدبية، أَنقُلُ هذا الفصلَ/الملحقَ حرفيًّا كما أَورَدَتْه باربره يونغ في ختام كتابها، من دون أَن أَتدخَّلَ لتصويب بعض ما فيه من مغالطاتٍ في التواريخ والوقائع، أَو مبالغاتٍ في السرد، منها ما ربَّما سها عنها، ومنها ما نَقَلَتْه كما كان جبران رواه لها فتَبَنَّتْهُ كما هو.

٢ هذه الرسوم، وسواها (المعرِّي، ديك الجن الحمصي، الغزالي، مجنون ليلى، المعتمد بن عبَّاد) ظهرَت لاحقًا في كتاب جبران «البدائع والطرائف» (القاهرة ١٩٢٣)، لكنَّ باربره يونغ لم تطَّلع على الكتاب لكونه بالعربية لذا لم تذكُر سائر الرسوم فيه.

سيرة في تواريخ[1]

١٨٨٣	٦ كانون الثاني – ولادةُ جبران خليل جبران في بْشَرّي، لبنان. دراستُه الأُولى في البيت، تَعَلُّمُهُ العربيةَ والفرنسيةَ والإنكليزية.
١٨٩٤	وصولُهُ إلى بوسطن مع أُمِّه وأَخيه وشقيقتَيه الصُغرَيَين.
١٨٩٦	عودتُه وحدَه إلى بيروت وقبولُهُ في «مدرسة الحكمة»، متلَقِّيًا دروسًا خارج المنهج المدرسيّ، منها الطب والقانون الدولي والموسيقى وتاريخ الأَديان.
١٩٠١	إنجازُهُ الدروسَ بتَفَوُّق. فترتَيَّذٍ، وكان في الخامسةَ عشْرة، كتَب الصيغة الأُولى من «النبي»، وفي السادسة عشْرةَ ساهمَ في تحرير مجلةٍ أَدبيةٍ فلسفية: «الحقيقة»، وفي السابعة عشْرةَ نشَرَ أَولَ نص له على صفحات جريدة في جبل لبنان، ووضَعَ رُسُومًا لشعراء عرب تَخيَّلَهم إِذ لم تكن لوجوههم رسومٌ من قبل: ابن الفارض، أَبو نواس، المتنبي، الفيلسوف ابن سينا، المؤَرّخ ابن خلدون، والشاعرة العربية الكبيرة الخنساء[2]. بعد تَخَرُّجه زار اليونان وإِيطاليا وإِسپانيا في طريقه إلى پاريس.
	دراستُهُ الرسم في پاريس، وغزارةُ كتابته بالعربية طيلة سنتين. إحراق كتابه «الأَرواح المتمرِّدة» في ساحة عامة من بيروت بُعَيدَ صدوره، وبسبب هذا

٣ تبنَّتْ باربره يونغ هذه العبارة حرفيًّا وجعلَتْها عنوانَ الفصل الثاني من هذا الكتاب.

٤ هي المرة الوحيدة في الكتاب تأْتي فيها باربره يونغ على ذكْر ماري هاسكل، بسبب ما كان بينهما من فُتورٍ بعد وفاة جبران.

الكتاب صدر قرارٌ بِنَفْيِهِ من بلاده، وحُرْمٌ من الكنيسة المارونية لاعتبار الكتاب «خطِرًا وثَورَويًّا ومسمِّمًا عقولَ الناشئة»[٣].

١٩٠٣ عودته سريعًا إلى أَميركا بسبب موت أَخيه وشقيقتِه الصُغرى ومرضٍ قاتلٍ أَصابَ أُمَّه التي بلَغَها وهي على فراش الموت، فلم تَبْقَ له إِلَّا شقيقتُه مريانا في بوسطن.

١٩٠٣ (إِلى ١٩٠٨): وضْعُهُ رسومًا وكتاباتٍ بالعربية، في ذاك المربَّع السوري من بوسطن. بدأَت رُسُومُه تلفتُ مَن حوله. في تلك الحقبة كتب «النبي» بالعربية. وكان له معرضٌ (كانون الثاني ١٩٠٤) في محترف المصور الشهير فْرِدْ هولِنْد داي راعيه الأَوّل، ومعرضٌ آخَر (شباط ١٩٠٤) في مدرسة كمبردج، وهي مؤَسسة تعليمية خاصة كانت تديرها الآنسة ماري هاسكل التي أَصبحت صديقةَ جبران المقرَّبة وراعيتَه[٤]، ثم من جديد معرض لدى محترف داي مع نهاية العام ذاته (١٩٠٤) لكن المبنى احترق كلِّيًّا مرمِّدًا كلَّ المجموعة من رسوم ولوحات.

١٩٠٨ سفَرُهُ إلى پاريس (مارًّا بلندن) لدرس الرسم في أَكاديميا جوليان Julian ومعهد الفنون الجميلة.

١٩٠٨ تَلَقِّيهِ نبَأَ القرار برفْع النفي عنه لأَنَّ «الحكومة التركية الجديدة... أَصدرت عفوًا عامًّا عن جميع المنفيِّين».

١٩٠٨ (إِلى ١٩١٠): التقاؤُه في پاريس مشاهيرَ وضعَ لهم رُسومًا، بينهم رودان، هنري دو روشفور، دوبُسِّي، موريس مايترلنك، غاريبالدي الحفيد، إِدمون روستان. مشاركتُه مرتين في معرض پاريس.

١٩١٠ عودته ربيعًا إِلى بوسطن، ثم انتقالُه لاحقًا في تلك السنة إِلى نيويورك متَّخذًا محترفه في المبنى ٥١ من الشارع العاشر غربًا، وهو أَول مبنى في أَميركا مخصَّصٍ للرسامين والنحاتين. بقاؤُه في ذاك المبنى حتى وفاته.

٥ هو المعروف بـ«دمعة وابتسامة».

٦ هو المعروف بـ«عرائس المُروج».

١٩١٠ (إلى ١٩١٧) إقامتُه معارض في صالات مونترُسّ (نيويورك، كانون الأول ١٩١٤)، كْنودْلِر (نيويورك ١٩١٧)، دُلّْ وريتشاردز (بوسطن، نيسان ١٩١٧).

١٩١٧ (إلى ١٩٢٢): إعادتُهُ كتابةَ «النبي» بالعربية التي وضع بها أَيضًا قصةَ «الأَجنحة المتكسرة»، نصوصَ «العواصف»، كتابَ «الدموع والضحك»[٥] نصوصَ «عرائس الوادي»[٦]، وكتاب «المواكب» وهو منظُوم وفْق قواعد العروض والقوافي العربية. وصدر له كتاب «البدائع والطرائف» متضمِّنًا رسومًا لشعراء وكتَّاب عرب كان وضعَها وهو في السابعة عشرة. وكذلك وضَعَ لـ«المواكب» رسومًا بتقْنية جديدة وصوفية أَخَّاذة.

١٩٢٢ (إلى ١٩٢٩): معرضان له في تلك الفترة: نادي المدينة النسائي (بوسطن، كانون الثاني ١٩٢٢)، وفندق بريڤورت (نيويورك كانون الثاني ١٩٢٩)، ووضْعُه في الفترة ذاتها رسومًا لمشاهير ذاك العصر، بينهم: الليدي غريغوري، ساره برنهارد، وليم بطلر ييتس، الدكتور تشارلز إِلْيُوت، ريتشارد لو غاليانّ، پول بارتْلِتْ، جون ميسْفِلد، ليونورا سپاير، إِدوين ماركهام، عبدالبهاء، جورج وليم راسْل، لورنس هيوسمان، جوهان بوْيِر، وِيْـتِر باينر، روث سانت دنيس، جوزفين پْرِسْتُون پِـيْـبَدي، أَليس رافايل. حاليًا: مائيتان وثلاثة رسوم هي في متحف متروپـوليتان (نيويورك)، وعدد آخر في متحف فوغّ (كمبردج، ماساشوستس)، ومتحف بروكلن ومتحف نيوَارْك. وفي محفوظات باربره يونغ منفِّذَة وصيَّته الأَدبية مجموعةٌ من الرسوم والمائيات عَرَضَتْها في عددٍ من المدن الأَميركية وفي إِنكلترا وپاريس.

١٩٣١ وفاته في مستشفى سانت ڤِـنْسِنْتْ (نيويورك، ١٠ نيسان). عرْضُ جثمانه يومين في بيت للموتى توافدَ إِليه الآلاف لوداعه، ثم نقْله إِلى بوسطن وعَرَضُه بحراسة مواطِنين من بْشَرّي وإِقامة الجنَّاز في كنيسة صغيرة (سيدة الأَرز)، ووَضْعهُ في مدفن مُوَقَّت حتى نقْله إِلى لبنان في تموز إِثْرَ مراسمَ دينية على المرفإِ في پروڤـيدِنْس تلاها نقْل الجثمان بَحرًا إِلى بيروت ثم بَرًّا إِلى بْشَرّي حيث نعشُه اليوم داخل تجويف سردابي من مغارةٍ تحت الكنيسة في دير مار سركيس.

فهرس الأَسماء

الـ

ب

پ

ت

ج

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ع

غ

ف

ڤ

ك

ل

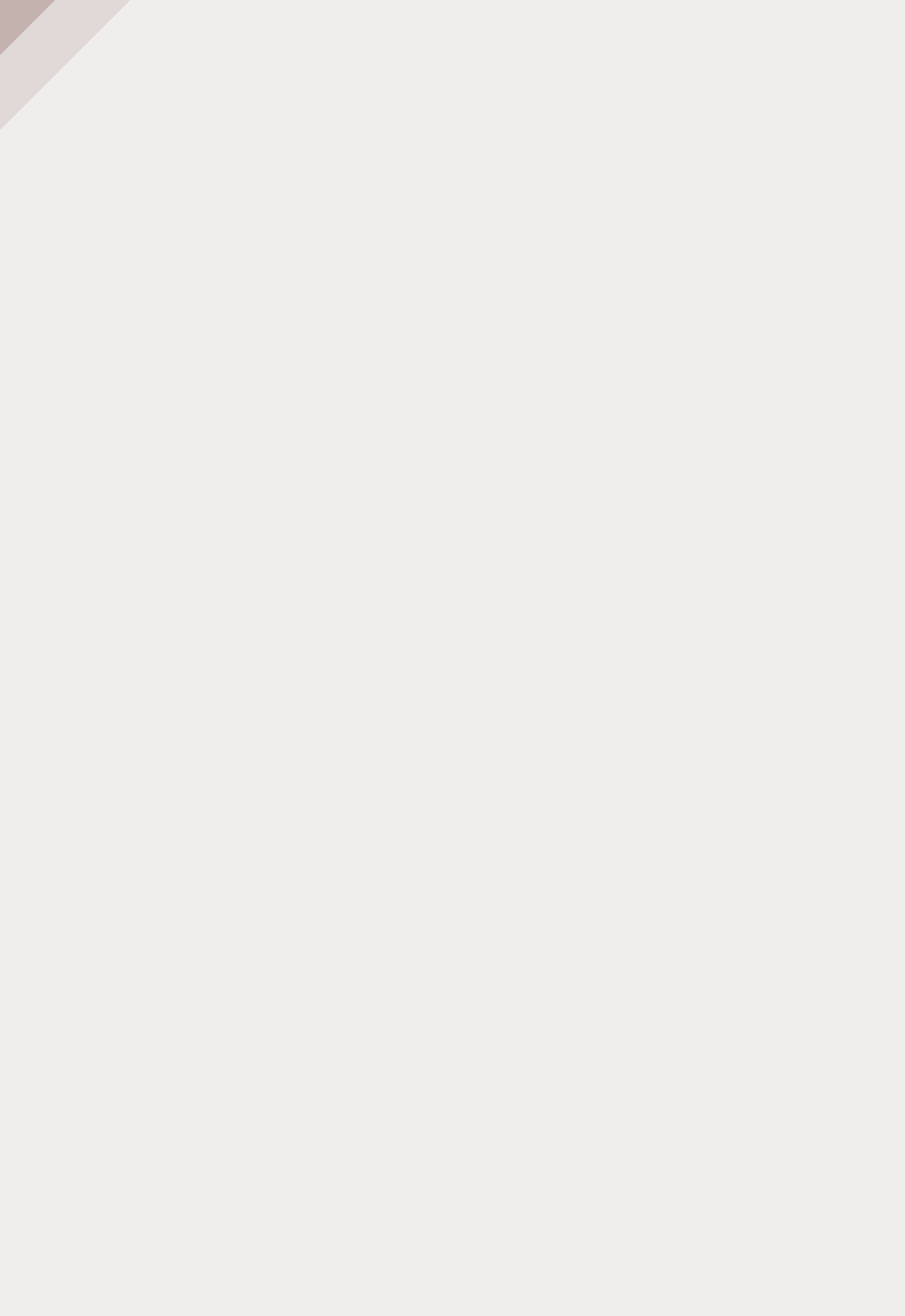
م

ن

هـ

و

ي



القسم الثاني

عنه بأَقلامهم

ترجمةُ نُصوصٍ إِنكليزيةٍ متفرِّقةٍ عن جبران

بعد القسم الأَول (ترجمتي الحرفيّة كتابَ باربره يونغ «هذا الرَجُل من لبنان»)، أُورِدُ في هذا القسم الثاني نُصوصًا متفرِّقةً أُخرى لباربره يونغ عن جبران لم تَرِدْ في كتابها.

وخلال أَبحاثي وجدْتُ نصوصًا لسواها عن جبران، في مراجعَ أَميركية (كُتُب، صحف، مجلّات) حرصْتُ على ترجمتها عن الإِنكليزية حرفيًّا كي أُحافظَ على أَمانة كتابتها.

وفي هذا القسم أَيضًا أُورِدُ مجموعةَ نصوصٍ بالعربية حرصْتُ كذلك على نقْلها حرفيًّا أَمانةً لتكامُل الصورة عن جبران.

الـ«هاجيوغْرافيا»

في كتابة السيرة، تتَّخذ الـ«هاجيوغْرافيا» بُعدًا آخرَ مُختلفًا.

لغةً، هي من كلمتَين يونانيَّتَين، «هاجيو»: «القداسة» (أَو «المُقَدَّس»)، و«غْرافيا»: الكتابة.

من هنا أَنَّ الـ«هاجيوغْرافيا»[1] هي كتابةُ سيرةِ قدّيسٍ أَو مقاربةُ أَعماله. ومع العصور، باتت تعني أَيَّ كتابةٍ تتناول عَلَمًا بشَريًّا يَرفَعُهُ كاتبُها إِلى هالةٍ عُليا من التقديس والتعظيم والتسامي والرِفعة، فيصبح أَعلى من مستوى البشر وأَقربَ إِلى مستوى القداسة.

هكذا تكتسبُ الكلمةُ مَعْنَيَيْها بالبُعْد الحقيقي: كتابةُ سيرةِ قديسٍ (أَو مُكرَّمٍ) ودراسةُ أَعماله أَو نتاجه الكتابي إِن كانت له كتابات، وبالبُعْد المجازي: تعظيمُ سيرةٍ حتى مستوى التقديس والمثال الأَعلى حتى تصبح هذه السيرة نوعًا من الـ«هاجيوغْرافيا» (سيرة تقديسية) أَكثرَ منها مُجرَّد «بيوغْرافيا» (سيرة بَشَرية).

---

[1] آثرتُ إِبقاءَها على لفْظها الأَجنبي، قياسًا على ما يدرُج في العربية من استعمالات «بِيُوغْرافيا» (كتابة السيرة) و«أُوتوبِيُوغْرافيا» (السيرة الذاتية)، و«بيبلِيُوغْرافيا» (ثَبْتُ المصادر والمراجع في بَحثٍ أَو دراسة)، واعتماد كلمة «جغرافيا» (كتابة أَحوال الأَرض). ويذهب بعضُهم إِلى اعتبارها عِلْمًا تصُحُّ الكتابةُ فيه، فيُسمِّيها «هاجيولوجيا» على سياق «جيولوجيا» و«أَنتروپـولوجيا» و«سيكولوجيا» و«فينومينولوجيا» وما إِليها.

في العادة أَن تكونَ النصوصُ الهاجيوغْرافية مُخَصَّصَة لصلاةٍ فردية ذاتية، أَو لِتلاوةٍ جَماعية علَنية، ما ينقلها، شكلًا ومضمونًا، إِلى قالب الأُسطورة أَو الخوارق الدينية أَو النَحْوِ بها إِلى الأَسْطَرَة حين يَروح الكاتب الهاجيوغْرافيُّ يرسُمُ لمُكَرَّمِهِ شخصيَّةً ذاتَ غرابةٍ وتَفَرُّد، أَو أَقوالًا غريبةً خارجَ كلامٍ مأْلوفٍ يتلفَّظ به شخصٌ عاديٌّ، كما يَحصل أَحيانًا في نُصوص الأَدب الشعبي أَو في رواياتٍ شفَوية (قصص الحكَواتي نموذجًا) تتعدَّى الواقع فيدخل فيها الكثير من الخيال والمُبالغة وعناصر الإِدهاش.

هكذا دخلَت الـ«هاجيوغْرافيا» على أَعمالٍ أَدبيةٍ وفنيةٍ لا يمكن اعتبارُ كاتبِها مؤَرِّخًا أَو باحثًا بالمعنى الأَكاديمي، لأَنَّ كتاباتِه تُثيرُ شُكوكًا حول الصدقيةِ في معظم سَرده، وتَحفُّظًا على صحة الكثير من مضمونه حول وقائعَ أَو أَحداثٍ أَو وَقْعٍ أَو أَصداء، حتى ليغدو مضمونُ نَصِّهِ غيرَ مُقْنِعٍ ولا صالحٍ للاستشهاد به أَو اعتبارِهِ مرجعًا ثابتًا يخضع للنقد الموضوعي، وقد يَبلغ أَن يُشكِّكَ البعض أَحيانًا حتى في نصوصٍ دينيةٍ مكتوبةٍ هاجيوغْرافيًّا.



ذلك كان شعوري حيالَ باربره يونغ وأَنا أُترجمُ كتابَها حرفيًّا.

ففي كتابها «هذا الرجل من لبنان»[٢] – كما في الذي تيسَّر لي جَمعُهُ من كتاباتها عنه على حياته وعند وفاته وبعد غيابه – أُسلوبٌ من الأَسْطَرَة والتأْليه والتعظيم، ما لا يمكن قولُهُ أَو ذِكْرُهُ عن بَشَريٍّ سَويٍّ، وهو ما جعل بعضَهم يشكِّك في صحة الكثير مما ذكَرَتْه عن جبران أَو نقلَتْه عن لسانه. ولولا عودتي إِلى مصادِرَ مُوَثَّقَةٍ مكتوبةٍ ومنشورةٍ في حينها، لكان الشكُّ بَلَغَ بي حتى في رواية ما قامت به من أَنشطةٍ كثيرةٍ (معارض، قراءَات، نَدَوات، ...) لنَشْر كتاباته ولوحاته ورُسُومه كي تُعَرِّفَ الناس إِلى أَهميته وعظمة الإِرث الذي تركَه غيابُه.

٢ استوحَتْ عنوانَه من عنوانٍ لجبران («رجل من لبنان بعد تسعةَ عشَر قرنًا») في الفصل الأَخير من كتابه «يسوع ابن الانسان»، وهي كانت في المُحترَف شاهدةً على كُلِّ كلمةٍ فيه إِذ كان جبران يُملي فصولَهُ عليها فتدوِّنُها.

وأَكثر: قام لاحقًا من شكَّكَ في صحةِ أَن تكون صفحاتُ «حديقة النبي» جميعُها لجبران، وهو مات قبل أَن يُنجِزَه، حتى إِذا صدَر لاحقًا (سنة ١٩٣٣) لدى منشورات «كنوف» ذاتها، قام من ينسُبَ جُزءًا من الكتاب إِلى باربره يونغ لحُجَّتَين:

١) أَنها كانت تُدوِّنه تباعًا كلَّما أَملى جبران مقاطعَه عليها.

٢) أَنَّها عايشَت جبران في محترفه ستَّ سنواتٍ متتاليةٍ في إِيقاع شبْهِ يوميّ، وتَشبَّعَت من أَقواله وأُسلوبه وأَفكاره وآرائه التي كانت تشاركُه الكثيرَ منها، خصوصًا حول التقَمُّص.

لهذَين السببَين رأَى كثيرون أَنْ قد تكون هي، بعد وفاة جبران، أَكملَت الكتاب في نسْيجِه الأُسلوبي ذاته.

على أَنني لا أَظنُّ أَصحابَ هذا الرأْي اطَّلعوا على سيرة هذه المرأَة ومسيرتها الأَدبية، كي يعرفوا أَنها ذاتُ شخصيةٍ أَدبيةٍ ناضجة، كان لها الكثير من الفضل في نشْر صورة جبران ومسيرته التي لم تَكْتَفِ بعد وفاته بمتابعتِها في نيويورك (ومُدُنٍ أُخرى) فجاءت إِلى بيروت (مدرسة «الحكمة») وإِلى بْشَرّي (ضريح جبران وبيته الوالديّ) ما يعكس – بكتابها فيه وكتاباتها عنه وأَنشطتها لأَجله – إِخلاصَها الـ«هاجيوغْرافيّ»[٣] له رجُلًا وكاتبًا ورسَّامًا.

هذا الإِخلاصُ لديها هو الذي حاولتُ إِظهاره في سياق هذا الكتاب.

---

٣ على أَيٍّ حال: جبران ذاتُه، في علاقاته مع الآخرين، لم يكن بعيدًا عن إِيحائه لهم بصورةٍ له «هاجيوغْرافية»، كما يظهر أَيضًا في يوميات ماري هاسكل عنه وتصويرِها إِياه وتصديقِها كلماتِه ورواياتِه بما لا يقلُّ وصفُها إِيَّاه عن رغبته هو في «أَسْطَرَة» شخصيته و«هاجيوغْرافِيَّتها».



مَن هي؟

قليلةٌ هي المعلومات الشخصية والأَدبية عن باربره يونغ، وكثيرةٌ هي المراجع والدراسات والكتب والأَبحاث والسِيَر البيوغرافيَّة عن جبران، ويكاد لا يخلو أَيُّ كتاب عن جبران من ذكْر أَو تنويه أَو دور لباربره يونغ في سيرته الشخصية ومسيرته الأَدبية والفنية، خصوصًا في السبع السنوات الأَخيرة من حياته.

شخصيًّا: هي هنرييتّا بْرِكِنْرِدْج. وُلِدَت سنة ١٨٧٨، حملَت من زواجها اسم بُوتُن لكنَّ زواجها لم يَدُم، فانفصلَت عن زوجها وانصرفَت إِلى الكتابة شِعرًا ونثرًا، وإِلى تربية ابنتِها الوحيدة مارجُري بوتُن (مارجُري هاناي بعد زواجها).

أَدبيًّا: هي شاعرة أَميركية معروفة، لها كتُبها الشعرية ومقالاتها في صحف ومجلَّات (أَبرزها «نيويورك تايمز») وتولَّت القسم الأَدبي والشِعري في مجلة «العالم السُوري».

حلَّت باربره يونغ في حياة جبران مكانَ ماري هاسكل. لكن علاقتَها بجبران لم تكُن حميمةً (لا نصوصَ ولا وقائعَ تُثبت ذلك) بل اقتصر حضورُها أَدبيًّا في حياته على مهمةِ كاتبةٍ وسكرتيرة، وكان حضورُها فاعلًا مثمرًا في حياته وبعد غيابه.

تُوُفيت سنة ١٩٦٢ عن ٨٤ عامًا.

بين تلك المراجع الكثيرة أَقتصر في هذا الفصل على اقتطاف ما ورَدَ عنها في بعض الكتُب البيوغرافية عن جبران.



كتاب ميخائيل نعيمه «جبران خليل جبران – حياتُه، موتُه، أَدبُه، فنُّه»

مؤَسسة نوفل – بيروت – الطبعة الثامنة ١٩٧٨ (ص ١٥، ١٦، ١٧)

يصف نعيمه كيف، نحو الساعة ٥:٣٠ عصرَ الجمعة ١٠ نيسان ١٩٣١، فيما يستعدُّ للانصراف من محلٍّ تجاريٍّ كان يعمل فيه، رنَّ الهاتف ونوديَ عليه لإنبائِهِ أَنَّ جبران في مستشفى سانت ڤِـنْسِنْت وأَنه في غيبوبة وأَنه، في تقدير الطبيب، لن يعيش حتى منتصف الليل. هرع إِلى المستشفى سائلًا عن الغرفة حتى إِذا بلغَها وصف الآتي:

«أَمام باب الغرفة رجلٌ تحيط به نسوةٌ ثلاث. وإِذ أَقتربُ، تنفردُ من الثلاث واحدةٌ طويلةُ القامة، عظميّةُ الهيكل، زعفرانيّةُ اللون، حادَّةُ الأَنف، غارقةُ العينين، فتخطو نحوي مادَّةً يُمناها إِلَيّ. هي شاعرةٌ أَميركية في النصف الأَول من عقدها السادس. عرفَت جبران منذ سبع سنواتٍ فتقرَّبَت منه وكانت تُساعده في نسخ مؤَلَّفاته. كنتُ قد التقيتُها مرةً عنده. وإِذ أَضع يدِي في يدها تتنهَّد وتقول: «أَشكُر الله، أَنكَ هنا».

في قلبي وفي عينيَّ وعلى وجهي سؤَالٌ واحدٌ يتردَّد لساني في طَرحه، فتُجيبُني عليه هذه السيدةُ قبل أَن تسمعَه من فمي:

– لم يبقَ من أَمل.

– أَخبريني ما جرى.

– كنتُ البارحةَ عنده فوجدتُهُ يعاني آلامًا لم يُعانِ مثلَها من قَبْل. دعَونا الطبيب وسأَلْناه إِذا كان من ضرورةٍ لنقْله إِلى المستشفى في الحال. فأَجاب أَنْ لا بأْسَ لو بات ليلتَه في بيته. لم أَشأْ أَن أَتركَه وحدَه فقضيتُ الليل عنده. وفي الصباح، صباحَ اليوم، الجمعة، اشتدَّ عليه الوَجع فجِئْنا به إِلى هنا بين الساعة ١٠:٠٠ و١١:٠٠.

– ولماذا لم تُخبريني أَمس أَو اليوم باكرًا؟

– أَمس كنا نظنُّ أَنه عارضٌ ويزول. واليوم، عندما جئْنا به إِلى هنا كنتَ أَوَّل مَن خطر ببالي. غير أَنني أَجهل رقم تلفونِك. بقيتُ أُفكِّر بواسطةٍ أَتوصّل

بها إِليك، حتى خطَرَ لي أَن أُتلفِن إِلى إِدارة مجلة «العالم السُوري» لتُطْلعَكَ على الأَمر. وهكذا كان. أَشكُرُ الله أَنكَ أَتيت.

- كيف هو الآن؟

- غابَ عن الوعي بعد الظهر بقليل، ولا يَزال في غيبوبة.

- هل عرَض عليه أَحد أَن يعترف ويتناول؟

- سأَلَتْه الراهبة: «هل أَنتَ كاثوليكي»؟ فأَجابها بنبرةٍ قوية: «كلّا»، فتركَتْه وانصرَفَتْ. وبعد أَن انتقلَ إِلى حالةِ الغيبوبة جاءَه كاهنٌ سوريٌّ – هو رجلٌ قصيرٌ لعلَّك تعرفه – وأَخذ يناديه بأَعلى صوته: «جبران، جبران» وجبران لا يعي. وقد بلغ استيائي من ذلك الكاهن وخشُونَتِه حَدًّا تمنَّيتُ معه لو كانت ليَ القوةُ الكافية لطَرحه من النافذة.

- هل فعَل الكاهن شيئًا؟

- هذا كلُّ ما فعله.

- وأَين الطبيب؟

- ها هو.

وأَشارت إِلى الرجل الواقف أَمام الباب (...).»



كتاب رياض حنين «الوجهُ الآخَر لجبران»

دار النهار للنشر – بيروت – الطبعة الأُولى: ١٩٨١ (ص ٣٤ – ٣٥)

جاء ذكْرُ باربره يونغ كما يلي: «... ومن النساء اللواتي عرفَهُنَّ جبران: باربره يونغ، رفيقتُه طوال السنوات السبع الأَخيرة من حياته، ومؤَلِّفَةُ كتابٍ عنه بالإِنكليزية «هذا الرجُل من لبنان». وتمهيدًا لوضْع كتابها هذا جاءَت إِلى لبنان سنة ١٩٣٩،

وزارت بْشَرّي حيث وُلد، واتصلَت بالكثيرين من أَصدقائه وأَنسبائه ورفاقه ومُـحبِّيه وممَّن عرفوه.

وقبل زيارتها بْشَرِّي سأَلَتْ أَن تزور مدرسة «الحكمة» في بيروت حيث درَس جبران سنتين. كان معها حفيدُها كريستوفر (٤ سنوات) وكان يرافقها – ترجمانًا ودليلًا – ديڤيد أَزرق (أُستاذٌ في الجامعة الأَميركية). وعن تلك الزيارة كتبَتْ: «مكانَ المدرسة القديمة، يقوم اليوم معهدٌ حديثٌ جميلُ الهندسة والإِبداع المعماري. دخلْنا حرَم المدرسة يرافقنا رئيسُها الأَب يوحنا مارون، وهو كاهن أَسمر العينين، طويلُ القامة نحيلُها، حتى إِذا وصلْنا إِلى بابٍ صغيرٍ واطئٍ بدا كأَنه في غير موضعه بين كل ما هو جديدٌ وعصريٌّ في البناء الحديث، وقف الأَب يوحنا ووضع يده على حلقة الباب فتوجه إِلَيَّ ديڤيد قائلًا:

– هذه هي الغرفة التي تعلَّم فيها جبران في صباه. يسمُّونها اليوم «قلب المدرسة» لأَن المدرسة الجديدة شُيِّدَت حولها، ورفض المسؤُولون المَسَّ بهذه الغرفة فتركوها كما هي.

دخلْنا الغرفة فإِذا هي قديمةٌ فعلًا: ها هي المقاعد الدراسية القديمة ثلَّمَتْها سكاكين التلامذة، وها هو المنبر القديم الذي كان يجلس عليه الخوري يوسف الحداد الذي قال لي عنه جبران إِنه: «الرجل الوحيد الذي علَّمني شيئًا»، وهذا هو لوحُ الكتابة الأَسودُ باقٍ كما هو لم يتغيَّر فيه شيء».

إِلى هنا انتهى ما كتبَت باربره يونغ عن زيارتها.

وفي ما بعد روى لي الخوري لاوُن مقصود – وكان مديرَ الدروس العربية عهدئذٍ وشاهدًا على زيارة باربره يونغ – أَنها قالت لحفيدها:

– كريستوفر، إِنْحَنِ وقَبِّل الأَرض التي وطِئَتْها قَدَما جبران الذي تُحبُّه.

فانحنى الصغير، وقبَّلَ الأَرض».



كتاب اسكندر نجار «قاموس جبران خليل جبران»

دار الساقي - بيروت - الطبعة العربية الأُولى

ترجمة ماري طوق - بيروت ٢٠٠٨ (ص ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١)

في مَدخل «باربره يونغ» وَرَدَ ما يلي:

«يونغ باربره (١٨٧٩-١٩٦٤)

ناقدة أَدبية في صحيفة «نيويورك تايمز». اسمُها هنرييتا بوتون، لكنها اشتهرَت باسمها المستعار باربره يونغ. أَصدرَت كتُبًا بأَسماء مستعارة، منها «مفاتيح الجنة» (Keys of Heaven) - ١٩٢٧، و«أَمضي سائرةً» (I go walking) - ١٩٣٣. غداة صدور «النبي» حضرَت أُمسية شعرية أَلقى فيها الممثل باتلر داڤِنْپورت بعضَ المقاطع من «النبي» في كنيسة سانت مارك الأَنكليكانية. فَتَنَها المؤَلِّف فكتبَت رسالة إِليه سنة ١٩٢٥ تطلب موعدًا لمقابلته. دعاها إِلى منزله فقصدَتْهُ. نشأَتْ بينهما مودة، وظلَّت طوال ست سنوات سكرتيرته المتفانية، تُدَوِّن ثم تَطبع على الآلة الكاتبة كلَّ ما يمليه عليها، حافظةً أَوراقَه، مدبّرةً شؤُونَ أَعماله. بعد ماري هاسكل أَصبحت هي ملاكه الحارس. نظَّمَت له أُمسيةَ قراءاتٍ لأَعماله في فندق بريڤورْتْ وحفلاتِ قراءةٍ أُخرى في «جمعية أَصحاب المكتبات». وكانت هي التي وجدَتْه في ١٠ نيسان ١٩٣١ يحتضر في سريره فسارعت تَنْقُلُه إِلى مستشفى سانت ڤِنْسِنْت.

عقب وفاة جبران تولَّت باربره يونغ نشْر كتابه «التائه»، مُلْغِيَةً تعديلاتٍ كانت ماري هاسكل أَجرتْها، وأَبقَت على «كلمات القديس» في المخطوطة كما هي. نشرَت كتاب «حديقة النبي» مُجْرِيةً عليه تحويراتٍ جوهرية. وأَقامت في محترف جبران مُـحَوِّلةً إِياه إِلى «مكان مقدس». حاولت إِتلاف رسائل جبران حرصًا منها على مَحْو آثار «نقاط ضعفه» لكنَّ ماري هاسكل أَنقذتْها في اللحظة الأَخيرة. وسنة ١٩٣٩ زارت لبنان ووضعَت كتابها «هذا الرجل من لبنان» تمجيدًا لشخصية الراحل، وفيه ١١ رسمًا لجبران.

في ١٢ تموز ١٩٤٥ وجَّهَت رسالةً إِلى «السيد سميث» المسؤُول لدى منشورات «كنوف»، تُقْنعه بالعدول عن نشْر ترجمة «الأَجنحة المتكسرة» بالإِنكليزية، معتبرةً أَن هذا العمل يرقى إِلى فترة الصبا ويُسيْءُ إِلى سِمعة جبران لأَنه شديد الرومانسية ويتضمن أَفكارًا ثورية. ومما ورَدَ في رسالتها: «أَقولُ لكَ أَنْ لا أَحد غيري يُمكنه أَن يُعيد كتابة هذا الكتاب على طريقة جبران، إِذ لا أَحد عَمِل معه كما عملتُ أَنا. لستُ متعصِّبة لجبران كما يزعم نقاد كثيرون. ثمة كتابٌ آخر يمكنني كتابتُه أَسردُ فيه قصصًا كثيرة عن تجاربَ خُضْتُها معه لكنني لن أَكتبَه حرصًا على سُموّ الموقع الذي سيحتلُّه هذا الكتاب في قلوب وأَذهان مئات الآلاف من القراء في جميع أَنحاء العالم. لِيَبْقَ هذا بيننا. فأَنا كتبتُ عمَّا اعتبرتُهُ ضروريًّا لمكانة جبران. لذا، من موقع مسؤُوليتك كناشر أَعمال جبران، ومسؤُوليتي أَنا كمنفِّذة إِرثه الأَدبي ومساعِدَتِه طوال سنوات، لا يمكننا أَن نسمح بذلك».

في أَواخر أَيامها منحَت باربره يونغ، أَو باعت، لوحاتٍ عدةً لجبران، بينها رسوم «يسوع ابن الانسان» المحفوظة اليوم في نيويورك لدى (World House – River side).

وفي مدخل «الأَجنحة المتكسرة» من كتاب اسكندر نجّار، ورَدَ ما يلي:

«في رسالة غير منشورة إِلى «السيد سميث»، المسؤُول في دار «كنوف» للنشر، مؤَرخة في ١٢ تموز ١٩٤٥، كتبَت باربره يونغ:

«كان جبران منزعجًا من إِصرار بني شعبه اللبنانيين والسوريين على اعتبار هذه القصة سيرةً ذاتيةً لا قصةً من وحي خياله الشاعريّ. وهو ما نفاه جبران قطعًا. وليس مَن له حسٌّ سليمٌ يمكن أَن يقول إِن هذا الكتابَ سيرةٌ ذاتية، أَو يمكن أَن يتخيَّل أَن جبران يكتب بإِسهابٍ وصراحةٍ عن تجربة شخصية كهذه، فهو أَكثر الناس تكتُّمًا على حياته الخاصة. مستحيلٌ أَن يكون كشفَ عن علاقةٍ حميمةٍ كهذه».

بعد وفاة جبران ونجاح كتاب «النبي» شاءَت «دار كنوف» نشْرَ ترجمةٍ إِنكليزيةٍ لـ«الأَجنحة المتكسرة» وضعَها أَنطوني فارس، لكنَّ الدار اصطدمَت برفْض

باربره يونغ التي وجَّهَت إِلى الناشر رسالتَها تلك، شارحةً رفضها بما يلي: «لا أَعرف كيف أُعبّر عمّا أُحس به حيال هذه المسأَلة الشائكة والدقيقة حول مخطوطة «الأَجنحة المتكسِّرة» الإِنكليزية مترجَمَةً عن العربية، والتي أَرسلتموها إِلَـيَّ نهار الجمعة الماضي. سأَكون واضحةً في كلامي، صريحةً في موقفي، كي لا نكون في مأْزق: كان في محترف جبران نسخةٌ من الكتاب مترجَمَة إِلى الإِنكليزية لكنه لم يشأْني حتى أَن أَقرأَها لأَنه كان يعتبرها «رواية تافهة». وقال لي أَنْ إِذا كان لا بدَّ من إِصدارها بالإِنكليزية (ولم يكُن متحمِّسًا لذلك) يجب إِعادة صياغتها من جديد. وأَذكر أَنه لاحقًا عاد فمزَّق تلك المخطوطة. كان من عادته، أَمام سطرٍ كتبَه فجاء أَدنى من الكمال الذي دومًا ينشُدُه، أَن يقول: «لن يصدُر هذا السطر مطبوعًا إِلَّا على جثتي». وإِنني، انطلاقًا من قوله ذاك، أَرى أَنْ لا يحقُّ لنا أَن ننشر على جثته أَسطرًا لا يرضى عنها. في الكتاب اتهاماتٌ ومزاعمُ مناهضةٌ الكنيسةَ ورجالَ الدين من أَفكاره إِبان فترة شبابه الثائر. لكن الحياة لاحقًا علَّمتْه أَنَّ مثل هذه الحملات على النظام السائد غيرُ مُجْدية، ولم يعُد راغبًا في زرع الشقاق بين أَبناء عالمنا. وذاك النص صورةُ شابٍّ موهوبٍ في آخر مرحلة المراهقة، حاول أَن يكتبَ قصته الرومانسية الأُولى ويضمِّنَها انفعالاتِه المضطربةَ وهو لا يزال غير قادر على التحكُّم بتعابيره عن تلك المشاعر أَو ضبْطها، كما نجح بذلك في أَعماله اللاحقة. ليس مهمًّا نشْرُ أَعمالٍ كتَبها مؤَلفٌ عظيمٌ تعكس انفعالاتٍ في شبابه الطائش ليس قادرًا على إِعادة النظر فيها لاحقًا، وإِلَّا نكون نُسيْءُ إِلى تراثه ومكانته. فهل تتصوَّر ما سيكون موقف النقاد والباحثين من نشْر «الأَجنحة المتكسرة» بالإِنكليزية؟ أَجزُم أَنَّ نقدهم سيكون مصيبًا، وهنا تكون المشكلة».



كتاب «خليل جبران - أَبْعَد من الحدود» (بالإِنكليزية)

تأْليف جين وخليل جورج جبران

منشورات إِنترلنك - ماساشوستس - ٢٠١٧ (ص ٣٨٥ - ٣٨٦)

هنا ترجمةُ المقطع عن باربره يونغ:

«كانت هنرييتا بوتُون (مولودة بْرِكِنْرِدْج) في الرابعة والأَربعين يوم استمعَت، في خريف ١٩٢٣، إِلى الممثل باتْلِر داڤِـنْـپـورْت يقرأُ من كتاب «النبي» في كنيسة سانت مارك إِنْ ذُ باوِري. كانت مثاليةً ومسالِمةً كما معظمُ مريدي جبران وقادريه الـخُلَّص والمتأَثِّرين بكتاباته. تخَرَّجَت من المدرسة الرسمية في مدينتها آلْبَني (عاصمة ولاية نيويورك) ودرَّست اللغة الإِنكليزية في مدارس خاصة، ثم انتقلَت تعيش في مانهاتن وتزاول حياتها الأَدبية ككاتبة.

انفصلَت عن زوجها (بوتُون) وانصرفَت إِلى تربية ابنتِها الوحيدة ونشْر قصائد لها في جريدة «نيويورك تايمز». اشتهرَت ببراعتها في محاكاة أَساليب الشعراء عند الطلَب فكانت بسهولةٍ «تؤَلِّف» قصيدة شكسپيرية أَو أُخرى من الشعر الحديث. نشرَت بأَسماء مستعارة عدّة، منها بِن بريغام، ثم استقرَّت على اسمها المستعار الذي شاع: باربره يونغ.

أَثَّرَت بها عميقًا عباراتُ «النبي» التي سمعَتْها في الكنيسة فأَخذَت تستشهد بها في قراءاتها الشِعرية العلَنية وفي مقاطع من كتاباتها المنشورة. في آذار ١٩٢٥ علمَتْ بأَنَّ جبران ليس متصوِّفًا قابعًا بعيدًا في جبل لبنان بل كاتبٌ يعيش ويعمل في محترفه (المبنى ٥١ الشارع العاشر غربًا، في حي غرينيتش، أَسفل مانهاتن). كتبَتْ إِليه رسالةَ تقريظٍ طالبةً منه موعدًا فوافق وذهبَت إِليه.

بين جميع النساء في حياة جبران، باربره يونغ هي الأَقلُّ جاذبية: طويلةٌ، عظْمية الهيكل، فيها بعضٌ من جمال جوزفين پيبَدي، وجاذبية شارلوت تِلِر، وذكاء ماري هاسكل. لم تكن حسناءَ ولا فاتنةً كمعظم الصديقات في محيطه، ولا جميلةً كموديلاته للرسم. كانت نشيطة، حازمة، مخْلصة، موهوبة، ذاتَ هيبةٍ وتأْثيرٍ ونيَّةٍ

أَن تساعده دون التدخُّل الحميم في حياته الخاصة. أَوَّلُ خيط جمعَهما معًا: إِيمانُها بالتقمُّص. كانت تؤْمن بأَنها في حياةٍ سابقة عاشت في أَفريقيا، ولها في ذلك قصيدة عن جذورها عنوانها: «ذاتَ حياةٍ كنتُ صبيَّةً سمراء». وكانت تشاركُ جبران رأْيه في رفض آراء المؤَرخين الأَكاديميين، وهو ما سينقلب عليها حين ستكتُب سيرتَه لاحقًا. إِنما شدَّه إِليها أَنْ وجَد فيها توأَمَ روحه، والأَهم: اندفاعها في مساعدته والعمل معه.

بعد عشرين سنةً وقعَت في هفوةٍ تأْريخية عند ذكْرِها أَنَّ جلستها الأُول لديه لتدوين نصوصه كانت في خريف ١٩٢٥ يوم أَملى عليها قصيدة «الشاعر الأَعمى». والحقيقة التاريخية أَنَّ هذه القصيدة كانت قبلذاك منشورةً في مجلة «الشرق الجديد». والأَرجح أَنه خريفَئِذٍ كان بدأَ يدوِّن أَمثالًا وأَقوالًا متفرِّقةً، وعندئذٍ بدأَ عملُها في مساعدته بها، موفِّرةً عليه معاناةَ تنظيمِها وجمعِها وتبويبِها ونسْخِها ثم طبْعها على الآلة الكاتبة. تلك هي الفقراتُ التي صدَرت لاحقًا في كتاب «رمل وزبد».

طيلة السنوات الثلاث اللاحقة أَصدرَت مجموعةً شعرية لها «مفاتيح الجنة»، وأَنشأَت مكتبةً باسم «بيت الشعر» في المبنى ١٢ من الشارع العاشر شرقًا، ونظَّمَت أُمسيةً شعرية عامة لجبران في فندق بريڤورْتْ، ونسَّقَت له احتفالًا كبيرًا في مقر «جمعية مكتبات الجادة الخامسة» وقرأَتْ من شعره في حضور نخبة أُدباء وشعراء».





زيتيتان لشارلوت تِلر بريشة جبران

كتاب ڤِرجينيا حلو

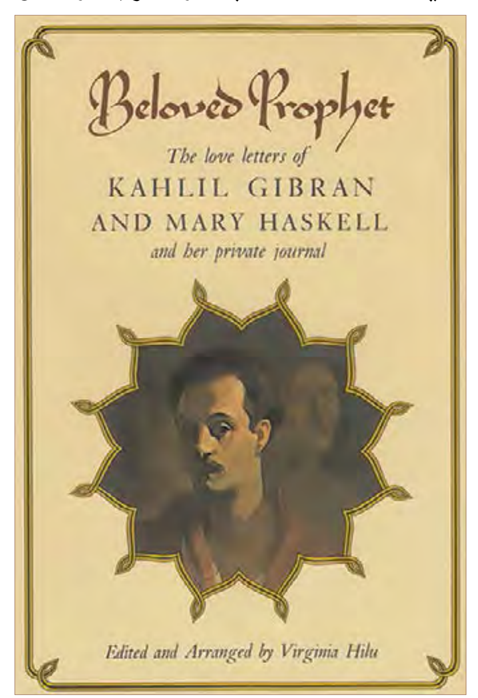
«النبي الحبيب - رسائل الحب بين جبران وماري هاسكل ودفاتر يومياتها»

منشورات «كوارتِتْ» - لندن - ١٩٧٣ - ٤٤٨ صفحة قطعًا وسَطًا

هنا ترجمة حرفية لأَبرز ما جاء عن باربره يونغ في هذا الكتاب:

من مقدمة الكتاب - ص ٩ و١٠

«في السنوات الستِّ الأَخيرة من حياة جبران، قليلةً جدًّا أَمست الرسائل بين جبران وماري هاسكل. وهي لم تنكشف بكاملها إِلَّا بعد خمسة أَيام من وفاته، عندما وجدَتْها باربره يونغ في محترف جبران إِذ كانت، مع ماري هاسكل، ترتِّب الأَغراض واللوحات والرسوم والأَوراق في المحترف. وحين سحبَت من بين الأَغراض المتراكمة صندوقًا كبيرًا وفتحَتْهُ، ظهرت فيه رسائلُ فَضَّت بعضها فوجدتْها من ماري إِليه. لا بُدَّ أَن تكون صُدِمت، هي التي كانت مُساعِدَتَه الأَقرب في السنوات الست الأَخيرة من حياته، ومع ذلك لم تعرف شيئًا عن علاقته السرِّيَّة بماري هاسكل، وتلك الرسائِل على بُعدِ خطواتٍ منها في المحترف. اكتشفَت ما في تلك الرسائل من حُبٍّ وشغَفٍ وما كان جاريًا بينهما. هي التي كانت تظُنّ أَنها تعرف الكثير عن حياة جبران الخاصة، لم تعرف شيئًا عن علاقته بماري هاسكل. لذا أَذهلَها أَن تكون الرسائل مستكينةً طوال ربع قرن في الصندوق الكبير المُخبَّإِ بعناية بين أَغراض جبران.



غلاف كتاب فرجينيا حلو، وهي أول من كشف عن رسائل جبران وماري هاسكل، بتكليف قانوني من شقيقته مريانا جبران.

أَول ما فعلَتْه: طلبَت من ماري هاسكل أَن تُحرقها مدَّعيةً أَنَّ تلك الرسائل قد تُسيْءُ إِلى صورة جبران. وافقَت ماري في البدء ثم عادت فرفضَت. إِنها رسائل حياتها مع جبران: حافظَت على جميع رسائله إِليها، ولم تكن تعرف أَنه هو أَيضًا حافظَ على جميع رسائلها إِليه. أَيُّ رعشةٍ بين الحزن والفرح تكونُ انتابتْ ماري وهي تفاجَأُ بحفظه تلك الرسائل وتتعرَّف إِلى خطِّها فيها. ولأَنها تؤْمن أَنَّ جميعَها – رسائلَها إِليه ورسائلَه إِليها – ستكون مُلْك أَيامٍ آتية قد تقدِّر جبران كما هي قدَّرَتْه، أَفادت في اليوم التالي من غياب باربره عن المحترف بسبب وعكة صحية، فجاءَت سريعةً إِلى المحترف، حزمَت جميع تلك الرسائل، حملَتْها بحرصٍ كثير، وسافرَت عصر النهار ذاته إِلى ساڤانا (ولاية جورجيا) حيث بيتُها الذي أَمضَت فيه بقية حياتها، حتى وفاتها في مصحٍّ للعجَّز صبيحة الجمعة ٩ تشرين الأَول ١٩٦٤ عن ٩١ عامًا[١].

وكانت قبلذاك بخمس سنواتٍ شعرَت بالوهن الصحيّ والعقليّ يتسلَّل إِليها فرتَّبَت بعنايةٍ حُزمَة الرسائل (٣٢٥ رسالة من جبران إِليها بين ١٩٠٤ و١٩٣١، و٢٩٠ رسالة منها إِليه)، وضمَّت معها ٤٧ دفترًا هي مجموعةُ يومياتها الخاصة عن حياتها مع جبران، وأَهدتْها جميعَها سنة ١٩٥٩ إِلى مكتبة «المحفوظات النادرة» لدى جامعة نورث كارولاينا في تشاپِّل هِلّ حيث لا تزال محفوظةً بكل عناية حتى اليوم».



ڤِرجينيا حلو من أَصل لبناني. وُلدَت سنة ١٩٢٩ في مدينة پيسْتبورغ (پنسلڤانيا) حيث استقرَّ والدها إِثر هجرة جدِّها من لبنان هربًا من الحرب العالمية الأُولى. أَتقَنَت ڤِرجينيا العربية مع الإِنكليزية. عملَت طويلًا محقِّقَةً ومراجِعةً كُتُبًا لدى عدد من دور النشر الأَميركية، فاشتُهرت بتحقيقاتها الأَدبية. سنة ١٩٦٧ كلَّفتْها مريانا جبران، بواسطة محاميها الياس شمعون (بوسطن)، مراجَعة رسائل جبران وماري هاسكل (لدى مكتبة جامعة نورث كارولاينا في تْشاپِّل هِلّ). عملَت خمس سنوات على تحقيق الرسائل، ونسَّقَت مختاراتٍ منها نشرَتْها في كتابها سنة ١٩٧٢ لدى منشورات «كنوف» – نيويورك، وصدرَت طبعةٌ ثانية لها لدى منشورات «كْوارتِتَ» (لندن ١٩٧٣). توفيت بالسرطان سنة ١٩٧٦ عن ٤٧ عامًا.

١ ذكرَت ڤِرجينيا حلو في الصفحة ١٥ من هذه المقدمة أَنَّ ماري وُلِدَت في مدينة كولومبيا (ولاية كارولاينا الجنوبية) في ١١ كانون الأَول ١٨٧٣، أَي أَنها تكبر جبران بعشر سنوات.

خروج ماري ودخول باربره

رتَّبَت ڤرجينيا حلو هذه المقتطفات من الرسائل وَفْق التسلسل الزمني، سنةً بعد سنة، منذ الجمعة ٢ تشرين الأَول ١٩٠٨ (أَول رسالة إِلى ماري من جبران في پاريس) حتى آخر رسالة منه إِليها (الإِثنين ١٦ آذار ١٩٣١) قبل وفاته بثلاثة أَسابيع. وفي الصفحة ٤٣١ من الكتاب، عن رسائل سنة ١٩٢٧، مهدَّت ڤرجينيا حلو للمنتخَب من رسائل تلك السنة بمقدمةٍ هنا بعضُ ما جاء فيها:

«مع هذه السنة، ١٩٢٧، تكون مضَت ثلاث سنوات على وجود ماري في مدينة ساڤانا الهادئة (ولاية جورجيا) بعيدًا عن صخب الحياة التي كانت أَمضتْها في بوسطن. فها هي تنعم بمنزلها العريق الفخم المترف (المبنى ٢٤، شارع غاستون الغربيّ) مع زوجها فلورنس ماينِس[٢]. إِذًا هي ظلَّت نحو ثلاث سنواتٍ لا تأْتي إِلى نيويورك لزيارة محترف جبران كما كانت تزوره غالبًا من قَبْل وتَطَّلِع على جديدِ رسومه أَو تناقشه في نصوص جديدة يكون كَتَبها. إِنما هذا لا يعني انقطاعَ التواصل كُلِّيًّا بينهما. كانا اتفقا على أَن يواصل جبران إِرسال مخطوطاته إِليها فتروح هي، في غفلةٍ عن زوجها الذي لم يكن راضيًا عن استمرار علاقتها بجبران، تنقِّح عباراته الإِنكليزية، توضح له فكرةً تبدو ملتبِسة، أَو تقترح عليه عبارةً أُخرى توضح الفكرة، وتصحح أَخطاءَ لغويةً يكون سها عنها.

في تلك الفترة، منذ ١٩٢٥، كانت دخلَت حياتَه باربره يونغ لتكتب لاحقًا كتابها «هذا الرجل من لبنان» راويةً فيه سنواتها الستَّ الأَخيرةَ في حياة جبران. لكن علاقتها به لم تكن حميمةً فلم يخبرها قطُّ عن ماري، لذا لم تكتشِف باربره الخيوط الأُولى لعُمق العلاقة العاطفية السرية بين ماري وجبران إِلَّا بعد أَيامٍ من وفاته».



٢ ساكَنَتْهُ نحو سنتين (كان سابقًا زوج ابنة عمِّها) ثم تزوَّجَتْهُ نهار الجمعة ٧ أَيار ١٩٢٦. تُوفِّيَ نهار الخميس ٣ أَيلول ١٩٣٦ عن ٨٤ عامًا.

موت جبران وانكشاف الرسائل

في الفصل الأخير من الكتاب (ص ٤٤٠–٤٤٧) روت ڤرجينيا حلو وفاةَ جبران بتفاصيلَ أَقتطف من بينها فقط مقاطعَ تتعلَّق بباربره يونغ:

«كانت السيدة آنَّا جوهانْسِن، زوجة بوَّاب ذاك المبنى العتيق رقم ٥١ في الشارع العاشر غربًا، هي التي تهتم بمحترف جبران تنظيفًا وترتيبًا، وتصعد إِليه يوميًّا في الطبقة الثالثة حاملةً إِليه فطورَه الصباحي. غير أَنها كانت لبضعة أَيّامٍ قلقةً، كما عدد من أَصدقائه المقرَّبين، على صحته تتدهور تدريجًا، لِعلَّةٍ كانت تبدو بعضَ لُغْز.

صباح الخميس ٩ نيسان ١٩٣١ دخلت عليه حاملةً فُطُورَه كالعادة، ففوجئت بحالته سيئةً أَكثر من قبل. اتصلَت فورًا بالسيدة ليونبِلّ جاكوبس[٣] التي كانت تركَت لها رقمَ هاتفها كي تتَّصل بها عند الحاجة. بعد دقائق وصلت السيدة جاكوبس مع طبيب عاين جبران وطلب نقله فورًا إِلى مستشفى. لكنَّ جبران رفَض. أَراد مصِرًّا أَن يُمضي النهار والليل في غرفته فيذهبَ إِلى المستشفى في اليوم التالي (الجمعة). وافقَه الطبيب والسيدة جاكوبس، لعلّ وضْعه غداتَئذٍ يكون أَفضلَ لتَحَرُّكه إِلى المستشفى.

بُعَيْدَ ظهر الخميس وصلَت باربره يونغ إِلى المحترف وبقيَت معه حتى ساعةٍ متأَخرةٍ من الليل، وهو يحدِّثها عن آخر كتاباته وأَحدث رسومه وبعض ما ينوي من أَعمال سيُنجزها. كانت رسومُه غيرُ الناجزة تؤَرِّقه. قال لها: «على يديَّ هاتَين أَن تنفِّذا أَعمالًا بعدُ قبل أَن تستريحا».

الساعة ٨:٣٠ مساءً عادت السيدة جاكوبس مع الطبيب محاولةً إِقناع جبران بالانتقال إِلى المستشفى لكنه رفض مجدَّدًا، وأَصرَّ على تمضية ليلتِه في المحترف.

---

٣ تَذْكر جين جبران في كتابها «خليل جبران أَبعد من الحدود» (ص ٤٧٣) أَن السيّدة ليونـبِـلّ جاكوبس كانت لفترة طويلةٍ تسكن وزوجها في الطبقة الثالثة من ذاك المبنى، لكنهما انتقلا إِلى مسكن آخر. اشتُهرَت ليونبِلّ فترتئذٍ رسامةَ وُجوهٍ. ووضعَت لجبران رسمًا ضمَّنتْه لاحقًا كتابَها «رسُوم ثلاثين مؤلِّفًا» (١٩٣٧).

غادرا وبقيَت باربره معه تصغي إِليه يحدِّثها بلهفةٍ عن لبنان، عن أُمِّه التي كان شديدَ التعلُّق بها، وعن شقيقته مريانا الباقية وحدها في بوسطن.

الساعة ١٠:٣٠ صباح الجمعة نقلَتْه باربره إِلى مستشفى سانت ڤِنْسِنْت القريب (تقاطُع الجادة السابعة والشارع الحادي عشر). وتلقَّت مريانا في بوسطن برقيةً (إِمَّا من إِدارة المستشفى أَو من الطبيب) تفيدُ أَنه في المستشفى وفي وضْع حَرِج. اتصلَت مريانا فورًا بنسيبَيها عساف جورج وزوجته روز دياب واستقلُّوا معًا أَول قطار إِلى نيويورك. عند دخولها المستشفى أَبلغتْها المسؤُولة أَن جبران دخل في الغيبوبة عند الساعة ٢:٠٠ بعد الظهر وما عاد يمكنه التعرُّف إِلى أَحد. وهبَط صاعقًا عليها قولُ الطبيب إِن شقيقَها يعيش ساعاتِه الأَخيرة.

الساعة ٥:٣٠ اتصلت باربره يونغ بإِدارة مجلة «العالم السُوري» مُعْلِمةً أَصدقاءَه بوضعه المتدهور. ميخائيل نعيمه كان هناك فهرع إِلى المستشفى. وفي الطبقة الثالثة حيثُ غرفة جبران استقبلَتْه باربره يونغ التي كان التقاها مرةً في محترف جبران. أَنبأَتْه أَن لن يمكنَ بعدُ فِعلُ أَيِّ شيْء. سأَلها إِن كان جبران طلَب أَن يعترفَ ويتناولَ القربان، أَجابتْه أَن راهبةً من المستشفى سأَلت جبران إِن كان كاثوليكيًّا فأَجابها بفظاظةٍ «كلَّا». وأَكملت باربره تروي لنعيمه أَنْ بعدما دخَل جبران في الغيبوبة الكاملة وصل الخورأسقف فرنسيس واكيم، راعي أَبرشية مار يوسف المارونية في نيويورك، وراح ينادي بأَعلى صوته فوق رأْس المُحتضر: «جبران... جبران...» وجبران لا يجيب. وقالت باربره لنعيمه إِنَّ زعيق ذاك الخورأسقف أَثار غضبَها حتى تَـمنَّت أَن تسحبَه وتطردَه خارج المستشفى.

الساعة ١٠:٥٥ ليلًا لفظَ جبران نفَسَه الأَخير، وكان إِلى سريره باربره يونغ وميخائيل نعيمه، وفي الغرفة المحاذية كانت مريانا ومعها نسيباها، والسيدة جاكوبس التي لم تغادر المستشفى طوال النهار، والسيدة وليام براون مالوني، والسيدة أَدال واتسون.

كان ذلك ليل ١٠ نيسان، أَول يوم جمعة بعد الفصح سنة ١٩٣١. ودوَّنت إِدارة المستشفى أَن سبب الوفاة: تَلَيُّفُ الكبِد وبدايةُ عوارض السلّ في إِحدى الرئَتَين.

صباح السبت أَرسَلَت مريانا إلى ماري هاسكل برقيَّةً وصلَتْها في ساڤانا (جورجيا) الساعة ١١:٠٠ صباح الأَحد. ومع أَن زوجها كان غير راضٍ عن علاقتها السابقة بجبران وغيرَ موافقٍ أَن تذهب ماري إِلى مأْتم جبران، استقلَّت ماري قطار الساعة ١:٣٠ بعد ظهر الأَحد إِلى نيويورك فبوسطن. وكانت أَبرقَت إِلى مريانا أَنها تصل إِلى بوسطن في قطار الساعة ٧:٠٠ مساءَ الاثنين ١٣ نيسان.

الساعة ٥:٠٠ عصرَ الاثنين وصل جثمان جبران إِلى بوسطن مغطًّى بالعلَم اللبناني. كان في استقباله صديقُ جبران راعي أَبرشيتها الخورأسقف أسطفان الدويهي. سُجِّيَ الجثمان في قاعة «جمعية المُساعدَة» للسيِّدات السوريات في المبنى ٤٤ غربيّ شارع نيوتُن.

وصلت ماري إِلى القاعة عند الساعة ٨:٠٠ مساءً فانضمَّت فورًا إِلى مريانا وبعض أَصدقاء جبران، مشارِكةً في تقليد كسْر الخبز ولقمة الرحمة وشرب القهوة في ما سُمّيَ «العشاء الأَخير» على نية جبران.

ليلة الخميس ١٦ نيسان غادرت ماري هاسكل ومريانا ونسيبتُها روز دياب مدينةَ بوسطن في القطار إِلى نيويورك فَوَصَلْنَها صباح الجمعة ١٧ نيسان وقصَدْن «فندق هولندا» في المبنى ٣٥١ غربي الشارع ٤٢، وضَعْنَ فيه حقائبَهنَّ واسترحْنَ وتناولْنَ الغداء ثم توجَّهْنَ بعد الظهر إِلى محترف جبران مُمضياتٍ فيه ساعاتٍ طويلةً يجمَعْنَ أَغراضه وأَوراقه، واكتشفَت ماري أَن لديه عددًا كبيرًا من زجاجات شراب الزنجبيل المنشِّط.

صباح السبت ١٨ نيسان لاقتْهُنَّ باربره يونغ إِلى مكتب المحامي وليام ساكسْ (المبنى ٣١ – الجادة الخامسة) لفتح وصية جبران والبحث في تنفيذها. انتهى الاجتماع بالاتفاق على أَن تسكن باربره يونغ في المحترف فترةً، مهما طالت، حتى يتمَّ إِخلاؤُه كليًّا، ويكون دفْعُ المصاريف من تركة جبران التي تبين أَنها ٤٩،٤٥٩ دولارًا.

ثم انتقلَت ماري ومريانا وباربره إِلى مكتب مستشار في الشأْن الضريبي فاجتمعا لديه بالسيد شِيا، ممثل مصرف مانهاتن بنك في محلة يونيون سكوير. لدى فتح الصندوق الخاص بجبران وجدوا نسخةَ أَسهُمه في المحترف، ونسخَتَي وصيتَيْه سنتَي ١٩١١ و١٩١٣. وفي هاتين الوصيتين، كما في الثالثة والأَخيرة (الأَربعاء ٣٠

تموز ١٩٣٠)، تبيَّن أَن جبران أَوصى بكل ما لديه لشقيقته مريانا وماري هاسكل وبلدته الأُم بْشَرّي. جاء فيها حرفيًّا: «بعد موتي، كلُّ ما في محترفي من رسومٍ وكتُبٍ وتُـحَفٍ فنية وسواها يذهب إِلى السيدة ماري هاسكل ماينِس، الموجودة اليوم في المبنى ٢٤ شارع غاستون غربًا، في ساڤانا – جورجيا».

نهار الاثنين ٢٠ نيسان أَمضت ماري طيلة النهار في المحترف تحزم عددًا كبيرًا من الرسائل والمخطَّطات والملاحظات والرسوم والمخطوطات. عملَت ماري وحدها في المحترف لأَن باربره يومها كانت متوعكةً وكانت اقترحَت على ماري الاتصال بميشا (ميخائيل) نعيمه كي يساعدَها. اتصلَت به ماري في إِدارة «العالم السُوري» فجاء إِلى المحترف الساعة ٥:٠٠، وساعدَها بضع ساعاتٍ على جمْع الرسوم والأَغراض ووضْعِها في خزانة جعلا لها قفْلًا، وجعلا قفْلًا آخر لباب المحترف.

قبلها بِأَيَّامٍ كانت ماري وباربره سحَبَتا من بين الأَغراض المُكدَّسة صندوقًا كبيرًا حين فَتَحَتاه وجدَت فيه ماري رسائلَها إِلى جبران منذ عرفَتْه، وأُخرى وهو في پاريس للدراسة، وسواها حين غادرَ بوسطن إِلى نيويورك، وهي مئاتُ رسائلَ كتبَتْها إِليه خلال عشرين عامًا. حين تنبَّهَت باربره يونغ إِلى ما في تلك الرسائل وما تمثِّله في حياة جبران، طلبَت من ماري إِتلافها جميعها فوافقَت ماري عفويًّا على إِحراقها. غير أَنها، حين كانت وحدَها في المحترف نهار الاثنين ٢٠ نيسان، حزمَت جميع تلك الرسائل، وبعدما ودَّعت ميخائيل نعيمه مساءً، استقلَّت قطار الساعة ١٠:٢٠ ليلًا وعادت إِلى بيتها في ساڤانا. وبعد أَيامٍ كتبَت إِلى باربره يونغ أَنها لا توافق على إِحراق الرسائل لأَنها كانت دائمًا مؤْمنةً بـجبران وبعظمته، وتاليًا ترى أَن هذه الرسائل، بما فيها من تفاصيل علاقتهما، تؤَرِّخُ مرحلةً أَساسيّة من حياة جبران ويستحيل إِتلافُ هذه المرحلة.

وفي بيتها، بهدوءٍ وغفْلةٍ عن زوجها، جاءت برسائلها إِليه كما حمَلَتْها من نيويورك وضمَّتْها مع رسائله إِليها وكانت محتفظةً بها جميعِها. وبقيَت المجموعة محفوظةً لديها إِلى أَن أَودعَتْها مكتبة جامعة نورث كارولاينا حيث لا تزال محفوظةً بعناية فائقةٍ حتى اليوم».

باربره يونغ في تكريم جبران

تكريمًا جبرانَ في ثلاث مناسبات:

١) عشيَّةَ ذكرى عيد ميلاده (السبت ٦ كانون الثاني ١٨٨٣)،

٢) مُرور ربع قرن (١٩٠٤-١٩٢٩) على حياته الفنية منذ معرض رسومه لدى فْرِدْ هولِنْدْ داي (الجمعة ٣٠ نيسان - الإثنين ١٠ أَيار ١٩٠٤)،

٣) عشيةَ مرور ربع قرن على صدور أَوَّل كتابٍ عربيٍّ له «نبذة في فن الموسيقى» (الإثنين ١٩ حزيرن ١٩٠٥)،

أَقامَ رفاقُه أَعضاءُ «الرابطة القلمية» احتفالًا تكريميًّا كبيرًا له في فندق ماكْ آلْـپِـن الفخم (مانهاتن - نيويورك) مساءَ السبت ٥ كانون الثاني ١٩٢٩، حضَرَه ٢١٥ مدعوًّا من الجاليتين اللبنانية والسورية.

كان وليم كاتسفليس عريف الاحتفال، فقدَّم ١٧ خطيبًا توالَوا على المنبر وفق الترتيب التالي: ميخائيل نعيمه، الدكتور فيليـپ حتي (فترتئذٍ رئيس دائرة اللغات الشرقية في جامعة پْرِنْسْتُون)، الدكتور الياس مسلِّم، الدكتور نجيب بربور، ريتشارد أَيوب، سلُّوم مكرزل، الدكتور سليم الخازن، الصحافي حبيب كاتبة، الياس عطاالله، رشيد عبدالنور، نسيب عريضة، جوزف معلوف، نَدرة حدَّاد، ملحم صيدح، جميل الحلوة، ملحم حاوي، عبدالمسيح حدَّاد.

في نهاية الاحتفال فاجأَ أَعضاءُ «الرابطة» عميدَهم جبران بتوزيع كتاب «السنابل» الذي جمعوا فيه باقةً من مقالاته العربية (الفصل ١٧ من هذا الكتاب – ص ٥٠٠).

ختامًا وقف جبران ليُلقي كلمة شُكر لكنه لشدَّة تَأَثُّره «أَجهش دامعًا ولم يستطِعْ أَن يُكمِل كلمتَه»، كما وردَ في تغطية الاحتفال على الصفحة ٥٢ من مجلة «العالم السُوري» (السنة الثالثة – العدد الثامن – شباط ١٩٢٩).

وفي هذا العدد ذاته (ص ٣٠–٣٤) النصوصُ الإِنكليزية في ذاك الاحتفال: كلمة فيليپ حتّي، كلمة سلُّوم مكرزل، وقصيدة باربره يونغ التي أَرسلتْها من منتجعها في فلوريدا وقرأَها بالنيابة عنها سلُّوم مكرزل.

من تلك النصوص أُتَرجم هنا قصيدةَ باربره يونغ وعنوانها «جبران» («العالَم السوري» ص ٣٢):

دَعُوني أَنْثُر سِحرًا على اسْـمِهِ السحريّ
كما يُنْـثَـرُ الـماء على عُرْفِ التلَّة الأَخضر.
دعوني أَقطف رعدًا من قَصْف الرعد الـمُدَوّي في الفضاء
وأَجمع وميضَ البرق
كما حصَّادٌ يجمع سنابلَ يانعةً تُـجَدِّدُ قواه.
دعوني أُطلِقُ اسـمَه عاليًا فوق الريح
كما أُطلِقُ جناحَ عصفورٍ
برفيفٍ عظيمٍ يَشُقُّ أَقصى الفضاء
وكما أُضيْءُ شُعلةً حيَّةً، وثَّابةً، خالدةً!
هكذا، طَوال أَيامي، سأَرفعُ اسْـمَهُ
عاليًا عاليًا فوق الريح[1].

GIBRAN

By Barbara Young

Sent by Miss. Young from her retreat in Florida to the Editor of The Syrian World to be read at the Dinner to Gibran.

LET me pour wonders on his wondrous name
Like waters on the green crest of a hill.
Let me pluck thunders from the thundrous sky,
And let me gather lightnings as a harvester
Gathering ripened grain
For his refreshing.
Let me lift up his name upon the wind,
Lo, as the wing of a bird I would lift it up,
A mighty wing cleaving the uttermost sky,
As a flame, as a living, leaping, deathless flame,
All of my days I would lift up his name.

مطلع قصيدة باربره يونغ في تكريم جبران، كما صدرت ص ٣٢ في العدد الثامن (شباط ١٩٢٩) من مجلة «العالم السُوري».

[1] إِنصافًا، هذا فعلًا ما فعَلَتْهُ باربره يونغ: «طوال أَيامها»، منذ عرفَـتْهُ سنة ١٩٢٥ حتى غيابه وطويلًا بعد غيابه، بقيَت تعمَل على رفْع اسمه «عاليًا عاليًا فوق الريح».

باربره يونغ في تأْبين جبران

كان سلُّوم مكرزل، صاحبُ مجلة «العالم السُوري»، وفيًّا لصديقه جبران فخَصَّصَ من إِصدار نيسان ١٩٣١ (العدد الثامن – السنة الخامسة) قسمًا كاملًا (ص ١٩ إلى ص ٤٨) للمراثي التي وردَتْه لدى غياب جبران ذاك الشهر.

وعدا النصوص التي وصلَتْه، تبسَّطَ في تفصيل احتفال متحف «روريتْش» كما يلي (ص ٢٧ – ٢٨):

الأَميركيون يُحَيُّون روحَ جبران

مات جبران لكنَّ ذكراه ستبقى حيَّةً. تأْثيرُه في الحياة الروحية الأَميركية سيزداد حضورًا مع السنوات، وإِبداعاتُ قلمه وريشته ستمتدُّ مرجعًا راقيًا من جذوره إِلى شباب الأُمة الأَميركية.

هكذا كان المناخُ الحزين الذي، شِعرًا ونثرًا، شكَّل احتفال تأْبين بعنوان «إِلى روح جبران» في الصالة الشرقية من متحف روريتْش[١] (الشارع ١٠٣ – نيويورك) بعدَ ظهر الأَربعاء ٢٩ نيسان ١٩٣١. وتميَّز الاحتفال بالبساطة والرقيّ والروح الجبرانية التي سادت فيه.

١ أَسَّسه سنة ١٩٢٩ الكاتب والرسام الروسي نقولاي كونستانتينوڤيتش روريتش (١٨٧٤ – ١٩٤٧).

وكان واضحًا هَـمُّ المشاركين من رفاق جبران وأَصدقائه أَن يُبرزوا روحه في فكره وكتاباته، بدءًا من كلمة الافتتاح لمنظِّم الاحتفال الدكتور تشارلْز فْلِتْشِر.

ضمَّت القاعة نحو ٢٠٠ من نخبة مثقَّفي المدينة الأَميركيين بين مؤَلفين وأَساتذة جامعيين ومربّين وآخَرين من مهن وقطاعات مختلفة. لم يكن السوريون كثيرين بين الحضور، لا إِشاحةً عن قيمة جبران بين أَبناء قومه، بل لأَن الصحافة السورية كانت أَعلنَت عن احتفالٍ آخرَ بالعربية سيقام في بروكلن مساء الأَحد ٢٤ أَيار.

كان الدكتور فْلِشِر يقدِّم الخطباء بقراءةِ مقاطعَ من كتابات جبران الإِنكليزية، افتتحها بعبارة جبران الشهيرة «رُبَّ مأْتمٍ بين البشر يكون عرسًا بين الملائكة».

الأَمير محيي الدين، ابن العائلة الهاشمية المتحدِّرة من سلالة النبي محمد، عزفَ على التشِلُّو مقطوعة فرانز شوبرت «أَيُّها الراقد بسلام» رافقه السيد ريتْنِر على البيانو. ثم قرأَ الدكتور فْلِشِر مجموعةَ برقيات تعزية، وأَعلن أَن السيدة كورين روزڤلت روبنسن – شقيقة الرئيس الأَميركي الراحل وصديقة جبران – كانت اعتذرَت عن الحضور بسبب المرض لكنها عادَت فحضرَت.

بعد قصيدَتَين من السيدة إِسْتِلّ دوكلو وميخائيل نعيمه، كانت قصيدة «الوداع» الخاصة بالمناسبة للسيدة باربره يونغ، قرأَها الدكتور فْلِشِر بينما تولَّت هي بعده قراءَة مقاطعَ من مخطوطة جبران «حديقة النبيّ» غيرِ المنشورة بَعد.

ثم عزف المؤَلف السوري أَنيس فلَيحان على البيانو لحْنَ أَغنيةٍ وضعَهُ عن إِحدى قصائد جبران، غنَّاها هيوبرت لِنْسْكوت.

وتوالَت بعدها خُطَبٌ من كلود براغدُن وسْيُود حسين وسلُّوم مكرزل.

في نهاية الاحتفال عزف الأَمير محيي الدين على العود مقطوعاتٍ شرقيةً مؤَثِّرة.

وختامًا شكَر الدكتور فْلِشِر إِدارةَ المتحف على تقديمها الصالة مجّانًا لإِقامة هذا الاحتفال».



بعد هذا التفصيل في تغطية وقائع الاحتفال، نشرَت «العالم السُوري» (على الصفحات ٢٨ إلى ٤٨) كلمات الدكتور فليشِر، و كلود براغدُن («جبران باقٍ حيًّا») وسْيُود حسين («حَمَل لنا الجمالَ والحقيقة»)، وسلُّوم مكرزل («سافَرَ مع الشمس»)، وقصيدة إِستِلّ دوكلو («هذا النجم ابن لبنان») وقصيدة ميخائيل نعيمه («الميثاق الصُوفيّ»)، وقصيدة باربره يونغ («الوداع»).

من تلك الخُطب والقصائد أَكتفي هنا بترجمة قصيدة باربره يونغ:

الوَداع

نقول:

«الشاعرُ ينام
فليحرسْ نومَه الأَرزُ المَهيبُ
ويَحْمِ التلةَ من غُروب اسمِهِ المُشرق».

نقول:

«فلتحضُنِ الجذورُ رمادَه الناعم
هو الذي
عَرَفَ ظلامَها وآلامَها وقلَقَ الترابِ السِرّيَّ
وعرف الشرايينَ المُخضَرَّة آسًا وأَعشابًا
هو الذي
سمِعَ نبضَ الرب وخفْقةَ الإِنسان
في انْهمارِ المَطر وانْهمالِ الثلج».

نقول:

«الشاعرُ ينام». لكنه «لا ينام»
بل خرَجَ يَمشي في الفَضاء ويركضُ في الريح
حاملًا
قيثارةً بلا أَوتارٍ تُدندنُ أُغنيةً خارج المدى

وريشةً من نورٍ وجدَتْ أَخيرًا أَلوانَ موشورٍ آخرَ
كان ينْهَدُ إِليه كيانُه المُشِعُّ.

لا تُسَمُّوا احتضارًا عِناقَه الغمامةَ
لا تسمُّوا موتًا ذهابَه إلى الشمس
أَبدًا
ها جناحُه الطَلْقُ رَفَّ يلاقي الجمال في موطن الجمال
بعدما لفظَ كلمةً خالدةً عن الحياة والحب والموت
وكَتَبَها بِـمهابةٍ شفافةٍ وتأَلُّقٍ ساطعٍ على صفحةٍ من عاج
وها هو قاصدٌ نجمةَ الصبح
ليرسُمَ الأَثيرَ شموسًا وأَقمارًا
وَيَـبْلُغَ بيتَهُ هناك... بعيدًا هناك... في قلب العاصفة.

38 THE SYRIAN WORLD

VALEDICTORY

By Barbara Young

We say, "The poet sleeps. Let mighty cedars
Guard now the place, and fortify this hill
Against the passing of his lofty name."
We say, "Let roots enfold his gracious dust—
He who has known their darkness and their pain,
And all the secret anguish of the soil,
And the green ways of myrtle and of grass;
He who has heard the pulse of God and man
Beat in the beating rain and falling snow."

We say, "The poet sleeps." *He does not sleep.*
He is gone out to walk upon the sky,
To run upon the wind. His stringless lyre
Is tuned to spaceless song, his brush of light
Finds now the colors of that other prism
Whereunto all his radiant being yearned.

Call it not dying to espouse the mist.
Call it not death to pass into the sun.
Nay, even now his unencumbered wing
Encounters Beauty in her dwelling-place.
For he has uttered an immortal word
Of life and Love and Death, and flung their face
In clear resplendant majesty and glory
Upon the ivory page. Now he goes forth
To speak in measures with the morning star,
To paint the ether with the suns and moons,
And ride the tempest where he finds his home.

قصيدة باربره يونغ في رثاء
جبران كما ظهرت ص ٣٨
في العدد ٨ (نيسان ١٩٣١)
من مجلة «العالم السُوري».

نشاطُها بعد غيابِه

منذ اللقاء الأَول بين جبران وباربره يونغ (آذار ١٩٢٥) أَخذَتْ حياتُها منحًى آخر: انفتَحَت لها صفحةٌ من العمر جديدةٌ تتالَت بعدها صفحاتٌ كأَنما لم يعُد لحياتها منذئِذٍ إِلَّا عنوانٌ واحد لم تعُد تُعْرَف إِلَّا به: جبران. انصرفَت إِليه في محترفه، مُدوِّنةً ما يُمْليه عليها، طابعةً نصوصَه على آلتِها الكاتبة، مُهَيِّئَةً مخطوطاتِه للنشْر، رفيقةَ نهاراته وأُمسياته، مراقِبةً أَطباعَه وأَهواءَه وأَحزانَه وأَوجاعَه وصحَّـتَه وسقَمَه وقلقَه ومِزاجَه وعاداتِه وإِيقاعَ حياته اليومية، ساهرةً في المحترَف على توجُّعِهِ في ليلته الأَخيرة، ناقلةً إِيَّاه صباحَ اليوم التالي إِلى المستشفى، ملازِمةً سريرَه حتى دخولِه الغيبوبةَ النهائيةَ ولفْظ نفَسِه الأَخير، جالسةً إِلى جثمانه في نيويورك، حاضرةً مأْتمه في بوسطن، مودِّعةً تابوتَه منتقلًا بالباخرة من مرفإٍ پروڤيدِنس إِلى لبنان، متابِعةً أَخبارَ مأْتمِه في بيروت ودفْنِه في بْشَرّي، منفِّذةً في نيويورك ما أُوكل إِليها بعد وفاته من الاهتمام بموجوداتِ محترفِه وتوضيبِ ما فيه من أَوراق ولوحات ورسوم وأَغراض شخصية ووضْع ثَبْتٍ بها، واضعةً عنه كتيِّبًا ملموسًا بُعيْدَ وفاته[١]، مقيمةً له في عددٍ من المدُن الأَميركية ندواتٍ أَدبيةً حول كتبه وقراءَاتٍ علنيةً من شِعره، منظِّمةً له معارضَ للوحاته ورسومه، ثم متوِّجَةً آمالَها سنة ١٩٣٩بزيارة وطنه في

١ «نبذة عن خليل جبران هذا الرجل من لبنان»، ٤٨ صفحة حجمًا صغيرًا، إِصدار خاص، المطبعة السورية الأَميركية (لصاحبها سلُّوم مكرزل)، نيويورك ١٩٣١.

بلدة مولده بْشَرّي ومدرسته «الحكمة» في بيروت، واضعةً سنة ١٩٤٥ عن تلك الزيارة كتابها الشهير «هذا الرجل من لبنان»، وفيه سِيرتُه ومَسِيرتُها معه. وهي حتمًا لم توقِفْ نشاطَها عن جبران الذي كأَنها، أَمينةً على إِرثه، كرَّسَتْ له آخرَ أَربعةِ عقودٍ من حياتها: بين آذار ١٩٢٥ ووفاتها في مأْوى للعُجَّز سنة ١٩٦٢ عن ٨٤ عامًا.

كثيرةً جدًّا كانت تلك الأَنشطة التي قامت بها، أُترجم هنا حرفيًّا بعضَ ما صدر منها سنة ١٩٣٥ في مجلة «**العالم السُوري**»[٢].

الخميس ٢٨ شباط ١٩٣٥

افتتاح معرض دائم لرسوم جبران

نهار الإِثنين المقبل في ٤ آذار تَفتتح باربره يونغ معرضًا دائمًا لرسوم الراحل جبران خليل جبران في الطابق المتوسط[٣] من فندق «غراند أُوتيل»[٤] نيويورك. والسيدة يونغ شاعرة معروفة، وهي القيّمةُ الأَدبية على تراث جبران. المعرض مفتوحٌ أَيام الإِثنين والأَربعاء والسبت من الساعة ٢:٠٠ حتى الساعة ٦:٠٠ مساءً، ويومي الثلثاء والخميس من الساعة ٧:٠٠ حتى الساعة ١١:٠٠ ليلًا. الدخول مجانيٌّ يومَي الاثنين والخميس. ولباقي أَيام الأُسبوع رسمٌ رمزيّ.



٢ مجلةٌ أَسَّسها سلُّوم مكرزل بالإِنكليزية في نيويورك سنة ١٩٢٦، ونشَر فيه جُبران نُصوصًا عدَّة (منها في العدد الأَول، تموز ١٩٢٦، نَصُّه الشهير «إِلى الأَميركيين الشباب من أَصل سوريّ»). صَدرَت المجلة شهريةً من ١٩٢٦ إِلى ١٩٣٢ حين تولّى سلُّوم إِدارة جريدة «الهُدى» إِثْر وفاةِ مؤَسسِها شقيقِهِ نعوم مكرزل عامئذٍ. وفي ٢٠ تشرين الأَول ١٩٣٣ أَعلن سلُّوم تَخَلِّيه عن إِدارة مجلته لحبيب كاتبة الذي جعَل حجمَها بشكل جريدةٍ أُسبوعيةٍ ظلَّت تصدر صباح كلّ خميس حتى ١٩٣٥.

٣ هو المتوسط بين الطابق الأَرضي والطابق الأَول، وهو معروفٌ لدى الفنادق باستقبال الحضور في بعض الاحتفالات.

٤ تأَسس سنة ١٨٦٨، وكان من أَعرق الفنادق في زمنه. كرَّسَتْه بلدية نيويورك على لائحة المباني الأَثرية الوطنية سنة ١٩٨٣.

الخميس ٧ آذار ١٩٣٥

افتتاح المعرض الدائم لأَعمال جبران
داعمون معروفون، أُستاذ في رتْـجِرْز يتحدَّث عن تأْثير جبران، مكرزل يتحدَّث عن مدفن جبران في بْشَرّي

مساءَ الأَحد الماضي، ٣ آذار، تم افتتاحُ المعرض الدائم لأَعمال جبران، رسومًا بالقلم الرصاص ومائياتٍ، باحتفالٍ رسميٍّ في الطابق المتوسط من فندق «غراند أُوتيل» – مانهاتِن (تقاطع برودواي والشارع ٣١).

كلمة الافتتاح كانت للشاعرة باربره يونغ القيِّمة الأَدبية على تراث جبران. تحدثَت عن الشاعر و«النبيّ» معلنةً أَن هذا المعرض يحقِّق أَحد أَعزِّ أَحلام جبران الذي قال لها سنة ١٩٣١: «لو كان لي أَن أَموت الليلةَ، تذكَّري أَن أَعزَّ حلْم على قلبي أَن تذهب ذاتَ يومٍ ذاتَ مكانٍ خمسون أَو خمسةٌ وسبعون من رسومي ولوحاتي إِلى ردهة كبرى في مدينة كبرى، ويراها جمهورٌ معلَّقةً فيتأَمَّلُها وربما يحبُّها».

ثم قدَّمت السيدة يونغ المغنِّي الإِيرلندي مايكل كينِّيلي الذي كانت أَغانيه تسرُّ جبران. غنَّى منها واستعاد بعضَها بطلبٍ من الجمهور. ثم كانت كلمة الآنسة آنَّا پـيرُويه، تَلَتْها ماري إِلِّـنْ رايَـن عضو نقابة المسرحيين فقرأَتْ فقراتٍ من فصل «مريم المجدلية» في كتاب «النبي»[٥]. ثم تحدَّث أُستاذ الأَدب الإِنكليزي في جامعة رتْـجِرز[٦] الدكتور دوغلاس وايلد، فسرَدَ تأْثيرَ كتابات جبران على الطلَّاب في صفوفه، وعلى حياتهم الخاصة خارج الجامعة. ثم قدَّمَت السيِّدة يونغ آخرَ خطباء الاحتفال سلُّوم مكرزل رئيس تحرير «الهدى»، وهو عائدٌ حديثًا من بْشَرّي مدينة مولِد جبران، فتحدَّث بالتفصيل عن ضريح جبران في دير مار سركيس وعن المتحف الذي يضم أَغراضَه الشخصية ولوحاتِه التي كانت في محترفه (الشارع العاشر غربًا

٥ وقَع المحرر هنا في خطإٍ أَدبي. ففصل «مريم المجدلية» هو في كتاب «يسُوع ابن الإِنسان» وليس في كتاب «النبي».

٦ هي جامعة ولاية نيوجرزي، تأَسَّسَت سنة ١٧٦٦، وهي ثامنةُ أَقدم مؤَسسة للتعليم العالي في الولايات المتحدة.

في نيويورك). وأَقرَّ بفضل باربره يونغ وجهودِها المتواصلة وإِخلاصِها واندفاعِها في إِطْلاع الجمهور على أَعمال جبران، كتاباتٍ ورسومًا، وأَعلن أَن أَهل بْشَري «يُهدون الشاعرةَ الأَميركية تحياتِ شكرِهِم وامتنانِهم، ويؤَكِّدون لها حرارة انتظارِهم زيارتَها الموعودة مدينةَ جبران الأُم»[٧].

هذا المعرض الدائم سيكون مفتوحًا للجمهور بعد ظهر الإِثنين والأَربعاء والأَحد من الساعة ٢:٠٠ إلى الساعة ٦:٠٠، ومساءَ الثلثاء والخميس من الساعة ٧:٠٠ إِلى الساعة ١١:٠٠ ليلًا. ويكون الدخول مجانيًّا يومَي الإِثنين والخميس، وبرسم رمزي أَيام الثلثاء والأَربعاء والسبت.

بين داعمي المعرض الدائم: السيدة والسيد بايارد جورج، الآنسة مريانا جبران، هاري إِدموندز، مايكل كينيلّي، سلُّوم مكرزل، آنَّا پيرس، دوغلاس وايلد، ماكس هوفمان، وآخرون.



الخميس ٢١ آذار ١٩٣٥

دعوة إِلى الشباب الأَميركيين من أَصل سوري

الساعة ٤:٠٠ بعد ظهر أَحد الشعانين، في ١٤ نيسان المقبل، يقام احتفال تذكاري لجبران خليل جبران في كنيسة سانت مارك إِن ذُ باوِرِي[٨]. ويتمنَّى قسيسُها الدكتور غوثْري حضورَ الشباب الأَميركيين من أَصل سُوريّ. والساعة ٤:٣٠ بعد ظهر الأَحد الماضي كانت جلسةُ قراءاتٍ شعرية بين رسوم جبران في الطابق المتوسط من فندق «غراند أُوتيل» – ماناتهن، قرأَت خلالها السيدة باربره يونغ من نُصوص جبران ونصوص سيدني لانييه، لكن الجمهور أُعجِبَ بنصوص جبران أَكثرَ. رافقَت

٧ وهو ما تَمَّ بالفعل، وقامت باربره يونغ بهذه الزيارة بعد ٤ سنوات (١٩٣٩).

٨ Saint Mark-in-the-Bowerie هي الكنيسة ذاتُها التي كانت باربره يونغ حاضرةً فيها سنة ١٩٢٣ بين جمهورٍ جاء يُصغي إِلى قراءاتٍ من كتاب «النبي» لـجُبران بـحُضُوره مع بعض أَصدقائه، بينهم ميخائيل نعيمه ونسيب عريضة وعبدالمسيح حداد.

أَليس مكرزل القراءات عزفًا على البيانو، وأَنشدَ المغني الإِيرلندي مايكل كِينيلّي بعض الأُغنيات الشعبية الشائعة. وهذه القراءات سوف تتكرّر بالصيغة ذاتها الساعة ٤:٠٠ بعد ظهر كلّ أَحَد.



الخميس ٤ نيسان ١٩٣٥

معرض جبران يستقطب الكثير من المهتمّين

معرض رسوم جبران خليل جبران بالقلم الرصاص والمائيات في الطابق المتوسط من فندق «غراند أُوتيل» - نيويورك (تقاطع برودواي والشارع ٣١) ما زال يستقطب زوَّارًا كثيرين ومهتمِّين بالفن في طليعتهم رسامون ومدراء صالات معارض. وفي الأَسابيع الأَخيرة زار المعرضَ عددٌ من أَعلام الفن التشكيلي والمسرح. ونهار السبت ٢٣ آذار زيدت على المعرض رسومٌ بالقلم الرصاص ومنحوتاتٌ خشبية لجبران وبعضُ مخطوطاتٍ أَبرزُها من كتاب «النبيّ»، وصفحاتٌ منه مترجَـمة إِلى خمس لغات. يستمر المعرض بدون تحديد زمنيّ. وهو مفتوح أَيام الإِثنين والأَربعاء والسبت بين الساعة ٢:٠٠ و٦:٠٠ بعد الظهر، ويومَي الثلثاء والخميس بين الساعة ٧:٠٠ و١١:٠٠ ليلًا. الدخول مجانيٌّ يومي الإِثنين والخميس. وأَيام الثلثاء والأَربعاء والسبت برسم رمزي من ٢٥ سِنتًا.



الخميس ١١ نيسان ١٩٣٥

لقاء مع الدكتور بايارد دودج

مساءَ الجمعة الماضي (٥ نيسان) كان رئيس الجامعة الأَميركية في بيروت الدكتور بايارد دودج خطيب الأُمسية بين رسوم جبران في فندق «غراند أُوتيل» - نيويورك (تقاطع برودواي والشارع ٣١)، ولاقت محاضرتُه «فترات من الحياة في لبنان» إِعجابًا كثيرًا من الحضور. وبعد مغادرته الساعة ٩:١٥ لارتباطه بموعد آخر،

كانت فترة قراءاتٍ قدَّمتها باربره يونغ أَمينةُ معرض جبران، تلتْها فترة من الأَغاني قدَّمها الباريتون الإِيرلندي مايكل كِينّيلّي، ورافقتْه أَليس مكرزل على البيانو. ثم شَرب الجميع نخب الأُمسية.



الخميس ٢٥ نيسان ١٩٣٥

مناقشة حول ماركهام

مساءَ غدٍ الجمعة، ٢٦ نيسان الجاري، تنعقد جلسةٌ بين رسوم جبران في فندق «غراند أُوتيل» - نيويورك (تقاطع برودواي والشارع ٣١) حول إِدوين ماركهام وقصائده. وكان جبران رسَمَ صديقَه ماركهام وكان معجبًا بشعره. ومساء الثلثاء ٣٠ نيسان تنعقد جلسة أُخرى عن شِعر السَلام في المكان ذاته. والجلستان مفتوحتان مجانًا للجمهور.



الخميس ١٦ أَيار ١٩٣٥

رسْمُ «يسوع ابن الإِنسان» لـجبران، هديةً إِلى «البيت الدولي» معروضًا رسميًّا في احتفالٍ مَنْحٍ ذي برنامج خاص

مساءَ الجمعة الماضي (١٠ أَيار)، في احتفال بسيطٍ إِنما مُؤَثِّر، تمَّ إِهداءُ «البيت الدولي»[٩] الرسمَ الأَصلي لغلاف كتاب جبران «يسوع ابن الإِنسان» وسيبقى الرسْم معلَّقًا فيه باستمرار. حضر الاحتفال جمهورٌ أُحصِيَ بين ٧٥ و١٠٠ من نخبة المثقفين. بعد الاستقبال وتناوُل الشاي بدأَ الاحتفال بكلمة من مدير الأَنشطة في «البيت» كينيث داملاميان عن جبران معلنًا اعتزازَ «البيت» باقتناء هذا الرسم الكنز

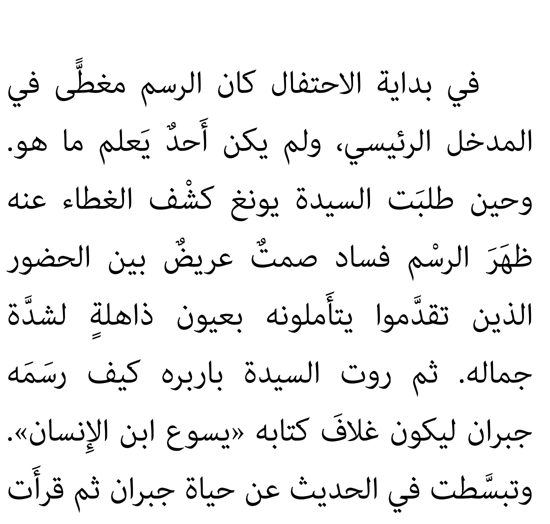
٩ تأَسس في نيويورك سنة ١٩٢٤ بدعمٍ من جون روكْـفلور وأُسرة كليڤلِند دودج. غايتُهُ إِقامةُ أَنشطةٍ أَدبية وفنية. كرَّستْه بلدية نيويورك على لائحة المباني الأَثرية الوطنية سنة ١٩٩٩.

هديةً، وسعادةَ المسؤُولين فيه أَن يبقى الرسم موجودًا فيه باستمرار. ثم قدَّم شاكرًا كلمةَ القَيِّمةِ على الرسم السيدة باربره يونغ التي أَهدتْه إِلى «البيت».



«البيت الدولي» الذي أَهدَت إِليه باربره يونغ الرسم الأَصلي لغلاف «يسوع ابن الإنسان»





في بداية الاحتفال كان الرسم مغطًّى في المدخل الرئيسي، ولم يكن أَحدٌ يَعلم ما هو. وحين طلبَت السيدة يونغ كشْف الغطاء عنه ظهَرَ الرسْم فساد صمتٌ عريضٌ بين الحضور الذين تقدَّموا يتأَملونه بعيون ذاهلةٍ لشدَّة جماله. ثم روت السيدة باربره كيف رسَمَه جبران ليكون غلافَ كتابه «يسوع ابن الإِنسان». وتبسَّطت في الحديث عن حياة جبران ثم قرأَت

مقطوعتَه «رسالة إِلى الأَميركيين من أَصل سوريّ» فأُخِذوا بها، وطلبوا أَن تكون هذه المقطوعة، مع كلمة السيدة يونغ، في سجلّ «البيت». ثم أَعلنَت السيدة يونغ أَنها رسميًّا تقدِّم الرسم هديةً إِلى «البيت» بشخص السيد هاري إِدموندز، أَحد مؤَسسي «البيت» وحاليًّا مديره. وتكلَّم السيد إِدموندز معلنًا سرورَه وشرفَ «البيت» أَن يحظى بهذه الهدية، معتبرًا احتفال تقديمها حدثًا فريدًا في تاريخ «البيت». وقال إِنه واثق من تأْثير الرسم على الطلَّاب والزَّوار، وأَعلن عن عزم الإِدارة على تعليقه في قاعة تكون كنيسةً صغيرةً يدخلها الطلاب للتأَمُّل والصلاة.



وفي مكانٍ آخَر من العدد ذاته (الخميس ١٦ أَيار ١٩٣٥) رسالة إِلى إِدارة المجلة من السيدة جوليا ستويڤيسنت تشانلر[١٠]، نيويورك، جاء فيها:

«عشنا معًا ليلةً في سورية حين قدمتُم إِلينا تلميذةَ جبران. سبق أَن التقيتُ السيِّدة يونغ لكنني لم أَسمعها تتكلَّم. لذا أَذهلَتْني في حديثها الساحر المؤَثِّر عن الحياة والتجربة اللتَين عاشهما الشاعر الكبير. كان برنامجًا مُختلفًا ومُميَّزًا عما نعهده في أَنشطة «القافلة» (Caravan). كان الحاضرون مأْخوذين بحديث السيِّدة يونغ، وتكرَّر التصفيق طويلًا وعفويًّا، أَكثر مما اعتدناه في أَنشطة أُخرى. شكرًا لـ«العالم السُوري» على ما تقوم به من أَجل «جمعية التاريخ الجديد». إِننا واعُون ذلك ومقدِّرونَه عاليًا».

١٠ هي جوليا أُولِن (١٨٨٢–١٩٦١) زوجة لويس سْتْويْڤيسِنت تشانلر الذي أَسس معها ومع الكاتب البهائيّ الفارسي ميرزا أَحمد زُهراب «جمعية التاريخ الجديد» سنة ١٩٢٩ لنشر الفكر البهائي. سنة ١٩٣٠ نشأَت عن هذه الجمعية رابطةُ «قافلة الشرق والغرب» تُعنى بتهيئة الأَولاد للانتساب إِلى «الجمعية» البهائية. وجعل الزوجان منزلَهما النيويوركي مقرَّ «الرابطة» فسُمّي «بيت القافلة» وأَصدرا منه مجلةً فصلية باسم «القافلة».

باربره يونغ: سَنَةٌ على غيابه

الذكرى الأُولى لِوَفاة الشاعر اللبناني
تستعيده شخصيةً حبيبةً خالدةً مكرَّسَةً مُكرَّمةً في كل مكان

هذا المقال في مَجلّة «العالم السُوري» (السنة السادسة – العدد السابع – نيسان ١٩٣٢ – ص ٢٦ إلى ٣٣) صدَرَ بدون توقيع. على أنني، من ترجمتي كتابَ «هذا الرجل من لبنان» لباربره يونغ، ومن أنشطةٍ قامت بها في نيويورك وسواها من أجل جبران بعد وفاته، ناشرةً أفكارَه ورسومَه ونصوصًا له منشورةً وأخرى غيرَ منشورة، ومن الأسلوب الشاعري الجميل الذي به نسَجَتْ كتابَاتِها عنه – وهو جليٌّ التعظيم في هذا النص كذلك – يمكنني ترجيح أن هذا المقالَ الطويلَ (٦ صفحات في المجلّة) هو من كتابة باربره يونغ، وهي كانت تُسهم في تحرير «العالم السُوري» مسؤُولةً عن القسم الأدبي فيها. ويَزيد من قناعتي استشهادُها في المقال بأفكارٍ وعباراتٍ ومقاطعَ تعرفُها جيّدًا، هي التي عايَشَتْهُ وكان يُملِيها عليها في جلساتهما الكتابية، منها كتُبُه الأخيرة «يسوع ابن الإنسان»، «التائه»، فقرات من «حديقة النبي»، وكتاباتٌ أُخرى.

لعامٍ مضى، في هذا الشهر، نيسان[١]، شهرِ تَفَتُّح البراعم وانْسيابِ الجداول، شهرِ انتصارِ الطبيعة سنويًّا على الموت، شهرِ القيامة، شهرِ الحب والأَمل، شهرِ الاشتياقات النضِرة والآمال الفتية، توفي الشاعرُ الحبيب والرسَّام والحكيم والمتصوِّف جبران خليل جبران[٢].

---

١ لم تستعمل باربره يونغ هنا كلمة «إپْريل» الإنكليزية بل تعمَّدَت استعمال كلمة «نيسان» اللبنانية، ربَّما تكريمًا جبرانَ الذي، في مطلع كتابه «النبي»، استعمَلَ كلمة «أَيلُول» اللبنانية ولم يستعمل له كلمة «سِپْتِمْبِر» الإنكليزية.

٢ تكريمًا جبرانَ تُورِدُ باربره يونغ في هذا المقال اسمَه الثلاثيّ: «جبران خليل جبران» كما كان يُحبُّه ويُوقِّع به كتُبه ومقالاتِه بالعربية، لا «خليل جبران» كما كان معروفًا بالإنكليزية.

كان ذلك، تحديدًا، عند الحاديةَ عشْرَةَ إلَّا عشْر دقائق من ليلةِ الجمعة في العاشر من نيسان، لحظةَ تلك الروحُ العظيمةُ التي قوَّت أَرواحَ الكثيرين السائرةَ متعَبَةً في وادي الدُموع[٣]، والتي نفثَت الشجاعة والأَمل لدى عاثري الخطوات، كان لها، بِدَورها، أَن تواجه المِحنة الرهيبة والمَجيدة معًا بـتحرُّرها وانطلاقها صوب الـ«ما بعد» الكبير.

مُؤَثِّرٌ ورائعٌ ما كان في الأَيام الأَخيرة من حياة جبران الأَرضية، وهي آخرُ رحلةٍ لجسدِه قبل أَن يستلقي بسلامٍ أَبديٍّ في ظلال أَرزاتٍ أَحبَّها بشغَفٍ وكانت مُمتزجَةً بأَحلام روحه ورُؤَاها. وكلُّ ما كان، يذكِّرنا بثبات سقراطٍ يجرع كأْس السُمّ داخل زنزانة كئيبة في سجن أَثينيّ، أَو يذكِّرنا برُواة الإِنجيل عن الناصري العظيم في أَيامه الأَخيرة ثم موتِه. هؤُلاء العظماء وأَشقَّاء أَرواحهم ممَّن في قلوبهم لهيبُ النار الإِلهية التي في عالم آخر، ممَّن في عيونهم يلتمع نور الخلود، ليس موتُهم سوى حدَثٍ عارضٍ في مسيرة الحياة العظمى[٤]. لذا كانوا يعتبرون عوائقَ أَجسادَهم وما يحيط بها في هذا العالم المادي. أَما أَرواحُهم، فكما عبّرَ عنها أَحدُهم: الشاعر الألماني الكبير غوته بأَن «الروح هي التي تَبني الجسد كي تعيش فيه».

لعلَّ جبران كان غنّى، لا لأَحدٍ من أَصدقاءَ خُلَّص ومُريدين كثيرين كتبَ لهم هذه الكلمات، بل كتبها لآلاف قرائه والمعجبين:

إِيه عروسَ أَحلامي، أَسْرِعي
أَسْرِعي بعدُ، بعدُ،
فأَعمقُ وديانٍ وأَعلى تلالٍ كنتُ حتى أَمسِ أَخافُها
بـتُّ اليومَ قادرًا أَن أَنحدرَ وِهادَها وأَتسَلَّق قِمَمَها.

لا مغزًى بَعدُ أَوضحُ من أَن يكون «الجنس اللطيف» هو الذي كان حول سرير جبران حين نَدَهَهُ الموت كي يُوَدِّعَ هذا العالم الذي أَحبَّه جبران كثيرًا، ومعه يُودِّعَ

٣ تَستعمل باربره هنا هذه العبارة حرفيًّا كما ورَدَت في أَكثر من نصٍّ لجبران بالعربية.

٤ كان الإِيمانُ بالتقمُّص أَوَّلَ خيطٍ مشتركٍ جَـمَعَ بين جبران وباربره يونغ.

أَصدقاءَه (وهم كانوا من أَكثر المُرهفين في أَيّ مكانٍ وزمان). فلحظةَ غادرَ شكلُه الأَرضيُّ بعيدًا إِلى الخلود، كان مُحاطًا بقلَّةٍ ضئيلةٍ من السيدات، وكان ذلك طبيعيًّا لمَن، كالسيِّد المسيح، في بعض تكوينه كيانٌ أُنثَويٌّ جعلَ أَن تَلْقى رسالتُه الروحيةُ تجاوُبًا أَفضلَ أَوَّلًا لدى قلب المرأَة المدرِك وحَدْسِها الكَونيّ.

السيدات اللواتي كُنَّ حول سرير المصطفى لحظةَ انطفائِه كُنَّ: الشاعرة باربره يونغ، الكاتبة والناشرة زوجة وليام براون مالوني، السيدة أَدال واتسون، السيدة ليونْبِل جاكوبس، شقيقته مريانا جبران، نسيبته روز جبران. ولاحقًا دخل صديقُه ميشا نعيمه[٥] ونسيبُه عسّاف جورج.



رسم بالرصاص من جبران للسيدة أدال واتسُون التي كانت في المستشفى بين سيدات قلائل حول سريره لحظة لَفَظَ نفَسَه الأَخير.

وعند يمين الزاوية السفلى قبل التوقيع، نقرأُ: «إِلى أدال من جبران – ١٩٢٦».

بعد ثلاثة أَيَّامٍ نُقِلَ جثمان جبران إِلى بوسطن، مدينةِ أَحلامِه الأُولى وكفاحاتِه الباكرة، حيثُ لم يفهمْهُ حتى الأَقربون ولو انهم أَحبُّوه، حيثُ لم يتوقف عن تسميتها مدينتَه، وكان يُحسُّها، بعد بلدته الحبيبة بْشَرّي، أَحبَّ موقعٍ إِليه في العالم. بينما

٥ كان ميخائيل نعيمه معروفًا بهذا الاسم بين رفاقه في «الرابطة القلمية»، وبهذا الاسم كان جبران دائمًا يخاطبه ويكتب إِليه.

نيويورك، وهي قدَّرت عبقريتَه ومنحَتْهُ أَوسعَ نجاحٍ وشهرة، يعتبرها مشغله الذي كان فيه يتأَمَّل الكون وينسج أَفكاره وهو «في قلب الله»[٦].

جبران خليل جبران – بأَناقة مظهره الدقيقة كما دبلوماسيٌّ رهيف، وشُمولية ذوقه وتصرُّفاته، وإِنجازاته الاجتماعية المتعدِّدة الوجُوه – كان ناسكًا بقلبه، ومتصوِّفًا خطَّط لرحلته صوب الاتحاد بالحقيقة العظمى من الواحد الأَحد إِلى الواحد الأَحد، ككبار المتصوِّفين. قليلون جدًّا مَن كان يُشركهُم في وحدته وسكوته وتفكيره الباطني. لهؤلاء فقط – بين الملايين في مدينة الأَبنية الشاهقة وقطارات الأَنفاق والشوارع العريضة المكتظّة، مدينة الركض والضجيج –كان يفتح قلبه داخل ذاك المحترف الصغير في المبنى ٥١ من الشارع العاشر غربًا، وهو كان له «كعبةً» وحَرَمًا وانسحابًا إِلى عزلة تُبعده عن الجلَبة المُرهِقة المؤْلِمة في [نيويورك] ذاك الدردور الرهيب، في بابل العصر المجنونة بنجاحها، السَكرى بجدواها.

أَمَّا في بوسطن، وإِليها كان جبران يعود دومًا في عطلته السنويَّة، وإِلى استراحته المُوَقَّتة من دُوار يومياته وعمله المتواصل، فكان استقباله حارًّا من قلوبٍ مُحِبَّةٍ بـحنانٍ كثيرٍ ناضحٍ بالتذكارات. هناك أَيضًا كانت تحيط به، أَنَّى تَوَجَّهَ، عنايةُ لمَساتٍ أُنثويةٍ حنونةٍ حانية. لذا، عند وُصُول نعشه، لاقاه جمعٌ من أَصدقائه اللبنانيين والسوريين، على رأْسهم الخورأُسقف أسطفان الدويهي، حملوه إِلى قاعة «جمعية سيدات المساعدة السوريات» غربيَّ شارع نْيوتن. وفي اليوم التالي (الثلثاء) أُقيمت الصلاة على جثمانه في كنيسة «سيِّدة الأرز» المارونية على شارع تايلِر حيث منزل شقيقته مريانا وفيه كان، أَيام عطلته، يُمضي ساعاتٍ طويلةً في أَحاديث عفويةٍ مع أَصدقائه والزوَّار.

كلمةٌ هنا عن موقف جبران من الدِين الملتزِم: رأَى كثيرون تناقضًا أَن تقام لجبران مراسمُ دفنٍ دينيةٌ في كنيسةٍ ملتزمةٍ مارونيًّا، هو الذي نصوصُه نسفَت المعتقداتِ

---

٦ إِشارة واضحة إِلى عبارته في «النبي: «وإِذا أَحببتَ لا تقُل: ’الله في قلبي‘ بل ’أَنا في قلب الله‘...».

الدينيةَ التقليدية بجعْل نعمة الله قصرًا على قلَّة من المؤْمنين المُخْلصين، ما أَغضب كبار المسؤُولين من رجال السلطة الدينية. لكن الحقيقة أَنْ ليس في الأَمر أَيُّ تناقض: جبران، كما كبار المتصوِّفة، كان في قلب الدِين. ولأَنه كان دَيِّنًا بعُمقٍ كامل، ثار على جميع القيود والحدود التي تهجِّر الروح عن مشاركتِها الشرعية الحرّة في ملاقاة الله. ونار الغضب التي جعلَت يسوع يثور على تجار الهيكل والصيارفة ويطردهم منه، هي ذاتُها التي اندلَعت في صدر جبران الذي، في نصٍّ من كتابه «التائه»، جعل الصاعقة تنزل على رأْس مطرانٍ طَردَ امرأَةً غيرَ مسيحيةٍ جاءَت تسأَلُه إن كان لها خلاصٌ من نار جهنم[٧].

ومثلما يسوع أَنصف جابي الضرائب الذي اعترف ذليلًا بخطاياه أَمام الله، وكما حَكَمَ على الفرِّيسِيِّ المتبجِّج الذي ادَّعى الاستقامة، هكذا كان جبران مثلَ ملايين الذين، من جميع الأَعراق واللغات والمعتقدات، عرفوا الخلاص ولو انهم لم يعتمدوا «بالماء والروح». وقبله بمئات السنين كان الشاعر المتصوِّف الكبير ابن الفارض، مريدُ طريقةِ المتصوِّف الشيخ البقَّال، أَنشد:

وإذا إلى حجرٍ ينحني عابدُ بوذا
فإني إلى إيمانه أَنتمي وبه أُجاهر.

وبالاندفاع الصوفي الرائع ذاته إلى الحب الكوني، أَنشَدَ ابنُ عربي، وقد يكون أَكبر شاعر صوفي في الزمن:

---

٧ ترجمة النص كما ورَدَ في «التائه» بعنوان «وميض البرق»: «في يومٍ عاصفٍ دخلَت امرأَةٌ غيرُ مسيحيةٍ كنيسةً كان فيها أُسقفٌ. وقفَت أَمامه سائلةً: «لسُت مسيحيةً فهل لي خلاصٌ من نار جهنَّم»؟ حدَّقَ الأُسقف مليًّا بها وقَذَفَها بجوابِ «لا خلاصَ إلَّا لِمَن اعتَمَدوا بالماء والروح». في تلك اللحظةِ انقضَّت على الكنيسة الكبرى صاعقةٌ مُدَوِّيَةٌ تَبِعَها رعدٌ هائلٌ فاندلعت النارُ سريعًا في أَرجاء الكنيسة. هرعَ رجال المدينة فأَنقذُوا المرأَةَ وكانت قُربَ الباب. أَما الأُسقف فكان احترقَ وقضى طعمَ النار».
وللتذكير: كتابُ «التائه» هو الذي أَملى جبران نصوصَه كلَّها على باربره يونغ، فكانت تُدوِّنُها أَمامه ثم تطبعها على آلتها الكاتبة وتعطيه إياها لمراجعته الأَخيرة قبل الطبع. لكنَّ جبران توفِّـيَ قبل أَن يراه مطبوعًا، فصدَر الكتابُ بعد أَشهر على غيابه، بعناية باربره، لدى منشورات «كنوف سنة ١٩٣٢.

لقـد صـار قلبـي قابـلًا كلَّ صـورةٍ فمرعـى لغـزْلانٍ وديـرٌ لــرُهبانِ
وبيـتٌ لأَوثــانٍ وكعبــةُ طائــفٍ وأَلـواحُ تـوراةٍ ومصحـفُ قــرآنِ
أَديـنُ بِديـن الحـب أَنَّـى توجَّهَـتْ ركائِبُـه، فالحـبُّ ديــني وإِيمــاني

كان ابنُ الفارض وابنُ عربي، المتصوِّفان المُسْلمان، أَقربَ روحيًّا إِلى جبران من أُولِئك المسيحيين.

وإِذا هذان المتصوِّفان الناسكان يُعتبَران مُسْلمَين حقيقيَّين، فجبران يُعتبَر مسيحيًّا حقيقيًّا، كما قبلَه صوفيُّون مسيحيُّون حقيقيُّون، كـ«المُعلِّم» إِيكْهارْتْ[٨]، وبُوهْمْ[٩]، والمؤَلِّف المغْفَل واضع «اللاهوت الأَلماني»[١٠]، وجميعُهم متساوُون في التشَدُّد بعقيدتهم، وفي كَوْنَوِيَّة فهْمهم الخلاصَ والإِيمان. هكذا حتمًا يكون جبران مسيحيًّا حقيقيًّا. ولو أَنه مسلمٌ لكان مُسْلمًا حقيقيًّا، ولو أَنه هندوسي لكان هندوسيًّا حقيقيًّا. فإِنما الانتماءُ الحقيقيّ يكون إِلى الدِين لا إِلى الكهنة والإِكليروس، إِلى يسوع لا إِلى الكَتبَة والفرِّيسيِّين في أَيّامه، وهكذا يَكونُ فهْمُهُ الصحيح ثم نقْلُهُ إِنسانيًّا وإِيمانيًّا إِلى أَتباعه رجالًا ونساءً.

غير أَنَّ جبران لم يَكُن مسيحيًّا فقط بل مارونيًّا بطريقةٍ عاطفيّةٍ عذبة. ففي الطقس الماروني مقارباتٌ وتذكاراتٌ تشدُّه إِليها، وتعني له الكثير. كانت تأْخذه إِلى طفولته الأُولى، إِلى ذكرياتٍ عن أَبيه وأُمه، وشقيقَتَيه وأَخيه، وأَقرباء وأَصدقاء غمروه جميعًا بحبهم وحنانهم وحرصهم عليه خلال سنواته الباكرة في تلك البلدة الجميلة المُشرفة على شير وادي قاديشا في شمالي لبنان. وبقيَت في ذاكرته العميقةِ تتردد حيَّةً احتفالاتٌ وأَعياد، وأَفواجٌ هانئةٌ من مؤْمنين يلبَسون ثياب

---

٨ إِيكْهارت ڤون هوشْهايم (١٢٦٠ – ١٣٢٨) معروف بـ«إِيكهارت المعلِّم»: صوفِيٌّ، فيلسوفٌ، ولاهوتيٌّ أَلمانيّ.

٩ جاكوب بُوهْمْ (١٥٧٥ – ١٦٢٤) صوفيٌّ لاهوتيٌّ لوثريٌّ، بروتستانتيٌّ له تجربتان صوفيتان غيَّرَتا سياقَ حياته.

١٠ مخطوطةٌ صُوفيةٌ مسيحية، مجهولةُ الكاتب، تُعزى إِلى راهب مجهول من فرنكفورت، ترجيحًا في القرن الرابع عشر، ثار على منْع رجال الدين من ممارسة الطقوس الكاثوليكية.

العيد الملوَّنة، ومواسمُ دينية، ومواكبُ خاشعةٌ يتقدَّمها كهنةٌ بالجُبَبِ السود، وأَحيانًا زيارةُ مطرانٍ إلى البلدة، وربما البطريركُ ذاتُه، فتتحوَّل البلدةُ كلُّها مهرجانًا حقيقيًّا. في رأْي جبران، يكون مارونيًّا ليس فقط - أَو حُكْمًا - مَن هو مِن مذهبٍ محدَّدٍ ذي طقوس وعقائد، بل هو مَن ينتمي إلى شعب قديمٍ عريقٍ فينتسبُ إلى تاريخه ذاته، وآماله ذاتها، والمعمودية ذاتها بالدم والعذاب، والأَفراح والأَحزان إياها. ومن إنشاد التراتيل السريانية، وعبَقِ البخُور، والعادات والتقاليد الدينية، كانت لجبران حالةٌ صوفيّةٌ تَقَويةٌ لا يمكن أَن يفهمَها مَن يأْخذها فقط بِمحدوديّة مضمونها الحَرفِيّ.

كان جُوزْيا رُوْيْس[11] يسمّي «الولاء الجماعي» تَجاوُزَ كلِّ انتماءٍ إلى عقيدةٍ أَو مذهبٍ، والسُموَّ حتى بُلُوغِ جوهر القِيَم الرُوحية.

هكذا كان انتماءُ جبران إلى الكنيسة المارونية. غير أَن هذا لا يحصره في حَيِّزٍ طائفيّ مذهبي. إنه ينتمي إلى العالم كلِّه. وبين كتُبه ما تُرجِمِ إلى نحو ٢٠ لغةً بينها اليابانية. ولا يَبْدُوَنَّ متناقضًا أَن يكون مارونيًّا، كما ليس متناقضًا أَن يقرأَ كتبَه البوذيون و الشِنْتُوِيُّون[12]، وأَن يكون معرِّبُ كتُبِه الإِنكليزية أُسقفًا أُرثوذكسيًّا[13].

لذا تعدَّدت بُعَيْدَ غياب جبران احتفالاتُ ذكرى تدُلّ على تنوُّع مُحِبّيه وقادري فكره مع أَن معظمهم لم يعرفه شخصيًّا. أَولُ تلك الاحتفالات أُقيم، بعد ثلاثة أَسابيع على وفاته، في القاعة الشرقية من متحف روريتْشْ[14] (تقاطع الشارع ١٠٣ وريڤر سايد في مانهاتن نيويورك) مساءَ ٢٩ نيسان، حين التأَم جمعٌ حميمٌ من الأَميركيين

---

١١ فيلسوف أَميركي (١٨٥٥-١٩١٦) صاحب نظرية «الفلسفة المثالية» القائمة على الولاءِ المثاليّ للقِيَم الرُوحية العامة، وتجاوُزِ كلِّ مُمارسة طقسيّة أَو مذهبية خاصة.

١٢ ديانة يابانية قديمة تقوم على عبادة عناصر الطبيعة.

١٣ هو الأرشمندريت أَنطونيوس بشير (١٨٩٨-١٩٦٦) ولاحقًا متروپوليت نيويورك وأَميركا الشمالية للكنيسة الأُرثوذكسية.

١٤ على اسم الرسام والكاتب الروسي نيكولاي رُورِيتْش (١٨٧٤-١٩٤٧) وهو أَسسه في نيويورك سنة ١٩٢٠ مركزًا ثقافيًّا متخصِّصًا في الأَنشطة الموسيقية والقراءات الشعرية.

واللبنانيين والسوريين وأَصدقاء ذاك الحالِم الكبير التائه والنبي. قدَّم الخطباءَ الدكتور تشارلز فْليشِر، وتوالى على المنبر كلٌّ من باربره يونغ، سلُّوم مكرزل، كلود براغدُن، سْيُود حسين، ليونورا سْپاير، ميشا نعيمه وآخرون. كان الاحتفال نسيجًا جميلًا من غربيين وشرقيين جاؤُوا يكرِّمون ذكرى من نجح أَكثَرَ من أَيٍّ سواه في تقريب الأَوَّلين من الآخَرين. وكان لافتًا في الاحتفال أَن يُشارك موسيقيًّا مسيحيٌّ ومحمديٌّ، سوريٌّ وعربيٌّ. فالأَمير محيي الدين عزف على التشيلُّو مقطوعة «أُرقُدْ بِسَلام»[١٥]، وعزف أَنيس فليحان[١٦] على الپيانو مقطوعاتٍ كان لَحَّنَها من كلمات جبران، غناها في ذاك الاحتفال هيوبرت لِنسْكوت.

الاحتفال التالي كان بعد نحو شهْرٍ (الأَحد ٢٤ أَيار) نظَّمتْه «الرابطة القلمية»، الحلقة الأَدبية التي أَسسها جبران وكان مرشدَها الروحي. جرى الاحتفال في مبنى الاتحاد الأَميركي السوري (الرقم ١٢٣ – شارع شِرْمِرْهُن في بروكْلِن).

في هذا التاريخ أَيضًا (الأَحد ٢٤ أَيار) أَقام أَصدقاء جبران ومواطنوه في بوسطن احتفالًا بذكراه في مبنى البلدية (جادة شُومُتْ)، خَطَب فيه الأَرشمندريت أسطفان الدويهي، رشيد عبدالنور، وديع شاكر والياس شمعون[١٧].

وفي نيويورك تقاطرت على جريدة «الهدى» مئاتُ المراثي والمقالات بالعربية من جميع الولايات الأَميركية، أَفردَت لها الجريدةُ مساحاتٍ واسعةً على أَيام متتالية. ولم تقصِّر الصحافة الأَميركية المحلية فنَعَتْهُ، وخصصَت بعض الصحف مقاطع طويلةً لسيرته وأَعماله، فيما وكالة «أَسوشياتد پْـرِسّ» طيَّرَت نبأَ وفاته إِلى كل العالَم.

---

١٥ أُغنية أَلمانية شهيرة للمؤَلِّف فرانتز شوبرت (١٧٩٧–١٨٢٨)، على كلمات الشاعر الألماني فردريك روكِرت (١٧٨٨–١٨٦٦).

١٦ مؤَلِّف موسيقي أَميركي من أَصل لبناني (١٩٠٠–١٩٧٠)، وعازف پيانو وقائد أُوركسترا.

١٧ محامٍ، صديق جبران، ساعده على الخلاص من مشكلة المبنى الذي أَوقع جبران تحت ديونٍ قاسية، كان اشتراه مع صديقه فارس معلوف. وشمعون أَصبح لاحقًا (١٩٤٤) أَوَّل قاضٍ أَميركي في ولاية ماساشُوسِتْس من أَصل لبنانيّ.

ويلفت في احتفالات الذكرى تلك، أَنّ اثنين منها أُقيما في مدينَتَين متباعدتَين آلافَ الأَميال.

الأَول في سيدني (أُستراليا): حضره قنصُلا الولايات المتحدة وفرنسا، وأَربعةُ أَعضاء من البرلمان الأُسترالي، ووزير الداخلية. وتحدَّث فيه نائبٌ في پرلمان ولاية نيو ساوث ويلز، ومواطنٌ سوريّ.

الاحتفال الآخَر في جوهانسبورغ (جنوب أَفريقيا): قُدَّاسٌ في كنيسة سيدة لبنان. وأَلقى المرثيةَ أُسقفُ مقاطعة ترانسڤال معلنًا أَن رسالة جبران «إِلى الأَميركيين الشباب من أَصل سوري» هي «في قلب الأَدب الخالد، وتنطبق على الجيل الجديد من السوريين واللبنانيين في كل صَقْعٍ من العالم».

بين أَميركيين كثيرين كانوا معجَبين بجبران ومقدِّرين ذاك الصوفيَّ السوري: القسُّ الدكتور وليام نورمان غُثْري، خادم رعية القديس مرقس في حيّ الباوِري[١٨]. كان غالبًا يقف على المنصَّة ويقرأُ مُختاراتٍ من «النبيّ» ونصوصًا أُخرى من جبران، مُحاذيًا بها قراءَاتِهِ من نُصوص الكتاب المقدَّس، وأَحيانًا يقدِّمها لوحاتٍ مشهديةً إِيمائيةً على مسرح الكنيسة. لذا كان بديهيًا أَنْ نَظَّمَ في تلك الكنيسة احتفالَين تذكاريَّين لجبران، في ٢٥ تشرين الأَول و٨ تشرين الثاني ١٩٣١، بأَداءِ مَشاهدَ مؤَثِّرةٍ من «النبي» و«التائه»، حضرهما في تلك الكنيسةِ الصغيرةِ وسْطَ مانهاتن جمهورٌ كثيفٌ من الأَميركيين والسوريين أَصدقاءِ ذاك الراحل الكبير.

على أَن المؤَثِّر أَكثرَ من أَيٍّ سواه، في هذه المأْساة الحارقة، كان المشهدَ الأَخير الذي جرى في بلاد هذا العرّاف والبطل الروحي، في لبنان وطن الأَرز، حيثُ شاعرُ الأَرز فتح عينيه على نور الحياة.

---

١٨ ناحيةٌ في أَسفل مانهاتن، والكنيسةُ فيه پروتستانتيةٌ هي ثانية أَقدم كنائسه، ترقى إِلى ١٧٩٥.

من مرفإِ پروڤيدِنس[19] أَقلعَت الباخرة «سينايا» (التابعة لخُطوط «فايبر» البحرية[20]) وفي قلبها جثمان جبران خليل جبران في النعش ملفوفًا بالعَلَمَين اللبناني والأَميركي. كان على رصيف الميناء بين المودِّعين الكثيرين: نعوم مكرزل ناشر جريدة «الهدى» وهو ناشطٌ وطنيّ قائدٌ في الجالية اللبنانية ساندَ جبران في نشاطه الوطني والأَدبي، سلُّوم مكرزل ناشر مجلة «العالم السُوري»، ابرهيم حتي وكيل شركة خطوط «فايبر لاين» البحرية، يعقوب جورج روفايل ناشر مجلة «الأَخلاق»[21]، الخورأُسقف منصور أُسطفان خادمُ رعية سيدة لبنان للموارنة في بروكلن، باربره يونغ، مريانا شقيقة الشاعر، وأَصدقاء وأَنسباء له في بوسطن رافقوا الجثمان، وأَفرادٌ من الجاليتَين السورية والأميركية في پروڤـيدِنس.

على المقلب الآخر من المحيط الأَطلسي، كانت تحضيراتٌ حثيثة ومؤَثِّرة تجري لاستقبال الجثمان كما يليق بعظمة الراحل الكبير ومكانته الفريدة أَدبيًّا وروحيًّا في تاريخ ذاك البلد الصغير. هناك احتشَدَت وفودٌ أَمَّتْ بيروت من جميع المناطق السورية: من دمشق التاريخية، من حلب، من حمص، من حماة، من أَنطاكية، من صيدا، من طرابلس، ومن الأَراضي المقدَّسة، ومن كل بلدةٍ وقريةٍ ودسكرةٍ في لبنان. وكان لافتًا حضورُ رجالٍ ونساءٍ من بْشَرّي بلدة جبران خليل جبران في لبنان الشمالي، جاؤُوا إِلى بيروت بلباسهم المحليّ المميَّز، وغيومٍ حزينةٍ من الأَسى على وجوههم الأَبية.

مهيبًا كان استقبالُ الجثمان على مرفإِ بيروت بالمراسم الرسمية التكريمية: وزراءُ ونوابٌ باللباس الرسمي، كهنةٌ وكبار رجال إِكليروس بِجُبَبِهِم التقليدية، وكثيرون جِدًّا تقاطروا، رجالًا، نساءً، أَطفالًا، كانوا أَحبَّاءَ إِلى قلب الشاعر الميت.

---

١٩ عاصمة ولاية رود آيلاند، جِيْءَ إِليها بنعش جبران من بوسطن.

٢٠ وكيلُها في نيويورك اللبنانيُّ ابرهيم حتي، وكان صديقَ جبران.

٢١ أَصدرها شهريةً في مانهاتن من ١٩٢٠ إِلى ١٩٣٢ وكانت منبرًا قويًّا للأدب المهجري. بين كتَّاب أَعدادها الأُولى: لويس صابونجي، طانيوس عبده، ميخائيل رستم، نعوم مكرزل، وشجَّعت الأَقلامَ النسائية فنشرَت فيها عفيفة كرم وڤيكتوريا طنوس.

وصل الجثمانُ إلى مرفإٍ بيروت نهار الجمعة ٢١ آب ١٩٣١، وحُمِلَ في موكبٍ رسميّ وشعبيّ إلى كاتدرائية مار جرجس المارونية فاستقبلَهُ المطران اغناطيوس مبارك رئيسُ أَساقفة بيروت المَوَارنة وكهنتُها بينما تتناهى من الكنيسة تراتيلُ سريانيةٌ جميلة.

عند المساء أُقيم لِجبران احتفالٌ وطنيٌّ في إحدى أَكبر صالات المسرح في المدينة[٢٢]. ترأَّسَهُ شارل دبَّاس رئيسُ الجمهورية اللبنانية، وتوالى على المنبر راثينَ جبران: الكاتبُ الأَديب أَمين الريحاني، الشاعرُ خليل مطران، نقيبُ الصحافة خليل كسيب، محمد جميل بيهُم رئيس جمعية «اتّحاد الشبيبة الإِسلاميّة»، النائب والكاتب والصحافي ميشال زكُّور، الشاعر أَمين تقي الدين، ومُـمثِّلو جمعياتٍ ونَوادٍ وهيئاتٍ دينية ودُنيوية.

بعدها حانت الرحلة المُظفَّرة الأَخيرة إِلى بْشَرّي، بدءًا بمشاهدَ بالغةِ التأْثير لنسوةٍ نادباتٍ أَمام النعش يذكِّرْنَ بأُولئك المتفجِّعات اللواتي قرأْنا عنهنَّ في العهد القديم. سار الموكب متوقِّفًا على الطريق في محطات عدَّة، بينها جبيل (بيبلوس التاريخية) وفيها صبايا بشعُورهنّ المُتطايرة وأَزيائِهنَّ التقليدية رُحنَ يُنشِدْنَ مقاطعَ شِعريةً في تسبيح البطل العائد ميتًا كأَنه حيٌّ عائدٌ منتصرًا يستقبله ذَوُوه على مدخل بلدته.

ومع ابتعاد أَصواتِ مظاهر الاحتفاء الاستقبالية، وصلَ جثمانُ الصوفـيِّ العاشقِ الصمتَ والوحدةَ والسُكونَ، وسُجِّيَ في دير مار سركيس، الصومعةِ الصغيرة التي كان جبران شَغوفًا بها، ويتحدَّث دائمًا عن رغبته أَن يُمضي فيها آخر سنوات حياته.

هناك يستريح اليومَ رُفاتُه الدُنيويُّ طيلةَ ما يُعطى أَن يستريحَ أَيُّ شيءٍ ثابتٍ في عالمنا المتغير.

وهناك، داخلَ كهْفٍ صغيرٍ تحت كنيسة الدير، في تلك البلدةِ الساحرةِ الجمال المطلَّةِ على وادي قاديشا الناضحِ بعبَق الإِلهام في سفْح غابة الأَرز المستلقية على

٢٢ هي تقصُد هنا مسرح «التياترو الكبير»، وهو بالضبط قُبالةَ مدخل كاتدرائية مار جرجس المارونية.

قمة الجبل، يَقِف الزائِرُ عند باب الكهف ويَقرأُ على لوحة خشبية هذه الكلمات بالعربية: «هنا يستريح رفاتُ النبي جبران راقدًا تحت أَجنحة مَلاك السلام»[٢٣].

هكذا بلَغت نهايتَها مسيرةُ ذاك الشاب الحالم الـمُصْلح الذي، في فجر شبابه، رفَع صوته غاضبًا بعنفٍ على الظُلم الوحشيّ لنظامٍ اجتماعي مُجحفٍ عانى من عوائقِه فهاجرَ إلى بلادٍ جديدةٍ تَبَرعَمَتْ فيها عبقريتُهُ وَأَزْهَرَت وأَثْمَرَت بدون عوائق، فشَعَّ نجمُه في الغرب، وها هو ملِكًا منتصرًا عاد إِلى أَرضه الأُم وشعبه الحبيب.

وهكذا الأَرضُ التي عادةً تَرجُمُ أَنبياءَها وتُشيحُ عن عرَّافيها الرؤْيويين، استقبلَت بأَروعِ تَجَلِّيات الحُب والتقدير أَحدَ أَكبر أَنبيائِها وأَحبِّهم إِليها على الإِطلاق[٢٤].

عن مجلَّة «العالَم السُوري»
السنة السادسة، العدد السابع، نيسان ١٩٣٢
ص ٢٦ إلى ٣٣

٢٣ حين أَصدر ميخائيل نعيمه سنة ١٩٣٤ كتابَه «جبران خليل جبران – حياتُه، موتُه، أَدبُهُ، فَنُّه» (أَمامي طبعتُهُ الثامنة – ١٩٧٨– مؤَسسة نوفل – بيروت)، أَوردَ في ختامه فصلَ «المصطفى» مَوضوعَ هذه العبارة فَذَكَرَهُ هكذا: «ربطَ جبران ظُروفَ حياة المصطفى بظُروف حياته فكأَنه صَوَّر نفسَه بالغًا تلك الحالةَ في كل أَحوال معيشته وأَدوارها، وخلعَ عليه وشاحَ النُبوءَة فكأَنه خلعه على ذاته أَيضًا. قد يكون جبران لم يقصد هذا القصد، لكنَّ ذلك ما تؤَدِّيه فاتحةُ كتاب «النبي» وخاتمتُه، وما أَدّاه الكِتَابُ كلُّه إلى أَذهان كثيرين من الناس وبالأَخص أُولئك الَّذين كتبوا فوق ضريحه في مار سركيس هذه الآية: «هنا يَرقد نَبِـيُّنا جبران». وكأَنما قام مَن يُحاسبهم إِلى أَين يعود الضمير [الـمتصل «ـنا»] في «نَبِـيّنا» فغيَّروا الكلمة إلى «بَينَنَا»، وهي التي قرأْتُها يوم زرتُ الضريح في صيف ١٩٣٢» (ص ٢٢١-٢٢٢).

٢٤ على امتداد هذا المقال المكتوب سنة ١٩٣٢ نَسَجَت باربره يونغ وصفًا دقيقًا لبْشَرّي، طبيعةً وموقعًا وهالةَ تأْثيرٍ دائِم في قلب جبران كأَنها عاينَتْها شخصيًّا، مع أَنها لم تَعرفْها إِلَّا بعد سبع سنوات من هذا الوصف النظري عن بُعد، حين زارت لبنان سنة ١٩٣٩، ما يوضحُ كم كان جبران يُحدِّثُها دائِمًا عن لبنان وبْشَرّي بأَيِّـما شغَفٍ وأَيِّـما حنين. وما يشير بوضوحٍ إِلى أَنها هي كاتبة هذا المقال (غير الموقَّع في «العالم السُوري»)، كونها استعادت منه مقاطع وصفيةً كاملةً للمأْتم ومواكب التشييع، في كتابها الصادر لاحقًا «هذا الرجل من لبنان» (١٩٤٥).

باربره يونغ في لبنان

في الفصل الأَخير (التاسع عشر) من كتاب باربره يونغ **هذا الرجل من لبنان**، وفي وصْفها ليلتَها الأَخيرة في بيروت عشية عودتها إِلى بلادها، ورَدَ هذا المقطع: «في سكون تلك الليلة خرجتُ وحدي إِلى شُرفة الفندقِ الجذَّاب الصغيرِ ذي اللافتة العريضة «أُوتيل بَسُّول الكبير»(صورته ص ٢٧٨)، فوق تَكَسُّر الموج على الرصيف الجميل لجُون مار جرجس عند زاوية شارع شاتوبريان وجادَّة الفرنسيين. ردَّدتُ في صمتي ذينَك الاسمَين الفرنسيَّين الجميلَين لشعوري برفضٍ غريبٍ أَن أُغادر بيروت، أَن أُغادر لبنان. فأَنا جئْتُ إِليه كي أُمضي فيه سنواتٍ وأَدرسَ العربية فأَتَمَكَّنَ من الترجمة، وكي يتلقَّى حفيدي دروسَه الأُولى هنا فأَسمعَه في طفولته ينطق بكلماتٍ عَرَبيةٍ، ويغني أُغنياتٍ عَرَبيةً، ويعيشَ في الجو الذي كان ينتمي إِليه جبران. كانت لي بْشَرّي جَوهرةَ جمالٍ بسيطٍ وصدْقٍ فِطريّ. كنتُ أَنوي أَن أَعيش جزءًا من السَنَة في بْشَرّي، والآخَرَ في بيروت. لكنها الحرب داهَمَتْني».

زيارة لبنانِ جبران!

طويلًا حلمَتْ بها. منذ هي معه في المحترف، تصغي إِليه بحنينٍ غامض، يحدِّثها بشغَفٍ عن بلاده فتراها في بريقِ عينيه ونبرةِ صوته وتَوقِه للعودة إِلى ذاك الـ«هناك» حتى أَنها، من خلال كلماته، تكاد تتخيَّل تلك البلادَ الجميلة التي أَنجبَت «هذا الرجل من لبنان».

ولأَنه غاب قبل أَن يعود ليرى لبنان فلم يَعُدْ إِليه إِلَّا ليراهُ بدون النور في عينيه، قرَّرَتْ أَن تزور هذا اللبنان الذي لم يَغِب عن لسان شاعرها ولا عن كتاباته حين يروح يُمليها عليها.

بين غيابه (١٩٣١) والزيارة التي حقَّقَتْها (١٩٣٩) ثماني سنوات. وبين زيارتها ووضْعِها كتابَها (١٩٤٥) ست سنوات. وفي كتابِها وصفَت تلك الزيارة التي ظلَّت ١٤ سنة مطبوعةً في بالها وذكرياتها وحنينها، حتى تَمنَّت أَن تَسمع حفيدَها كريستوفِر (٤ سنوات) يَنطق بالعربية التي كانت تسمعُها من جبران في المحترف ولم تكن تفهم منها إِلَّا الضوءَ في عينيه البارقتَين من حنين.

لعل تلك الزيارةَ الوجيزةَ إِلى لبنان أَبرزُ حدَثٍ في حياتها الجبرانية بعد جبران وقبل الحَدَث الآخَر الذي هو كتابُـها عن هذا الرجل من لبنان.

احتفاءً بأَهمية تلك الزيارة، أُورِدُ في ما يلي ثلاثةَ نصوصٍ بل شهاداتٍ مباشرةً تابَعَت باربره يونغ في زيارتها بْشَرّي جبران وزيارتها في بيروت مدرسةَ «الحكمة» التي ضمَّت أَربع سنوات من صِبا جبران.

هنا، إِذًا، النُصوص الثلاثة:

١) شهادةُ الأَديب فؤَاد افرام البستاني الذي رافق الشاعرة في زيارتها بْشَرّي.

٢) شهادةُ جريدة «السياسة» التي أَسهبَت في وصف تلك الزيارة.

٣) شهادةُ الأَب لاوون مقصود الذي رافق الشاعرة في زيارتها مدرسةَ «الحكمة».



فؤَاد افرام البستاني: زيارة باربره يونغ بشَرِّي بقلم شاهد عَيَان

في فصل «معلومات جديدة» (ص ٢٤) من كتاب **مع جبران** لفؤَاد افرام البستاني[٢٥] وَرَد: «... ويكون من حظِّنا – وبالتالي من حظِّ الدراسات الجبرانية – أَن نجتمعَ بالسيِّدة بربارة يونغ[٢٦]، الأديبة الأميركية المعروفة، اجتماعاتٍ متتاليةً على ساعات مستطيلة، في بْشَرِّي وفي بيروت، في تشرين الأَوَّل سنة ١٩٣٩، فنستفيدَ منها ومن دفاتر جبران التي كانت تحملُها في حقائبها، إفاداتٍ جمَّةً ووثائقَ ثمينةً ذكرناها في فصل طويل ظهر في مجلة **المشرق** السنة ١٩٣٩».

وفي فصل «على ذكْر جبران» من الكتاب ذاته (ص ٤١ إلى ٨١) يَنشُرُ البستاني مقالَه المُطَوَّل ذاك في **المَشرق**، أَستعيدُهُ هنا بِحرفيِّته وحواشيه لأَهَمِّيَّته التوثيقية.

على ذكر جبران

«إلى بربارة»... «إلى بربارة»!

كثيرًا ما قرأَ روّاد متحف جبران في بْشَرِّي هذا التعبير باللغة الإنكليزية، وقَّع

٢٥ عنوانُه الكامل: **مع جبران: ١٩١٩–١٩٨٢**. صدَر في ١٠٤ صفحات حجمًا صغيرًا عن «منشورات الدائرة»، بيروت ١٩٨٣، لِمُناسبة المئوية الأُولى لِمولد جبران (١٨٨٣–١٩٨٣). وهذا الفصل (عنوانُه الأَصلي في الكتاب «على ذكْر جبران – معلومات جديدة عن حياته وآثاره، جبران وبربارة، بربارة في قبر جبران ومتحفه، محاولات الكاتب والفنان، آراؤُه في شؤُون مختلفة، مَرَضُه ووفاتُه»)، كان البستاني نشَرَهُ في مجلة **المَشْرق** (السنة ٣٧، العدد الثاني: نيسان/حزيران ١٩٣٩، ص ٢٤١ إلى ٢٦٨) أُعيدُ نَشْرَه هنا بِإِذْنٍ خاصٍّ مَنَحَنيهِ مديرُ «منشورات الدائرة» الدكتور حارث فؤَاد افرام البستاني.

٢٦ أَورد البستاني اسمها «بربارة» (باللفظ اللبناني السائر) لا «باربره» بالكتابة الأَميركية التي هي تعتمدها. وللأَمانة أَبقيتُ في كامل هذا النص على الكتابة التي اعتمدَها البستاني.

به المصوِّرُ النابغة بعضَ رسومه الرصاصية والفحمية، ورفعها هديَّةً «إلى بربارة». وكان الاختصاصيون بالشؤُون الجبرانية يعرفون أَن السيِّدة بربارة يونغ، وهي من كبريات الأَديبات الأَميركانيَّات، عرفَتْ جبران في آخر سنيِّه، واهتمَّت بعد وفاته بتركته الأَدبية والفنية. بيد أَن جمهور المعجبين بالشاعر الفنَّان، الغُيُر على جمع أَخباره وذكرياته، ما كانوا ليتمثَّلوا هذه الأَميركية إِلَّا شخصيّةً غامضة لا تكاد تخرج من ضبابِ الأَبعاد النيويوركية إِلَّا لتلتحق بسِرب أُولئِك السيّداتِ مشجِّعاتِ الأَدب والفنّ بل الأُدباء والفنَّانين، من اللواتي تتردَّد أَسماؤُهنَّ دون أَن تُمثِّلَ على حقيقتها تلك الشخصيَّات الجذَّابة.

هكذا تعرَّفَت إِليه...

في أَحد أَيام تشرين الأَول سنة ١٩٢٣ كانت السيِّدة بربارة يونغ تشهد حفلة نادرة في كنيسة القديس مرقس الإِنجيلية الأُسقفية في نيويورك. وكان القائمُ بتلك الحفلة السيد داڤنپورت بَطْلِر، مديرَ مسرحٍ غريبٍ من نوعه في العالم، هو مسرح مجاني يعرض فيه المُمَثِّلون والمُمَثِّلات أَشهر الروايات في حفلات منظَّمة شأْن سائر المسارح، إنما تمتاز بكونها مجانيَّة، فلا الإِدارة تنال شيئًا على تنظيمها، ولا الممثِّلون ينالون أَجْرًا على أَعمالهم. أَعلنَت هذه الجوقة أَنَّها ستقوم بقراءَة مقاطع من «نبيّ» جبران في الكنيسة الأُسقفية، وتَمَّت الحفلة على أَكمل وجهٍ بحضور المؤلِّف نفسه. وكان بين جمهور المعجَبين بالمقاطع المُلقاةِ السيِّدةُ بربارة (أَو «الست بربارة»، كما تعوَّد أَهلُ جبران وأَصدقاؤُه أَن يسمُّوها في ما بعد، وكما سندعوها جريًا على هذه العادة!) وهي لم تكُن تعرف جبران بَعد، ولا شيئًا عن جبران.

انتهَت الحفلة وخرَج الناسُ كلٌّ بذكرياتِه وتأَثُّراته. وكان اتجاه الست بربارة إِلى أَول مكتبةٍ تتزوّد منها كتابَ «النبي» فتُحْيي ليلَها بقراءته معجَبةً متأَثِّرة، حتى إِذا أَقبل الصباح كان لـ«النبيّ» مبشِّرةٌ جديدةٌ تَندفع في نشْر تعاليمه وشرح آرائه بما أَعطاها الله من بلاغة حارَّة ونبرة جذَّابة، وبما أَولاها اهتداؤُها الجديد من غيرة

وحماسة. وإِذا بالمحاضرات تلي المحاضرات عن جبران و«نبيِّه»، وبالقراءات بعد القراءَات للمقاطع المُؤَثِّرة في المجتمعات الخاصَّة والعامَّة.

ومرَّت أَشهر خمسة.

في شهر آذار من السنة ١٩٢٤، بعد أَن قامت الست بربارة بقراءَة آياتٍ من «النبي» في «جمعية النساء» في الكنيسة نفسها، تقدَّمَت منها إِحدى الأَوانس تسأَلها إِذا كانت تعرف جبران. هزَّت الخطيبةُ رأْسَها متأَسِّفةً، وشُدَّ ما كان استغرابُها عندما سمعت من الآنسة المذكورة أَنَّ جبران في نيويورك. على أَنها تردَّدَت في طلب التعرُّف إِليه خشيةَ أَن تمحو شخصيَّتُه الحقيقيةُ تلك الشخصيةَ المُثلى التي كَوَّنها لها إِحساسُها الفني وخيالُها الشاعر. كان عراكٌ شديد بين الاكتفاء بالمَثَل الأَعلى الخيالي والفضولِ الأُنثوي الدافع إِلى الاطِّلاع على الجديد مهما يكُن. حتى انتصر الفضول، طبعًا، لكنه اقترن بشيْءٍ من الإِيجاس والحذَر أَرضت به الست بربارة خيالَها المكتفي بما تتمثَّلُه عن جبران. عزمَت على مخاطبته بالتلفون لكنها تجنَّبت سماعَ صوتٍ قد يُبدِّد ما تصوَّرَت سماعَه من نبرات «النبي»، فكتبَت إِليه رسالةَ إِعجابٍ واحترام، وأَخذت تَعُدُّ الساعات مقدِّرةً مدَّة الذهاب، مؤْمنةً بتسلُّم جواب عن تلك الرسالة.

كان الجوابُ أَسرعَ مِمَّا قدَّرَت. وكان شفهيًّا حملَه سلْكُ التلفون يسأَل عن السيِّدة بربارة يونغ ويدعوها إِلى محترف جبران أَو، إِذا صحَّ التعبير، يدعو جبران نفسَه إِلى مكتبها. فضَّلَت أَن تذهب هي فتزورَ الشاعر الكبير في مهبط وحيهِ في «٥١ غربي الشارع العاشر». ولم يكَد ينتهي حديث المجاملات حتى أَصبحَت الست بربارة من أَخلص أَصدقاء جبران وأَصدق معاونيه، سبعَ سنوات متوالية، يُفضي إِليها بكل ما يخالج قلبه، ويُطْلعها على خفايا حياته الكئيبة، ولا سيما في آخرها، فتحنو عليه حُنُوَّ الأُمّ العطوف، وتُعجَب به إِعجابَ الأُخت الفخُور، وتَمتَثل لأَقواله امتثالَ البنْت المطيعة، يستشيرها في المشاكل الاجتماعية، يتَّكل عليها في الشُؤُون الأَدبية، يرتاح إِلى تعازيها في أَزماته الصحية، يراها جنْب سريره في المرض الأَخير وفي الساعات القليلة التي قضاها في المستشفى، حتى إِذا فارق هذه الفانية

أَخذَت تهتمُّ بما تركَه من مخطوطات. جهَّزَت للطبع ثلاثةَ مجلَّدات كَتبَت مقدِّمة واحدٍ منها. رتَّبَت آثاره الفنية فأَظهرَتْها في معرض تذكاري، في محترفه الخاص، فتح أَبوابه من كانون الثاني إِلى نيسان ١٩٣٢. ثم هيَّأَتْها مع آثار المحترَف جميعِها حتى شُحنَت إِلى مسقط رأْسه. وهذه التذكارات في مُحترف الفقيد، كم كانت يقظتُها مؤْلِـمَةً في بْشَرِّي حيث رأَينا الست بربارة، كأَنها مخطوفة الحواسّ، تنتقل من زاوية إِلى زاوية، من صورة إِلى صورة، من قطعة خشبية إِلى كرسي، إِلى ريشة، إِلى رأْس تمثال مهشَّم، وتقول: «كان يجلس هنا، كان يُسنِد كتابه إِلى هذا، كان يَكتب بهذا، كان يَرسم على هذا...»، حتى إِذا وقعَتْ عيناها على دفترٍ بين مخطوطات جبران صاحَت: «هذا خَطِّي. مقاطع من **يسوع ابن الإنسان** كان يُمليها عليَّ».

... وهكذا تعرَّفَت إِلى وطنه...

كان من نصيبنا أَن اجتمعْنا عدة ساعات في ثلاثِ جلساتٍ إِلى هذه السيِّدة الراقية، ورافقناها في رحلة خُشوعية إِلى مسقط رأْس جبران[٢٧]، وقد جاءَت لتقضي فيه سنةً كاملةً تَكتب في أَثنائها حياة الفقيد. لكنَّ حوادث الحرب الحاضرة[٢٨] باغتَتْها في عُرض الأُوقيانوس فاضطرَّتها للرجوع إِلى نيويورك، وأَرغمَتْها على أَن ترقُب بصبرٍ ختامَ المأْساة العالمية الجديدة، لعلَّ الله يُفسحُ لها بعضَ الزمن فتُتِمُّ ما بدأَتْ به.

٢٧ في هذا الكتاب ذاته (ص ٢٧ إلى ٣٤) فصلٌ بعنوان **مولدُ جبران ونشْأَته** سردَ فيه فؤَاد افرام البستاني أَنَّ جبران لم يولَد في بْشرِّي بل «في وادي الرطل من ناحية الهرمل التي كانت تابعةً قائمقاميةَ البترون على عهد المتصرفيَّة»، فكان الوالدُ خليل جبران، لِقَسْوَةَ الطقس شتاءً في بْشَرّي، ينزل بعائلته للمَشتى إِلى قرية مرجْحين في وادي الرطل، حتى إِذا بدأَت بَوادر الربيع عاد بعائلته إِلى مسقط الرأْس في بْشَرِّي. وولادة جبران في كانون الثاني جعلت البستاني ينحو إِلى هذه الفرضية (الولادة في مرجحين) وكان سمعَها من ابن الهرمل رئيس مجلس النواب اللبناني لفترة طويلة صبري حمادة الذي سمعها تَواتُرًا من أَبناءِ منطقة الهرمل.

٢٨ تذكيرًا: كتَب البستاني هذا المقال ونشَرَه في **المشرق** سنة ١٩٣٩ إِبَّان الحرب العالمية الثانية.

بيد أَنَّ الأَبحاث الجبرانية تستفيد الكثير من مرور السيِّدة يونغ في بلادنا وإِنْ مرورًا سريعًا. فهناك صوَرٌ غيرُ معروفة ومخطوطاتٌ غيرُ منشورة أَسعدَنا الحظُّ بأَن نَطَّلع عليها. وهناك معلومات نفيسة عن حياة جبران العامة والخاصة، وعن آرائه ومعتقداته ومظاهر روحانيته الغريبة، نغتبِط بالوقوف عليها بواسطة شاهد عيانٍ بل طالبٍ متفهِّمٍ مُعجبٍ بأُستاذه شاء أَن يُسقط الأَسانيد فنقَل إِلينا بحذافيرها تلك المحادثاتِ المتتابعةَ بينه وبين المعلِّم الراحل. كانت الست بربارة تَنقُل لنا هذه الأَحاديث من ذكريات الأَعوام المتعاقبة كأَنَّها حصلت أَمس، فتُحْيِيها بابتسامتها أَو بكآبتها، بخشوعها أَو بِـمَرحها، وتتمثَّل المشاهدَ العديدةَ في محترف جبران وفي غيره من المجتمعات النيويوركية...، وكلُّ هذا فيما السيَّارة تقطَع بنا أَخاديد طريق أَميون، أَو تدور في المصاعد اللولبية المتراكبة من كوسبا إِلى أَعالي الجبل المقدس.

– هذا قاديشا الوادي المقدَّس العابقُ بعطور النسَّاك والقديسين.

– آه! قاديشا!

برقَت عينا الستّ بربارة، فهزَّت حفيدَها[٢٩] ذا السنوات الأربع، وهمسَت في أُذُنه: «كريستوفر، قاديشا»، مشيرةً إِلى الوادي الرهيب. فردَّد الطفل الكلمة مرَّتين مبتسمًا ابتسامة معنوية، وتابع دون أَن يحوِّل نظره عن الوادي:

– ومار سركيس؟ أَين مار سركيس؟

– سنصل إِليه عمَّا قريب.

– هذه مغارة القديسة مارينا...

وما همَمنا بالاندفاع في إِطْلاع الست بربارة على هذه الأُسطورة اللبنانية الجميلة، حتى هزَّت رأْسها بثقةٍ وقالت:

٢٩ حاشية للبستاني: «أَشارت بعض جرائدنا اليومية إِلى وصول السيِّدة يونغ وأَبحاثها عن جبران، ذاكرةً أَنها أَتت بابنها لتعلِّمَه لغة جبران. ولمّا سأَلناها عن اسم «ابنها» هذا تبَسَّمَت وأَشارت إِلى الطفل وإِلى وجهها الصافي على رغم بعض التجعُّدات، وقالت: «ابني؟ عمرُه أَربع سنوات، وعمري إِحدى وستون سنة... هذا كريستوفر ابن بنتي». ولعلَّها أَول امرأَة تَذكر عن عمرها رقمًا يتجاوز ما يعتقدُه المتأَمِّل فيها».

– أَعرف القصة. رواها لي جبران.

وكم كان انفعالُها مُؤَثِّرًا عندما أَطلَّت بْشَرِّي، وفوقها «وسام الأَرز الأَكدر على صدر ظهر القضيب»، كما يقول جبران. وما هي إِن وضحَت الخطوط وتقاربت الأَبعاد حتى بان سنديان مار سركيس يصعد إِلى ابيضاض الكهف حيث شاء الشاعر أَن يستريح من متاعب الدنيا وتكالُب أَبناء الدنيا.

صعبةُ المرتقى تلك الطريقُ التي تُؤَدِّي إِلى القبر، شأْنَ كل سبيل يتخذه الإِنسان لإِدراك شخصية ذاك النائم المُطْمَئِنّ. إِنها تفرض الرغبة الشديدة والـجَلَد المُتَتَابع إِن لم تفرض الـحُبّ البارّ.

– ما رأْيُكِ لو مُهِّدَتْ وعُبِّدَتْ فتقدَّمَتْ عليها السيّارات؟

– لا! لا! لا سيَّارات ولا ضجَّة قرب جبران.

قالت هذا، واللهثات تقطِّع كلماتها. وأَضافت:

– يجب أَن يَتعب مَن يودُّ الوصول إِلى جبران.

ما قطَعْنا الباب الخارجي لمدخل الدير حتى تولَّاها الصمت الخاشع فتَولَّانا الاحترام والهيبة، ناظرين إِلى الآية اللاتينية المعروضة منذ أَجيال: O beata solitudo, sola beatitudo. ومعناها: «أَيَّـتها الوحدة المغبوطة [أَنتِ] الغِبطة الوحيدة!».

ولم يتخلَّل ذاك الجوَّ الرهيب إِلَّا صوتُ الصغير، وكأَنه غُلِّف بشيْءٍ من الغبطة الكئيبة، يردِّد:

– مار سركيس! مار سركيس!

في القبر- المَعبد طلبَت أَن تُترك وحدَها.

خرجْنا دقائقَ حفلَت بالمناجاة الصامتة تهزأُ بالمكان والزمان:

حسـبُ الرفيقيـنِ نَـأْيُ الأَرض بينهمـا   هــذا عليهــا، وهــذا تَـــحتها بـــالِ!

(النابغة الذبياني)

... وجَثَت عند جثمانه

في المتحف عرفَت كلَّ صورةٍ ورسمٍ وكلَّ قطعةٍ ودفتر. هذه وسادتُه. وهذا شمعدانه ذو السبع الشموع كان يصوِّر على نوره. هذا الحاجز الخشبي المحفور صَنَعه بيده، وكذلك هذا المُتَّكأ. وكأَنَّ حجابَ الرموز الغامضَ انشقَّ أَمام السيِّدة فلم تبقَ صورةٌ غامضةٌ في المتحف ولا حركةٌ في الأَشخاص لا معنى لها. بين صوَر الفقيد غيرِ المنشورة رسمٌ ملوَّن يُـمثِّل شخصَين عارِيَين متَّجهَين كلٌّ إلى جهة، وقد رُبطت يداهما برباطٍ وثيق. كان الناس يُعجَبون بهذه الصورة ولا يَعرفون ماذا تمثِّل، شأْن أَكثر الصور الجبرانية. أَما ذوو الاختصاص وأَرباب الادِّعاء، فكانوا يشرحونها متفلسفين بأَنها صورة الزواج الذي يربط بين الزوجين وإِن تخالفت نزعاتهما حتى المعاكسة. وأَما الست بربارة فقالت مبتسمة: «إِنها رمز الحزن والفرح المرتبطَين أَبدًا، على تعاكُسِهما، في حياة الإِنسان». فإِذا بالصورة تتَّخذ أَمامنا حياةً جديدة، وإِذا بنا نرى أَحد الشخصَين انتشرَت على قسمات وجهه الغبطةُ الهادئة، بينا تَـخدَّد جبينُ الآخر بخطوط الكآبة الأَليمة.

هي ساعةٌ عذبة في متحف جبران، ودِدنا لو طالت إِلى ما وراء الساعات والأَيام والشهور، فَتَتَمَكَّن هذه السيِّدة، وتُمَكِّنُنا، من فهم رموز الشاعر وتصوُّرات الفنان. ولا شك أَنَّ جبران كان يعبّر عن فكره بالرسم والكتابة على السواء، كما يَظهر من مخطوطاته ومسوَّدات رسومه، بعضُها في متحف بْشَرِّي والبعضُ الآخر في حقيبة الست بربارة. وقد أَذِنَت لنا بدرس ما فيها، فرأَينا أَن نُطْلِع مريدي جبران ودارسيه على ما لن يتسنَّى لهم الاطلاعُ عليه بعد سفَر الكاتبة الأَميركية.

كنوزُهُ في حقيبتها

تحتوي الحقيبة على كثير من الصور الأَصلية، وعلى عدد من النُسَخ أُصولُها محفوظة في متحف «ميتروپوليتان» في نيويورك وهو من أَعظم متاحف العالم، أَو في متحف لندن، أَو في مجموعات خاصة. وقد لاحظنا في بعضها، ولا سيما في

المحاولات، أَن الكتابة كثيرًا ما اقترنَت بالصورة فأَظهرتا، مجموعَتَين، فكرةَ جبران. وهو أُسلوبه في أَكثر كتبه. من ذلك: صورةُ جبل شاهق بارز عمّا حوله من العناصر الطبيعية مكتَنَفٌ بكثير من الضباب، وقد كَتَب على الصورة بالعربية: «إِذا ماتت الأَرض تحوَّلت ماءً، وإِذا مات الماء تحوَّل هواءً، وإِذا مات الهواء تحوَّل نارًا.» وفي حقيبتها محاولةٌ لرسم المسيح، عليها بالعربية: «مملكتي حيث يجتمعُ اثنان أَو ثلاثةٌ منكم على اسمي بالحبّ والفرح».

الصورة والكتابة مقترِنتان في نظره، لا فرقَ بينهما في أَداء الفكر، وكذلك لا فرق بين أَن يؤَدِّيه بالعربية أَو بالإِنكليزية، وإِن كانت الإِنكليزية، في رأْيه وبالنسبة إِليه، أَسهلَ سبيلًا، وأَرفعَ تعبيرًا، وأَضبطَ دقائقَ، وأَعمقَ بلاغةً وتأْثيرًا. يَشهد بذلك كتاب **النبي** الذي كتبَه أَربع مرَّات بالعربية فلم يَرضَ عنه، حتى مزَّقَه وكتبَه دفعةً واحدة بالإِنكليزية. وتشهد بذلك أَيضًا مخطوطاتُه، وفي صفحاتها العربية كثير من التنقيح والإِصلاح والتحشية وإِبدال المفردات مع بعض الأَغلاط والأَخطاء، بينما الصفحات الإِنكليزية صافيةٌ، على الغالب، وسليمةٌ من آثار التنقيح إِلَّا ما يعرض من وضع كلمة موضعَ أُخرى، أَو تقديم تعبير على آخر. وسنعرض مقاطعَ من مخطوطاته العربية تُبرز أُسلوبه في الكتابة والتنقيح. كان يستعين باللغتَين معًا في إِعداد أَبحاثه، كما يتضح من الأَوراق الإِنكليزية، وكلُّ ما رأَيناه منها: مقاطعُ من **يسوع ابن الإنسان** كتَب في رأْس صفحةٍ منها بالعربية: «وصْف مريم – تصفها إِحدى جاراتها.» ثم تابع بالإِنكليزية. وهذه صفحة كاملة بالإِنكليزية، على أَعلاها بالعربية: «فقال تلميذ: تُرى هل أَنا أَكثر من قطرة ندى... إِلخ. إِلخ...».

ومن محفوظات الست بربارة الفنيّة: صورةُ عبَّاس عبد البهاء، زعيم البهائِيين. زار نيويورك سنة ١٩١٢ واجتمَع به جبران في السابعة مساءً، فتأَثَّر بِـهَيْبته الساجية حتى إِذا جنَّهُ الظلام لم يقوَ على النوم. وظلَّ مضطربًا يتململَ متأَمِّلًا بوجه عبد البهاء إِلى منتصف الليل فقام وأَخذ يعمل، مستندًا إِلى ذاكرته وحدها، حتى أَخرج صورة تلك الهيبة على أَتَـمّ ما يمكن، وقدَّمها صباح اليوم الثاني إِلى صاحبها، فأُعجب بها

كلَّ الإعجاب[٣٠]. ولهذه المناسبة ذكرَت الست بربارة أَن جبران كثيرًا ما كان يصوِّر من دون أَمثلة أَو نماذج (modèles) مستندًا إِلى خياله الخصيب وإِلى تمارينه العديدة المتتابعة. فهو كان من كبار المشتغلين تمرينًا ورياضةً في الإِنشاء والتصوير.

ومن محتويات الحقيبة الأَميركية: صورةُ امرأَة نائمة، أَو مائتة، بين الزهور. وهي من أُولَيَات صوَر جبران، رسَمها في بيروت ولم تستقلَّ شخصيته بَعد. ومن عهد شبابه: صورةٌ جميلة جدًّا تمثِّل المَريَمَات الثلاث: مريم أُمّ يسوع، ومريم المجدلية، ومريم أُخت لعازر، وهي غاية في التأْثير الأَليم، اشتراها أَحد سكان نيويورك وحفظَت الست بربارة نسخة عنها. وكذلك تَحْفَظ نسخةً من «شجرة الحياة» (الأَصل في بْشَرِّي)، ومن «التجسُّد المتتابع» (الأَصل في متحف متروبوليتان في نيويورك)، ومن رسم «المسيح» الذي زيَّن مدخل [غلاف] **يسوع ابن الإِنسان**، ومن «العائلة» (الأَصل في بْشَرِّي). ومن الصعب وصفُ الصُوَر الباقية في محفظة الست بربارة لأَن الحديث لا يُغني عن العيان، لعلَّ أَجملها: «رؤُوس العميان»، وصورة شيخ شاعر في نيويورك تجلَّت فيها الهيبة الوادعة فانسابت من خطوطها الطمأْنينة والسلام. وكان الشاعر الأَميركي المشهور إِدْوِنْ ماركهام (Edwin Markham) شاهَدَ هذه الصورة في المعرض الذي أَقامتْه الست بربارة بعد وفاة الفنَّان، فكتب عليها بخطِّه الكبير الواضح: «هذه الصورة بروحانيَّتها أَجملُ الصُوَر التي رأَتْها عيناي – ٩ نيسان ١٩٣٢».

وهناك أَوراق عديدة متناثرة، فيها دروسٌ وتمارينُ ومحاولاتٌ تصويريةٌ يَكثر فيها رسمُ الأَيدي والأَرجل والرؤُوس والأَجسام المتداخل بعضُها في بعض، والعضلات خاصّة. ويلاحظ المُطالع أَن في الفنَّان ميلًا إِلى تمثيل اليد المقفَّعة بتقاطيعها الدقيقة. وهناك صورةُ يدٍ كبيرةٍ أَصابعُها شديدةُ الانقباض وفيها الخواتم الضخمة

---

٣٠ ربما أَشكل الأمر على البستاني في نقْل هذه الواقعة مترجَـمةً له (لم يكُن يتْقنُ الإِنكليزية) أَو أَنَّ يونغ ذاتَها رَوَتْـها مختلفة. ففي الفصل السابع «ضبابة منحوتة في صورة» من كتابها **هذا الرجل من لبنان** أَنَّ الموعد مع جبران حدَّده عبدُالبهاء في السابعة صباحَ يومٍ من ١٩١٢، وأَنَّ جبران قال لها: «بقيتُ سهرانَ طُولَ الليل ليَقيني أَنْ لو نمْتُ طويلًا لن أَستطيعَ السيطرة صباحًا على عينيَّ ويَدَيّ».

كأَنه أَراد أَن يُـمثِّل بها الشِحَّ والحرص. وهذه الأَوراق ترقى إِلى سنين متتابعة، منها ما يتصل بجبران الفتى (بينها ورقة تحمل، مطبوعًا، عنوانَ فندق في پـاريس)، ومنها ما يرقى إِلى آخر حياته.

دفاتره الأَربعة

المخطوطات التي شاءَت السيِّدة يونغ أَن تُطْلِعَنا عليها هي في أَربعة دفاتر. خطُّها واضحٌ جليٌّ في الغالب، على قسطٍ من الجمال، إِنما يكثر فيه الحذف والتحشية والتنقيح، سواءٌ أَكُتِب بالحبر أَم بالقلم الرصاصي. ويلاحظ الدارس أَن الكاتب يُسرع في تدوين أَولِ ما يخطر على باله من التعابير، حتى أَنه ينسى بعض الحروف، ولا سيما الأَلِف وسْط الكلمة فيكتب «وحد» بدل «واحد» ويكتب «سطان» بدل «سلطان» و«المزكشة» بدل «المزركشة». وقد لا ينتبه، في سرعته، لقواعد العروض ولا لأُصول الإِملاء والنحو أَحيانًا، فيكتب الهمزة الواقعة بعد الأَلِف مفتوحةً أَبدًا دون كرسيٍّ مهما تكن حركتها: «شاءَوا». ويقول: «ترى أَن العقل سطانًا» وقصدُه «أَن العقل سلطان». وكثيرًا ما نصَب اسم «ليس» في «المواكب» في ردود الفتى:

ليس في الغابات عدلًا
ليس في الغابات عزمًا
ليس في الغابات عِلْمًا
ليس في الغابات موتًا
ليس في الغابات سُكْرًا

ولكنه أَصلح ذلك مرةً في «ليس في الغابات عزمًا» فضرب على الأَلِف من «عزمًا». أَما الغلطة النحوية في قوله «يدعى السيدُ الخطِرُ أَو الوَقِرُ» فكأَنه أَراد تدارُكَها لأَنه وضع علامة استفهام فوق «الوَقِر».

ويجب القول إِنَّ من هذه الدفاتر ما يرقى إِلى عهد تلمَذة جبران. ومهما يكن، لا يجوز أَن يؤَاخَذَ كاتبٌ بما في مسوَّداته الأُولى من خطإٍ أَو سهو. على أَننا

رأَينا وصْفَ هذه الدفاتر الأَربعة بشيْءٍ من التفصيل، لعلَّ في بعضها فائدةً لطُلَّاب المَباحث الجبرانية:

١) **دفترٌ صغيرٌ دون جلْد**، لا شك أَنه كان من دفاتره المدرسية. عليه صُوَر تَـحارير: «إِلى رئيس عام» و«إِلى صديق» و«إِلى بطريرك»، وما شاكل من تلك «الصُوَر» و«التراجم» التي كان يتناقلُها الطلَّاب في القرن التاسع عشر وأَوائل القرن العشرين. أَوَليس عجيبًا أَن تكون أَكثر «الصُوَر الإِنشائية» التي تَمرَّن عليها جبران من الرسائل الإِكليريكية؟

٢) **دفترٌ ثانٍ أَكبرُ من الأَول**. دون جلْد. يحمل على ورقته الأُولى: «من دفاتر جبران خليل جبران. ت أَول ١٩٠٠» وتحتَها، على ثلاث مرات، هذان البيتان:

أَلَا يــا مســتعيرَ الكتْــب دعنــي	فــإِنَّ إِعارتــي للكُتْــب عــارُ
وجدْتُ كتابي(كذا) في الدنيا حبيبي	حبـيـبـــي لا يُـبـــاع ولا يُعــارُ

والدفتر مجموعة أَبيات منتخَبَة من أَقوال ابراهيم بن سهل، وابن معتوق، والشيخ سليم حنا الضاهر. وكلُّها من الشعر السهل المائع. وفيه تمارينُ إِنشائيةٌ من نثر وشعر، أَكثرُها غيرُ كامل، حافلةٌ بكثير من الاستعارات والتشابيه. منها هذا المقطع: «أَخذتُ اليراع وطيَّرتُ رائد الأَفكار فسقطَت على جذوع الأَلفاظ والتقطَت أَثمارها ورجعَت إِلى أَعشاش الطُروس وولدَت أَفراخَها. تطايرَت طيور الأَفكار في سماء المعاني وسقطَت على غصون البراعة وغرَّدَت أَلحانها. ارتفعَت أَبخِرتُ (كذا) الأَفكار بحرارة شمس الذكاء إِلى فضاء المعاني ففاجَئَتْها (كذا) أَرياح الإِرادة الباردة واصْقَطَتْها (كذا) على الأَقلام شوبوبًا (كذا) فسال على الطُروس مدادًا».

ومنها هذا المقطع: «أَنا الآن في البيت الذي سكنَّاه من سبعوات (كذا) أَعوام، جالس على مقعد بقرب طاولة عليها نورٌ يبعث على الورقة التي أَخط عليها كلامًا ربما لا تنظره عين ولا تسمعه أُذن، ويشق كبد الظلمة بأَسهم نارية. أَرتجف بردًا لأَن الشتاء قد أَقبل يهز الريح عطفيه ويسحب النسيم أَذياله».

وواضح أَن هذه من إنشاء تلميذ على نصيب وافر من الخيال والميل إلى الكتابة إنما لم تُصقَل مواهبُه بعد ولم يَثبُت ذوقه الفني.

وتلي ذلك محاولاتٌ شعرية غير موفقة.

في آخر الدفتر صفحة بخطٍّ تَطوَّر قليلًا فارتقى ارتقاءَ الأُسلوب الإنشائي: «أَشباح تجيْء وأَشباح تروح. خيالات تطوف في فضاء وسيع، وأَرواح تسير على مراسح المادة وفي مسارح المكوِّنات. أَفكار تتراوح بين هذه الدنيا وتلك، وشعائر تتماثل بين الحب والبغض. نفوس تطلب الانعتاق من أَثر المادة، ومادة تروم السيادة على النفوس. قلوب ترى جمالًا فتعبده، وقلوب لا ترى الجمال ولا تعرفه. وفي هذه الأَشباح وهذه الخيالات وهذه الأَرواح وهذه الأَفكار وهذه الشعائر وهذه النفوس وهذه المادة وهذه القلوب، محبة كانت منذ الأَزل. ومن وراء كل هذه الأَشياء قوةٌ هي الله، والله في كلّ شيْء».

٣) دفتر عادي قليل الورق، مجلَّد. مكتوب على صفحته الأُولى من جهة اليسار: «من دفاتر جبران خليل جبران». فيه كتابات إنكليزية قليلة، ومحاولات شعرية بالعربية، منها:

يـا خليلـي لـو كنـتَ تعلـم مـا بـي ... مـا جعلـتَ الحديـث[٣١] عهـد التصابي

ذاك حلـــم دفنتُـــه بفـؤَادي ... وجعلـتُ الأَكفـان بُـرد الشبـابِ

مـا سلوتُ الحبيبِ لكـن جفاني[٣٢] ... فاقتنعـتُ[٣٣] بوحشـتي واكتئَابـي

وبعـدتُ عـن الأَنـام وحيـدًا[٣٤] ... (وحجبتُ)[٣٥] عن العيون مُصـابي

واتخـذتُ الطـروس صحبًـا فإِنـي ... قد وجدتُ الطروسَ خيـر الصِحابِ

وجعلـت المُـدام حبـرَ دواتـي ... واتخـذتُ النديـم وجـهَ الكتـابِ

٣١ كتَبَ فوقها: «ما رجعت لذِكْر»

٣٢ كتَبَ فوقها «حتى سلاني»

٣٣ كتَبَ فوقها «فاكتفيتُ»

٣٤ كتَبَ فوقها «خَجولًا»

٣٥ الهلالان في الأصل

وأَقمـــتُ مـــن الخيـــال صروحًـــا عاليات[36] يَـخرقْن صدر[37] السحابِ
وخلقــتُ[38] مــن الخيــال بــلادًا[39]

وبعد هذه المقطوعة بيتان أَعدَّهما ليُكْتَبا تحت رسمه، على ما يظهر، وهما بعنوانهما: «تحت رسمي»:

هـذا خيـال فتـى يهوى الحيـاة ولا يهوى الحيـاة وفـي الحالين يكتئبُ
فإِن بـدى[40] جامـدًا والصمت يملكه فاتلـوا عليـه صلاةَ الحـبّ يضطـربُ

وعلى صفحة أُخرى، دون عنوان:

يـــا نفـــس إِيـــاك الملَـــلْ ممـــن تجاهـــل أَو جهـــلْ
سـيري علـى أَمـلٍ فـلا يدنـي الوصـال[41] سـوى الأَمـلْ
يـــا نفـــسُ قـــد أَبعدْتِنـــي عـــن لـــذة[42] العيـــش الهنـــي
فرضيــــتُ فيــــك قسـمةً وعـــن الرضـــا لـــن أَنثنـــي

وبعد هذا المقطع صوَّر بالحبر الأَسود الصيني شبه جُعَلٍ بشِعٍ (نوع من الخنافس) بارزِ القرنين، وتحته تابَعَ القصيدة:

يـــا نفـــس لـــو كان النـــوى يثْنـــي النفـــوس عـــن الهـــوى
لتشـــوَّش الشـــرع الـــذي نثَـــر الكواكـــب فـــي الفضـــا
يـــا نفـــس لـــو كان البعـــاد

(ثم شطب هذا الشطْر الأَخير).

36 كَتَب فوق هذا الصدر: «وأَقمتُ الخيال صرحًا رفيعًا يتسامى إِلى»
37 كَتَب تحتها: «يَلثُمْن وجه»
38 كَتَب فوقها: «وبرأْتُ»
39 انتهى هكذا بدون عَجُزٍ لهذا الشطر
40 كذا في الأَصل
41 أَحاط هذه الكلمة بدائرةٍ وكَتَب تحتها «الأَماني»، مع أَن هذا التصحيح يُضعضع الوزن الشعري
42 وَضَع فوقها «سكرة»

وفي الدفتر نفسه مقالٌ طويل في عشْر صفحات، كثيرُ الشطب والتحشية، حتى لا يكاد سطرٌ فيه يخلو من التنقيح. وأَكبر الظن أَنه مسوَّدةٌ لِمقال صدَر في «الهلال» جوابًا عن سؤَال كانت تلك المجلة طرحَتْه بشأْن النهضة الشرقية وإِمكان التضامن بين الأَقطار العربية. وما أَمكننا استخلاصه، من بين الإِصلاحات والتعاليق والحواشي الكثيرة، مطلعُ المقال وهو:

«في عقيدتي أَنَّ ما نحسبه نهضةً في الأَقطار العربية ليس بأَكثر من صدى ضئيل لِما ندعوه، ونحن في غيبوبة، بالمدَنية الغربية. ذلك لأَن هذه النهضة المباركة[٤٣] لم تولِّد شيئًا من عندياتها، ولم يُبْنَ منها ما كان موسومًا بطابعها الخاصّ، أَو ملوَّنًا بصبْغتها الذاتية. والإِسفنجة التي تمتصّ الماء من خارجها وتنتفخ[٤٤] قليلًا، لا تتحوَّل إِلى ينبوعِ ماءٍ حيّ. أَما ذاك الذي يرى في الإِسفنجة المنتفِخة نبعةً حيَّة، فهو أَحوج إِلى طبيب رمدي وعقاقيره منه إِلى صاحب هذا المقال ونظرياته». ثم يقول إِن «الشرق مقلِّدٌ للمدنية الغربية». ويزيد في جملة تدلُّ على أَن المقال كتبَه في أَثناء الحرب العمومية: «ليس بحثُنا هذا في ما إِذا كانت المدنية الغربية صالحةً بحدِّ ذاتها أَو غيرَ صالحة. فالمدنية الغربية قد وقفَت في تموز سنة ١٩١٤ أَمام منصَّة القضاء السرمدي ولم تزَل واقفة هناك. ولو انتدبني القضاء السرمدي لإِصدار حكمه على المدنية لفعلتُ الساعةَ، وكنت بما أَقوله على وفاق تام مع المفكرين الغربيين نفسهم».

ثم يحمل على الذين يدَّعون الوطنية، ويتظاهرون بالاستقلال عن الغرب في بعض مظاهر الحياة، وهم في جوهر حياتهم مقلِّدون لكل ما يُخرِجه الغرب. يأْخذون بالتقليد ويدَّعون الابتكار. قال في آخر تلك الجملة: «ولكنْ لو قال لي هذا السياسي والوطني الحر، الذي يلعب دورَين بليدَين في وقت واحد، لو قال لي ولو بشيْءٍ من النزاهة السطحية: «الغربُ سابقٌ ونحن لاحقون، وعلينا أَن نسير وراء السائر ونتدرَّج مع الدارج» إِذًا لقلتُ له: «حسنًا تفعلون. إِلحقوا السابق ولكنِ

٤٣ كَتَب فوقها «مُختلفة»

٤٤ كَتَب فوقها «وتنتفش»

الْحَقوه صامتين. سيروا وراء السائر ولكنْ لا تدَّعوا بأَنكم غير سائرين، وتدرَّجوا مع الدارج ولكن كونوا مخْلصين للدارج ولا تُخفوا حاجتكم إِليه وراء غربال الخزَعبلات السياسية. وماذا يا ترى ينفعُكم التضامن في الأُمور العرَضية وأَنتم غير متضامنين في الأُمور الجوهرية؟ ماذا تجدي الأُلفة في المَزاعم وأَنتم متباينون في كل عمل من أَعمالكم»؟ هذا ما أَقوله لمن يريد أَن يَسمع ولو بشيْءٍ من النزاهة. أَما الطرشان، أُولئك الذين لا يسمعون حتى همس نفوسهم، فلهم الحصة الكبرى من عطفي وشفقتي. وأَما نصيبهم من صوتي فمثْل نصيبي من آذانهم...».

وفي آخر المقال صفحة وافرة التنقيح يُستخلَص منها ما يلي: «وفي عقيدتي أَنه لو أُتيح لنا الوقوف[٤٥] على قمة من قمم التجرُّد، مستعرضين المدنيات الغابرة وما أَحدثَتْه من النهضات والوثبات، لرأَينا أَن نهضات (الشعوب) الأُمم ليست بما أَوجدَتْه لمنفعتها الخاصَّة بل بما تركته إِرثًا[٤٦] للأمم التي تأْتي بعدها، وعلمْنا أَن زبدة العهد الذي كان فجره في بابل ومساءه (كذا) في نيويورك، هي في الحقائق الكلية الشاملة التي اكتشفَها نبوغ الأُمم وأَثبتَها، وفي الجمال المطلق الذي بان له في الحياة فأَلبسَه قالبًا خالدًا وأَوقفه برجًا ذهبيًا[٤٧] أَمام وجه الشمس. فإِن كنا متديِّنين قلنا...[٤٨] وإِن كان بنا ميل للآداب والفنون، وما الآداب والفنون من الدِين إِلَّا بِمقام الشرح من المتن، رأَينا رموز تلك النهضات العلوية ظاهرة بجلاءٍ في الثور المُجنَّح الكلداني، وفي أَبي الأَهوال، والهرم الأَكبر، في مزامير داود وسفْر أَيوب، في الحكايات الهندية والفواجع اليونانية، في آيات علي ونظريات الغزالي ونفحات الفارض وغضبات (؟) المعري، وفي رؤْيا[٤٩] دانْتِ وتماثيل ميكل انجلو ورسوم دافنشي وروايات شكسبير وأَنغام بيتهوفن».

٤٥ كَتَب فوقها «لِفَرد منا أَن يقف»

٤٦ كَتَب تحتها «لا يزول»

٤٧ كَتَب أَولًا «قوالب خالدة وأَبراجًا ذهبية» ثم أَصلَحها

٤٨ كذا في الأصل

٤٩ كَتَب تحتها «قصيدة»

وفي هذا الدفتر صفحتان وافرتا التنقيح، شأْن سائر الكتابات العربية، تدوران حول «العقل والروح» في بحث لا يظهر تامًا، يُستخلَص منهما:

«إِن العقول قشور الأَرواح، فمن[٥٠] يعيش بعقله دون روحه لا ولن يعرف من الحياة سوى سطحياتها. ومن يحسب الروح ظلًّا ضئيلًا ومآتي الروح سرابًا[٥١]، كان وجوده بعض الوجود[٥٢]، وكان وجدانه غلافًا للوجدان.

ويقولون لي: «إِن المدنية الغربية قد قامت على دعائم العقل، والعقل شيء عملي إِجرائي إِيجابي[٥٣] وهذا ما جعل الغرب غنيًّا قويًّا غالبًا».

ويقولون لي: «فانظُر إِلى أَثمار العقول ومظاهرها، من قطارات مسرعة وبواخر ماخرة وطيارات محلِّقة وآلات دائرة، تقوم الواحدة منها مقام أَلف رجل، وتُنجِز بساعةٍ ما لا تُنجزه الأَيدي البشرية بسبعة أَعوام».

ويقولون لي: «أَلا ترى أَنهم بعقولهم قد سادوا ومادوا وقسَّموا الأَرض كما شاءوا (كذا) وحكموا سكان الأَرض كما أَرادوا»؟

يقولون لي مثل هذه الأَقوال باسطين البراهين المزركشة على سلطة العقل وميزته، ثم يختمون حديثهم بسؤَالهم: «وماذا يا ترى أَنتجت (كذا) ذاك الذي تدعوه روحًا، فإِن كنت تحسب الغربَ عقليَّ الطوية والشرقَ روحيَّ المذهب، فانظُر إِذَن إِلى هذا وتهلَّل ثم التفِت إِلى ذاك واندُب».

يطلبون إِليَّ أَن أَنظر إِلى عقل الغرب العامل لأَرتعش[٥٤] حسَدًا، ثم إِلى روح الشرق لأَندب. ذلك لأَنهم يتوهمون أَن الغرب بدون روح وأَن الشرق بدون عقل.

---

٥٠ كَتَب أَولًا «الذي» ثم أَصلحها فوقها بـ«مَن»

٥١ في الجملة الأَصلية «نفحة في الفضاء» ثم أَصلحها بـ«السراب»

٥٢ كتَبَ في الأَصل «نصف وجود»

٥٣ كَتَب أَولًا «عملي» ثم وضع فوقها «إِجرائي» وأَردفَها بلفظة «إِيجابي»

٥٤ كَتَب تحتها أَولًا «لأَغتبط»

ومن هذا الوهم يسحبون (؟) ويستنتجون الأَسباب مما يدْعونه تقهقرًا في الشرق[٥٥] وتقدُّمًا في الغرب[٥٦].

أَما نحن، نحن الموحِّدون، نحن السكارى بخمرةِ وحدةِ الحياة وفرديَّتها، نحن لا نجزِّئُ الأَرض إلى شرق وغرب، أَو إلى قبلة وشمال. ولا نفْصل[٥٧] بين عنصر من الناس وعنصر آخر. نحن نرى الطبيعة مظهرًا واحدًا من مظاهر الله الأَوحد. نحن نرى الأَرضَ كتلةً واحدة، والبشريةَ عنصرًا واحدًا، وأَعمالَ البشر عملًا واحدًا.

نحن لا نفْصل بين شيْءٍ وشيْءٍ، حتى ولا بين العقل وهو القشور، والروح وهو اللباب، ولكننا نميِّز بين هذا وذاك فنقول: العقل سطحيّ وقتيّ وهو لازم[٥٨]. أَما الروح فباطنيّ أَبديّ وهو أَلزم. غير أَننا في كليتنا نتساهل بعض الأَحايين مع المُجزِّئين[٥٩]، ونقول نعم هناك قسْم في هذه الفكرة يعرف إِصلاحًا بالشرق وهناك قسم آخر يدعى تَميُّزًا بالغرب».

وفي آخر هذا الدفتر – أَو في أَوَّله من جهة اليمين – مسوَّدةُ رسالةٍ قد تكون موجَّهة إِلى مَيّ كما يُستدلُّ من النصّ. والمعروف أَن جبران كان يكتُب مسوَّداتٍ لرسائله. قال: «ها قد رجعتِ من لبنان، فأَنا بالطبع أُهنِّئُكِ بذهابكِ إِلى لبنان، ولا أَدري ما إِذا كان عليَّ أَن أُهنئَكِ برجوعكِ سالِمة إِلى مصر. لبنان. لبنان. لبنان. قولي لي ماذا وجدْتِ في لبنان؟ لو بعثتُ إِليكِ بالرسائل التي تجيئُني من أَبسط اللبنانيين ومن أَكثرهم (تركيبًا)[٦٠] لَمَا فكَّرتِ قط – لو كنتِ أَنتِ أَنا – (هلَّا غفرْتِ لي هذا الافتراض) بالذهاب إِلى قرنة من قراني الشرق».

---

٥٥ كَتَب فوقها «الشرقيين»

٥٦ زاد فوقها «بين»

٥٧ كَتَب أَولًا «ولا نقْسم البشرية» ثم أَصلحها

٥٨ زاد فوقها «ولكنه» إنما لا رابط لها

٥٩ كتب فوقها «الجزئيين»

٦٠ كذا في الأَصل

٤) **دفتر كبير أَكثَرُهُ أَبيض.** يبدأُ من اليسار بمقاطع كثيرة من «آلهة الأَرض» باللغة الإِنكليزية. تليها محاولات تصويرية، منها صورة امرأَة تحضن طفلًا وتُرضعه، رسَمَها بالرصاص على شكل دوائر متتابعة متداخل بعضها في بعض فأَتت على كثير من الغموض والوضوح معًا. ثم رسم حيَّةً برأْس امرأَة جميلة. وفيه أَيضًا محاولاتٌ لكتابة اسم «بربارة» بالعربية، نظن أَن الست بربارة هي التي قامت بها، وقد علَّمها جبران أَن تكتب اسمها بِلُغتِه. ولكنها، في إِحدى هذه المحاولات، نسيَت الراء الثانية فأَتى الاسم هكذا: «برباة».

أَول الدفتر، من ناحية اليمين، حافل بكثير من عناوين أَشخاص بالإِنكليزية. ثم هذا المقطع:

أُريد أَن أَموت قبل مَن أُحِب، كيلا أُجَنَّ إِذا مات قبلي.
وأُريد مَن يحبُّني أَن يموت قبلي كيلا يَحزَن لِموتي قبله.

وتحته، وهي مسوَّدة قطعة معروفة بعنوان «الأَرض»:

تنبثق الأَرض من الأَرض رُغمًا[٦١]
ثم تسير الأَرض فوق الأَرض تيهًا وكبرًا
وتنشئُ[٦٢] الارض من[٦٣] الارض القصور والبروج والهياكل
وترسم الأَرض على الأَرض الأَساطير والتعاليم والشرائع
ثم تَملُّ الأَرض أَعمال الأَرض فتحوك[٦٤] من هالات الارض الاحلامَ والاشباح
ثم يراود نعاس الأَرض أَجفان الأَرض فتنام نومًا هادئًا عميقًا أَبديًّا
ثم تنادي الأَرض قائلة للأَرض: «أَنا البدء وأَنا النهاية»[٦٥] وكل ما بي فيَّ، وسأَبقى ظافرة[٦٦] رحمًا وقبرًا حتى تضمحل الكواكب وتتحوّل الشمس إِلى رماد.

---

٦١ كَتَب فوقها «كرهًا وقسرًا»
٦٢ كَتَب فوقها «وتقيم»
٦٣ كَتَب فوقها «على»
٦٤ كَتَب تحتها «فتُبدع»
٦٥ كَتَب فوقها «أَنا الرحم وأَنا القبر»
٦٦ كَتَب فوقها «قوية هائلة»

وفي صفحة ثانية مسوَّدةُ قطعةٍ كاملةٍ ننشرها كاملةً في ما يلي:

تسير اليوم مستندة على ساعده، وبالأَمس كانت على ساعدي
وتجلس بجانبه في ظلال الغصون، وبالأَمس كانت بجانبي
وتشرب الراح من كأْسه، وبالأَمس كانت ترشفها من كأْسي
وترمقه بعين ملؤُها الحب، وبالأَمس كانت ترمقني
قلتُ لصديقي: «أَلا فانظُرها مكتئة على ساعده، وبالأَمس كانت على ساعدي».
فقال: «وغدًا على ساعدي».
قلتُ: «تأَمَّلْها جالسة إِلى جانبه، وبالأَمس كانت إِلى جانبي». فقال: «وغدًا إِلى جانبي».
قلتُ: «تبصَّرْها تشرب الراح من كأْسه، وبالأَمس كانت ترشفها من كأْسي».
فقال: «وغدًا من كأْسي».
قلتُ: «انظرْها ترمقه بعين ملؤْها الحب، وبالأَمس كانت ترمقني». فقال: «وغدًا ترمقني».
قلتُ: «اسمعْها تهمس أَغاني الغراب في أُذنه». فقال: «وغدًا في أُذني».
قلتُ: «انظرْ فهي تعانقه، وقد كانت بالأَمس تعانقني». فقال: «وغدًا تعانقني».
قلتُ: «انظرْ فهي تقبِّل شَعره، وقد كانت بالأَمس تقبِّل شَعري». قال: «وغدًا شَعري».
قلتُ: «ما أَغربها امرأَة». قال: «هي كالحياة يملكها (؟) كل الناس[٦٧]، وكالموت تتغلَّب على كل البشر، وكالأَرض (؟) تضم كل البشر».

وهنا هذه القطعة التامّة الدالَّة على ميل جبران إِلى التوحيد، أَو الوحدة الرامية إِلى الحلولية التي تكلَّم عنها في قطعة سابقة:

تجزئة سطح الأَرض شغَل الساسة
وتجزئة النفس شغَل الفلاسفة
وتجزئة القلب شغَل الشعراء
وتجزئة السماء شغَل الكهّان

---

٦٧ كَتَب فوقها «البشر»

ولقد وجدتُني غريبًا بطبعي وأَحلامي عن هؤلاء المشتغلين بالتجزئة والتقسيم، منصرفًا إلى الوحدة النفسية والعقلية والدنيوية والسماوية.

تلي ذلك شذرات وحِكَم:

العلْم طريقٌ، مَن سار عليها لا يستطيع الوقوف يومين متتابعين في مكان واحد.

لم تحكُم أُمةٌ أُمةً أُخرى إلّا وأَلقَت الفتن بين عشائرها.

لو لم يكن في الأَرض غير شجرة واحدة لعبدَها الناس.

ليس أَمرَّ من فقر يأْتي بعد الغنى.

نعرف أَلم أَجسادنا بعقولنا فلو (صرفنا)[٦٨] عقولنا عن أَجسادنا لَما شعرنا بالأَلم.

(العقل)[٦٩] يتموَّج مثل كل قوة غير محدودة، قد تستشرف سبيلًا إلى إرسال تموُّجات (عقلية)[٧٠] إلى مكان بعيد.

ولعل أَهمَّ ما في هذا الدفتر: مسوَّدات «المواكب»، أَو أَكثر «المواكب». وإنّ في درسها فوائدَ جمة تُطْلِعنا على تطوُّر فكر جبران، واضطراب القوالب في التعبير عنه، حتى استقرارها نهائيًا على الشكل المطبوع وإن ليس بالشكل الأَمثل.

وهذه أَبيات نُشير إلى طرُق إصلاحها في المسوّدة، وقد وضع الكلمات المصلَّحة فوق الأَصلية. ثم نقابل بينها وبين النصّ المنشور مطبوعًا.

نبدأُ بالمقطع المعروف بـ«العلْم». جاء في الدفتر:

والعلْم في الناس سبْل بانَ أَولها الــراح	أَمــا أَواخرهــا فالدهــر والقــدرُ
وأَكثر العلْم مثل الجهل أَيسَرُه	يُرضي ولكن في إِدمانه الخطرُ
وأَفضل حلم	وسرْت ما بين أَبناء الكرى سخِروا

٦٨ الهلالان في الأصل

٦٩ الهلالان في الأصل

٧٠ الهلالان في الأصل

وأَنبل العلْم وحي لو أَبحت به | وسرت ما بين خلق الله سخِروا
فإِن رأَيت أَخا الأَحلام منفردًا | عن قومه وهو منبوذ ومحتقَرُ
النبي الغد
فهو الكليم وبُرد الغاب يحجبه | عن أُمة بِرِداء الأَمس تأْتزرُ
لام الناس أَم عذروا
وهو الغريب عن الدنيا وساكنها | وهو المجاهد غاب حضروا
وهو الغريب عن الدنيا وساكنها | وهو الأَبي جاء الناس أَم هجروا
الشديد
وهو البعيد وإِن أَبدى ملاينة | وهو البعيد

أَما في «المواكب» المطبوعة فقد جاء هذا المقطع:

والعلْم في الناس سبْل بان أَولها | أَما أَواخرها فالدهر والقدَرُ
وأَفضل العلْم حلمٌ إِن ظفرتَ به | وسرْتَ ما بين أَبناء الكرى سخِروا
فإِن رأَيتَ أَخا الأَحلام منفردًا | عن قومه وهو منبوذٌ ومحتقَرُ
فهو النبي وبُرد الغد يحجبه | عن أُمَّة بِرِداء الأَمس تأْتزرُ
وهو الغريب عن الدنيا وساكنها | وهو المجاهر لام الناس أَو عذروا
وهو الشديد وإِن أَبدى ملاينةً | وهو البعيد تدانى الناس أَم هجروا

أَما البيت الثاني في المخطوطة: «وأَكثر العلْم...» فلم يظهر في هذا المقطع من «المواكب»، بل نقله المؤَلف إِلى مقطع الحبّ.

وهذا مقطع «العدل»:

ويستضحك الأَموات
والعدل في الأَرض يُبكي الجن لو سمعوا | به ويضحك أَهل النار لو نظَروا
فالسجن والموت للجانين
فالموت للمجرمين إِن صغروا | والمجد والفخر والإِثراء إِن كبروا
منبوذ (؟) وممتهن | الخطرُ؟
فسارق الزهر مذموم ومحتقر | وسارق الحقل يدعى السيّد الوقرُ
وقاتل الجسم مقتول (بفعْلته) | وقاتل الروح لا تدري به البشرُ

وهذا هو في «المواكب» المطبوعة:

والعدل في الأَرض يُبكي الجن لو سمعوا به ويستضحك الأَموات لو نظَروا
فالسجن والموت للجانين إن صغروا والمجد والفخر والإِثراء إن كبروا
فسارق الزهر مذموم ومحتقر وسارق الحقل يدعى الباسلُ الخطِرُ[71]
وقاتل الجسم مقتول بفعْلته وقاتل الروح لا تدري به البشرُ

وهذا مقطع «الحب»:

والحب في الناس أَشكال وأَكثرها كالعشْب في القيظ لا زهرٌ ولا ثَمَرُ
والحب إن قادت الأَجسام موكبَه إلى الرغائب والأَغراض ينتحرُ
كأَنه ملِك في الأَسر معتقَل يأْبى الحياة وأَعداءٌ له ظفروا
والطير لا يبني عشًا وهو في قفصٍ كلَّا ولا

أَما في «المواكب» المطبوعة فجاء على هذا الشكل:

والحبّ في الناس أَشكال وأَكثرها كالعشب في الحقل لا زهر ولا ثَمَرُ
وأَكثر الحب مثل الراح أَيسَره يُرضي وأَكثره للمدمن الخطرُ[72]
كأَنه ملِك في الأَسر معتقَل يأْبى الحياة وأَعوانًا له غدَروا

أَما أَجوبة «الفتى» المعروفة في «المواكب»، فكأَنه كان يؤَلِّفُها معًا. فهي في الدفتر كلُّها متتابعةٌ بعد أَن تتابعت مقاطع «الشيخ» قبلها.

وفي الدفتر المذكور مسوَّدةُ قصيدة لا عنوان لها، ننشرها كما هي مع التعاليق التي وضعها الشاعر على بعض الأَلفاظ بقصد إبدالها:

في هدوء الليل يمشي مبطئًا وهو مثل الليل هولًا قد بدا
ترى إلَّاه عظيمًا
يمشي منفردًا كأَن الأَرض لم تحتضن إلَّاه فردًا سيِّدا

[71] وفي بعض الطبعات الصادرة بعد وفاة جبران أُصلح الخطأُ النحوي فجاء «وسارقُ الحقل لَهْو الباسلُ الخطِرُ»

[72] هو البيت المنقول من مقطع العلْم

ويدوس التُرب مرفوعًا كما ... تلمس (الأَطلال) أَطراف السحاب
فكأَن الجسم في أَثوابه ... من شعاع ورياح وضباب
قلتُ: يا طيفًا يعيق الليل في ... سيره هل أَنتَ جنٌّ أَم بشر
قال (كلمة غير مقروءة) وفي أَلفاظه ... رنة الهزء: أَنا كل القدر
معترضًا

قلتُ لا يا طيف قد مات القدر ... يوم ضمتْني ذراع القابله
قال مبتسمًا أَنا الحب الذي ... لا ينال العيش إلَّا نائله
قلت لا فالحب زهر لا يعيش ... بعد أَن تذبل أَزهار الربيع
ضجة البحر

قال مكتئبًا وفي سحْنته ... لهجة القبر: أَنا الموت المريح
قلت لا فالموت صبح إن أَتى ... أَيقظ النائم من غفلتِهِ
قال مفتخرًا أَنا المجد فمن ... لَم يَنَلْني مات في علَّتِهِ

وينتهي القسم العربي من الدفتر بعملية حسابيَّة على الثقْل النوعي، غايتُها معرفة كمية الفضة والذهب في خاتم مركَّب من المعدنَين.

أَضواء جديدة على شخصه وشخصيته

هذا أَفضل ما في الدفاتر المذكورة من معلومات أَدبية وفنيَّة أَفادتْنا الكثير من تطوُّر فكرة الشاعر المصوِّر. والأَفضل منها: معلومات حيّة شخصيّة كانت تُفيضها علينا الستّ بربارة بدون انقطاع، وفي حديثها نبرة الإِعجاب والاحترام، رأَينا أَن ننقلها، مصادرَ ووثائقَ للدروس الجبرانية، ونعرضها على طريقة موضوعية، تاركين استخراج الأَحكام لمَن يُعنى بدرس جبران درسًا شاملًا في المستقبل.

قالت الست بربارة:

«عاش جبران في نيويورك ٢٢ سنة وحيدًا دون خادم. سكن أَولًا محترفًا ضيِّقًا يُوافق دَخْله، حتى إذا مرَّت عليه سنتان أَو ثلاث انتقل، في البناية نفسها، الرقم ٥١ غربي الشارع العاشر، إلى المحترف الواسع الذي ظلّ فيه حتى آخر حياته. كان

يكتسب من تصويره. وقد عُرِف أَمرُه فأَقبل عليه الكثيرون حتى أَصبح معدَّلُ دَخْله من الصورة الواحدة ٢٥ دولارًا. ومن الذين صوَّرهم فشُهِرَ بهم: موريس مترلنك، وهنري دي روشمون في پاريس، وعبَّاس عبد البهاء في نيويورك. وظلَّ يصوِّر بالزيت حتى سنة ١٩١٥ حين ارتفعَت أَسعار موادِّ التصوير بما يفوق مقدورَه فترك الزيت إِلى الفحم والرصاص وبقي عليهما حتى وفاته.

أَما الكتابة فكان يلهو بها أَوَّل الأَمر ولا يأْمل منها ربحًا، حتى نشر «المجنون» بالإِنكليزية سنة ١٩١٨، فكان فاتحةَ الشهرة ومدخلَ الثروة. ولم يلبث جبران المصوِّر أَن تضاءَل أَمام جبران الشاعر المفكِّر في نظر الأَميركيين. وظل ذوو الاختصاص بالفن التصويري يقدِّرون الفنان المصوِّر على احترامهم المؤَلِّفَ النابغة».

هو وأُمُّه و«النبي»

وأَخذَت الست بربارة تفيض في احترام الأَميركيين آثارَهُ الكتابية، من «المجنون»، إِلى «يسوع ابن الإِنسان»، إِلى «آلهة الأَرض»، مما يعرفه الجمهور، وتتوقَّف خاصَّة عند «النبي» الذي كاد يحتكر إِعجابها إِذ كان سببَ اتصالها بالمؤَلِّف. أَطْلَعَتْنا على معلومات بشأْنه تشير إِلى إِخلاص جبران لفنِّه إِخلاصًا نادرًا، كما تدلُّ على احترامه أُمَّه وتقديرِهِ مواهبَها. وهنا ملخَّص ما جاء في كلامها:

«كانت أُمُّ جبران من النساء الذكيَّات العاقلات، من أُولئِك اللبنانيات ذوات الشخصية القويَّة، اللواتي يؤَثِّرن في أَولادهنَّ أَثرًا عميقًا يجاوز أَثَر الآباء، ويرافق الأَبناءَ في جميع مظاهر حياتهم. كانت عارفةً باللغة الإِنكليزية ونالت، في أَثناء إِقامتها في أَميركا، كثيرًا من تلك الثقافة الاختبارية التي يُنضِجُها التوازن العقلي على مهل، فغدَت تَفْهم ابنها حقَّ الفهم، وتُعجب به لا إِعجاب الأُمِّ بـ«غزالها» بل إِعجابها بفتى نابغ يَخرج عن مستوى الجمهور من البشر. تعرف أَنه مدعوٌّ لتمثيل دورٍ في أَدب بلاده وفنِّها، ولكنها تشعر، على رغم محبة الأُمّ، أَنه لم ينضج بعد للقيام بهذا التمثيل. وكان جبران يعرف منها هذا الحبّ العطوف، ويشعر بهذا البصَر البعيد، فيعرض عليها آثاره الأُولى ويتقيَّد بأَحكامها وآرائها، كما ظلّ يختلج احترامًا لذكراها

ويردِّد أَقوالها طول عمره بعد أَن ودَّعتْه الوداع الأَخير سنة ١٩٠٣، وظل يُعيد أَقوالها للست بربارة حتى وفاته. وجمعَت الكاتبة الأَميركية من أَقوال الأُمّ الراحلة وأَحاديثها كُتيِّبًا صغيرًا لتنْشُره مع ترجمة جبران.

أَلَّف جبران «النبي» أَوَّلًا باللغة العربية وعرَضَه على أُمِّه فخورًا. بعد أَن سمعتْه الأُمُّ منتبهةً لم يمنعْها إعجابها من القول: «إنه كتاب عظيم لكنه سابق لأَوانه. فكْرتُه رائعة عميقة لكن تعبيرَك عن هذه الفكرة لا يزال بحاجة إِلى الاختمار يا جبران. أَرى أَن لا تنشره اليوم». فتركه جبران خمس سنواتٍ توفيَت في خلالها والدته. وعاد إِلى «النبي» يكتبه من جديدٍ بالعربية أَيضًا. ولكنْ لم يكد ينتهي منه حتى تَـمَثَّـل له حُكْمُ أُمه ولم يرَ أَنه بلغ النضج الكافي فمزَّق الكتاب دون أَن يقرأَه كاملًا. ثم كتبه بالعربية للمرة الثالثة وتركه يختمر. ومرَّت عشر سنوات. ولما عاد إِليه يقرأُه من جديد لم يرضَ عنه فمزَّقه وكتبَه رأْسًا بالإِنكليزية وقد تجاوز الخامسة والثلاثين واتَّسع أُفق تفكيره واستقرَّ ذوقه الأَدبي، فكان ذاك «النبيّ» الذي تجاوز الإِعجابُ به جمهورَ الأُدباء إِلى أَكابر رجال الدين والدنيا، فرُتِّلَت منه المقاطع في الهياكل الإِنجيلية، وقام بتنغيم أَناشيده حاخامو اليهود في كُنُسهم، وقال عنه الرئيس ولسون: «إنه أَعظم كتاب بعد الإِنجيل». وكان من نصيبه أَن نُقِل إِلى أَكثر من عشر لغاتٍ، منها العربية. على أَن جبران لم يكن راضيًا عن هذه الترجمة العربية ولم يكن يُـخفي عدَم رضاه هذا. لكنه كان قد مزَّق الأَصل العربي الذي وضعَه هو لهذا الكتاب، ولم يجد مجالًا لوضعه من جديد بِلُغة بني قومه».

يسوع ابن الإِنسان بين سهول جبيل ومضيق رأْس الشقعة

وعلى ذكْر كتاب «النبي» وما تضمَّنه من آراء دينية وموقف رجال الدِين منه، انتقلْنا إِلى الكلام عن «يسوع ابن الإِنسان» وعن آراء جبران في الدِين ورجاله. فأَخذت الست بربارة في حديث شائق كانت تقْطعُه نبراتُ إِعجابها بالشاطئ اللبناني، فيما السيارة تنهب بنا سهول جبيل والبترون وتلتفُّ في مضايق رأْس الشقعة. قالت الست بربارة: «كان جبران مسيحيًّا كُلِّيًّا في الكثير من معتقداته

وتصرُّفاته، ولا سيما في بُغضه الرياءَ والمُرائين، أُولئك الذي حاربهم المسيح طول حياته إذ كانوا يتمثَّلون له بأَشخاص الفريسيين، وأَراد جبران أَن يحاربهم كذلك متمثِّلين له برجال الإكليروس. على أَنه كان يستثْني قليلًا من أَفراد الإِكليروس عرَفَهم بصدْق تقواهم وإِخلاص نيَّاتهم، فكان يستقبلُهم ويعطف على مشاريعهم الخيرية. وقد عرفَت الست بربارة من هؤُلاء المُستَثْنين: الأَب الدويهي نزيل بوسطن. كان جبران، كلَّما زار أُخته مريانا في بوسطن، يجتمع بالأَب أسطفان الدويهي فيُحْيِـيَان الليل في الأَحاديث. وكثيرًا ما كان يهبط الأَب الدويهي نيويورك فيزور جبران في محترفه ويتحادثان إِلى ساعة متأَخرة من الليل. وللراهبات في احترام جبران مركزٌ خاصّ. كان لا يفوه بكلمة في انتقادهِنّ، ولا يُـجيز لأَحدٍ أَن يتعرَّض لَـهنَّ في حضرته. كنَّ يعرفْن منه هذا العطف فلا يتأَخَّرن عن طَرْق باب محترفه كلما كنَّ في حاجة إِلى إِسعاف. لم يحدُث له أَن ردَّ إِحداهنَّ خائبةً. كانت له لذَّة خاصّة في عمل الخير، على شكل تخفيف مصاعب الحياة عن المُتعبين، تشهد بذلك أُخته مريانا التي طالما كلَّفها أَن توزِّع الإِحسان من قِبَلِهِ على فقراء اللبنانيين في بوسطن، كما كان يتولَّى الواجب نفسَه بواسطة الراهبات في نيويورك، تشهد بذلك وصيَّتُه، وهو ترك فيها القسم الأَكبر من منتجات كتبه في سبيل فقراء مسقط رأْسه بْشَرِّي».

هو والسياسة والسياسيون

وكما كان جبران يكره الرياء في الدِين، كان يكرهُه في المجتمع أَشدَّ الكُره، ولا سيما في السياسة. ولهذا تجنَّب الدخول في جميع «الجمعيات» و«الأَندية» و«المحافل» وما إِليها من مجتمعات كان يُنشئُها مُتاجرون بالمذاهب السياسية من اللبنانيين والسوريين، وهم كثيرون في جميع أَنحاء المَهاجر. روت لنا الست بربارة حادثةً تدلُّ على كُرْهِ جبران السياسةَ، وعلى قوته البدنية ولا سيما في يديه. قالت: «جاءَه في إِحدى الليالي سوريٌّ معروف بين بني قومه. أَخذ يداوره في الحديث قاصدًا إِدخاله في مشروع سياسي «وسِخ» (والكلمة للست بربارة) حتى أَطال وأَضجَر. فما كان من جبران، وقد تأَثَّر حتى تشنَّجت أَعصابه، إِلَّا أَن صرفه

بلباقة، ورجع مضطربًا نحو مكتبه، وعليه دليل التلفون (وهو في نيويورك مجلَّدٌ ضخم) فتناوله، وبلمحة بصر، مزَّقه بين يديه من الدفة إلى الدفة، متمنيًّا لو أَمكنه أَن يستبدل به رقبةَ ذاك السياسي الوسخ. وبقي الدليل قطعتين في محفوظاته مدةً طويلةً شاهدًا على قوَّته وعلى ما نواه لرقْبة ذاك السياسي».

هو والدين والإكليروس

أَما الكنائِس فلا تذكر الست بربارة أَن جبران دخلَها قبل وفاته. بيد أَنه ذهب مرَّتين إِلى الكنيسة الإِنجيلية الأُسقفية بتكليف قسِّيسها لإِلقائه الإِرشادَ الأُسبوعي. ولا يستغربنَّ السامع وِقفةَ جبران يلقي المَواعظ في الهيكل، فصاحب «النبي»، في آخر أَيامه، كاد يلتحق ببَطَله فيتوحَّدان في نظر الكثيرين من معجبي الأَميركان. وهو، في نيويورك المادية، يمثِّل برجًا من أَبراج الروح. وكثيرًا ما اتَّجه نحوه مريدو الروحانيات بل زعماؤُها يأْخذون رأْيه، ويهْتدون بِهَدْيه، كما جرى لكريشنا مورتي.

– ومن هو كريشنا مورتي؟

– كريشنا مورتي شاب روحاني ثقَّفَتْه سيدة أَميركية اسمها آني بيزَنْتْ فاعتكف على التأَملات النفسية، حتى نضجَت فكرته واختمر أُسلوبه، فقام يخطب في المجتمعات ويدعو الناس إِلى التقوى والصلاح والفضيلة. سار ذكْره في أَنحاء أَميركا فكَثُر تُبَّاعه، وأَلَّف جمعية لتبشير الهنود بالدين المسيحي. كان لا بدَّ من أَن يختلف بعض مريديه حول شخصيته الغريبة: منهم مَن قال إنه رسولٌ بعثَه المسيح إِلى هذا العالم ليخفِّف مِن شروره وويلاته، ومنهم مَن زعَم أَنه المسيح بالذات، وتجاوز بعضُهم إِلى الرغبة في التعبُّد له. اضطرب كريشنا من موقف تُبَّاعه، وطفق يشرح لهم أَنه رجل عاديٌّ أَلْهَبَتْه محبة المسيح فأَراد خِدمته. ولما لم يُفلح وكاد يتملَّكه اليأْس لجأَ إِلى جبران يستشيره، وعرض عليه مخطوطةَ كتابٍ في الروحانيات. قرأَ جبران الكتاب مع الست بربارة في ليلة واحدة. وعندما عاد كريشنا مورتي أَرجع إِليه جبران مخطوطتَه مع الثناء الحقّ. ونصَح له أَن يتابع خطته ولا يهتم بما يقول

الناس عنه حسنًا كان أَو سيِّئًا. أَما كريشنا فحاول من جديدٍ إِفهام أَتباعه غايته الحقيقية. ولَما لم يُفلح للمرة الثانية حلَّ الجمعيّة وسافر وحده إِلى الهند.

هكذا كانت وفاته

– وجبران، كيف كانت وفاتُه؟ هل مات كاثوليكيًّا؟

– كان جبران يَشعر بتعبٍ في قلبه ومعدته، وأَمعائِه خاصة، مع انحطاط شامل في سائر جسمه. وليس من سرطان ولا أَيِّ مرض آخر، بشهادة تقارير الأَطباء في المستشفى. إِنما الشغْل المتواصل أَنهك قواه، وأَضرَّ به عدمُ الانتظام في حياته. كان يُهمل الجسد إِهمالًا تامًّا، ويقول: «لا قيمة إِلَّا للروح، ولا يستحقُّ هذا الغلاف المادي شيئًا من الاهتمام». لم يرَ طبيبًا ولم يَشأْ أَن يتناول دواءً حتى اشتدَّت به الأَدواء فوقَع مغشيًّا عليه في إِحدى الليالي بينما كان يشتغل في محترفه وليس عنده أَحد. عرف الجيران بالأَمر فأَسرعوا وأَنعشوه بما حضرَهم.

لم يكونوا يعرفون عنوان الست بربارة فتلفَنوا إِلى سيِّدة تعرفها. وفي دقائق حضرت الست بربارة وبعض أَصدقاء الشاعر، وكان قد عاد إِليه رشْده. حاولوا إِقناعه بالذهاب إِلى المستشفى فأَبى. ولم يُفْلحوا إِلَّا صباحَ اليوم التالي، فنقلوه إِلى مستشفى كاثوليكي أَقام به ساعاتٍ معدودةً.

ورأَت الست بربارة أَن من واجبها إِطْلاعَ كبار اللبنانيين على أَنَّ جبران في المستشفى، فتلفَنَت إِلى الأُستاذ سلوم مكرزل وكلَّفَتْه القيامَ بما يراه موافقًا. ولم يلبث السيد مكرزل أَن جاء المستشفى يصحَبُه كاهن ماروني. كان جبران قد دخَل في غيبوبة الموت، إِنما «لا يزال في وعيه الداخلي» كما قال الأَطباء. أَقبل الكاهن يخاطبُه بالعربية ويسأَله أَسئلةً لم تفْقَهْ منها محدِّثتُنا إِلَّا لهجتَها الاستفهامية وكلمة: «يا جبران». ولمَّا لم يَفُز الكاهن بِـجوابٍ، هزّ المُحتضِرَ بعنفٍ أَثار احتجاج الست بربارة، فلم تتمالك من الخروج عن لطْفها المعتاد. بعد قليل جاء الطبيب وأَعلن الوفاة.

وهنا أَفاضت الست بربارة، تقطعها نبراتُ الأَسف واللوعة، في وصف الجنازة الفخمة في بوسطن، حيث كانت الجماهير تزدحم خارج الكنيسة إِلى مسافاتٍ بعيدة، حتى أَنها أَوقفت سَير المَركبات مدة عشرين دقيقة. كان المزدحمون، عند مرور النعش، يَخُرُّون راكعين. وعند عرْض الجثمان مرَّ جميع الحاضرين من أَمامه يتأَسفون، مودِّعين الراحل بعباراتٍ مؤَثِّرة لم تَفهم منها تلك الرفيقةُ الأَمينة إِلَّا كلمة: «حبيبي جبران»!

عن ماري هاسكل

- وماري هاسكل؟ تلك التي كثيرًا ما يُلفَظ اسمُها في الكلام على جبران؟

- ماري هاسكل سيِّدةٌ فاضلة أَحسنَت إِلى جبران في نشْأَته فَمَكَّنَتْه من متابعة ثقافته الفنية والأَدبية. لا صحةَ لِـمَا يُقال من أَنها كانت ترغب في الزواج منه. جبران هو الذي عرَض عليها هذه الفكرة لأَنه، عندما أَصاب نصيبَه من الغنى، أَراد أَن يكافئَ المُحسِنة إِليه، وشاء أَن يترك لها ثروته. عرض عليها الزواج في هذه الغاية لا غير. رفضَت العرض بلطْفٍ وقد سُرّت بفكرة الاعتراف بالجميل. سُرّ جبران بالرفض كذلك لأَن اقتراحه لم تُمْلِه العاطفةُ الحبيّة. بعد ذلك تزوَّجَت السيِّدة هاسكل وعاشت مدَّةً مع زوجها، وهو توفي قبل أَربع سنوات، ولا تزال هي تتمتَّع بالصحة في مدينة ساڤانا من ولاية جورجيا، ولا تزال محافِظةً على ذكرى تلك الصداقة المَتينة التي كانت تربطها بِجبران. وإِني أَعرف الكثيرات من صديقات جبران يَحفظْن ذكراه باحترامٍ قد لا يعرفه الكثير من أَصدقائه.

هو والنساء

وأَرادت الست بربارة أَن تلبِّي داعي الفضول قبل أَن نَجسُر بالسؤَال فتابعَت:

- أُؤَكِّد لكم أَن جبران كان في جميع علاقاته روحانيًا ساميًا يترفَّع عن الشهوات البشرية. كان حبُّه ذاك الحبَّ الصوفيَّ الشديدَ الهيام، المُغذَّى بالفنّ

والجمال المُتفلِّتَين من القيود الأَرضية. هو روحانـيٌّ في نظراته، في أَحاديثه، في علاقاته جميعها. يُذيب نفسه في هذه الرفرفات نحو العلاء، كما يُذيب جسده في الشغْل المتواصل والمعيشة الزاهدة المتقشِّفة. لا أَعرف له علاقة غرامية واحدة. ولم يُطْلِعْني قطُّ – وهو أَطلعني على الكثير من شؤُونه – على أَنه أَحبَّ حُبَّ شهوةٍ في حياته! إنما أَطلعَني على حادثة تأَثَّر منها مدة طويلة، أَرويها لكم بدون تعليق: دُعي مرَّةً، وهو في أُبَّهة مجده الأَدبي بعد ظهور «النبي»، إِلى حفلة شاي في دار أَحد كبار اللبنانيين، ضمَّت الكثير من مشاهير الأَميركيين والأَميركيات، لأَن جبران كان ذا علاقات حسنة مع كبار القوم في المَهجر، من أُسرة الرئيس روزفلت إِلى مثيلاتها من سُراة المجتمع. وكان بين المدعوين سيِّدةٌ أَميركية واسعة الثقافة أَعجَبَت جبران بحديثها المُشْبع بدقة الاطِّلاع وبذوقها الفني الصحيح فانصرف إِليها على طريقةٍ لفتَت أَنظار المدعوّين. وعندما ودَّعها شدَّ على يدها علامة الإِعجاب. أَمَّا هي فلم يُوافقْ سوءُ ظنِّها حُسْنَ نيَّته. بعد يومين تلقَّى منها دعوة إِلى حفلة شاي. سُرَّ وتَهيَّأَ للموعد المَذكور. وشُدَّ ما كانت دهشتُه المُؤْلِمة عندما وصل إِلى البيت فلم يَـجِدْ مِن المَدعوِّين سواه. وكان أَول ما تَـمتمَت شفتَاه في اضطرابه:

– أَلَـم يصِل أَحدٌ من المدعُوِّين بَعد؟

– لا مدعُوِّين غيرك. نَحن وحْدنا.

عند ذاك تلمَّس قوى نفسِه جميعَها وقام معتذرًا، مودِّعًا، متلعْثِمًا، مضْطربًا. وكان آخرَ عهدِه بتلك السيِّدة التي لم يَشَأْ أَن يَذْكُر اسمها حتى لي.

هي وميخائيل نعيمه

بعد وفاة الفقيد أَتاني ميخائيل نعيمه (وهنا اضطَرَبَت الست بربارة مُـمتَعِضةً) يَطلب مني أَن أُطْلِعه على حياة جبران السرِّيَّة. ابتسمتُ، على رغم انفعالي الداخلي، وقلتُ:

– لم تكُن لِجبران حياتان. عاش جبران ومات في وضح النهار. فانظُرْ واحْكُمْ.

ولمَّا أَعاد الكَرَّة وأَخذ يداورني كي أُطْلِعَه على شيْءٍ مِمَّا يريد أَن يَنْسبه إِلى جبران، قلتُ له:

– أَنا رفيقتُه ومعاوِنَتُه سبْعَ سنواتٍ ولا أَعرف له فيها إِلَّا حياةَ الشغل الدائم والجهاد المُضْني والمعيشة الروحانية. إِن لم تُعجِبْكَ هذه الحياة، فاطْلُبْ غيري.

ذهَبَ ولا أَعرف ماذا نَشَر في كتابه، غير أَن اللبنانيين والسوريين المُهاجرين أَظْهروا سخْطهم على هذا الكتاب عندما اطَّلَعوا عليه في نيويورك.

... وعادت مشْبَعةً بالذكرى

كانت بربارة يونغ أَمينةً على ذكرى جبران، مُخْلصةً له في حياته ومَـماته. رافقَتْه في عمله، رافقَتْه في مرَضه، رافقَتْه في جنازته المَحمولة إِلى بوسطن، ورافقَتْه في ترتيب تَرِكَتِهِ الفنية وطبع مُـخلَّفاته الأَدبية. فلا أَقلَّ من أَن تُرافِقَها ذكرى زيارتِـها قبرَ جبران في عُرض الأُوقيانوس الفسيح وهي تُـجابِه الطوارئَ والمُفاجآتِ في هذه الأَيام العصيبة، راجعةً إِلى بلادها بعد حجِّها القصير إِلى مهْبط وَحْي جبران!



جريدة «السياسة»:
باربره يونغ في بْشَرّي تزور بيت جبران ومتحفه

«بلادٌ جميلةٌ ساحرةٌ لا عجبَ إنْ أَنبتَت كل يوم جبرانًا»

الساعة ١٠:٠٠ صباح الأَحد ٨ تشرين الأَوَّل ١٩٣٩ وصلَت باربره يونغ إِلى بْشَرّي يرافقها الأَمير موريس شهاب (مديرُ المتحف الوطني)، وفؤَاد افرام البستاني (مديرُ الدروس العربية في كلِّية القديس يوسف) وديڤيد أَزرق (أُستاذ في الجامعة الأَميركية - بيروت). كان في استقبالها وُجَهاءُ من البلدة وأَعضاءُ من لجنة جبران مُرَحِّبين بـ«صديقة جبران الأَميركية التي تزورنا».

صباح الجمعة ٢٠ تشرين الأَوَّل ١٩٣٩ صدَر العدد ٣٧ (السنة الأُولى) من جريدة «السياسة» (كان يصدرها في بيروت ابنُ بْشَرّي نايف سكَّر) وعلى صدر صفحتها الأُولى بالخط العريض: «باربره يونغ في بْشَرّي موطنِ جبران»، وفي عنوان ثانوي: «الكاتبةُ الأَميركية تَذرف الدموع أَمام البيت الذي وُلد فيه صاحب «النبي»، وتَمكُثُ عشْر دقائق ساجدةً أَمام ضريحه مناجِيَةً روحَه».

وأَنقل هنا حرفيًّا تفصيل الزيارة كما جاء في الجريدة:

«قبل أَن تأْخذ الشاعرة الأَميركية قسطًا من الراحة، طلبَتْ أَن تَحجّ إِلى البيت الذي أَبصر جبران فيه النور، فكان لها ما أَرادَت. وما هي إِلَّا دقائق حتى كانت واقفةً أَمام ذلك البيت البالغ خمسة أَمتار عرضًا وعشرة طولًا، الحزن يحتل كلَّ قسْمة من وجهها، والدموع تَبرق في عينيها. ثم حرَّكَت شفتيها قائلةً:

- في هذا البيت وُلِد جبران خليل جبران! وفي إِحدى حناياه المعتمة فتحَ عينيه رسولًا ملهَمًا.



البيت من خارج...



... ومن داخل

وراحت تسأَل:

أَين أَخشابُ سقف البيت؟ هل أَتلفَتْها الأَيام؟

وأَين حجارةُ الجدران؟ هل بعثرَتْها العواصفُ في الآفاق رَمادًا؟

وأَين الخزانةُ الخشبيةُ التي طالما حدَّثَني عنها جبران، وكانت تحوي الجوز والزبيب والتين المجفَّف فاكهةَ الشتاء؟

وأَين جرَّة العسَل والخمر، وموقدُ النار الترابيّ الذي كان يلتهم قضبان الزرزون بينما العواصفُ في أَشدِّ ثوراتها وصراخها وعويلها؟

وطبقُ القَش الذي كانوا يتناولون عليه الأَطعمة، أَين هو؟

والجرنُ الحجريّ المقتلَع من سفح جبل الأَرز، ما مصيرُه؟

وأَين الكُوَّة التي كان جبران يضع فيها كُتُبَه المدرسية؟

وأَين الساحةُ المجاورةُ التي كان يلعب فيها؟

وشجرةُ الجوز التي كان يستظلُّها حالِمًا عند الظهيرة، والتي عليها ربطَه أَبوه مرةً بعنفٍ قصاصًا له لانهماكه الدائِم بالتصوير؟

وأَين الجارُ الذي كان على أُرغنِّه في الليل ينفخُ أَنغامًا لبنانية شجية؟ ماذا حلّ به؟ كان جبران يستلذُّ أَنغامه ويقضي الليل ساهرًا يُصغي إِليه.

أَين الطريقُ التي كان كلَّ صباح يرى عليها قطعان البقر والغنم والماعز مسْرعةً إِلى الحقول الفسيحة والمروج الخضراء؟

أَين صخورُ مار جرجس ومغاورُ وادي قاديشا؟ أَين يقع دير مار سركيس والأَرز المقدس؟ وجبلُ ظهر القضيب الذي يكلِّل الثلجُ هامتَه؟

من أَين يتفجّر نبع «نبات»، و«القوس»، و«مار سمعان»؟

وفي أَيِّ ناحية يقع حقل «الحريم»، و«بْنَحْلي»، و«شاغورة»؟

وفي أَيٍّ من هذه الحقول تنبتُ زهورُ البنفسج، و«بخور مريم»؟

كل ذلك سأَلَتْه باربره يونغ، وهي واقفةٌ حزينةً دامعةً أَمام البيت المتهدِّم الصغير الذي أَنجب شاعرها جبران.

في متحف جبران ومغارة قاديشا

طلبَت أَن تنتقل إِلى المتحف فأَخذوها إِليه. وما إِن رأَتْهُ حتَّى أَسِفَت لعدم وجود متحفٍ فنيٍّ يضمُّ رسوم جبران الخالدة. طلب إِليها الحاضرون تفسيرَ بعض الرسوم الرمزية، ففعَلَت.

ثم توجَّهتْ إلى مغارة قاديشا يرافقها الخوري أَنطونيوس جعجع. وكانت في الطريق تُظهر شديدَ إعجابها بالمشاهد الخلَّابة حولها. عندما دخلَت المغارة تساءلَت إن كانت لم تزل باقيةً في هذا العالم أَم انها انتقلَت إلى عالم سِحريّ. ثم خرجَت وشفتاها تُتَمْتِمان هذه الكلمات: «إن بلادًا جميلةً ساحرةً كهذه، لا عجبَ إذا أَنبتَتْ في كل يوم جبرانًا».

عادت باربره من المغارة إلى منزل أَحد مشايخ آل عيسى الخوري، وتناولَت فيه الغداء مع المطران عبدالله خوري، ورئيس لجنة جبران سليم رحمة، والمونسنيور بادري، ورهط من أَبناء البلدة.

عند ضريحه

بعد الغداء توجَّهَت الكاتبة إلى زيارة ضريح جبران في دير مار سركيس، يصحبها جمهور كبير. وعندما دخلَت الكنيسة التي يرقُد فيها جبران بلغ تأَثُّرُها أَشُدَّه فطلبَتْ إلى مرافقيها أَن يتركُوها على انفراد. خرجوا فبقيَتْ وحدَها في الكنيسة. سجدَتْ أَمام ضريح جبران في خشوعٍ نحو عشْر دقائق تُناجي روحَه. ثم نهضَتْ وخرجَتْ إلى فُسحة الدير تتأَمَّل الأَمكنة الجميلة التي طالما حدَّثَها عنها جبران في نيويورك.

عند البطريرك

قبَّلَتْ باربره جدرانَ المعبد الذي يضمُّ رُفات صاحب «النبي»، وتركَتْ دير مار سركيس متوجِّهةً إلى الديمان لزيارة غبطة البطريرك [أَنطُون عريضة] يرافقُها رئيسُ اللجنة وبعضُ أَعضائها. استقبلَها غبطتُه في حفاوةٍ وإكرام، وطلب إليها أَن تبقى في بْشَرّي مدةً أَطوَل تفسِّر خلالها بعض الرموز المبهمة في اللوحات وترتِّب المتحف ترتيبًا فنيًا، فاعتذرَت لاضطرارها إلى العودة. وبعدما مكثَتْ لدى غبطته نحو خمسَ عشْرةَ دقيقة، قفَلت عائدة إلى بيروت».

وفي هذا العدد نفسه، أَوردَت «السياسة» مقطعًا (عاطفيًا في حينه وطريفًا) عن كيفية وضْع جبران كتابَه «النبي»، فذَكَرَتْ أَنه «كتبَه للمرة الأُولى باللغة العربية سنة ١٩٠٢، وقرأَه على أُمِّه فقالت له: «الأُسلوب ضعيفٌ جدًا، يا بُنَـيَّ، بالنسبة إِلى الفكرة» فمزَّقَ جبران كتابَه، ثم عاد إِلى كتابتِه ثانيةً وثالثةً وكان مصيرُه في المرتين الأَخيرتين كالمرة الأُولى. وبعد الحرب عاد إِلى كتابته باللغة الإِنكليزية فكان أَن ظهر «النبي» بتلك اللغة، يتداوَلُه العالم في إِعجابٍ ما بعدَه إِعجاب».

على أَن هذا الوصف «العاطفي» (غير المستنِد إِلى حقائقَ تاريخية) أَعقبَه في العدد نفسه من الجريدة كلامٌ مهمٌّ يُضيْءُ على ناحيةٍ توثيقية من جبران، هنا نَصُّه كما ورَدَ حرفيًّا في الجريدة:

«كانت السيدة باربره يونغ تحمل في حقيبتها أَربعةً من دفاتر جبران الخاصة:

١) **دفتر صغير من دون جِلْد**، لعلَّه من دفاتر جبران المدرسية، فيه صُوَر تحارير «إِلى رئيس عام، إِلى بطريرك، إِلى أُسقُف، إِلى صديق»، وما شاكل. وتكثُر فيه صورُ الرسائل الإِكليريكية بنوع خاص.

٢) **دفتر ثانٍ أَكبرُ من الأَوَّل**، من دون جِلْد، على ورقته الأُولى «من دفاتر جبران خليل جبران – تشرين الأَوَّل ١٩٠٠» وتحت هذه الجملة على ثلاث مرات هذان البيتان:

أَلَا يـا مسـتعيرَ الكتْـب دَعنـي ... فـإِنَّ إِعارتـي للكتْـب عـارُ
وجدتُ كتابي في الدنيا حبيبي (كذا) ... حبيبـي لا يُـباع ولا يُـعارُ

وفي هذا الدفتر مجموعةٌ شعريةٌ منتخَبَة من أَقوال ابرهيم بن سهل، وابن معتوق، والشيخ سليم حنا الضاهر، وكلُّها من شِعر «ساحة الملوك». ويلي ذلك تمارينُ إِنشائيةٌ من نثرٍ وشعر، أَكثرُها غيرُ كاملة، حافلةٌ بكثير من الاستعارات والتشابيه.

٣) **دفتر عادي**، قليل الورق، مجلَّد، يتضمن كتاباتٍ إِنكليزيةً، وشيئًا من المحاولات الشعرية بالعربية. منها بيتان مكتوبان بعنوان «تحت رسمي»:

هـذا خيـالُ فتًـى يَهـوى الحيـاة ولا	يهـوى الحيـاة، وفـي الحاليـن يَكتئـبُ
فـإِن بـدا جامِـدًا والصمـتُ يملكُـهُ	فاتْلوا عليه صلاةَ الحبّ يضطربُ (كذا)

وفي هذا الدفتر مقالٌ طويل في عشْر صفحات كثير التنقيح والتحشية، والأَرجح أَنه مُسَوَّدةُ مقال نشرَه في «الهلال» بشأْن النهضة الشرقية وإِمكان التضامن بين الأَقطار العربية.

وفي آخر هذا الدفتر مُسَوَّدةُ رسالةٍ غيرِ كاملة، من الأَرجح أَنها إِلى «مَي»، يقول فيها «ها قد رجعْتِ من لبنان. أُهنِّئُكِ بذهابكِ إِلى لبنان. ولا أَدري ما إِذا كان عليَّ أَن أُهنِّئَكِ برجوعكِ سالمةً إِلى مصر. لبنان، لبنان، لبنان، قُولي ماذا وجدْتِ في لبنان؟ ولو بعثتُ إِليكِ بالرسائل التي تجيئُني من أَبسط اللبنانيين ومن أَكثرهم تركيبًا، لَـما فكَّرتِ قطّ – لو كنْتِ أَنتِ أَنا – (هلاَّ غفرْتِ لي هذا الافتراض؟) بالذهاب إِلى لبنان، أَو إِلى أَية قُرنة من قراني الشرق».

٤) **دفتر كبير أَكثره أَبيض**، يبدأُ من اليسار بمقاطع كثيرة من «آلهة الأَرض» باللغة الإِنكليزية، ويلي ذلك محاولات تصويرية، منها رسْمُ امرأَةٍ تحتضن طفلًا وتُرضعه، وقد ظهر الرسم بدوائرَ رصاصيةٍ غايةٍ في الغموض والوضوح معًا.

وفي هذا الدفتر مُسوَّداتُ قصائِدَ ومقالاتٍ معروفة، أَشهرُها «المواكب». ومن الملاحظات المدوَّنة: «تجزئةُ سطح الأَرض شغَل الساسة، وتجزئةُ السماء شغَل الكهَّان. وأَنا بطبعي وأَحلامي غريبٌ عن هؤُلاء المشْتغلين بالتجزئة والتقسيم، منصرفٌ إِلى الوحدة النفسية والعقلية والدنيوية والسماوية»[٧٣].

عودة مسرعة

ثم تصف جريدة «السياسة» ختامَ زيارة الشاعرة باربره يونغ ربوعَ لبنان، كما يلي:

٧٣ وصْفُ محتويات الدفاتر بهذا التفصيل ورَدَ حرفيًّا في مقال فؤَاد افرام البستاني، وقد يكون هو من نشَر في الجريدة هذه التفاصيل قبل نشْرها في «المشرق».

«في الثاني عشر من تشرين الأَوَّل عادت باربره يونغ إلى نيويورك قبل أَن تُتِمّ المهمَّة التي جاءت من أَجلها. وقد وصلتْنا معلوماتٌ عن سبَب عودتها المسرعة، فإِذا هي: في لندن سيِّدةٌ أَلمانيةٌ معجَبَةٌ بجبران جِدَّ الإِعجاب. لمَّا علِمَتْ أَنَّ باربره يونغ رافقَت جبران في السنوات الأَخيرة من حياته، راسلَتْها إِلى نيويورك مقترِحةً عليها أَن تسافر إِلى لبنان وتضعَ كتابًا مطوَّلًا عن جبران، وقدَّمَتْ لها مبلغ أَلْفَي دولار لقاءَ نفَقات الرحلة. وافقَت باربره يونغ على الاقتراح، قبضَتْ سِلْفةً من المبلغ قيمتُها خمسمئَة دولار، وتركَتْ نيويورك في منتصف آب الماضي. فاجأَهَا خبرُ إِعلان الحرب وهي في عُرض البحر، فلم تَعْبَأْ لذلك وتابعَت سفَرَها إِلى بيروت. في لبنان نفدَتْ منها السِلْفةُ فراسلَتْ تَطلب بقيَّة المبلغ من تلك السيِّدة الأَلمانية فاعتذرَتْ هذه عن ذلك بسبب نُشوب الحرب. عندئذٍ رأَت السيِّدة يونغ أَن تعودَ إِلى بلادها ملتجئةً إِلى رئيس الجامعة الأَميركية في بيروت المستر بايارد دودج الذي مدَّ مواطنتَه الشاعرة بمبلغٍ يُساعدها على بلوغ نيويورك»[٧٤].

باربره وماري والرسائل

هذه الإِضاءة من سنة ١٩٣٩ في جريدة «السياسة» تكشف كم تبدو باربره يونغ أَمينةً على رسالة جبران، متكرِّسةً له في غيابه مثلما تكرَّست له في صومعته سبع سنوات حتى آخِر يوم من حياته (الجمعة ١٠ نيسان ١٩٣١). وتَذكُر أَنْ فيما كانت نهارئذٍ تساعده كي ينزل درج البناية نحو سيارة إِسعافٍ تنتظر لتُقِلَّه إِلى مستشفى سانت ڤِنْسِنْت (على بُعد شارعَين من «الصومعة») طَمْأَنها: «لا تخافي يا باربره، أَنا في حالة جيدة». لكنه لم يكُن كذلك أَبدًا. فتلْك كانت آخرَ كلماتِه، وكانت باربره آخرَ وجهٍ أَغمضَ عليه جبرانُ عينيه عند الثانية بعد الظُهر حين دخل

٧٤ لم تذكُر باربره هذا الأمر في كتابها بل عَـزَت عودتها إِلى اندلاع الحرب و«دعوة الحكومة الأَميركية جميعَ رعاياها في لبنان إِلى مغادرته فورًا». وختمَت كتابَـها بوقوفها ليلًا على «شرفة أُوتيل بَسُّول الكبير المطلَّة على خليج السان جورج» منتظرةً أَن يَطلَعَ الفجر كي تُبحرَ من ميناء بيروت عائِدةً إِلى نيويورك.

في الغيبوبة الأَخيرة فلم تلحقْه واعيًا شقيقتُه مريانا التي جاءت ملهوفةً بالقطار من بوسطن.

عن النحَّات خليل جبران، في كتابه «خليل جبران: حياته وعالمه»، أَنَّ باربره حضرَتْ مراسم دفن جبران في بوسطن (كنيسة «سيِّدة الأَرز» – الثلثاء ١٤ نيسان). ونهار الجمعة ١٧ نيسان جاءَت إِلى محترفه في نيويورك «لإِخفاءِ كلِّ أَثَرٍ من جبران يَحُول دون أَن يَبقى منه ما ترويه هي عنه». لكنّ ماري هاسكل كانت سَبَقَتْها إِلى المحترف مع مريانا وزكيّة رحمة (ابنة ملحم جبران ابن عمه) للبحث بين أَوراقه عن نسخة وصيَّـته التي كان سنة ١٩٣٠ أَودَعَها مكتب إِدغار سپاير. ووجدَت ماري بين الأَوراق مخطوطاتِ جبران التي كانت عملَتْ عليها إِمّا معه وإِمّا وحدها ثم أَعادتْها إِليه. ووجدَتْ رُزَمًا ملفوفةً مرتَّبةً هي مَجموعةُ رسائلها إِليه[٧٥].

ولو لم تأْخُذ ماري هاسكل رزمةَ الرسائل لكان الخطر كبيرًا أَن تبادر باربره يونغ إِلى إِتلافها كي تبقى وحدَها النجمةَ المعلَّقة على ذاكرة الجبرانيين. وواضحٌ أَن باربره لم تكن مطَّلعَةً منه على علاقته الطويلة (١٩٠٤–١٩٣١) بماري هاسكل. ولا حتى ميخائيل نعيمه كان يعرف الكثير عن علاقة جبران بِـماري هاسكل حتى التقاها نَهار المأْتم في بوسطن وأَبدى لها نِيَّتَه وضْعَ سيرةٍ في العربية عن جبران. سأَلَتْهُ ماري مُوافاتَها إِلى «منتجع طومسون» قرب محطة القطار «غراند سنترال ستايشن» قبل أَن تستقلَّ قطار نيويورك صباح ٢١ نيسان ١٩٣١ وتعودَ إِلى زوجها

٧٥ نسَّقَتْها لاحقًا مع رسائله إِليها وأَودَعَتْها مكتبةَ جامعة نورث كارولاينا في تشاپِّل هِلّ، وجَمَعَت ما لديها من لوحاتٍ كان جبران أَهداها إِليها فقدَّمتْها إِلى متحف «أَكاديميا تِلْفِير للفنون والعلوم». تلك الرسائل واليوميَّات حقَّقَتْ ڤرجينيا حلو قسمًا كبيرًا منها وأَصدرتْه سنة ١٩٧٢ في نيويورك بعنوان «نبي الحبيب»، وكان توفيق صايغ نشَرها على عددَين من مجلته «حوار» (العدد ٢٢، السنة الرابعة، العدد الرابع: أَيار/حزيران ١٩٦٦، ص ٥ إِلى ٤٨، والعدد ٢٣، السنة الرابعة، العدد الخامس: تموز/آب ١٩٦٦، ص ٥ إِلى ٤٣)، ثم عاد فأَصدَرَها مجموعةً في كتابه «أَضواء جديدة على جبران» (١٩٦٦)، فأَضاءَت تلك الرسائِلُ واليومياتُ صفحاتٍ ساطعةً ما كان يمكنُ لولاها أَن يَبْلُغنا من حياة جبران وأَفكاره وشجونه ما بلَغَنا.

العجوز في ساڤانا. هناك اجتمعَت به أَربع ساعاتٍ دوَّن خلالها نعيمه معلوماتٍ عن علاقتها به وعن مرحلة جبران في بوسطن (قبل أَن يلتقيه نعيمه سنة ١٩١١ في نيويورك). ومن الساعات الأَربع في تلك الجلسة بنى نعيمه مُعظم ما ظهر لاحقًا في كتابه عن جبران. وهو لم يُشِر إِلى ذاك اللقاء الوحيد مع ماري، ولا أَشارَ إِلى باربره يونغ إِلَّا بأَنها: «طويلةُ القامة، عظميَّةُ الهيكل، زعفرانيَّةُ اللون، حادَّةُ الأَنْف، غارقةُ العينين. هي شاعرةٌ أَميركيةٌ في النصف الأَوّل من عقدها السادس، عرفَتْ جبران آخِرَ سبْع سنواتٍ من حياته، فتقرَّبَتْ منه وكانت تساعده في نسخ مؤَلَّفاته، وقد التقيتُها مرةً عنده».



الأَب لاوُن مقصود: شهادَتان

سنة ١٩٣٩ كان الخوري لاوُن مقصود مديرَ الدروس العربية في «الحكمة» (الأَشرفية) المدرسة التي قصَدَها جبران أَربع سنواتٍ (١٨٩٨-١٩٠٢) ودرَس فيها متمكّنًا من مواد الدراسة، وخصوصًا اللغة العربية مُتَتَلمذًا فيها على الخوري يوسف الحداد الذي ترك في نفْس تلميذه أَثَرًا طويلًا.

ولأَن الخوري لاوُن كان في المدرسة نهارَ زارتْها باربره يونغ واستقبلَها ورافقَها، فذكرياته إِذًا شهادةُ شاهد عيان على تلك الزيارة التي كتَب عنها نصَّين، كما يلي:

الأَوَّل مخطوطٌ: «كرمى لجبران»، ورقة بين مذكّراته الخاصة، هي حاليًّا في حوزة ابن شقيقه الأُستاذ فارس مقصود (رئيس مدرسة «الحكمة»-مار الياس، كليمنصو)، وأَتاح لي مشكورًا نشْرها في هذا الكتاب كما هي: تكاد تُتلفُها السنوات الثمانون (١٩٣٩-٢٠١٩)، أَنقلُ نَصَّها بتشكيله المؤَاتي وأَترك نصَّها الأَصلي للصورة المنشورة بكتابتها الأُولى.



معهد «الحكمة» في فجر القرن العشرين
(مائية بريشة أَنطوان مطر ١٩٩٨ - في مرور ١٠٠ سنة على دراسة جبران في المعهد)



باحة داخلية في معهد «الحكمة»:
إِحدى غُرَف الطبقة الأَرضية درس فيها جبران
(مائية بريشة أَنطوان مطر)

النص الآخر مطبوعٌ: «باربره يونغ تَحُجُّ معهد الحكمة»، صدر في المجلة المدرسية التي أَصدرتْها مدرسة «الحكمة» (فرع كليمنصو) – السنة التاسعة، عدد نهاية السنة المدرسية ١٩٨١–١٩٨٢.

وهنا النصّان/الشهادتان بحرفيَّتِهما :

كُرمى لجبران
بَربرة يونغ تَحُجُّ لبنانَ ومعهدَ «الحكمة»

وَلَجَتْ مكتبي في «الحكمة» عام ١٩٣٩، بوَصْفي مديرًا للدروس العربية فيها، امرأَةٌ عَوَانٌ[٧٦]، نَصَفٌ[٧٧]، يرافقُها مراهقٌ، وعلَّقَتْ: «أَنا أَميركية. تعرَّفتُ النابغةَ جبران، فأَملى عليَّ الإِعجابَ والاحترام بنُبُوغه وذكائه، فعشِقْتُ، عبْر شخصيَّتِه، لبنانَ الساحر، وأَتيتُ أَحُجُّ هذا البلدَ الجميلَ، مهدَ الوحيِ والإِلهام. وقد استصْحَبْتُ ابني[٧٨] هذا، بُغاءَ أَنْ[٧٩] يَنهلَ من روافد «الحكمةِ» مِحرابِ الوطنيةِ ومَحامدِ الأخلاق. بيد أَن الأَوضاعَ العالَميةَ المُتأَزِّمةَ جعَلَتْني أَتَريَّثُ، حتى إِذا زالَت كوابيسُ على الصُدور جاثِمَةٌ، أَرجعْتُ ابني إِلى معهدِكُم هذا».

ثم طلَبَتْ أَن أَدُلَّها إِلى قاعةٍ درَسَ فيها واضعُ كتاب «النبيّ» فَهَدَيْتُها، وكانت المَقاعدُ لا تزال هي إِيَّاها، فَأَلَحَّت أَن أُحدِّد بالضبْطِ الطاولةَ التي إِليها جلَسَ جبران فأَحجَمْتُ لصُعُوبة التَحديد. فانتقَت إِحدى الطاولاتِ، وَأَمَرَت ابنَها أَن يَبُوسَها فَنَفَّذَ

---

٧٦ متوسطةُ العمْر.

٧٧ نَحو مُنتصف العمْر.

٧٨ يبدو أَن جوابَها أَشْكَلَ على الـخوري لاوون. الواقعُ أَنَّ باربره يونغ، بعد طلاقها من زَوْجها ولا صبيَّ لها، انصرفَت إِلى تربية ابـنـتـها الوحيدة. وفي مراجِعَ عدَّةٍ صُورةٌ لها مع ابنتِها في مُحترف جبران. ومن مقال فؤَاد افرام البستاني في مجلة «المَشْرق» مُرافقًا باربره يونغ في السيارة ذاتها إِلى بْشَرّي، أَنَّ مَن كان معَها هو حَفيدُها كريستوفر ابنُ الأَربع سنوات.

٧٩ بُغاءَ أَنْ: صيغةٌ من «بُغْيَةَ أَنْ». وواضحٌ من النَص أَنّ الخوري لاوُون متضلِّعٌ في اللغة العربية بقاموسها العريق.

من فَورِه. ثم انْتَحَيَا إِحدى الزَوايا، وأَغْمَضَا العُيُـون كُرمى لذكرى جبران، وَعَلِقَا يُتمْتِمان، لعلَّهما تَلَوَا بعضَ آياتٍ من كتاب «النبيّ».

فَسَأَلتُها: «مَن تكُونين»؟ فأَخَذَتْ قلَمًا وَوُرَيقةً ودَوَّنَتْ: «بَربَرة يونغ». وَوَدَّعَت آسِفةً تُدَغْدِغُها بارقةُ أَمَلِ العَودةِ إِلى مسقَط رأْس جبران. وبَربرَة يونغ هي الأَديبةُ الأَميركيةُ الشهيرةُ، العالَميةُ الصيتِ، صديقةُ جبران الحميمة، ومصدَرُ مُوحَيَاتِهِ وإِلْهاماتِه.

كرسي لجبران

بربره يونغ تحج لبنان ومعهد "الحكمة".

ولجت مكتبي في "الحكمة"، عام ١٩٢٩، بوصفي مديرًا
للدروس العربية فيها، امرأة عوان، نصف، يرافقها مراهق،
وعلقت: انا اميركية، تعرفت النابغة جبران، فاملى علي
الاعجاب والاحترام، بنبوغه وذكائه، فعشقت، عن كثب، شخصيته،
لبنان ان احج، واتيت احج هذا البلد الجميل، معهد الوحي والالهام.
وقد استصحبت ابني هذا، بغاء ان ينهل من روافد "الحكمة"، ومحراب
الوطنية ومحامد الاخلاق. بيد ان الاوضاع العالمية المتأزمة اجعلني
[illegible]، حتى اذا زالت كوابيس على الصدور جاثمة، ارجعت ابني الى موطنه هذا.
ثم طلبت ان ادلها الى قاعة درس فيها واضع كتاب "النبي"،
فهديتها، وكانت المقاعد لا تزال هي اياها، فاكدت ان احد هذه
الطاولة التي الى جانبها جلس جبران، فاجهشت لصعوبة التحديد. فانتقت احدى
الطاولات، وامرت ابنها ان يبوسها، فنفذ من فوره. ثم انتحيا احدى
الزوايا، واغمضا العيون، كرمى لذكرى جبران، وعلقا يتمتمان،
لعلهما تلوا بعض آيات من كتاب "النبي".

فسألتها من تكونين؟ فاخذت قلمًا ووريقة ودونت: بربره
يونغ. وودعت آسفة تدغدغها بارقة امل العودة الى مسقط رأس جبران.
وبربره يونغ هي الاديبة الاميركية الشهيرة، العالمية الصيت، صديقة
جبران الحميمة، ومصدر موحياته والهاماته.

لاون مقصود

شهادة الأَب لاون مقصود بخطه

لاون مقصود
باربره يونغ تَحُجُّ معهدَ «الحكمة»

للخوري لاوُن مقصود
مدير الدروس العربية في «الحكمة» سابقًا

كان ذلك يوم أَحَد من عام ١٩٣٩، لعلَّه عيد العنصرة. عند التاسعة صباحًا قَرع حاجبُ المدرسة البابَ قائلًا: «سيِّدة أَجنبية في بهو الاستقبال تطلب أَن تقابل المدير[٨٠]».



بربره يونغ تحجّ معهد الحكمة

للخوري لاون مقصود
مدير الدروس العربية في الحكمة سابقا

كان ذلك يوم احد، من عام ١٩٣٩، لعلّه عيد العنصرة. عند التاسعة، صباحا، قرع حاجب المدرسة الباب، قائلا: سيّدة اجنبية، في بهو الاستقبال، تطلب ان تقابل المدير.

مطلع مقال الأَب مقصود
في عدد «الحكمة» المدرسي

فإذا بامرأَةٍ عَوَان، نَصَفٍ، تطلّ يرافقها مراهق في الخامسة عشرة، لا تتكلَّم إلَّا الإِنكليزية. فجلسَت وعلَّقَت:

– أَنا أَميركية، تعرَّفتُ النابغة جبران، في العالم الجديد، فأَملى عليَّ الإِعجابَ، وفرضَ الاحترامَ بنبوغه وَحِدَّة ذِهنه. فعشِقْتُ عبر شخصيتِه الثريةِ الشاملةِ لبنانَ الساحرَ وسماءَه الموحية. وأَتيتُ أَحُجُّ هذا البلدَ الجميل، مهدَ الجمال والإِلهام، وفاءً

---

٨٠ يلفتُني في هذا النصِّ أَمران:
١) باربره في الفصل الأَخير من كتابها روَت أَنَّ الذي استقبَلَها هو الأَب يوحنا مارون، وكان معها حفيدُها كريستوفر (٤ سنوات) وديڤيد أَزرق أُستاذ العلوم في الجامعة الأَميركية، وهو رافقها في زيارتَيها إِلى بْشَرّي والمدرسة مترجِمًا ودليلًا.
٢) في هذا النص بعضٌ مما جاء بحرفيَّتِهِ في النص المَخطوط الأَوَّل، لكنَّ الخوري مقصود وسَّعَهُ أَكثر بتفاصيلَ إِضافيةٍ عن تلك الزيارة.

لوعدٍ قطعْتُهُ لجبران وأَلزمتُه نفسي. وقد استصحبتُ ابني هذا، بُغاءَ أَن ينهل دروسه من روافد معهدِ «الحكمة» دارِ الوطنية ومحامدِ الاخلاق، من ينابيعَ أَروى جبرانُ منها ظمأَه، وعَبَّ حتى الثُمالةِ أَدبًا وسجايا. بيدَ أَنَّ الأَوضاع العالَميةَ المُتَأَزِّمة، وقد غزا هتلر حديثًا مرفأَ دِنْزيغ واجتاحت جحافلُه بولونيا، حالةٌ تُنذر بحرب عالمية ضَروسٍ جعلَتْني أَتريَّث. سأَثُوب الآن وابني آسفةً إِلى مسقط رأْسي. فإِذا صفا الجو السياسيّ، وانقشَعَت غيومُ الاكفهرار المهدِّدة بالانفجار، وزالت همومٌ على الصدور جاثمةٌ، وهواجسُ مقلقةٌ مرعبة، وبان كابوس حرب عالمية طاحنة، رجعت بِابني إِلى معهدِكم هذا ليرتوي من مناهلَ كرعَ جبران منها فأَصبح نادرةَ الزمان، وحيد عصره ونسيج وحده.

ثمّ طلبَت أَن أَدُلَّها إِلى قاعةٍ درَس فيها واضعُ كتاب «النبي»، فهدَيتُها إِلى مباني مدرسة «الحكمة» القديمة، وولَـجْنا قاعةً أَمضى فيها جبران السنةَ الدراسيةَ النهائية. وكانت المقاعد لا تزال هي إِيَّاها: سوداء ضخمة، حفَر عليها بعض الطلَبة الحروف الأُولى من أَسمائهم. فسأَلَتْني، مُلِحَّةً، أَن أُحدِّد بالضبط الطاولةَ التي إِليها جلس جبران طالبًا. أَحجمتُ لصعوبة التحديد فانتقَت الطاولة الثالثة إِلى يمين الداخل وأَمرَت الولد أَن يجلِسَ إِليها ويبوسَها، فقد يكون النابغة جبران إِليها جلَس عهدَ الدراسة، فنفَّذ من فَوره. ثم أَشارت إِليه فانفردا في إِحدى الزوايا، وأَغمضا العيون بضع لحظاتٍ للتبحُّر والتأَمُّل، بل إِكرامًا واحترامًا لذكرى النابغةِ الذي نقلَهما إِلى الشرق. وأَمرَت ابنها أَن يحذو حذْوها، وعلِقا يتمتمان. لعلَّهما تَلَوَا صلاةً أَو آياتٍ من كتاب «النبي».

وقفلْنا إِلى المكتب في بناء «الحكمة» الجديد. وهناك رغبَت إِليّ أَن أَكتب اسم جبران بالعربية فدوَّنْتُ: جبران جبران. تفرَّسَت واعترضَت تقول: «ليس هكذا كان يوقِّع بالعربية رسالات وجَّهها إِليَّ بالإِنكليزية يوم كان في العالم الجديد». فشحذْتُ الحافظةَ والقريحة وسطَّرتُ: جبران خليل جبران، فارتاحت وطفحَت بهجةً وحُبورًا وقد سُرِّيَ عنها كأَنها وجدَت ضالَّةً منشودة. سأَلتُها: «مَن تكونين»؟ فأَخذَت قلمًا وورقةً وكتبَت بالإِنكليزية Barbara Young بربرة يونغ. وودَّعَت

وابنها، آسفةً تدغدغُها بارقةُ أَملٍ في العودة إِلى الربوع اللبنانية الساحرة، مسقط رأْس النابغة جبران، إِلى معهد «الحكمة» حيث جال واضعُ كتاب «النبي» وترعرع وتلَقّى دروسه.

في اليوم التالي زارني الصديقُ الشيخ فؤَاد حبيش، رحمه الله، فرويتُ له ما حصَل فصاح عاتبًا: «ويكَ! لقد أَضعتَ سانحة العمر، وحرمْتَ القرَّاء اللبنانيين، بل العربَ جميعًا، حديثًا صحافيًّا[٨١] عالَميًّا غايةً في الفائدة والخطورة والطرافة واللذَّة: إِنها الأَديبة الأَميركية الذائعة الصيت، صديقةُ جبران الحميمة، ومصدرُ إِلْهاماته وبدائعه».



غلاف المجلة المدرسية التي نشر فيها
الأَب لاوون مقصود نصَّه عن زيارة باربره يونغ
مدرسة «الحكمة».
مدرسة «الحكمة» – فرع كليمانصو
عدد السنة التاسعة ١٩٨١ ١٩٨٢

٨١ يقصد الشيخ فؤَاد هنا حديثًا لمجلته «المكشوف» (أَسسها سنة ١٩٣٥ وكانت فترتئذٍ منبر كبار الشعراء والأُدباء).

شاعرة أَميركية قرَّرت العيش في لبنان

باربره يونغ، صديقةُ خليل جبران، قرَّرت أَن تعيشَ في بْشَرّي وتكتُبَ سيرة شاعر الأَرز وتُمَسْرِحَ سنويًّا بالإِنكليزيةِ لوحاتٍ من «النبي» أَمام «حُجّاج» المُتحف

مقابلة أَجْرَتْها أَليس مكرزل[1]

في كتيِّبٍ عن سيرة جبران[2]، كتبَت باربره يونغ: «في بْشَرّي، على بُعد نصف كُرَةٍ أَرضيةٍ من هنا، وقريبًا من أَرز الربّ، يرقد جثمان جبران الذي كان، أَكثرَ من أَيٍّ آخَر، شاعرَ الأَرز».

هناك، بين تلك الأَجواء المقدّسة من الجمال والحقيقة، اختارت باربره يونغ أَن تجعل بيتَها الدائم.

---

١ هي وُسطى بنات سلُّوم مكرزل الخمس (بعد ماري ورُوز، قبل يُمنى وليلى). كانت تُسهم بالإِنكليزية في تحرير مجلة والدها سلُّوم «العالم السُوري» (The Syrian World) إِلى أَن تخلَّى عن تحريرها لزميله فيها حبيب كاتِبه، وانصرف منذ ١٩٣٢ إِلى إِدارة جريدة «الهدى» مباشرةً إِثْرَ وفاة مؤَسسها شقيقِه البِكْر نعوم.

٢ المقصود هنا طبعةٌ أُولى مُصَغَّرةٌ لكُتَيِّبٍ من ٤٨ صفحة كانت باربره يونغ أَصدرتْه «على حسابها الخاص» سنة ١٩٣١ لدى «المطبعة السورية الأَميركية» (نيويورك) بعد أَربعة أَشهر على وفاة جبران، ثم عادت فوسَّعت ذاك الكتيِّب إِلى كتابها المعروف «هذا الرجُل من لبنان» وأَصدرَتْه سنة ١٩٤٥ لدى منشورات «كنوف» (نيويورك)، راويةً فيه رحلتَها سنة ١٩٣٩ إِلى لبنان (زائرةً المتحف في بْشَرّي، ومدرسة الحكمة في بيروت) ومُفَصِّلَةً وسْعَ صفحاته جلساتِها الطويلةَ مع جبران في محترفه مُدوِّنةً ما كان يمليه عليها من نصوصٍ، ثم طابعةً إِيَّاها على آلتها الكاتبة.

صحيحٌ أَنها اتَّخذَت قرارَها العيشَ في لبنان بعد وفاة جبران، لكنها كانت تحلم به قبل سنوات. وها هي، كما مُصادَفَةً مع الذكرى الأُولى لوفاة الشاعر[3]، ستغادر هذه الشواطئَ الغربيّة، متوقفةً بعض الوقت في أُوروپّا، ثم تُكمل إِلى بْشَرّي لتعيشَ «لبنانيةً بين أَهل جبران اللبنانيين»، فتسكنَ هذه البلدة الصغيرة حيث جبرانُ الطفلُ رسَمَ وجَبَلَ[4]، وحيث جبرانُ الفتى صمَّم منذُئذٍ أَن تكونَ له حياة فنية.

قالت لي باربره: «أَشعر أَنني أَعود إِلى بيتي لأَعيشَ فيه. وعَفْويَّةُ قولي أَحيانًا «**حين أَعود إِلى لبنان**» تُشير إِلى رغبتي أَن أَعيش هناك. وهذا أَروع ما يحصل في حياتي. في بْشَرّي سيكون لي بيتي الصغير، أَمامه عريشةٌ وشجرةُ زيتون، سطحُهُ بِساطٌ حين أَنام عليه ذات ليلةٍ دافئةٍ يمكنني أَن أَمدَّ يدي وأَقطف نجمةً أَدُسُّها تحت مخدَّتي».

بعد برهةِ صمتٍ أَضافت: «كثيرون تنبَّأُوا أَنني سأَعودُ إِلى هنا بعد حفنةِ سنوات، لكنني واثقةٌ أَنني لن أَعودَ من هناك. لم أَكن يومًا منسجمةً مع أَنماط العيش الغربيَّة، بوسائلها ووسائطها وأَدواتها، فيما تَسحرُني من زمانٍ هناك تلك الحياةُ اللبنانية بِـجمالها وبساطتها».

لَمستُ في صوت باربره يونغ دفئًا شرقيًّا أَليفًا يعكس هناءةً لبنانيةً ذاتَ رضًى عميق. وتخيَّلتُها هناك في لبنان ترتدي ملابسَ محليةً جمالُها يناسبُ قامةَ باربره الممتلئة الطويلة.

استرسلَتْ تحدِّثني عن كمال سُرورها أَن تكون بين لبنانيين وسوريين تحب أَن تسمعهم ينادونها «بُرْبَارَة» باللهجة العربية مُشدِّدين لفظَهم على حَرفَـي «با» الأَوسَطَين في اسمها. ولاحظتُ أَنَّ لديها منذ الآن مؤْونةَ كلماتٍ عربيةٍ تلفظُها فلا تَلْحَنُ ولا تجد في لفظها صعوبةً يواجهها الأَميركيُّ عادةً في لفْظه كلماتٍ

---

٣ توفي جبران في ١٠ نيسان ١٩٣١ وصدر هذا الحديث في عدد نيسان ١٩٣٢.

٤ كان جبران، إِبَّان طفولته في بْشَرّي، يَجْبُلُ بالطين أَشكالًا بدائيةً تشير إِلى ميوله الفطرية الفنية الباكرة.

عربيةً، ما يذكِّرُها بقول جبران لها ذات يوم: «أَشعر أَنكِ ستنطقين بالعَرَبية في أَيِّ لحظة».

طبعًا هي مقتنعةٌ أَنَّ الأَمر ليس بهاتَين السهولة والعفوية، لكنها عازمةٌ، منذ وُصولها إِلى لبنان، على تلقُّن العربية في بضع سنواتٍ حتى تُتْقِنَها بما يتيح لها أَن تترجم إِلى الإِنكليزية كتاباتِ جبران العربيةَ كلَّها. هي تعرف أَنَّ كتاباتٍ له عربيةً مترجمةٌ إِلى الإِنكليزية لكنها لا تحمل بَصمة جبران، وعشَّاقُ كتاباته الإِنكليزية لا يرضَون بها خاليةً من بصمته. وما يؤَهِّلُ باربره يونغ لترجمة جبران إِلى الإِنكليزية، أَنها ضليعة بمهاراته الأُسلوبية في الإِنكليزية. روَتْ لي أَن جبران قال لها يومًا: «أَنتِ أَفضل من يترجم كتاباتي العربية إِلى الإِنكليزية»، وأَنه، وهو يُمْلي عليها كتابه «يسوع ابن الإِنسان»، كان إِبَّانَ نشوة انفعاله يتوقَّف بين عبارة وأُخرى ويلقي قولًا بالعربية ثم يترجمه بعفويةٍ إِلى الإِنكليزية. لَحَظاتِئِذٍ، من خوفها أَن تقطع عليه انسيابَ أَفكاره، كانت تتجنَّب أَن تطلب منه الإِعادة كي تدوِّن ذاك القول. غير أَن تلك الأَقوال باقيةٌ في قلبها وواجدةٌ تعابيرَ لها في صفحات ترجماتها عن العربية.

في بْشَرّي لن تقضي وقتها كلَّه في دراسة العربية وفي الترجمة. فهي رهنَت حياتها، تَطَوُّعًا، لنشْر اسم جبران وعبقرية نتاجه لدى مَن لم يعرفوه بعد. ولهذه الغاية تصمِّم، بين أُمور كثيرة، أَن تُعيد في بْشَرّي تأْثيث مُـحترَف نيويورك تمامًا كما عاش فيه جبران ١٨ سنة يكتُب ويرسُم. وستجعل في دير مار سركيس متحفًا تعرض فيه أَعماله من رسوم بالقلم الرصاص، وتخطيطات، ووجوه، وزيتيات، ومحفورات خشبية، وكنوزِ ذخائرَ وأَغراضٍ فنية كان جبران يجمعها ويحبُّها.

في أَعلى آمال باربره يونغ أَنْ تجعل مَسْرَحَةَ فصول «النبي» سنويًّا أَجملَ تكريمٍ دائمٍ لذكرى «شاعر الأَرز» على أَرضه اللبنانية وبأَصوات أَهل بلدته بْشَرّي. ستكون المَسْرَحَةُ بالإِنكليزية ليتابعها «الحُجَّاج» الأَجانب ولأَن الإِنكليزية لغة عالمية. لذا عشاق جبران بالآلاف في كلِّ العالم سيهنَأُون بفرصة حضور «النبي» في هذا الإِطار البديع. أَما ريع هذا العمل فسيكون لتحقيق آمالٍ وأَحلامٍ كان جبران يُضمِرها لوطنه

الحبيب، منها تطويرٌ كبير للزراعة في لبنان وتحسيناتٌ أُخرى دَوَّنتْها باربره يونغ في قلبها وتُضمر أَن تحقِّقَها له[٥].

كان جبران في صباه يتنقَّل على صهوة حصانٍ بين فَلوات الأَرض المقدسة التي يقال إِن يسوع مرّ بها. وتأْمل باربره أَن تمشي على الدروب ذاتها فتزورَ الأَماكن التي مرَّ بها جبران. سوف تزور مدرسة «الحكمة» حيث درَّس الخوري يوسف الحداد الذي وصفه لها جبران بـ«الوحيد الذي علَّمني ما أَفادني». وفي هذه المدرسة اليوم لوحةٌ تحمل باعتزازٍ شهادةَ أَنَّ جبران درس فيها[٦].

كثيرون هنا من متابعي باربره يونغ المعجبين بأَدبها يخشون أَن تتخلَّى كلِّيًّا عن كتاباتها ونشاطها كي تنفِّذ مخطَّطَها الجبراني فتحرمَهم من الجمال والشاعرية في كتاباتها شعرًا ونثرًا. أَما هي فواثقة أَنها لن تُهمل كتاباتها الخاصة، وتُؤْمن عميقًا بأَنْ سيكون لها من جمالاتِ لبنان الفريدة ومناخِه الرائع ما سيُلهمها أَفكارًا أَهمَّ وكتاباتٍ أَجمل. وكتابُها الأَخير «يهوذا... الرجل الذي لم يستطع أَن يموت» تجري أَحداثُه في لبنان، وفيه نصُوصٌ شعريةٌ عالية الحيوية لأَنها كتبَتْه بحماسةٍ عن أَرضٍ لم تكن تعرفُها بعد. فكيف إِذًا حين سيكون جديدُها «كتابُ آدم» وكتاباتٌ أُخرى تضمر أَن تكتُبَها، في إِطار تلك الأَرض المقدسة!

حيوية باربره يونغ لا تعرف التعب ولا الاكتفاء. علامتُها: اهتمامُها بِخَير الآخرين. فعدا كتاباتها عن جبران ونصوصها الخاصة، ستكتُب سلسلة مقالات عن شعب لبنان وتقاليد لبنان وتراث لبنان كي تُقْنع بها العالم الغربي ليقينها أَنْ منذ منتصف القرن التاسع عشر لَمْ تُكْتَب عن لبنان مقالاتٌ مُنْصِفَة. هذا ما اكتشفتْه باربره يونغ من

٥ لم تحقِّق باربره يونغ زيارتَها لبنان، كما كانت تحلم بها، إِلَّا بعد سبع سنواتٍ من هذا الحديث. قَصَدت بْشَرّي في ٨ تشرين الأَول ١٩٣٩، وزارت معهد «الحكمة» إِنما بدون ابنتها بل اصطحبَت حفيدَها كريستوفر (٤ سنوات). كما لم تحقق حلمَها بالسكَن الدائم في بْشَرّي لأَن شرارة الحرب العالمية الثانية أَرغمَتْها على العودة سريعًا إِلى نيويورك.

٦ بعد سنواتٍ على هذا الحديث جدَّدَت إِدارةُ المدرسة أَبنيتَها فزالت اللوحة وانهدَم الجناح حيث كانت الغرفة التي دَرس فيها جبران.

قراءاتها مراجعَ في المكتبات ولدى بعض المؤَسسات، وأَحسَّت بالحاجة إِلى الإِضاءة عليه حَيَال غيابه عن معظم الكتابات بالإِنكليزية.

في الرابع من أَيار المقبل ستُبحِر السيدة يونغ، ومعها ابنتُها، إِلى إِنكلترا لتحلَّ ضيفةً على السير هنري وزوجته السيدة دْجاپ في لندن. وستغتنم هذه «الإِقامةَ القصيرة» لتستخدمَها كالعادة بنشاطٍ في خدمة جبران: إِقامة معرض في لندن لـ٧٥ رسمًا بالقلم الرصاص. وستعرض بعدئذٍ هذه الرسوم في پاريس التي تَعتبر أَنَّ لجبران فيها شهرةً وتقديرًا كرسَّام. ولن تحمل معها إِلى أُوروپا لوحاتٍ زيتيةً لأَنَّ هذه شُحِنت رأْسًا إِلى هناك، إِلى لبنان.

هذا الـ«هناك» سيكون عالَـمًا غريبًا وغامضًا على أَصدقاء لباربره يونغ، منهم من عرفوها لسنواتٍ، ومنهم من عرفوها حديثًا. لكنهم جميعًا نعموا بصداقتها وتأَثَّروا بروحها الكريمة وفكرها المعطاء.

قبل فترةٍ كانت كتبَت: «في الاستذكار غِنًى، وثِقَةٌ بالخلود قد لا نتنبَّه أَن نسأَل عنها». ونحن، بهذه المقولة الجميلة، وبأَمَل أَن قد نكون نحن أَيضًا معها في لبنان، نودِّع باربره يونغ الغنية بتذكارات صداقتها، ونؤَكِّد لها ثقةً لدينا بقرارها لن تُضعفَها فينا المسافةُ ولن تُطْفئَها أَبدًا[٧].

APRIL, 1932 — 37

American Poet to Live in Lebanon

Barbara Young, Friend of Kahlil Gibran, to Make Her Home in Becharre and Write a Biography of the Poet of the Cedars

Plans Annual Dramatization of "The Prophet" in English for the Benefit of Pilgrims

By ALICE MOKARZEL

مطلع حديث أَليس مكرزل مع باربره يونغ، كما صدر في «العالم السُوري» (ص ٣٧ – العدد ٧ – نيسان ١٩٣٢) ضمن ملحقٍ خصصه سلوم مكرزل في هذا العدد لمرور سنة على غيابه صديقه جبران.

٧ عن مجلة «**العالم السُوري**» – نيويورك – السنة السادسة – العدد السابع – نيسان ١٩٣٢ (ص ٣٧ –٤١).

باربره يونغ وإِندرو غَرِيْب

بين لقاءات كثيرة عقدتُها في الولايات المتحدة مع مَن عرفوا جبران شخصيًّا في سنواته الأَخيرة، ونشَرتُها تباعًا في مجلة «النهار العربي والدولي»[١] ثم أَصدرتُها لاحقًا في كتاب[٢]، زرتُ إِندرو غَرِيْب[٣] أَوَّلَ مَن ترجم مِن جبران، على حياته، نصوصَه العربية إلى الإنكليزية بموافَقَة خطية من جبران.

طويلًا كان حديثي معه عن علاقته بجبران، أَقتطف منه هنا ما تَذَكَّر لي[٤] عن علاقته بِباربره يونغ.

علاقته مع جبران...

عن مناسبة لقائه جبران، قال لي:

- ذات يومٍ من ١٩٢٦ قرأْتُ لجبران في جريدة «مرآة الغرب» مقطوعةَ «وعَظَتْني نفسي». أَعجَبَتْني فترجَمْتُها إلى الإنكليزية ونشرتُها هنا في جريدتنا

١ بين ١٩٨٣ و١٩٩٠.

٢ «جبران خليل جبران - شواهدُ الناس والأَمكنة» - منشورات درغام - بيروت ٢٠١٢.

٣ صباحَ الأَحد ١٧ حزيران ١٩٩٠ في بيته: بلدة تْشيكوبِّـي قرب مدينة سْپْرِنْغفيلد - ولاية ماساشوستس.

٤ كان يومَها في الثانية والتسعين. وهو وُلد سنة ١٨٩٨ في عيتا الفخار (جنوب لبنان) وتوُفِّي في سْپْرِنْغْفيلد (ماساشُوسِتْسْ) نهار الأَحد ١٢ آذار ٢٠٠٠، عن مئةٍ وسَنَتَيْن.

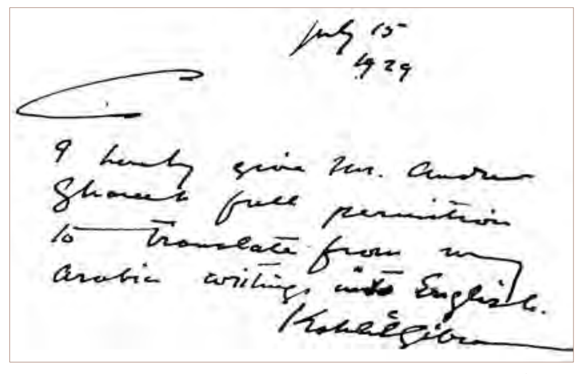
المحلية «سْپْرِنْغفيلد ريـپَـبْـلِكان» (*Springfield Republican*) مع مقالٍ عن جبران. أَرسلتُ الترجمة إلى صديقي ميخائيل نعيمه في نيويورك – وكان له مكتب في مجلة «السائح» لعبدالمسيح حدَّاد – فأَجابَني برسالةِ رضىً وتهنئةٍ مرفَقَةٍ بقصيدتَين له إنكليزيَّتَين لأَنشرهما في «سْپْرِنْغفيلد ريپَبْلِكان». بعد أَيام دعاني إلى الغداء في نيويورك وَعَرَّفَني بنسيب عريضة الذي لَمستُ لديه، منذ ذاك اللقاء، تعلُّقَه بجبران ووفاءَه له. سنة ١٩٢٨ قرأْتُ لجبران كذلك في «مرآة الغرب» مقطوعة «أَيُّها الليل» فترجمتُها إلى الإنكليزية وأَرسلتُها مُجدَّدًا إلى نعيمه فأَطْلَعَ جبرانَ عليها وكَتَب إليَّ: «جبران أَحَبَّ ترجمتَكَ وسأَلَني عنكَ فأَخبرتُه أَنك لبنانيٌّ تُحبّ كتاباتِه وتنقُلُها إلى الإنكليزية، فقال إنَّ ترجمتَك قريبةٌ جدًّا من الأَصل، وطلبَ أَن يتعرَّف بكَ». بعد شهرٍ كنتُ في نيويورك، وتوجَّهتُ بعد الظهر إلى لقاء نعيمه في مكتب «السائح» (٢١ ركتور ستريت في أَسفل مانهاتن) وصدف عند وصولي أَنْ كان يهاتف جبران. أَخبَرَه أَنني معه في المكتب فسأَله جبران أَن أَذهبَ إليه. وهكذا كان: سريعًا بالصابواي إلى الشارع العاشر غربًا، فإلى المبنى رقم ٥١، الطابق الأَعلى حيث جبران. كان بابه مفتوحًا (كما لاحظتُ دائمًا في ما بعد). استقبلَني بمريول الرسم. كان وحدَه. أَذكرُه لحظَتَئِذٍ كأَنه الآن أَمامي: شُحُوبٌ في وجهه، أَناقةٌ في مظهره، بعثَرَةٌ في الستوديو (كان يدعوه «الصومعة»)، موقدةٌ هَرِمَةٌ في الوسَط مُمتلئةٌ رمادًا عتيقًا باردًا. سأَلني عني، عن عملي، عن عائلتي، عن تفاصيلَ كثيرة. كان حنونًا في أَسئلته، حانيًا في إِصغائه، كأَنَّ أَمري يَهمُّه جدًّا. فهمتُ في ما بعد أَنه هكذا كان دومًا كثيرَ الاهتمام بِمواطنيه اللبنانيين. شعرتُ أَنَّ استئْناسَه بي وبترجماتي كتاباتِهِ العربيةَ يعود في جزءٍ منه إلى كوني لبنانيًّا. ثم سأَلَني أَن أَقرأَ عليه ما ترجمتُ له. أَصغى بصمتٍ عميقٍ وتَأَثُّرٍ شديد. عند قراءتي مقطوعتَه «الشُهرة»، حين وصلتُ إلى السطر الأَخير: «... فلم أَجد على الرمل سوى عَمَاي»، أَعجبَه أَن أُترجم كلمته العربية «الجهل»: «العمى» بالإنكليزية فقال لي: «هذا بالضبط ما أَردتُ قَوله. أَنتَ ترجمتَ فكْرتي لا كَلِمتي. أَنا

سعيدٌ بترجمتِك». وقام فأَهداني نسخةً من كتابه الجديد «يسوع ابن الإنسان» وكتبَ لي عليه إهداءً بالعربية «مع أَحسن تمنياتي الى اندراوس عيسى الغَرِيب». قبل انصرافي سأَلَني باهتمامٍ عن صورة هالَتِهِ في الجالية اللبنانية ووقْعِ كتاباته في أَهلها وماذا يقولون عنه وعنها. كان شديد الحرص على رأْيِ الناس فيه، وبقيَ على ذينِك الحرص والتسآل في جميع زياراتي اللاحقة إِليه. ذات زيارةٍ أَهديتُه من مَجموعتي الخاصة كتابًا قيِّمًا قديمًا نادرًا، فيه رسومٌ وأَشعارٌ فارسية قديمةٌ أَعرف أَنه يقدِّرها. شكَرَني بعُمقٍ بالغ وقام فأَهداني نسخةً من طبعةٍ جديدة لـ«النبي» كانت صادرةً حديثًا، كتب إِهداءَه إِليَّ بالعربية.

Presentation Copy Signed
In Arabic from the Author,
KAHLIL GIBRAN
To his friend
ANDREW GHAREEB
1928

إهداء جبران (بالعربية) صديقَه إندرو كتابَ «يسوع ابن الإنسان» (١٩٢٨)

في زيارتي إِياه نهار الإثنين ١٥ تموز ١٩٢٩ سأَلتُهُ إِذا كان راضيًا عن عملي. لم يناقشْني مرةً في أَيِّ كلمةٍ من ترجماتي نصوصَه. طلبتُ منه أَن يُعطيني إِذْنًا خَطِّيًّا بترجمة مجموعةٍ من نصوصه العربية إِلى الإِنكليزية. لم يتردَّد لحظةً. قام إِلى طاولته وكتب لي بالإِنكليزية إِذْنًا ووقَّعه. وجعلْتُ أَنشرُ ترجماتي إِلى


July 15
1929

I hereby give Mr. Andrew Ghareeb full permission to translate from my Arabic writings into English.
Kahlil Gibran

تفويضُ جبران إِلى إندرو ترجمةَ نصوصه العربية إِلى الإِنكليزية (١٥ تموز ١٩٢٩)

الإنكليزية نصوَصه العربية في جريدة «سْپرِنْغفيلد ريپَبْلِكان» وفي المجلة الشهرية «غولدن بوك ماغازين» *The Golden Book Magazine* (نيويورك). وحين أَرسلتُ إِلى هذه الأَخيرة ترجمتي مقطوعةَ «الأَرض» طلَب مني رئيس التحرير أَن ينشر الأَصل العربي مع ترجمتي الإِنكليزية. أَرسلتُ له النصّ العربي منشورًا في مَجلَّة «السائح» فصدر مقلوبًا لأَن عامل المطبعة لم يكن يعرف العربية. حَزِنَ جبران لكنه تفهَّم الأَمر ولم يغضَبْ. كان سَموحًا ومنشغلًا دائمًا بغامضٍ آخَرَ كأَنَّه ينتظره ولم يأْتِ بعد.

في زيارتي قبل الأَخيرة وعَدْتُه بأَن أُترجم إِلى الإِنكليزية مقطوعته «الصوفي» وأَن أُطْلعَه على جميع ترجماتي نصوصَه العربية إِلى الإِنكليزية. رحَّب بالفكرة واتَّفقْنا على أَن أَزوره الجمعة في ٢٠ آذار (١٩٣١). نهارئذٍ، وأَنا في طريقي إِليه مساءً (لم أَكن أَدري أَنَّ تلك ستكون زيارتي الأَخيرة) سمعتُ صوتًا يناديني في أَحد شوارع مانهاتن المكتظَّة. التفتُّ فإِذا به صديقي سَلُّوم مكرزل. قلتُ له إِني ذاهبٌ لزيارة جبران كي أُطلعَهُ على ترجمتي الإِنكليزية مقطوعتَه الجديدة «الصوفي» قبل أَن أُرسلَها إِلى «غولْدِن بوك ماغازين». أَصرَّ أَن يأْخُذَها وينشرَها في مجلته «العالم السُوري» (*The Syrian World*) فأَعطيتُه إِياها. أَكملتُ طريقي إِلى جبران، وكانت جِلسةً لنا طويلةً لم يتكلَّم خلالها كثيرًا بل كان يُصغي إِلى ترجمتي الإِنكليزية نصوصَه ولا يعلِّق. حين انتهيتُ بادرني: «سأَسعى إِلى ناشرٍ يُصدر لكَ هذا الكتاب. عملُكَ قريبٌ جدًّا من ذاتي. أَنتَ لم تترجِم جسَدَ الكلمات بل روحَها». وقام إِلى طاولته فأَتى بنسخة من كتابه الجديد «آلهة الأَرض» (كان صدَرَ في ذاك الأُسبوع بالذات) وكتَب لي إِهداءً وقدَّمه إِليّ واعدًا أَن يُهديني أَحدَ رسومه. لاحظتُ على وجهه شُحُوبًا غيرَ عاديّ.

إِهداء جبران صديقَه إندرو كتابَ «آلهة الأَرض» (٢٠ آذار ١٩٣١)

سأَلتُه إِن كان يشعر بأَلَمٍ أَو انزعاجٍ أَو مرَض، فأَشاحَ عن الجواب ببسمةٍ ذاتِ غصّة، وسأَلني كالعادة عن رأْي أَبناء الجالية بكتاباتِه. كان جوابي على حجم انتظاره وفضوله لمعرفة مدى شهرته الواسعة. عندها قال لي بصوت عميق: «يا إِندرو: كلُّ شهرتي بين أَهلنا، هنا في أَميركا كما في العالم العربي، لم تأْتِني بِمردودِ قرشٍ واحدٍ لِحقوقِ نشْرٍ أَو طبعٍ عن كلِّ ما نشرْتُه في العربية من مقالاتٍ وكُتُب. ينشرون لي ولا أَعرف. ينقلون مقالاتي وكتاباتي ولا يستأْذنونني. يطبعون مؤَلَّفاتي العربية ولا يُرسلون إِلَيَّ قرشًا واحدًا بينما أَنشر هنا بالإِنكليزية فيأْتيني مردودٌ من مقالاتي وقصائِدي في الصحف والمجلات ومن كتبي المنشورة لدى «كنوف». ولولا بَيعي بعضَ رسومي ولوحاتي لكنتُ الآن في عَوَز». ثم أَحنى رأْسه وغرِقَ في صمتٍ طويل.

قبل أَن أُغادره في تلك المسوية من آذار قال لي: «سأَسأَلُ أَلفرد كنوف إِن كان يُصدرُ ترجماتِكَ نصوصيَ الإِنكليزيةَ في كتاب. عُد إِليَّ بالمخطوطة كاملةً في آخر أَيلول، مطلعِ موسمِ النشر فأَكون كلَّمْتُه بالأَمر».

ودَّعتُه وانصرفتُ، وأَنا منشغلُ البال على شُحُوبه ووَهْن مِشْيَته، لكنني لم أَحدُسْ يومها أَن تكون تلكَ آخرَ مرَّة أَراه.

بعد ثلاثة أَسابيع، ظُهْر السبت ١١ نيسان ١٩٣١، كنتُ خارجًا من مقهى في سْپْرِنْغفيلد فسمعتُ بائع الصحف ينادي: «طبعة إِضافية... طبعة إِضافية لآخِرِ خبر». تقدَّمتُ منه وابتعتُ نسخةً من «نيويورك تايمز» فإِذا على صفحتها الأُولى من تلك «الطبعة الإِضافية» نبأُ وفاة جبران. كان لِموته وقعٌ مأْساويٌّ عليَّ وعلى الجالية اللبنانية.



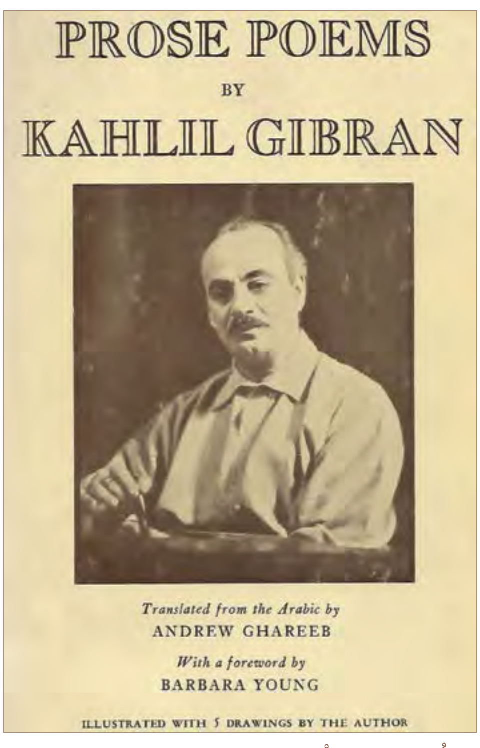
... وعلاقته مع باربره يونغ

أَصغيتُ إِلى إِندرو لاهثَ النفَس طوال حديثه. وخشيةَ أَن يتعبَ من الكلام فيتوقَّفَ قبل أَن أَعرفَ كيفية نشر مترجماته، بادرتُه:

- ولكن كنوف عاد فنشرَ كتابَك بعد وفاة جبران.

- (ببسمة حزينة): صحيح. ولكن كيف!!! بعد أَشهُرٍ على وفاة جبران حملتُ المخطوطة إلى كنوف فبادرني: «عليكَ أَن تُراجع باربره يونغ. هي اليوم الوكيلةُ على آثاره وهي منفِّذَةُ وصيّته». اجتمعتُ بها للمرة الأُولى (والوحيدة) في «صومعة» جبران وكانت معها ابنتُها. وجدتُها امرأَةً طويلةً على بدانة، قويَّةَ الشخصية، وكنتُ أَعرف أَنها لازَمَت جبران منذ ١٩٢٥ وعرضَت عليه أَن تكون سكرتيرتَه. اشترطَتْ عليَّ، كي تسمحَ بطبع كتابي لدى كنوف، أَن تكتُبَ هي مقدِّمةَ الكتاب. أَجبْتُها أَنَّ صديقي ميخائيل نعيمه طلبَ أَن يكتب هو المقدِّمة، فرفضَت في حدَّةٍ وقسْوةٍ وأَجابت صارمةً: «إذَن لن يَصدُر الكتاب ولن أَسمحَ لكَ بنشْره». قلتُ لها إنني أُصدِره عند أَيِّ ناشرٍ آخَر بما أَنني أَحمل تفويضًا خطِّيًّا من جبران، وأَرَيْتُها التفويض فانتفَضَت: «هذا يتيحُ لكَ الترجمةَ لا النشر. أَنا وحدي المُولَجَة بالنشْر، وأَنا أُعطي الإِذْن الأَخير». وقَعْتُ في حيرة: كان نعيمه عاد إلى لبنان سنة ١٩٣٢ وكنتُ أَنا أَيضًا أَتهيَّأُ للعودة إلى لبنان، فلم يعُد لي إلَّا القبول. وهكذا كان: صدَرَ الكتاب نهار الإثنين في ٨ تشرين الأَوّل ١٩٣٤ مع مقدمةٍ منها ذَكَرَتْني فيها بإيجازٍ عابرٍ أَنني نجحتُ «باستيعاب الأَصل العربي لروح جبران وبنقْل سحْره إلى الإنكليزية». وأَجرَت تعديلاتٍ على ترجمتي بعض المقطوعات (منها «أَيها الليل»)، ساكبةً عليها بعض النثرية مُـخَفِّفةً من ترجمتي الإنكليزيةِ شطحاتِ جبران الشاعريةَ كما كتبَها في الأَصل العربي. وبعدما عُدتُ إلى لبنان كان كنوف يرسل إليَّ حقوق الترجمة مرَّتين كلَّ عام (في أَول كانون الثاني وأَول تموز) بمعدَّل أَربعة آلاف دولار سنويًّا وهو مبلغٌ استمرّ يَرِدُني سنواتٍ طويلةً مع تكرار طبعات كتابي الذي أَصبح من مجموعة جبران الكلاسيكية، ويباع مع سائر كتبه الواسعة الانتشار.





غلافُ الكتاب وذكْرُ مقدمة باربره يونغ
(الطبعةُ الأُولى ٨ تشرين الأَول ١٩٣٤)

حيال صداقة إِندرو ونعيمه، ومعرفتي «الودَّ المفقود» بين نعيمه وباربره يونغ، حاولتُ استيضاح موقفِ نعيمه مباشرةً من إِندرو فأَجابني بدون تحفُّظ:

– لدى عودتي إِلى لبنان أَخبرتُ نعيمه بأَمر باربره يونغ فهزَّ برأْسه شاردًا. وفهمتُ أَنه كان على خلافٍ معها ويعتبُرها مسؤُولةً عن اختفاء وصية جبران الأُولى التي ذكَرَ فيها أَنه خصَّص مبالغ لأَصدقائه في «الرابطة»[٥]، فلم تظهَر بعد وفاته إِلَّا الوصيةُ الثانية وليس فيها أَثرٌ مما كان جبران ذَكَرَه لرفاقه في «الرابطة»[٦]. وقد يكون لباربره يونغ، بشخصيَّتها المتسلِّطة، ضلعٌ في نَص

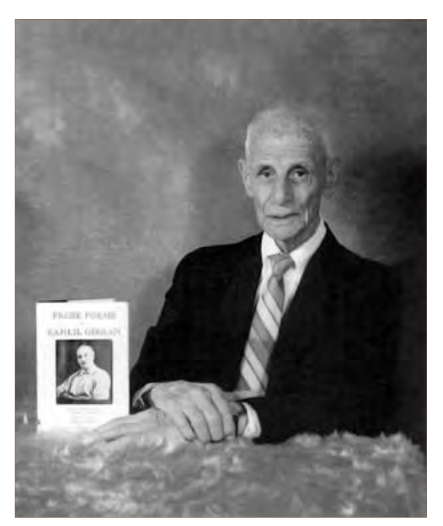
٥ أَسَرَّ لي إِندرو أَن جبران كان يساعدهُم مادِّيًّا بشكل شخصيّ فرديّ، ويدعم مؤَسَّساتهم الصحافية بشكلٍ دَوريّ، وهذا ما يفسِّر تَشَتُّتَهُم بعد وفاته، وتَوَقُّفَ مَجلاَّتهم وصُحفِهم، وبلوغَ الأَمر حدَّ خلافاتٍ شخصيةٍ بينهم، وعَودةَ نعيمه النهائيةَ إِلى لبنان.

٦ في كتاب نعيمه لاحقًا (١٩٣٤) عن جبران («جبران خليل جبران – حياتُهُ، موتُهُ، أَدبُهُ، فَنُّـهُ» – مؤَسَّسة نوفل – بيروت – الطبعة الثامنة – ١٩٧٨ – ص ٢٧٦–٢٧٧) ذكَر أَن جبران كتَبَ وصيَّتَين.

الوصية الجديدة[٧]. وهي بلغَت من الحدَّة أَنها، حين كان جبران يحتضر، استدعَت نعيمه إِلى المستشفى مُكْرَهةً عبر سَلُّوم مكرزل بعدما كان جبران دخل في الغيبوبة الأَخيرة فلم يَبلُغ منه نعيمه إِلَّا «غر.. غر.. غر..»[٨]. وبلغ بنعيمه نفورُه منها أَنه لم يُسَمِّها في كتابه بل ذكَر أَنها «شاعرةٌ أَميركية عرفَت جبران في سنواته الأَخيرة». وفهمتُ منه أَيضًا أَنها بعد غياب جبران «رابطَت» في محترفه مُتحجِّجةً بالخوف عليه من السرقة، وراحت تطبَع نُسَخًا من لوحاته وتبيعُها في معارض متفرّقة على اسم جبران بِحجّة تمويل مشاريعَ لطبع آثاره المخطوطة.



تلك كانت، في حديثي إِلى إِندرو غَريْب ذاك الأَحد ١٧ حزيران ١٩٩٠، مقاطعَ مما كان له مع باربره يونغ، حول كتابه «قصائد نثرية» الذي صدر في منشورات كنوف[٩] تتصدَّرُه مقدِّمتها، وهذه ترجمتُها الحرفية:



إِندرو غَريب وكتابُه يوم زرتُهُ في بيته (١٧ حزيران ١٩٩٠)

٧ هذا الأَمر نقَله إِندرو متأَثِّرًا برأْي صديقه نعيمه لأَن جبران في وصيته لم يذكر أَبدًا باربره يونغ. وهذا من التجَنّي لأَن الوصية كانت لدى مكتب المصرفيّ إِدغار سپاير ولم يكن أَحدٌ اطَّلع عليها. كان جبران كتبَها نهار الأَربعاء ٣٠ تموز ١٩٣٠ وكما يقتضي القانون أَقسم أَمام سپاير أَنه كتبها وهو يتمتع بكامل قواه العقلية، وأَرسل في تموز نسخةً منها إِلى شقيقته مريانا في بوسطن. وفُتِحت في مكتب سپاير نهار الجمعة ١٧ نيسان ١٩٣١ (بعد أُسبوع على وفاة جبران) بحضور مريانا وماري هاسكل وزكية جبران دياب.

٨ الكتاب ذاته، ص ١٧ إِلى ٢٢.

٩ Prose Poems by Kahlil Gibran – Translated from the Arabic for the first time by Andrew Ghareeb, with a foreword by Barbara Young – Alfred Knopf publisher – 1934 – New York – 96 pages

BEFORE SUICIDE

From the Arabic of Kahlil Gibran

By ANDREW GHAREEB

(Mr. Ghareeb's Arabic translations, which are familiar to readers of the SYRIAN WORLD magazine, appear frequently in the Springfield Republican of Mass. and the Golden Book Magazine of New York.

The following translation is published for the first time in the SYRIAN WORLD and is not to be reprinted without Mr. Ghareeb's permission. Ed.)

It was but yesterday in this solitary quiet room,
The woman sat whom my heart loved,
Upon these soft rose-colored cushions,
Her lovely head reclined,
And from a crystal cup partook a draught of wine,
Mingled with a drop of attar.

ترجمة إندرو غريب مقطوعة «قبل الانتحار»
صدرَت الترجمة الإنكليزية
في مجلة «العالم السُوري»
وصدر النصُّ العربي الأَصلي
في كتاب «العواصف» (١٩٢٠)

مقدِّمة باربره يونغ

قال جبران يومًا: «الترجمة فنٌّ مستقلٌّ في ذاته، سِرُّهُ إِعادةُ خَلْقٍ تُحَوِّلُ سِحْرَ لغةٍ إِلى سحرِ لغةٍ أُخرى».

أَن يقارب مترجمٌ كتاباتِ سيِّدٍ في أَيِّ لغةٍ، يعني أَن يواجهَ عمليةً ذاتَ صعوباتٍ معقَّدةٍ يُمكن تَخَطِّيها حين تَصدُر تلك الكتاباتُ ممهورةً بحكمةٍ ملهمةٍ وقوّةٍ سماويّة.

هذه المجموعة من القصائد النثرية[١٠] تصدر بالإنكليزية للمرة الأولى، تولَّاها المترجمُ عربونَ نذْرٍ مُخْلِصٍ وإِيمانٍ عميقٍ بقُوَّةٍ وأَهميةٍ في النصوص الأَصلية كما صاغها بالعربية جبران خليل جبران.

١٠ اختارت منها باربره يونغ للنشر ١٢ مقطوعة فقط بين مجموعةٍ نُصوص كثيرة كان إِندرو غَرِيب ترجمها وزوَّدها بها.

فهذا الشاعر، المولود في بْشَرّي من أَبَوين لبنانيَّـيْن قبل ٥١ سنة[11]، عاش حياةً غريبةً بوحدتها وانفرادها، مع أنه، في كل محطةٍ من حياته، كان ذا علاقاتٍ متعددة مع كثيرين: من بائعي الكشَّة إلى أَصحاب السُلطة. ثمة حالةٌ يستحيل تحديدُها واضحَةً، كان دائمًا وأَبدًا يعيشُها وحيدًا كما عاشها فقط عظماءُ قليلون مرُّوا على هذا الكوكب. لكنَّ نادرين بينهم واعون أَنّ جبران كان واحدًا من الكبار في تاريخ العالم. إن لديه إرثًا يرقى إلى أَسلافه الفينيقيين الكلدنيين، غنيًّا بسُلالات باهرةٍ من عباقرة ومثقفين نسَجَ جبران من فكرهم العريق ثوبًا ارتداه كرامةً وولاءً. من هنا أَن كلَّ نَقشةٍ من قلمه وكلَّ رُقشةٍ من ريشته، كانت وليدةَ قوّةٍ ملهَمَة. لذا لم يكتب سطرًا واحدًا عاديًّا أَو بدون نبض، فكان أَن ترَكَ على الورق والقماش ذخرًا من الكنوز الفريدة.

كتَب جبران تلك النصوصَ بالعربية القريبة إلى قلبه، مع أَن مهارته بالإنكليزية هي التي جعلت اسمه، منذ سنواتٍ، أَحدَ ستةٍ كتبوا أَسطَع لغة إنكليزية. وعند الإقرار أَمامه بتفوُّقه في اللغة التي تبنَّاها، كان يبتسم ويقول: «لستُ إلَّا ضيفًا على هذه اللغة. تعاملتُ معها باحترامٍ ولم تكُن لي دالَّةٌ عليها كما أَبناؤُها». إذًا، بهذا الاحترام العالي ذاته، كان على المترجِم أَن يقارب هذه المغامرة الكبرى بترجمة جبران إلى الإنكليزية. ثقافتُه العميقةُ وكِبَرُهُ ونُبلُ رؤْياه الروحانية تجعل المشروع جريئًا غير عاديّ. لذا أَجزُمُ أَنَّ أَيَّ ترجمةٍ تتناولُ نصوصَه إلى الإنكليزية لن تكونَ بالروعة التي كان سيأْتيها جبران لو هو ترجَمَها. جبران الإنكليزية مساوٍ جبرانَ العربية، وكلاهما مختلف كليًّا وجوهريًّا عن أَيِّ كتابةٍ إنكليزيةٍ أَو عربية أُخرى.

النصوص المترجَمةُ في هذا الكتاب ليست سوى محاولةٍ تقرُّبُ إلى عالَم الإنكليزية قصائدَ الشاعر النثريةَ الأُولى بالعربية في أُسلوبٍ جديدٍ تفرَّدَ به جبران وأَطلقه بذاك اللسان العربي العريق. فهو خلَق مدرسةً في أُسلوب الكتابة طالت

[11] كانت تكتُب هذه المقدّمة سنة ١٩٣٤، قبَيْل إرسال المخطوطة إلى كنوف لنشْرها.

الخيال العالي للشرق الشاعري العالي الثقافة، وبه عُرِفَ رائدًا في عالَم العربية المتَّسع إلى نحو ثلاثمئة مليون نسمة.

هذه الترجمة قام بها جادًّا وفيًّا مواطنٌ لجبران شابٌّ[١٢]، مريدٌ له جَذَبَتْه مسحةٌ صوفيةٌ لدى جبران فحاول إخراج الترجمة الإنكليزية بجمالها النادر في أَصلها العربي. وطرَّزَت هذا الجهدَ لمسةُ كاتبةٍ أَميركيةٍ عايشَت سنواتٍ إنكليزيةَ جبران، وسمعَتْهُ مرارًا يلقي تلك القصائد بالذات مسبِغًا عليها، بترجمتِه الخاصة، إنكليزيتَه الطلْقَةَ السلسة.

علَّ في هذه القصائد المترجَمة يبقى بعضُ الوهج من تلك النار المقدَّسة التي غذَّت أُصولَها العربية.

علَّ تُكتَشَف فتكشفُ بعضَ قبسٍ من وعي الشاعر عميقًا جمالَ الحياة وصدقَها، وإِيمانِه العلويِّ بأَنَّ «لنا الخُلود».

علَّها في بعض إِيقاعاتها الرائعةِ تَنبضُ بأَصداء نبضاتٍ في قلْب شاعرها.

هي ذي بعض آمال إندرو غَرِيب من هذه الترجمة، وآمالي.

فإن تمَّ ذلك يكون ناجحًا هذا العمل، لا ومضةً عابرةً تَتِيهُ في عالَمِ ومضاتٍ إلى زوال.

باربره يونغ

---

١٢ كان إندرو غريب فترَتَئِذٍ في السادسة والثلاثين.

أَيامُه الأَخيرة في نيويورك[١]

مفاجِئًا ومأْساويًّا كان موتُ شاعرنا الحبيب جبران خليل جبران. لفظَ نفَسه الأَخير في الحادية عشْرة إِلَّا عشْر دقائق ليلة الجمعة ١٠ نيسان ١٩٣١ في مستشفى سانت ڤِنْسِنْت – نيويورك، وكانَ نُقِل إِليه صباحَ اليوم ذاته.

في المستشفى، نحو الثانية بعد الظهر، دخل في غيبوبةٍ عميقة أَخيرة لم يَصْحُ منها. حول سريره: شقيقتُه مريانا وكانت وصلَت من بوسطن، وأَصدقاءُ مقرَّبون. وحتى آخر يومٍ قبل نقْله إِلى المستشفى كان جبران ذا عزمٍ واثق تميَّز طوال حياته بسيطرة فكْره على جسده. فحتى الخميس كان يعمل على إِنجاز رسوم وكتابات. وكان في محترفه، على الشارع العاشر غربًا، ذا ورشة عمل متواصل لا يهدأ.

سوى أَنه، صباح الخميس، كانت السيدة آنَّا جوهانْسِن (المسؤُولة عن خدمات المبنى) حملَت إِلى جبران فطورَه البسيط على عادتها كلَّ صباح، فذُعرَت من وهْنه الجسدي. هاتفَت السيدة ليونوبِل جاكوبْس (جارة جبران سابقًا سنواتٍ طويلةً في المبنى) فهرعَت هذه فورًا إِلى المحترف ومعها طبيبٌ مختص أَمَرَ بنقل المريض إِلى المستشفى. لكنَّ جبران، بعزْمه العنيد، وافقَ أَن ينتقل إِلى المستشفى إِنما صباح الجمعة.

---

١ عن مجلة «العالم السُوري» العدد الخامس، نيسان ١٩٣١، ص ١٩ إِلى ٢٢.

بُعيدَ ظهر الخميس وصلَت باربره يونغ إلى المحترف وأَقلَقَها وضْعُه المنهار، فبقيَت عنده وحَدَّثَها عن اهتمامه بما يعمل عليه: مؤَلفات ينوي كتابتها، ورسوم ينوي إنجازها.

في الثامنة والنصف مساءً عادت السيدة جاكوبْس ومعها الطبيب، فعاد جبران يصرُّ أَلَّا يذهب إلى المستشفى إلَّا صباح الجمعة.

ليلة الخميس ظلَّ حتى ما بعد منتصف الليل يحدِّث باربره يونغ عن بلاده الحبيبة، عن أُمه، شقيقته مريانا، عن رسوم له يريد إنجازها، وقال لها: «على هاتَين اليدَين إنجازُ أَعمال مهمَّة قبل استراحتِهما»، ثم غطَّ في نومٍ غيرِ مستقِرّ.

صباح الجمعة، فيما وصل الممرضون لنقله إلى المستشفى، لاحظ ذعرًا وقلقًا على وجه باربره يونغ فبادرها: «لا تخافي. أَنا بخير». بلغَ المستشفى عند العاشرة والنصف فاستُدعي له فورًا طبيبُ الطوارئ. وكانت مريانا تبلَّغَت الخبر فهرعَت إلى أَول قطار من بوسطن، برفقة نسيبَيها: روز دياب

HERALD TRIBUNE

Kahlil Gibran, Philosopher and Poet, Dies at 47

'Genius of the Age' to the Arabic-Speaking World, Succumbs at St. Vincent's

Wide Following in U. S

Rodin, Bragdon Acclaimed Him as Writer and Artist

(Reprinted from yesterday's late editions)

Kahlil Gibran, Syrian poet, philosopher and artist, died in St. Vincent's Hospital Friday night of a tumor of the abdomen. He was forty-seven years old. Mr. Gibran had a studio at 51 West Tenth Street. He was unmarried. Surviving is a sister, Miss Marianna Gibron, of Boston.

Kahlil Gibran was to some 60,000,000 persons whose tongue is Arabic the genius of the age. But he was a man whose fame and influence spread far beyond the Near East. He painted the great figures of the western world and exhibited his work at the Paris Salon and in New York. His writings have been translated into twelve languages. Two years ago his birthday was celebrated by admirers in countries from Germany to South America.

Had Wide Following in America

وفاة جبران كما ظهرت في الصحافة النيويوركية

Kahlil Gibran, Arabian Genius, Dies in New York

Kahlil Gibran, philosopher, poet and painter, who was regarded by the Arabic speaking world as the genius of the age, died today in New York at the age of forty-seven. He had lived in the United States since young manhood. Among the eminent persons whose portraits he painted were Rostand, Sarah Bernhardt, Charles W. Eliot, Edwin Markham and Auguste Rodin, who compared his drawing and poetry with the works of William Blake. In the last twelve years Gibran wrote mostly in English. Among his works in that tongue are "The Madman," "The Forerunner," "The Prophet" and "Sand and Foam."

وزوجها عساف جورج، فلم تصِل إلى شقيقها إلَّا بعد دخوله في الغيبوبة الأَخيرة بلا أَملٍ أَن يفتح عينَيه ليراها.

بُعَيد الظهر جرى كشْف طبي آخَر واستُدعي إلى سريره على عجَلٍ طبيبٌ اختصاصيّ. إنما لم يعُد من أَملٍ بِصَحْوَة. كان صراعه مع المرض استنفد آخر نبْض من قواه. انهار غائبًا كليًّا عن الوعي حتى لم يعُد أَيُّ عملٍ طبي يمكنه بعدُ أَن يُنقذَه.

في الخامسة اتصلَت باربره يونغ بمكتب مجلة «العالم السُوري» وأَخبرَت رئيسَ تحريرها (سلوم مكرزل) عن حالة جبران معتبرةً من واجبها أَن تُعْلم أَصدقاء جبران بخطورة وضْعه.

انتشر الخبر مفاجئًا أَصدقاءَ جبران: فقبل أَيام قليلة كان زاره سلُّوم مكرزل وسمع منه كلامًا متفائلًا، بصوتٍ ملْؤُهُ العزم والأَمل. كان كتابه الجديد «آلهة الأَرض» صدَر حديثًا، وقال له إِنه يعمل على كتابٍ جديد ليصدُر في الخريف[٢].

هذا الشعور المؤْلم انتابَ سلُّوم مكرزل من هَولِ حدثٍ يحصل لرجل عظيم على المستوى الوطني. اتصل بميشا نعيمه، وهرع وإِياه إلى المستشفى ليفاجَأَ، مصدومًا، بأَن جبران لم يعد واعيًا. وجَد في الغرفة السيدات باربره يونغ، آدال واتسون، ليونْبِل جاكوبْس، وزوجة وليام براون مالوني، وهنَّ كاتبات وفنانات أَميركيات معروفات كنَّ رافقْنَه في سنواته الأَخيرة. كان باديًا على وجوههِنَّ حزن فاجع كأَن لم يصدِّقن أَن الموت يمكن أَن يخطف جبران. فهو لهنَّ، ما لكل لبناني وسوري، أَخٌ فقدانُه خسارةٌ بليغة.

٢ هو كتاب «التائه». كان جبران وقَّع على العقد لتأْليفه مع ناشره النيويوركي كنوف في تشرين الثاني ١٩٣٠ كي يَصدر في خريف ١٩٣١. أَرسل مخطوطته الاثنين ١٦ آذار إِلى ماري هاسكل كي تنظر فيها. وصلتْها الثلثاء ٣١ آذار. كتبَت إِليه السبت ٤ نيسان: «منذ الثلاثاء أَقرأُ مخطوطة «التائه» بكل تأَنٍّ». والإِثنين ٦ نيسان كتبَت إِليه: «سعيدةٌ جدًّا بكتابك الجديد. أَنهيتُ قراءة مخطوطته وسأُعيدُها إِليكَ قريبًا جدًّا». لكنَّ هذا الـ«قريبًا جدًّا» تأَخَّر، فجبران لم يعِشْ كي يرى مخطوطتَه مصحَّحة إِذ توفّي بعدذاك بأَربعة أَيَّام. وبعد وفاته بأَشهُرٍ صدر الكتاب سنة ١٩٣٢ بعناية باربره يونغ التي أَلغَت جميع تصحيحات ماري هاسكل وأَعادت النص إِلى أَصله كما كان كتبَه جبران.

توتُّرُ أُولئِك السيِّدات الأَميركيات الأَربع كان صاعقًا: معقولٌ أَن النور لن يشعَّ بعد اليوم من عينَي جبران، وصوتَه لن يعود يُخاطبُهن بكلماته الدافئة الحنون؟ حاولْن مخاطبته في لغته الخاصة آملاتٍ أَن يتجاوب مع إِنعاشه بذكريات شبابه، إِنما بدا واضحًا أَن اللغة الوحيدة التي يفهمها جبران لحظاتِئِذٍ كانت نداء الملائكة.

اتصلت إِدارة المستشفى بالخورأُسقف منصور واكيم، راعي أَبرشية مار يوسف المارونية في نيويورك، فوصل ليجد جبران دخل في غيبوبته الأَخيرة.

انتهى عبورُ جبران الأَخيرُ في هدوءٍ وصمْتٍ وبدون أَلَم. كان إِلى سريره عند ذاك النفَس الأَخير: باربره يونغ وميشا نعيمه، وفي غرفة الانتظار المجاورة: السيدات جاكوبس ومالوني وواتسون مؤَاسياتٍ شقيقتَه مريانا ونسيبَيها، في انتظارِ أَملٍ، ولو هارب، يعيدُ إِلى الحياة هذا الشقيقَ والصديق.

صباحَ اليوم التالي، السبت ١١ نيسان، صدرَت صحافة المدينة بأَعمدةٍ مطوَّلة عن حياة جبران، وأَذاعت نبأَ موته على العالم وكالةُ «أَسوشياتِد پْرس».

قبل ظهر السبت في المحترف كان المشهد مؤَثِّرًا جدًّا: مريانا تنتحب مستذكرةً لحظاتٍ مع شقيقها مبلَّلَةً بدموعٍ لا تتوقف، منتقلةً إِلى عيون المحيطين بها يومذاك. هنا كتبُه، رسومُه، منحوتاتُه الخشبية، أَغراضُه الكثيرة في الزوايا، جدرانياتُه ذاتُ الرسوم الدينية معلَّقة على الجدران، أَدواتُ عمله: أَقلامُه، ريشاتُه، كلُّ ما يرمز إِلى عمق إِيمانه ومعتقده الروحي، أَوراقٌ كثيرةٌ مكدَّسةٌ على طاولته أَو منتثرة حولها على الأَرض والرفوف، علبةُ سجائر فارغة كتَب جبران على كرتونها عبارة بالعربية: «قد يكون الوهْنُ قمة الطموح». لدى رؤْية تلك العلبة قالت مريانا: «كان أَخي يمنعني من رمي علب السجائر الفارغة أَو قُصاصات الورق. كان يكتب أَفكارًا وكلماتٍ على أَيِّ ما يقع تحت يده».

طيلة السبت والأَحد بقي الجثمانُ في قاعة بيت الموتى (على جادة لِكْسِنْغْتون) محاطًا بأَكاليل الأُوركيد والزنبق، يتوافد حوله بدون انقطاعٍ لإِلقاء النِظرة الأَخيرة مئاتُ الخاشعين الواجمين، منهم أَصدقاء مقرَّبون، وأَكثرُهم معجبون لم يسبق أَن

رأَوا شخصيًا ذاك المبدع الموهوب من الشرق، إنما جاؤُوا ليودِّعوه تقديرًا لكتبه وكتاباته. من جميع الجنسيات جاؤُوا، بصمتٍ واحترام، لأَن شهرة جبران لم تقتصر على جمهور لغةٍ واحدة أَو عِرقٍ واحد، فبَين كتُبه ما تُرجِم إلى نحو عشرين لغة. كانوا من نخبة الأَوساط الأَدبية والفنية الأَميركية وغير الأَميركية، بينهم السيدة كورين روزفِلت روبنسُن التي نهضت من سرير مرضها كي تزور جثمان صديقها، ليونورا سْپايِر، روز أُونيل، مارغريت سانْغِر، أَليس رافايل، ناتالي سِدْغْويك كولْبي، وحملَت روز أُونيل رسائل أَسَف وتعزية من ويتِر باينر، دانيال لونغ، أُوريك جونز، وهم شعراء وأَصدقاء من حلقة جبران في سنواته السعيدة.

صباح الإثنين تمَّ نقْل الجثمان إلى بوسطن لدفنه في المقبرة التي تضم رفات أُمه. ورافق شقيقتَه المفجوعةَ أَصدقاء أَميركيون وأَعضاء من «الرابطة القلمية»، الحلقة الأَدبية التي أَسسها جبران وكان عميدَها[٣].

Boston, December 24, 1898.

Rev. Dear Sir:

You are respectfully invited to be present at the Dedication of Our Lady of the Cedar of Lebanon, The Syro-Maronite Chapel, 66 Tyler Street, City, by His Grace Archbishop Williams, Sunday, January 8th, 1899, at 10 o'clock, a. m.

Yours sincerely,

JOSEPH YAZBEK,
Rector of Mission.

An early answer is requested.

وثيقة تكريس كنيسة سيدة أرز لبنان
«السريانية المارونية»
في شارع تايلِر حيث كان جبران ساكنًا
وهي الكنيسة التي تم فيها جناز جبران.
الوثيقة دعوة بتاريخ ٢٤ كانون الأَول ١٨٩٨
لحضور تكريس الكنيسة في ٨ كانون الثاني ١٨٩٩.

٣ صدر هذا النص في «العالم السُوري» بدون توقيع. لكنني، من الحنان الجَمّ في أُسلوبه ودقَّة المعلومات فيه، أُؤَكّدُ أَنه من كتابة باربره يونغ لأَن مقاطعَ كاملةً منه عادت فصدرَت حرفيًا في كتابها «هذا الرجل من لبنان» سنة ١٩٤٥.

ساعاتُه الأَخيرة كما عايَنَتْها باربره يونغ

الخميس ٢٣ نيسان ١٩٣١ (أَي بعد ١٣ يومًا على وفاة جبران) كتبَتْ باربره يونغ رسالة إِلى السيدة مارْغَرِت لي كْروفتْسْ[1] تصف فيها الساعات الأَخيرة من حياة جبران بين خروجه الأَخير من المحترف ووفاته في المستشفى. وهي الشهادة الوحيدة الموثَّقة لتلك الساعات الصعبة لأَن باربره آخر مَن كان معه بعدما عاشت لديه سبع سنوات، ولفظ نفَسَه الأَخير مغمِضًا عينيه أَمام عينيها.

ممَّا جاء في الرسالة:

«... أَمضى جبران الأَسابيع الأَخيرة ملازِمًا فراشَه معظم الأَيام، لا يرتدي ثيابه إِلَّا نادرًا جدًّا للخروج عند الضرورة. أَمضيتُ معه عشيةَ الفصح (السبت ٤ نيسان ١٩٣١) وبدا على بعض تحسُّن: كان صوتُه جامدًا، نهضَ من فراشه ومشى بضع خطواتٍ. كان ناحًلا هزيلًا، ونظراتُه غائرةً في ذاك وجهه العذب.

كنتُ اعتدتُ أَن أُهاتفَه يوميًا.

---

[1] كانت تستضيفُه وزوجها فردريك إِلى منتجعهما الصيفي في ستامفورد (كونيتيكت). وضع لها جبران أَكثر من رسم «لوجهها الوهَّاج» (كما كان هو يسمِّيه). وهي اشترت عددًا من لوحاته ورسومه. كان زوجها فردريك اشترى من الناشر أَلفرِد كنوف قسمَ النشْر المدرسي. وفي ذاك المنتجع الصيفي الهانئ «كنتُ أَسترجع ملامح من مغاني طفولتي»، كما قال لماري هاسكل فدوَّنَتْه في دفتر يومياتها (الجمعة ٢٣ أَيار ١٩٢٤).

صباح اثنين الفصح (٦ نيسان) اتصلتُ به. كان صوته عاديًّا. قال لي إِنه سيستقبل مساءً بعض الأَصدقاء السوريين.

الثلثاء كان صوتُه ضئيلًا. قال لي إِن لديه رسائلَ يودُّ أَن يُمليها عَلَيّ، وبعدها سينام باكرًا. قلت له إِنني في الغد (الأَربعاء) سأَكون خارج المدينة إِذا كان يشعر أَنه مرتاح. ضحك وأَجابني: «سأَكون مرتاحًا».



مستشفى سانت فنسنت

من هذا الباب خرج نعش جبران إِلى «بيت الموتى» في مانهاتن – نيويورك صباح السبت ١١ نيسان ١٩٣١.

الخميس اتصلتُ به فَأَرعَبَني صوتُه. هرعتُ لديه مذعورةً فوجدتُ أَن زوجة ناطور البناية[٢] اتصلَتْ صباحًا بالسيدة ليُونْبِل جاكُوبْس[٣] فاستدعَت هذه على عجَلٍ طبيبًا فَحَصَهُ ونَصح بضرورة نقْلِه صباحَ الجمعة إِلى مستشفى سانت ڤِنسِنْت. أَمضيتُ ليلةَ الخميس إِلى سريره أَقوم بما يمكنني فعْله لهذا الغالي الحبيب. كان يحدِّثني قليلًا ويغفو قليلًا، ويبدو مَرِحًا ما استطاع.

صباحَ الجمعة، قبل دقائقَ من وصول سيارة الإِسعاف، تبدَّل فجأَةً بشكل مخيف. وفيما كنتُ أُساعده على النزول إِلى درج الطبقات الثلاث، لاحظ ذُعري الشديد فقال لي: «إِبقَي معي. لا تتركيني. ولا تخافي، سأَكون بخير».

كانت تلك آخرَ كلماتٍ تلفَّظ بها واعيًا قبل أَن يَدخل في الصمت الكبير بضعَ ساعاتٍ ليلفظَ نَفَسَه الأَخير تلك الليلة عند الحادية عشرةَ إِلَّا عشر دقائق. أَرسلتُ برقيةً عاجلة إِلى شقيقته مريانا في بوسطن، فلم تتمكَّن من الوصول إِلَّا عند الثامنة مساءً وكان جبران دخل في غيبوبته الأَخيرة».

---

٢ السيدة آنَّا دْجُوهانْسِنْ، وكانت تحمل إِليه يوميًّا فُطورَه الصباحي.

٣ كانت وزوجها من سكان المبنى ذاته مدة طويلة. وهي كاتبة ونحاتة وأُستاذة فنون ورسَّامة معروفة برسم الوجوه. وضعَت رسمًا لوجه جبران وعرضَتْه في أَحد معارضها. ثم نشرَت هذا الرسم لاحقًا في كتابها «ثلاثون رسمًا لكُتَّاب وشُعراء» (١٩٣٧).

مأتمُه في بوسطن

بقلم باربره يُونغ

في جَوٍّ من الحب المَنسوجِ حُزنًا أَبعدَ مما يُمكن وصفُه بالكلمات، كان استقبالُ جثمان جبران في بوسطن عند المحطة الجنوبية في قطار الساعة الخامسة بعد ظُهر الاثنين ١٣ نيسان ١٩٣١. كانت أَرصفةُ المحطة وقاعاتُ الانتظار مُـمتلئَةً بمئاتِ باكينَ جاؤُوا يستقبلون جثمانَ شاعرهم الحبيب، على كل ثَغر منهم تَمْتَمَةٌ واحدة: «حبيبي».



بوسطن – شبان لبنانيون يحملون نعش جبران خارجين من محطة القطار الجنوبية لدى وصوله من نيويورك

صديقُ جبران كاهنُ رعية «سيدة الأَرز» في بوسطن الخورأُسقف أسطفان الدويهي بإِسْكيمه الكهنوتي، كان منتظرًا وُصولَ مريانا جبران وأَنسبائها وأَميركيين وسوريين رافقوا الجثمان من نيويورك. عند إِخراج النعش تقدَّم جمعٌ من أَعيان بوسطن، يتقدمُهم الياس ف. شمعون، صديقُ جبران ومستشارُهُ القانوني[1]، لَفُّوا النعش بالعَلَم اللبناني الجميل وحملوه على أَكتافهم إِلى شارع نيوتُن غربًا حيثُ مركز «جمعية سيِّدات المساعدة اللبنانيات–السوريات». وفي قاعتها الكُبرى تقاطرَت حول الجثمان البارد مئَاتُ قلوبٍ حارّةٍ ووجوهٍ كئيبةٍ جاءت تتأَمَّل وجهه الهادئ، وتعبِّرُ عن حزنها الجارح بدموعٍ حارقةٍ وكلماتٍ حنونة ودافئة.

وأَبلغَ من أَيِّ تعبيرٍ يتَّسع له كلامٌ كانت صفوفٌ طويلةٌ طويلةٌ لمُعَزِّين من كلِّ عمرٍ ومكانٍ ينتظرون دورَهم في مَمَرّ الغرفة الطويل، الخفيضَةِ الضوء، المُسَوَّرةِ بأَكاليل الزهور، الصامتةِ وسْط شموعٍ يرتعش لُهاثُها عند مقدِّمة النعش وأَسفله، فيما حول النعش على الصفَّين شبَّانٌ من نادي بْشَرّي، مسمَّرون في وِقْفَتهم ساعاتٍ طويلةً بقيةَ النهار فالمساء وطوال الليل يَحرسون مُواطِنَهم الغافي.

---

[1] قاضٍ لبنانيٌّ أَميركيٌّ من أَعيان بوسطن. حضورُهُ المأْتمَ شكَّل لاحقًا موضوعَ جدلٍ سنة ١٩٥٣ مع الشاعر يوسف الخال (كان عامئذٍ في نيويورك يعمل مترجمًا لدى الأُمم المتحدة) إِذ نشَرَت له مجلةُ «هيرالد» (واشنطن) في عدد نيسان ١٩٥٣ (ص ٥) مقالًا منقولًا عن «نشرة الشرق الأَدنى» يُؤكّد فيه الخال أَنَّ الكنيسة المارونية عاقبَت جبران بالحُرْم الكنسيّ على مقالاته العربية ضد الإِكليروس. فأَجابه القاضي شمعون من بوسطن في العدد التالي من المجلة ذاتها (أَيار ١٩٥٣ ص ٧) ناقضًا ادِّعاءَ الخال ومُؤَكِّدًا، لقُرب علاقته بجبران صديقًا ومستشارًا قانونيًّا له طيلة سنوات، أَنَّ جبران لم يكن مُلْحدًا ولم تَحرُمْه الكنيسة، وفي مرضه الأخير هو الذي طلب نقله إِلى «مستشفى الرحمة» (مستشفى سانت ڤِنْسِنْت في نيويورك) الذي تُديره «راهباتُ المحبة». فـ«هو إِذًا لم يكن فِرِّيسيًّا بل مُؤْمنًا بربِّه في صمتٍ، بعيدًا عن الطقوس الإِكليريكية». وإِذ ردَّ الخال مؤكِّدًا الحُرم عاد شمعون فَردَّ على الخال بعنف (ص ٧ في عدد تموز ١٩٥٣) واصفًا المأْتمَ بكامل طقوسه الدينية في كنيسة «سيِّدة الأَرز» برئاسة الخورأُسقف أسطفان الدويهي الذي قال لشمعون إِنَّ جبران لم يكن ولا مرةً واحدةً في حياته محرومًا في الكنيسة المارونية، وإِن رؤَساءَها أَوعزوا إِلى مَن يلزم بتأْمين مراسم الجنَّاز كاملةً في كنيسة مار جرجس–بيروت، وبمرافقة الجثمان إِلى بْشَرِّي حتى وضْعِه في دير مار سركيس للآباء الكرمليين. وجاء وصفُ شمعون مراسمَ مأْتم جبران في بوسطن مطابقًا تمامًا وصفَ باربره يونغ إِياه كما ورد في هذا المقال.

في اليوم التالي، الثلثاء، شَقَّ الموكبُ المَهيبُ شوارعَ المدينة بلُوغًا شارعَ تايلِر حيث كنيسة «سيدة الأَرز»، وسْط صفوف كثيفةٍ من الواجمين الذين بينهم مَن كانوا، عند مرور النعش أَمامهم، يَخُرُّون راكعين على الرصيف يُصلُّون، فيما رجالُ شرطةِ السير البوسطنيون يقفُون ويُؤَدُّون التحية لمرور النعش المغمور بالعَلَم.

ضاقت الكنيسة الصغيرة بمئَات الأَصدقاء، ولم يَجِد معظمُهم مقاعدَ داخلها فوقفوا خارجًا إِلى جدرانها صامتين يُصغون إِلى مراسم المأْتم الذي ترأَّسه الخورأُسقف الدويهي وسط تراتيلَ شَجِنَةٍ مؤَثِّرةٍ من الجناز الماروني، وصوتٍ شجيٍّ جميلٍ صدَحَ مرافقًا الأُرغنَّ الصغير، كان صوتَ الصبية نجيبة مراد التي كان جبران مرارًا يحب أَن يُصغي إِلى غنائِها مؤْمنًا بموهبتها واثقًا من مستقبلها الفني.

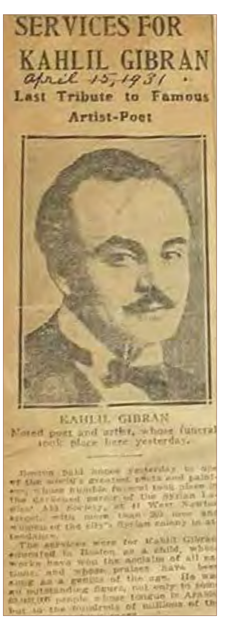


بوسطن – نعش جبران في محطة القطار الجنوبية قبل نقله إِلى كنيسة سيدة الأَرز لمراسم الجناز.
من اليسار في الصف الأَمامي: مريانا (شقيقة جبران)، زكية جبران دياب، مرُّون جورج (زوجة عساف جورج)، روز جبران، أَماليا جبران پـارِّنْتْ (شقيقة عساف جورج).
من اليسار في الصف الخلفي: باربره يونغ، عساف جورج، مايكل قبلان، نقولا جبران، الخورأُسقف أسطفان الدويهي.

إلى جانب الشموع في الكنيسة خادمُ كاهنِ المذبح: فتًى كان جبران يحضنُه[٢]، خانتْه مرارًا عيناه السوداوان فلم يستطع أن يُخفي عن وجنَتَيه دموعًا لم تنقَطِع.

الجمعياتُ التي شاركت في المأْتم كانت: «جمعية سيِّدات المساعدة اللبنانيات–السوريات»، «جمعية التعليم السورية»، «جمعية مار جرجس الأَنطاكية»، «جمعية الكنيسة الدمشقية»، «جمعية ماساشوستس السورية للمواطنين الأَميركيين»، «نادي جبل لبنان» فرع بوسطن، و«رابطة التقدُّم اللبنانية» في نيويورك.

عند الضريح حيث مُدِّدَ صاحبُ اللباس الزائل في انتظار انتقاله المُتوقَّع إلى وطن الأَرز[٣]، كان حشدٌ كثيفٌ من الأَصدقاء يُصغون في سكوتٍ بليغٍ إلى عباراتٍ من الحب والحزن والوداع الأَخير في صَوت الخورأُسقف الدويهي وأَصوات مواطنين لجبران رافقوا جثمانه من نيويورك وجاؤُوا إلى بوسطن يُلْقون



SERVICES FOR KAHLIL GIBRAN

April 15, 1931

Last Tribute to Famous Artist-Poet

KAHLIL GIBRAN

Noted poet and artist, whose funeral took place here yesterday.

Boston paid homage yesterday to one of the world's greatest poets and painters, whose humble funeral took place in the darkened parlor of the Syrian Ladies' Aid Society, at 41 West Newton street, with more than 200 men and women of the city's Syrian colony in attendance.

The services were for Kahlil Gibran, educated in Boston as a child, whose works have won the acclaim of all nations and whose praises have been sung as a genius of the age. He was an outstanding figure, not only to some [illegible] people whose tongue is Arabic, but to the hundreds of millions of the [illegible]

جناز جبران في صحافة بوسطن المحلية (١٥ نيسان ١٩٣١).

---

٢ هذا الفتى، أَظنُّ ولا أَجزم، قد يكون خليل نقولا جبران (والدُهُ نقولا ابن عم جبران) وهو الذي وضع لاحقًا (١٩٧٤) مع زوجته جِين كتابَ «خليل جبران – حياتُه وعالمُه»، أَكمَلَ سيرةٍ حَتَئِذٍ عن جبران، مستندًا إلى وثائقَ ومخطوطاتٍ ورسائلَ أَعطتْهُ إِياها مريانا بعد وفاة شقيقها. وجبران كانَ عرَّاب هذا الصبيّ في المعمودية، وهو أَعطاه اسم خليل عند ولادته في بوسطن سنة ١٩٢٢. إذًا كان في التاسعة عند وفاة جبران، وقد يكون هو الفتى الذي ذَكَرَتْه باربره يونغ في هذا المقال «فتًى كان يحضنه جبران». كان الفتى يَبكي طوال مراسم الجنَّاز لفقدانه «عمِّي خليل» الذي كان يحبُّه كثيرًا، فيذهب إلى «عمتي مريانا» كلَّما يَجيْءُ جبران من نيويورك إلى بوسطن بضعةَ أَيامٍ يقضيها مع شقيقته مريانا فيتقاطر أَفرادُ العائلة لزيارته، ومنهم ابنُ عمِّه نقولا وزوجتُه رُوز والصغير خليل (كما كتبَ هذا الأَخير لاحقًا في الصفحة ١١ من مقدمة كتابه المذكور في هذه الحاشية).

٣ يومئذٍ لم تكن مريانا قررت بعدُ أَن تنقُل الجثمان إلى لبنان تنفيذًا لوصية شقيقها التي لم تكُن نهارئذٍ فُتِحَت ليُعرَفَ ما فيها. وهذا يدُلُّ على مسارَرَةٍ أَكيدة بين باربره يونغ وجبران في «صومعته» حين كان يُسِرُّ إليها تكرارًا بشَوقِهِ إلى لبنان ورغبتِهِ في العودة إليه. لذا استخدمَت هنا عبارة «في انتظار انتقاله المُتَوَقَّع إلى وطن الأَرز». وهو ما حصَلَ لاحقًا: صباحَ الخميس ٢٣ تموز، بعد ثلاثة أَشهُرٍ من نهار المأْتم.

آخرَ نظرةٍ على حضوره الجَسَداني... عبارات لم أَسمع في حياتي أَرفعَ منها حنانًا ولا أَعمقَ حزنًا.

في مخطوطة جبران «حديقة النبي» غيرِ المنتهية، عبارة: «كثيرًا أَحببتُ العالم، وهو كثيرًا أَحبَّني»[٤]. ذلك أَنه بقلبه الكبير كان يَحْدُسُ أَنه بُودِلَ بحُبٍّ عميقٍ خالدٍ لأَجله بَذَلَ ذاتَه للعالم بلا حساب. هذا الحب العميق هو الذي سيكون، بعد غيابه، تكريمَه ومكافأَته.

ولعلَّ هذه الكلمات من كتابه «آلهة الأَرض»، تكون أَفضلَ ما يُنقَش على ضريحه:

إلهُ قلبي الذي بين ضلوعي البشرية، ينادي إلهَ قلبيِ الذي في الأَثير
الهاويةُ البشريةُ التي كانت تُضعفني، تنادي الآن الأُلوهة
الجمالُ الذي نشدناه منذ مَطالعنا، ينادي الآن الأُلوهة.
أَنصَتُّ وفهمتُ النداء، وها أَنا أُذعِن.
الجمالُ طريقٌ يودي إلى الذات المطعونة بِيَدها
فاعزِفْ على أَوتارِك، أَنْوِ أَن أَمْشي هذا الطريقَ
الطريقَ الـمُمتدَّ طويلًا طويلًا إلى فجرٍ آخَر[٥].

◈ عن مجلة «العالم السُوري»
العدد الخامس – نيسان ١٩٣١ – ص ٢٣،٢٤،٢٥

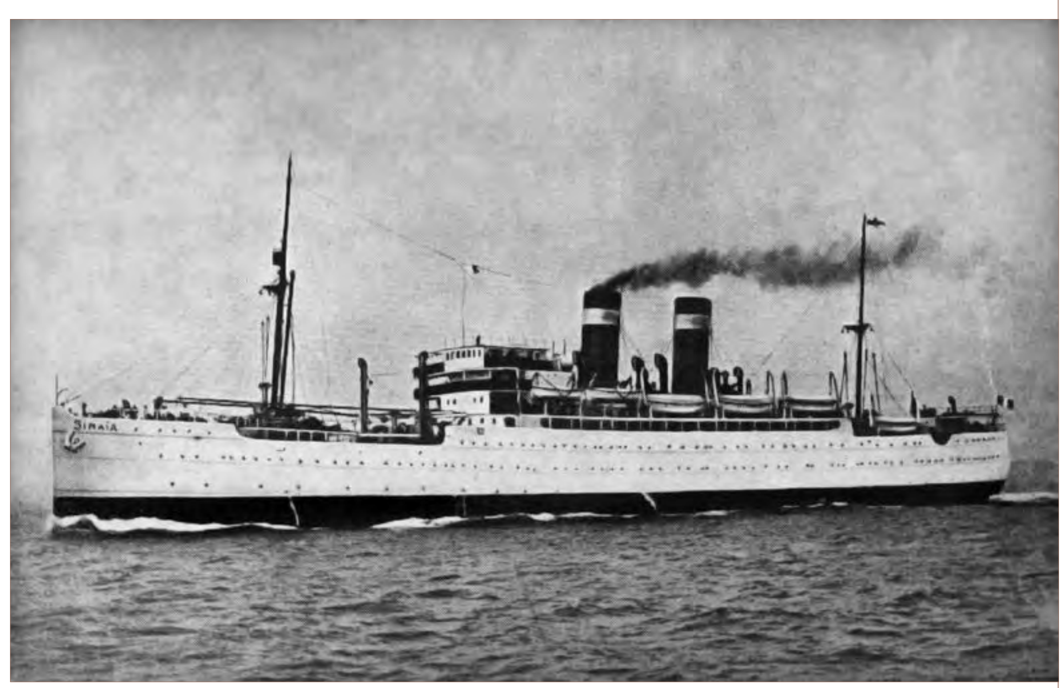
---

٤ تعرف باربره جيّدًا هذه المخطوطة لأَنها كانت تدوِّن ما يمليه عليها جبران من فقراتٍ ومقاطعَ، وكانت شبْهَ منتهية. لذلك لا أَحدٌ سواها يعرفُ ما فيها. وهي عادت فنسَّقَتْها وأَصدرتْها كتابًا سنة ١٩٣٣ لدى منشُورات كنوف واتَّهمها كثيرون (؟!) بأَنها أَضافَت إِليها نصوصًا من تأْليفِها في نسَق الأُسلوب الجبراني.

٥ بـ«الفجر الآخر» نَقْشًا على ضريحه، تُؤَكِّد باربره يونغ على إِيمانها، مثل جبران، بالتقمُّص وانتقال الإِنسان من هذه الحياة إِلى حياةٍ أُخرى.

شاعرٌ يعودُ إلى وطنه[1]

مراسم مؤثِّرة تودِّع جثمان جبران في ارتحاله من أَميركا وتستقبله على أَرضه الأُمّ



الباخرة سينايا التي أَقلَّت جثمان جبران من مرفَإِ پروڤيدِنس إِلى مرفَإِ بيروت

١ عن مجلة «العالم السُوري» – السنة السادسة، العدد الأَوَّل، أَيلول ١٩٣١ ص ٩ إلى ١٢. وهذا النص، في وصف هذا الاحتفال الوداعي، عادت باربره يونغ فأَوردَتْهُ في كتابها «هذا الرجل من لبنان» (الفصل السابع عشر: «جاهزٌ أَنا للرحيل»). وفي الكتاب (الصادر عام ١٩٤٥) تعديلات في بعض التفاصيل عن هذا النص هنا في المجلة، ربما لابتعاد الكتاب أَربع عشرة سنةً عن صدور هذا المقال وفيه مشاركتُها شخصيًّا في هذا الاحتفال الوداعي.

وداع جثمان جبران على مرفإٍ پروڤيدِنْس...

بقلم باربره يونغ

تعالوا وَدِّعُوني يا بني أُمي!
قرِّبوا إليَّ الأَطفال بأَصابعهم الزنبقية الوردية
وليأْتِ الشيوخ فيباركوا جبيني بأَيديهم الذابلة

دَعُوا بنات المروج والحقول
يقترِبْن ويرَيْن ظلَّ الغامض يَمرُ تحت حاجبيّ
ويَسمعْنَ صدى الأَبدية يتردَّدُ في نَفَسي الأَخير
ها إِني بلغتُ القمة متقدِّمًا على صرخات الناس
لا سامعًا سوى أُنشودةِ الخلود المَهيبة!

جبران[2]

A Poet Returns Home

Touching Ceremonies Attending the Departure of Gibran's body From America and Its Reception in the Land of His Birth

Farewell Ceremonies to Gibran's Body in America

By Barbara Young

"Come for leave-taking, O sons of my mother.
Bring now the children with their finger-tips of lily and of rose.
Let the aged come to bless my forehead with their withered hands.
And call the daughters of the meadow and the field.
That they may behold the shadows of the unknown pass beneath my brows,
And hear in my last breath the echo of infinity.
Lo, I have reached the summit;
I have outstripped the cries of men,
And I hear naught save the vast hymn of this eternity."

Gibran

المقطع كما ظهر في مجلة «العالم السُوري» (صفحة ٩ – عدد أَيلول ١٩٣١).

---

٢ هذا المقطع أَوردَتْهُ باربره يونغ في كتابها «هذا الرجل من لبنان» (الفصل السابع عشر: «جاهزٌ أَنا للرحيل») ذاكرةً أَنه «من قصيدة لجبران غير منشورة» مع أَنه صادرٌ سابقًا بالعربية في مقطوعة «جمال الموت» من كتاب «دمعة وابتسامة» (نيويورك ١٩١٤، وهو بواكير مقالاتٍ أُسبوعية نشرَها له أَمين الغريِّب على الصفحة الأُولى من جريدته «المُهاجر» في زاوية «دمعة وابتسامة»). فهل وجدَتْهُ بالإِنكليزية بين أَوراق جبران وكان هو نقَلَه عن أَصله العربي؟ أَم هي طلبَت ترجمتَه إِلى الإِنكليزية؟ المترجِم هنا ليس مذكورًا. ولأَنها تجهل العربية، والنصُّ منشورٌ في هذا العدد من «العالم السُوري»، أُرجِّحُ أَن يكون أَحدٌ من المجلة (أَيكون ناشرُها سلوم مكرزل؟) هو مَن ترجَم لها المقطع إِلى الإِنكليزية، إِنما لا بحرفيَّته كما ورد في الأَصل العربي. وكان جبران في «دمعة وابتسامة» أَهدى هذه المقطوعة إِلى ماري هاسكل في أَول النص كما يلي: «مرفوعة إِلى MEH». وأُرجِّح أَن مَن تَرجَم لها المقطع لم يلفِتْها إِلى الإِهداء وإِلَّا قد تكون أَحجمَت عن اقتطافِه لمقالها هنا، بسبب ما وقع بين المرأَتَين من برودةٍ بعد يومَين على مأْتم جبران، عند اكتشاف باربره رسائلَ جبران إِلى ماري في إِحدى زوايا المحترف، ومبادرة ماري إِلى توضيبها وحَمْلِها معها عائدةً إِلى بيتها في ساڤانا (جورجيا).

صباحَ الخميس ٢٣ تموز انطلقَت عودةُ جبران خليل جبران الصامتةُ إِلى أَرضه الأُمّ. ففي فجرٍ موشًّى بالضباب الذي كان يحبُّه جبران، نُقِلَ جثمانُه من المقبرة الموَقَّتة في بوسطن إِلى رصيف المرفإِ في پروڤيدِنْس[٣]، كي يُبحرَ منه للمرة النهائية في آخِر رحلاته الأَرضية.

تحت رَذاذٍ رماديٍّ لطيفٍ سار باكرًا موكبٌ طويلٌ من السيارات في وداع الشاعر الرسام وشقيقته مريانا ونسيبَيْها عسَّاف جورج وعقيلته اللذين سيكملان معها السفر إِلى بيروت فبْشَرّي. ومن عرف جبران يذكُر شغفَه بالمطر والثلج وبـ«كلّ ما ينهمل من الجو» وتردادَه آلاف المرات، عند ارتطام الرياح والعواصف بنافذته العالية: «كم أَشكر الربَّ على هذا وعلى ما يحرِّره من ذاتي». وإِذا بهذا المطر ينهمر عليه اليوم بعدما تحرَّر كلُّ ما كان في ذاته.

في پروڤيدِنْس لاقى الموكبَ كاهنُها الأَب فيليب ج. نجم بسلسلة سيارات جاءت من المدينة كي تواكب العائلة والأَصدقاء إِلى المرفإِ، في طليعتها سيارة شرطة كانت تفتح الطريق لموكب الجثمان مُوقفةً حركةَ السير لتفادي أَيِّ عرقلةٍ في مسيرة الموكب.

في سيارة الآنسة جبران وعساف جورج وعقيلته، كان أَيضًا الخوراُسقف أسطفان الدويهي وكاتبةُ هذه السُطور[٤] والسيدة زكيّة جبران دياب. وفي السيارات المواكبة كان نقولا جبران وعقيلته، والدةُ عساف جورج المُسنَّةُ، وشقيقتُه أَميليا جبران پارِّنْت وزوجُها، وأَصدقاء كثيرون لجبران من سنوات طويلة.

على رصيف المرفإِ مئاتُ أَصدقاء معلومين وغير معروفين اجتمعوا لحضور جناز الوداع. أُخرِجَ النعش ووُضع على منصةٍ مغطًّى بالعلمَين الأَميركي واللبناني.

٣ عاصمة ولاية رود آيلِند. من أَقدم المدُن الأَميركية. أَسسها القس الإِنجيلي روجر وليامز سنة ١٦٣٦ وسمّاها على اسم «العناية الإِلهية» (Providence). وفي هذه المدينة وُلد الشاعر الياس أَبو شبكة سنة ١٩٠٣ إِبَّان زيارةٍ كان والداه يقومان بها هناك لدى خال أُمه الياس فرزان، وعادا منها إِلى البلدة الأُمّ زوق مكايل.

٤ أَي باربره يونغ، لكنها لم تذكُر اسمها مع سائر الأَسماء لأَنها وقَّعت باسمها الصريح هذا المقالَ في المجلة.

وكان بين الحضور أَيضًا نعوم مكرزل رئيس تحرير جريدة «الهدى»، جاء من نيويورك مع أَصدقاء أَوفياء لجبران بينهم الأَب منصور أسطفان خادم رعية بروكْلِن، سلُّوم مكرزل رئيس تحرير مجلة «العالم السُوري»، وابرهيم حتي وكيلُ شركة «فابر لاين» للخطوط البحرية، وجورج روفايل رئيس تحرير مجلة «الأَخلاق».

افتتح احتفالَ الوداع نعوم مكرزل ملقيًا خطابًا تكريميًّا عن «عبقريّة هذا المُواطن وقوَّته، وملاقاتِه الموتَ باكرًا». تلاه خطاب الخورأسقف الدويهي الذي، باسمه ونيابةً عن السوريين في بوسطن وبخاصّة رعية كنيسة «سيدة الأَرز»، عبَّر عن «التقدير الكبير لتذكار هذا الرجل البسيط والعظيم» عاش بينهم طويلًا مثال الأَخ والصديق، ونقَل إِلى مريانا جبران حبَّهم وإِخلاصَهم واستعدادَهم لخدمتها في وحدتها وحاجاتها الإِنسانية.

بعدذاك أَلقى الخورأسقف الدويهي والأَب أسطفان خطبتَين بالعربية في لهجة حماسة وأَسى جعلَت الذين لا يعرفون العربية يأْسفون أَنهم لم يتابعوا ما جاء فيهما، إِلَّا سماعهم ترداد اسم «جبران» و«لبنان» و«بْشَرّي»، كلماتٍ راحت تتردَّد رنينًا عميقًا في القلوب المُصغية.

Syrian Poet's Body Starts For Homeland

PROVIDENCE, R. I., July 24 (AP)—The body of Kahlin Gibran, Syrian poet, artist and philosopher, who died in New York last April, was taken back to Syria aboard the Fabre liner Sinaia.

It was accompanied on its journey by Miss Marianna Gibran of Boston, the poet's sister, and Mr and Mrs Asaf George, also of Boston

Gibran will be buried in his native town of Bechare ,in Lebanon, where a national shrine, containing his manuscripts and paintings will be erected

Before the casket was placed aboard the ship, services were held at the pier in the presence of more than 200 Lbanese from New York, Boston, Providence and Fall River.

جريدة «فيتْشبُرغ» (ص ١١ في عددها صباحَ الجمعة ٢٤ تموز) نقلَت عن وكالة «أَسُّوشياتِد پرِسْ (AP) خبر احتفال الخميس بوداع جثمان جبران على مرفَإِ پروڤيدِنس (وهي الجريدة المحلية في فيتْشبُرغ: مدينة رئيسة في ولاية ماساشُوسِتْش)

الأب نجم خادم رعية پروڤيدِنْس خطَب بالإنكليزية وشكَّلَت كلماتُه «قناعة عميقة بمكانة راقية سوف ترتقيها أَعمال جبران بين الشعراء والرسامين في العالم»، مع تأْكيده على «القوة والجمال الدائمين لتأْثير جبران على فكر البشر وحياتهم».

وبعدما قرأَت السيدة ماري قهوجي قصيدةَ رثاء بالعربيّة، أَلقت كاتبةُ هذه السطور كلماتٍ لجبران مقطوفةً من الصفحات الأُولى لكتاب «النبي»: «كان المصطفى، المختارُ الحبيبُ الذي هو ذاتُهُ فجرُ يومِه، ينتظر منذ اثني عشر عامًا في مدينة أُورفليس وصولَ سفينته كي تُعيدَه إِلى جزيرة مولده... وإِذا به يلمحُها في البعيد آتيةً تخترق الضباب... هتفَ في قلبه: «كيف أَمضي هانئًا بدون حزنٍ؟ لا. لن أُغادر هذه المدينة دون جرح في الروح... إِنما لا يمكنني البقاءُ أَطوَل: البحر الذي ينادي إِليه الجميع، ناداني وعليَّ أَن أُبحر». وحين بلغ أَسفل التلة، وجد سفينتَه اقتربَت من المرفإِ، على مقَدَّمها بحارة من أَرضه الأُم، فهتف لهم: «أَبناءَ أُمي الدهرية، يا قاهري الأَمواج، كم أَبحرتم غالبًا في أَحلامي وها جئتم في يقظتي التي هي حلميَ الأَعمق. جاهزٌ أَنا للرحيل، وتَوقي للإِبحار ينتظر هبوب الريح على الأَشرعة. أَلا نفثةٌ واحدة بعدُ في هذا الجو الهانئ، ونِظرةٌ واحدة بعدُ إِلى ما ورائي، وترونني بينكم بحَّارًا بين ملَّاحين. وأَنت، أَيها البحر اللامتناهي، أَيها الأُم التي لا تنام، يا مَن وحدَكَ سلامٌ وحريةٌ للنهر والجدول معًا، همسةٌ واحدة بعدُ في هذا المدى، دفقةٌ واحدة بعدُ من هذا الجدول، وآتي إِليكَ نقطةً لامحدودةً في هذا المحيط اللامحدود».

بعد قراءتي هذا النصَّ من جبران، تكلَّم سلُّوم مكرزل بشعورٍ عميق وتقدير كبير عن إِنجازات جبران وعن الشعور بالفخر والسعادة التي يشعر بها اللبنانيون أَنَّ هذا الرجل كان منهم، وأَن يرتبط اسمه وثيقًا بالشعب السوري، وأَن يكون جبل لبنان الصغير أَعطى هذا العصر أَحد أَعظم مفكريه وسيشهد له الجميع في أَنحاء العالم. وشبَّه مكرزل جبران بالمصطفى، النبي، المختار الحبيب الذي تجمَّعت فيه معرفةُ «جميع تلك العناصر التي بين الولادة والموت».

بعد كلمة وجيزة من الياس شمعون (محامٍ من بوسطن) أَلقى الخورأسقف الدويهي صلاةَ الوداع الأَخير، وأُنزِل النعش فأُدخِل إِلى السفينة[٥] فيما آلات النفخ تعزف مقطوعات «نشيد الموت» من «تانْهَاوْزِر»[٦]، و«موت آسا» من «پـير جِنْتْ»[٧]، وأُنشودةَ «بتُّ أَقربَ إِليك يا ربي»[٨].

وبإِقلاع السفينة من المرفإِ عند الثانية بعد الظهر انغلقَ آخرُ فصل أَرضي من حياة غنيةٍ في أَرض غريبَّةٍ من حجارة وفولاذ، مُـخلِّفةً سكوتًا في المدى، وفراغًا في القلوب والأَماكن التي عرفَتْهُ ولن تراه بعد اليوم، لكنها خلَّفَت تذكارًا حيًّا باقيًا ينبض في كلماته: «تذكَّروا دومًا أَنْ سأَعودُ إِليكم... قليلًا بعدُ، ويَـجمع تَوقي حفنةَ زبدٍ وغبارٍ لتكوين جسَدٍ آخَر».

٥ هي السفينة «سينَايا» (من شركة «فابر لاين» الأَميركية للنقل البحري)، وكان وكيلَها صديقُ جبران طويلًا: ابرَهيم حتّي، مكتبُهُ في الطبقة الأُولى من بناية فاعور (منتصف شارع واشنطن)، وكان مكتبُهُ ملتقى معظم اللبنانيين. في هذا المكتب التقى جبران للمرة الأُولى المونسنيور منصور أسطفان الذي كان هو من أَطلقَ عنوان «البدائع والطرائف» على المجموعة التي أَشرف في القاهرة على إِصدارها لجبران بتكليفٍ من الناشر يوسف توما البستاني سنة ١٩٢٣، أَي سنة صُدور «النبي» في نيويورك (من حديثي مع المونسنيور أسطفان نشَرتُهُ في كتابي «جبران خليل جبران – شواهدُ الناس والأَمكنة»، ص ٣٧–٤١، منشورات درغام، بيروت ٢٠١٢).

٦ أُوپرا وضعها سنة ١٨٤٥ المؤَلف الموسيقي الأَلماني ريتشارد ڤاغنر (١٨١٣–١٨٨٣)، وهذا النشيد يستعيد رحلة الحُجّاج إِلى روما تائبين يطلبون المغفرة عن خطاياهم.

٧ مشهد وداعي حزين من هذه المسرحية التي وضعها الكاتب النروجي هنريخ إِبسن (١٨٢٨–١٩٠٦).

٨ وضعتْها الشاعرة الإِنكليزية سارة آدامز (١٨٠٥–١٨٤٨) من روايةٍ في العهد القديم عن النبي يعقوب الذي رأَى في الحلْم سُلَّمًا إِلى السماء فأَراد أَن يرتقيه كي يكون أَقرب إِلى رؤْية وجه الرب.

... واستقبال جُثمانه في لبنان: مشهدٌ مُؤَثِّر

أَخيرًا سلَّم البحرُ أَمانتَه الثمينة إِلى أَرضها الأُمّ، وعاد جثمان جبران ثانيةً إِلى حياةٍ جديدةٍ تَنْبُضُ بها قلوب مواطنيه في الأَرض التي شَهِدَت ولادتَه الأُولى، فإِذا لـ«شاعرِ الأَرز» أَن يستريحَ إِلى الأَبد بين تلالٍ مقدَّسة تفتَّحت عيناه فيها على النور والجمال، وإِذا بعودته النهائية إِلى الوطن محفوفةٌ بـحُزنٍ لا يُبديه إِلَّا شعبٌ عاطفيٌّ كاللبنانيين الباقين على تقاليدهم بِبَثِّ عاطفتهم مُطلَقةَ التعبير في الأَفراح والأَتراح. فاستقبال جثمان جبران لم يقتصِر على اندفاعةٍ عاطفية لأَبناء بلدته فحسْب بل توسَّع إِلى احتفالات لم تشهَدْها من قبلُ جبالُ لبنان طوال تاريخها.

بادرَت الحكومة وصفوف الشعب إِلى إِكرام هذا الابن الحبيب الذي أَكرمَ وطنه عاليًا في حياته. تناوَب رجالُ الدين والعلمانيون معًا على إِيفائه التقديرَ والاحترام. وتخلَّت عن فروقاتها وخلافاتها جماعاتٌ وجمعياتٌ خيريةٌ من مذاهبَ مختلفةٍ في رغبةٍ جَماعية عفوية وتحرُّكٍ وطنيّ واسع تكريمًا هذا العبقريَّ العظيم الذي أَطلعتْه أَرضُهم الأُم.

صباح الجمعة ٢١ آب وصلت إِلى مرفإِ بيروت السفينةُ التي تحمل جثمان جبران[٩]، فكان في استقبالها وفدٌ رسمي أَدَّى مراسمَ تحيَّة الشرف عند إِنزال النعش من السفينة مغَطًّى بعَلَم لبنان لنقله إِلى عربةِ مدفعٍ رسمية. وعند ملامسة النعش أَرضَ الميناء وفَتْحِه للتدقيق التقليدي، تقدَّم وزيرُ المعارف جبران تويني وعلَّق على صدر الشاعر وسامَ الفنون الجميلة، منحتْه إِيَّاه الحكومة بمرسوم خاص بعد وفاته. ثم تهيَّأَ جبران ليدخل عاصمةَ بلاده.

عن وصفِ صحُفِ بيروت موكبَ الجنازة من المرفإِ حتى الكاتدرائية المارونية[١٠] أَنَّ المدينة كلَّها تلاقت هناك لاستقبال جبران العائد إِلى وطنه. ومن متابعةِ صوَر

---

٩ الرحلةُ البحرية من مرفإِ پروڤيدنس إِلى مرفإِ بيروت استغرقت أَربعة أَسابيع (الخميس ٢٣ تموز – الجمعة ٢١ آب ١٩٣١).

١٠ كاتدرائيَّة مار جرجس في وسَط بيروت.

فوتوغرافية صدَرت في صحف مصرية مصوَّرة، يتبيّن أَنْ لا مبالغةَ في ذاك الوصف، وأَنَّ تقديرَ مواطني جبران كان فعلًا كما لم يسبق له مثيل في تاريخ المدينة.

مشى في الموكب من المرفإِ إِلى الكاتدرائية: وزيرُ الداخلية[11]، ممثِّلو المفوضية العليا الفرنسية، عناصرُ بحرية وعسكريّة من جيش الاحتلال الفرنسي، وخلْفَهم ممثلون عن السِّلْك القنصُلي، وأَعضاءُ جمعيات خيرية من الطوائف المسيحية والإِسلامية واليهودية، وآلافُ تلامذة المدارس صبيانًا وصبايا.

عند بلوغِ الموكبِ مدخلَ السراي أَدَّت له التحيةَ سريّةٌ عسكريةٌ فيما فرقة من الضابطية تعزف الموسيقى طوال مسيرة الموكب. وعند مدخل الكاتدرائيّة بادر المطران إِغناطيوس مبارك إِلى رَشِّه بالمياه المباركة وترتيلِ رتبة البخور بالسريانية لغةِ الطقس الماروني. وبعد مراسم الجناز تُرِكَ الجثمان داخلَ الكاتدرائية طوال الليل يحرسُه فريق من شبَّان بْشَرّي حضروا إِلى بيروت لاستقبال العائد إِليها.

ذاك عن الاحتفال الديني. أَما الاحتفال العلماني الكبير على شرف جبران فكان مساءً في مسرح المدينة الأَبرز[12] الذي اختارتْه اللجنةُ المنَظِّمَة. ولم يكن الاحتفال بحضور أَركان الحكومة وحسْب بل تَرَأَّسَه رئيس الجمهورية اللبنانية شارل دبَّاس، وتوالى على منبره كبارُ رجال الأَدب في البلاد، بينهم الرحَّالة والكاتب المعروف أَمين الريحاني، الشاعر الشهير خليل مطران، نقيب الصحافة خليل كسَيب، رئيس جمعية اتحاد الشبيبة الإِسلامية جميل بَيْهُم، النائب والشاعر والصحافي ميشال زكُّور، الشاعر ورجل الدولة أَمين تقي الدين، إِلى ممثلين كثيرين هيئاتٍ مدنيةً ودينية. وتخلَّلت الاحتفالَ أُغنياتٌ بالعربيّة من كتابة جبران وضَع أَلحانَها لهذه المناسبة وديع صبرا وملحِّنون آخرون معروفون.

ولعلَّ أَكثر المَشاهد تأَثُّرًا مواطنون تَجمَّعوا لمرور الموكب في المدن والبلدات الساحلية والجبلية وصولًا إِلى بْشَرّي. وفي محطَّات هُيِّئَتْ مُسْبَقًا كان الموكب

١١ موسى نمور.

١٢ المعروف بـ«التياترو الكبير» أَو الـ«غران تياتر».

يتوقَّف كي يتقدَّم المنتظرون بتحية تكريمهم جثمانَ جبران. من تلك التجمُّعات ما لم يكن مؤَثِّرًا بعفويته وحسْب بل تقَويًّا برمزيته التقليدية. فالمواطنون انحدروا من قراهم الجبلية البعيدة كي يلاقوا الموكب ويواكبوه إلى حدود كل مدينة ساحلية. وهذا المشهد تكرَّر في نحو عشرين محطةً طوال الأَميال الخمسين[١٣] بين بيروت وبْشَرّي.

ليت جبران كان حيًّا ليُعاينَ عاداتٍ لبنانيةً مميزةً طالما أَحبَّها وها هي تنعقد على شرفِه. فعند محطات مختلفة طوال الطريق إلى بْشَرّي كان شبانٌ بزيّهم التقليدي المزركش يتبارزون بالسيف والترس أَمام الموكب الجنائزي المتقدِّم بطيئًا. وفي محطات أُخرى كان آخرون يؤَدون أَغاني إِيقاعيةً أَو قصائدَ رثاءٍ باللغة المحكية المعروفة لدى اللبنانيين. وذروة التعبير عن الحزن كانت مع نسوةٍ نائحاتٍ يَندُبْن بَتَفَجُّعاتٍ وهنَّ يَقرعن صدورهنّ.

غير أَن محطة لافتة شهدَت مغايَرَةً عن تلك المشاهد المذكورة. ففي مدينةٍ قرب جبيل – بيبلوس التاريخية ومقرّ عبادة الإِلهة الفينيقية عشتروت – خَرَجَت لمُلاقاة الجثمان صبايا يرتدين عباءَاتٍ فضفاضةً تنهمل على أَكتافها خُصُلات شَعرِهنَّ الطويل. غنّينَ مدائحَ لجبران تُنشَد عادةً للمكرَّم حيًّا لا ميتًا. رحَّبنَ به «عريسَ أَحلامهنَّ الجميلَ» العائدَ فنثَرْنَ الزهور وِسْع الطريق أَمام الجثمان، رشَشْنَ العطورَ على النعش، ورقصنَ أَمامه كما في عرسٍ بخَطَواتٍ تستعيد حفلات زفافٍ كانت تقيمها العذارى قبل آلاف السنين في معبد الإِلهة عشتروت على ذاك الشاطئ بالذات.

وساهم سكانٌ كثيرون عبْر مدن أُخرى في استقبال الموكب. ولدى بلوغه مدخلَ البحصاص، مفترق الطرق بين الطريقَين الساحلي والجبلي، انضمَّ إِليه نحو مئتَي سيارة وفارس. وفي البحصاص استقبلَ المشيِّعين رسميًّا محافظُ لبنان الشماليّ، حيث بْشَرّي، وأَكملَ مرافقًا الموكب صعودًا. وعند مدخل بْشَرّي تشكَّلَ حشْدٌ من كلِّ رجلٍ وامرأَةٍ وطفلٍ يَدرُج، رافقَ مسيرة عودةِ جبران المَهيبَة.

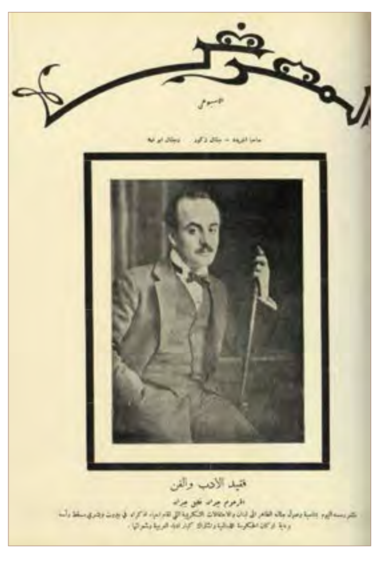
١٣ نحو ٨٠ كلم.

«معرض» ميشال زكّور يحتفي بجبران

تفرَّدَ ميشال زكُّور في احتفاءٍ جليل لائقٍ بوصول جثمان جبران إِلى بيروت، فخصَّص للحدَث ثلاثة أَغلفةٍ متتاليةٍ من جريدته «المعرض»: قبل وصول الجثمان، وعند وصوله إِلى بيروت، وبعد وصوله إِلى بْشَرّي، وفق الترتيب التالي:



غلاف العدد ٩٦٣ – الأَحد ١٦ آب ١٩٣١: صورة جبران في صباهُ حاملًا سيفًا على كتفه، مع العنوان التالي: «جبران خليل جبران في موطنه عهدَ صباهُ»، وتحتَه هذا المقطع: «وُجِدَ هذا الرسمُ البديع، الذي لم يُنْشَر بعدُ، في منزل سيِّدَة مُسِنَّة في بْشَرِّي، وهو يمثِّل فقيد النُبوغ اللبناني جبران خليل جبران في أَيَّام فُتُوَّته في بْشَرّي، وقد لبِسَ غنبازًا لبنانيًّا وحمَل سيفًا على كتفه».



غلاف العدد ٩٦٤ – الأَحد ٢٣ آب ١٩٣١: صورة جبران في شبابه يتكئُ على العصا، مع العنوان التالي: «فقيد الأَدب والفن المرحوم جبران خليل جبران»، وتحتَه هذا المقطع: «نَنْشُرُ رسمه اليوم بمناسبة وصول جثمانه الطاهر إِلى لبنان، والاحتفالات التكريمية التي تقام إِحياءً لذكراه، في بيروت، وبْشَرّي مسقط رأْسه، برعاية أَركان الحكومة اللبنانية واشتراك كبار أُدباء العربية وشعرائها».



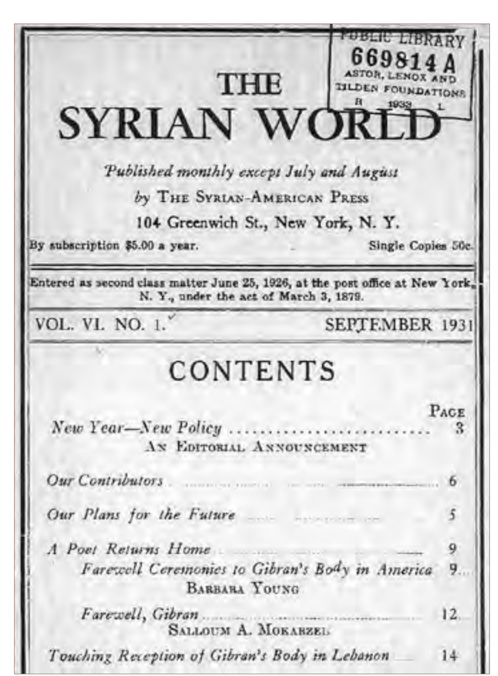
غلاف العدد ٩٦٥ – الأَحد ٣٠ آب ١٩٣١: ثلاث صُوَر مع العنوان الجانبيّ التالي: «مهرجان جبران»، وتحتَه هذا المقطع شارحًا الصُوَرَ الثلاث: «في الأَعلى: أَعضاء لجنة تكريم جبران أَحاطوا بالنعش وتَظهر إِلى قُربه شقيقةُ الفقيد الآنسة مريانا وبعض نسيباتها. في الدائرة: حضرة رئيس الجمهورية وإِلى يساره حضرة وزير الداخلية وبينهما النائب الأُستاذ عبدالله اسحق في اللوج أَثناء حفلة بيروت. في الأَسفل صورةٌ أُخِذَت في بْشَرّي تمثِّل الآنسة مريانا جبران، ومن حولها حضرة وزير الداخلية، وسيادة المطران عقل المندوب البطريركي، ومندوبو المفوَّض السامي والأَميرال وقائد الجيش الأَعلى الفرنسي».

وفي بْشَرّي، كما في بيروت، أُقيم احتفالان مُمَيَّزان لوداع جبران. سُجِّيَ الجثمان في كنيسة القديس يوحنا لرُتبة الجنَّاز، ونهار الأَحد ٢٣ آب كان احتفالٌ في قاعة البلدة برئاسة وزير الداخلية موسى نمّور أُلقِيَت خلاله قصائد وخُطَب.

آلافُ الذين توافدوا إِلى بْشَرّي للتكريم الأَخير كانوا جميعُهم ضيوفَ البلدة إِقامةً طوال يومين. والذين لم تتمكَّن البلديَّة من تأْمين إِقامةٍ فندُقيَّةٍ لهم، استضافهُم أَهالي بْشَرّي في بيوتهم، وهذه ظاهرةُ حفاوةٍ تقليديةٌ عريقةٌ في مواسم الأَفراح والأَتراح، تجلَّت يومها في مظهرها الأَرقى.

سوف يبقى جثمانُ جبران مسجًّى في كنيسة القديس يوحنا إِلى أَن يُشَيَّدَ قبرٌ ملائمٌ له. وقرَّرت بلدةُ بْشَرِّي ترميمَ بيت جبران الوالديّ، وهو حاليًّا خَرِبٌ، وتحويلَ البقعة حوله حديقةً عامة. وَبَلَغَني أَنَّ سيَّاحًا أَميركيين بدأُوا يقصُدون بْشَرّي في «حَجٍّ خاص» كما سَمَّوا زيارَتَهم بلدةَ مَولِدِ شاعر الأَرز الذي عرفوه في أَميركا.

عن مجلَّة «العالِم السُوري»، السنة السادسة، العدد الأَوَّل، أَيلول ١٩٣١ (ص ١٤–١٧).



THE
SYRIAN WORLD

Published monthly except July and August
by The Syrian-American Press
104 Greenwich St., New York, N. Y.
By subscription $5.00 a year. Single Copies 50c.

Entered as second class matter June 25, 1926, at the post office at New York, N. Y., under the act of March 3, 1879.

VOL. VI. NO. 1. SEPTEMBER 1931

CONTENTS

«العالم السُوري» – السنة السادسة – العدد الأَول – أَيلول ١٩٣١.
خصص فيه سلُّوم مكرزل ثلاثة نُصوص لوداع صديقه جبران:
– ص ٩: شاعر يعود إِلى وطنه – بقلم باربره يونغ.
– ص ١٢: في وداع جبران – بقلم سلُّوم مكرزل.
– ص ١٤ (إِلى ١٧): مراسم استقبال جثمان في لبنان.

من بيروت إِلى بْشَرّي: الرحلة الأَخيرة

تَوَلَّت صحفٌ لبنانية عدة، يوميُّها والأُسبوعيّ، وصفَ مأْتم جبران: أَوَّلًا في بيروت (الجنَّاز في كنيسة مار جرجس المارونية ثم الاحتفال الخطابي في «التياترو الكبير» قُبالةَ الكنيسة)، ثم في بْشَرّي (احتفالان تأْبينيَّان).

هنا برنامج الاحتفالات كاملًا في بيروت وبْشَرّي كما ورد في مجلة «الدبور» الأُسبوعية (مطلع آب ١٩٣١).

استقبال رفات الرجل الخالد

نظام الحفلات التأْبينية

بيان الحفلات المُعَدَّة لاستقبال جثمان جبران في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة ٢١ الجاري، فيسير الموكب من المرفأ مارًّا بشارع فوش فشارع ويغان فساحة الشهداء فالكاتدرائية المارونية، وتشترك الهيئات الرسمية وسائر الجمعيات على اختلاف طوائفها في موكب الاستقبال. وبعد الصلاة عن نفس الفقيد العزيز، يُوْدَعُ الجثمان في الكاتدرائية إِلى صباح السبت حين يُشَيَّع بموكب حافل إِلى مسقط رأْسه بْشَرّي.

بيان حفلة بيروت التأْبينية

- موسيقى
- كلمة الافتتاح : الأُستاذ جبران تويني وزير المعارف والفنون الجميلة
- كلمة اللجنة : عريف الحفلة الأُستاذ توفيق حسن الشرتوني
- كلمة الصحافة : الأُستاذ خليل الخوري كسَيْب نقيب الصحافة
- الأُستاذ جرجي نقولا باز : سيرة جبران
- الأُستاذ خليل مطران : قصيدة
- الأُستاذ أَمين الريحاني : خطاب
- نشيد «هوذا الصبحُ فقومي ننصرفْ»، نظْم الفقيد، تلحين الأُستاذ وديع صبرا، يُنشده السيد كرياكوبولو

- كلمة الأُستاذ ميشال زكُّور: نائب جبل لبنان
- الأُستاذ بشارة الخوري : قصيدة
- كلمة الأُستاذ محمد جميل بيهم رئيس جمعية اتحاد الشبيبة الإِسلامية
- الأُستاذ حليم دموس : قصيدة
- نشيد «يا نفسُ لولا مطمعي»، نظْم الفقيد، تلحين الأُستاذ وديع صبرا، يُنشده السيد سليم تركيَّة
- الأُستاذ أَمين تقي الدين : قصيدة
- الأُستاذ إِدمون وهبه : أَخلاق جبران
- الأُستاذ الياس أَبو شبكة : قصيدة
- الشيخ نجيب عيسى الخوري: كلمة شُكر بالفرنسية عن شقيقة الفقيد
- الأَب فرنسيس رحمة : كلمة شُكر بالعربية عن أَهالي بْشَرّي
- موسيقى

بيان احتفالات بْشَرّي

حفلة التأْبين الأُولى بعد وصول الجثمان

- كلمة الافتتاح : عريف الحفلة الأُستاذ يوسف جعجع
- كلمة الأُستاذ سليم غنطوس
- كلمة الدكتور حسين رشيد سريّ الدين
- الدكتور عبد المسيح محفوظ: قصيدة
- عزْف قطعة من «مواكب جبران» على الناي
- كلمة المونسنيور السمعاني
- ناصيف بك طربيه : قصيدة
- كلمة الأَمير كامل شهاب
- الأُستاذ وهيب الخوري: قصيدة
- نشيد «يا نفس لو لم أَغتسل بالدمع» نظْم الفقيد، تلحين الأُستاذ وديع صبرا، يُنشده السيد سليم تركيَّة

- كلمة الأُستاذ سليم أَبو جمرة
- كلمة الأُستاذ حليم شبَيْعة
- كلمة الأُستاذ يوسف صقر
- الأُستاذ فؤاد مفرج : قصيدة وكلمة شُكر عن اللجنة

حفلة التأْبين الثانية في مسرح بْشَرّي

تحت راية وزير الداخلية الأُستاذ موسى بك نمور

- موسيقى
- كلمة الافتتاح : الأُستاذ موسى بك نمور وزير الداخلية
- كلمة اللجنة : عريف الحفلة رئيس اللجنة الأُستاذ حبيب كيروز
- كلمة الأُستاذ يوسف السودا نائب جبل لبنان
- الأُستاذ سابا زريق : قصيدة
- نشيد «هوذا الصبحُ فقومي ننصرفْ»، نظْم الفقيد، تلحين الأُستاذ وديع صبرا، يُنشده السيد كرياكوبولو
- كلمة الشيخ مصطفى الغلاييني
- كلمة الشيخ ابراهيم المنذر
- الأُستاذ بولس سلامة : قصيدة
- كلمة الأُستاذ جورج يزبك
- الشيخ حميد معوض : قصيدة
- عزْف قطعة من «مواكب جبران» على الناي
- كلمة الأُستاذ فريد أَنطون
- كلمة السيدة حبُّوبة حداد
- الأُستاذ ميشال برباري : قصيدة
- كلمة الأُستاذ يوسف نصر
- الخوري أَنطونيوس جعجع: كلمة شكر عن أَهالي بْشَرّي
- موسيقى

رفاقه في «الرابطة» ولاءً ورثاءً

في «قانون» الرابطة القلمية كما دوَّنه ميخائيل نعيمه بعد جلسةٍ في محترف جبران مساءَ الثلثاء ٢٨ نيسان ١٩٢٠ تأَسَّسَت فيها الصيغة الجديدة لـ«الرابطة القلمية»[١]، جاء: «ليس كلُّ ما سُطِّر بِمدادٍ على قرطاسٍ أَدبًا، ولا كلُّ مَن حرَّر مقالًا أَو نظَم قصيدةً موزونةً بالأَديب... وهذه الروح الجديدة ترمي إِلى الخروج بآدابنا من دَور الجمود والتقليد إِلى دَور الابتكار في جميل الأَساليب والمعاني...».

ذاك كان مبدأَ «الرابطة». فهل جميع أَعضائها انتفضوا فعلًا على «الجمود والتقليد» وسَعَوا إِلى «الابتكار»؟

في هذا الفصل بحثْتُ عن قصائدَ لبعض أَعضاء «الرابطة» في مناسبَتَين، الأُولى: احتفال تكريمي دعا إِليه رفاق جبران في «الرابطة» مساءَ السبت ٥ كانون الثاني ١٩٢٩ عشيةَ ذكرى مولده (السبت ٦ كانون الثاني ١٨٨٣) وبِمُرور رُبع قرنٍ (١٩٠٤–١٩٢٩) على مسيرته الأَدبية، والمناسبة الأُخرى: احتفال تأْبيني بُعَيد وفاة جبران، نظَّمَتْه كذلك «الرابطة القلمية» (الأَحد ٢٤ أَيار ١٩٣١ في بروكلِن).

---

١ نشأَتْ صيغةٌ سابقةٌ لـ«الرابطة القلمية» في نيسان ١٩١٦ ضمَّت، إِلى جبران: أَمين الريحاني، أَمين مشرق، الياس عطاالله وآخرين، لكنها لم تَعِش سوى بضعة أَشهرٍ لانشغال أَعضاء منها بـ«لجنة إِعانة المنكوبين في سوريا وجبل لبنان» (تموز ١٩١٦) انتخبت نجيب كسباني رئيسًا، أَمين الريحاني نائبًا الرئيس، جبران خليل جبران كاتِمَ أَسرار.

اللافت أَن أُولئك «الرابطيين» لم يخرجوا كثيرًا عن «الجمود والتقليد» اللذَين عملَ عليهما عميدُهم في كتاباته العربية التي سطعَت بتجديده اللغوي والمضموني معًا. قصائدُهم التكريمية جاءَت، إلى حَـدٍّ كبير، مدَّاحةً تبجيليَّةً بأُسلوب تقليدي عتيق، وقصائدُهم الرثائية جاءَت نَوَّاحةً متفجِّعةً بأُسلوبٍ ذي أَشكالٍ تقليديةٍ عتيقة وتراكيبَ عتيقةٍ سائدة وكلماتٍ عتيقةٍ بائدة. وفي المناسبتَين عبَّروا عن عاطفتهم بقاموسٍ شِعريٍّ مأْلوفٍ مكَرَّرٍ مضمونًا عاديًّا، وبِنَثْرٍ عَروضيٍّ منظومٍ شكلًا لفظيًّا باردًا.

ومع أَنَّ لجبران نصوصًا تكريميةً[٢] ورثائيةً[٣] في أَكثر من مناسبة، لكنه لم يتوسَّلْ أَيَّ مبالغةٍ في المديح، ولا أَيَّ تفجُّعٍ في الرثاء، بل جاءت نصوصه أَدبيةً راقيةً توازي نُصوصَه الوجدانية الإِبداعية الأُخرى، لأَنه تناوَلَها بأُسلوبٍ مبتكَرٍ من زاوية مغايرة عن تقليدية المَديح والرثاء.



في هذا الفصل أَربعٌ من هذه القصائد لأَربعة «رابطيين»: إِيليَّا أَبو ماضي[٤]، نسيب عريضة[٥]، نَدرة حدَّاد[٦]، رشيد أَيُّوب[٧]، أُورِدُها كما صدرَت في مؤَلَّفاتهم.

---

٢ منها نَصُّهُ «الشاعر البعلبكي» لاحتفال تكريم خليل مطران (جامعة القاهرة – نيسان ١٩١٣). قَرَأَتْه مَي زيادة، ثم نشرَه في مجموعة «العواصف» (١٩٢٠).

٣ منها نَصُّهُ في رثاء معرِّب «الإِلياذة» سليمان البستاني (نيويورك – حزيران ١٩٢٥، نشرَتْـهُ جريدة «الهدى» الخميس ٩ تموز ١٩٢٥)، ونَصُّهُ عند غياب جرجي زيدان (١٩١٤) صدَر في «الهلال» (القاهرة) ثم نشرَه في «العواصف».

٤ وُلِد في المحيدثة سنة ١٨٩٠، انتقل إِلى نيويورك سنة ١٩١١ وتوفّيَ في بروكلن سنة ١٩٥٧.

٥ وُلِد في حمص سنة ١٨٨٧، انتقل إِلى نيويورك سنة ١٩٠٥، وتوفّيَ في بروكلن سنة ١٩٤٦.

٦ وُلِد في حمص سنة ١٨٨١، انتقل إِلى نيويورك سنة ١٨٩٧، وتوفّيَ في بروكلن سنة ١٩٥٠.

٧ وُلِد في بسكنتا سنة ١٨٧٢، انتقل إِلى نيويورك سنة ١٩٠٥، وتوفّيَ في بروكلن سنة ١٩٤١.



إِيليا أَبو ماضي: الكأْس الباقية (رثاء)

دمعة على جبران

أَيُّها الشاعرُ الذي كان يَشدو بين ضاحٍ من الجمالِ وضاحِكْ
جَلَلٌ أَن يَصيدَكَ القدرُ الأَعمى ويمشّي مقصُّهُ في جناحِكْ
موكبُ الشعرِ تائهٌ في فضاءٍ ليسَ فيهِ سوى حَطيمِ سلاحِكْ
والبساتينُ، والبلابِلُ فيها، تتغنى حزينةً لرواحِكْ
قَنعتْ بالنواحِ منك فلمَّا زالَ عاشتْ بذكرياتِ نواحِكْ
والدجى، والنجومُ تسطعُ فيه، واجمٌ حسرةً على مصباحِكْ
تلمسُ العينُ، أَينما لمَسَتْهُ، جَمَرَاتِ التياحِنا والتياحِكْ
قد تولَّت جلالةُ السحرِ عنهُ واضمحلَّتْ مذ صارَ غيرَ وشاحِكْ



هبطتْ ربَّةُ الحياةِ لكي تسكبَ خمرَ الجمالِ في أَقداحِكْ
فإِذا أَنتَ في السريرِ مسجًّى صامتٌ كالطيوفِ في أَلواحِكْ
فتولَّتْ مذعورةً تَلْطُمُ الوجهَ وتبكيكَ، يا قتيلَ سماحِكْ!
سَبَقَتْها إِلاهةُ الموتِ كي تَحظى ولو باليسيرِ من أَفراحِكْ
ويحَها! ويحَ حبِّها من أَثيمٍ طَردَتْنا ولم تُقِم في ساحِكْ
أَيبَسَت روضَكَ الجميلَ، ولم تظفَرْ بغيرِ التُّرابِ من أَدواحِكْ
ذَهَبَ الموتُ بالكؤُوسِ جميعًا غيرَ كأْسٍ مَلأْتَها من جراحِكْ

«الخمائل»[8]

---

[8] صدرَت طبعتُه الأُولى في نيويورك سنة ١٩٤٠ عن مطبعة «مرآة الغرب». وكان أَبو ماضي قبلذاك نشَر هذه القصيدة في مجلته «السمير» مُصَدِّرًا بها عددًا خاصًّا عن جبران (السنة الثالثة، العدد الثاني، أَيار ١٩٣١) وفاءً لغيابه الباكر. ومن كتّاب هذا العدد الخاص: مي زيادة وفيليپ حتّي.



نسيب عريضة: قصيدتان (ولاء ورثاء)

إلى جبران خليل جبران في حفلة يوبيله الفضي

٥ كانون الثاني ١٩٢٩

أَنصِتوا، أَنصِتوا! فقد سمعَتْ أُذْني نَـجيًا يخفى على الآذانِ
أَنصِتوا، أَرهِفوا المسامعَ يا قومُ! أَلا تَسمعون رجْع أَغانِ؟
يختفي ثمَّ ينجلي كهتاف البوق حينًا ...أَم ذاك صوتُ جَناني؟
صوتُ مَن؟ ما أَظنُّه صوتَ فردٍ بل جموعٍ هتافُها كالأَذانِ
إِنهم قادمون ...قد قَرُبَ الصوتُ وضجَّت به النواحي الدَواني
هل رأَيتم كما أَرى؟... تلك أَشباحٌ تغنّي نشيدَها بِـحنانِ
قد دنَت... فَافْسَحوا المجال وهُبُّوا باحترامٍ لِـملتقى الضِيفانِ
هوذا موكبُ الخيالِ وفيه نوبةُ الملهَمين من قحطانِ
قد أَتونا من عالَـمِ الغيب يسعَون سِراعًا إِلى حمى الفنَّانِ
ذاك وفد الأَرواح من عالَـم الشعر إِلى عبقريّنا جبرانِ



أُمراءَ القريض، يا متنبي، يا مَعَرّي، يا فارضي، يا ابن هاني
يا امرأَ القيس، يا صريعَ الغواني يا ابن عشرين، يا بديعَ الزمانِ
والأُلى تحت راية الشِعر ساروا يقطعون الزمان بالأَلحانِ
أَنتمُ اليومَ بيننا، لا نَراكم بعيون الأَجسام بل بالجِنانِ
قد نفضتُم عنكم غبار الليالي وحضرتُـم بالرُوح في المهرجانِ
دَورُكم حانَ، فاستعِدوا وهُبُّوا لنحيّـي صفِيَّنا اللبناني
أُضفروا من غارِ الجِنان أَكاليلًا لرأْسٍ تَثُور فيه المعاني
واقطفوا من أَزهار «طوبى» أَضاميمًا لقلبٍ تصبو إِليه الأَماني
يحمل النار والضياء فيعطي منهما للورى بلا أَثمانِ

قد عصَتْني بناتُ صدري وعقَّتْني برغمي مولَّدات بَياني
فَهَبُوني من البلاغة شيئًا وانطقوا، إِن قدِرْتُمُ، بلساني

«الأَرواح الحائرة»[9] ص ٢٣٠ – ٢٣٢



عِمْ صباحًا

إلى روح جبران خليل جبران في حفلة ذكراه الأَربعينية

٢٤ أيار ١٩٣١

هوذا المذبحُ المقدَّس، فاركعْ وعليه ذبيحةُ الحزنِ فارفعْ
يا فؤَادي، واجعل أَساكَ بخورًا وخُذِ النارَ من ضلوعكَ واخْشعْ!
لا تكُن نائحًا، فنَوحُكَ للأَرض... فكُن صامتَ الأَسى وترفَّعْ!
وانطلِق فوق عالَم الحسّ، وانظُر نورَ جبران! في ذرى الخلْد يلمَعْ



عِمْ مساءً، جبران! إنكَ تسمعْ... عِمْ مساءً يا غائبًا ليس يشْسَعْ
أَمساءً أَقول؟ بل عِمْ صباحًا فشموسُ الخلود حولكَ تَسطَعْ
كلُّنا خالَ حزنَه أَعظمَ الحزن... ولم يحترقْ، ولم يتصدَّعْ
باهرٌ أَنت في علُوِّكَ لكن نحن عُمْيٌ وطَرْفُنا يتطلَّعْ
أَفلا ومضةٌ تُشَدِّدُ عزمًا؟ أَفلا آيةٌ لصَحبكَ تُرفَعْ؟



عِمْ صباحًا، يا ساقيَ النفْس كأْسًا من حنينٍ يُذيبها حين تُجْرَعْ
هل أَتاكَ الصدى – صدى المتنادين على الدرب قائلين: اسْمَعِ اسْمَعْ

---

٩ صدرَت طبعتُه الأُولى، مع مقدمة من حبيب ابرهيم كاتبة، في نيويورك سنة ١٩٤٦ عن مطبعة جريدة «الأَخلاق» (مؤَسِّسُها ورئيس تحريرها يعقوب روفايل).

صوتُنا ذاك: صوتُ ركْبٍ أَضاعوا فيك نبراسهم وضلُّوا بِبَلقَعْ
إيهِ يا ماهد الطريق التي سرنا عليها نقفو خطاه ونتْبَعْ!
يا دليلَ السارين، قد عسعسَ الليلُ وركبُ الأَرواح يكبو ويسكَعْ
إرفع الصوت، قد تبعناكَ لكن فُتَّنا في الطريق، والقفْر مَضْيَعْ
إرفعِ الصوت، قد توغلْتَ في السبْق عسانا على الصدى نتشَجَّعْ
طرتَ من بيننا بأَجنُحِ عزْمٍ... ومهيضٌ جناحُنا ليس يُرفَعْ
ومراقي الوصول شقَّت على الحيّ وفيها حَظْوٌ لِمَن كان يَطمَعْ
قد بسَطْنا الأَيدي إليكَ... عليها من بخور الرجاء طِيبٌ تَضَوَّعْ
ووقَفْنا نَرثيك نَظْمًا ونثرًا بلسان الورى... وهل ذاك يَنفَعْ؟
أَفيُرثى بعجمة الأَرض رُوحٌ صار أَعلى من المشاعر أَجمَعْ؟
أَفيُصغي إلى المَهامسِ برقٌ يَمتطي العاصفاتِ، والرعد لعْلَعْ؟



أَيها الشاعرُ الإلهيُّ طوبى لكَ... فالأَوجُ حيثُ روحُك ترتَعْ
أَسكتَ البَينُ شدوَ نايكَ لكنْ لم يزلْ لَحنُه يرنُّ ويُسمَعْ
وأَناشيدُك الحسانُ ستبقى خيرَ إرثٍ لأُمَّة تتفَجَّعْ
قد رأَيناكَ سابقًا، فنبيًّا، فشهيدًا كأْسَ التأَلُّم يَجرَعْ
وعلمْنا أَشياءَ منكَ فكانت عَبرة العقل إذ رأَيناكَ تُصرَعْ
سِمةُ الوحي حُرقةٌ واشتياقٌ وصراعٌ به الأَشاوسُ تَخضَعْ
وجَزاءُ النبوغ: إكليل مجدٍ قد تندَّى من مدمَعٍ بعد مدمَع



أَرزَ لبنان، طأْطِئِ الهامَ واخْشَعْ! سكتَ الشاعرُ الذي كنتَ تَسمَعْ
سيُساميكَ في جوارك قبرٌ هو في قلبه أَعزُّ وأَرفَعْ

«الأَرواح الحائرة» ص ٢٣٧ – ٢٤١



نَدرة حدّاد: قصيدتان (ولاء ورثاء)

شمسانِ من نُور

إلى جبران خليل جبران في حفلة يوبيله الفضي

٥ كانون الثاني ١٩٢٩

الشمسُ حتَّى في الغروبِ جميلةٌ   وكما سباني حسنُها، أَشجاني
لم تسلب الأَجيالَ بهجتُها ولمْ   تعبثْ بقوَّتها يدُ الحدثانِ
فكأَنها خُلقَتْ لتبقى مثلما   خُلقَت: بلا عيبٍ ولا نقصانِ
تعطي بلا مَنٍّ، وأَفضلُ واهبٍ   مَن جاد عن ميلٍ إِلى الإِحسانِ
تهبُ العيونَ ضياءَها، لكنَّها   لا تستفيدُ... فما لها عَينانِ
وتدورُ مُشرِفةً على الأَحياءِ مذ   خُلقَتْ ولم تضجرْ من الدَوَرانِ
راقبْتُها تدنو بكل سكينةٍ   نحوَ الغروبِ كغادةٍ مِفتانِ
حتى إِذا كادت تغيبُ عن الحمى   وتغيبُ عني رؤْيةُ الأَغصانِ
أَرسلتُ طرْفي للسماء مخاطبًا   وجعلتُ قلبي في مكان لساني:
«يا شمسُ قد تمَّ النهارُ فتابعي   إِحسانكِ الوافي لكلِ مكانِ
سيري فأَين طلعْتِ كنتِ مفيدةً   مشكورةً في السرِّ والإِعلانِ»
ثم انثنيتُ وليس لي من مؤْنسٍ   إِلَّا الحفيفُ وطيِّب النَّسَمانِ
ورفيقةً لم تنسَ في خلَواتها   شمسَ النفوسِ وشمسَ كلِّ أَوانِ
مالت تحدِّثُني وكلُّ حديثها   عن كوكب الأُدباء: عن جبرانِ
فأَجبْتُها وأَنا الغيورُ هوىً وما   فَضح الخفيَّ كعاشقٍ غيرانِ:
«يا نفسِ، مَن تهوينَ ليس موحِّدًا   في حبِّه... والحبّ دِينٌ ثانِ
كتَمَ الهَوى عمدًا ورُبَّ متيَّمٍ   وَجدَ الهوى حلوًا مع الكتْمانِ
يَهوى ولكنْ غيرَ ما يهوى بنو   الدنيا... فما يَهواه ليس بِفانِ
يَهوى الغديرَ لأَنَّ فيه أَنَّةً   كأَنينه شوقًا إِلى الأَوطانِ
يَهوى السواقي الجارياتِ لأَنها   أَبدًا تبرِّدُ غلَّةَ الظمآنِ

يَصبـو إِلـى مـرأى النجـومِ لأَنهـا ... إِسُّ النظـام ومصـدرُ الإِتقـانِ
يَصبـو إِلـى العـشِّ الصغيـر لأَنـه ... قصـرٌ ولكـنْ مـن هـوىً وحَنـانِ
يَصبـو إِلـى صـوت البحـار لأَنـه ... صـوتُ الخلـود يـرنُّ فـي الآذانِ
هـو في الفراش مع المريض مشاركٌ ... إِيـاه فـي الآلام والأَحـزانِ
هـو في القيود مع السجين المشتكي ... ظلْـمَ البُغـاة وقسـوةَ التيجـانِ»

جبـرانُ، هـذا بعـض مـا عانـاه ... قلبُـكَ في حياتـكَ والـمُحبُّ يعاني
لـو شئتُ أَذكـر كلَّ مـا تهوى وما ... تصبـو ومـا تنـوي، لَـكَلَّ لسـاني
أَلبسـتَ أُمَّتَـكَ الجديـدَ ففاخـرَتْ ... بجديدِهـا والناسـجِ الفنّـانِ
ولقـد هدمـتَ فكنـتَ أَفضـلَ هـادمٍ ... ولقـد بنَيْـتَ فكنـتَ أَفضـل بـانِ
والخيـرُ وحـده فـي فـؤَادك كامـنٌ ... لـمْ يجتمـع فـي صـدرك الضِـدَّانِ
والشـمسُ واحـدةٌ على كلِّ الـورى ... لكـنْ لنـا فـي شـرقنا شَمسـانِ
شمسـان مـن نـورٍ: فتلك تُضيْءُ في ... هـذا الوجـود، وأَنـتَ في الوِجـدانِ

«أَوراق الخريف»[10] ص ٨١ – ٨٦



كنتَ حيًّا وهكذا ستكونُ

إِلى روح جبران خليل جبران في حفلة ذكراه الأَربعينية

٢٤ أَيار ١٩٣١

كلُّ صعـبٍ مـن الخطـوبِ يهـونُ ... إِنْ علِمْنـا أَنَّ الحيـاة الـمَنونُ
لا أَقـولُ: الزمـانُ يغـدرُ بالنـاسِ ... انتقامًـا... ولا أَقـول: يخـونُ
خُلـقَ الحـيُّ مائتًـا فَسَـواءٌ ... هـرِمٌ طـالَ عمـرهُ وجنيـنُ

[10] صدرَت طبعتُه الأولى، مع مقدمة من رفيقه في «الرابطة القلمية» وليم كاتْسِفْليس، في نيويورك سنة ١٩٤١ عن مطبعة طوبيّا. وهو الكتاب الوحيد الذي صدَر للشاعر.

وحيــاةُ الإنســانِ حلــمٌ غريــبٌ ومصيــرُ الإِنســانِ ســرٌّ مَصــونُ

فريــقٌ يــرى المصيــرَ نعيمًــا يَلــزمُ النفــسَ يــوم عنَّــا تبيــنُ

وفريــقٌ يــرى النهايــةَ قبــرًا كلُّ مــا فيــه ضجعــةٌ وســكونُ

إنمــا العاقــلُ الــمُحبُّ وإن شــكَّ تمنَّــى أَنَّ الخلــودَ يقيــنُ

فلــكــلِّ أحــبَّــةٌ ســبقــوه ولــكلٍ أَشــواقهُ والحنيــنُ

◆◇◆

ما بكَينا جبران من صدمةِ الموتِ ودمــعُ الباكيــنَ غيــثٌ هَتــونُ

مــا بكَينــا شــبابهُ إذ تــوارى وشــبابُ الإنســانِ كنــزٌ ثميــنُ

دمعــةُ الحــزنِ فــي المآتــمِ لا تبقى طويــلًا... ولــو أَصــرَّ الحزيــنُ

كــم ســلا الــمُعْوِلُونَ ميتًــا عزيــزًا بعــد حيــنٍ وكــمْ تناســى الخديــنُ

كلُّ حــيٍّ علــى البســيطةِ إمَّــا دافــنٌ غيــرَهُ... وإمَّــا دفيــنُ

وشــبابُ الفتــى، وقبْــلًا صبــاهُ وقــواهُ... وَدائــعٌ ودُيــونُ

يتخلَّــى عنهــنَّ قســطًا فقســطًا لا حريــصٌ تبقــى لــه لا ضنيــنُ

نحــنُ نبكــي فقيدَنــا وســنبكيهِ كمــا يبكــي الفاتــنَ المفتــونُ

نحــنُ نبكــي روائعًــا خسِــرَتْها يــومَ ولَّــى، آدابُنــا والفُنــونُ

نحــنُ نبكيــه شــاعرًا عُلَويًّــا قــد أَرانــا الســماء كيــفَ تكــونُ

شِــعرهُ حكمــةٌ وحــبٌ تَغَنَّتــهُ العــذارى كأَنــه تلحيــنُ

ونبيًّــا لــمْ يَضطهــدْه بنــو الدُنيــا ولَــمْ يَنْســبْهُ إلــى الكفــرِ ديــنٌ

وفقيــرًا قــد شــاد للشــرقِ مجــدًا لَــمْ يَشِــدْهُ بمالهِ قــارونُ

وهــزارًا إذا شــدا فالمعانــي نســماتٌ والســامعونَ غصــونُ

وغديــرًا فــي الــروض يجــري وفيهــا مــا يُزيــلُ الأَســى وفيــه الأَنيــنُ

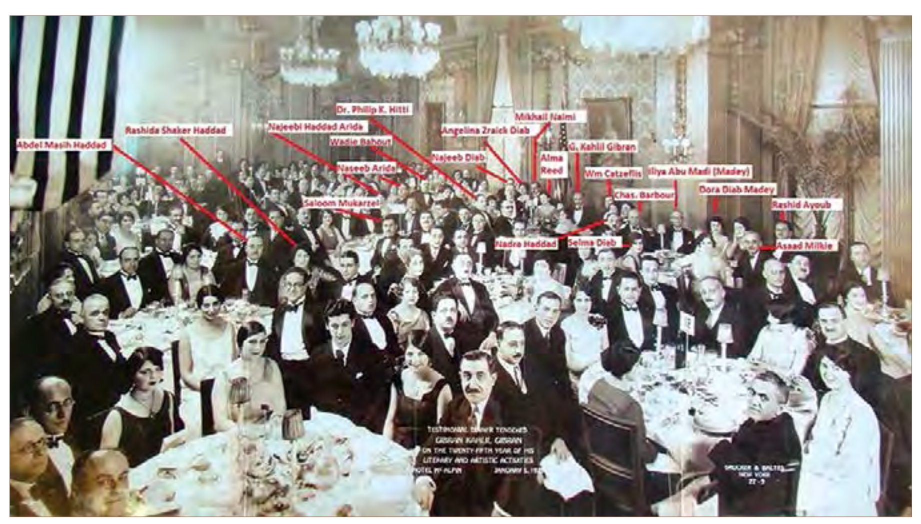
ونديمًــا مــع الندامــى وَقــورًا وجميــلٌ مــع الوَقــارِ المجــونُ

هكــذا اختــارتِ المنيــةُ مَــن طــابَ ثمــارًا... والأَطيــبُ المعيــونُ

◆◇◆

أَيُّهـا الراحـلُ الـمُطلُّ علينـا … مـن مـكانٍ فيـه السـلامُ قطيـنُ
يـا أَخـي هـا إِنَّ الـمنايا استردَّتْ … منـكَ مـا كلُّنـا بـه مَديـونُ
فتَعَرَّيْـتَ مـن حياتـكَ طوعًـا … لنظـامٍ أَحكامـهُ لا تليـنُ
تـاركًا بعـدكَ الـمُحبّين صرعـى … طعنـاتِ الأَسـى ولا مَـن يُعيـنُ
فكأَنَّ الـمُصابَ حـلَّ على الكُلِّ … فـكُـلٌّ فـؤَادُهُ مطعـونُ
لا أَذمُّ الدنيـا وإِنْ تـكُ سـجنًا … فمَـعَ الحـبِ تسـتطابُ السـجونُ
جَـمَـعَـتْـنا كالطيـرِ فـوقَ الروابـي … تتغنَّـى... وذو السـهامِ كميـنُ
لا تخـفْ أَن يَطـولَ بُعـدُكَ عنَّـا … لَـم يَطُـل عُمـرُ مـن بَرَتْـه الشجونُ
كلُّنـا راحـلٌ رحيلَـكَ... لكـنْ … ليـس نَـدري متـى الرحيـلُ يَحيـنُ
فانتظِرْنـا... فإِننـا عـنْ قريـبٍ … سـنلاقيكَ... والزمـانُ ضميـنُ
فوَداعًـا جبرانَــنا.. يـا خليـلًا … عشِـقَتْه قلوبُنـا والعيـونُ
كنـتَ حيًّـا وهكـذا سـوف تبقـى … وحبيبًـا وهكـذا سـتكونُ
ليـس مـا قلتُـهُ لـكَ اليـومَ تأْبينًـا … فذكـراكَ وحدَهـا التأْبيـنُ

«أَوراق الخريف» ص ١٨٩ – ١٩٤



احتفال أعضاء «الرابطة القلمية» بعميدهم جبران عشية ذكرى مولده،
وفي يوبيله الفضي – ٢٥ سنة كاتبًا ومؤلفًا.
الاحتفال في فندق ماك آلپن الفخم في نيويورك – مساء السبت ٥ كانون الثاني ١٩٢٩.



رشيد أَيُّوب: ستبقى العميد

إلى روح أخي جبران شوقي وحنيني

لـم يبـقَ يـا جبـرانُ إلَّا الخيـالْ قـد حـالَ هـذا البُعـد دون العَيـانْ

حتـى إذا خُضتُ الليالي الطـوالْ أطلقـتُ للأَحـلام فيهـا العِنـانْ

وطِـرتُ فـي مركبـي

إلـى حمـى الكوكـبِ

ولـم أَزلْ حتـى حطَطْتُ الرحـالْ عنـد أُولي الأَلبـاب وسْط الجِنـانْ

لَـمَّا مشَـوا فـي مهرجـان الجَـلالْ أَلَـم تَـرَ «الدرويش» في المهرجانْ؟

يمشـي مـع الموكـبِ

يتلـو كتـاب «النبـي»

وينفـخ النـايَ بلحـن الرّهـا تـذكارَ عهْـدٍ مـن قديـم الزمـانْ

يـا نجمـةً عنّـا خفاهـا الضّبـابْ ولـم تـزلْ بيـن الـدراري تـدورْ

غـرَّاءَ توحـي مـن وراء الحجـابْ فتمـلأُ الدنيـا بَـهاءً ونـورْ

مـن وَحيهـا المُنـزَلِ

تـاللّهِ لـمْ تَأْفلـي

وَوَرْدةً فاحـت طواهـا التـرابْ ولـم نـزَل نشـتمُّ منهـا العطـورْ

وإن ذكرْناهـا فتحنـا الكتـاب ثـم اجْتمعنـا بيـن تلـك السّـطورْ

تـاللّهِ لـمْ تَذبلـي

كـلَّا ولـم تهملـي

بلـى جنـاكِ المـوتُ فوّاحـةً وتـوّجَ التاريـخَ حتـى النشـورْ

مـن أَيـن للعليـاء يـا ابـنَ الفنـونْ مثلـكَ إن أَضنَتْـه أَبـدى ارتيـاحْ
ومَـنْ إذا هـدَّتْ قـواه الشـجونْ رنـا إلـى الدنْيـا بعيـن السَـماحْ
وسـهْمُها صائِـبُ
وقلبُـهُ ذائِـبُ؟
حتـى اذا وفيـتَ عنـك الديـونْ مـن كبِـدٍ قـد أوهنَتْهـا الجـراحْ
أَطفأَ شخص الموت سُرْج العيونْ منـكَ كمـا يطفـئُ عنـد البـراحْ
سـرَاجَهُ الراهـبُ
إذا انقضـى الواجـبُ
ورحـتَ ترعـاكَ نجـوم الدجـى حتى بلغتَ المجد عند الصباحْ

◆◇◆

رابطـةٌ كانـت تضـمُّ الرفـاقْ وأَنـتَ مبناهـا وبيـتُ القصيـدْ
ولـم تـزلْ مـن بعـد هـذا الفـراقْ وإن يكـنْ جبـران عنهـا بعيـدْ
وليـس مـن أَوْبَـةِ
حتـى ولا زَورةِ
فنحـنُ أَصحـاب الحواشـي الرِقـاقْ ووَجْدُنـا فـي كل يـوم جديـدْ
إن أَبطـأَ المـوتُ بـحُكْم اللحـاقْ فـروحُ جبـران سـتبْقى العميـدْ
والطيـرُ فـي الجنّـةِ
تقـولُ إن غنَّـتِ
أَهـلًا بفنَّـانٍ قضـى عمـرهُ ولـم يَـمتْ فـي الفـنِّ إلّا شـهيدْ

«هيَ الدُنيا»[11] ص ٣٣٥ – ٣٣٨

---

١١ صدرَت طبعتُهُ الأولى في نيويورك سنة ١٩٤٠، مع مقدمة من شكرالله الجُـرّ صاحب مجلة «الأَندلُس الجديدة» في ريُّو دي جانيرو (البرازيل).

«الصومعة»

في هذا المبنى [الرقم ٥١ – الشارع العاشر غربًا] سكنَ جبران آخرَ ٢٠ سنة من حياته (١٩١١–١٩٣١) على مرحلتَين: الأُولى منذ الجمعة ٢٢ أَيلول ١٩١١ حين اتخذ غرفةً ضيّقة في الطبقة الثانية من المبنى، إِيجارُها الشهريُّ ٢٠ دولارًا، والأَخيرة بعدما كتب نهار الجمعة ١٤ شباط ١٩١٣ إِلى ماري هاسكل: «**أَمامي فرصةٌ لاستئْجار ستوديو أَوسع في هذا المبنى ذاته. هو جميل وفسيح، وأَكبر بثلاث مرات من الستوديو الذي أَنا فيه حاليًّا. النورُ فيه جيِّدٌ يدخله من الشمال والجنوب ومن السقف، كما في محترَفات باريس. مُلائمٌ جدًّا للعمل. فضاؤُهُ فسيح. إِيجاره الشهريّ ٤٥ دولارًا، ويلزمني نحو ٥٠ دولارًا كي أُنظِّفَه وأُجَهِّزَه. أَنا حائرٌ منذ**



الإِشارة إِلى الشارع العاشر غربًا

أَيام ولا أَعرف ماذا أُقرِّر. هل أَستأْجرُهُ إِذا تركوه لي؟ أَجيبني ولو بكلمة موجَزة على بطاقتكِ الشخصية. أَعرف أَنكِ مشغولة جدًّا». فأَجابتْه صباح اليوم التالي (السبت ١٥ شباط) في رسالة عاجلة: «**أَكثرُ ما أَفرَحَني في رسالتِكَ أَمس: ذِكْرُكَ أَمرَ الستوديو بـ٤٥ دولارًا. إِذهبْ فورًا صعودًا نزولًا وفي كل اتجاه، واستأْجِرْهُ يا حبيبي قبل أَن يُفلِتَ منك**».

... واستأْجَرَهُ وانتقل إِليه نهار الخميس ١ أَيَّار ١٩١٣، وفيه بقيَ حتى وفاته.

هذا المحترف الذي اشتُهِرَ بـ«الصومعة» كان يجمع أَصدقاءَه، يتسامرون، يقرأُون له نتاجَهم، ويُصغُون إِلى آرائه.



المبنى ٥١ (سنة ١٩١٤)
كما كان حين سكنَه جبران

وفي هذا المحترف وِلدَت الصيغة الثانية لـ«الرابطة القلمية» مساءَ الثلثاء ٢٨ نيسان ١٩٢٠، وانتخبَه رفاقُه عميدَهم.

كثيرون وصفوا تلك «الصومعة».

أَكتفي هنا منهم باثنين: رفيقه ميخائيل نعيمه، وصديقه المونسنيور منصور أسطفان.

١) وصْفُ نعيمه

«الصومعة قائمة في الطبقة الثالثة والأَخيرة من بنايةٍ قديمة شعرتُ حين دخلْتُها كأَنني داخلٌ ديرًا. ممرَّاتُها كالسراديب، ينيرُها مصباح ضئيلٌ من الغاز فيَطرح أَخْيِلةً على جدرانها المظْلمة. صعدنا سلالم خشبية تدور دوراتٍ لولبيةً، وتئِنُّ تحت أَرجلنا حتى نكاد نجفل من أَنَّاتها. أَخيرًا وقفنا إِلى اليسار من رأْس السلَّم، أَمام باب خشبيّ قاتم اللون، في وسطه حلقة من الحديد ما طرقنا بها عليه حتى انفتح، وبان



المبنى ٥١ (سنة ١٩٣٨) بعد سبع سنوات على وفاة جبران

من ورائه جبران في جبَّة التصوير وهي من الكتَّان التِبْنيّ اللون وأَشبهُ بقميص واسع يُلْبَس من فوق الرأْس ويصِل حتى الركبتَين.

جلستُ على ديوان قديم وجلس رفيقاي [نسيب عريضة وعبدالمسيح حداد] على كرسيَّين قديمَين لم يكن في الصومعة كَرَاسٍ غيرُهما. جلس جبران على دكَّة التصوير الخشبية وهي من نحو مترٍ مربَّع بعُلُوِّ شبرٍ أَو أَقلّ. أَمامَنا في الحائط الشرقي شبْهُ موقدٍ افرنجيٍّ في قلبه وجاقٌ حديديٌّ صغيرٌ للتدفئَة بالحطَب أَو بالفحم الحجري. وفوق رفِّ الوجاق قنديلٌ من الغاز كان نورَنا الأَوحدَ في تلك الليلة.

أَخذْتُ أَتأَمل الصومعة وما فيها: طولها نحو ثمانية أَمتار، وعرضها نحو ستة. إِلى يسار الموقد سريرٌ واطئٌ صغيرٌ من الحديد بغير قوائم ناتئة عند رأْسه وقدمَيه، عليه حِرام من الصوف ووسادات مختلفة الأَشكال والأَلوان. هو سرير جبران. وبجانبه خزانة صغيرة عليها كتُب وأَوراق. إِلى يمين الموقد منْصب التصوير ووراءَه منضدةٌ

عليها كتبٌ وأَوراق. إِلى يمين المقعد، حيث أَنا، طاولةٌ خشبية مستديرة عليها كذلك كتُب وأَوراق ودفاتر ومحابر وأَقلام، بالقرب منها مَحافِظ متفاوتة الحجم من الكرتون الأَسود، هي مَحافِظ الصُوَر.

في الحائط الشمالي شبابيك ثلاثة عليها ستائرُ سُود. ومثلُها في الحائط القِبْلي. عند متوسط الحائط الشمالي رفوفٌ اصطَفَّ عليها نحو المئتين من مختلف الكتب. في الجهة الشمالية من السقف العالي نوافذُ من زجاجٍ عليها ستائرُ سودٌ تُزاح عند الحاجة إِلى إِدخال النُور. على

داخل «الصومعة»: الستوديو في لقطة عامة

الحائط الغربي قطعةٌ كبيرة من نسيجٍ قديمِ العهد تمثِّل يسوع المصلوب. وفي الزاوية الشمالية من ذاك الحائط بابٌ يُؤَدِّي إِلى مَخدعٍ ضَيِّق، في جهته اليُمنى حنفيةُ ماءٍ ومغْسلةٌ وبضعةُ صحون وملاعق وقنانٍ وطاسات خشبية ولوازم القهوة ووجاقٌ صغير للطبخ على الغاز. وفي جهته اليُسرى مستودعٌ لثياب جبران، فوقه رفٌّ تجمَّعَت عليه جرائد ومجلات قديمة وأَشياء كثيرةٌ سواها علاها الغُبار»[١].

٢) وصفُ المونسنيور منصور أسطفان

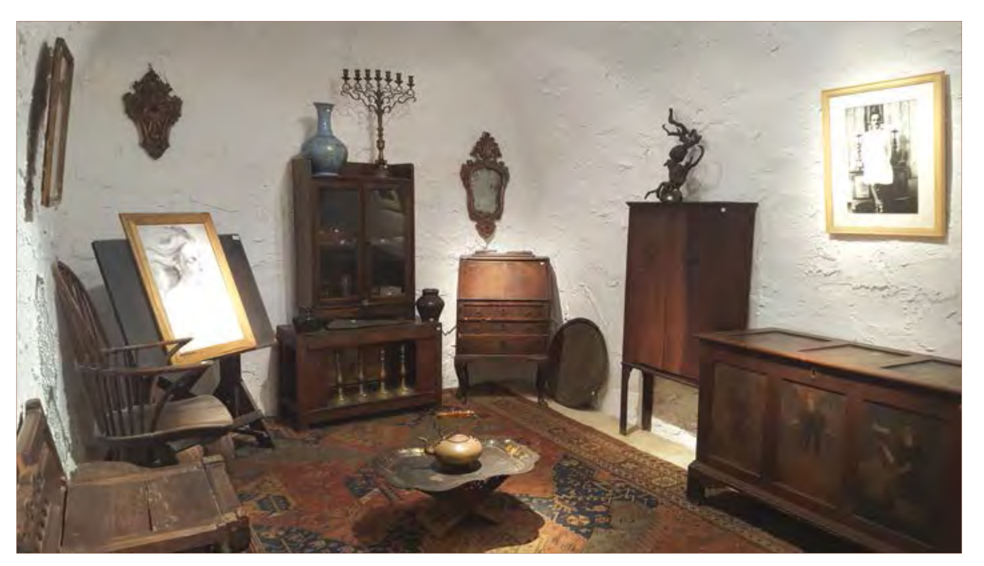
«البناية قديمة من ثلاث طبقات. لها من فوقُ قرميدٌ عتيق، ومن تحت مدخلٌ واسع عن جانبيه درَج مُزدوج. صعدْنا إِلى الطابق الأَول فالثاني فالثالث، وانعطفنا

١ ميخائيل نعيمه، «**جبران خليل جبران**»، مؤَسسة نوفل، الطبعة الثامنة ١٩٧٨، ص ١٥٢ و١٥٣. وهو وصَفَ الصومعة حين زارها للمرة الأُولى ذات ليلةٍ من ١٩١٦ برفقة نسيب عريضة وعبدالمسيح حداد.


المونسنيور منصور أسطفان

يسارًا في رواقٍ طويلٍ مظْلمٍ قليلًا. أَولُ بابٍ من تلك الناحية كان بابَ جبران. لم نطرقْهُ. كان مفتوحًا، فدخَلْنا.

الباب وسْطَ غرفة وحيدة، مستطيلةٍ على طولٍ لافت وعرْضٍ ضيِّق. قُبالةَ الباب عند الحائطِ المقابِلِ طاولتان: على اليُمنى شرشفٌ أَبيضُ فوقَه تمثال العذراء (من نَحو ٢٠ سنتم) تحمل الطفل على زندها، عن جانبَيه شمعدانان نحاسيان فيهما شُموع ذائبة، وعلى الطاولة اليُسرى كأْسٌ وصينية وشمعدانان نحاسيان آخَران فيهما شُموع ذائبة فوق الشرشف الأَبيض.


زاوية من الستوديو (متحف جبران)

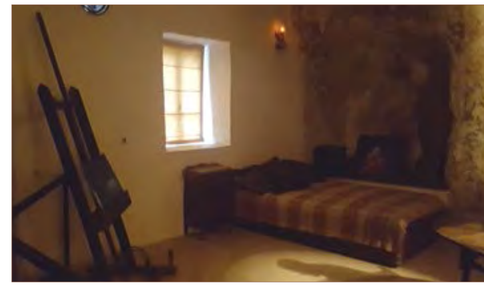
في الركن، كسائر البيوت الأَميركية، موقدةٌ لإِشعال الحطَب أَو الفحم الحجري أَو الفحم الخشبي، أَمامها إِسكَمْلَةٌ صغيرةٌ عليها صدرٌ نحاسيٌّ عريضٌ مستديرٌ يحمل ركوةً نحاسية للقهوة، حولها ثمانية فناجين في قوالبَ نحاسية.



هنري زغيب في «غرفة» جبران اليوم كما هي في متحفه
مثلما كانت عليه بأَغراضها جميعها في «صومعة» نيويورك

إِلى الزاوية اليسرى من باب المدخل: تَـخْتٌ واطئٌ بسيطٌ، حِرامُهُ سجَّادة عجَمية، فوقه تمثال المسيح المصلوب، عن جانبه إِلى الحائط لوحة زيتية قديمة وكبيرة (بالحجم الطبيعي) للنسوة اللائي رافقنَ المسيح إِلى الجلجلة.





سريرُه الواطئ ومَلْوَنُه (متحف جبران)

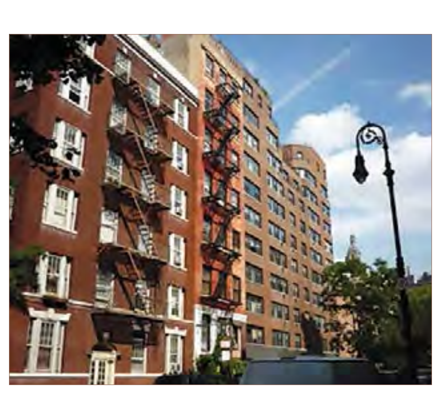
إِلى يمين الباب (النصف الأَيمن من الغرفة) لوحاتٌ مُختلفةُ الأَحجام، أَدواتُ تصوير، ورسومٌ غيرُ مكتمِلة.

ليس في الغرفة حَمَّام، لأَنَّ هذا كان مشتَرَكًا للطابق كلِّه كما حالُ هذه الأَبنية المُتَقَشِّفة.

فيما نغادر الغرفة، بادرتُ نعوم: «كان ناسكًا هذا الرجل. يعيشُ في صومعة»[٢].



المبنى ٥١ في صورة قديمة عند مطلع القرن العشرين.



المبنى ٥١ كما هو اليوم بعدما بلدية نيويورك هدمَت المبنى القديم

٢ من حديثه إِليَّ في منزله (غوسطا–كسروان) مساءَ الأَربعاء ١٤ أَيلول ١٩٨٣، أَوردْتُهُ كاملًا في كتابي «**جبران خليل جبران، شواهدُ الناس والأَمكنة**»، منشورات درغام، بيروت، الطبعة الثانية ٢٠١٢، ص ٤٠ و٤١. وهو وصَفَ الصومعةَ حين زارها، برفقة نعُوم مكرزل صاحب «الهدى»، صباحَ السبت ١١ نيسان ١٩٣١، غداةَ وفاة جبران في المستشفى عند الساعة ١٠:٥٥ من الليلة السابقة.

من حصاد الذكريات

نيويورك قبل ٤٥ عامًا[1]

بقلم وليم كاتْسِفْليس
عضو الرابطة القلمية

من أَقوال الرومان: «الوقت يَطير». ويخال لي، وأَنا أَرجع بالذكريات القهقرى عبر السنين، أَن الوقت حقًّا «يطير»، وأَنني وصلتُ إلى مرفَإٍ نيويورك «أَمس» على متن الباخرة الأَميركية «كِنْغْسْتون»، في حين أَن هذا الـ«أَمس» كان في الواقع أَيلول من سنة ١٩٠٢، أَي قبل ستة وأَربعين عامًا!

ولا أَزال أَذكر أَن الأَثر الذي تركَتْه نيويورك في نفسي لدى إلقائي عليها النظرة الأُولى، كان غيرَ جميل. فقد استهجنتُ منها منظر بناياتها الشامخة، تنطح السحاب هنا وهناك من غير تَناسُبٍ ولا انسجامٍ مع ما يحيط بها من البنايات والمنازل. وها أَنا، بعد أَن قضيتُ فيها معظم أَيام حياتي، لا أَزال عند رأْيي الأَوَّل فأَقول إِنها دون باريس واسطنبول جمالًا وروعةً وفتنةً.

لمَّا وطِئَت قدماي أَرض نيويورك لم يكن للمهاجرين من الشرق الأَدنى أَسماء إقليمية – كـ«سُوريّ» و«لبنانيّ» و«فلسطينيّ» – بل كانوا جميعهم «سوريين» في نظر الأَميركيين. أَما في أَحيائهم الخاصة فكانوا «أَبناء عرَب» أَو «أَبناء عْرُوب»، وكانوا يَعُدُّون دولاراتهم بالآحاد والأَنصاف والأَرباع، فصاروا اليوم يَعُدُّونها بالآلاف ومئات الأُلوف وبالملايين.

---

[1] عن مجلة «الأَديب» – كانون الثاني ١٩٤٩، ص ١٣، ١٤، ١٥.

حالة المهجر الأَدبية

حين يذكر القارئُ العربي مهجر الولايات المتحدة، تتبادر إِلى ذهنه أَسماء أَعلام النهضة الأَدبية المهجرية المباركة الذين تألَّقوا في سمائه تألُّقَ النيِّرات: جبران خليل جبران، أَمين الريحاني، ميخائيل نعيمه، نسيب عريضة، وسواهم من هذه الطائفة الكريمة. غير أَني، لَمَّا حططتُ رحالي في نيويورك، كان هؤُلاء حُلمًا جميلًا بعدُ في ذمة الزمان. فالشاعر رشيد أَيوب وسليم كسباني ووديع باحوط وندره حداد كانوا منصرفين إِلى التجارة بَعيدِين كلَّ البُعد عن هياكل ربة الشعر والأَدب. أَما ميخائيل نعيمه ونسيب عريضة وإِيليا أَبو ماضي وعبد المسيح حداد فكانوا لا يزالون في الوطن القديم، وأَمين الريحاني كان يتعلَّم فن التمثيل وأَحيانًا ينشر مقالاتٍ تمنَّى بعدئذ لو استطاع مَحْوَها من الوجود. وأَما جبران فكان في بوسطن مُنصَبًّا على إتقان فن الرسم، ويَنشُر حينًا بعدَ آخَرَ مقالاتٍ بأُسلوب مبتَكَر في جريدة «المُهاجر» (New York) لصاحبها الكاتب القدير أَمين الغريِّب.

أَنا وجبران قبل نيويورك...

أَذكُر أَني اجتمعتُ بجبران لأَول مرة في الوطن القديم. كنتُ في بستانٍ لنا مع بعض الرفاق في الفيحاء (طرابلس). وإِذا بصديقنا المرحوم عزيز بك راجي الضاهر يدخل علينا ومعه فتًى نحيلُ الجسم حسَنُ الهندام. عرَّفه إِلينا وقال عنه إِنه شاب جاء من الولايات المتحدة حديثًا لمتابعة دروسه في مدرسة «الحكمة». أَلفيناه شابًّا مثقَّفًا حُلْوَ الحديث فأَنِسنا به وأَحببناه. كان هذا الشاب جبران خليل جبران.

... وفي نيويورك

ثم كرَّت السنون، ولم نجتمع ثانيةً إِلى أَن ساقت التقادير رِكابي إِلى بلاد العم سام. وذاتَ ليلة كنت زائرًا صديقي المرحوم نجيب دياب صاحب جريدة «مرآة الغرب» في منزله في بروكلن. قال قائل: «جاء جبران من بوسطن، وهو ضيفٌ على

الأُستاذ أَمين الغريب. هيًّا بنا نزورهما». وقال لي آخَر: «... وأَنا سأُعَرِّفك بجبران» فقلتُ: «دعْ عنكَ هذا الأَمر. لعلَّه يتذكَّر اجتماعنا السابق». وفعلًا، ما كادت تقع عَينا جبران عليَّ حتى ناداني باسمي وذكَّرَني باجتماعنا في فيحائنا العزيزة، وكان قد مضى عليه نحو عَقْد من السنين! ومنذ ذلك الحين تمكَّنَت بيننا صداقةٌ متينة لم تنقطع طوال ثلاثين سنة، إِلى أَن قطعَتْها يد المنون.

ولادة الرابطة القلمية

لا شك في أَن القارئَ يوَدُّ أَن يعرف كيف تأَسست «الرابطة القلمية» وما هي الغاية منها. وإِني، على الرغم من ضيق المقام، راسمٌ في ما يلي خطوطًا رئيسة لا تزال عالقة في الذاكرة: كان من عادة بعض أُدباء نيويورك أَن يجتمعوا، بعد الانتهاء من العمل، في إِدارة إِحدى الجرائد العربية[٢] لتبادُل الرأْي والاستئْناس. فلما جاء جبران نيويورك من بوسطن للإِقامة الدائمة فيها، وجاءها ميخائيل نعيمه من سياتل (في ولاية واشنطن) أَخذْنا جميعًا نشعر بوجوب عقْد جلساتٍ منظمة. قرَّ رأْينا على تأْسيس رابطة قلمية تكون غايتُها تشجيعَ الإِنتاج الأَدبي العصري، والتعاونَ مع العناصر الأَدبية المجدِّدة في الأَقطار العربية لرفع مستوى الأَدب وخدمة أُمتنا بأَقلامنا. ولم تكن «الرابطة» جمعيةً أَو ناديًا بالمعنى المعروف بل كانت مجلسًا يضم رفاقًا تآلفَت أَذواقهم وانسجمَت منازعهم الأَدبية والفكرية. والحقيقة أَن تنظيم «الرابطة» يعود الفضل الكبير فيه إِلى «ميشا» نعيمه[٣]. فهو، لو لم يكن كاتبًا وشاعرًا، لاستحقَّ أَن يكون قائدًا عسكريًا. فإِنه رجل إِداري مدقِّق ومنظِّم من طراز عال.

أَقف هنا لأَقول كلمة صريحة، وهي أَنْ لم يتوهَّمْ أَحد من عمال «الرابطة» أَنه زعيم أَو مبدع في حقل الأَدب، أَو انه يفضّل سواه من الأُدباء المعاصرين

---

٢ يقصد الكاتبُ هنا مجلة «السائح» لعبدالمسيح حدّاد، بعدما كانت احتجبَت مجلة «الفنون» لنسيب عريضة وكانت إِدارتها أَيضًا ملتقى الأُدباء.

٣ اسم ميخائيل نعيمه تَحبُّبًا بين رفاقه.

الناهضين. كنا جميعًا نُعجَب بمواهب الأُدباء المجدِّدين في لبنان وسوريا ومصر والعراق، ونُقدِّرها حق قدْرها، ونشعُر أَنَّ من واجباتنا تشجيعَ الأُدباء المجدِّدين لينطلقوا من القيود الأَدبية المرهِقة التي تَحُول دون إِظهارهم مواهبَهم الكامنة، ولذلك صمَّمنا على أَن تكون «الرابطة» ذاتُها هي القدرة الصالحة والدليل إِلى سواء السبيل. وكانت مطامحنا لا تعرف حدًّا. كنا نأْمل أَن نجمع من المال ما يُمَكِّننا من زيادة الإِنتاج الأَدبي المفيد لا في المهجر فقط بل في لبنان ومصر وسوريا وسواها، بطبع المؤَلفات القيِّمة على نفقة «الرابطة». على أَن هذا الحلم الجميل لم يتحقَّق لأَن المغتربين – بأَغلبيتهم الساحقة – كانوا ولا يزالون تحت تأْثير ما يصح أَن نسمّيه «نفسية القرية»، أَي أَن نظَرهم إِلى واجباتهم الاجتماعية لا يتجاوز القرية أَو البلدة التي هاجروا منها، كترميم كنيسة، أَو إِنشاء مدرسة أَو مصحّ، أَو ما أَشبه ذلك من المشروعات المحلية المحدودة المرمى. أَما الأُفق البعيد للإِنسانية الشاملة فهذه كانت ولا تزال غامضة عليهم. على أَني غير متجاوزٍ حدَّ الإِنصاف بقولي إِن «الرابطة» قد أَدَّت خدمة جليلة للأَدب العربي، وكانت مصدرَ اتجاهات فكرية وأَدبية هامة ظهر أَثرها جليًّا في الإِنتاج الأَدبي المعاصر.

جبران والريحاني

كان جبران والريحاني صديقَين لا يفترقان مدة طويلة، يصاحبان كبار الأُدباء الأَميركيين وفنانيهم. ولكن «أَبناء الحلال» – وأَعني طبعًا أَهل النَميمة – لم يتركوهما حتى أَفسدوا عليهما صداقتَهما فتحوَّلت الصداقة إِلى فُتُور فَنُفُور. وأَذْكُر أَني اضطررتُ مرةً، إِذ كنت عريفًا لحفلة وديع شكري بخاش، إِلى أَن أَمنع كليهما من الخطابةِ مخافةَ أَن تصير خطبتاهما مناظَرةً شخصية مبطَّنة بما لا يحب لهما أَصدقاؤُهما. لكنهما، غفرَ الله لهما وأَوسعَ لهما في رحمته، تصالحا بعد ذلك، وإِنما بقي في القلب بقية من المرارة.



الصفحة الخامسة الهدى

السنة الرابعة والثلاثون العدد ١٧٤ الخميس في ١٧ ايلول سنة ١٩٣١

جريدة الهدى اليومية في بروكلن نيويورك

الريحاني يبكي جبران

تزداد ظمأً كلما شربت — تزداد احتراقًا كلما ارتوت

فودعت باريس وما هجرتها

— ٧ —

حملت الارث الفرنسي على الارث الشرقي الى مدينة حديثة

المجد — لا تكبرت بتراث الثقافة والفنون

مدينة في العالم الجديد — قلبها من حديد — وعقلها من

معادن الذهب والفضة

هناك بين عجيج يروع — وضجيج يصم حيث تذبح الاصوات

الوديعة — وتختنق الاشواق العالية

في قلب التيار القهار — المبعد المستعبد جبابرة العمل

في ظلال ناطحات السحاب — تستعيض عن الشمس بالكهرباء

وربما من الجادة الساحرة التي تلعب باعصاب العالم المالي فتثيرها

وتسكنها

هناك في مدينة الحديد والذهب — والاحلاء التي يعمقها

تأْكيدًا ما ورد في مقالة وليم كاتسفليس عن قوة العلاقة بين الريحاني وجبران، هوذا مقطع من رثاء الريحاني صديقه جبران كما صدر في جريدة «الهدى» اليومية – نيويورك (عددها ١٧٤ – السنة ٣٤ – الخميس ١٧ أَيلول ١٩٣١ – ص ٤ و٥) بعنوان «الريحاني يبكي جبران»، نقلًا عن جريدة «زحلة الفتاة» في لبنان. ومطلع النص: «جبران أَخي ورفيقي وحبيبي... إِنَّ للشهرة يومًا، وإِنَّ للحُزن يومًا، والباقي للُبنان (...)، وإِنَّ ترابي غدًا في وادي الفريكة يناجي ترابك في الوادي المقدس».

بعض صفات جبران

كان جبران طيِّب القلب، رقيق العاطفة، صادق المودَّة، لم يخُن في حياته صديقًا ولم ينكث لأَحد عهدًا. أَحيانًا عاب عليه بعضُهم الشذوذ، وأَنا على يقين من أَن هذا البعض لم يقصد الشذوذ لكن خياله الحادَّ كثيرًا ما كان يُؤَثِّر فيه تأْثير الخمرة. فأَنا عرفتُ جبران في مواقفَ كثيرة تدفَّقت عليه الأَلحان فغصَّ بها ولم يتمكَّن عندها من التعبير عنها لفظًا ولا كتابةً. وإِذا صح أَنه قال مرةً إِنه «وُلِدَ في بلاد الهند»، فعندي أَنه قال هذا القول من قبيل المَجاز كأَنه أَراد أَن يقول إِنه ابنُ العالم كله، لكنه لم يحسن التعبير وليس من قبيل التنصُّل من لبنانيته. فقد كان جبران فَخورًا جدًّا بلبنان ولبنانيَّته. وأَظنُّه الوحيدَ الذي، بين أَدباء «الرابطة»، لم يتجنَّس بالجنسية الأَميركية.

جبران والانتقاد

من الغرابة أَن جبران، على الرغم من رحابة صدره ورحابة عقله، كان يَكره كرهًا شديدًا انتقادَ الناس إِياه، ويتأَلم منه غاية الأَلم حتى وإن كان مصدَره الحاسدون والمتعنِّتون. وكان مِن أَكره الانتقاد عليه: انتقاد اللغويين. وعندي أَن سبب نقمة جبران الحقيقي هو ثورتُه على الجهل والتعنُّت والرجعية والتعصُّب، وغيرتُه على رسالته الروحية التي كان يؤْمن بها إِيمان المسيحي بسِرِّ التَجَسُّد والمُسلِمِ برسالة محمد. وكان رقيق العاطفة، سريع التأَثُّر، يترقرق الدمع من عينيه لدى أَقل مناسبة. وإِني في حياتي كلِّها لم أَلْقَ إِنسانًا أَسرع إِلى ذرف الدمع من جبران خليل جبران. فقد كان مرهفَ الإِحساس لدرجة قصوى.

جبران النديم

أَما جبران الرفيق والنديم فلم يكُن في الدنيا أَحلى منه ولا أَخفّ منه ظلًّا. متى دارت الكأْس وجلسنا نَتَنَادم، أَشرق وجهه الملائِكي بنور المحبة والبهجة فبدا محاطًا بهالةٍ من السحر والفتنة. كان يساهم في تبادل الدعابة والنكات لكنه كان عفيف اللسان. كنا جميعًا – باستثناء ميشا نعيمه – نتناسى عفَّة اللسان أَحيانًا، ولا سيما إِذا اقتضت النكتة ذلك. أَما جبران، فطوال صداقة ثلاثين سنة، لم أَسمعْه يتفوَّه بكلمة واحدة تستحي أَن تتلفَّظ بها العذراءُ المحتشمة. وكانت تَروق له نِكات رشيد أيوب، أَمير الندماء وزين المجالس، وإِذ كان جبران يشارك فيها، كان رشيد أَيُّوب يتلَفَّت إِليه متظاهرًا بالغضب ويصيح: «وإِنتَ كمان يا عميد كيت وكيت؟» فيُغرق جبران في الضحك ويلَذُّ له سماع تلك الشتائم الحلوة من فم الدرويش الحبيب النديم الذي لن تخلقَ الأَيام له خلفًا.

حُب جبران رفاقَه

لا أَنسى وجه جبران حين كان أَحد الرفاق يقرأُ علينا مقالًا أَو قصيدة قد أَتَمَّها حديثًا وأَعجبَت جبران، فكان في ذلك الموقف فرِحًا معتزًّا، شأْنه شأْن الأُم تراقب

خطَوات طفلها الأُولى. كان جبران يحب رفاقه جميعهم. لكني أُرجِّح أَن أَقربهم إلى قلبه الكريم كان نسيب عريضة فعبد المسيح الحداد. وهو اختصر اسم عبد المسيح فكان يدعوه «عبدُول»، وكان شديد الإعجاب بعبقرية نسيب وغزارة علْمه ودماثة أَخلاقه.

تلك أَيام هنيئة حلوة مرَّت مرور أَحلام الشباب بين ثلوج الشتاء المتراكمة. وأَسأَل نفسي: «أَحقيقةً كانت جميلةً ولذيذة؟ لا يزال طعمُها في فمي وبلسمُها في قلبي».

في ذمة الله مَن تولَّى مِن إخواني الأَحبة، وفي حفْظ الله مَن بقيَ منهم حيًا يُفيد الإنسانية بثمرات قلبه وعقله.

نيويورك – وليم كاتسفليس



مأْدبة عشاء لوليم كاتسفليس على شرف صديقه جبران – فندق پنسيلڤانيا – نيويورك – السبت ٢٤ أَيار ١٩٣٠.
وليم إلى يمين الصورة وجبران إلى يسارها.
ولعله آخر ظهور عام لجبران قبل دخوله في فترة الآلام التي ظلَّت تُرهقه وتُنهكه حتى قضت عليه بعد ١١ شهرًا من تلك المأْدبة.



فندق پنسيلڤانيا الفخم (نيويورك) في صورة له من أَول عهده بعدما اكتمل بناؤُه (نحو ١٩١٩).

غادَرَ وطنه لبنانيّا، ولبنانيّا عاد إليه

ثلث قرن في الولايات المتحدة ولم يطلب الجنسية الأَميركية

الذي كتَبَ مُجاهِرًا: «لو لم يكُن لبنان وطني لاتَّخذْتُ لبنان وطني»...

... والذي كتَبَ: «لبناني وطنٌ أَدخلُهُ بالروح عندما أَمَلُّ النظَرَ إلى وجه هذه المدينة السائرة على الدواليب... وأَنا مقتنعٌ بلبنان وأَبنائه، وفي اقتناعي عذوبةٌ وسكينةٌ وطمأْنينة»...

... ظلَّ على ولاءٍ لِلُبنانه، ووفاءٍ لـ«المدينة السائرة على الدواليب».

لم يُنكِر فضلَ نيويورك عليه لكنه عاش فيها ثلث قرنٍ حتى لحظةِ وفاته فيها بما سوى بطاقة «الإقامة الدائمة»[1] دون تَقَدُّمِهِ بطلب الحصول على جنسية بلادها.

ها هو إذًا: لم يبقَ حبُّه لبنانَ تنظيرًا بل ظلَّ لبنانُ صدًى قويًّا لريشته وخيالًا حيًّا لقلمه، فلم تغِب عن خلفيةِ زيتياتِهِ خيالاتُ بْشَرّي وتلالِ الأَرز ووادي قنوبين، ولا غاب لبنان عن كتاباته العربية وحتى عن كتُبه الإنكليزية.

تلك كانت إرادته.

وُصولًا إلى إطارٍ تاريخيٍّ لإرادته تلك، بحثتُ عن وثائقَ ثابتةٍ تؤكِّدُ أَنه عاش لبنانيَّ الولاء ومات لبنانيَّ الانتماء، دون الإقلال من أَهمية أَن يظلَّ المُهاجرُ لبنانيَّ الوفاء والولاء ولو حمَلَ جنسيةَ البلاد التي هاجر إليها وعملَ فيها وبادلَها الوفاء لما تكون قدَّمت له من فرَص حياتية ومهنية.

[1] معروفة في التداول العام Green Card وهي رسميًّا Permanent Resident Card.

في سياق هذا الإطار التاريخي عثرتُ على أَربع وثائق:

١) بطاقة حكومية من دائرة الجنسية والهجرة الأَميركية تشير إِلى أَنه لم يتقدَّم منها بطلب التجنُّس.

٢) عبارة وردَت في مقال رفيق له في «الرابطة القلمية» وليم كاتسفليس يذكر أَنه لم يَطلب الجنسية الأَميركية.

٣) إِشارة في كتاب الباحث المُدقِّق روبِن ووترفيلد تفيد أَن جبران لم يلتحق بالخدمة العسكرية لأَنه ليس مواطنًا أَميركيًّا.

٤) شهادة مباشرة من الكاتبة جين جبران زوجة النحات البوسطني خليل جبران الذي آلت إِليه وثائقُ جبران بعد وفاته.

وأُكرِّر أَنْ لم يكن يقلِّل من لبنانيَّةِ جبران لو انه حَمَل الجنسية الأَميركية.

الغاية من هذا الفصل تبيانُ أَنَّ انتماءَه اللبناني جعلَه يُبقي على بطاقة وثيقته اللبنانية، ويَذكر في وصيته حصةً من تركته لبلدته بْشَرّي، ويطلب أَن يشتري دير مار سركيس ليُمضي بقيةَ حياته فيه. وهذه العناصر جميعها تأَمَّنَت فأَثْبَتَ حياتيًّا وعمليًّا قَولَتَه النظرية «لو لم يكُن لبنان وطني لاتَّخذْتُ لبنان وطني».

وفي ما يلي تفصيل الوثائق الأَربع.

١) بطاقة التسجيل

المعلومات العامة

الرقم المتسلسل : ٣٩

رقم الطلب : ٢٨٣٢

الاسم الكامل : جبران خليل جبران

عنوان الإقامة : المبنى ٥١، الشارع العاشر غربًا، مدينة نيويورك

العمر : ٣٥ سنة

الولادة : ٦ كانون الثاني ١٨٨٣

العرْق : أَبيض

الجنسية الأَميركية : **لم يتقدَّم بطلب الحصول عليها**

الجنسية الأَصلية : تركيَّة

المهنة الحالية : رسَّام، شاعر

ربّ العمل : لا أَحد

مكان العمل : المبنى ٥١، الشارع العاشر غربًا، مدينة نيويورك

أَقرب الأَنسباء: ماري خليل جبران (شقيقَتُه)

عنوانها : المبنى ٧٦، شارع تايلِر، بوسطن، ماساشوستس

التوقيع : جبران خليل جبران (توقيعُه بعد الإِقرار بقراءة هذه المعلومات أَعلاه وتأْكيد صحة ما ورد فيها).

وصف صاحب البطاقة

الطول : قصير

الجسم : نحيل

العينان : بُنِّيَّتان

الشَعر : أَسْوَد

تشويه جسدي: كلَّا، غير مُصَرَّح

توقيع الموظف مُسَجِّل البطاقة: وليَم بِلِر

التاريخ : ١٢ أَيلول ١٩١٨

ما مناسبة هذه البطاقة؟

بين ١٩١٧ و١٩١٨ طلبَت حكومة الولايات المتحدة الأَميركية من جميع الذكور المولودين بين ١٨٧٢ و١٩٠٠، مواطنين أَميركيين أَو سكَّانًا غير مُجَنَّسين، أَن يملأُوا هذه البطاقة بجميع المعلومات المطلوبة فيها.

ففي ٦ نيسان ١٩١٧ دخلَت الولايات المتحدة الحرب ضد أَلمانيا. وفي ١٨ أَيار ١٩١٧ أَتاح القانون لرئيس الجمهورية الأَميركي أَن يزيد من عدد الجنود في

المعركة، فطلبت الحكومة، لغايةٍ إِحصائية، أَن يملأ هذه البطاقةَ جميعُ الذكور على أَرض البلاد ممَّن بين الثامنة عشرة والخامسة والأَربعين من العمر، ذلك أَن فترة ١٨٨٠–١٩١٨ شهدَت دخولَ أَفواجٍ بالآلاف من المهاجرين الوافدين. لذا كان على الجميع، أَميركيين أَو غير مُجنَّسين أَميركيًّا، أَن يملأُوا تلك البطاقة، سواء التحقوا بالخدمة العسكرية أَم لم يلتحقوا.

تمَّ تسجيل البطاقات على ثلاث مراحل:

١) بطاقة المرحلة الأُولى في ٥ حزيران ١٩١٧: فيها ١٢ سؤَالًا، للمولودين بين ١٨٨٦ و١٨٩٦.

٢) بطاقة المرحلة الثانية في ٥ حزيران ١٩١٨: فيها ١٠ أَسئلة، للمولودين بين ٦ حزيران ١٨٩٦ و٥ حزيران ١٨٩٧.

٣) بطاقة المرحلة الثالثة في ١٢ أَيلول ١٩١٨: هي الأَوسع استفهامًا وفيها ٢٠ سؤَالًا، للمولودين بين ١١ أَيلول ١٨٧٢ و١٢ أَيلول ١٩٠٠ (وهي التي ملأَها جبران ووقَّع عليها).

جميع هذه البطاقات الأَصلية، موقَّعةً من مالئِيها شخصيًّا، موجودةٌ حاليًّا في قسم الحرب العالمية الأُولى لدى «مؤَسسة المحفوظات الوطنية» (ولاية جورجيا)، ونُسخُ أَشرطةِ الميكروفيلم موجودة لدى الفرع المحلي للمؤَسسة في كل ولاية.

بطاقة جبران

من هذا الشرح أَعلاه، ومن إِلزامية أَن يَملَأَ البطاقةَ كلُّ ذَكَرٍ على أَرض الولايات المتحدة ولو لم يكن أَميركيًّا، ومن الخانة رقم ١٤ حول «الجنسية الأَميركية» والجواب فيها: «لم يتقدَّم بطلَب الحصول عليها»، يَثْبُتُ أَن جبران أَمضى حياته في الولايات المتحدة حاملًا فقط «بطاقة الإِقامة الدائمة» لغير الأَميركيين. وباعتبار تاريخ البطاقة سنة ١٩١٨، يكون مضى عليه في البلاد ٢٣ سنة (مع سنواته الأَربع

في لبنان). ولو كان، طيلة إقامته الطويلة تلك، يريد الحصول على الجنسية لكان تَقَدَّم بطلبها ونالَها.

بطاقة جبران وفيها يظهر (في الخانة رقم ١٤) أنه لم يتقدَّم بطلب الجنسية الأَميركية

٢) شهادة وليم كاتسفليس

في مقالٍ نشره وليم كاتسفليس[٢]، وهو من رفاق جبران في «الرابطة القلمية» وأَحدُ أَقربهم إِليه، سرَدَ ذكرياته عن جبران وجاء في المقال: «كان جبران فَخورًا جدًّا بلبنان ولبنانيته. وأَظنُّه الوحيد الذي، بين أَدباء «الرابطة»، لم يتجنَّس بالجنسية الأَميركية».

٢ «من حصاد الذكريات – نيويورك قبل ٤٥ عامًا»، مجلة «الأَديب» – السنة الثامنة – العدد الأَول – كانون الثاني ١٩٤٩، ص ١٤.

٣) إِشارة روبِنْ وُوترفيلد

ذكَر روبن ووترفيلد[٣] في الفصل الثامن («أَصدقاء وخُصوم») من كتابه عن جبران[٤] ما ترجمتُه: «لم يلتحق جبران، كميخائيل نعيمه، بالخدمة في الجيش الأَميركي، لأَنه لم يكن يحمل الجنسية الأَميركية. مع أَنه، بين ١٩١٠ و١٩١١، كان مستعدًّا أَن يكون أَميركيًّا فترةَ أَبدى لماري هاسكل استعدادَه للزواج منها، إنما لا وثيقةَ تُثْبت أَنه أَقْدَم على طلب الجنسية».

٤) شهادة جين جبران

في رسالةٍ شخصية مني إِلى جين جبران[٥] (الأَقرب نسَبًا وحياةً إِلى صاحب «النبي») سأَلتُها عن نَيْل جبران الجنسية الأَميركية فأَجابتْني (١٦ آب ٢٠١٩) حرفيًّا: «لم يكن جبران مواطنًا أَميركيًّا ولا شقيقتُه مريانا. ونهار الجمعة ٦ كانون الثاني ١٩١١، في ذكرى مولده الثامنة والعشرين، نشر في «مرآة الغرب» مقطوعة «نحن وأَنتم» تتصدَّرُها بالإِنكليزية عبارة To M.E.H. حاول عبثًا مع ماري ترجمة المقطوعة إِلى الإِنكليزية، وغمَر ماري شعورُ أَن تتعلَّم العربية... وفي ذاك الشهر ذاته عرض عليها جبران أَن يكون زوجَها عبر تسوية وضعه رسميًّا وشرعيًّا باستعداده أَن يطلب الجنسية الأَميركية. لكنَّ حجَّة هذا العرض كانت ضعيفةً وغير كافيةٍ لتقْنِعْها بالزواج منه فسقط الموضوع من التداول. وأَظنها المرةَ الوحيدة التي وردَ ذكْر التجنُّس في

---

٣ بريطاني (ولد سنة ١٩٥٢)، كاتب ومترجم، له مجموعة كتب للأَطفال. يعيش حاليًّا في اليونان منصرفًا إِلى التأْليف. صرف سنواتٍ طويلةً باحثًا في سيرة جبران ومؤَلفاته، وكتابه عنه من أَبرز المراجع الأَكاديمية.

٤ «نبيّ – حياة خليل جبران وزمانه» (بالإِنكليزية)، نيويورك ١٩٩٨، ص ٣٢٤–٣٢٥، الحاشية رقم ٧٥.

٥ كاتبة أَميركية وضعَت، وزوجها النحات البوسطني خليل جبران، كتاب «خليل جبران، أَبعد من الـحُدود» (طبعة جديدة ٢٠١٧)، ولعلَّه أَكثر سِيَر جبران توثيقًا لأَن جميع أَوراق جبران ومخطوطاته وأَغراضه آلت إِليهما بعد وفاة جبران من شقيقته مريانا. وهو طبعةٌ مزيدة لكتابهما الأَوّل عن جبران (١٩٧٤).

رسائل ماري ويومياتها. وجبران، على أيِّ حال، كان فخورًا جدًّا بوطنه وبلبنانيَّته كما يظهر من مطلع مقطوعته «إلى المسلمين من شاعرٍ مسيحيّ»[٦]: «أَنا لبناني ولي فخرٌ بذلك، ولست بعثماني ولي فخر بذلك أَيضًا. لي وطن أَعتزُّ بمحاسنه ولي أُمَّةٌ أَتباهى بمآتيها، وليس لي دولة أَنتمي إِليها وأَحتمي بها».

وفي قراءة ما أَرسلَتْه لي جين جبران، يتأَكَّد ذكْرُها أَنَّ حُجَّة جبران لماري بالتجَنُّس أَميركيًّا «كي ترضى بالزواج منه»، كانت حجَّةً ضعيفة ولم تكن هي التي ستُغري ماري وتقْنِعُها به زوجًا، لأَن لإِعراضها عن الزواج منه سببًا آخر: فبعدما في يومية الأَحد ١٩ شباط ١٩١١ كتبَت: «**قلتُ في المحترف لشارلوت** [**تِلر**] **إِنَّنا، أَنا وجبران، نريد أَن نتزوَّج حين تأْتي الفرصة فأَجابتْني أَنها تمنَّت ذلك منذ التقَتْه في پاريس**»، عادَت ماري فكتبَت في دفترها يوم الجمعة ١٤ نيسان ١٩١١: «**فكَّرتُ أَنَّ يدَ الله تقودَ خُطايَ كي أَكون زوجتَه. لكنَّ فارق السِنّ يعلو حاجزًا بيننا**[٧] **وعائقًا دون زواجنا**»، وفي اليوم التالي (يومية السبت ١٥ نيسان) سرَدَتْ جِلْسة بينهما صرَّحت له فيها باكيةً: «**توقفتُ نهائيًّا عن تفكيري أَن أَكون زوجتَك، مع أَنني أَرغب في ذلك... أَنا سأَكون قريبًا على طريق الأُفول فيما أَمامَكَ طريقُ قمةٍ تتسلَّقُها**».

وهذا يُؤَكِّد ما كتبَتْه لي جين جبران[٨] أَنَّ مُجرَّدَ التجنُّس أَميركيًّا ليس هو السبب الذي كان ليُقْنعَ ماري بالزواج من جبران.

وهكذا يكون غادَرَ وطنه لبنانيًّا، ولبنانيًّا عاد إِليه.

٦ نشرَها في «الفنون»، السنة الأُولى، العدد الثامن، تشرين الثاني ١٩١٣، ص ٣٧ – ٣٩.

٧ الفارق بينهما عشْر سنوات (ولِدَت سنة ١٨٧٣ ووِلدَ سنة ١٨٨٣). وعند كتابة هذه اليومية كانت هي في الثامنة والثلاثين وهو في الثامنة والعشرين.

٨ في كتاب «خليل جبران، أَبعد من الحدود» ورَد في الصفحة ٣٥٩ عن يوميات ماري هاسكل: «كان جبران أَبدى استعدادَه للتجنُّس أَميركيًّا إِبَّان أَحاديثه مع ماري عن إِمكان زواجهما. إِنَّما بعدذاك لم يعُد يرِد في يومياتها أَيُّ ذكْرٍ لموضوع التجنُّس».

... مع أَنه دخل أَميركا بغير اسمه
وفيها فَقَدَ اسمه اللبناني

إِبَّان اشتغالي على البحث عن وثائقَ لهذا الكتاب، وصلَتْني وثيقة (أَكيدة لأَنها مصوَّرة عن الأَصلية)، هي نسخة «مانيفست» الباخرة التي رسَت في مرفإِ إِلِّيس آيلند (مانهاتن – نيويورك)، وترجَّلَ منها جبران وأُمُّه كاملة وأَخوه بطرس وشقيقتاه مريانا وسلطانة. ومن هذا «المانيفِست» يتبيّن أَن الفتى جبران (١٢ سنة) لم يدخل أَميركا باسم عائلته جبران بل رحمة، عائلة أَخيه البكر بطرس الذي يبدو كان هو مَن تقدَّم إِلى تسجيل اسمه في دائرة الهجرة، فتسجَّلت على اسمه العائلة كلُّها باسم Rhamé (كذا).

وهنا التفاصيل أُترجمها حرفيًّا كما ظهرَت في «المانيفست»:

سفينة المهاجرين الهولندية على خط «سْـپارْنْدَام» – رقم الرحلة ٢٧٣ – مرفأُ الإِقلاع: روتردام خط مرفإِ بولونيا (شمالي فرنسا، ١٣٠ كلم عن باريس). مرفأُ الوصول: نيويورك. تاريخ الوصول: ١٧ حزيران ١٨٩٥.

رقم المسافر: ٢٧١. الاسم: بطرس رحمة. العمر: ٢٠ سنة. الجنس: ذكَر. المهنة: تاجر. الوُجهة المقصودة: نيويورك.

رقم المسافر: ٢٧٢. الاسم: كامي Camé (كذا). العمر: ٤٠ سنة. الجنس: أُنثى. المهنة: –. الوُجهة المقصودة: نيويورك.

رقم المسافر: ٢٧٣: الاسم: جبران. العمر: ١١ سنة. الجنس: ذكَر. المهنة: –. الوُجهة المقصودة: نيويورك.

رقم المسافر: ٢٧٤. الاسم: ماريانا. العمر: ٩ سنوات. الجنس: أُنثى. المهنة: –. الوُجهة المقصودة: نيويورك.

رقم المسافر: ٢٧٥: الاسم: سلطانا (كذا). العمر: ٧ سنوات. الجنس: أُنثى. المهنة: –. الوُجهة المقصودة: نيويورك.

وسبَقَ أَسماء العائلة في اللائحة رقمُ المسافر ٢٧٠ باسم جريس حنا (٦ سنوات)، وتلاها الرقمُ ٢٧٦ باسم الياس ابرهيم (٢٥ سنة – مُزارع).



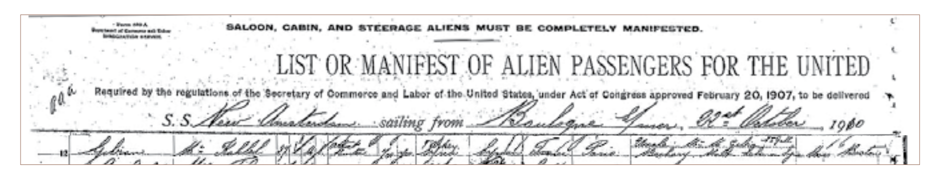
الباخرة «سپارندام» التي جاءت فيها كاملة رحمة وأَولادها (من مرفأ بولونيا) وبلغت ميناء نيويورك صباح الإِثنين في ١٧ حزيران ١٨٩٥.

No.	NAME IN FULL.	Age. Years.	Months.	Sex.	Calling or Occupation.	Country of which they are Citizens.	Native Country.	Intended Destination or Location, State or Territory.	passengers other than Cabin, whether Citizens of the United States.
268	Jorin Saliba	46	–	m	farmer		Syr[illegible]	Havanna	no
[illegible]	Carima Hanna	25	–	f	none			New York	[illegible]
270	Jorin -"-	6	–	m	"			-"-	[illegible]
271	Poutros Rhamé	20	–	"	merchant			-"-	[illegible]
272	Camé -"-	40	–	f	none			-"-	[illegible]
273	Jubran -"-	11	–	m	-"-			-"-	[illegible]
274	Marianna -"-	9	–	f	-"-			-"-	[illegible]
275	Sultané -"-	7	–	"	-"-			-"-	[illegible]

«مانيفِسْت» الباخرة وفيه تظهر أَسماءُ العائلة بِاسم «رحمة»

السيناريو الممكن أَن تلك الأُسرة وقفت بأَفرادها مجتمعين أَمام موظف الأَمن العام الذي قد يكون خاطب الأُم ولم تفهم لجهلها اللغة، فتوجَّه إِلى بكْر الأُسرة العشريني الراشد بطرس لعلَّه يَفهم أَو يُحسن التعبير. ولما كان بطرس من عائلة رحمة (كونه ابن كاملة من زواجها الأَول بابن عمّها حنا عبدالسلام رحمة) كان من الطبيعي تسجيلُه في خانة عائلة رحمة. وإِذ يكون الموظف سأَله عن السيّدة معه ومَن معها، فيكون أَجابه أَنها أُمه ومعها أَخوه وأُختاه، تلقائيًّا سجَّل الجميع باسم عائلة «رحمة»، فيكون جبران دخل الولايات المتحدة باسم «جبران رحمة» لا «جبران جبران».

في بوسطن، ولغرابة التكرار في السائد الأَميركي بين الاسم الأَول واسم العائلة (جبران خليل جبران)، سجَّلَتْه مسؤُولة مدرسة كوينسي باسم كَاليل جبران (لصعوبة لفظ الخاء في الإِنكليزية) ما اضطرَّه إِلى اعتماد اسمه هكذا طيلة حياته الشخصية والأَدبية في أَميركا.



SALOON, CABIN, AND STEERAGE ALIENS MUST BE COMPLETELY MANIFESTED.

LIST OR MANIFEST OF ALIEN PASSENGERS FOR THE UNITED

Required by the regulations of the Secretary of Commerce and Labor of the United States, under Act of Congress approved February 20, 1907, to be delivered

S. S. New Amsterdam sailing from Boulogne Sur Mer, 22nd October, 1910

ميخائيل نعيمه يقرأُ «النبي»

حين وضع ميخائيل نعيمه سيرةَ صديقِه جبران[١]، جعل كتابه في ثلاثة أَقسام: «الشَفَق»، «الغَسَق»، «الفجر»، وملحق بوثائِق خاصة.

القسم الثالث خصَّص منه الفصل الثاني («المصطفى») لكتاب «النبي» ساردًا فيه وقائعَ تراوحت بين الموضوعيّ والشخصيّ في أُسلوبٍ أَدبي غالبًا مزدوج البثّ، فرأَى أَنَّ جبران «اختار لكتابه قالبًا جميلًا يليق بما يحمله» ويُكمل «لكنه، وللأَسف، لم يكن كلُّه من صياغة جبران، فشكلُه الإجمالي مستعارٌ من نيتشِه وزرادشتِه». ويضيف أَنْ «كما زرادشت هو نيتشِه نفسُه، كذلك المصطفى هو جبران نفسُه». ويروي: «قبل أَن سلَّم جبران «النبي» إِلى الناشر بشهرٍ أَو شهرين، أَعطاني نسخةً منه مطبوعةً على ماكنة الكتابة، وأَرسل مثلَها إِلى ماري هاسكل لتنظُر فيها وتَهديه إِلى كلماتٍ قد يكون أَساءَ استعمالها. النسخةُ التي أَعطاني إِياها كان قصدُه منها – وإِن لم يكشفْه لي بالتمام – أَن أَدرسَ الكتابَ درسًا وافيًا وأَقولَ فيه كلمةً عند صدوره. وكان قد قرأَ لي كلَّ موعظةٍ من مواعظه عند فراغه من تأْليفها، ما خلا الفاتحة والخاتمة. لكنني، بعد أَن قرأْتُ الفاتحة والخاتمة، ورأَيتُ جبران يُحدِّث عن نفسه في تلك وهذه، استنكرتُ منه أَن يصوِّر نفْسه نبيًّا حتى تحت نقاب من التمويه الفنيّ. فلو انه اتخذَ من المصطفى بوقًا لا غير لأَفكاره وأَشواقه، لهان الأَمر.

[١] **جبران خليل جبران – حياتُه، موتُه، أَدبُه، فنُّه**، بيروت ١٩٣٤، ٣٢٨ صفحة قطعًا كبيرًا.

لكنه خلَع عليه وشاحَ النبوءَة فكأَنه خلَعه على ذاته أَيضًا. قد يكون أَن جبران لم يقصد هذا القصد لكنَّ ذلك ما تؤَدِّيه فاتحةُ الكتاب وخاتمتُه، وذلك ما أَدَّاه الكتاب كلُّه إِلى أَذهان الكثيرين، وبالأَخص أُولئك الذين كَتبوا فوق ضريحه في مار سركيس هذه الآية: «هنا يَرقد نَبِيُّنا جبران». وكأَنه قام لهم مَن يحاسبهم عن الضمير «ـنا» في «نَبِيّنا» إِلى أَين يعود، فغيَّروا الكلمة إِلى «بينَنا»، وهي التي قرأْتُها عندما زرتُ الضريح في صيف ١٩٣٢».

تلك الـ«أَنا» التي رافقَت كتاب نعيمه عن صديقه جبران، استخدمَها في السيرة أَحيانًا بما عاينَهُ من جبران وأَحيانًا بما سمعَ منه، فجاء بما أَثار غضب الرفاق في «الرابطة القلمية» على مبالغاتٍ وصِفاتٍ استهجنُوها، ما دعا نعيمه إِلى حذفها حين أَصدر الطبعة الإِنكليزية من كتابه سنة ١٩٥٠، فكان في توجُّهِهِ إِلى قرَّاء الإِنكليزية نقابٌ من الاحترام أَدَّاه إِلى صديقه الغائب، هو الذي كان أَقرب الرفاق إِليه.

في السياق ذاته، وإِلى قرَّاء الإِنكليزية كذلك، تَوجَّه من جديدٍ بنقابِ احترامٍ عالٍ إِلى صديقه جبران حين طلبَتْ منه مجلة «آرامكو» كتابةَ مقالٍ بالإِنكليزية، فخصَّصه لـ«النبي» وسرَدَ أَجملَ ما يمكن أَن يَكتب صديقٌ وفيٌّ عن صديقه الغائب.

هنا ترجمتي الحرفيَّةُ هذا المقالَ من الإِنكليزية:

هذا الكُتيِّب الغريب

«غريبٌ هذا الكُتيِّب يا ميشا»!

بعد أَربعين سنةً[٢] ما زالت هذه الكلمات ترنُّ جليّةً في بالي. قالها لي جبران ذاتَ ليلةٍ بُعَيْدَ طباعة كتابه الإِنكليزي الثالث «النبي»، وهو عملٌ صوفيٌّ موجزٌ.

كنا وحدَنا تلك الليلةَ مسترخِيَيْن في «الصومعة» (كما كنا نسميها، هو وأَنا وحلقة صغيرة من كتّاب وفنانين عرب مهاجرين) أَيْ مُحتَرَف جبران المتواضع في

٢ الأَربعون هنا هي السنواتُ الفاصلة بين جِلسةِ نعيمه وجبران في مطلع ١٩٢٤ وكتابتِه هذا المقالَ سنة ١٩٦٤.

مانهاتن، على الشارع العاشر غربًا، في الطبقة الثالثة من بنايةٍ هي إِحدى أَبنيةٍ مكتظَّة متلازَّة في الجهةِ الغربية من ذاك الشارع بين الجادَّتين الخامسة والسادسة.

تلك «الصومعة» – بأَثاثها المتواضع كأَيِّ صومعة – لم تكن للصلاة والتأَمُّل بل للتأْليف والعمل. هي غرفةٌ وحيدة، فيها سريرُ جبران ليلًا وفسحةُ استقباله نهارًا، وثلاثُ كَراسٍ ومنضدةٌ صغيرة عليها آلةُ الهاتف. ويكتظُّ المحترَف بملفَّاتٍ كثيرة من الرسوم والكتُب والأَوراق وأَدوات العمل الإِبداعيّ: فَراشٍ، أَنابيب أَلوان، أَقلام، ريشات، ومحابر.

تلك الليلة، ما إِن وصلتُ حتى مدَّ لي جبران رسالةً، وبومضةِ غبطةٍ في عينَيه بادَرَني: «إِقرأْ هذه يا ميشا». كانت تلكَ رسالةً من رئيس كليَّة كولورادو الجامعية مستأْذِنًا جبران بحفْر عبارةٍ من «النبيّ» على الجرس الكبير عند جبين كنيسة الكليّة. والعبارة: «الأَمس ذاكرةُ اليومِ الذي حُلْمُه غَدُهُ».

وإِذ قرأْتُ الرسالة وأَعدْتُها إِلى جبران معلِّقًا بكلماتٍ دافئةٍ مُهنِّئة، رمَقَني بعينَين شبهِ دامعتَين وصوتٍ عريض: «إِنه كتَيِّبٌ غريبٌ يا ميشا».

اليوم، بعد نصف قرنٍ من تلك الليلة، يَثْبُتُ أَنَّ نِظرة جبران إِلى كتابِه كانت صائبة.

فهذا الكتابُ ذو المناخ الفلسفي والنَفَس الصوفيّ، من نحو عشرين أَلف كلمة، قلَّما كان يَشي أَنْ سيثير انتباه القرَّاء. مع ذلك، ثَبُتَ أَنه أَثارهم.

في مطلع صدوره استقطَب انتباه قلةٍ متفرِّقة من المهتمين، بينهم في نيويورك، مثلًا، خادمُ كنيسةٍ صغيرة في حيٍّ من أَشَدِّ أَحياء المدينة فَقرًا، سمع بـ«النبي» فاستأْذَن جبران باختيار فقراتٍ منه لتلاوتها في الكنيسة. وإِذ وافق جبران، أَخذ شبانٌ وصبايا من تلك الرعية يقرأُون مسرحيًّا فقراتٍ من الكتاب في أُمسياتٍ معيَّنةٍ من الأُسبوع. كان الإِقبال يتزايد على حضور تلك الأُمسيات فسرى في المدينة خبرُ أَنَّ في الكنيسة برنامجًا استثنائيًا من كتابٍ استثنائيّ. أَخذ الحضور يزداد، وإِذا بكثيرين من الحاضرين اشتروا نسخًا من الكتاب، ما زاد في انتشاره. ولم يتنبَّه

جبران إِلى ذاك الانتشار حتى وصلَتْه يومًا رسالة من صديقٍ له يخبره فيها عن كبير إِعجاب ملكة رومانيا بكتابه، وكانت وصلَتْها نسختُه من أَحدهم.

هكذا، مع تَوالي هذا الانتشار، أَخذَت شهرة الكتاب تتَّسع تدريجيًّا، وأَخذ الناشر يَغْنم من تنامي شهرته ومن الإِقبال عليه فيُصدره طبعةً تلو طبعة. ومع انفجار الحرب العالمية الثانية إِذا بالكتاب، فجأَةً ولسببٍ لا تفسير له، يزداد الإِقبال عليه، ربما لأَن رسالتَه النابعةَ من أَلَمٍ نابعٍ ذاتيًّا طالت غَيريًّا أُولئك الذين آلَمَتْهم تلك الحرب. وهكذا ارتفعَت أَرقام مبيعاته حتى بلغَت اليوم أَكثرَ من مليون نُسخة، وترجماتُه أَكثرَ من عشرين لغة.

طبعًا جبران لم يعِش حتى يُعايِنَ تنامي هذه الشهرة بعد غيابه. كلُّ ما عاينَه أَنَّ عبارةً من كتابه حُفِرت على جرسٍ عند جبينِ كنيسةِ الكُليّة في كولورادو، وكلُّ ما عرفه أَنْ بعد سنواتٍ من الضنى وحيدًا في صومعته بلغَه صدًى من وتره فبات بإِمكانه أَن يقول: «ها إِنّي لفَتُّ سمْع العالم وأَهواءَه. لم أَعُد صوتًا في صحراء، ولا شمعةً مضاءَةً لأَعمى».

في حديثنا تلك الليلة عن الكتاب، لم أَستطع إِلَّا الإِعجاب بتلك اليد السحرية التي تنسج مصير الإِنسان. فها هنا في ركنٍ صغيرٍ من المدينة الكبيرة المُسمّاة نيويورك، رجُلان وُلِدا في وطنٍ بعيدٍ هو لبنانُ ذو الشهرة العريقة من العهد القديم، أَحدُهما جبران وُلِد عند سفح جبل الأَرز في الطرف الشمالي من سلسلة جبال لبنان الجميلة، وأَنا ولدتُ عند سفح جبل صنين المَهيب في وسَط السلسلة ذاتها. ومع أَن المسافة بين هذين الكائنَين لا تزيد عن خمسين ميلًا، لم نلتقِ في لبنان بل في هذه المدينة الكبرى على ضفاف نهر الهدسون. وتمَّ ذلك سنة ١٩١٦.

وُلِد جبران في عائلةٍ فقيرة من قريةِ بْشَرّي الصغيرة، وأَمضى طفولته في رحاب الطبيعة بين الأَودية العميقة وقمم الجبال والينابيع البلَّوريّة في شمال لبنان، وهي منطقة غنيّة بترانيم الطبيعة وتَماوُجٍ متواصلٍ بين الأَنوار والظلال. في العام ١٨٩٥، وكان في الثانية عشرة، سافرَت والدته إِلى أَميركا بحثًا عن حياةٍ أَفضل

مصطحبةً إِياه وأَخاه من أُمه وشقيقتَيه الأَصغر منه. استقرَّت العائلة في الحيّ الصيني. وهناك اكتشفَت مُدرِّسَةٌ موهبةَ جبران في الرسم والتلوين ونصحَتْه بدراسة الرسم. بعد سنتين شعر بإِلحاحِ حاجته أَن يتمكَّنَ من لغته العربية الأُم، فعاد إِلى لبنان أَربع سنوات للدراسة. ومن لبنان انتقل إِلى پاريس سنةً لدراسة الفنون، ثمّ عاد إِلى بوسطن حيث فاجأَه موتُ شقيقتِه الصُغرى ووالدتِه وأَخيه بمرض السلّ، ثم انتقل نهائيًّا إِلى نيويورك. كانت بوسطن محطة مهمة في حياة جبران لأَنه فيها التقى الآنسة ماري إِليزابيت هاسكل خلال المعرض الأَوَّل لمحاولاته الفنّيّة. كانت الآنسة هاسكل مديرةَ مدرسة كِمبردج للبنات، فأَصبحت راعيتَه الرئيسة. ساعدتْه في العودة إِلى پاريس لدراسة الفن، وشجَّعَتْه لاحقًا في سنواته الصعبة وحتى آخر يوم في حياته. وتَظهر أَهمية هذه المرأَة في حياته من خلال إِهدائِه إِياها كتابَه «الأَجنحة المتكسّرة» وكتاباتٍ أُخرى بالعربية، وفي وَصيَّته بعد وفاته إِذ تركَ لها كامل مقتَنَيات صومعته.

لم يكن جبران مجهولًا تمامًا في نيويورك. سبقَتْه شهرته ككاتب مبدعٍ واعدٍ، ووَصلَت إِلى الجاليتَين اللبنانية والسورية في بروكلِن ومانهاتن. ونشَرت عددًا من قصصه وكتاباته المختلفة مجلَّاتٌ عربية في نيويورك، ومجلاتٌ أُخرى حملَت اسمَه إِلى الدول العربية في العالم القديم كان لها تأْثيرٌ على جيل الشباب كنجم ساطع متأَلِّق في سماء الأَدب العربي الجديد.

إِلَّا أَن جبران لم يكن مكتفيًا بالتوسُّع في العالم الثقافي الضئيل الانتشار في دنيا العرب. بدأَ يفكِّر جِدّيًا في غزو العالم الأَنكلوساكسوني الأَكثر اتساعًا وتأْثيرًا. كانت خطوتُه الخجولةُ الأُولى نحو هذا الاتجاه بكتيِّب عنوانه «المجنون» سنة ١٩١٨، تلاه بعد سنتين كتيِّبُه الثاني: «السابق» وهو عنوان اختاره جبران عمدًا كما تمهيدًا لكتابه «النبي». لم يكن لذَينِك الكتيِّبَين تأْثير كبير في أَميركا. وسنة ١٩٢٣ صدر ذاك «الكتيِّب الغريب».

يرتكز كتاب «النبي» في تركيبه على هيكليةٍ بسيطةٍ للغاية مصطَنَعةٍ للغاية: المصطفى، اسم عربي معناه «المختار»، استعارَه جبران للإِشارة إِلى شخص غريب

عاش اثني عشر عامًا في مدينة تدعى «أُورفليس». وكان ينتظر سفينة «لإعادته إلى الجزيرة حيث وُلِد». وإذ هو على قمةٍ في أُورفليس، رأَى السفينةَ من بعيد. نزل إلى المدينة لملاقاتها فالتقى سكَّانَ المدينة في ساحةٍ أَمام الهيكل جاؤُوا لوداعه، بينهم امرأَةٌ تدعى الميترا «كانت أَوَّلَ من سعى إليه وآمنَتْ به منذ يومه الأَول في مدينتهم»، فتوسَّلَت «نبي الرب» أَن يحدِّثهم، قبل مغادرته، في كلّ ما أُظهر له «عمَّا بين الولادة والموت». قالت له الميترا: «حدِّثْنا عن الحب». وقال آخر: «حدِّثْنا عن الزواج». وراح المصطفى يحدِّثهم بإِيجازٍ عن الحب والزواج والعمل والموت والأَولاد، وعن مواضيعَ تهمُّ القلب البشري.

ليست الهيكليةُ هي التي ميَّزَت «النبي» بل تحرِّكه روحٌ ورؤْيا تجعلانه يتفاعل في روح عاطفية عالية الإِحساس اختبرَت تجاربَ إِنسانيةً تراوحت من أَقصى الاكتئَاب إِلى أَقصى التمجيد. وفيه أَيضًا موسيقى تتراقص على أَنغامها الكلمات، وأَلوانٌ تحْيي الحروف الميتة وتجعلُها تتمايل في استرسالٍ على الإِيقاع في أَشعةٍ تخترق الظلامَ كما البرق يخترق الغيوم. وفيه أَخيرًا تنفتح أَبواب القلب أَمام العالم وترى معجزاتٍ سبَكَتها يدُ المعاناة السحرية. كلُّ هذا، وأَكثر بعد، جعل من «نبيّ جبران» تحفةً فنيّةً.

لكي نفهم «النبي» تمامًا، يجب استبيانُ عناصرَ فلسفيةٍ في صياغته، وتأْثيراتٍ مختلفة على فكر جبران المتناضج تدريجًا.

في بداية حياته الأَدبية شاء جبران أَوَّلًا أَن يجعل قلمه سوطًا ضدَّ مَن رآهم قيّدوا الحرية المادية والروحية في شعبه. فبلدتُه بْشَرّي هي وسْط منطقةٍ تهيمِنُ عليها عائلاتُ أَثرياء وزعماء دينيِّين. رافقه هذا الأَمر في طفولته فصباه، وحين عاد إِلى لبنان تمرَّدَ ضدَّ تلك الهيمنة، جاعلًا ذاته متمرِّدًا محرِّضًا شعبَه على التمرُّد ضد تقاليد رآها معاديةً حرّيةً تكشف عن مواهبهم الغنية. وبعد سنوات وقع جبران تحت تأْثير «هكذا تكلم زردشت» للفيلسوف الأَلماني نيتشه الذي تخلّى فيه عن الحضارة المسيحية. وعَكَسَ أُسلوبَ جبران ومحتوى كتاباته الأُولى تشاؤُمُ نيتشه

المريرُ حتى أَنّه شبَّه شعبَه مرةً بـ«الأَضراس المسوَّسة»[٣]. بل ذهب أَبعد: في مقاله بالعربية «حفَّار القبور»[٤] قارن الرجالَ بديدانٍ وجُثَثٍ تنتظر مَن يدفنها. ومن تلك المرحلة الباكرة أَيضًا، حين كانت تتآكلُه المرارة، كتاباه الأَولان بالإِنكليزية «المجنون» و«السابق»، وفي كليهما يستنكر غباءَ الإِنسان وعماه. لكنه عَبَر من تلك المرحلة إِلى فلسفةٍ أَكثر سلامًا وإِنسانية هي فلسفة الڤيدا (كتابات مقدَّسة هندوسية) وإِلى الأَناجيل المسيحية، وخصوصًا موعظة الجبل، فوجد المعنى الأَعمقَ للحياة عبَّرَ عنه في منطق الفلاسفة بل في تعابير الشعر الصافي. وكانت تلك هي المرحلة الأَخيرة التي هيمنَت عليها روحُ موعظةٍ على الجبل نفثَها في كتاب «النبي».

وفي الكتاب أَيضًا تأْثيرات أُخرى، أَحدُها عقيدةُ التقمّص الهندوسية التي تَظهر في أَربعة مقاطع على الأَقل، لا سيما في قوله: «إِذا تلاشى صوتي في آذانكم وزالت محبتي من قلوبكم، سأَعود إِليكم». وثمة أَيضًا إِشارة إِلى «الكائن اللامحدود» في كل إِنسان. يقول المصطفى لأَهالي أَورفليس: «تعرفون العظمة من الإِنسان العظيم فيكم»، وواضحٌ أَنَّ «الكائن اللامحدود» عند جبران ليس سوى نسخةٍ من «الرجل المتفوِّق» لدى نيتشه. وإِذا صحَّ التشبيهُ يكون جبران حقَّق إِنجازًا رائعًا عن الأَيقونة الأَلمانية بجعْل صيادي السمك في الجليل صيادي بشر.

من هذه التأْثيرات وُلدَت رسالة «النبي» أَنَّ نهايةَ الإِنسان لا تقتصر فقط على ما يتعلق بالعظمة والقدرة الكلية والوجود والخلود، وأَنَّ الحب القليل والإِحسان والرحمة والتسامح والفضائل الكريمة عناصرُ ضروريةٌ للحياة الصحيحة كما الخبز والماء والضوء والهواء عناصر ضرورية للجسم، والتحوُّل عنها كدعوة الأَلم إِلى دخول الذات، وفي ذلك يقول المصطفى لأَهالي أَورفليس: «هذا الكثير من آلامكم هو الجرعة المُرَّةُ التي بواسطتها يكونُ للطبيبِ الحكيمِ الساهرِ في أَعماقكم أَن يَشفي أَسقامَ نفوسكم المريضة».

٣ مقال نشره لاحقًا في مجموعته «العواصف».

٤ هو المقال الأَول في «العواصف».

في «النبي» جانبٌ آخرُ لا يراه معظم الناس: هو الجانب الشخصي. فجبران يَفتح قلبه ويتحدَّث عن أُمور شخصية في حياته. وهذا الجانب محجوبٌ شفَّافًا بأَسماء مصطنعة مثل المصطفى، أُورفليس، الميترا، الجزيرة حيثُ وُلِد المصطفى، السفينة والبحّارة، وباستخدام أَرقام وتواريخَ محددة مثل ١٢ عامًا في أُورفليس. وبإِزالة الحجاب يظهر أَن جبران هو المصطفى، ونيويورك هي أُورفليس، وماري هاسكل هي الميترا، ولبنانَ هو جزيرةُ المصطفى حيث ولد، والاثني عشر عامًا في أُورفليس هي الإِثنا عشر لِجبران في نيويورك[٥] عند صدور الكتاب.

بقراءة الكتاب على ضوء ما سبق، لا تعود مقدمته وخاتمته مجرَّد أَدبٍ جميل بل تصبحان عناصرَ نابضةً عاشها قلب جبران العالي الإِحساس لدرجة استجابته دامعًا عند الإِشارة إِلى الحزن الإِنساني. وتلك هي الوحدة القاسية التي عاشها جبران في نيويورك عند مطلع أَيامه فيها. لذا يعبِّر عن عطشه الكبير إِلى الاعتراف الأَوسع عندما يقول المصطفى على وشك مغادرة المدينة: «**كيف أَمضي بسلامٍ عن هذه المدينة من غير كآبة؟ كلَّا! لن أَبرحها إِلَّا وفي روحي جرح. طويلةً كانت أَيامُ أَلَمي بين جدران هذه المدينة، وطويلةً كانت ليالي وحدتي**».

ويعبِّر جبران كذلك عن وداعه نيويورك وامتنانه لاعترافها به أَخيرًا، عندما قال المصطفى: «**رَوَّيتم عطشي الشديد للحياة. ولا هديةَ للإِنسان أَثمن من تلك التي تُحوِّل ميوله شفتَين عطشاوَين، وتجعل حياته يُنبوعًا**».

في توقه إِلى الذهاب متردِّدًا في المغادرة، كما يبدو تأَثُّرُ المصطفى في المقدِّمة والخاتمة، نجد في حياة جبران حقيقةً أَعمق: كان قبل نشْر كتابه «النبي» اتَّخذ إِجراءاتٍ لعودته النهائية إِلى لبنان. فقبل نحو عامٍ من صدور الكتاب[٦] بدأَ جبران يحدِّثني عن صومعةٍ حقيقية، لا عن محترف صغير يسكنه في الشارع العاشر غربًا، هي دير مار سركيس، الصغير المهجور في ضاحية قريته الحبيبة بْشَرّي. وكان

٥ استقرَّ جبران في نيويورك سنة ١٩١١ وصدَرَ «النبي» سنة ١٩٢٣ (= ١٢ عامًا).

٦ جلسة بين نعيمه وجبران في محترفه، ذاتَ صباحٍ من تشرين الثاني ١٩٢٢.

بدأَ مفاوضاتِ شراء الدير لرغبته أَن يَنشُدَ السلامَ والوحدة عند ذاك الركن الساحر في شمال لبنان، لا لروحه المنهَكَة وحسْب بل أَيضًا لجسده المُجْهَد المُتأَلِّم.

في السنوات الأَخيرة من حياته عانى جبران جِدِّيًّا من اضطراباتٍ في صحته لم يكُن يستطيع تحديدَها، هي التي أَنهت حياتَه في ربيعِه الثامن والأَربعين ليلةَ العاشر من نيسان ١٩٣١ في مستشفى نيويوركي على بعد أَمتارٍ من محترفه. وإِذا بدير مار سركيس، الذي كان يحلم أَن يُمضي فيه بقيَّة سنواته في عمل مثمر وتأَمُّل هادئ ينعش روحَه، صار مثوى جسده الهامد بدون روح.

على ضوء هذا يبدو حقيقيًا وصائبًا جوابُ جبران لمَن سأَله يومًا كيف صمَّم «النبي» وكتبه، قال: «وهل أَنا كَتَبْتُه؟ كَلَّا، هو الذي كَتَبَني».

بلى، إِنه فعلًا كتيِّبٌ غريب[٧].

ميخائيل نعيمه


“A STRANGE LITTLE BOOK”

الصفحة الأُولى (١٠) من مقال ميخائيل نعَيمه في مجلة «آرامكو».

٧ عن مجلة «آرامكو»، عدد تشرين الثاني/كانون الأَول ١٩٦٤، ص ١٠–١٥.

عيسى الناعوري: شهادتان ومقارنة

في بحثي عن نصوصٍ قديمة منسيَّة ذات علاقة بجبران ويَندُر مَن يعرفها اليوم، وجدتُ في مجلة «الأَديب»[1] نصَّين قديمَين أَرسَلَهما من عمَّان الناقدُ عيسى الناعوري[2]: الأَول قراءة سردية في كتاب باربره يونغ «هذا الرجل من لبنان»، والآخر قراءة نقدية في كتاب ميخائيل نعيمه عن جبران.

ولمعرفتي رصانةَ الناعوري في مقالاته ومؤَلفاته ونقده، وآراءَه الموثَّقةَ إِثباتاتٍ ومراجعَ ومصادرَ غنيَّةً، أُعيد في ما يلي نشْر ذينك النصَّين لما فيهما من إِضافات على شخصية جبران في ثناياها التي غمَر بعضَها الغموضُ وانحسر بعضُها الآخَر عن صفحاتٍ من حياته لم تعرفْها صفحاتُ كتُبه.

---

١ أَصدرها أَلبير أَديب (١٩٠٨–١٩٨٥) مجلةً أَدبيةً سنة ١٩٤٢ وكانت فترتئِذٍ منبرَ كبار الأُدباء والشعراء.

٢ أَديب أُردني (١٩١٨ – ١٩٨٥) أَصدر في عمّان مجلة «القلم الجديد» لكنها لم تَعِشْ سوى سنة واحدة في ١٢ عددًا (أَيلول ١٩٥٢ – آب ١٩٥٣)، وكان الأَخير عددًا ممتازًا خصَّصهُ للأَدب المهجري. وهو اضطُرَّ إِلى إِيقافها عند صدور قانونٍ للمطبوعات فرَضَ على رئيس تحرير الصحيفة أَو المجلة أَن يكون جامعيًّا. بعدها انصرف الناعوري إِلى نشْر مقالاته النقدية في عدد كبير من المجلات الأَدبية في العالم العربي، وإِلى نشْر مؤَلفاته لدى دور نشر عربية كبرى. وهو تَميَّز بأَبحاثه عن الأَدب المَهجري وله فيه: «أَدب المهجر»، «إِيليا أَبو ماضي رسول الشعر العربي الحديث»، «نظرة إِجمالية في الأَدب المهجري»، وسواها.

وبعد هذين النَصَّين عاد الناعوري فعقَدَ في كتابه «أَدب المهجر» فصلًا في المقارنة بين نَص نعيمه ونَص يونغ وما بينهما من اختلافٍ واضحٍ في سرد أَحداثٍ ووقائعَ من حياة جبران.

هُنا مقالاهُ كما صدَرا في «الأَديب» بتوقيع «عمَّان – عيسى الناعوري»، وبعضُ الفصل من كتابه «أَدب المهجر».



مع بربارة يونغ في كتابها: «هذا الرجل اللبناني»[٣]

كانت لحظات ممتعة جدًّا تلك التي قضيتُها مع الكاتبة الأَميركية بربارة يونغ في كتابها النفيس *This man from Lebanon* الذي تتحدَّث فيه عن صديقها الخالد جبران، حديثًا يفيض بالإِخلاص والوفاء لشخص جبران، والإِيمان والتقديس لمبادئ جبران، والإِعجاب والتقدير لأَدب جبران وفنه.

وبربارة يونغ هي سكرتيرة جبران، ورفيقته طوال السنوات السبع الأَخيرة من حياته، أَو هي «القابلة» التي تلقَّت يداها ميلاد روائع جبران الخالدة، منذ خريف ١٩٢٥ حتى الساعة الأَخيرة التي ودع فيها دنيا الأَدب والفن، وأَلقى آخر تحية من قلبه وعينيه على شعاع الشمس ومفاتن الوجود ثم كانت وكيلتَه الأَدبية بعد وفاته. فهي تتحدث عن جبران (وتدعوه صفحة ١٠٧ my well-beloved friend) وهي خير من يتحدَّث ويصدُق في الحديث عنه، وخير من يفهم أَفكاره ومبادئه التي شهدت مولد القسم الأَكبر منها، وشاركت في تحبيرها وطبعها، ووقفت على الدقائق الخفية من حياة جبران الإنسان، تلك الحياة التي تعمَّد بعض الناس أَن يشوهها ويجعل منها بؤرة مخازٍ وشهوات حيوانية.

تسرد بربارة يونغ قصة اتصالها بجبران في مقدمة الكتاب، فتذكر أَنها كانت في كنيسة سان مارك في نيويورك حينما قُرئ كتاب «النبي» لأَول مرة هناك في خريف

٣ عن مجلة «الأَديب» – تشرين الأَول ١٩٥٢ – العدد العاشر (ص ٢٨–٣٠).

١٩٢٣. وسرعان ما أَحست بدافع لا يقاوَم، يهيب بها أَن تقتني نسخة من الكتاب، ثم أَن تكتب إلى المؤَلف مُعْربة عن إِعجابها بما وجدتْه في الكتاب من عمق وسمو واتساع. ولم تلبث أَن تلقَّت دعوة من جبران لزيارته، فكانت فرصة سعيدة لها أَن تجيب دعوته.

أَما قصة ابتداء عملها سكرتيرة له، فترويها في الفصل التاسع من الكتاب تحت عنوان «الأَلفاظ لا تتقيَّد بحدود الزمان». وتتلخص القصة في أَن جبران دعاها لزيارته مرة في خريف ١٩٢٥، بعد تعارفهما بسنتين. دخلت عليه في محترفه، فرأَته جالسًا يكتب قصيدة جديدة بالإِنكليزية عنوانها «الشاعر الأَعمى». وكان بين اللحظة واللحظة ينهض من مجلسه ويأْخذ في قطْع الغرفة ذهابًا ومجيئًا وهو يفكر، غير منتبه إِلى وجودها معه. فاغتنمت الفرصة وجلست مكانه على الكرسي، وحملت قلمه بيدها وقالت له: «أَنت تُنشئ القصيدة وأَنا أَكتبُها». رفض جبران ذلك فعادت تقول: «إِني شديدة الرغبة في أَن أَكتب كلماتك، فاستَمِرّ أَنت في المشي ودعني أَكتب ما تمليه علَيّ». لكن جبران عاد إلى الرفض قائِلًا: «لا يمكنني أَن أَشتغل على هذا الشكل مع أَي إِنسان». أَجابت: «أَوهِم نفسك أَنني لست إِنسانًا بل مجرد آلة صغيرة». ولم يَسَع جبران عندئذ إِلا أَن يوافق على رغبتها فضحِكَ وضحِكَت، ومضى يملي عليها القصيدة وهي تكتب كلماته. وتقول بربارة: «ومنذ ذلك الحين كان العمل يتم دائِمًا على هذا الوجه» (ص ٨٢ و٨٣).

وهنا تُطْلعنا بربارة على شيءٍ لعل قليلين كانوا يعرفونه، وهو أَن جبران كان يُنشِئ كل شيء بالعربية أَولًا، ثم يترجمه إلى الإِنكليزية، كما تقول صفحة ٧٣:

He completed the poem, composing in Arabic, as was his inevitable custom, and translating carefully into English

وحتى كتابه «النبي» – التحفة الخالدة التي أَهداها جبران إِلى البشرية فتلقَّفها العالم على ظمإٍ شديد وأَحاطها بكل ضروب التقدير والتقديس فكان جبران بواسطته نبيًّا جديدًا من أَنبياء الشرق في نظر الغرب – تقول بربارة إِنه كان قد كتبه بالعربية أَولًا، وأَعاد كتابته بالعربية أَكثر من مرة، قبل أَن يقدِّر للأَلفاظ الإِنكليزية أَن تكون ثيابًا لمعانيه.

وتقول المؤَلفة في مقدمة الكتاب إنها لم تكن تقصد أَن تكتب حياة جبران، وإنما أَرادت أَن تقدِّم للقراء صورة بسيطة واضحة لجبران الرجل الذي عرفته، بين أَصدقائه، وفي محترفه وهو يرسم بالقلم أَو الفرشاة. ولقد استطاعت بإِخلاصها ووفائها أَن تُبدع في رسم الصورة التي أَرادت، وأَن تجعل هذه الصورة الجبرانية التي رسمتها حبيبةً إِلى كل قلب، قريبةً إِلى كل روح مخلصة تعشق الجمال والحب اللذين كانت تدور عليهما رسالة جبران الإِنسانية.

وفي جولتها في صفحات الكتاب تقدِّم لنا بربارة فصلًا على كل كتاب من مؤَلفات جبران الإِنكليزية، من «المجنون» – وهو أَول كتاب لجبران ظهر باللغة الإِنكليزية عام ١٩١٨ – إِلى «موت النبي» الذي ظل مجرد فكرة في خيال جبران، حلم بها ولم يسمح له الموت بتحقيقها، فجاءَت بربارة يونغ، في الصفحة ١١٩ من كتابها، ترسم خطوطها التي كان يريدها جبران. وهي تحدثنا عن الصدى الذي لقِيَه كل واحد من هذه الكتب بين الأَميركيين، لكنها اختصت كتاب «النبي» بالحصة الأَكبر من عنايتها وإِعجابها لأَنه الكتاب الذي حمل إِلى العالم رسالةَ جبران على أَجمل صورة وأَكمل وجه. وقد روت لنا عددًا غير قليل من الانطباعات والآثار التي تركها في نفوس الناس. من ذلك ما روته (ص ٣٣) أَن فصول «النبي» كانت تمثَّل كل سنة كرواية دينية في كنيسة سان مارك في نيويورك، وكان راعيها الدكتور وليم نورمن غَثري يؤْمن إيمانًا عميقًا بجبران كنبي جديد. وبذل نعيمه كل براعته في فصل «حصة في السماء وحصص في الأَرض» (ص ٢١٥–٢١٨ من كتابه عن جبران) للتقليل من أَهمية الحادث، وتحقير راعي الكنيسة وأعماله، وللإِيهام بأَن التمثيل قد وقع مرة واحدة في هذه الكنيسة.

وفي الفصل الثاني من الكتاب «ثائِر خطِر ومسمِّم للشبيبة» تروي المؤلفة حكايات أُخرى عن إِعجاب الأَميركيين بـ«النبي»، منها أَن امرأَة متأَلمة قد تلقت نصيحة من أَحد أَصدقائها بأَن تقرأَ هذا الكتاب، فلما اطَّلعت عليه قالت: «هذا هو الكتاب الذي أُريده...، إِنه ليس كتابًا، إِنه خبز وخمر للمتعبين أَمثالي». ومنها أَن أَحد المشتغلين بالأَبحاث العلمية قد قال بعد اطِّلاعه على هذا الكتاب: «لقد

علمني هذا الكتاب حقيقةً هي أَن العلْم بدون نعمة الحب والجمال شيء مميت».

وقال أَحد رجال القانون مرة: «لو انني قرأْت فصل الجريمة والعقاب قبل عشرين سنة، لكنت أَكثر صلاحًا وسعادة، وكنت في كل مرافعاتي أَقوى وأَبلغ حجةً. ثم تعقِّب على ذلك بقولها: «هكذا كان «النبي» محققًا لرغبات كل إِنسان. فالفيلسوف يعتبره فلسفة، والشاعر شعرًا، ويرى فيه الشاب صورة لكل ما يحسه في قلبه، والشيخ يجد فيه الكنز المجهول الذي ظل يبحث عنه طوال عمره فلم يجده إِلا في خريف العمر» (صفحة ١٧).

ولا تلبث المؤَلفة أَن تعود إِلى «النبي» في الفصل السادس من الكتاب «الحقيقة ههنا»، فتسرد قصة تأْليف هذا الكتاب «الذي أَصبح في اعتقاد الأُلوف من البشر كتابًا خالدًا لا يموت» (ص ٥٣)، فتذكر أَن جبران قد وضع الفصل الأَول منه وهو على مقاعد الدراسة في كلية «الحكمة» في بيروت، ثم تركه لأَنه رآه لا يزال «ثمرة فجة»، ولكن نبيه «المصطفى» لم يفارق خياله منذ ذلك الحين. ثم رافقَتْه فكرة الكتاب إِلى فرنسا ثم إِلى بوسطن ثم إِلى نيويورك حيث قُدِّر أَخيرًا لـ«نبي» جبران أَن يولد بالإِنكليزية بعد أَن مهد لظهوره بكتابين آخرين هما «المجنون» و«السابق». وفي هذا الفصل تروي المؤَلفة على أَلسنة الكثيرين حكايات اهتدائهم إِلى كتاب «النبي» والانطباعات التي تركها في نفس كل منهم، وهي انطباعات تدل على إِعجابٍ مطْلق بجبران وبالروح التي قدَّم بها جبران كتابه إِلى العالم.

ونحن لا نستغرب هذه الحكايات التي ترويها بربارة يونغ في كتابها، فالذين قرأُوا كتاب «النبي» يعرفون ما في فصوله من نبل الرسالة الروحية وجمال الأَحاسيس الإِنسانية. وإِذا عرفنا أَن هذا الكتاب قد تُرجم إِلى نحو خمسين من اللغات العالمية وأُعيد طبعه باللغة الإِنكليزية وحدها عشرات المرات، أَدركنا مدى التقدير العالمي الذي يتمتع به.

إِلَّا أَن هناك ناحية أُخرى تهمُّنا كثيرًا، لا سيما وقد قرأْنا من قبْل ما كتبه ميخائيل نعيمه عن جبران، والصورة الشهوانية التي صوَّره بها في كتابه، وهي صورةٌ حاولْنا كثيرًا وعبثًا أَن نجد لها ما يؤيدها سواء في ما كتبه أَصدقاء جبران

الآخرون، ولا سيما عبد المسيح حداد ووليم كاتسفليس وأَمين الريحاني وفيلكس فارس أَو في ما كتبته بربارة يونغ، مما جعلنا نجد أَنفسنا مضطرين إِلى الشك، والشك الكثير في صدْقها. فالصورة التي ترسمُها لنا بربارة يونغ من جبران الإنسان – وهي مِن أَلصق الناس به وأَجدرهم بمعرفة خفايا نفسه – هي أَكثر نبلًا وجمالًا مما رأَيناه لدى نعيمه. في الفصل الرابع عشر «أَنا نفسي مشكلة»، تتحدث المؤَلفة عن حياة جبران الخاصة وشعوره الجنسي، ولكنها تؤَكد أَنه لم يكن من الممكن أَن يعرف أَحدٌ شيئًا عن حياته العاطفية (ص١٣٠). ومثل هذا قاله عبد المسيح حداد، زميلُ جبران ورفيقُه، في حديث طويل نُشِر في مجلة «العصبة» وجريدة «السائِح». أَما رأْيُ جبران في الحب فقد أَوردت المؤَلفة ما ذكَرَه في أَحد مجالسه في المحترف لسيدةٍ كانت تسأَله عن الحب وعن سبب انصرافه عن الزواج، فقال: «إِن أَعظم المخلوقات إِحساسًا بالشعور الجنسي هي طبقة الخلَّاقين، وأَعني بهم الشعراء والنحاتين والرسامين والموسيقيين. والشعور الجنسي لديهم هو منحة جميلة سامية. إِنه شعورٌ خجول دائِمًا» (ص ١٢٩).

وذكرت المؤَلفة «أَن نساء كثيرات قد أَحبَبْنه بحرارةٍ وتقديسٍ حبًا ناجمًا عن شعور عميق بالعرفان والإِجلال، وخارجًا عن حدود الذات والأَنانية، وإِن نساء غيرهن قد أَحبَبْنَه حبًا ذاتيًّا» (ص ١٢٧ و١٢٩). ولكنها لم تستطع أَن تذكُر أَن جبران قد بادل يومًا واحدة منهن عاطفة الحب الجنسي. فقد كان عميقًا في أَسراره، منصرفًا بكليته إِلى عمله الخلاق وإِلى رسالته الروحية التي ينشرها في كتبه.

وفي كتاب بربارة يونغ أَشياء أُخرى كثيرة نجدها بصورة تختلف اختلافًا كليًّا عما في كتاب نعيمه الذي أَوردها في صورة «تحط» من إِخلاص جبران، بينما أَوردَتْها بربارة يونغ بصورةِ عكسِها تمامًا. نكتفي هنا بشيء من فصل «نبأ كاذب» في كتاب نعيمه تعمَّد فيه أَن يُظهر جبران، باعتراف منه، بمظهر الرجل الذي عاش يخدع الناس بظواهره عن حقيقة نفسه. فعبارة جبران I am a false alarm فسَّر نعيمه معناها «أَنا نبأ كاذب». بينما العبارة نفسها مذكورة كاملةً في كتاب بربارة يونغ، وبمعنى آخر بعيد كل البعد عن تفسير نعيمه الذي أَخذ نصف العبارة

وأَهمل نصفها الأَهم الذي يؤدي المعنى الصحيح لما يريده جبران. وهذه هي العبارة كاملة: .I am a false alarm. I do not ring as true as I would، ولفظة alarm هنا ليس معناها «نبأ» بل المقصود «المنبِّه أَو الساعة الدقَّاقة». كما أَنَّ في ترجمة false بـ«كاذب» بُعدًا عن المعنى المقصود، وكان الأَصوَب والأقرَب إِلى معنى جبران ترجمة false alarm بـ«الساعة غير الدقيقة أَو غير المضبوطة». ومعنى العبارة أَن جبران يتأَلم لأَنه لم يتوصَّل إِلى تحقيق الكمال الإِنساني في نفسه كما يريد. وذلك أَيضًا تعليق بربارة يونغ في التعليق على هذه العبارة (ص ١٢) بقولها عن جبران:

He felt that he was failing in some measures to do all that was divinely expected of him

وواضحٌ أَن التحريف في سرد العبارة فيه إِساءةٌ متعمَّدة إِلى جبران، ويشوِّه جمال المعنى الذي أَراده وجمال الروح التي أَوحت به، كالاكتفاء من الآية القرآنية «ولا تقربوا الصلاة وأَنتم سكارى» بنصفها الأَول «ولا تقربوا الصلاة» وإِهمال النصف الآخر المقصود بالعبارة.

بعد هذه التعليقات السريعة، نقول بكل إِخلاص إِن هذا الكتاب ضروريٌّ جدًا لكل من يريد أَن يعرفَ جبران على حقيقته، ويعايشَه في محترفه وحياته الخاصة، ويعرفَ أَخلاقَه ورسالتَه الروحية والإِنسانية، وآراءَه في الحياة والفن والأَدب، وتعلُّقَه المخْلص بوطنه وقومه وتاريخ أُمته (الفصل الثامن والفصل الخامس عشر)، وهو ضروريٌّ لكل من يريد أَن يطَّلعَ على أَثره في الغرب ويفهمَ الروح التي أَمْلَت سائر مؤَلفاته الإِنكليزية وكيفية ولادتها واستقبال الناس لها.

كل هذا مصوَّر بكثير من الجمال والصدق والإِخلاص في صفحات هذا الكتاب اللطيف الذي تقدِّمه بربارة يونغ عن جبران الخالد «هذا الرجل اللبناني».



بين جبران ونعيمه[٤]

مناقشة كتاب «فن السيرة» للدكتور إِحسان عباس[٥]

أَخي إِحسان

في نقدكَ كتاب «جبران خليل جبران» لميخائيل نعيمه قلتَ إِن نعيمه «استوفى فيه عناصر السيرة الفنية... وفيه اكتمل وجود السيرة في الأَدب العربي الحديث من حيث الغاية والتطبيق... واعتمد فيه نعيمه الصراحة في تصوير صديقه وهو في صراع متطور مع الحياة، وعرَّض بجبران في ضعفه وقلقه، وكشَف عن البَون الواسع بين حياته العلمية ونظراته المثالية... وقد قُدِّر لنعيمه أَن يُبرز الحقائِق عارية دون أَن يحاول الاعتذار أَو يختفي وراء الروابط العاطفية، فجاء كتابه حيًّا خفَّاقًا بالحيوية، كاملًا في تدرُّجه ونموِّه» (ص ٦٨ و٦٩).

أَما أَن كتاب نعيمه هذا قد جاء «حيًّا خفَّاقًا بالحيوية» فأَنا معك فيه بغير جدال. فنعيمه من أَقدر كتَّاب العربية وأَبرعهم أُسلوبًا وأَروعهم عبارةً. وأَما بقية رأْيك في الكتاب فهو مجال الارتياب عندي، وهو ما أَرجو أَن أَصل معك، من نقاشنا فيه، إِلى الوقوف عند ما يمكن أَن نعتقده الحقيقة والصواب.

وقبل أَن ندخل في مواطن الارتياب أَو غابة الشكوك المتشابكة، أَود أَن أُؤَكد لك أَنني لست من السذاجة بحيث أَتصور جبران منزَّهًا عن طبيعة الإِنسان وضعفه وأَحاسيسه وميوله الجنسية، أَو أَحسبه عاش حياته كلها، ٤٨ سنة، ولم يعرف المرأَة، مع أَنه هو نفسه القائِل «إِن أَكثر الناس إِحساسًا بالمشاعر الجنسية هم طبقة الخلاقين: الفنانين والشعراء الخ..».

---

٤ عن مجلة «الأَديب» – تشرين الأَول ١٩٥٦ – العدد العاشر (ص ١٢ – ١٥).

٥ باحث ومؤرخ أَدبي فلسطيني (١٩٢٠–٢٠٠٣). أَمضى مدة طويلة في التدريس لدى الجامعة الأَميركية في بيروت. كتابه «فنُّ السيرة» (دار الثقافة – بيروت ١٩٥٦) أَثار جدلًا عند صدوره.

ولست كذلك من الغباء بحيث أَتصور أَنه لم يعرف في حياته في باريس ونيويورك وبوسطن، كغيره من أَبناء هذه الأَرض، شيئًا من الليالي الحمراء أَو الخضراء أَو السوداء، أَو على الأَقل البنفسجية، كَلَيلتِنا الأَخيرة في بيروت!

إِن جبران إِنسان مثلك ومثلي ومثل ميخائيل نعيمه، وهو فنانٌ أَصيلٌ مرهفُ الحس، وقد كانت المرأَة مبعثًا لوحيه وإِلهامه في القسم الأَكبر من أَعماله الأَدبية والفنية، شاعرًا ورسامًا. وهو بعد ذلك إِنسان انطلق من بيئة الشرق الجامدة المكبوتة إِلى بيئة الغرب المتحررة والإِباحية في كثير من مظاهر حياة أَهلها. وأَنت وأَنا نعرف كيف يكون أَثَر هذه النقلة في نفوس الشباب، ولذلك لسنا نرى غرابة في أَن يُشيع شبابُ شرقيٍّ فنانٍ رغباتِه المكبوتة حينما تتاح له الفرصة، ولسنا نرى في ذلك ما يُنقص من قيمة جبران الأَديب والفنان والإِنسان.

ولكنني لا أَكتمك كذلك أَنني لست من السذاجة والبراءة بحيث أَتصور أَن ميخائيل نعيمه قد وضع كتابَه عن جبران مجرَّدًا عن الهوى، وخاليَ البال من كل غرض شخصي. وقد تستغرب أَن أَقول لك إِن نعيمه نفسَه هو الذي أَوحى إِليَّ بهذا الارتياب في كتابه عن جبران. ورفاق جبران ونعيمه في «الرابطة»، ولا سيما عبد المسيح حداد ووليم كاتسفليس، زادوا عندي من الارتياب حتى بلغوا به إِلى درجة الاعتقاد.

وقبل أَن أَستمرَّ في الإِيضاح أَود أَن أُذكرك بثلاث مقالات لي نشرتها مجلة «الأَديب» في سنوات سابقة: «توافُق الأَفكار والتعابير في أَدب الرابطيين» (نيسان ١٩٥١)، «القصة والرواية في الأَدب المهجري» (أَيلول ١٩٥٢) و«مع برباره يونغ في كتابها «هذا الرجل اللبناني» (تشرين الأَول ١٩٥٢)، وهي مقالات جرَّت مناقشاتٍ طوالًا على صفحات «الأَديب» اشترك فيها الدكتور محمد يوسف ونجم والياس فرحات ومحمد منير آل ياسين ومحمد المسلم وغيرهم. في تلك المقالات أَعلنتُ ما أَرتاب فيه من أَمر نعيمه في سيرة جبران.

في مقالة «القصة والرواية في الأَدب المهجري»، كما في ردودي على ما جرَّته من نقاش، قلت إِن سيرة جبران بقلم نعيمه ليست تاريخًا حقيقيًّا لجبران ولا يصحُّ الاعتماد عليها لمعرفة حياة جبران الصحيحة، لأَنها رواية خيالية فنية اتخذ

نعيمه من جبران بطلًا لها، وأَورد فيها آثار جبران الأَدبية والفنية، وأَشياءَ من أَعماله المعروفة، كما يتخذ مثْل ذلك في كل رواية تدور على إِنسان أَو شيء تاريخي.

وفي حديثي عن كتاب «هذا الرجل اللبناني» قارنتُ بين الكتابَين وبيّنْتُ بعض ما بينهما من التناقض والتباعد، وملْتُ إلى تصديق الكاتبة الأَميركية، وهي سكرتيرةُ جبران خلال السنوات السبع الأَخيرة من عمره، والقابلةُ التي على يديها وُلد عددٌ من مؤلفات جبران الهامة، ووكيلتُه الأَدبية بعد وفاته. وقد أَوضحتُ في مقالتي الأَسباب التي تدعوني إلى هذا الميل.

أَما في مقالتي «توافق الأَفكار» فقد أَلمحت إِلى أَن نعيمه لم يكن مبتدعًا في أَفكاره العامة التي تدور عليها كتاباته ومؤَلفاته بل كان يقتفي خطوات جبران وينقل أَفكاره ويقلّد مؤَلفاته.

غير أَنني، في تلك المقالات الثلاث كما في ردودي على مُناقشيها، لم أَقُل كلَّ ما كنتُ أُريد أَن أَقوله، بل أَخفيتُ الأَمور البعيدة التي كنت أَستند إِليها لارتيابي في صدق نعيمه وإِخلاصه في كتابة سيرة صديقه. أَما الآن فأَرى أن أَخرُج عن التلميح إِلى وضع النقاط على الحروف، كما أَفهمها، وكما بدَت لي من دراستي الطويلة لأَدب المهجر بشكل عام، ولأَدب جبران ونعيمه و«الرابطة» بشكل خاص.

وأَودُّ أَن أُؤكِّد لك أَنني من أَشد الناس حرصًا على تقصِّي الحقيقة ورغبةً في الرجوع إِليها إِذا تأَكدتُ من انحرافي عنه وخطإِ اجتهادي في تلمسها. وعسى أَن تردَّني إِلى الصواب.

في يدي الآن حفنةٌ من المعلومات أَنثرها أَمامك على عجَل قبل أَن أَدخل في التفاصيل:

١) نعيمه ناقد ذكي جدًا، وقد كان كذلك منذ أَن عرفه جبران.

٢) كان جبران يخاف النقد كل الخوف، وكان يكره الناقدين كرهًا شديدًا، حتى ليودُّ أَحيانًا لو يتاح له أَن يفتك بهم. يشهد بذلك نعيمه نفسُه ووليم كاتسفليس.

٣) خوفُ جبران من النقد، ومعرفتُه لمقدرة نعيمه النقدية وبراعته في تسخير القلم، كانا يجعلانه يعيش على حذَر شديد من نعيمه حتى ليتملَّقه أَحيانًا ليكسب مودته ويضمن صمته.

٤) بلغ خوفُ جبران من نعيمه، لا سيما بعد أَن كتب نعيمه مقاله حول «عواصف» جبران، أَنْ عندما قرأ عليه فصول كتابه «آلهة الأرض» قبل طبْعه ولاحظ من إِمارات وجهه عدم رضاه عنه، قطع الحديث ليقول له: «لقد ذكرتُكَ في وصيَّتي».

٥) بالوعد المتقدِّم أَعلاه ضَمنَ جبران أَن لا يتعرض له نعيمه بالنقد ما دام جبران حيًّا.

٦) كانت صدمةً لنعيمه حين فُتِحَت وصيَّة جبران بعد موته فلم يجد له ذكرًا فيها. ويخيل إِلي أَنه عندئذ صمم على الانتقام منه.

٧) اختار نعيمه لانتقامه من جبران طريقةً مضمونةَ التأْثير إِلى حد بعيد، تتلخص في ما يلي: كهنة الموارنة، والكاثوليك عمومًا، أَعداء لجبران، وقد أَحرقوا أَحد كتبه في قلب بيروت مرةً، والشرقيون عمومًا سريعو التأثر للأُمور الأَخلاقية، فلماذا لا يضع لهم نعيمه كتابًا عن جبران يحشُوه بقصص الدعارة والانحطاط الخلقي ليتَّخذوا منه سبيلًا إِلى محاربة أَدب جبران ميتًا، بعد أَن فشل الكهنة في حرب جبران وأَدبه حيًّا؟

٨) ما يبعث على الريبة في صدق نعيمه وسلامة طويَّته في سيرة جبران أَنه لم يجمَع حديثه عن انحطاط جبران الأَخلاقي (إِن صح) في فصل معين ولو استغرق ذلك الفصلُ نصفَ الكتاب أَو حتى ثلاثة أَرباعه، بل راح ينشر أَحاديثه بين الصفحات بغير تعيين وبطريقة مقصودة، حتى لا يكاد يخلو منها فصلٌ من فصول الكتاب، بل لا تكاد تخلو أَكثر الصفحات من تلك الأَحاديث المبثوثة عمدًا وبمهارة عظيمة. وأَعظم مهارة نعيمه في ابتداع المشاهد والمواقف الدالة على نذالة جبران وانحطاطه، اختلاقُ الحوار

المعبِّر عن عدم تقيُّد جبران بشيء من قيود الأَخلاق والفضيلة والنبل والسمو الروحي، مع السيدة الغنية التي طلبَت أَن يرسمها جبران وهو بعد ناشئٌ في سن الرابعة عشرة، ومع ميشلين ومع ماري هاسكل ومع الفتاة المعجبة بكتابه «النبي».

٩) المجد الذي ناله جبران في الغرب والشرق هو أَكثر ما يملأ نفس نعيمه غيظًا، وهو يحاول منذ أَن عاد إلى الشرق أَن يهدم جبران ليأْخذ مكانه كفيلسوف وناسك وأَديب، ونبي أَيضًا. وليست أَكثر كتب نعيمه سوى تقليد صريح لكتب جبران، فـ«النبي» يقابله «مرداد»، و«رمل وزبَد» يقابله «كرم على درب»، و«همس الجفون» تقابله «المواكب» وقصائِد جبران المنثورة، وفلسفة وحدة الوجود والأُخوَّة الإِنسانية التي نادى بها جبران في جميع مؤَلفاته (وهي فلسفة أَقدمُ عهدًا من جبران لكنه أَحياها من جديد في ديار الغرب) هي عينُها الفلسفة التي تدور عليها جميع كتابات نعيمه. أَما المحاولة الجريئة الكبرى لهدم جبران وإِجلاس نعيمه على كرسيِّه فهي سيرة جبران التي كتبها نعيمه.

أَخي إِحسان

أَكاد أَراك تحملق في هذه الحفنة من المعلومات السريعة مستغرِبًا، ثم تنفض رأْسك متشكِّكًا ساخطًا وتقول: «لا، هذا غير ممكن»!

إِذن فأَنت تريد تفاصيل أَوفى لكي تمتلئ نفسُك بمثل الرِيَب التي تمتلئ بها نفسي، ولكي تعود إلى كتابك «فن السيرة»، وتنثر فيه بعض علامات الاستفهام، أَو التشكك على الأَصح، في بعض المواطن المعيَّنة.

تريد أَن تتأَكد مما إِذا كان جبران يكره النقد والناقدين؟ إِقرأ إِذن حديث نعيمه عن موقف جبران من كاتبٍ في إِحدى جرائِد نيويورك العربية تهجَّم على «الرابطة» وعلى جبران: «فإِذا بعينيه تقدحان شررًا، وشفتيه ترتجفان غضبًا وتقطران سمًّا. وإِذا به يقول: «لو لقيتُه أَنا يا ميشا... كنت أَبصق في وجهه، وأَفكُّ رقبته. إِن كلبًا مثله لا

يستاهل إِلا العصا». أَما تعليق نعيمه على هذه الغضبة الثائِرة فهو: «لم أَستغرب ما قاله جبران، لأَنني كنت أَعرف طباعه».

هذه واحدة. وهذا وليم كاتسفليس في مقاله «من حصاد الذكريات» («الأَديب»، كانون الثاني ١٩٤٩) يقول: «من الغرابة أَنّ جبران، على الرغم من رحابة صدره ورحابة عقله، كان يكره انتقاد الناس إِياه كرهًا شديدًا، ويتأَلم منه غاية الأَلم، حتى وإِن كان مصدره الحاسدون والمتعنِّتون».

وتريد أَن تعرف متى اعترف نعيمه بخوف جبران منه؟ إِقرأ إِذن في فصل «العواصف» كيف أَن جبران، حين ذكر له نعيمه أَنه يحمل مقالًا عن «العواصف»، قال له: «لكنَّ بي خوفًا منك يا ميشا، فلَكَ عينٌ تنفُذ إِلى أَعماق نفسي، وقلمٌ لو شاء لَمَزق الستائِر التي أَتستر بها عن أَعين الجهلاء والعميان».

يقينًا أَن نعيمه أَورد هذا الكلام ليُباهي ببراعته ومقدرته، لكننا نلاحظ فيه نوعَ الدس المتعمَّد على جبران، استمرارًا للخطة التي درج عليها نعيمه في كتابه، وبها يرمي إِلى تصوير جبران للقراء بصورة المُرائي الخدّاع الخسيس النفْس المُتستِّر بستائِر زائِفة عن أَعين الجهلاء والعميان. وهذا التعبير هو من ماركة تفسير نعيمه لعبارة جبران الإِنكليزية I am a false alarm وقد تحدثتُ عنها في مقالتي عن كتاب بربارة يونغ «هذا الرجل اللبناني».

ومن هذه الماركة تعليقُ نعيمه على قول جبران في «المواكب»:

والحب إن قادت الأجسام موكبه ... إلى فراش من الأغراض ينتحر

وعلى قوله أَيضًا في «المواكب» نفسها:

والحر في الأرض يبني من منازعه ... سجنًا له وهو لا يدري فيؤتسر

إِلى أَقوال أَخرى مما كان يأْخذه من مقالات جبران أَو كتبه، ويبثه هنا وهناك مع تفاسير وشروح يتعمد فيها الإِساءة إِليه بطريقة مبطَّنة بينما يبدو ظاهرها نقدًا خالصًا لوجه الله والأَدب! وفن السيرة أَيضًا!

غير أَن نعيمه – وهو يورد عبارة جبران ويعترف بخوف جبران منه – لم يفطن إلى أَنه بذلك قد أَعطانا حقيقة أَخرى غير التي رمى إليها، وأَن سهمه قد عاد إليه إذ أَكد لنا حقيقة سيئة هي خوف جبران من استغلال نعيمه لقلمه في أَغراض أُخرى شخصية غير النقد البريء المجرد.

أَما وقد وصلْنا إلى هذه النقطة فسنقفز في كتاب نعيمه إلى فصل «أَشعة في الغمام».

كان جبران يقرأ على نعيمه فصول كتابه الجديد «آلهة الأرض». ويبدو أَنه أَثناء القراءة كان يختلس النظر إلى نعيمه فلا يلمح على وجهه ما يُطمْئِن إلى رضاه عما يسمع. وليس هذا التخيُّل منَّا بغير أَساس، فتعليق نعيمه هو الذي يوحي إلينا به حين يقول: «إن جبران الشاعر لم يبق عنده ما يقوله من بعد «النبي» إلا إعادة ما قاله». وفجأَة، وبغير مقدمات وبغير مناسبة وبغير تمهيد، يتوقف جبران عن القراءَة كي يقول لنعيمه «ميشا، لقد ذكرتك في وصيتي».

أَخي إحسان

كن ما شئت من براءَة النية وسلامة القلب ولكن، بالله عليك، ماذا تفهم من هذا الموقف؟ أَلا ترى معي أَن جبران لم يفعل ذلك إلا ليضْمن صمت نعيمه وعدم تعرُّضه بالنقد لكتابه الجديد الذي لم يكن عندئِذ مطبوعًا بعد، ولكتبه اللاحقة ما دام حيًا؟! أَو على الأَقل: أَلا تخامرك ريبةٌ في أَن هذا كان «برطيلًا» لنعيمه؟ وأَنه قد اشترى به صمته إلى ما بعد وفاة جبران؟

أَقفز الآن إلى فصل «وصية جبران» لترى خيبةَ نعيمه وهو يمهد للوصية، معلنًا عدم وجود ذكْرٍ له فيها (دعْنا الآن من الآخرين الذين ذكَرهم معه أَيضًا، فما ندري مدى الصحة في سرد قائِمتهم هناك). ستحس مع نعيمه بشدّة الصدمة والخيبة المُرة حينما لم يجد نعيمه لنفسه حصةً في الإرث من تركة جبران التي «كانت تساوي ٥٣,١٩٦ دولارًا» كما يقول نعيمه.

أَتعتقد أَن نعيمه لا يهتم بالمال؟ المال معبود الدنيا كلها. وقد كان نعيمه يعتقد أَنه سيصل إِلى الثروة عن أَيسر سبيل بمجرد ذكْر اسمه في وصية جبران.

أَذكر مرة أَن وليم كاتسفليس، في ردِّهِ على محمود شريف في جريدة كانت تصدر في البرازيل، ذكر له أَن ميخائيل نعيمه كان لا يكاد يتجمَّع لديه عدد من الدولارات حتى يبادر إِلى المقامرة بها في البورصة على أَمل أَن يتمكن من زيادتها. ووليم كاتسفليس يعرف نعيمه مثلما نعيمه يعرف جبران، وقد كانا صديقَين حتى فرَّق بينهما موت وليم.

ومع ذلك فهذا الذي أَقوله هنا ليس سوى مجرد شكوك، لكنها ذاتُ أَصول في حياة نعيمه وكتابه عن جبران.

والآن، بعد أَن رأَيت خيبة نعيمه مكتوبةً بقلم نعيمه نفسه في سيرة جبران، قل لي: أَلا ترى أَن جبران يستحق من قلم نعيمه «مرمطة وشرشحة»، بعد أَن ربط قلمه ولسانه عن نقده عدة سنين في انتظار الميراث الموعود؟

إِنني لا أَمدح جبران حين أَذكر هذه الحقيقة لكنني أَكشف عن نقص كبير لم يكن جبران في حاجة إِلى التردّي فيه إِلى هذا الحد، بحيث يتحول إِلى مضاعفات أَخرى من النقائِص كان في غنى عنها كلها.

والآن، وقد عرفتَ خوفَ جبران من نعيمه وعدمَ ثقته به، وجبران كان شديد الحرص على أَن يبدو للناس نبيًّا وقديسًا، أَتتصور يمكنه أَن يفضي إِلى نعيمه بشيء من أُموره وعلاقاته الجنسية، لا سيما ما كان منها في مثْل حقارة قصة ميشلين، فيستغلها قلمه الجارح يومًا ما كي «ينشر غسيله على السطوح»؟

وإِذا كان جبران لم يَبُح بشيء من أُموره الخاصة إِلى أَحد من زملائِه الآخرين في «الرابطة»، ولم يكن يخاف من أَحد بينهم كما كان يخشى نعيمه، أَفيمكنك أَن تتصور أَن يجعل من نعيمه وحده مستودعَ ثقته ومخزنَ أَسراره، بحيث يُفضي إِليه بمثل قصة «توديعه لعفّته» في سن الرابعة عشرة، ومثل قصة ميشلين، وغيرها من أَحاديث وحوادث تسيء إِليه بين الشرقيين، ولدى رجال الدين بشكل خاص، لو نشر خبرها يومًا ما؟

لقد كان جبران يحب جميع زملائِه في «الرابطة» حبًا جمًّا. أَما حبُّه لنعيمه فكان حب خوفٍ منه لا حب إِخلاصٍ وثقة، بينما أَحبُّهم إليه: نسيب عريضة، فعبد المسيح حداد، كما يقول وليم كاتسفليس في مقالته «من حصاد الذكريات» (مجلة «الأَديب» – كانون الثاني ١٩٤٩).

ولعلك، يا أَخي إِحسان، ستستغرب أَن تعلم أَن عبد المسيح، وكان جبران لشدة محبته له يعتبر نفسه فردًا من أُسرته، قد أَنكر قصة ميشلين وقصة غرام جبران بماري هاسكل أَو رغبته في الاقتران بها، بل أَكد أَن جبران أَعفُّ وأَنبلُ من أَن يفعل مثل هذا الذي رواه عنه نعيمه. وقد ورد ذلك في أَحاديث عقدها معه الأَديب المهجري يوسف البعيني نشرها في مجلة «العصبة» في البرازيل عام ١٩٤٩، ثم نُشرَت في «السائِح».

إِسمع، من حديث وليم كاتسفليس، الأَسئلة والأَجوبة، واحكُم بعد ذلك على ضوئها وعلى ضوء الحقائق المتقدمة.

سؤال: أَكانت لجبران علاقات غرامية بماري هاسكل؟

جواب: ... أَما ما كتبه ميخائيل نعيمه عن علاقات جبران الغرامية بماري هاسكل فبعيد عن الواقع... لقد أَحبَّت جبران حبَّ أُمٍّ، وقد قدَّر لها جبران عاطفتها السامية فظل محافظًا على صِلاته بها، وهي صلات روحية تَفوق كل حب وتبزُّ كل غرام.

سؤال: أَورد الأُستاذ ميخائيل نعيمه في كتابه الرائع عن جبران أَن جبران أَغوى المعلمة ميشلين، فكيف كان ذلك؟

جواب: لم تكن علاقتي بجبران من تلك العلاقات السطحية التي تحيا على الهامش. فقد قُدِّر لي أَن أَتوغل في كهوف نفسه، سابرًا كلَّ ما فيها من مطامح وميول، وأَشواق وأَحلام، وظلمات وأَشعة. مع هذا لم يطلِعْني يومًا على اسم تلك المرأَة التي شغَل ذكرُها قسمًا من كتاب الأستاذ نعيمه (ثم يتابع عبد المسيح قائلًا) وجبران، وهو أَقرب أَبناء الإِنسان إِلى المبدع الأَعلى، حاشا له أَن يكون قد دنَّس روح ميشلين، فقد كان يفهم الحياة ويفهم الله».

أَما عن أَخلاق جبران وشخصيته فيقول عبد المسيح ردًّا على سؤال آخر للبعيني: «كانت لجبران شخصية كشخصية يسوع، لا تصنُّع فيها ولا تكلُّف، وقد أَقر بجمالها الذين عرفوه».

وفي مقالة «من حصاد الذكريات» يقول وليم كاتسفليس: «كان جبران طيِّب القلب، رقيق العاطفة، صادق المودة، لم يَخُن في حياته صديقًا ولم ينكث لأَحد عهدًا».

ولست أَدري كيف هذه الأَخلاق العالية تتلاءَم مع مثْل قصة ميشلين كما اختلقها ميخائيل نعيمه واختلق مشاهدها وحوارها، اللهمَّ إِلَّا إِذا شئنا، لغرض في النفس، أَن نصدّق رواية نعيمه عنها، وأَن نكذّب عبد المسيح ووليم كاتسفليس، وقد كانا رفيقَين لجبران في الحياة وفي «الرابطة القلمية» وعاشراه عِشْرة محبة وثقة وإِخلاص أَطول من عشْرة نعيمه له وأَوثق وأَصرح.

أَتريدني أَن أَمضي في الحديث بعد؟ أَم يكفي هذا ليجعلك تشكُّ مثل شكوكي بحيث ترى معي أَن سيرة جبران بقلم نعيمه ليست سيرة ولا تاريخًا حقيقيًّا للرجل، بل هي رواية أَدبية رائِعة محبوكة الأَطراف بشكل فني أَخَّاذ يَخدع كثيرًا وبمهارة مدهشة عن حقائقه المبطنة؟

أَخي إِحسان

إِن لديَّ الكثير غير هذا لأَقوله إِن كان هذا غير كافٍ. لكنني أَقف الآن عند هذا الحد لأَنني أَطلتُ كثيرًا. وإِن شئتَ المزيد فسأَعود إِليك بعد أَن يستريح القراء من هذا الشَوط المُتعِب الذي قطعوه معنا لاهثين، ويزدردوا هذه اللقمة العسرة الهضم التي قدمتُها إِليهم على غير استعداد لازدرادها. كان الله في عونكَ وعونهم!



سيرة جبران
بين بربارة يونغ وميخائيل نعيمه وماري هاسكل

أَعقد هنا[٦] مقارنة بين كتابَين وضعَهما صاحباهما في سيرة جبران وأَعماله الأدبية والفنية: «جبران خليل جبران» لميخائيل نعيمه و«هذا الرجل اللبناني» *This man from Lebanon* لبربارة يونغ.

كان نعيمه رفيقًا لجبران خلال فترة طويلة منتِجة من حياته وحتى يوم وفاته، وكانت بربارة يونغ سكرتيرته خلال السنوات السبع الأَخيرة من حياته، كما كانت «القابلة» التي تلقَّت يداها ميلاد روائِعه الأَدبية منذ ١٩٢٥ حتى لحظة فارق الحياة في مستشفى سانت فنسنت في نيويورك، الحادية عشرة ليلة العاشر من نيسان ١٩٣١، ثم باتت بعد وفاته وكيلة أَعماله الأَدبية.

وما دام الأَمر كذلك، لا بد أَن ما يكتبه عن الرجل هذان الرفيقان ذا أَهمية خاصة، ويستحق من القراء الاهتمامَ والمقارنةَ لكي نرى كيف ينظران إلى حياة الرجل الذي لازماه، وأَبدَيا في كتابيهما حبًّا له كان حبًّا حارًّا عميقًا في أَحد الكتابين، وفي الآخَر حذِرًا غامضًا مثيرًا للريب أَحيانًا.

أَول ما يلاحظه القارئُ المتمعِّن في الكتابين فقدانُ المودة بين المؤلِّفين فقدانًا تامًّا: فنعيمه لا يَذكر بربارة يونغ في كتابه كله إِلَّا مرة واحدة في الفصل الأَول، فيشير إِلى أَنه التقى بها أَمام غرفة جبران في المستشفى أَثناء ساعات نزاعه ويصفها، دون أَن يذكر اسمها، بأَنها «طويلة القامة، عظميّة الهيكل، زعفرانية اللون، حادة الأَنف، غارقة العينين»، وأَنها «شاعرة أَميركية في النصف الأَول من عقدها السادس، عرفت جبران منذ سبع سنوات فتقرّبت منه، وكانت تساعده في نسخ مؤلفاته، وقد التقيتُها مرة عنده...».

ومتى استطاع القارئُ أَن يحزر أَن برباره يونغ هي المقصودة بهذا الكلام، يفهم أَن علاقتها بجبران علاقةٌ عابرة جدًّا ما دام نعيمه «يقرر» أَنه التقى بها عنده «مرة

٦ فصلٌ من كتابه «أَدب المَهجر»، دار المعارف – القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٦ (ص ٣٤٨ – ٣٥٦).

واحدة» خلال سبع سنوات، في حين تتحدَّث هي عن صلتها بجبران بما يؤكد أَنها لازمته، وكانت رفيقةَ عمله الدائِمةَ خلال السنوات السبع الأَخيرة من حياته. فهي تقول في مقدمة كتابها: «لقد كان من حسن حظي، ومن دواعي غبطتي، أَن أَعرف جبران شاعرًا ورسامًا ورفيقًا حبيبًا لمدة سبع سنوات، حتى اللحظة الأَخيرة من حياته. سبع سنوات من الصداقة والعمل، حتى لقد قال هو نفسه مرة متلطفًا إِننا كنا «شاعرَين نعمل معًا بِاسم الجمال»...».

ثم تروي في الفصل التاسع أَن عملها مع جبران بدأَ في خريف عام ١٩٢٥ واستمر إِلى النهاية، فهي التي كانت تتلقى مولد قصائده ومؤلفاته الجديدة كلها، وبعد ذلك أَعدَّت للطبع كتابه الإنكليزي «حديقة النبي» *The Garden of the Prophet* لأَن جبران مات قبل أَن يُعدَّه الإِعداد اللازم، بل تركه أَجزاء مبعثرة تحتاج إِلى من له معرفةٌ وثيقة بروح جبران وطريقته وأَهدافه لكي يؤلف بينها.

أَما نعيمه فلم تذكُر برباره يونغ اسمه الصريح، ولا وَصَفَته قط في أَي صفحة من صفحات كتابها وصفًا صريحًا بل أَشارت إِليه إِشارة صغيرة غامضة بقولها *One who shall be nameless, has departed from the faith* («واحد من أَعضاء الرابطة، لن أُسميه، حادَ عن الإِخلاص لها») في خلال حديثها على انفراط عقد «الرابطة القلمية» بعد وفاة جبران. وليس لدينا أَيُّ شك في أَن هذا الشخص الذي تعنيه وتأبى أَن تذكر اسمه، هو نعيمه نفسه. أَما بقية أَعضاء «الرابطة» الذين كانوا أَحياء عندئذٍ فقد ذكرَت أَنهم ظلوا يعملون في «رابطتهم» بملء الإِخلاص لها ولذكرى عميدها الذي سبقهم إِلى الأَبدية.

هذه الإِشارات العابرة، أَو «الحرب الباردة» بين نعيمه وبربارة، تصرّح بأَقصى وضوح عن روح العداء المستحكمة بين الاثنين، ولا ندري لماذا، أَو لعلنا ندري إِذا علِمْنا أَن جبران قد ائتمن بربارة على مؤَلفاته وأَعماله الأَدبية بعد وفاته ولم يَكِلْ أَمرَها إِلى نعيمه. وتلك الإِشارات تُرينا كذلك كيف كتَب كلٌّ منهما كتابَه عن جبران بروح تختلف عن روح الآخر. وإِذا اتفقَا، إِلى حدٍّ ما، في الحديث على بعض آثار جبران الأَدبية والفنية وأَهميتها وأَثرها البعيد، فإِنهما يختلفان كلَّ الاختلاف في

ما يتعلق بشخصه وسلوكه كإنسان: بينما يهبط به نعيمه إلى الدَرْك الأَسفل من الشهوانية، تمضي بربارة يونغ (في الفصل الرابع عشر من كتابها) في الحديث على حياته الخاصة وشعوره الجنسي ومسلكه الأَخلاقي، فتُرينا إِياه إِنسانًا كباقي الناس المُرهفي الشعور يتأَثر بعوامل الجنس ويشعر بالظمإ إِلى امتلاء العاطفة لكنه لا ينحطُّ إلى درْك اللاأَخلاقية الشهوانية.

ويتساءل القارئ: هل اتفق الكاتبان في شيْءٍ بقدْرما اختلفا في كتابيهما؟

الحقيقة أَنهما، في ما يتعلق بجبران الإِنسان، كانا شديدَي الاختلاف، بل على طَرَفَي نقيض، فلم يكادا يتَّفقان إِلَّا على أَن جبران ولد ومات، وبين الولادة والموت تنقّل بين لبنان وأَميركا وفرنسا، وكان أَديبًا وفنانًا، أَلَّف كتبًا بالعربية والإِنكليزية وصنع رسومًا عديدة، وما إِلى هذا من الأُمور الأَولية التي لا يجوز الاختلاف فيها لأَن جميع الناس يعرفونها ولو لم تَرِد في هذين الكتابين.

وطبيعيٌّ جدًا أَن يختلف كاتبان في طريقة عرضهما وفي تَذَكُّر بعض الحوادث، لكننا لا نفهم كيف كاتبان مثل نعيمه وبربارة يونغ، عاشا مع الرجل نفسه مدة قصيرة من عمره، يختلفان في الرواية الواحدة، للشيء الواحد من أَعماله أَو أَقواله، وفي النظر إِليه - والمفروض أَن ينظرا من جانب واحد - إِلَّا أَن تكون هناك عوامل نفسية خاصة هي التي تقرر هذه النظرة وتلك الرواية.

من ذلك، مثلًا، رواية نعيمه لحادثة تلاوة فصول من كتاب «النبي» وتمثيله في إِحدى كنائِس نيويورك. وهو يروي أَن ذلك قد وقع مرة واحدة، في حين تَذكُر بربارة يونغ أَنه كان يجري كل سنة.

ويتفق المؤَلفان على عظمة هذا الكتاب، ولم يقصِّرا في الثناء عليه، وهو كتاب أَثبَتَ الواقعُ عظمتَه كذلك بدليل عشرات الطبعات التي طبعها بالإِنكليزية وعشرات اللغات العالمية التي تُرجِم إِليها. ولكن لماذا كان الاختلاف في حادثة تمثيله وتلاوة فصوله في الكنيسة؟!

وكذلك لماذا كان اختلاف المؤَلفَين في رواية عبارة جبران *I am a false alarm* وشرح معناها، بحيث اكتفى منها نعيمه بهذا الجزء وحده، وفسَّرها بأَنها اعترافٌ

من جبران بحقارته النفسية، وتصوير منه لنفسه بصورة الخدّاع الحقير، في حين أَوردتْها بربارة بشكل يختلف عن هذا كل الاختلاف، وذكرت العبارة كاملة كما يلي: *I am a false alarm, I do not ring as true as I would* ثم أَكملت شرحها بأَن جبران لم يكن ليرضى عن نفسه إِلّا إذا رآها في أَعلى مستوى من الكمال الإِنساني، وهو شرْح يتفق كل الاتفاق مع النصف الآخر من العبارة، ويتفق كل الاتفاق أَيضًا مع ما أَصدقاء جبران الآخرون، عدا نعيمه، يروونَه عن سيرة جبران، وما تبَيِّنُهُ أَقوال جبران في جميع مؤَلفاته.

وفي رواية بربارة يشعر القارئ بأَبلغ الإِعجاب والمحبة لهذه الروح، روح جبران التي تعيش في صراع دائم لأَجل الكمال، في حين أَن رواية نعيمه تُشعِرُه بالنفور والحذر من هذا الإنسان الذي يعيش على خداع نفسه وخداع الآخرين. وشتّان ما بين الصورتين!

وهناك حوادث وأُمور وأَقوال أُخرى وردَت في الكتابَين بكثير من التناقض والاختلاف، كالذي ورد عن قصة العمارة التي اشتراها جبران وأَجَّرَها لرئيسة إحدى الجمعيات النسائية، وأَحاديث علاقات جبران الجنسية، ومعارضه الفنية، وقيمته في نظر الناس، ووطنيته، وغِيرته على أَبناء بلاده، وسواها.

ولكنّ هناك مصدرًا آخر لسيرة جبران، لعلّه أَصدقُ المصادر لأَنه أَقربُها إِليه وأَلصُقها به. ذلك المصدر هو ماري هاسكل ومذكّراتها عن جبران، وهي تجعل من الضروري أَن يعيد ميخائيل نعيمه النظر في كتابه لتصحيح الكثير ممّا جاء فيه عن سيرة جبران، وعن ميشلين وماري هاسكل، وعن علاقات جبران الإِنسانية والجنسية وغيرها.

إِن نعيمه قد جعل جبران يدمّر حياة ميشلين تدميرًا كاملًا، وخصوصًا في اجتماعاته معها في باريس، ونعيمه زوّقها بكلّ ما شاء له الخيال من صوَر الحقارة والنذالة، ما دفع بها إلى الاختفاء نهائيًّا من الحياة، بينما مذكرات ماري هاسكل تُرينا أَن ميشلين – وهي معلِّمة في مدرسة ماري هاسكل، وصديقة جبران وماري هاسكل معًا – قد تزوَّجَت وأَنجبَت، وعاشت حتى العام نفسه الذي توفي فيه

جبران (١٩٣١) وتوفيَت بعده بستة أَشهر. وفي ما ترويه ماري هاسكل عن صلة جبران بميشلين ليس ما يمكن أَن يشير إلى أَن جبران قد دمَّر حياتها أَو حاول ذلك.

ويحاول نعيمه أَن يصوّر جبرانَ صورة قذِرة أخرى: حين عرَض على ماري هاسكل أَن يتزوَّجها، سأَلته: «هل أَنتَ نظيف يا جبران»؟ ومضى يعلّق على ذلك ما شاء من تعليق يُسيْءُ إِلى سمعة زميله ورفيقه القديم. ولكن المذكرات تؤكد أن ماري كانت تحب جبران، وتودّ لو تتزوجه لولا أَنها كانت أكبر منه بعشر سنوات وكانت ترى نفسها آخذة في الانحدار نحو الشيخوخة في حين يمضي هو صُعدًا نحو القوة والمجد. وكانت، بحسّ الأُنثى وغريزتها، تشعر أَن هذا الفارق الكبير لن يَكتب السعادة لزواجها.

لقد أَراد نعيمه في كتابه لسيرة جبران أَن يصوّره أَسوأ صورة ممكنة. وبين زملائه الآخرين في «الرابطة» وبين أَصدقاء جبران العديدين، وأَهمهم يوسف الحويك وبربارة يونغ وماري هاسكل، لم نجد من يدعم روايات نعيمه أَو يرضى عنها. وأَكثر: نجد أَن عبد المسيح حداد ووليم كاتسفليس، من زملاء نعيمه في «الرابطة القلمية»، نَفَيَا بشدّةٍ كلّ ما اختلقه نعيمه عن جبران وما صوّره به من صور الحقارة الخلقية. وحتى الريحاني، أَكبر خصوم جبران في حياته، لم يستطع إِلَّا أَن يهاجم نعيمه بعد صدور كتابه حول جبران، لِما وجد فيه من اختلافات مسيئة إلى الحقيقة.

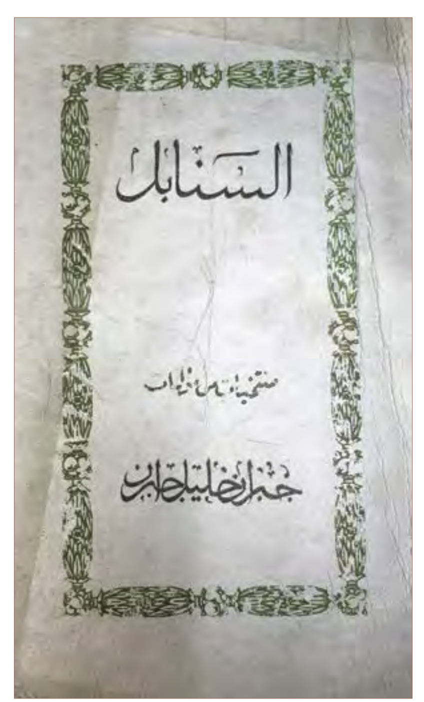


غلاف كتاب عيسى الناعوري
(الطبعة الثالثة – القاهرة – ١٩٦٦).

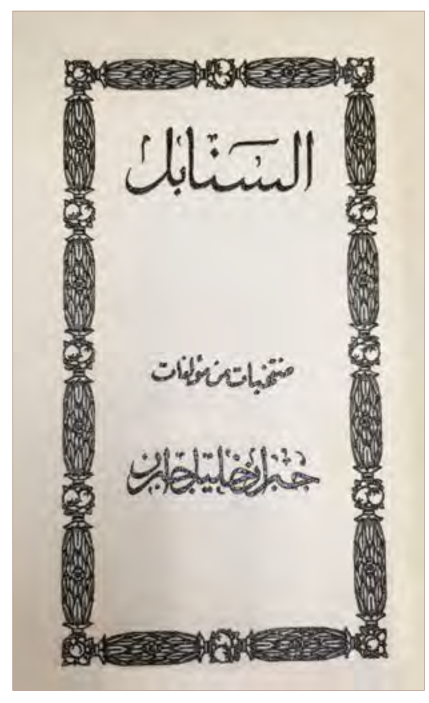


كتاب «السنابل»

هدية تكريمية من رفاقه في «الرابطة القلمية»



الغلاف الخارجي



الغلاف الداخلي

صبيحة الأَحد ١٧ حزيران ١٩٩٠ قصدتُ من نيويورك بيتَ إندرو غَريب في مدينة سْبرِنْغفيلْدْ (ولاية ماساشوسِتْسْ)، وهو يومئذٍ آخرُ الأَحياء[١] ممن عرَفوا جبران

١ تُوفِّيَ بعدها بعشْر سنوات (الأَحد ١٢ آذار ٢٠٠٠) عن ١٠١ سنة. وهو من مواليد عيتا الفخَّار (جنوب لبنان) سنة ١٨٩٨.

شخصيًا. كان يلتقيه مرارًا في محترفه إبَّان ترجمته إلى الإنكليزية نصوصًا لجبران صدَرت بالعربية. طال حواري مع إندرو[٢] أَسئلةً فضوليةً واكتشافاتٍ جبرانيةً حياتية، حتى إذا سأَلتُه إن كان التقاه خارج المحترف، أَجابني راويًا لي احتفالًا صدر في مناسبَتِهِ كتابُ «السنابل»، مقتطفات من نصوصٍ عربية لـجبران سبقَ أَن نشَرَتْها له الصحافة في نيويورك.

كان سؤَالي:

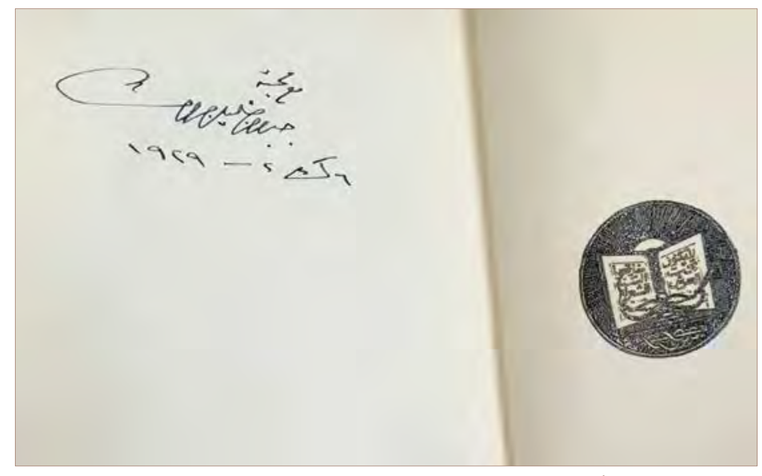
– هل صدَفَ والتقيتَه خارج جلساتكما الهادئة في الستوديو؟

فأَجابني إندرو بما أَنقلُه هنا حرفيًّا:

– مرةً واحدة. خلال حفلةٍ تكريمية كبيرة أَقامها له رفاقُه أَعضاءُ «الرابطة القلمية» ليلة السبت ٥ كانون الثاني ١٩٢٩ عشيةَ عيد ميلاده (السبت ٦ كانون الثاني ١٨٨٣) في اليوبيل الفضي لحياته الأَدبية (٢٥ سنة: ١٩٠٤–١٩٢٩). تلقَّيتُ من صديقي ميخائيل نعيمه بطاقة دعوة إِلى ذاك العشاء في فندق «ماك آلْپِنْ» الفخم (نيويورك). وافيتُ نعيمه إِلى محطةٍ في مانهاتِن وذهبْنا في سيارةٍ واحدة وكان معنا نسيب عريضة. وصلْنا قبل الموعد بنحو ساعتَين فإِذا جبران وصلَ قبْلنا، ويَذْرع القاعة الكبرى بخطواته وعصاه. رحَّب بي ودعاني إِلى مساعدته في التوقيع على كتاب «السنابل» الذي أَصدَرَتْهُ، خصيصًا لهذه المناسبة، «الرابطةُ القلمية» جامعةً فيه مقتطفاتٍ من كتابات جبران بالعربية. انتحيتُ معه جانبًا إِلى طاولةٍ في الزاوية، وأَخذتُ أَفتح له الكتاب على الصفحة ٣ وهو يكتب عليها: «مع محبة»، ويوقِّع: «جبران خليل جبران – ٦ كانون الثاني ١٩٢٩»، حتى انتهى من التوقيع على الخمسمئَة نسخة من الكتاب، وهو هادئٌ، عميقٌ، أَنيقُ الخطّ والهندام والقيافة. ضمَّت الصالةُ ليلتَها نحو ٤٠٠ مدعوٍّ بين شعراء ورسامين ومُحامين ورجال أَعمال

٢ نشَرْتُه كاملًا في كتابي **جبران خليل جبران – شواهدُ الناس والأَمكنة** – منشورات درغام، بيروت ٢٠١٢ (ص ١٥ إِلى ٢٩).

من وجهاء الجالية والأَميركيين، وتوالى فيها على الكلام ١٨ خطيبًا، بينهم: ميخائيل نعيمه، وليم كاتسفليس، عبدالمسيح حداد، رشيد أَيوب، نَدْرَه حداد، إِيليا أَبو ماضي، فيليپ حتي. وختامًا ارتقى جبران المنصّة ليُلقي كلمة الشكر، فما كاد يبدأُ في العربية ثم شاكرًا في الإِنكليزية حتّى حَشْرَجَ صوتُه بالكلمات، وارتجفَت شفتاه، وانهمَرَت دموعُه، فغادر المنبر باكيًا من شدَّة التأَثُّر».



الصفحة ٣ التي وقَّع عليها جبران سلَفًا كما روى إِندرو غَريب



يومئذٍ لم يكن لدى إِندرو غَريب نسخة من ذاك الكتاب النادر ذي الخمسمئة نسخة، فلم أَرَه.

وإِبَّان تنقيباتي وأَبحاثي على مصادرَ ومراجعَ ووثائقَ لوضعيَ هذا الكتاب، وجدتُ نسخةً مصوَّرَةً كاملةً من ذاك الكتاب، أُفَصِّلُ مضمونَها بالآتي:

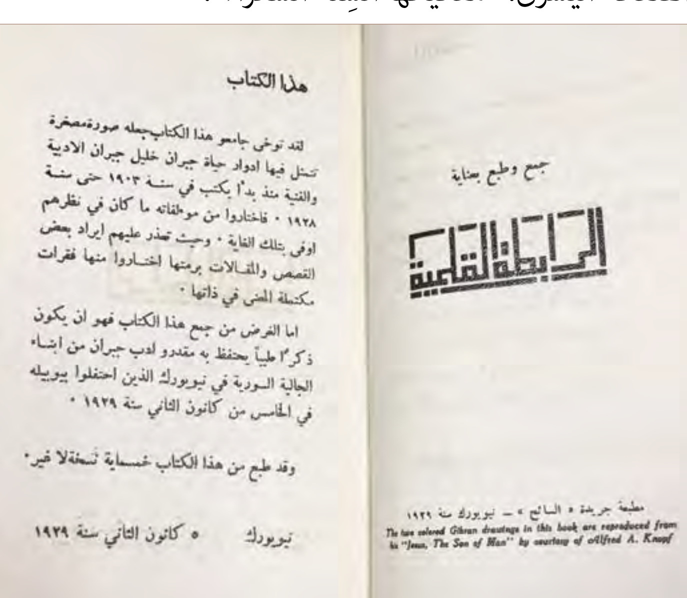
الكتاب من الحجم الصغير (١٤x٢٠ سنتم) في ٦٨ صفحة.

على غلافَيه الخارجيّ والداخليّ ضمن دائرةٍ مزخرفة بالخط العريض: **السنابل – منتخبات من مؤلَّفات جبران خليل جبران.**

الصفحة ١: عنوان **هذا الكتاب**، وتحتَه هذا النص: «لقد تَوَخَّى جامعو هذا الكتاب جعْلَه صورةً مصغَّرة تتمثَّل فيها أَدوارُ حياة جبران خليل جبران الأَدبية والفنية منذ بدأَ يكتب في سنة ١٩٠٣ حتى سنة ١٩٢٨. فاختاروا من مؤَلفاته ما كان في نظرهم أَوفى بتلك الغاية. وحيث تعذَّر عليهم إِيرادُ بعض القصص والمقالات برمَّتها، اختاروا منها فقراتٍ مكتملةَ المعنى في ذاتها. أَما الغرض من جمع هذا الكتاب فهو أَن يكون ذكْرًا طيبًا يحتفظ به مقدِّرو أَدب جبران من أَبناء الجالية السورية في نيويورك، الذين احتفلوا بيوبيله في الخامس من كانون الثاني سنة ١٩٢٩. وقد طُبِع من هذا الكتاب خمسماية نسخة لا غير. نيويورك ٥ كانون الثاني سنة ١٩٢٩».

الصفحة ٢: في وسط الصفحة عبارة **جُمعَ وطبِعَ بعناية الرابطة القلمية – مطبعة جريدة السائح – نيويورك سنة ١٩٢٩**. وفي أَسفل الصفحة سطران بالإِنكليزية هنا ترجمتُهما: «الرسمان الملوَّنان بريشة جبران في هذا الكتاب منشوران من كتابه «يسوع ابن الإِنسان» بإِذن خاص من الناشر أَلفرد أ. كنوف».

الصفحة ٣: في وسط الصفحة شعار **الرابطة القلمية** كما صمَّمه جبران (بشكل دائرة في قلبها كتابٌ مفتوح على صفحتين)، واستعادَ عبارةً منسوبة إِلى حديث شريف فخطَّطَها بقلمه على الصفحة اليمنى: «لله كنوز تحت العرش»، وعلى الصفحة اليُسرى: «مفاتيحُها أَلْسِنةُ الشعراء».


جمع وطبع بعناية

الرابطة القلمية

مطبعة جريدة « السائح » — نيويورك سنة ١٩٢٩

The two colored Gibran drawings in this book are reproduced from his "Jesus, The Son of Man" by courtesy of Alfred A. Knopf

هذا الكتاب

لقد توخى جامعو هذا الكتاب جعله صورة مصغرة تمثل فيها ادوار حياة جبران خليل جبران الادبية والفنية منذ بدأ يكتب في سنة ١٩٠٣ حتى سنة ١٩٢٨ . فاختاروا من مؤلفاته ما كان في نظرهم اوفى بتلك الغاية . وحيث تعذر عليهم ايراد بعض القصص والمقالات برمتها اختاروا منها فقرات مكتملة المعنى في ذاتها .

اما الغرض من جمع هذا الكتاب فهو ان يكون ذكراً طيباً يحتفظ به مقدرو ادب جبران من ابناء الجالية السورية في نيويورك الذين احتفلوا بيوبيله في الخامس من كانون الثاني سنة ١٩٢٩ .

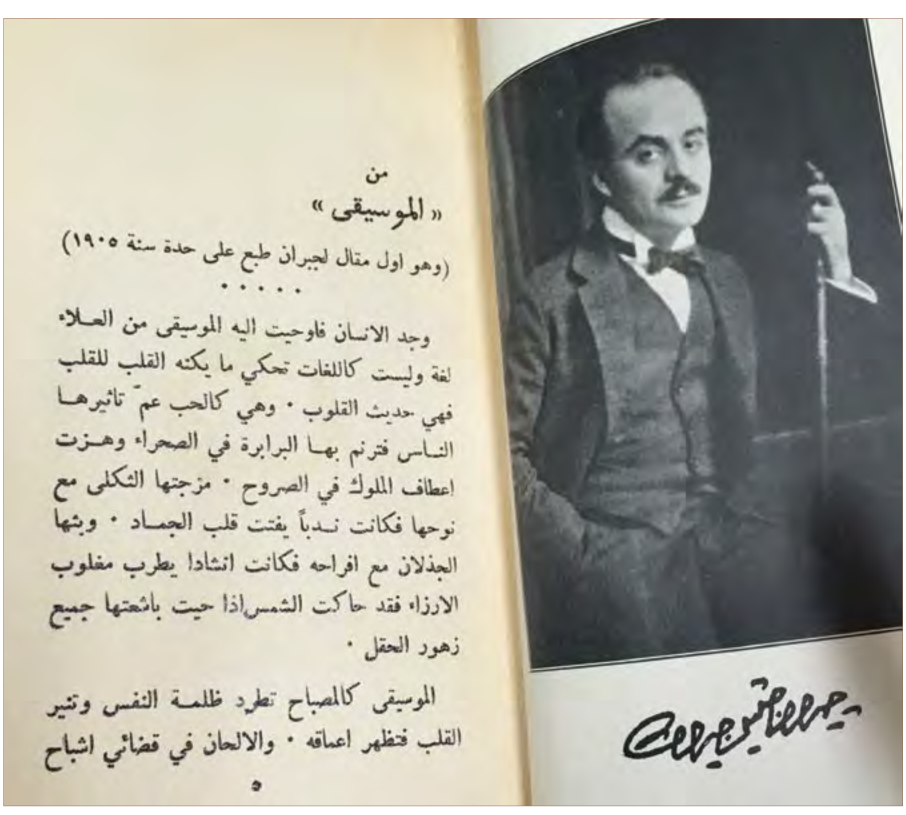
وقد طبع من هذا الكتاب خمساية نسخة لا غير .

نيويورك ٥ كانون الثاني سنة ١٩٢٩

الصفحتان الأُوليان: شعار «الرابطة» (تصميم جبران) واستهلال الكتاب

الصفحة ٤: صورة فوتوغرافية معروفة لجبران متَّكئًا على عصا، وتحتها توقيعُ جبران المعروفُ في جميع مراسلاته.

الصفحة ٥: عنوان من «**الموسيقى**»، وبين هلالَين عبارة: (وهو أَول مقال لجبران طُبِع على حدة سنة ١٩٠٥). ثم مقطع من النص حتى الصفحة ١٠.


من

« الموسيقى »

(وهو اول مقال لجبران طبع على حدة سنة ١٩٠٥)

• • • • •

وجد الانسان فاوحيت اليه الموسيقى من العلاء لغة وليست كاللغات تحكي ما يكنه القلب للقلب فهي حديث القلوب • وهي كالحب عمّ تاثيرها الناس فترنم بها البرابرة في الصحراء وهزت اعطاف الملوك في الصروح • مزجتها الثكلى مع نوحها فكانت ندباً يفتت قلب الجماد • وبثها الجذلان مع افراحه فكانت انشادا يطرب مغلوب الارزاء فقد حاكت الشمس اذا حيت باشعتها جميع زهور الحقل •

الموسيقى كالمصباح تطرد ظلمة النفس وتنير القلب فتظهر اعماقه • والالحان في قضائي اشباح

٥

الصفحتان ٤ و ٥ ومطلع نص كتاب «الموسيقى»

الصفحة ١١: عنوان من «**عرائس المروج**» **١٩٠٥–١٩٠٦**، وتحته عنوان مرتا البانيَّة، ثم مقطع من النص حتى الصفحة ٢٠.

الصفحة ٢١: عنوان من **دمعة وابتسامة** وتحته هذا المقطع: «وهي مجموعة من الشعر المنثور تحتوي على ما فاضت به قريحة جبران من سنة ١٩٠٣ حتى ١٩٠٨». وبعده في وسط الصفحة عنوان **يوم مولدي** وتحته عبارة «كُتبَتْ في

باريس في ٦ كانون الثاني سنة ١٩٠٨»[٣]، ثم مقطع من النص حتى الصفحة ٣٠.

الصفحة ٣١: عنوان من «**الأَرواح المتمردة» سنة ١٩٠٨**، وتحته عبارة «خليل الكافر يناجي الحرية»، ثم مقطع من النص حتى الصفحة ٣٦.

الصفحة ٣٧: عنوان من «**الأَجنحة المتكسرة**» وتحته عنوان **الشعلة البيضاء**، ثم مقطع من النص حتى الصفحة ٤١.

الصفحة ٤٢: عنوان «**من العواصف**» وتحته عنوان **العاصفة** يليه وسْط السطر «مقتطفات من حديث يوسف الفخري»، ثم مقطع من النص حتى الصفحة ٥٠، ومن كتاب **العواصف** أَيضًا، عنوان **مات أَهلي** على الصفحة ٥١ ومقطع من النص حتى الصفحة ٥٦، وكذلك من **العواصف**، عنوان **بين ليل وصباح** على الصفحة ٥٧ ومقطع من النص حتى الصفحة ٦٥.

الصفحة ٦٦: عنوان من «**المواكب» – صدر سنة ١٩١٩** وتحته ١٣ بيتًا من القصيدة توزَّعَت على الصفحتين ٦٦ و٦٧.

الصفحة ٦٨: عنوان **شذرات** وتحته ثماني عبارات وجدانية لجبران كتلك التي صدرت لاحقًا بالإِنكليزية في «رمل وزبَد».

٣ هذا النصُّ لجبران صدَرَ في أَعلى الصفحة الأُولى من «المُهاجر» (جريدة أَمين الغريِّب في نيويورك) عدد السبت ١٣ شباط ١٩٠٩، وبالعنوان ذاته («يوم مولدي») وتحته بالإِنكليزية **To M.E.H** ثم بالعربية **بقلم جبران خليل جبران**. وحدَثَ أَنَّ نسيب عريضة، حين أَعاد لاحقًا نشْرَ هذا النص بالعنوان ذاته، مع مجموعة مقالاتٍ منشورةٍ أُخرى، في كتاب **دمعة وابتسامة** (نيويورك ١٩١٤) وقَعَ في خطإٍ تَأْريخيٍّ إِذ كَتَب في مطلع النص: «كُتِبَت في باريس في ٦ كانون الأَول ١٩٠٨»، وإِذا بهذا الخطإِ يُضَلِّل باحثين اعتبروا ولادة جبران في ٦ كانون الأَول (بينما الصحيح، باعتراف جبران، هو ٦ كانون الثاني). والغريبُ كذلك أَن ميخائيل نعيمه أَيضًا، في كتابه عن جبران، كتَب في فصل «يوم مولد ويوم حساب» ما يلي: «أَطلَّت شمسُ السادس من كانون الأَول سنة ١٩٠٨ على الكارتييه لاتان (الحي اللاتيني) في باريس، وأَنفذَت شرذمةً من أَشعتها إِلى غرفة جبران فوجدَتْه في أَحضان مورفيوس». ويُكمل في هذا الفصل فيتخيَّل جبران يستذكر يوم مولده فينهض ويشعل الغاز ويأْخذ قلمًا ودفترًا ويكتب مقالًا مطلعه: «في مثل هذا اليوم ولَدَتْني أُمي». وهذا أَيضًا، حيالَ علاقة نعيمه الوثقى بجبران، جعل كثيرين يقعون في فخِّ هذا الخَطَإِ ويؤَرِّخون مولدَ جبران في ٦ كانون الأَول بدلًا من الصحيح وهو ٦ كانون الثاني.

تكريم جبران في ديترُوْيْت

ليلة الجمعة ٢٤ تشرين الأَول ١٩٢٤ أَقام «النادي التقدُّمي السوري الأَميركي» في ديترُوْيْت (مِتْشِغَن) عشاءً تكريميًّا في «الصالة العربية» الكبرى لفندق تَلِر[١]، حضرها عدد كبير من أَعضاء الجاليتَين اللبنانية والسورية، على شرف جبران تقديرًا حضورَه في الجالية وآثارَه الأَدبية. وكان ذاك الفندق، فترتئِذٍ، من أَفخم فنادق الدرجة الأُولى في المدينة بل في الولاية.



فندق تَلِر سنة ١٩٢٣،
ويبدو اسمه بأَحرف كبيرة
في الشبكة الحديدية على سطحه

١ هو أَقدم وأَفخم فندق في المدينة، على اسم صاحبه رجل الأعمال لُو تَلِر (١٨٦٩–١٩٥٨). شيَّده في وسَط ديترويت التجاري من ٦ طبقات سنة ١٩٠٦، ثم أَضاف إِليه ٤ طبقات سنة ١٩١٠ حتى بلغ ١٤ طبقة سنة ١٩١٤. وسنة ١٩٢٣ افتتح فيه «الصالة العربية» التي تستوعب ٦٠٠ شخص، كانت أَكبر صالة في ديترُويت للاحتفالات والمُؤْتَمرات.



المأْدبة في صالة الفندق الكبرى
يبدو جبران (ضمن الدائرة) في الصدارة

قبل تلك الحفلة كان جبران كتب إِلى ماري هاسكل: «هي مأْدبةٌ ينوي إِقامتَها ناسٌ طيِّبون تكريمًا كتابَ «النبي». لا أَعرف تمامًا ماذا يُهَيِّئُون لي هناك، لكنني سأَعود فورًا بعدها إِلى نيويورك».

في الصورة[٢]: جبران جالس في عمق الصالة إِلى يمين الموسيقيين الذين على المنصَّة.

٢ من مجموعة فارس وأَلِكسا ناف (أَصل الاسم: نعَّاف، من راشيا الوادي)، وهي اليوم لدى مؤَسسة سْمِثْسُونيان، مركز المحفوظات في المتحف الوطني للتاريخ الأَميركي. وهذه الصورة تحمل الرقم ٦٩ في مجموعة صُوَر تلك الحفلة التي تَولَّى تصويرَها «سْتُوديو كْرافْت»، أَشهر مركز تصوير يومَها في ديترويت.

انكشاف الرسائل وصَدمةُ المرأَتين

بعد وفاة جبران آلَت إِلى شقيقته مريانا في بوسطن أَوراقٌ كثيرة ومخطوطاتٌ عدَّة وأَغراضٌ خاصة كانت في محترفه. وإِذ كانت تجهل القراءة، عربيَّتها والإِنكليزيةَ، وتاليًا لا تستطيع أَن تعرف ما فيها، أَودعتْها جميعها لدى نسيبها خليل جبران[1] الذي شُغِفَ بها وفَرَزَها وبوَّبها وكرَّس لها مع زوجته جين وقتًا طويلًا ليضَع الكتاب الشهير «خليل جبران، حياتُه وعالَمُه» (نيويورك – ١٩٧٤)، فجاء أَكملَ سيرة عن جبران، موثَّقةٍ كليًّا بالمواد التي آلت إِليه من مريانا[2].

بين تلك المواد مسرحيتان غير منشورتَين: «إِلعازر وحبيبتُه» و«الأَعمى»: الأُولى قرأَها جبران سنة ١٩٢٩ في حلقة خاصة، والأُخرى بقيَت بين مخطوطاته

---

١ نحّاتٌ معروفٌ عاش حياته كلَّها في بوسطن (١٩٢٢–٢٠٠٨). والدُه نقولا جبران (ابن عمّ الشاعر) رُزِقَ من زوجته روز خمسة أَولاد. حين وُلِدَ أَوسطُهم سنة ١٩٢٢ كان جبران عرَّابه في المعمودية (وعرَّاب الأَولاد الخمسة جميعهم) وهو الذي سمَّاه «خليل»، الاسم الذي عُرِف به صاحب «النبي» في الأَوساط الأَميركية، وبه وقَّع جميع مؤلَّفاته الإِنكليزية. أَما كتُبُهُ العربية فكان يصرُّ على توقيعها بالاسم الثلاثي: جبران خليل جبران.

٢ بعد وفاته أَصدرَت زوجتُه جين سنة ٢٠١٧ طبعةً جديدةً من الكتاب مَزيدةً ومزوَّدةً بوثائقَ وصُوَرٍ جديدة وعنوانٍ جديد «خليل جبران أَبعدُ من كل حدود»، تأْليف جين جبران وخليل جورج جبران (التقليد في أَميركا أَن يحمل الولد دائمًا اسمًا مزدوجًا: أَوَّلَ وأَوسَطَ، قبل اسم العائلة). صدر الكتاب لدى منشورات إِنترلِنْكْس – نورثاپتُن – ماساشوسِتْس، في ٥٢٤ صفحة حجمًا كبيرًا.

لدى نسيبه خليل حتى أَصدرهما معًا في كتابٍ واحد سنة ١٩٨٢ لدى منشورات «وِسْتمِنْسْتِر» في فيلادلفيا.

في مقدمة الكتاب موجزٌ لحياة جبران التي باتت معروفة في جميع المراجع، أُترجمُ منه هنا ما يتعلق فقط بباربره يونغ.



في الصفحة ٢٢ ورَدَ: «بين الجمهور المُصغي إِلى قراءاتٍ من «النبي» في كنيسة سانت مارك إِن ذُ بَورِي، كانت تجلس باربره يونغ، صاحبةُ مكتبةٍ وقبلَذاكَ مُدَرِّسةُ اللغة الإِنكليزية. وما هي حتى دخلَت حياته ومحترفه، ورافقَتْه طيلة السنوات الباقية من حياته. وبعد وفاته كانت القيّمةَ الرسميةَ على مخطوطاته، وسافرت إِلى بلدته بْشَرّي في لبنان، وسجلَت انطباعاتها في كتاب «هذا الرجل من لبنان»...».

وفي الصفحة ٣٠ وَرَدَ: «عند وفاة جبران الساعة ١٠:٥٥ ليلة الجمعة ١٠ نيسان ١٩٣١ كان حوله في المستشفى كلٌّ من: باربره يونغ، شقيقته مريانا، ميشا نعيمه، ونسيبَيه من بوسطن روز دياب وعساف جورج».

وكان في الصفحة ١٧ وَرَدَ: «مع أَن جبران لم يحاول أَن يخفي إِهداء بعض كتبه العربية هكذا «إِلى MEH» (أَي ماري إِليزابيت هاسكل) بقيَ حضورُ ماري خافتًا في حياته العامة. ومع ازدياد رسومه ولوحاته الزيتية كانت تزداد في أَسفل زاويتها اليمنى أَحرفُ MEH، لكنَّ ماري المرأَة ظلَّت حضورًا خاصًّا حميمًا لا يَشِي به لأَحد ولا يتحدَّث أَبدًا عنها في حلقاته الاجتماعية الآخذة بالتوسُّع. وكانت ماري تَعرف منه أَسماء جميع أَصدقائه من الكتَّاب بالعربية والمعجبين به من الأَميركيين وَذَكَرَتْهم نقلًا عنه في دفاتر يومياتها، لكنَّ أَحدًا منهم لم يعرفها شخصيًّا. كانت ماري عينَه السرّية وأُذنَه الحميمة، لذا أَخفى عن الجميع ذِكْرَها وتفاصيلَ حياته الحميمة معها».

ولعل إصرار جبران على إخفاء ماري عن الجميع، هو ما يفسر، لدى وفاته، ما ورد في الصفحة ٣٢ من الكتاب:

«انكشافُ رسائل ماري إلى جبران شَكَّلَ أَزمةً شخصية بين ماري وباربره يونغ. تحت وقْع الصدمة، اقترحَت باربره على ماري إحراق تلك الوثائق عن حياتهما الحميمة. لَحظتَها وافقَت ماري عفويًّا. لكنها بعد تفكيرها في ما سيكون من أَهميةٍ لتلك الرسائل تاريخيًّا وأَدبيًّا في سيرة جبران لاحقًا، عادت مساءً إلى المُحترف، حَزَمَت رسائلَها إلى جبران، حَمَلَتْها جميعَها في حقيبتها، اتَّجهت رأْسًا إلى محطة السكك الحديدية، استقلَّت أَولَ قطارٍ موعِدُه بعد وصولها بسويعاتٍ، وعادت جنوبًا إلى بيتها في ساڤانا – جورجيا.

ثلاثٌ بِخَطِّه غيرُ منشورة

بين أَغلى ما يَسرُّ الباحث في اشتغاله على آثار مؤلِّفٍ غاب، أَن يَجِدَ كتاباتٍ له بخطِّه، خصوصًا إن لم تكن منشورةً بعدُ تلك المخطوطات.

وهو هذا ما شعر به الدكتور وليم شحادة[١]، إبَّان مراحل عدة من حياته كان خلالها، إلى جانب عمله في الطب تدريسًا ومزاولةً، يهتم بجمع تراث لجبران من مصادرَ مختلفة، أَدَّى به جمْعُها، مخطوطاتٍ نفيسةً بين أَوراق جبران بخطِّه، إلى إصداره كتابَه القيِّم «خليل جبران – نبيٌّ في الإِعداد»[٢] وفيه خمسةُ أَقسام: أَربعةٌ هي مخطوطاتُ صفحاتٍ متفرقةٍ أَصليةٍ بخط جبران لشذراتٍ من كتبه «المجنون»، «السابق»، «النبيّ»، «آلهة الأَرض»، والقسم الأَول منها يضم صفحاتٍ مخطوطةً غيرَ منشورةٍ لثلاث قصائد وباقةِ حِكَمٍ: القصائدُ الثلاث هي «هَدهَدة» (مخطوطة على صفحة واحدة)، «الزائر الأَخير» (مخطوطة على ٨ صفحات)، مَـخطوطة بدون

١ طبيب لبناني أَميركي (١٩٠٥–١٩٩٥)، وُلِد في مدينة پروڤيدِنس (عاصمة ولاية رود آيلِند)، وتخرَّجَ من الجامعة الأَميركية – بيروت سنة ١٩٣١، درَّس الطب فيها سنواتٍ قبل أَن يعود إلى الولايات المتحدة الأَميركية مزاولًا الطب وتدريسَه في جامعات عدةٍ أَخيرتُها جامعة نيويورك. نال جوائزَ على إسهاماته في عدد كبير من الأَبحاث الطبية. كانت له اهتماماتٌ مثمرةٌ بجبران، نظَّم له معارض، وله فيه محاضراتٌ ومقالات.

٢ *Kahlil Gibran – a prophet in the making* – ٤١٨ صفحة قطعًا كبيرًا – منشورات الجامعة الأَميركية في بيروت، ١٩٩١.

عنوان (على صفحتين)، ومتفرقاتٌ لأَفكارٍ وحِكَم (مخطوطة على ٦ صفحات).

في مقدمة الكتاب شرحَ شحادة[٣] أَنَّ «تلك المخطوطات القيِّمة في هذا الكتاب استغرق جمعُها سنواتٍ طويلةً كنتُ خلالها أَلَمْلِمُها صفحةً صفحة وقطعةً قطعة. ولو كان لمخطوطات القسم الأَول أَن ترى النور على حياة صاحبها، لكانت روائعَ جديدةً تضاف إلى آثاره وتضفره بأَكاليل إضافيةٍ من الغار الجبراني». ولم يَشرح شحادة، ولا أَحد سواه شرَح، «لماذا لم يَنشر جبران هذه المخطوطات، على ما فيها من جمال واكتمال».

مجموعُ الكتاب إِذًا صفحاتٌ مخطوطة، مصوَّرةٌ تصويرًا تقنيًّا دقيقًا، بيِّنةٌ فيها تصحيحاتٌ أَجراها جبران على سطوره، أَو تشطيباتٌ مُلْغِيةٌ أَو مُعدِّلة، وبعضُها بالعربية مع رسومٍ ومنمنماتٍ على هوامش الصفحات أَو بين السطور.

وقبل نشْرِه مخطوطاتِ الخمسة الأَقسام، مهَّد الدكتور شحادة لكتابه بمقدمة بيوغرفية (ص ١٥–٢٨) لمراحلَ رئيسةٍ من سيرة جبران وأَعماله.

من القسم الأَول، أَكتفي بترجمة القصائد الثلاث غير المنشورة بعدما حصلتُ على الإِذن بترجمتها وتصوير مخطوطاتها الأَصلية من أَلبرت شحادة (ابن المؤلف)، وهي اليوم لدى القسم الخاص بالمخطوطات النادرة في جامعة پرنسْتُون، حيثُ أَودَعَها أَلبرت بعد خمس سنواتٍ على وفاة والده.

وهنا ترجمتي هذه القصائدَ الثلاث، متتابعةً كما وردَت في الكتاب، مع صورةٍ مقابِلةٍ لكلٍّ منها بمخطوطتها الأَصلية.

ولأَنَّ القصيدة الثالثة تركَها جبران بلا عنوان، وضعتُ لها، من وحي النص، عنوانًا أُحسُّ أَنه محَبَّبٌ لجبران.

٣ كتبَها في مدينة غْرينوِتْش (ولاية كونِّتِكَت) في صيف ١٩٨٨.

هَدهَدَة[٤]

غَنَّتْـها أُمٌّ لطِفْلِها الـمَيْت

مطلع القصيدة بخط جبران

نَـمْ، يا طفلِيَ، نَـمْ
أُمُّكَ العذْبةُ ترى إِليك
نَـمْ، يا صغيرِيَ، نَـمْ
أُمُّكَ الـهادئةُ تُـهَدْهِدُكَ على حِضْنها
نَـمْ، يا حبيبِيَ، نَـمْ
وانْسُجْ أَحلامًا لا آلامَ فيها!
ستنزِل غيمةٌ من سَـماها كي تُـرضِعَك
ومن الشجَر تـنهمِلُ نسمةٌ كي تغنّي لَك
وأَوراقُ الغار في الوادي ستنمو لأَجْلِكَ وأَجْلي
نَـمْ يا صغيري
واحلُمْ بِذاتكَ الكبرى وذاتي
لأَنَّ الأُمَّ الكبرى تَرى الآنَ إِليكَ وإِليّ[٥].



الزائِـرُ الأَخير

أَعلنَتِ السماءُ الحربَ على المدينة لأَن الشرَّ فيها تغلَّب على الخير
ومن الشرق والغرب اندلعَت أَعاصيرُ رهيبةٌ تلاطَمَت بشراسةٍ في فضاء المدينة

٤ «الهَدْهَدَة» (أَو التَهْويدَة): أُغنيةٌ هادئَةٌ تُدَندنُها الأُمُّ لطفْلِها كي ينام.

٥ واضحٌ في هذه المقطوعة حنانٌ وشغفٌ لدى الأُمِّ الواعيةِ القُوَّةَ العُظْمى التي تَرى إِليها وإِلى طفلها، ترى إِلى الحيَّة والمَيت معًا. وهي تتناقض بوضوح مع مقطوعةٍ لاحقةٍ له عن أُمٍّ وطفلها المَيت في مقطوعة «المَعْبَر»، هي الرابعةُ والأَربعون في مجموعة «التائه» التي صدرَت (١٩٣٢) بعد وفاته. وشُعورُ جبران عميقًا بهذا الموضوع نابعٌ من حُبِّه العميقِ والدَتَه التي فَقَدَت بالموت ولَدَيها (سلطانة شقيقة جبران الصُغرى، وبطرس أَخاه) قبل فترةٍ ضئيلةٍ من غيابِها هي بالموت.

تجمَّعت غيوم ثلجية وانهمرت بسرعةٍ همجيةٍ غطَّت سكَّان المدينة وخطاياها السوداء
هرع الأَطفالُ إلى بيوتهم مَذعوري القلوب لائِذين في الزوايا
لم يعُد يُرى أَحدٌ في الشوارع الرمادية
ولم يعُد فيها صوتٌ سوى قصف الريح
لا أَثرَ لقَدَمٍ
لا ومضةَ ضوءٍ في نافذة
ولا ظِلَّ إلَّا أَخيلة الأَرواح الشريرة تتعارك مذعورة.

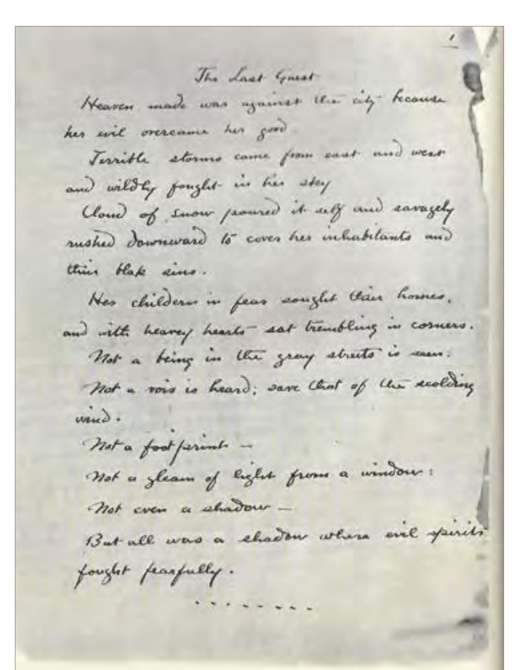
◆◇◆

وما هي حتى بدا في الشوارع الموحشة
رجل نحيلٌ، طويلٌ، مرتَدٍ لباسًا أَبيضَ
يمشي بهُدوءٍ، حافيًا، حاسرَ الرأْس
يتْبعُه نُورٌ لطيفٌ شاحبٌ
عيناه مُشعَّتان كنَجمَتَين
على شفتيه ابتسامةُ رِضًى حزينةٌ
شَعرُه كثيفٌ طويلٌ منسَدلٌ فوق كتفَيه
على يدَيه وقدَمَيه جراحٌ عميقة يهلُّ منها نور لطيفٌ شاحب
بأُبَّهةٍ كان يمشي
لا يَهزُّه المَشهد حوله
لا يَمسُّه الثلج المنهمر
لا يَراه أَحد
لا يَسمَعه أَحد.

◆◇◆

توقَّف عند باب رجل غنيٍّ
وبيده المدَمَّاة طرَق البابَ مرَّتين

بعد انتظارٍ طال
ظهرَت يدٌ من كُوَّة نافذةٍ صغيرة
تلاها صوتٌ أَجَشُّ باردٌ:
- لا زوَّارَ الليلةَ يا هذا، لا مكانَ لزوَّار.
انصفَقَت النافذةُ بغضَب
وأَقفَلَتْها بِإحكامٍ موجاتُ الريح والثلج
فلا يمكنُ بعْدُ أَن تفتَحَها يدٌ بشرية
لأَنها أُقفلت إلى الأَبد.



1

The Last Guest

Heaven made war against the city because her evil overcame her good.

Terrible storms came from east and west and wildly fought in her sky.

Cloud of snow poured it self and savagely rushed downward to cover her inhabitants and their black sins.

Her children in fear sought their homes, and with heavy hearts sat trembling in corners.

Not a being in the gray streets is seen:

Not a vois is heard; save that of the scolding wind.

Not a foot print —

Not a gleam of light from a window:

Not even a shadow —

But all was a shadow where evil spirits fought fearfully.

. . . .

مطلع القصيدة بخط جبران

واصل الرجل سيره
توقَّف عند بيتٍ صاحبُه يدَّعي معرفةَ كلِّ شيْء.
طرَق الباب مرَّتَين
فتحَه عجوزٌ أَشيبُ ذو نِظرةٍ شنيعة قاسية
صاح غضَبًا في الواقِف بالباب:
- بيتي ليس للمتسوِّلين.
صفقَ البابَ بقُوَّة واهنة
وأَقفَلَتْهُ بِإحكامٍ موجاتُ الريح والثلج
فلا يمكنُ بعدُ أَن تفتَحَهُ يدٌ بشرية
لأَنه أُقفِلَ إلى الأَبد.

استأْنفَ الرجل سَيره
توقَّف مجدَّدًا عند بيتٍ يسكنُه مُتَجبِّر
طرَقَ البابَ ثلاثًا
فتح الحارسُ الباب

وإذ رأى مَن ظَنَّه متسوِّلًا، صرَخ غاضبًا:
- أُغرب من هنا. لا بيتَ هنا لعابري السبيل.
صفَق الباب بقُوَّة
وأَقفَلَتْهُ بإِحكامٍ موجاتُ الريح والثلج
فلا يمكنُ بعدُ أَن تفتَحَهُ يدٌ بشرية
لأَنه أُقفل إِلى الأَبد.

◆◇◆

وعاد الرجل يسير
طويلًا سار طويلًا
حتى وصل عند كوخٍ صغيرٍ مُعْتِمٍ خارجَ المدينة
دنا من الباب
وجدَه مفتوحًا
ربَّةُ البيت أَحسَّت بِـمَجِيْءٍ فَفَتَحَت الباب
دخلَ
أَجلسَتْه عند الموقدة
جاءَت له بِخُبز وخَمْر
وبعينين بائِستين نظرَت إِليه بتأَثُّر:
- فقيرةٌ أَنا يا سيِّد، كما تَرى،
لكنني سأَمُدُّ لكَ فِراشًا أَمام الموقدة
كأَنكَ غريبٌ عن هذه الـمدينة.
- جميعُنا غرباء هنا في هذا العالم.
- إِذًا، في هذا البيت الوضيع، تتشاركُ الأَمان من هذه الليلة العاصفة
قالت هذا والتفَتَت إِلى الجراح في يدَيه وقدَميه يُضيْءُ نورُها الغرفة
وقرأَتْ على شفتَيه ابتسامةَ رضا حزينةً
فجَثَت أَمامه فاتحةً ذراعيها باكيةً:

- أَيها السيّدُ الرحيم:
أَنا خاطئةٌ بائسةٌ غيرُ جديرةٍ لأَنني أُخالف النامُوس
أَيها الصالح المستقيم:
نفْسي مطوَّقةٌ بِنِير الآثام ونواياي مُثْقَلَةٌ بالشَرّ
أَيها الـمُخلِّصُ الطيِّب:
منبوذةٌ أَنا لنجاستي
يا مُحِبَّ البشر:
نفْسي مظْلِمةٌ وأَنت النورُ ومخَلِّص البشر
وغافرُ الخطايا ومانحُ الأَمل والراحة.
عندئذٍ
تقدَّم منها
وبِحنانٍ جَمّ وضعَ يدَه على رأْسها
وإِذ تَفَرَّس في عينيها
شعَّت حوله هالةُ نورٍ أَضاءَ الكوخ الصغير
صدَحَت لحظَتَئِذٍ أَنغامٌ سماوية
فاح في جَو الغرفة عبيرُ مُرٍّ شاعل
وانفلت فجأَةً منه فرحٌ كثيرٌ حرَّر روحَه
أَغمض عينَي جسَدِها كي تنفتحَ عينا روحِها
فتقوى على تلك الصاعقة
الصاعقة التي تشتدُّ
وبقسوةٍ تضرب تلك المدينة العاجزة عن المقاومة.
رهيبًا كان ذلك الإِعصار:
أَخذَت دوامةُ الريح الثلجية تلفُّ مسعورةً جميع البيوت وتهدمها
حتى غطَّت كلَّ أَثرٍ في المدينة.
لم يَنْجُ منها أَحدٌ
ولا أَحدٌ هرب من عقاب السماء

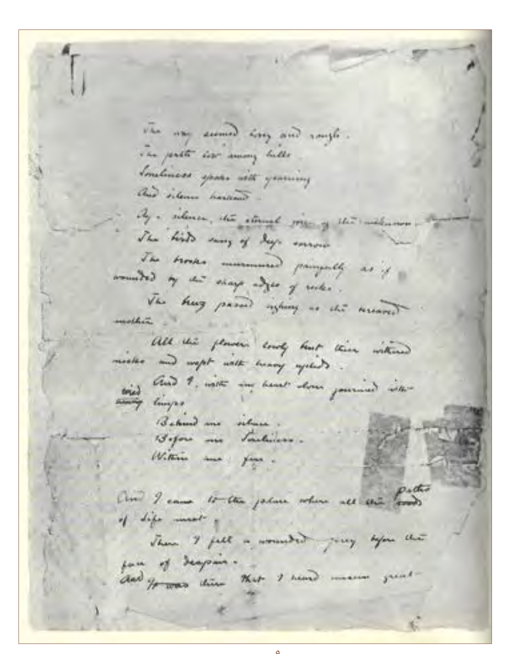
جميعُهم ماتوا واندفنوا في الظلمة والصقيع
الغنيُّ والـمُدَّعي والـمتجبِّر لُحِدوا تحت مُـمتلكاتهم الأَرضيَّة.
وحدَه الكوخُ بقي صامدًا في الأَرض الخراب.

◆◇◆

منذُئذٍ
في الذكرى السنوية لذاك النهار
يتوافد إِلى الكوخ حجّاج كثيرون
يُـحرقون فيه البخور حيث جسَدُ الـمرأَة باتَ... ذخيرةً مقدَّسة[٦].

---

[٦] هذه المقطوعة «الزائر الأَخير»، كما في مقطوعة «الهزيع الأَخير» (من كتاب «السابق» – ١٩٢٠) عالجَ جبران فيها مسأَلةَ الخير والشَر على الأَرض، بدءًا من غضبٍ عارمٍ في عناصر الطبيعة، وعلاقَتَها بسلوكيات البشر الفاجرة بين الإِنسان وأَخيه الإِنسان في حياته اليومية، من خلال ثلاثة نماذج: رجُلٌ غنيٌّ، رجُلٌ مُدَّعٍ، ورجُلٌ متجبِّرٌ، وكلٌّ منهم يُضمِرُ الشرَّ للآخَر بفظاظةٍ فاحشة، غيرَ شاعرٍ بحاجات الآخَر اللائِذِ بِهِ، بل غارقٌ في بُخْله وأَنانيته وتَجَبُّره. وهذا يتناقَضُ مع سلوك الذين لا قدرةَ لهم على العطاء ومع ذلك يُعطُون من شَحِيحِ ما عندَهم، على صورة فلس الأَرملة. المرأَةُ الفقيرة في هذه المقطوعة، عانَت تائبةً إِنما عن خطايا لم تقْترفْها، واستقبلَت الزائِر الأَخير قبل طوفان الخراب، مُقدِّمَةً له مأْوًى يَقيه العاصفة، أَمانًا في كوخها، دفئًا قرب الموقدة، وشارَكَتْهُ كلَّ ما عندها – على قلَّةِ ما عندها – عكْسَ ما فعَلَ الثلاثةُ الرجال: الغنيُّ البخيلُ والمُعتدُّ المَغرور والفَظُّ المتجبِّر. في النهاية تنتصر عدالةُ السماء فينجو المُعتدِل والفقير والخاطئُ التائبُ ويَسقطُ الآخرون في العتمة الأَخيرة. وعن هذا الموضوع ذاته كتَب جبران في فصل «العطاء» (من كتاب «النبيّ» – ١٩٢٣): «في الناس مَن يُعطي قليلًا مِن كثيرٍ ما عنده، وفيهم من لا يملك إِلّا القليلَ ويعطيه كلَّه». وتلك، في هذه المقطوعة، كانت حالةَ المرأَة: آوَتِ الزائرَ الأَخير قبل هبوب العاصفة الثلجية التي هاجمَت المدينةَ وقضَتْ على كلِّ ما فيها ومَن فيها، ولم يَنجُ منها أَحد. وفي كلمات هذه المرأَةِ جاثيةً أَمام الرجل، تَمَاهٍ واضحٌ مع كلمات مريم في فصل «المجدليَّة» (من كتاب «يسوع ابن الإِنسان» – ١٩٢٨) وخصوصًا في قول المجدلية ليسوع: «أَنتَ غريبٌ مع أَنكَ غيرُ غريب. أَتوسَّلُ إِليكَ أَن تدخلَ بيتي. لديَّ بخورٌ أُحرِقُه لكَ، وحوضٌ فضِّيٌّ لغسْل قدمَيك. أُدخُل بيتي وشارِكْني الخبز والخمر»، حينئذٍ أَشرقَت عيناه على روحي وقال: «أَنا وحدي بين الرجال أُحبُّ فيكِ ما ليس يراه الآخرون»...».



Behind me silence.
Within me fire.

الصفحة الأُولى من القصيدة بخط جبران

كما أَرزةٌ على تلّة لبنان[٧]

طويلًا وشاقًّا بدا لـيَ الطريقُ[٨]
وكان المَعْبَرُ ضائعًا بين التلال.
تائهًا كنتُ وحدي في هذا الطريق الطويل
وكان الصمتُ كثيفًا
لا العصافيرُ تغرِّد
لا الأَزهار تتمايل
لا يهلُّ نَسَم
وحافيةً كانت الجداولُ وأوراقُ الشجر[٩].
ثـمَّ
تكلَّمَتِ الوَحدة توّاقةً فأَصغى إِليها الصمت
الصمتُ - صوتُ الـمجهولِ الأَبديُّ.
غنَّتِ العصافيرُ بِـحُزنٍ عميق
الـجداوِلُ سَقْسَقَتْ أَلَمًا كأَنْ جَرَّحَتْها شخاريبُ الصخور
النسيمُ مـرَّ حزينًا كَما أُمٌّ ثَكلى

---

٧ هذه المخطوطة أَصلًا بدون عنوان. اخترتُ لها من النص عنوانًا عزيزًا على قلب جبران الذي لم يَغِب لبنانُ عن قلبه في معظم نصوصه العربية والإِنكليزية معًا.

٨ وُجِدَت نسخةٌ من هذه المقطوعة بين أَوراق الشاعرة الأميركية جوزفين پْـرِسْتُن پـيـبَدي (١٨٧٤ - ١٩٢٢) وهي أَودَعَتْها مكتبة جامعة هارڤرد، ويرجَّح أَن يعودَ تاريخُها إِلى ١٩٠٤، إِبّان علاقة جبران بها، ولعلَّها من بدايات جبران محاولًا الكتابة بالإِنكليزية. وهو كان أَهداها نسخةً من أَول كتبه العربية («نبذة في الموسيقى») سنة ١٩٠٥ وعلى غلافه كتبَ بالعربية أَحرف اسمه ج خ ج وأَحرف اسمها ج ب ب.

٩ هذا المقطع (وَضَعتُهُ بالخط المائل لتمييزه عن سائر النص) وَجَدَهُ وليم شحادة، واضعُ الكتاب، على مقلب الصفحة ٧ من مخطوطة «الزائر الأَخير». ولكن، لأَنّه لا يمتُّ في سياقه بأَيِّ صلةٍ، شكليةٍ أَو مضمونيةٍ، إِلى نص «الزائر الأَخير» الذي ليس فيه أَيُّ كلامٍ وصْفيٍّ بصيغة المتكلِّم، ولأَن هذا النص أَعلاه هو، بسياقه شكلًا ومضمونًا، في صيغة المتكلِّم، رجَّح شحادة أَنَّ هذا المقطع أَقربُ أَن يكون مكتوبًا لمطلع هذا النص. وقد يكون على حقّ. لذا أَدرجتُهُ هنا في مطلع هذه المقطوعة.

ولوَت أَعناقَها الأَزهارُ بَـكْـيًا بِـجُفونٍ دامعة.
وأَنا، بقلبيَ المستوحِد، عابرٌ متْعَـبًا بِـخطواتٍ عرجاء
خلفيَ الصمت
أَماميَ الوَحدة
وبي خوفٌ كثير.
جئْتُ إِلى حيث تتقاطعُ سبُلُ الحياةِ جميعُها
هناكَ وَقعتُ فريسةً جريـحةً أَمام وجْه اليأْس
وهناكَ سمعتُ أَجنحةً خفيَّةً كُبرى ترِفُّ صوبي
وإِذ الْتَفَتُّ
رأَيتُكَ منتصِبًا أَمامي كما أَرزُ الرَبِّ على تلَّةٍ من لبنان.
فعرَفْتُكَ
من النُور في عينيكَ عَرَفْتُكَ
ومن بسمةٍ أُموميَّة على شفتيكَ.
باركْتَني بلمستِكَ
وهمَسْتَ لروحي هذه الكلمات:
«دليلُك أَنا يا ولَدي. إِتبعني فأَكشِفَ ما خبأَه الحزنُ لكَ».
وتَبِعْتُكَ
فإِذا أَمامَنا الـمَعْبَرُ يَتَّضَحُ واسعًا
مزيَّنًا بِزْهرٍ وفير
والصمتُ يُفشِي أَسرارًا خفيَّة
كاشفًا عن أَحلامِ حبٍّ مستورة
والطيورُ تُزقزقُ فَرَحًا كأَنها تَحتَفي برَبيعٍ دائم
كانت الجداول ترقُصُ
والنسيمُ يَـبوسُ بِحنانٍ شِفاهَ الأَغصان
والزهورُ جميعُها مُلتفِتَةً إِلى فوقُ
مبتسمةً تلاقي وجْهَ الشمس

وأَنا حدَّكَ الولدُ الشاطِر
خَلْفِيَ الطُمأْنينة
أَماميَ الفَرَح
وبي حُبٌّ كثير[١٠].

١٠ واضحٌ في هذه المقطوعة موضوعٌ مألوفٌ لدى جبران: مُرورُ الإنسانِ الصعبُ والشاقُّ في معبر الحياة، ووقوفُه يائسًا حيثُ تتقاطع سبُلُ الحياةِ جميعُها، وحيثُ عناصرُ إِيمانِه وأَمَلِه وقوَّتِه تغتذي من رؤْيا بحثِه الدائم عن الوجه الحبيب. وهي رؤْيا لِجبران في الحياة والمَوت تتكرَّر في معظم نُصوصه ولوحاته.

مار سركيس: الدير/الضريح/المُتحف

بعد يومين على انتهاءِ مراسم الاحتفال في بْشَرّي بوصول جثمان جبران (الأَحد ٢٣ آب ١٩٣١)، كانت شقيقته مريانا ومعها نسيباها مرُّون وعساف جورج رحمة يفاوضان (الثلثاء ٢٥ آب) رئيسَ الرهبنة الكرملية في دير مار سركيس لشرائه مدفنًا لجبران[١]

١ بعد الجنَّاز في بْشَرّي، وبانتظار إنجاز المفاوضات لشراء دير مار سركيس واستصلاحه، بقي الجثمانُ موقَّتًا مسجًّى في كنيسة مار يوحنّا من الأَحد ٢٣ آب ١٩٣١ حتى الأَحد ١٠ كانون الثاني ١٩٣٢ صباحَ نقْلِه إلى مغارةٍ في الصخر عند أَسفل الكهف في دير مار سركيس بعدما تمَّت معاملات شرائه، ليتحوَّل الديرُ كلُّه إلى المتحف كما نعرفه اليوم. وكانت السفينة «سينايا» (ذاتُها التي أَقلَّت جثمان جبران) وصلت إلى مرفإِ بيروت صباحَ الإثنين ٢٧ حزيران ١٩٣٢ حاملةً من نيويورك ٣٠ صندوقًا تحوي معظم موجودات محترف جبران هناك، و٧٣ لوحة زيتية، و٣٦٦ رسمًا، ومئات الكتب من مكتبة جبران (بعضُها بإِهداءٍ من مؤلِّفيها إلى جبران). كلُّ ذلك تمَّ بعنايةٍ شخصية وإرسالٍ مباشِر من ماري هاسكل التي أَودعَت مع الصناديق رسالةً إلى رئيس بلدية بْشَرّي جاء فيها: «هذه الهديةُ الثمينةُ تَبلُغُ بْشَرّي باسم جبران وشقيقته مريانا، وما أَنا في كل ذلك سوى الوسيلة الأَمينة». وكانت ماري هاسكل قامت بذلك تنفيذًا وصيةَ جبران الأَخيرة التي كتبَها بيدِه نهار الخميس ١٣ آذار ١٩٣٠ وأَودعَها مكتب إدغار سباير، وجاء فيها: «كل ما في محترفي من رسومٍ وكتُب وسِلَع فنية، أُوصي به بعد مماتي للسيِّدة ماري هاسكل ماينِس، الساكنة حاليًّا في المبنى رقم ٢٤ من شارع غاستون في مدينة ساڤانا – ولاية جورجيا. لكنني أَرغب إلى السيدة ماينِس، إذا هي استنسَبَتْ، أَن تُرسِل جميع هذه الموجودات، أَو بعضَها، إلى بلدتي بْشَرّي». وهي بالفعل «استنسَبَتْ»، لأَنها كانت تقدِّسُ كلَّ ما يطلبه أَو يقوله جبران.

بِناءً على رغبةٍ تجلَّت منه مرّاتٍ كثيرةً في حياته، هو الذي لم تغادر عينيه أَطيافُ طفولته في تلك البقعة الرائعة المُشرفة على وادي قاديشا.

من تلك «المرات الكثيرة» رسالته السبت ١٧ حزيران ١٩١١ إلى ماري هاسكل وصَفَ لها مغارةً في بْشَرّي داخلَ كنيسة مار ماما وحدَّد: «هناكَ كنتُ مرارًا أَختلي وحدي، وهناك تعلَّمتُ الكثير من تلك الخلَوات التي كنتُ أُحبُّها أَكثرَ من أَيِّ مكانٍ آخَر. هل أَنانيًّا أَكون يا ماري، أَو متَطرِّفًا، إذا كنتُ أُريد أَن أُدفَنَ هناك؟ وهل يكون هذا تبذيرًا ماليًّا»؟ وقد تكون هذه الرسالةُ بالذات عادت إِلى ذهنها حين كتبَت إِليها شقيقتُه مريانا تستشيرُها في عملية نقل الجثمان إِلى بْشَرّي، مستعينةً على نفقاتِها ببعض المال مما أَورثَها شقيقُها، فأَجابتْها ماري في رسالة السبت ٢ أَيَّار ١٩٣١: «طبعًا يا مريانا. طبعًا. نَقْلُه إِلى مدينة بْشَرّي، وأَنا واثقةٌ أَنكِ ترَين ذلك أَيضًا، أَمرٌ رائعٌ جدًّا أَن يستريحَ جثمانُه في لبنان. فَلْيَستقبلوه هناك، ولْيَجعلوا ضريحه مَزارًا، حولَه لوحاتُه ورسومُه وأَغراضٌ غاليةٌ ثمينةٌ من محترفه تكون تذكاراتٍ من الشاعر على أَن تُعرَضَ بشكلٍ أَنيق محفوظةً من خطَر النار عليها».

ومن تلك «المرات الكثيرة» كذلك: في ربيع ١٩٢٢ كتب جبران إِلى صديقه ميخائيل نعيمه رسالةً جاء فيها: «منذ زمنٍ بعيدٍ وأَنا أَحلم بصومعةٍ وحديقةٍ صغيرة وعينِ ماء (...). أَقول يا ميخائيل إِن المستقبل سيَجدُنا في صومعةٍ قائمةٍ على كتف وادٍ من أَودية لبنان»[٢].

في خريف ذاك العام، ذاتَ صباحٍ من تشرين الثاني ١٩٢٢، في محترف جبران (الصومعة): ميخائيل نعيمه (ميشا) جالسٌ وجبران يرسم وجهه بالقلم الرصاص، قال له: «ميشا، نجَّاني الله وإِيَّاك من المدنية والمتمدِّنين. سننجو بإِذن الله وسنعود إِلى قمم لبنان الطاهرة وأَوديته الهادئة. لا بُدَّ لي ولكَ من الرحيل عن هذه البلاد. نفْسي تُطالبني بعزَّتها، فكْري يطالبني بحرّيته، جسْمي يطالبني

٢ ميخائيل نعيمه: «جبران خليل جبران، مؤَسسة نوفل، بيروت، الطبعة الثامنة ١٩٧٨، «الملحق»، ص ٢٩٤.

براحته، ولن أَستعيد عزةَ نفْسي وحريةَ فكْري وراحةَ جسْمي إِلَّا في لبنان. ولو كنتَ تعرف الصومعة التي اخترتُها لي ولَكَ هناك، لكنتَ تجذبني من يدي في هذه الدقيقة وتقول لي: «هيا بنا إِليها». وهي صومعة أَصلية لا تقليدية كصومعتي هذه. هي دير قديم مهجور في ضاحية من ضواحي بْشَرّي اسمه دير مار سركيس في جبهة وادي قاديشا عند سفح جبل الأَرز. غُرَفُهُ قليلة، منها كنيسةٌ صغيرة محفورة حفرًا في قلب الجبل الكلسيّ. هي خلوةٌ يا ميشا لا أَظن في السماء أَجمل منها. وأَنا فوَّضتُ محاميًا في طرابلس ليبتاعَه لي. هناك سنعتزل العالم يا ميشا، وسنحلم ما طاب لنا أَن نحلم. وسنعمل في الأَرض فنحوِّلُ اليابسَ منها أَخضرَ والقاحلَ خصبًا وستباركنا الرياح، وتفرح بنا الشمس، ويحمل إِلينا الوادي أَنفاسَه المُلهمة. لا أَجد ملجأً أَجملَ وأَهنأَ وأَقدسَ من مار سركيس. وأَنت ستحبُّ تلك الصومعة مثلما أَنا أُحبُّها»[٣].

وأَكثر بعد: في رسالةٍ إِلى ابنِ بشري نجيب خليفة رحمة (الثلثاء ٢٢ شباط ١٩٢٧) كتَب جبران: «سُررتُ جدًّا برسائلكَ وما جاء فيها من مظاهر العطف والولاء والتذكار. وأَنتَ بالطبع تعلم أَن الكلمة التي تعود بي إِلى تلك الأَودية وتلك الجبال لَهي عندي من الكلمات المبارَكة. ولولا حُلمٌ في النفْس أُريد تحقيقَه في هذه البلادِ لرجعتُ غدًا إِلى بْشَرّي لأَعيشَ في النور الذي يغمر أَصحابي وأَنسبائي الأَقدمين... غير أَنني سوف أَرجع إِلى مسقط رأْسي عاجلًا أَم آجلًا، لأَنني أُريد أَن أُغمِض عينيَّ لآخر مرةٍ وأُغنيةُ نهر قاديشا تتموَّج في أُذُنَيّ»[٤].

غريبٌ تعلُّقُ هذا الرجل بأَرض بْشَرّي وأَهلها ومحيطها، كأَنَّ خيالات طفولته لم تغادر أَعماقَ عينيه حتى بقيَت في الكثير من كتاباته ولوحاته. وبقي لدير مار سركيس أَثرٌ بالغ في نفسه حتى حلْمِه أَن يُمضي فيه السنوات الأَخيرة من حياته.

٣ الكتاب ذاته، القسم الثالث «الفجر»، الفصل الأَول «الضباب يتبلور»، ص ٢٠٧-٢١٢.

٤ من إِحدى رسالتَين نشرَهما نايف وردان سكَّر في جريدته «السياسة» (السنة الأُولى، العدد ١٨، السبت ١٣ أَيار ١٩٣٩) واستعادَهما محسن يمين في كتابه «من خلف البحار»، منشورات البيت الزغرتاوي، الطبعة الأُولى ٢٠١٩، ص ٧٦.

من الحلم إلى الواقع

ذاك كان حلمَه. فما قصة هذا الدير، وكيف تحقَّق حلمُ جبران بسُكناه ولو... بدون النور في عينيه؟

سنة ٢٠٠٧ قرَّر نسيبُ جبران النحات خليل جبران وزوجته جين أَن يُودِعا «متحفَ سُميَّة» (مؤَسسة كارلوس سليم في مكسيكو) معظمَ ما كان عندهما من أَغراض جبران (مخطوطات، أَوراق خاصة، رسوم،...) آلت إِليهما من مريانا شقيقة جبران. بين تلك الأَوراق وثائقُ عن عملية شراء الدير.

في قانون رهبنة «الكرمليّين الحُفاة»، مالكةِ الدير، لم يَرِدْ ذكْرٌ للسماح ببيع وَقْف الدير إِلى شخصٍ فرد. لكنَّ أَهلَ بْشَرّي التمسوا ذلك برسالة إِلى رئيس الدير، حتى «وافق الرئيس على البيع، تقديرًا منه روحانيةَ جبران، وشهرتَه العالَمية، وأُمنيةَ أَهالي بْشَرّي بالإجماع على رؤْية جبران يعود إِلى بلدته الغالية على قلْبه»[٥].



دير مار سركيس في قلب الجبل كما كان جبران يحلم أَن يعودَ ويسكُنَه

---

٥ ذكَرَ هذه الرسالةَ وهيب كيروز (حافظ متحف جبران منذ الثلثاء ١٧ آب ١٩٧١ حتى وفاته الإثنين ١٢ تشرين الثاني ٢٠١٢) في كتابه «جبران في متحفه» (منشورات «بشاريا»، جونيه ١٩٩٥) ص ١٥.

حين جاءت مريانا إلى بْشَرّي، مرافِقةً جثمان شقيقها من مرفإ پروڤيدِنس، كان الدير مهجورًا خَرِبًا شبه مُتَداعٍ. وهو أَصلًا محبسةٌ يعود بناؤُها إلى ما يزيد عن أَلف سنة. في أَواسط القرن السادس عشر كان البناءُ المقرَّ الصيفي للقنصل الفرنسي. وفي مطلع القرن السابع عشر اشترى الديرَ والمحبسةَ «الآباء الكرمليون الحُفاة» لمُزاولة رسالتهم الروحية في البقعة الممتدة بين وادي قاديشا والأَرز. سنة ١٧٠١ هدم الرهبان البناءَ القديم وشيَّدوا مكانه، شرقيَّ المحبسة، ديرًا يخدمون فيه رسالتهم.

فاوضت مريانا لشراء الدير جهتَها المالكة: «الرهبنة الكرملية في سوريا ولبنان» بشخص رئيسها العامّ الإيطالي الأب جيوزيپي ماريًّا فْراسْكيتّي. وكانت الرهبنة، منذ ١٩١١[٦]، باتت تحت وصاية مملكة إيطاليا وفقَ الاتفاق الفرنسي الإيطالي المُوَقَّع سنة ١٩٠٥.

مع بدْء المفاوضات لم يكن لدى الأَب فْراسْكيتّي أَيُّ معلومةٍ عن جبران، لكنه استشرف في المفاوضة «مقايضةً راهنةً» أَرسل لأَجلها برقيةً عاجلة إلى مقر الرئاسة العامة لرهبنة الكرمليين الحُفاة في روما طالبًا الإذن بإتمام عملية البيع. وهنا نصُّ البرقية:

«الوكالة العامة للرهبنة الكرملية، الجادة ٣٨، رُوما

تُطالعني فرصة مؤَاتية في بْشَرّي لبيع ديرٍ صغيرٍ مهجورٍ حوله أَراضٍ بُور، يسبب لنا مشاكل متواصلة ولا فائدةَ لنا منه. الغاية من البيع أَن يكون ضريحًا لشخص مشهور. أَهالي بْشَرّي موافقون بالإجماع على العملية. أَقترحُ على الرهبنة أَن نشتري بثمنه قطعةَ أَرضٍ في طرابلس. أَبرِقوا لنا بالموافقة لأَن ذوي المتوفَّى مضطرون للعودة سريعًا إلى أَميركا. فْراسْكيتّي».

[٦] كما جاء في «الجريدة الرسمية لمملكة إيطاليا»، العدد ١٧٦، تاريخ ٢٨ تموز ١٩١١، ص ٤٨٣٥.

بأَقلَّ من شهرٍ جاءَت الموافقة من روما وتمَّت عملية البيع كما دوَّن عقدَها بخطه الأَب فْراسْكيتّي كما يلي:

«البعثة الرسولية للكرمليين الحفاة في سوريا ولبنان

أَنا الموقع أَدناه، الرئيس العام للبعثة الكرملية في سوريا ولبنان، أُقِرُّ باستلامي من السيد عساف جورج رحمة مبلغ (١٠٠) مئة ليرة ذهبية تركية دفعةً أُولى من أَصل (١٢٠٠) أَلف ومئَتي ليرة ذهبية تركية هي قيمةُ المبلغ الإِجمالي الـمُتَّفَق عليه لبيع عقار الرهبنة الذي عليه دير مار سركيس في بْشَرّي، الـمسَجَّلِ لدى محكمة بْشَرّي بتاريخ الخميس ٦ نيسان ١٩١٦ تحت الرقم ٩٩، ما عدا قطعتَين من الأَرض تحت الطريق المبلَّط. وتـمَّ الاتفاق على أَن يتقاضى صاحبُ التوقيع أَدناه بقيَّة المبلغ مع فوائده القانونية في مدةٍ أَقصاها أَربعةُ أَشهر من تاريخ توقيع هذه الاتفاقية. عند انقضاء هذه المدة، في حال عدم تسديد مبلغ (١١٠٠) أَلف ومئَة ليرة ذهبية تركية مع فوائدها القانونية، تبقى أَرض دير مار سركيس نهائيًّا مُلْكَ الرهبنة الكرملية دون أَن تترتَّبَ عليها إِعادةُ مبلغ المئَة ليرة ذهبية تركية الذي قَبِضَتْه اليوم.

بْشَرّي، الثلثاء في ٢٧ تشرين الأَول ١٩٣١
ج.م. فْراسْكيتّي - الرئيس العام»



دير مار سركيس كما كان
لما اشترته مريانا سنة ١٩٣١

وبعد أَقلَّ من شهر، كتَب فْراسْكيتّي الإقرار التالي:

«البعثة الكرملية في سوريا ولبنان

أَنا الموقع أَدناه، الرئيس العام للبعثة الكرملية في سوريا ولبنان، أُقرُّ باستلامي من السيد عساف جورج رحمة مبلغ (٦٠٩٠) ستة آلاف وتسعين ليرة سورية هو تسديدُ المبلغ المتَّفَق عليه سابقًا (ستة آلاف ليرة مع فوائدها) لبيع عقار البعثة المعروف بدير مار سركيس في بْشَرّي (لبنان). وبذلك أُقرُّ بقبض البعثة جميع مستحقَّاتها.

طرابلس، الجمعة ٢٠ تشرين الثاني ١٩٣١
ج.م. فْراسْكيتّي - الرئيس العام»[٧]



من الضريح ذاتَ يوم إِلى المتحف كلَّ يوم

تلك قصةُ الدير وكيف تحقَّق حلم جبران.

كأَنه، وهو يدخل غيبوبته الأَخيرة على سرير المستشفى ليلة الجمعة ١٠ نيسان ١٩٣١، أَغمض عينيه وهو يحلم بأَن يعود إِلى وادي قاديشا.

٧ هذه الوثائقُ الثلاث، المُدوَّنةُ أَصلًا بالإيطالية، أَثبتَها بالإنكليزية الباحثُ الإيطالي فرنشيسكو مِديتْشي والمحامي الأَميركي اللبناني الأَصل تشارلز معلوف سماحة في موقع «مجموعة جبران» للأستراليّ اللبناني الأصل غْلِنْ كَلِمْ، ونقلَتْها إِلى الفرنسية والعربية الباحثةُ مايا الحاج من جامعة سيدة اللويزة–زوق مصبح. وعند نشْر هذه الوثائق علَّقَ مِديتْشي وسماحة بما يلي: «في سيرة ميخائيل نعيمه عن جبران ختَمَ نعيمه سرْد حديث جبران عن دير مار سركيس بشكل قاسٍ مُرٍّ ولاذع إِذ كتب: «تحدَّثْنا طويلًا في مار سركيس. ولا شكَّ في أَن الأَقدار التي كانت تُصغي إِلى حديثنا كانت تضحك منَّا، لأَنها كانت تعلم أَن جبران لن يدخلَ تلك الصومعة إِلَّا محمولًا على الأَيدي في نعش». وهذا موقفٌ مؤْسفٌ من نعيمه صديقًا لجبران. وعلى عكس الموقف يَجمُل التفكير بأَنَّ تلك «الأَقدار» ذاتها، وقد لا تكون حتمًا سيِّئَة النوايا، شاءَت أَنَّ بادرةً استثْنائيةً لرهبانٍ أَجانبَ من بلَدٍ آخر حقَّقَت لجبران أُعجوبةً مزدوجة: أَن يؤَمِّنوا له الراحة الأَبدية داخلَ المكان الوحيد في العالم تمنى أَن يستريح فيه، وأَن يُتيحوا لشجرات الأَرز المهيبة فوق وادي قاديشا أَن تَضُمَّ مجدَّدًا ولدَها الأَحَبّ».

كان أَوصى شقيقته مريانا بشراء دير مار سركيس على كتف الوادي ليكون مستراحَه.

وكان عام ١٩٢٦ كتبَ إِلى صديقه البشرّاوي يوسف طربيه رحمة طالبًا منه أَن يفاوض الآباء الكرمليين على شراء المحبسة والدير، فيجعل من الأُولى مدفنَه، ومن الأَخير صومعة لفنّه.

وكان ذات يوم من ١٩٢٧ قال لصديقه ميخائيل نعيمه: «أُمنيتي، يا ميشا، أَن أَزور وادي قاديشا قبل أَن أَموت»، وكان قال له في جلسة تشرين الثاني ١٩٢٢: «هي خلوةٌ يا ميشا لا أَظنُّ في السماء أَجمل منها. وأَنا فوَّضتُ محاميًا في طرابلس ليبتاعها لي».

هذا هو الإِطار الذي وعى جبران عليه في طفولته: مغارة في الجبل، محبسة، كنيسة، دير، تراث روحي، طبيعة ساحرة حول وادي قاديشا الساحر، في صمتٍ كأَنما يُكمل اليوم، كلَّ يوم، حكايةً من عهد جبران.

تُراه، سنة ١٨٩٥، قبل أَن يغادر بْشَرّي مع أُمه وأَخيه بطرس وشقيقتَيه مريانا وسلطانة إِلى «الأَرض الجديدة»، الْتَفَتَ مرةً أَخيرةً إِلى الدير، وقال في صمته: «سأَعود»؟

وهو فعلًا عاد.

أَربع سنوات ساهمة عاد إِلى لبنان (١٨٩٨–١٩٠٢) وتمتَّعت عيناه برُؤًى قاديشاوية قَنُّوبينيَّة بقيَتْ على أَهداب ريشته وقلمه طوال «منآه» في أَميركا.

وكم مرةً نوى أَن يعود ليختم حياته في لبنان!

وهو ختَمَها... إِنما قدَرُه كان أَن يرى بعينَين مطْفأَتَين مَثواه الأَحَبَّ الذي تمنَّاه يومًا، وبات متحفَهُ كلَّ يوم، غامرًا إِرثَه الكبير، هانئًا عند لحف الجبل، يلفُّه السُكون، ويمتدُّ أَمامه الوادي المهيب.

هنا جولةٌ في مبنى الدير الذي بات اليوم متحفًا يتشكَّل من ١٥ غرفة.

غرفة أُولى تَضمُّ كتُب جبران وكتبًا عنه. ثمّ غرفة «ينبوع النبي» تسقسق فيها مياهٌ عذبة من نبعٍ في قلب الصخر. في غرفة ثالثة موجودات من «صومعة»

جبران في نيويورك حيث أَمضى آخر عشرين عامًا من حياته (١٩١١ – ١٩٣١). بين الموجودات: صندوقة خشبية، كرسي مكسورة الرِّجْل الرابعة، كَراسٍ عتيقة، مرآة عتيقة، ركوة قهوة (كان يُحِبّ أَن يُهيِّئ بيده قهوته اللبنانية لزواره)، أَوانٍ عتيقة، المصلوب.

خارج هذه الغرفة تتوزَّع الأَعمال معروضةً على الجدران في عناية وصيانة.

في غرفةٍ أُخرى دفاترُ بخط جبران: خربشاتٌ وأَفكارٌ ومقاطعُ وكلماتٌ منثورةٌ وَجَدَ بعضُها طريقه إلى الكتب التي صدرَت. على إِحدى الصفحات مطلع قصة «الرفيقة الأَثيرية» بدأَ يكتبها بالقلم الرصاص.

في زاويتَين كبيرتين من غرفة أُخرى مكتبتُه التي كانت لديه رفوفًا مكدَّسةً في «الصومعة»: عشرات الكتب بالإِنكليزية لشعراء كبار وفلاسفة وأُدباء. بعضها مُهدى إِليه بخط المؤَلِّف.

اللوحات المعروضة في المتحف تبلغ ١٥٠ عملًا بين زيتي ومائي ورصاصي وطبشوري. المجموعة الكاملة ٤٤٠ عملًا[٨].

ثم... نُزولًا في أَدراج صخرية لولبية مؤَدية إِلى تحت، إِلى نهاية عمق الدهليز، إِلى المغارة التي شاءَها مستراحَه الأَخير.

ها نحن «عنده» في غرفة المحبسة التي تحتضن رفاته: هنا تابوته الفضيُّ داخل الكوة المحفورة في قلب الصخر: مُزَنَّرٌ بسلسلتَين تحميانه من أَن يَفتحه غُلاة الزوار. وعلى التابوت شهادة: «هذا تابوت جبران خليل جبران. والجثمان تم تحنيطه».

---

٨ هي التي لدى المتحف في بْشَرّي. وأَفادَني حافظ المتحف حاليًّا جوزف جعجع أَن في العالم مجموعاتٍ أُخرى يُقدِّرها بما يلي: نحو ٨٠ عملًا لدى متحف أَكاديميا تِلْفير (ساڤانا – جورجيا، وهي مجموعة ماري هاسكل)، ونحو ٨٠ عملًا لدى متحف سُميَّة (مكسيكو سيتي، هي مجموعة خليل وجين جبران التي اشتراها كارلوس سليم)، و٦ أَعمال لدى متحف متروپوليتان – نيويورك، و٤ أَعمال لدى متحف فوغ (جامعة هارڤرد)، وعملان لدى متحف الجامعة الأَميركية في بيروت، وعمل واحد لدى متحف اللوڤر – پاريس، عدا لوحات أُخرى في أَماكنَ عدةٍ بينها ما كانت تُشكِّل مجموعةَ باربره يونغ.

التوقيع: «قنصل فرنسا في الولايات المتحدة» (كان لا بدَّ من شهادته وموافقة فرنسا لينتقل الجثمان من نيويورك إلى لبنان الْكان فترتئذٍ تحت الانتداب الفرنسي).

هنا سريره الواطئُ الذي طالما كان يستلقي عليه حين يَعُودُه زوارُه في نيويورك وهو مريض. المصلوبُ فوق السرير الذي عليه تكّايات ملوَّنة. حول السرير: طاولةٌ مستديرة كتَب عليها معظم مؤلَّفاته الإنكليزية والعربية، والجدارية القماشية الكبيرة التي كانت في محترفه (وله صوَرٌ عدَّةٌ أَمامها) ثمّ خزانة كبيرة فيها جواريرُ صغيرة كان يضع فيها بعض الريشات والأَلوان وقطعًا صغيرة كان يحتفظ بها.

ماذا عن الجثمان؟

آخر مرة تمّ فتحُ التابوت والكشفُ على الجثمان، كانت سنة ١٩٧٤. كان الجثمان تعرَّض لبعض اهتراء، على ما يتذكَّر حافظ المتحف فترتئذٍ وهيب كيروز.

أَغراض جبران التي وصلت من محترفه في نيويورك نهار الإثنين ٢٧ حزيران ١٩٣٢، تمّ إِيداعُها موقَّتًا في «مدرسة رشيد عريضة الرسمية»، ثمّ تنقَّلت في أَكثرَ من مكان قبل أَن تستقر في مكانها: المُتحف اليوم.

حين عَيَّنت «لجنة جبران الوطنية» فريد سلمان مستشارًا لها سنة ١٩٧١، كَشَف على تلك الموجودات الواصلة من نيويورك، ووجد بينها رسالتَين فيهما رغبةُ جبران أَن يُدفَن في دير مار سركيس. وأَسندَت اللجنة إدارة المتحف إلى وهيب كيروز.

الخميس ١٧ تموز ١٩٧٥ أُقفِل المتحف بسبب الأَحداث، وأُعيد فتحه سنة ١٩٩٢ وعاد الزوّار يتوافدون إليه بعد طول إِقفال.

وما زال جبران يستقطب روَّادًا لبنانيين وأَجانب إلى لوحاته وإلى كتبه التي باتت مترجمةً إلى أَكثر لغات العالم[٩]، وإلى متحفه الذي ينْزوي مغارةً في لحف

٩ في آخر إِحصاءٍ أَن «النبي» بات مترجمًا إِلى ١١١ لغة، كما أَعلن بالوثائق البصرية الباحثُ الإيطالي فرنشيسكو مِديتشي في «المؤتمر الدولي الخامس للدراسات الجبرانية» الذي عقَدَهُ في «معهد العالم العربي» (پاريس) «مركزُ التراث اللبناني» في الجامعة اللبنانية الأميركية - بيروت، و«كرسي جبران» لدى جامعة ميريلاند الأَميركية (٣ تشرين الأَول ٢٠١٩).



دير مار سركيس –
الصومعة – متحف جبران

هنري زغيب إلى تابوت جبران
السبت ٦ كانون الثاني ٢٠١٨
في الذكرى ١٣٥ لولادة جبران
(السبت ٦ كانون الثاني ١٨٨٣)

الجبل تستقطب إِليها روَّادًا حين يخرجون من المتحف يدخلون في هالة وادي قاديشا المهيب.

هو هذا الإِطار الذي يستكين جبران فيه اليوم وإِلى الأَبد: حضورٌ سُكونيٌّ أَحَبُّ حتمًا على قلبه الساكن من ذاك العيش يوميًّا داخل «صومعة» هو اصطَنَعها عند أَعلى المبنى في عمقِ زقاقٍ نيويوركي رهيب الضجيج، وظلَّ يتوق إِلى سكون بْشرِّي وهدأَة مار سركيس، وحكاياتٍ من طفولته كم باحَ ببعضها لأَقرب أَحبابه، وخبَّأَ في ضجيج صمته البعضَ الآخر.

ولا تزال كلَّ يوم، في ظلّ سكينة مار سركيس، تُستعادُ حكاياتٌ بعضُها أُسطوريٌّ وبعضُها الآخَر واقعيّ، عن فتًى حالم غادر تلك البقعةَ «في السنَةِ الثانية عشرة، في السابع من شهر الحصاد»[١٠]، وعاد إِليها حاملًا وزَناتٍ ما زالت تَتَسَنْبَلُ حتى اليوم.

١٠ من مطلع كتاب «النبي».

٢٠٢٠: ثلاث مئَويات جبرانية

وأَنا أُنجِزُ المرحلة الأَخيرة من كتابي الوثائقي هذا عن جبران في نهاية العام الماضي، طالعَتْني ثلاثةُ تواريخ مئوية لجبران في ٢٠٢٠.

الأَول: مئَوية «الرابطة القلمية» بنسختها الثانية. فالأُولى في نيسان ١٩١٦ لم تُعمِّر ولم تُثْمر، أَجهضَها انشغالُ جبران والريحاني في العمل على مساعدة اللبنانيين في الوطن بنشاطهما في «لجنة إِعانة المنكوبين في سوريا وجبل لبنان». كان الريحاني نائبَ رئيسها نجيب كُسباني، وجبران كاتمَ أَسرارها. بعد انحسار الحرب تشكَّلَت «الرابطة» بصيغتها المعروفة، إِبَّان اجتماعٍ في جريدة «السائح» مساءَ الثلثاء ٢٠ نيسان ١٩٢٠، في ختامه دعا جبران رفاقه إِلى محترفه مساءَ الأَربعاء ٢٨ نيسان. وفي تلك السهرة ولدَت الصيغة الجديدة لـ«الرابطة القلمية»، دوَّن ميخائيل نعَيمه محضر جلستها التأْسيسية وجاء فيه الإِجماعُ على انتخاب جبران عميدَها ونعَيمه مستشارَها ووليم كاتسفليس أَمينَ الصندوق.

الثاني: مئَوية كتاب «العواصف». صدَر في آب ١٩٢٠ عن منشورات «دار الهلال» (القاهرة)، وهو آخِر كتُب جبران بالعربية، جمعَه بطلبٍ من مدير المنشورات إِميل زيدان (ابن جرجي زيدان مؤَسس «الهلال») وكان أَلحَّ على جبران أَن يجمعَ ضُمَّة من مقالاته في «السائح» و«الفنون» و«مرآة الغرب» وسواها.

الثالث: مئَوية كتاب «السابق». صدَر في تشرين الأَول ١٩٢٠ لدى دار «كنوف» (ناشرة جميع كتبه الإِنكليزية بدءًا من «المجنون» سنة ١٩١٨). عن «السابق» ذكرَت باربره يونغ في كتابها «هذا الرجل من لبنان» (نيويورك ١٩٤٥) أَنها «مقطوعاتٌ تَرجم جبران بعضَها عن أَفكارٍ سابقةٍ كان دوَّنها بالعربية. وفي الكتاب مسحة ساخرة، ثاقبة الرؤْيا من وراء نقاب الوهم، لا في مرارة (كما في «المجنون») بل في مناخ من الحب والتَوق». وتَشرح يونغ في مكان آخر أَن «صدوره جمَع حول جبران أَصدقاء ومعجبين كُثُرًا وتتالت ترجماته لِما في قصصه من شكل متميزٍ في الشرق، قديمٍ غيرِ غامض، اعتمده جبران أُسلوبًا فريدًا وسريعًا لإِيصال الحقيقة. من تلك القصص: «العالِم والشاعر»، «من أَعماق قلبي»، «البهلول». وآخر مقطوعة في الكتاب: «الهجعة الأَخيرة» تشي في كيان الشاعر بفهم عميق يلغي ما قبله من شعورٍ أَدنى أَو فَهْم أَقل». وتختُم يونغ: «لا أَعرف كاتبًا معاصرًا عالج هذا النمط بهذه البراعة. فهو تَحَدٍّ كلَّ كاتب معاصر. وبذا كان «السابق» سابقًا ظهورَ «النبي» بعد ثلاث سنوات».

هكذا انطوَت ٢٠٢٠ على ثلاث مئَويات جبرانية («الرابطة القلمية»، «العواصف»، «السابق») مؤَكِّدَةً تكرارًا أَن هذا الجبران الأُعجوبي مات ذات يوم لكنه ما زال يولَد كل يوم، كأَيِّ خالدٍ في الزمان يجيْءُ هذه الأَرضَ ثم لا يعود يغادرها، ولو غادر منه الجسد.

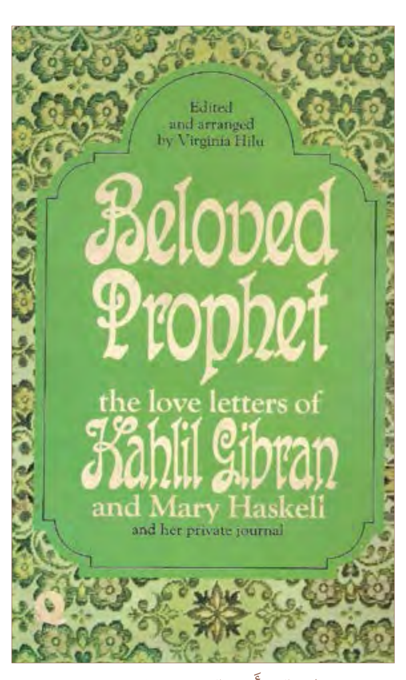
«المجهولة» ڤرجينيا حلو «كاشفة» رسائل الحب بين جبران وماري هاسكل

خِلْتُني سأَختمُ الصفحات الأَخيرة من هذا الكتاب، وأَطوي آخر وثائقه دون أَن أَتمكَّن من كشْف الغامض حول سيِّدةٍ أَميركيةٍ باقيةٍ مجهولةً لي ولجميع مَن كتبوا عن جبران حتى اليوم.

إِنها ڤرجينيا حلو.

قبل أَيَّامٍ من إِنهائي هذا الكتاب، انفتحَت أَمامي فرصةٌ فتحَت لي بعضَ ضوء، حين راسلَني أَميركيٌّ يعمل على كتابٍ عن جبران، عرَّف لي عن اسمه: دالْتون حلو أَينْهُورن، ذاكرًا أَنه ابنُ ڤرجينيا حلو.

من هنا بدأَتْ تلْتمُّ أَمامي خيوط لنسْج صورة هذه السيِّدة التي جميعُ من درسوا جبران استعانوا بكتابها «النبي الحبيب: رسائل الحب بين جبران خليل جبران وماري هاسكل، ودفاتر يومياتها الحميمة»، ولم يَذكُر أَحدٌ منهم كلمةً واحدة عن منسِّقة الكتاب.



غلاف الطبعة الأَصلية (١٩٧٢)

ماري هاسكل حافظة الإِرث

بعد وفاة جبران في نيويورك (الساعة ١٠:٥٥ ليل الجمعة ١٠ نيسان ١٩٣١) وفتْح وصيَّته (السبت ١٢ نيسان)، تبيَّن أَنه أَوصى بتركته المالية لشقيقته مريانا، بِرَيع مؤَلفاته لمدينته بْشَرّي، وتركته الفنية للسيدة ماري إِليزابيت هاسْكِل التي أَهداها (بعبارة «إِلى M.E.H») بعض مؤَلَّفاته العربية.

في زيارة ماري هاسكل الأَخيرة محترفَ جبران (الاثنين ٢٠ نيسان) وجدَت جميع رسائلها إِليه في صندوقة صغيرة قرب سريره، وكان محتفظًا بها طيلة سنوات مراسلاتهما معًا (٢٣ سنة: ١٩٠٨-١٩٣١). حزمَتْها واستقلَّت قطار الليل عائدةً بها جنوبًا إِلى بيتها في ساڤانا (جورجيا)، تواصل حياتها الهادئة مع زوجها فلورنْس مايْنِس (تزوَّجتْه سنة ١٩٢٦). وهناك ضمَّت مجموعة رسائلها إِليه (٢٩٠ رسالة) ورسائله إِليها (٣٢٥ رسالة)، واحتفظَت بها وبمجموعة ٤٧ دفتر يوميات هي مذكراتُها الخاصة عن علاقتها به وموجزٌ عن أَفكاره وأَحاديثه إِليها في مواضيع أَدبية وفكرية وعامة.

ظلَّت هذه «الثروة» الغالية لديها حتى ١٩٥٩ حين شعرت بوَهْن في جسدها وذاكرتها، فأَرسلَت بمجموع الرسائل والدفاتر إِلى قسم «الوثائق النادرة» لدى مكتبة جامعة نورث كارولاينا في مدينة تشاپل هِلّ، حيث لا تزال حتى اليوم محفوظةً ذخرًا ثمينًا تحت مراقبة مشدَّدة. بعد خمس سنواتٍ توفيَت ماري في مأْوى للعجزة (الجمعة ٩ تشرين الأَول ١٩٦٤).

التكليف فالتأْليف

بعد ثلاث سنوات (١٩٦٧) كتب المحامي الياس شمعون بوكالته عن مريانا (شقيقة جبران) إِلى السيّدة ڤرجينيا حلو يفوِّضها قانونيًّا أَن تذهب إِلى جامعة نورث كارولاينا حيث ستسمح لها الإِدارة بالدخول إِلى عشرات الصناديق المرقَّمة والمؤَرَّخة والمفَهرسة في مجموعة هاسكل/مايِنس، وفتْحها واقتطاف ما يشكِّل

منها «تأْليف» مادة جديدة تصدر في كتاب. وكان شريكًا في التكليف كذلك السيد أَبراهام مايْنِس ابن شقيق فلورنس مايْنِس (كان تُوفي في ٣ أَيلول ١٩٣٦).

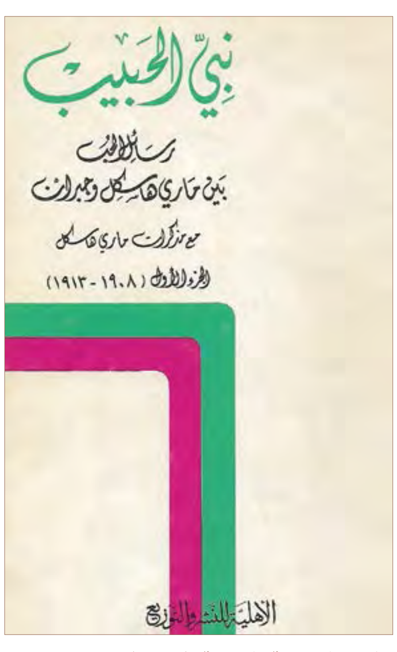
وهكذا كان: استأْذنَت ڤرجينيا حلو مديرها لدى منشورات هارپر (حيث كانت، بين أُولَيَات النساء في أَميركا، تعمل في تحقيق المخطوطات وتنسيقها وتحريرها وتنقيحها وإِعدادها للنشر)، وانصرفت إِلى فَضِّ رسائل جبران وماري ودفاتر مخطوطاتها، لتُصدر أَول كتاب عنها يكون مرجعًا أَولَ وأَساسيًّا للدراسات الجبرانية.

تلك كان شُهرة ڤرجينيا حلو المهنيَّة في عالم النشْر. وكانت تتقن العربية ما ساعدها على بناء علاقة متواصلة مع مريانا جبران التي، رغم حياتها الطويلة في بوسطن (نحو ٧٠ سنة) لم تكن تتقن الإِنكليزية.

من هي؟

عن دالْتون أَنَّ والدته ڤرجينيا من أُصول لبنانية. جدُّها نسيم حلو، من شمال لبنان، وفي «مشتى الحلو» السورية فرعٌ من تلك العائلة. مع اشتداد الحرب العالمية الأُولى والخوف من «سفر برلك»، هرب نسيم وابنُه إِلى الولايات المتحدة وسكن في مدينة پيتسْبُرغ (پنسيلڤانيا). ومن زواج ابنِه وُلدَت ڤرجينيا سنة ١٩٢٩، وعاشت في أُسرة بقيَت تتكلم العربية إِلى اكتسابها لغة الأَميركان. بدأَت ڤرجينيا حياتها المهنية تدريسًا، وتحريرًا في صحف محلية، حتى تمكَّنت من مهنة التحرير (editing) فانتقلت إِلى نيويورك منتسبة إِلى مؤَسسة هارپر (Harper)، إِحدى أَكبر دور النشر الأَميركية في تلك الحقبة (تأَسست سنة ١٨٣٣). وبقيَت تعمل لديها طيلة حياتها، حتى وفاتها بالسرطان عن ٤٧ عامًا سنة ١٩٧٦.

في مكتبة جامعة نورث كارولاينا أَمضَت ڤرجينيا أَربع سنواتٍ كاملة غارقة بين ١٠٦٦٠ صفحة هي مجموعة جبران وماري، بين رسائل ومذكرات ويوميات وتدوين انطباعات. وإِذ لم يكن ممكنًا إِصدارُ تلك الصفحات جميعها لا في مجلد ولا في أَكثر، اختارت منها نحو ٤٥٠ صفحة، نسَّقتْها وبَوَّبَتْها وَفْق تسلسلها الزمني: الرسالة الأُولى



غلاف الترجمة العربية (١٩٧٤)

من جبران في باريس إِلى ماري (الجمعة ٢ تشرين الأَول ١٩٠٨)، والرسالة الأَخيرة من جبران في نيويورك إِلى ماري (الإِثنين ١٦ آذار ١٩٣١، قبل وفاته بثلاثة أَسابيع).

سنة ١٩٧١ أَظهر التشخيص الطبي إِصابة ڤرجينيا بالسرطان في الدماغ، ما قد يهدِّد صفاء تفكيرها وقدرتها على التركيز، لذلك راحت تستعجل مراجعة الأَوراق المتراكمة أَمامها قبل أَن يغدر بها السرطان.

الرسائل... كتابًا

عندما ارتأَت أَن تُنهي تلك الاختيارات، كتبَت ڤرجينيا مقدمةً لها، جاء فيها: «اقتطفْتُ بين آلاف الأَوراق نصوصًا عالجتُها اقتطاعًا وتلخيصًا وصياغةً، وهدَفي تقديم مختارات تفيد المهتمِّين بهذا الموضوع. وغالبًا ما تركتُ قصة العلاقة بين جبران وماري كما هي بنقْل كلامهما حرفيًّا (...). لم أُشِر إِلى المحذوفات حيث لجأْت إِليها، فبعض الرسائل مثلًا من ١٨ صفحة، اختصرتُها إِلى صفحة أَو اثنتَين، فيما نصوصٌ أُخرى أَوردتُها حرفيًّا. وعرَّفتُ ببعض الأَسماء حيثما وجدتُ ذلك ضروريًّا لفهم النص (...). مَن يرغب زيادةً في التنقيب والدراسة، فَلْيَتَّجِه إِلى قسم المخطوطات النادرة في جامعة نورث كارولاينا».

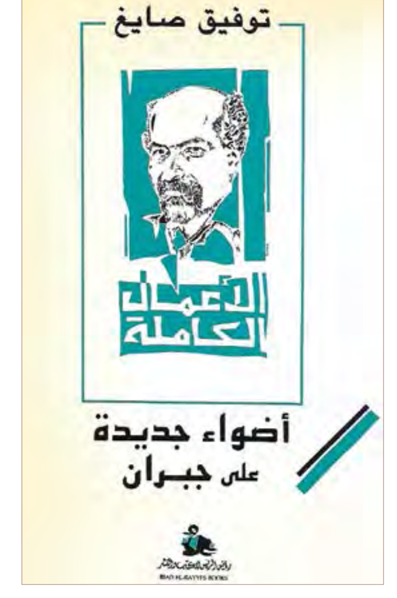
سنة ١٩٧٢ تسلمَت المخطوطةَ في نيويورك مؤَسسةُ «كنوف» (ناشرة جميع مؤَلفات جبران الإِنكليزية منذ «المجنون» سنة ١٩١٨). صدرت الطبعة الأُولى من الكتاب بعنوان «النبي الحبيب – رسائل الحب بين جبران خليل جبران وماري هاسكل، ودفاتر يومياتها الخاصة» في ٤٤٨ صفحة حجمًا وسطًا، فكان رواجه مذهلًا فور صدوره، نظرًا لأَهميته في كشف مُخَبَّآت نادرة عن حياة جبران لم يَصدر أَيٌّ منها في أَيٍّ من مؤَلفاته، وهي عن سيرة جبران التي لم يعُد ممكنًا من دونها فهْمُ جبران سيرةً ونتاجًا.

سنة ١٩٧٣ حصلَت دار «كوارتت» للنشْر (لندن) على الإِذن من «كنوف» بطبع الكتاب في إِنكلترا، ومن يومها لا يزال يَصدر طبعةً بعد طبعة، وترجمةً بعد ترجمة في الكثير من لغات العالم.

الطبعات العربية

العربية غنِمَت دورها من هذا الكتاب، فصدر في بيروت سنة ١٩٧٤ لدى دار «الأَهلية للنشر والتوزيع» بترجمة الأَب لوران فارس، ومراجعة يوسف الحوراني، في ثلاثة أَجزاء: الأَول لسنوات ١٩٠٨–١٩١٣، الثاني لسنوات ١٩١٣ – ١٩١٩، والثالث لسنوات ١٩١٩ – ١٩٣١. وصدر العنوان «نبي الحبيب» لا «النبي الحبيب» كما العنوان الأَصلي.

وكانت تلك الرسائل نالت قبلذاك قسْط صدور بعضها حين اطَّلع عليها في تلك المكتبة الجامعية الشاعر توفيق صايغ، فاختار منها باقاتٍ نشَرَها في عددين متتاليَين من مجلته «حوار»: العدد ٢٢ – السنة الرابعة – العدد



كتاب توفيق صايغ (١٩٦٦)

الرابع - أَيار/حزيران ١٩٦٦ (ص ٥ - ٤٨)، والعدد ٢٣ - السنة الرابعة - العدد الخامس - تموز/آب ١٩٦٦ (ص ٥ - ٤٣)، ثم جمعَها في كتابه «أَضواء جديدة على جبران» (١٩٦٦).

... وما زال يولد كل يوم

عن دالْتون حلو آينهُورْن أَن والدته لم تقتطف سوى ٤٥٠ صفحة (بين ١٠٦٦٠ صفحة) من «ثروة» مجموعة جبران/ماري هاسكل. هذا يعني أَنْ يبقى للاكتشاف بعدُ أَكثر من ١٠ آلاف صفحة.

إِنه جبران، الخالدُ الذي مات ذات يوم وما زال يولد كل يوم: في طبعة جديدة، في بلاد جديدة، في لغة جديدة، في «ثروة» مكتشَفة جديدة، كتلك الأَوراق التي، في جامعة نورث كارولاينا، تَنتظِر مَن يُكْمل الاطِّلاع عليها، لنشْرها في مجلد، أَو مجلدات، ليُشرق منها نورٌ جديدٌ على الذي كأَنه كان عارفًا تمامًا مصيرَه أَنْ لن يموت ولو مات، لذا اختَتَم كتابه «النبي» (١٩٢٣) بهذه الرؤْيا: «قليلًا بعدُ، لحظة راحة فوق الريح، وسوف تَلِدُني امرأَة أُخرى».

جبران الأعمى بين لعازر وحبيبته

كان ذلك قبل ربع قرن[١].

وكنتُ على منبر الصالة الكبرى الملحَقَة بكنيسة «سيِّدة أَرز لبنان» في بوسطن، أُلقي ضُمّةً من قصائدي في أُمسيةٍ شِعريةٍ دعَتْني إِليها الجاليةُ اللبنانية في أَيَّار ١٩٩٤.

كان يغبطني، في تلك الأُمسية، أَمران:

١) أَنني على مسافةِ مَبْنَيَيْن من ذاك الذي كان يسكنه جبران وشقيقته مريانا[٢] ويرتاح فيه إِلى استقبال أَصدقائه القلائل حين يأْتي من نيويورك بضعةَ أَيامٍ صيفًا لدى شقيقته،

٢) أَنني في حَرَم الكنيسة التي لم يكن يدخلها جبران، لكنه سُجِّيَ فيها نهارَ وَداعه الأَخير.

---

١ مقدِّمَتي لمَسرحيَّتَي «الأَعمى» و«لِعازر وحبيبته». كَتَبَهُما جبران بالإِنكليزية ولم يَنشُرْهما. وجَدَهُما خليل جبران وزوجتُه جِين مخطوطَتَيْن بين أَوراقه التي آلت إِليهما من شقيقته مريانا بعد وفاته. صُغْتُهُما بالعربية ونَشَرَتْهُما مشكورةً «لجنةُ جبران الوطنية» بالعربية والإِنكليزية في جُزءٍ واحد تقَدِّمه هديةً لزوَّار متحف جبران في بْشرِّي.

٢ الكنيسة على شارع تايْلُر في المبنى رقم ٧٨، وجبران كان يسكن ومريانا في المبنى رقم ٧٦.

خلال إِلقائي قصائدي، كان في مقدِّمة الحضور رجل في نحو السبعين يُصغي إِليَّ في ما بدا لي أَن يفصلني عنه طيفُ غمامةٍ بعيدةٍ لا في السَماع بل في التلقّي. فكَّرتُ بعد حينٍ أَنْ قد يكون أَميركيًّا من أَصل لبناني لم يَعُد يفهم العربيةَ بعد نأْيِه عنها لسانًا وحياةً يومية.

ما إِن غادرتُ المنبر في نهاية قراءَاتي حتى تقدَّم مني الرجُل، تسبِقه بسمةٌ من رضا وسرور، وخاطبَني بِإِنكليزيَّتِه الأُمّ:

– لم أَفهم شعرَك لكنني كنتُ أَطرب لسماعِكَ تُلقيه باللغة التي كنتُ أُصغي إِلى ابن عمي جبران يقرأُ بها لزوَّاره.

ابن عمِّه جبران؟! استفسرتُ فجاءَ جوابُه برقًا سَطَع:

– نعم. جبران خليل جبران. هو ابنُ عمِّ أَبي نقولا. وهو الذي كان عَرَّابي في المعمودية وفي هذه الكنيسة بالذات، وهو الذي سمَّاني «خليل» على اسمه الأَدبي الذي كان به يُعرَف في أَميركا، وبه أَصدر كتُبَه الإِنكليزية.

أَنا إِذًا أَمام النحّات البوسطني خليل جبران الذي وضَعَ، مع زوجته جِين، أَهمَّ بيوغرافيا مفصَّلة وموثَّقة عن جبران.



جين وخليل جبران ناشِرًا الكتاب، في زيارتِهما سنة ٢٠٠٦ سْتْراتْفُورد Stratford-upon-Avon، بلدةَ شكسپير (وُلِد وتُوُفِّي فيها: ١٥٦٤–١٦١٦).

لم يطُل حديثي إِليه عن اهتمامي بجبران وكتاباتي الكثيرة عنه، حتى سارعتُ إِلى قبول دعوته إِيايَ لزيارته.

في منزله/المحترف، استقبلَتْني زوجتُه جِين بترحابٍ زادَه تعريفُه إِياي لها، وإِذا بي معهما في جولةٍ على جواهرِ مقتنياتٍ ومخطوطاتٍ وأَوراقٍ من جبران، تركَتْها «عمتي مريانا»، كما اعتاد أَن يسمِّيها، هو الذي كانت تحنو عليه منذ طفولته. كان

فتى في العاشرة عند وفاة شقيقها الشاعر، حتى إذا شَبَّ وهَرِمَت فصمَّمَت على الانزواء إلى مأْوى للعجَزة[٣] –وكانت تجهل القراءَة بالعربية وطبعًا بالإنكليزية–، أَعطتْه كلَّ ما كان شقيقُها جبران ترك لديها في البيت، وكلَّ ما آلَ إليها من محترفه في نيويورك بعد وفاته[٤].

من تلك الأَوراق الكثيرة التي تجمَّعت لديه، صاغَ وزوجته الطبعةَ الأُولى من سيرة جبران في كتابه البيوغرافي «خليل جبران – حياتُه وعالَمه»[٥]، وتتالت بعدها طبعاتٌ ثلاثٌ لرواجه الواسع وصدْق وثائقه.

اكتنزَ لديه أَوراقًا ومخطوطاتٍ من جبران راح يبوِّبُها تباعًا، ويُصدر ما كان مكتملًا منها، بينها مسرحية «لِعازَر وحبيبَتُه»[٦]، ومسرحية «الأَعمى»[٧] وكلتاهما حواريةٌ من فصل واحد.

بعد تلك الجولة الـممتعة على ما لدى خليل من كنوزٍ جبرانية، لم أَخرج من محترفه إِلَّا بكتابٍ وقَّعَهُ لي وزوجته، يحمل المسرحيَّتَين معًا[٨].

ومنذ ربع قرن، والكتاب ماثل أَمامي في مكتبتي، حتى إذا أَنـجزْتُ إِعدادي «هذا الرجل من لبنان» عن كتاب باربره يونغ بالعنوان ذاته وسائر ما كتَبَتْه عن جبران في مطبوعاتٍ أُخرى، وبعض ما وجدْتُهُ عن جبران غيرَ منتشرٍ لدى قراء اليوم، أَحسستُ أَنْ جاء وقتُ هذا الكتاب/الهدية من ناشرَيْه، فانصرفْتُ إِليه.



٣ انتقلت إِليه سنة ١٩٦٨ في بداية فقدانها الذاكرة، وتُوُفِّيَت فيه مساءَ الثلثاء ٢٨ آذار ١٩٧٢ عن ٨٨ عامًا.

٤ الساعة ١٠:٥٥ ليلَ الجمعة ١٠ نيسان ١٩٣١.

٥ *Kahlil Gibran, His life and world*, New York Graphic Society, 1974.

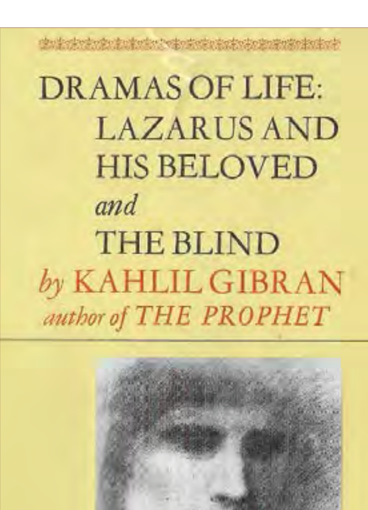
٦ *Lazarus and His Beloved*, first printing, New York Graphic Society, 1973.

٧ *The Blind*, 1982.

٨ *Dramas of Life – Lazarus and his beloved*, and *The Blind* The Westminster Press, Philadelphia, 1982.

هذا الشكل الحواري في النصوص، اعتمدَه جبران في بعض كتاباته العربية، نُصوصًا حواريةً قصيرةً ذاتَ مشاهدَ وأَشخاصٍ، منها «الصلبان»[9]، و«إرَم ذات العماد»[10]، و«ملِك البلاد وراعي الغنم»[11]. ولم تَخْلُ كتاباتٌ له أُخرى، بالعربية والإنكليزية، من حوارات عادية اقتضاها السَرد وظهرَت في «النبي» و«حديقة النبي» و«الأَجنحة المتكسرة» وقصص «الأَرواح المتمردة» وسواها.

على أن النص الأَطوَل مسرحيًّا هو الذي حرَّكه جبران في اثنين: «لِعازر» والأَعمى».



غلاف الكتاب الإنكليزي الأَصلي

لعازر وحبيبته

في نصوص ماري هاسكل وباربره يونغ أَن جبران، قبل أَن يتمكن جيِّدًا من كتابته الإنكليزية، كان يكتب (ويفكِّر) بالعربية ثم ينقل بعضًا منها إلى الإنكليزية.

في يوميَّة ماري هاسكل نهار الأَحد ٢٦ نيسان ١٩١٤ جاء: «قال لي جبران إنه يُهيِّئُ كتابًا بأَربعة نصوص من النثر الشاعريّ: «الشيطان»، «الست بلقيس»، «الشاعر»، و«لعازر وحُبه الوحيد». العنوان الأَخير جديد علَيّ. لا أَعرف متى كتَبَه خليل. وهو عن لعازر

٩ في مجموعة «العواصف» (القاهرة ١٩٢٠).

١٠ في مجموعة «البدائع والطرائف» (القاهرة ١٩٢٣)، وكانت قبلَذاك صدرت في «مجموعة الرابطة القلمية» (نيويورك ١٩٢١).

١١ نشَرها ميخائيل نعيمه في كتابه عن جبران، وذكرَ أَنها «آخر ما كتب جبران بالعربية»، وأَنه كان أَعَدَّها للنشر في عدد ممتاز من «السائح» مع مطلع ١٩٣١، لكن المجلة احتجبَت قبلَذاك.

الذي جاء في الإنجيل أَنه مات ثلاثة أَيام وذهب إِلى عالَم روحه، وفيه التقى بحبيبته ليعيش معها. لكنَّ إِله العالم الأَرضي استدعاه إِلى الحياة على هذه الأَرض من جديد».

سوى أَنَّ جبران، سنة ١٩٢٦، عدلَ عن أُسلوب النثر الشاعري العربي الذي اشتُهر به، وعاد فكتَب صيغة «لعازر» الإِنكليزية بالشكل المسرحي.

تروي ماري في يومية الخميس ١٣ أَيار ١٩٢٦ أَنها، بعد زواجها من فلورِنْس مايْنِس نهار الجمعة ٧ أَيار، زارت معه نيويورك نهار الإِثنين ١٠ أَيار استعدادًا لرحلة طويلة إِلى أُوروپا. وفيما انصرف زوجُها في المدينة إِلى إِنجاز معاملات جواز السفر وإِلى غَدائه مع زملاء له في حيّ «وول ستريت»، زارت هي جبران في محترفه فأَخبرَها عن مجموعة «رمل وزبد» التي «تَرجَم معظم نصوصها عن العربية». ثم عادت فزارته ثانيةً نهار الخميس ١٣ أَيار فقرأَ لها «لِعازر»، مسرحيةً من فصل واحد. قرأَها بتأَثُّر شديد لأَن ثلاثةَ أَيام لِعازر ميتًا كانت «تعكس أَحلام جبران عن تلك الحياة الأُخرى المتحررة من قيود هذه الحياة البشرية». وفي جلسة ١٣ أَيار تلك، ذكَر لها نصًا في باله ينوي كتابته عن رجل أَعمى.

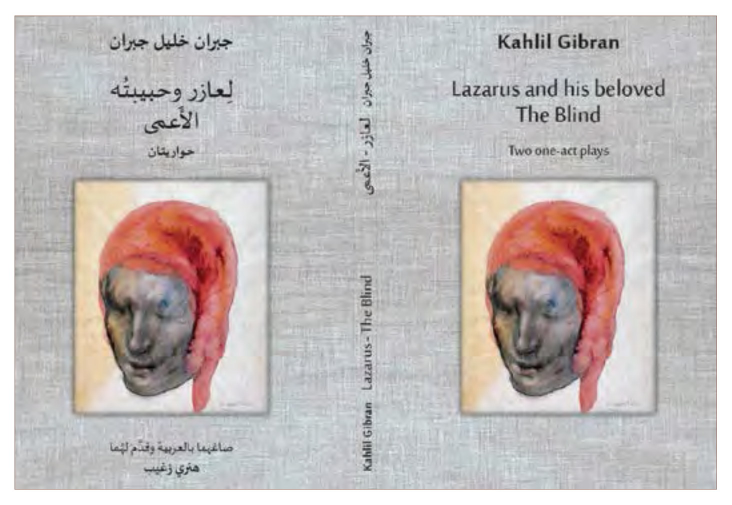
غير أَنَّ تفصيلًا آخرَ عن مسرحية «لِعازر» يأْتينا من الكاتبة أَلما رِيد[١٢] في كتابها «أُوروزكو». رَوَت أَنها دعَت إِلى محترف صديقها الرسام المكسيكي خوسيه أُوروزكو شلَّةً من الأَصدقاء احتفاءً بذكرى ميلاد جبران السادسة والأَربعين مساءَ الأَحد ٦ كانون الثاني ١٩٢٩. في تلك الأُمسية قرأَت السيِّدة بِلْ بيكر مقاطعَ مطبوعةً من «النبي» ومن «يسوع ابن الإنسان»، ومشاهدَ من مسرحية كانت بعدُ مخطوطةً: «لِعازر وحبيبته». ثم جاء دور جبران في القراءة، فبدأَ يقرأُ مقطوعة «الثعلب» من كتابه «المجنون»، وإِذا به فجأَةً يتأَثَّر بشكل فاضح ويتوقَّف عن القراءَة وينهض داخلًا إِلى قاعة أُخرى. لحقَت به السيِّدة رِيد فوجدَتْه يبكي في الغرفة الأُخرى.

١٢ صحافية أَميركية (١٨٨٩–١٩٦٦) عمِلَت في صحُف كبرى، بينها «نيويورك تايمز»، وفتحَت بيتها في نيويورك صالونًا أَدبيًّا كانت تستقبل فيه دوريًّا أَعلام تلك الفترة، وبينهم جبران.

ولدى سؤَالها إِياه أَجابها: «أَعرف الحقيقة وأُواجِهُها: لم أَعُد أَستطيع أَن آتي بِجُودة ما جاءَ في كتاباتي السابقة». أَخذَت السيِّدة رِيد تؤَاسيه مُؤَكِّدةً له أَن مخطوطة «لِعازر» لا تقلُّ إِبداعًا عن مقطوعات «المجنون». ولَحِق به الرسام أُوروزكو يثْني على كتاباته الجديدة وأَن يعطيها وقتًا كي تُثْبِتَ تأَلُّقَها كما في كتُبه الـمطبوعة السابقة. وفي ذاك الفصل من كتابها الذي صدر سنة ١٩٥٩، تُكمل رِيد ما حصل تلك الليلة، موضحةً علْمَها لاحقًا أَنَّ «بُكاء جبران ليلَتَئِذٍ لم يكن لِخَيبَتِه من نصوصه الجديدة التي يراها أَقلَّ أَهميةً من تلك القديمة، بل لأَنه كان علِمَ من الأَطباء أَنه مصابٌ بداءٍ قاتلٍ وأَنَّ أَيامه باتت معدودة».

من هنا، من المقارنة بين «مجنون» مجموعته الإِنكليزية الأُولى «المجنون» وبين «مجنون» مسرحية «لِعازر» أَنَّ هذا الأَخير ليس ضالعًا مباشرةً في حركة النص (كما كان «يوحنا المجنون» في مجموعة «عرائس المروج»، نيويورك ١٩٠٦) بل هو (بلسان جبران) مُعلِّقٌ قاسٍ، بلا شفقة أَحيانًا في أَحكامه، حتى على والدة لِعازر وشقيقَتَيه.

لِعازر في المسرحية ليس مجرَّدَ رجُلٍ عاد من الموت إِلى الحياة، بل هو رمزُ البحث عن الأَبعد من هذه الحياة الأَرضية، البحث عن المُصالحة مع روح الحبيبة، وعن الاتحاد لا بالله بل بالمدى الأَوسع.



غلاف الكتاب الجديد بالعربية والإِنكليزية

من هذا الإِيمان بعَودة الروح، أَو التناسُخ أَو التقمُّص، يتجلَّى وعيُ جبران كينونتَه على هذه الأَرض، وتوقَه الدائم إِلى الـ«هناك» حيث الحياة متحررةٌ من قيود الحياة البشرية. ولذا ختَم مسرحيته على لسان لِعازر مغادرًا بيته الأَرضيَّ للِّحاق بيسوع: «سأَذهب الآن سعيًا إِلى روحه فأَتحرَّر... سوف أَتْبَع ريح الشرق أَنَّى تحمِلُني... ومِن بين جميع الرجال سأَكون وحديَ الذي عانى الحياةَ مرتَين والموتَ مرتَين، ومرتَين عرَف الأَبدية».

وبهذا الإِيمان ذاته كان قبلذاكَ ختَمَ «النبي» على لسان الـمصطفى مخاطبًا شعبَ أُورفليس: «تذكَّروا أَنني عائدٌ إِليكم. قليلًا بعدُ ويَجمع توقي غبارًا وزبدًا لِجسَدٍ آخَر، وقليلًا بعدُ، لحظةَ راحةٍ فوق الريح، وتلِدُني امرأَةٌ أُخرى».

الأَعمى

في جلسة الخميس ١٣ أَيَّار، كما تقدَّم، ذكَر جبران لماري هاسكل فكرةَ كتابة «الأَعمى» من دون تفصيل. ولم يَرِدْ تفصيلٌ في أَيِّ مكانٍ آخَر عن هذه المسرحية من فصل واحد. ولكنَّ سلامة الأَوراق التي كانت في «صناديق» مريانا، تدلُّ على أَنها ليست تالفةً عتيقةً، كالكثير من أَوراقٍ ومخطوطاتٍ أُخرى، ما يدلُّ على أَن جبران كتَبَها في السنوات الأَخيرة من حياته.

«الأَعمى»، كما «لِعازر»، هما النصَّان المكتملان بالشكل المسرحي، بينما ثلاثةٌ سواهما لم يكتملا توسيعًا وحواراتٍ، بل بقيَت ناقصةً غيرَ مكتملة، وهي: «الساحرة»، «المَشحة الأَخيرة»، و«الأَحدب أَو الرجل الخفي»[١٣]. ولأَنَّ هذه النصوص، على الأَرجح، وضعَها جبران في السنوات الأَخيرة من حياته، تبدو فيها مسحة الموت التي كان يعيشها من دون أَن يُشرِك بها أَحدًا في سِرِّه وكتابته.

١٣ هذه النصوص غير المكتملة، وجميع الوثائق والمخطوطات والمقتَنيات، هي اليوم لدى متحف سُميَّة في المكسيك، آلت إِليه من خليل وجِين جبران، وهي مُجْمَل ما كان لديهما من مريانا جبران.

وإذا كان في «لِعازر» أَثرٌ من روح الشرق، مكانِ حصول الحدَث، ففي «الأَعمى»، مكانًا وحركةً وأَسماءَ شخصيات، تصميمٌ واضحٌ على ابتعاده عن أَيِّ أَثَر شرقي أَو مشرقي. فليس فيها أَيُّ ملمَح من شخصيات شرقية («أَلميترا» أَو «يوحنا المجنون»)، ولا أَيُّ ذكْرٍ لِحنينه إِلى جبال لبنان (في «لِعازر» ذكْرٌ لها) ولا إِلى همومه عن شعبه في لبنان. ولعلَّ نصه هذا، شكلًا ومضمونًا، هو الأَكثر ابتعادًا عن أَجواء نصوصه السابقة، والأَعمق توغُّلًا في بيئته الغربية.

في شخصية الأَعمى ملامحُ من إِيمان جبران بالرَبِّ الكوني غيرِ المقيَّد بحدودٍ أَرضية. والحكمة التي تتجلَّى في شخصية الأَعمى، كانت تَجلَّت سابقًا في كتاب «المجنون» مع شخصية «الفلَكي الأَعمى» الذي «يرى الشموس والأَقمار والنجوم، وهو أَكثرُ الناس حكمةً»، وكما رسمها جبران في قصيدته «الشاعر الأَعمى»: «في الظلمة أَتقدَّم فيما أَنتم واقفون خائفين من النور. أَتقدَّم وأُغنِّي ولا أَضلُّ طريقي»[١٤].

هذه الفكرة عن النور في العينين المطفأَتَين، وردَت كذلك في «يسوع ابن الإِنسان» على لسان «الفيلسوف»: «نحن مَن تخدَّرت حواسُّنا، ننظُر إِلى النور الكامل لكننا لا نرى شيئًا». وهو إِيمانُ جبران بأَنَّ عمى البصر تغلُبه الرؤْيا في الفكر فتُنير البصيرة. وقد يكون العمى فكرةً سوداءَ تمحوها فكرةٌ بيضاء. من هنا قولُه في «يسوع ابن الإِنسان»: «يا سيِّد، يا سيِّدَ النور الذي عينُه ترى في أَصابع الأَعمى».

هذه الحاسة السادسة التي كان جبران دومًا يتحدَّث عنها، يكتُب عنها، «يعيشها»، هي التي، في المسرحية، جعلَت آنَّا تتعامى عن رؤْية والدتها هِلِنْ تغادر البيت مع عشيقها، كي لا تصدم الصبيَّةُ أَباها ديڤيد، وكي تعيشَ معه في عالـمه الأَوسع الذي لا حدود لعماه في عينيه الرائيتين.

---

١٤ كان جبران أَملى هذا القصيدة في محترفه على باربره يونغ، وأَصدرها لاحقًا في مجلة «الشرق الجديد» (صيف ١٩٢٥). ونشرتْها باربره يونغ في الفصل التاسع («لا عُمْر للكلمات») من كتابها «هذا الرجُل من لبنان» (نيويورك ١٩٤٥).

وهذا ما يتَّضح تمامًا في المسرحية من عبارة المجنون متوجِّهًا إلى هِلِنْ عند لومِها ابنتَها آنًّا على تَعَلُّمها لغة العميان: «... لكي تتعلَّم لغةَ العتمة، يا سيِّدتي الجميلة. ففي تلك اللغة:كلُّ كلمةٍ نَجمَة، وما سوى الربِّ يَصوغ عباراتِها».

في مسرحية «الأَعمى» يتجلَّى واضحًا نضجُ جبران في نِظرته إلى العالَم، إلى هذا العالَم الأَرضيّ، وتوقِه إلى «الليل الأَبدي اللامتناهي»، وهو إيمانُه بانتقال الروح الفردية إلى التجاوُز الكوني الشامل الذي كان، في حواراته مع ماري هاسكل، يسمِّيه «ضمير الكون الأَوسع».



أَعود إلى ذاك النهار من أَيار قبل ربع قرن.

حين حملتُ الكتابَ وعليه إهداءٌ إليَّ من خليل جبران، وصافحتُه مودِّعًا إياه وزوجتَه جِين، لم يَدُر في بالي أَن سيَجِيْءُ يومٌ أَنقله فيه إلى العربية.

حين راسلْتُ جِين طالبًا إِذْنها بترجمة المسرحيَّتَين[١٥]، أَجابتْني موافِقَةً[١٦] مع طلَبٍ وحيدٍ أَن أَذْكُر الأَرصدة الأَصلية في الطبعة العربية.

وإنني طبعًا ذاكِرُها، ولاءً لها على السَماح بالترجمة، ووفاءً لزوجها خليل الذي غاب[١٧]، لكنه ما زال ماثلًا في ذاكرتي: أَنا أُلقي قصائدي في بوسطن، وأَمامي في مقدمة الحضور ملمَحُ ذاك الرجل السبعيني، يُصغي إليَّ في ما بدا لي أَن يفصلني عنه طيفُ غمامةٍ بعيدةٍ لا في السَماع بل في التلَقِّي. وما زلت أَذكر صوته الباسم يقول لي: «لم أَفهم شعرَك لكنني كنتُ أَطرَب لسماعكَ تُلقيه باللغة التي كنتُ أُصغي إلى ابن عمِّي جبران يقرأُ بها لزوَّاره».

١٥ صدرت لهما ترجماتٌ إلى العربية، لا يبدو أَن جِين على علْم بها.

١٦ رسالتها إليّ الجمعة ١٦ آب ٢٠١٩.

١٧ تُوُفي ليل الجمعة ١٣ نيسان ٢٠٠٨ عن ٨٦ عامًا.

فهرس الأَسماء

ت

ج

ح

ر

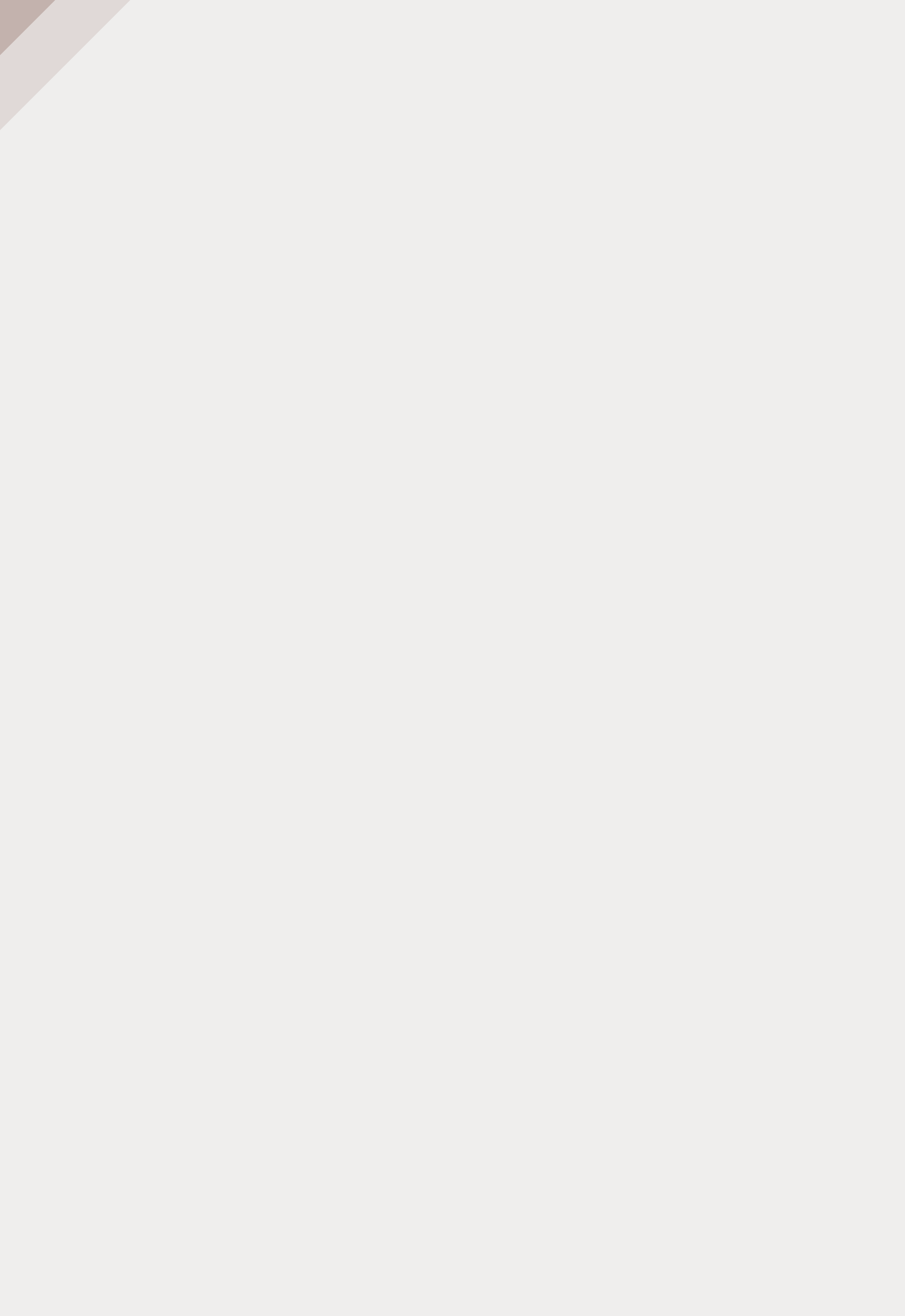
س

ش

غ

ف

ڤ



القسم الثالث

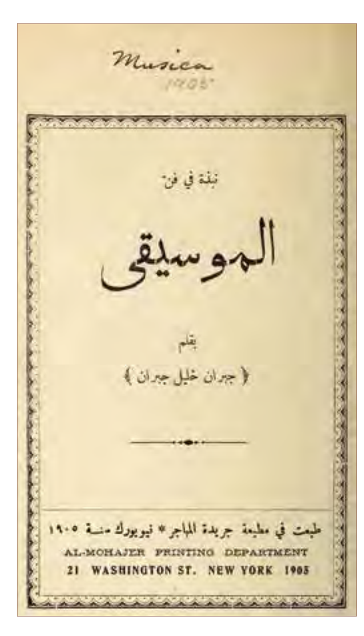
وثائق وصوَر



الطبعة الأُولى من كتاب «الموسيقى» (١٩٠٥)



نسخة كتاب «الموسيقى» وهو كتَب بخطه: «إلى ماري إليزبات هاسكل التي أَوعزتْ إلى الأرواح العلوية أَن تملأ رُوحي أَنغامًا مع محبتي العميقة – ٢١ آذار ١٩٠٩» مع توقيعه.

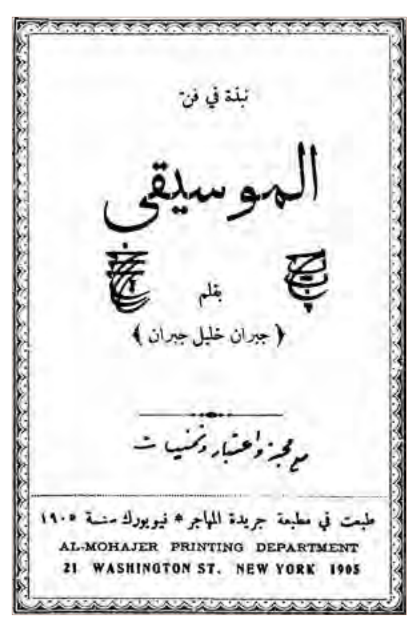


Musica
1905

نبذة في فن
الموسيقى
بقلم
(جبران خليل جبران)

طبعت في مطبعة جريدة المهاجر * نيويورك سنة ١٩٠٥
AL-MOHAJER PRINTING DEPARTMENT
21 WASHINGTON ST. NEW YORK 1905

النسخة التي رفعَها إِلى ماري هاسكل كاتبًا لها بالإِنكليزية عنوان الكتاب وسنة صدوره كي تعرف ما فيه. هذه النسخة إِلى ماري هاسكل خالية من الإهداء إِلى جوزفين پيبدي، لأنه في ١٩٠٩ كانت علاقتُه توطَّدت بماري عشية إرسالها إياه إِلى فرنسا للتخصص بالرسم.



نبذة في فن
الموسيقى
بقلم
(جبران خليل جبران)
مع محبة واعتبار وتمنيات

طبعت في مطبعة جريدة المهاجر * نيويورك سنة ١٩٠٥
AL-MOHAJER PRINTING DEPARTMENT
21 WASHINGTON ST. NEW YORK 1905

نسخة كتاب «الموسيقى» كما رفعَها جبران إِلى جوزفين پريستون پيبَدي: إِلى اليمين أَحرف اسمها الأُولى (ج پ پ)، وإِلى اليسار الأَحرف الأُولى من اسمه (ج خ ج)، وتحت الاسمين كتب بخطه: مع محبة واعتبار وتمنيات (ولعلَّه وضع إِمضاءَه على تلك النسخة).



الطبعة الثانية من كتاب «عرائس المُروج» صادرة في القاهرة سنة ١٩٢٢ عن منشورات «الهلال».

وكانت الطبعة الأُولى صدرَت في نيويورك سنة ١٩٠٦ عن منشورات جريدة «المُهاجر». وهذا هو ثاني كتاب لجبران بالعربية (الأَول هو كتاب «الموسيقى» – ١٩٠٥).



طبعة كتاب «عرائس المروج» الصادرة في سانتياغو (تشيلي) سنة ١٩٦١.



الاورواح المتمردة

بقلم

جبران خليل جبران

طبعت في مطبعة جريدة المهاجر على نفقة صاحبها

امين الغريب

نيويورك = سنة ١٩٠٨

AL - Mohajer Printing Department
21 WASHINGTON ST NEW YORK

الطبعة الأُولى من كتاب «الأرواح المتمردة» الصادرة سنة ١٩٠٨ عن جريدة «المُهاجر». وهو الكتاب الثالث من كتب جبران بالعربية.

مقدمة وانتقاد

بقلم صاحب جريدة المهاجر

يقول لنا المثل السائر ان لكل جديد طلاوة وهو قول ينطبق على كل شيء ما خلا الافكار في المسائل الاجتماعية . فالناس لا يحبون استبدال عادة من عاداتهم بغيرها ولا يقبلون ملاحظة على طريقة من طرق معيشتهم لكنهم في كل الاحيان يجدون انفسهم سالكين رويداً رويداً في السبيل الذي ما احبوه وبموجب الملاحظة التي لم يقبلوها .

من ذلك الحقائق العلمية التي كلما شاع امر واحدة جديدة منها ينكرها الناس اولاً ثم تراهم بعد حين اخذوا يعتقدون بها و يستعملونها . ومن ذلك الازياء والاخلاق التي يظن كل منا انه تابع فيها آثار اسلافه بكل تدقيق وضبط ويفتخر بكونه محافظاً عليها في حين اننا نعلم ان كل عصر من العصور مستقل عن سواه بعاداته واخلاقه

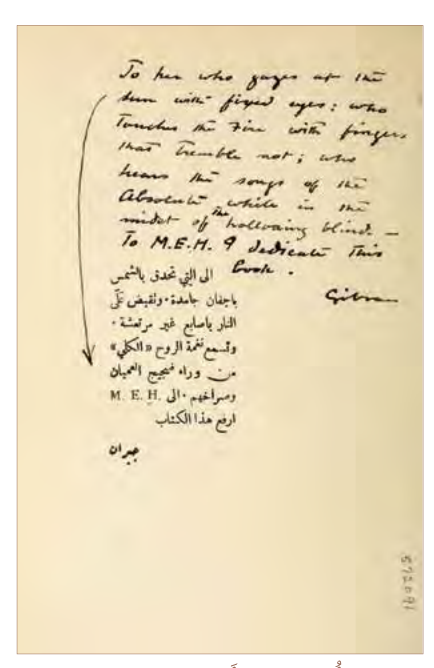
مقدمة ناشر الكتاب: «أَمين الغريّب» الذي كان يهذّب لغة جبران في مطالعه.

صعب على فتى ايامنا هذه ان يصدق كل ما يحكى عن استبداد بعض الاعيان والكهان في الشعوب التي سبقها الزمان في سيره فرتعت وهي في العصر العشرين في العصور الغابرة المظلمة. صعب على الواقف في النور ان يرى الاشباح المنسابة في اعماق الظلمة . وصعب على المستيقظ ان يروي حقيقة الاحلام المزعجة . ولكن بين فتيان هذه الايام شيوخ عاشوا في النصف الاول من القرن التاسع عشر . فمن يتهم جبران بالمبالغة والغلو عليه ان يسأل اولئك الفتيان الذين بيض الدهر مفارقهم فيسمع مايذيب النفس ويدمي الفؤاد

وهكذا يرى القارئ اللبيب ان كتاب الارواح المتمردة الذي يجتمع فيه المجنون بالعاقل والمتمرد بالمطيع والمظلوم بالظالم والساقطة بالفاضلة والعاشق بالحلي هو الجدار الثاني من بيت يبنيه جبران وكانت عرائس المروج جداره الاول وعلى جدران هذا البيت يحاول الكاتب الذي جمع ذكاء لبنان الى اجتهاد الولايات المتحدة وافكار الفيلسوف القاسية والمرجفة الى الفاظ المصور الرقيقة والموسيقية ان يرسم

عواطف طبقات الناس المتفاوتة من المستعطي الى الامير ومن الكافر الى القديس ويصور حالات الازمنة والفصول من ظلام الليل الى ضوء النهار ومن نواح الخريف الى اغاني الربيع

(امين الغريب)



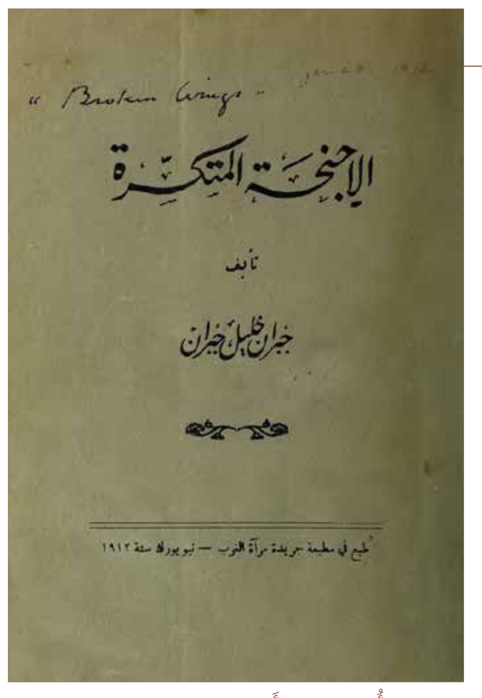
To her who gazes at the sun with fixed eyes: who touches the fire with fingers that tremble not; who hears the songs of the Absolute while in the midst of the hollowing blind. — To M.E.H. I dedicate this book.

Gibran

الى التي تحدق بالشمس باجفان جامدة· وتقبض على النار باصابع غير مرتعشة· وتسمع نغمة الروح «الكلي» من وراء ضجيج العميان وصراخهم· الى M. E. H. ارفع هذا الكتاب

جبران

الطبعة الأُولى من «الأَجنحة المتكسرة» (١٩١٢) وهي مُهداة إلى ماري إليزابيت هاسكل. وإِذ ليس في الإهداء المطبوع بالعربية سوى أحرف اسمها الثلاثة بالأحرف اللاتينية (MEH)، ترجَم لها إلى الإنكليزية كلمات إهدائه حرفيًّا كي تعرف ماذا كتب فيه.



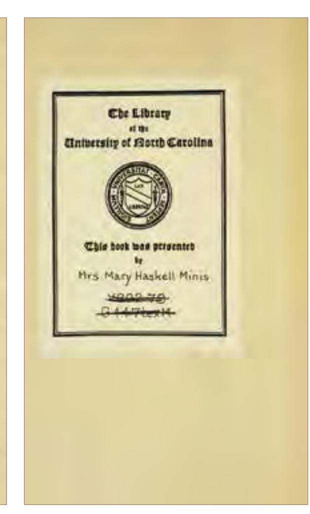
الطبعة الأُولى من «الأَجنحة المتكسرة»، النسخة التي أرسلها إلى ماري هاسكل وترجم لها بخطه عنوان الكتاب بالإنكليزية كي تعرف ما هو.



المغلف الذي أَرسل فيه جبران الطبعة الأُولى (١٩١٢) من نسخة كتابه «الأَجنحة المتكسرة»، وكتب بخطه على المغلف عنوانها: «٣١٤ – شارع مارلبورو – بوسطن».

تاريخ الإرسال: ٢٢ كانون الثاني ١٩١٢.

وعلى مقلب المغلف كتب عنوانه: «٥١ الشارع العاشر غربًا – نيويورك».

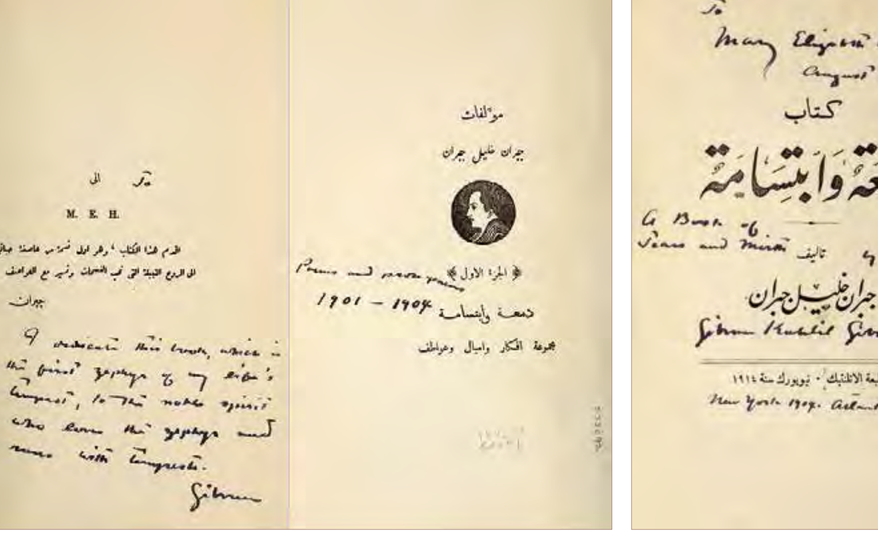

The Library
of the
University of North Carolina

This book was presented
by
Mrs Mary Haskell Minis


LÁGRIMAS
e
SORRISOS
do Celebre Poeta
e Escriptor Syrio-Libanez
Gibran Kalil Gibran

Conjuncto de Pensamentos
Inclinações e Sensibilidade

نسخة الطبعة البرتغالية من «دمعة وابتسامة».
أَهدتها ماري هاسكل إلى مكتبة جامعة نورث كارولاينا، وهي التي أَودعتْها جميع الرسائل بينها وبين جبران، وما كان لديها من وثائق أخرى، بينها هذه النسخة المسجلة في الجامعة باسم ماري هاسكل مايْنِس (وهي عائلة زوجها فلورنس مايْنِس).


To Mary Elizabeth Haskell
August 1914
كتاب
دمعة وابتسامة
A Book of Tears and Smiles
تأليف
by
جبران خليل جبران
Gibran Kahlil Gibran
مطبعة الاتلنتك · نيويورك سنة ١٩١٤
New York 1914. Atlantic Press

مؤلفات
جبران خليل جبران
الجزء الاول
Poems and prose poems
دمعة وابتسامة
1901 – 1904
مجموعة افكار واميال وعواطف

تقدمة الى
M. E. H.
اقدم هذا الكتاب، وهو اول نسمة من عاصفة حياتي، الى الروح النبيلة التي تحب النسمات وتسير مع العواصف
جبران

Gibran

الطبعة الأُولى من كتاب «دمعة وابتسامة» (نيويورك – ١٩١٤)، النسخة التي أَرسلها إِلى ماري هاسكل، ترجَم لها إِلى الإنكليزية ما ورد في الصفحة الأُولى كي تعرف ماذا فيها. وأَضاف إِلى التاريخ «آب ١٩١٤» مع أن تاريخ الطبعة بالعربية ليس فيه ذكْرُ الشهر.

لأَن جبران أَهدى كتابه «دمعة وابتسامة» إِلى ماري هاسكل، ترجم لها إِلى الإنكليزية مضمون إِهدائه كي تفهم ماذا كتب لها فيه. وزاد على ترجمته أنها نصوص نثرية وشعرية مكتوبة بين ١٩٠١ و١٩٠٤.

مقدمة

قد انتقل جبران خليل جبران في الاعوام العشرة الاخيرة من ربيع الحياة الى صيفها، فنمت اميالُه ونضجت افكاره، وتدرجت روحه من عالم الخيال الشعري الى عالم اسمى واوسع يتعانق فيهِ الخيال المطلق والحقيقة المجردة، وتلتقي في جنباتهِ اشباح العواطف الدقيقة بجبابرة المبادئ الاساسية الصحيحة.

جبران اليوم ليس بجبران الامس، فالشاب الحساس الذي كتب «دمعة وابتسامة» بقلم محبرٍ بالدمع قد تحول الى رجل قويٍ يكتب برؤوس الحراب المغموسة بالدماء. والفرق بين مقالة «جمال الموت» وحكاية «حفار القبور» هو الفرق بين جبران الامس وجبران اليوم، فالنفس اللطيفة التي كانت ترتعش لهبوب نسيمات السحر قد

تشددت بالعزم فلم تعد تهتز الا للعواصف فالعواصف هي من حاضر جبران بمقام النسيم من ماضيه

ولكن لو تمعنا مليًا بمجموع كتابات جبران وتآليفه، وعلاقتها بالنهضة الادبية الحديثة، لوجدنا ان «لدمعة وابتسامة» مقاماً خاصاً بها لانها كانت اول نغمة من نوعها في العالم العربي، لانها خالفت بما فيها من التراكيب ودقة البيان كل ما جاء قبلها من الكتابات، لانها أتت كتوطئة لحركة عربية جديدة يشعر بها ويتأثر لها الطالب في مدرستهِ والمتأدب في مكتبتهِ والصحافي في ادارتهِ.

عندما ظهرت «دمعة وابتسامة» كان الكتاب والشعراء في مصر وسوريا والمهجر يملأون الصحف والمجلات بمقالات ورسائل وقصائد عقيمة بليدة خالية من الشعور بعيدة عن القلب، وكان اكثر الناس يحسبون كل من وزن الكلام شاعراً وكل من رتب الفقرات كاتباً.

ولكن لما ابتدأ جبران بنشر «دمعة وابتسامة» غيَّر الناس افكارهم وعلموا للمرة الاولى ان الشاعر الحقيقي هو الذي يضرب باصابعه السحرية علَى اوتار قلوبهم ويعيد علَى مسامعهم في اليقظة ما تسمعه ارواحهم في المنام. ومن ذلك الحين ابتدأ فتيان الكتاب والشعراء بتقليد «دمعة وابتسامة» والنسج علَى منوالها فلم يمر عامان او ثلاثة علَى ظهورها حتى كان لجبران تلاميذ واتباع منتشرون في كل مكان من العالم العربي

***

عندما طلبنا الى جبران جمع «دمعة وابتسامة» ونشرها في كتاب اجابنا ببيت من احد موشحاته قائلاً:

«ذاك عهدٌ من حياتي قد مضى
بين تشبيبٍ وشكوى ونواحْ»

فقلنا له «ذاك عهدٌ من حياتك قد مضى، ولكنهُ لم

يزل حاضراً في حياة محبيك ومريديك»

فاجابنا «ان الشاب الذي كتب «دمعة وابتسامة» قد مات ودفن في وادي الاحلام فلماذا تريدون نبش قبره؟»

فقلنا له «ان ذلك الشاب قد ترنم باغنية علوية قبل ان يموت وعلينا ان نحفظ تلك الاغنية كيلا تتلاعب بها ايدي الضياع»

فاجابنا «افعلوا ما شئتم، ولكن لا تنسوا ان روح ذلك الشاب قد تقمصت في جسد رجل يحب العزم والقوة محبته للظرف والجمال ويميل الى الهدم ميله الى البناء فهو صديق الناس وعدوهم في وقت واحد»

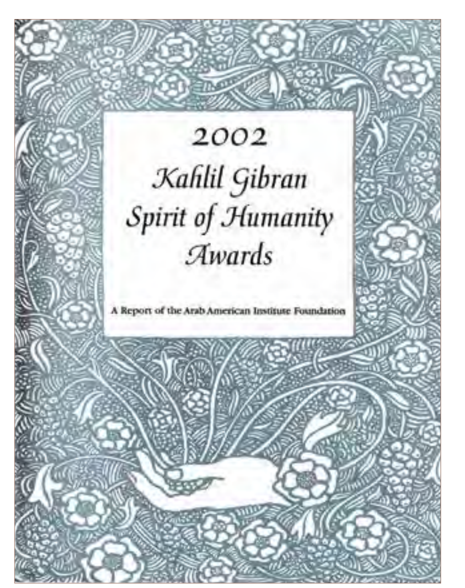
فقلنا له «سوف لا ننسى وان حاولنا التناسي ففي «حفار القبور» ما ينبهنا ويذكرنا»

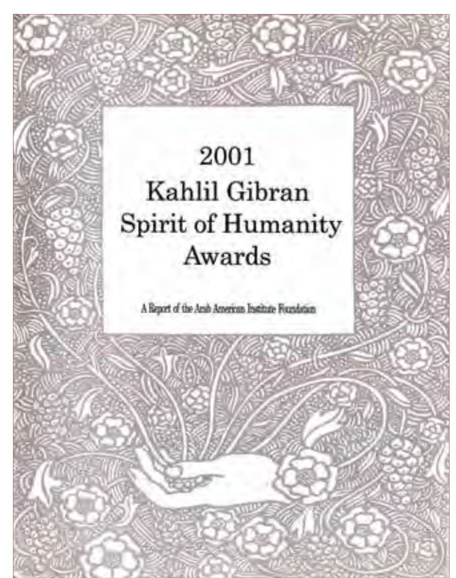
نسيب عريضه

نيويورك في ٢٤ نيسان سنة ١٩١٤

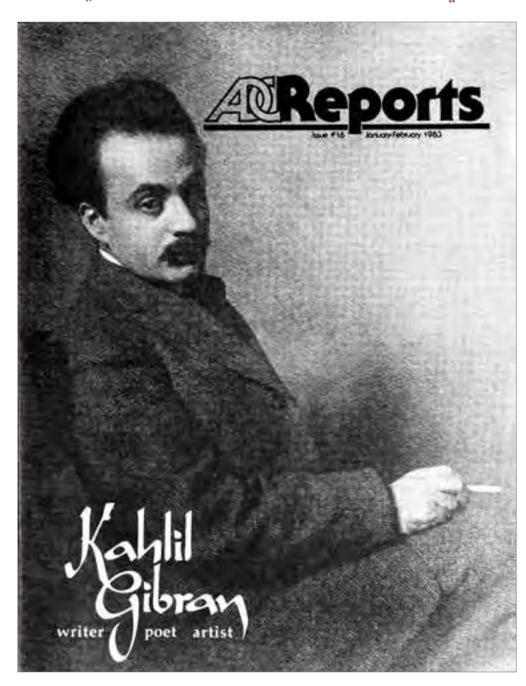
مقدمة كتاب «دمعة وابتسامة» كما كتبها نسيب عريضة جامع هذه المقالات من الصحف، ووضع تاريخها: ٢٤ نيسان ١٩١٤ وهو تاريخ الطبعة الأُولى.

يرجِّح دارسون أَن يكون جبران هو مَن كتبها بتوقيع نسيب عريضة، لِما فيها من تقريظ بشخصيته وكتاباته.





منشورات دورية عن جبران كانت تُصدرها
في واشنطن «لجنة مناهضة التمييز العنصري».

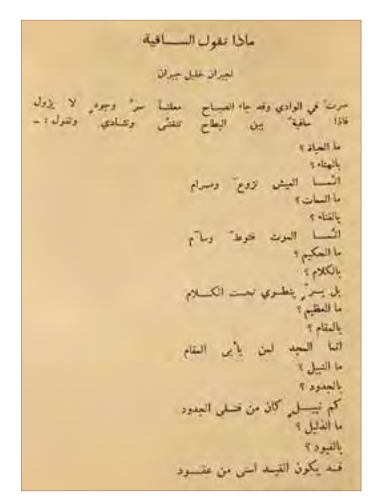




عدد «السائح الممتاز» لسنة ١٩٢٧ وعلى غلافه رسم من جبران.

نص «كلُّنا يصلّي» لجبران على الصفحتين ٨ و ٩ من عدد «السائح الممتاز». وهو لم يظهر لاحقًا في كتاب، لأن آخر كتاب بالعربية لجبران («البدائع والطرائف») كان صدر في القاهرة سنة ١٩٢٣، وهذا العدد من «السائح» صدر سنة ١٩٢٧.

الصفحة الداخلية من عدد «السائح الممتاز» فيه أن هذا العدد مُهدى «إلى روح النهضة الأدبية العربية التي انبثقت في المَهاجر، وإلى رجالها الأدباء الذين أَحيوا أندلسًا أدبية جديدة في ديار الغربة، وإلى أنصارها الذين رافقوا «السائح» في جهاده خمسة عشر عامًا وسددوا خُطاه نحو الأدب الصحيح ولا يزالون سائرين معه في موكب الأدب مشددين عزمه للوُصول إلى المحجة». وعلى الصفحة الكاملة رسم لجبران مع توقيعه بالعربية.



ماذا تقول الساقية

لجبران خليل جبران

سرتُ في الوادي وقد جاء الصباح معلناً سرّ وجود لا يزول فاذا ساقيةٌ بين البطاح تتغنّى وتنادي وتقول :-

ما الحياة ؟
بالهناء ؟
انما العيش نزوعٌ ومرام
ما الممات ؟
بالفناء ؟
انما الموت خروجٌ وسآم
ما الحكيم ؟
بالكلام ؟
بل بسرٍّ ينطوي تحت الكلام
ما العظيم ؟
بالمقام ؟
انما المجد لمن يأبى المقام
ما النبيل ؟
بالجدود ؟
كم نبيلٍ كان من نسل الجدود
ما الذليل ؟
بالقيود ؟
قد يكون القيد اسنى من عقود

قصيدة «ماذا تقول الساقية» في عدد «السائح الممتاز» (١٩٢٧)، مع أَنها كانت صدرت سنة ١٩٢٣ في كتابه «البدائع والطرائف» (القاهرة ١٩٢٣) وكان الخورأسقف منصور أسطفان جمع فيه عددًا من قصائد جبران ونثائره.


الفنون

مجلة شهرية

تصدر في نيويورك

منشئاها

نسيب عريضة نظمي نسيم

قيمة اشتراكها خمسة ريالات اميركية في كل مكان

جميع المراسلات يجب ان تكون الى هذا العنوان

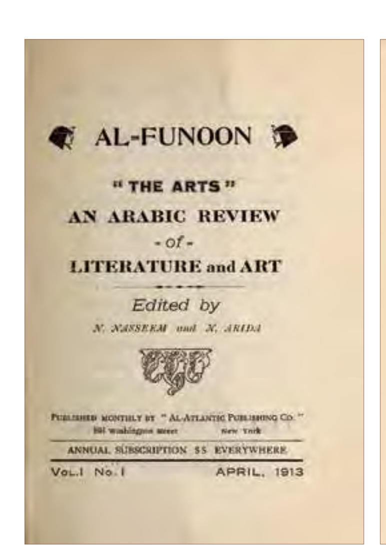
AL-FUNOON

104 Washington Street

NEW YORK

الجزء الاول السنة الاولى

نيسان ، سنة ١٩١٣


AL-FUNOON

"THE ARTS"

AN ARABIC REVIEW

- of -

LITERATURE and ART

Edited by

N. NASSEEM and N. ARIDA

PUBLISHED MONTHLY BY "AL-ATLANTIC PUBLISHING CO."

104 washington street New York

ANNUAL SUBSCRIPTION $5 EVERYWHERE

VOL. I No. I APRIL, 1913

العدد الأول (نيسان ١٩١٣) من مجلة «الفنون» ويظهر على صفحته الداخلية أن منشئَيْها هما نسيب عريضة ونظمي نسيم.


الفنون

مجلة ادبية تصدر مرة في كل شهر

رئيس تحريرها — نسيب عريضة

مدير اعمالها — راغب متراج

AL-FUNOON

55 BROADWAY

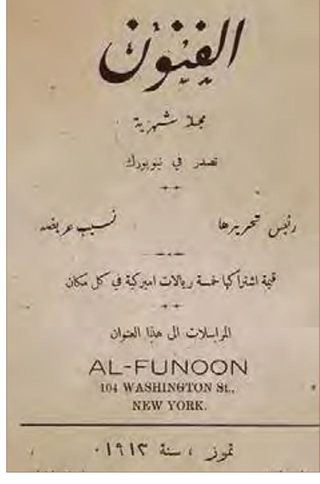
NEW YORK

الجزء الاول حزيران سنة ١٩١٦ السنة الثانية

السنة الثانية: دخل اسم راغب متراج على إدارة المجلة.



العدد الأَول (نيسان ١٩١٣) من مجلة «الفُنون» لنسيب عريضة، وعلى الغلاف ترجمة العنوان بالإنكليزية على هذه النسخة التي أرسلها جبران إلى ماري هاسكل.


الفنون

مجلة شهرية

تصدر في نيويورك

رئيس تحريرها نسيب عريضة

قيمة اشتراكها خمسة ريالات اميركية في كل مكان

المراسلات الى هذا العنوان

AL-FUNOON

104 WASHINGTON St.

NEW YORK.

تموز ، سنة ١٩١٣

العدد الرابع (تموز ١٩١٣). غاب عنه اسم نظمي نسيم، وبقي فقط اسم نسيب عريضة لرئاسة التحرير.



١

An ode to the night
by K.G.

أيها الليل

بقلم جبران خليل جبران

ياليل العشاق والشعراء والمنشدين ·
ياليل الاشباح والارواح والاخيلة ·
ياليل الشوق والصبابة والتذكار ·

ايها الجبار الواقف بين اقزام غيوم المغرب وعرائس الفجر ، المتقلد سيف الرهبة ، المتوّج بالقمر ، المتشح بثوب السكوت ، الناظر بألف عين الى اعماق الحياة ، المصغي بألف اذن الى أنة الموت والعدم ·

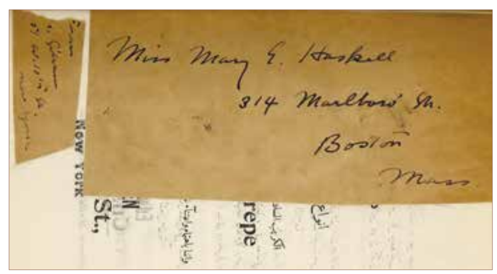
انت ظلامٌ يرينا انوار السماء ، والنهار نور يغمرنا بظلمة الارض ·

انت أملٌ يفتح بصائرنا امام هيبة اللانهاية ، والنهار غرورٌ يوقفنا كالعميان في عالم المقاييس والكمية ·

انت هدوء يبيح بصمته خفايا الارواح المستيقظة السائرة في الفضاء العلوي ، والنهار ضجيج يثير بعوامله نفوس المنطرحين بين سنابك المقاصد والرغائب ·

انت عادل يجمع بين جنحي الكرى احلام الضعفاء باماني الاقوياء ·

مقطوعة جبران «أيها الليل» على الصفحة ١ من عدد «الفنون» الأول.
وفي أعلى العنوان ترجم جبران إلى الإنكليزية عنوان مقطوعته لأنه أرسل العدد إلى ماري هاسكل كي تفهمه.



مغلف البريد الذي أرسله جبران من نيويورك إلى ماري هاسكل على عنوانها: شارع مارلبورو – بوسطن.

محتويات هذا الجزء

فهرس العدد الأول من «الفنون»، وأول نص فيه هو «أيها الليل» لجبران. ويرى باحثون أن جبران كان يموِّل المجلة، أو على الأقل كان يسهم في معظم تمويلها.
وكان نسيب عريضة من أكثر المقرّبين إليه.



ماري هاسكل (ضمن الدائرة) سنة ١٩٠٣ أمام مدخل مدرستها.





ماري هاسكل (في الدائرة) مع الهيئة التعليمية ومجموعة التلامذة في مدرستها (١٩٠٧).

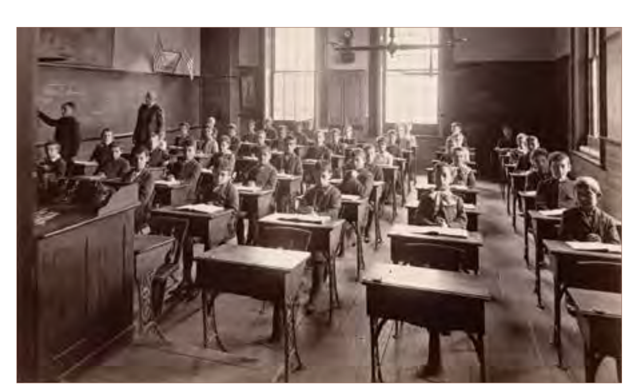


الباخرة روتردام التي عاد فيها جبران إلى نيويورك سنة ١٩١٠ من باريس بعد سنتين فيها لدراسة الرسم.

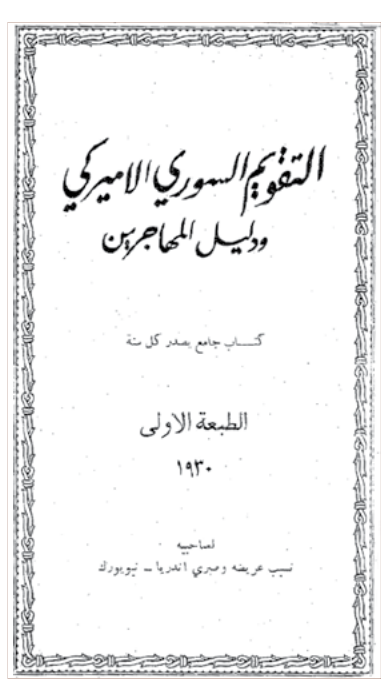


مدرسة كوينسي – شارع تايلر، وفيها درس جبران بعد وصوله إلى بوسطن سنة ١٨٩٥.





صورتان لأحد الصفوف في مدرسة كوينسي، وفي إحدى هذه القاعات درس جبران

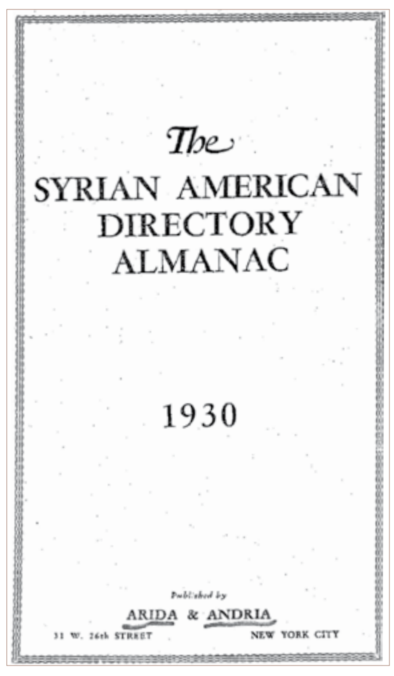


التقويم السوري الاميركي
ودليل المهاجرين

كتاب جامع يصدر كل سنة

الطبعة الاولى
١٩٣٠

لصاحبيه
نسيب عريضه وصبري اندريا ـ نيويورك



The
SYRIAN AMERICAN
DIRECTORY
ALMANAC

1930

Published by
ARIDA & ANDRIA
31 W. 26th STREET NEW YORK CITY

«دليل المهاجرين» سنة ١٩٣٠.
كان يُصدره سنويًا في نيويورك نسيب عريضة وصبري أندريا

NEW YORK CITY BUSINESS DIRECTORY 17

Gemayel, Mike — Soft Drinks — مخايل الجميل
14 Morris St.
George, J. & Co. — Linens & Laces — يوسف جريس وشركاه
258 5th Ave. — ASHland 5399
George, Peter S. — Lawyer — بطرس شحاده جورج
233 Broadway — FITzroy 9754
George & Totah — Lawyers — جورج وطوطح
233 Broadway — FITzroy 9754
Georges Bros. — Importers — جرجس اخوان
220 5th Ave. — ASHland 0825
Georges, Davis — دعيبس جورج
220—5th Ave. — ASHland 0825
Georges, N. — نسر جورج
220—5th Ave. — ASHland 0825
Georges, Norman — نعمان جورج
220—5th Ave. — ASHland 0825
Gersigiry, N. M. & Sons — Laces — نقولا جريجيري واولاده
15 Rector St. — BOWling Green 10101
Ghiz, Salim, — Hardwear — سليم الغز
50 Vesey St. — BARclay 4483
Ghosn, Bernard, Mgr. — Study — الارشندريت برنادوس غصن
103 Washington St. — BOWling Green 0639
Gibran, Kahlil, G. — Artist & Author — جبران خليل جبران
51 W. 10th St. — ALGonquin 9709
Gorab, S. — صادق غراب
11 W. 28th St. — LEXington 8820
Gorayeb, Geo. N. — Exporter — جورج غريب
50 Washington St. — WHItehall 0395
Gorayeb, Philip E. — Groceries — فيليب غريب
44 Washington St. — BOWling Green 10219
Gorayeb, S. S. & Bros — Exporters — سعيد غريب واخوانه
50 Washington — BOWling Green 1475
Gorra, A. F. & Son. — Linens — عبد الله غره وولده
30 Rector St. — BOWling Green 4621
Gorra, A. & D. — Laces — عزيز وديب غره
10 Rector St. — BOWling Green 5236
Gorra, A. & D. — Underwear & Linens — عزيز وديب غره
93 Greenwich St. — WHItehall 9932
Gorra Bros. — Importers Linens — غره اخوان
220 5th Ave. — ASHland 6451
Gorra, F. & Bros. — Specialty Shop — فوزي مخايل غره
16 Rector St. — BOWling Green 1535
Gorra, W. — وديع غره
220—5th Ave. — ASHland 6461
Grayeb Hosiery Co. — Hosiery — شركة غريب (للجوارب)
50 Washington St. — BOWling Green 0830

اسم جبران وعنوانه في «الدليل»

NEW YORK CITY CLASSIFIED BUSINESS DIRECTORY 43

Section 2

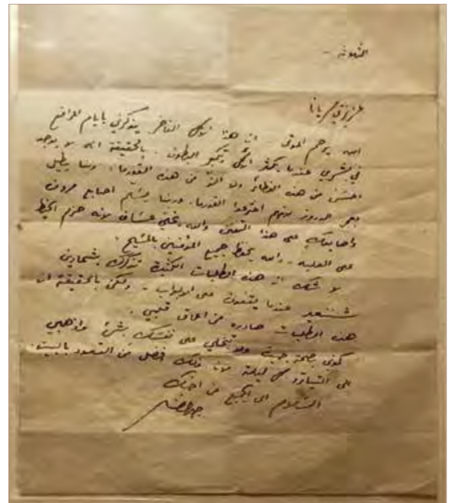
NEW YORK CITY
CLASSIFIED BUSINESS DIRECTORY
الدليل السوري التجاري لمدينة نيويورك
مرتب بحسب المتاجر والمهن

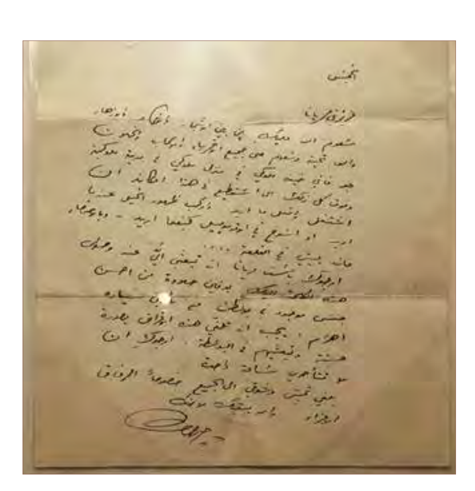
ADDRESSING — عناوين وعلونة رسائل
Syrian American Directory-Almanac
31 W. 26th St. — BOGardus 7243
ADVERTISING AGENTS — وكلاء اعلانات
Syrian American Directory-Almanac
31 W. 26th St. — BOGardus 7243
ALMANACS — تقاويم
Syrian American Directory-Almanac
31 W. 26th St. — BOGardus 7243
ANTIQUES — انتيكات (عاديات)
Beilouny, Gabriel
665—5th Ave. — PLAza 1534
Khayat, Azeez
366—5th Ave. — WISconsin 7082
Kouchakji, Fahim
5 E. 57th St. — REGent 8446
Sayegh, Leon
665—5th Ave. — PLAza 0489
ART GOODS — بضائع فنية
Khouri, A. N. & Bro.
115 E. 23rd St. — GRAmercy 0570
ARTISTS — فنّانون
Gibran, Kahlil
51 W. 10th St. — ALGonquin 9709
Macksoud, Nicholas S.
320—5th Ave. — LONgacre 1078

جبران كما ورد اسمه في قسم «المهن» من «الدليل».



٣ بطاقات بريدية ورسالتان من جبران إلى شقيقته مريانا
(٧٦ شارع تايلر - بوسطن).
كانت تجهل القراءة فكانت تستعين بمن يقرأُها لها.
وهي حاليًّا بين مجموعة الوثائق التي أَودعها النحات خليل جبران
وزوجته جين متحف سمية في مكسيكو.





The

SYRIAN WORLD

VOL. I. JULY, 1926. NO. 1.

FOREWORD

THE IDEA of this publication was conceived in the spirit of service to the Syrian-American generation. The somewhat anomalous position of the young Syrian in America constitutes a genuine social problem pressing for a solution, and it is both to his own interest and to that of the country under whose flag he was born that the correction of this condition should not be further delayed.

The underlying cause of this problem is the fact that Syrian emigration in its inception was not intended to be permanent. Only men endowed with an extraordinary boldness of spirit could at first muster sufficient courage to sever the strong ties binding them to home and country and to seek better fortunes in a foreign land. But the men went forth alone and with the fixed resolve of an early return. Economic interests, however, soon demonstrated to them the impracticability of such a course with the result that the family reunion took place abroad instead of at home.

By degrees, the first immigrants and those who followed in their wake came to reconcile themselves to the idea of permanency of sojourn, so that now naught remains of the one-time fixed resolution but the memory.

But this memory lingers, and it is doubtful if ever it will be effaced from the minds of the first-comers or cease to be a part of their lives. We can plainly discern its manifestations in the "Old Folks'" tender reminiscences of their mother-country;

افتتاحية العدد الأول (تموز ١٩٢٦) من مجلة «العالم السوري» لسلوم مكرزل.

OUR CONTRIBUTORS.

GIBRAN K. GIBRAN is in the van of our thinkers and authors in America. For inspirational writings it is difficult to find his peer. The subtlety of thought and charm and lucidity of expression pervading all his works are his racial heritage from the East accentuated by his thorough accomplishment in the finer arts of the West. Not only is he an author, but also an artist. We lack the proper qualifications as art critics to make the bold statement that his art bears the stamp of genius as showing originality of the first order, but such a statement was made by no less an authority than Rodin. And he is a no mean linguist. His Arabic works show that same perfect mastery of language as do his works in English, and one can find some of his original compositions in beautiful French. But what may be cause for greater gratification, and may we say pride, is the fact that his latest book, "The Prophet", has already been translated into fifteen languages, while of his former works, "The Madman" was translated into nearly every language and "The Forerunner" into no less than eight. His original contribution to *"The Syrian World"* gives a portrayal of his interest and faith in our rising generation in America.

في الصفحة الأخيرة من العدد الأول نبذة عن كتّاب العدد. وهنا النبذة عن جبران.



Vol 5 No. 401

AS-SAYEH

SUBSCRIPTION

A. A. HADDAD,

55 Broadway New York City

السائح

جريدة سياسية أدبية تجارية

العاشق المخدوع

العدد ٤٠١ من جريدة «السائح» (السنة الخامسة) – نيويورك، الخميس ٢١ أَيلول ١٩١٦.
وهي «جريدة سياسية أدبية تجارية»
صاحب الجريدة ومحرِّرها عبدالمسيح عبده حداد».
عنوانها: المبنى ٥٥، شارع برودواي، مدينة نيويورك.
قيمة الاشتراك بها: ٤ ريالات
إلى اليمين صورة عبدالمسيح حداد
إلى اليسار صورة شقيقه ندرة حداد



«السائح الأَكبر»: غلاف العدد الممتاز من «السائح» بريشة جبران (١٩٢١).

ماري الخوري... هل هي عروس جبران في مقطوعته «الجنّية الساحرة» (في كتاب «العواصف»)؟



ماري عزيز الخوري، صاحبة محل المجوهرات الشهير في نيويورك.



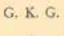
كانت ثرية، وفتحت منزلها لصالون أدبي كان يلتقي فيه أدباء وشعراء، في طليعتهم أمين الريحاني الذي كان هو مَن عرَّفَ جبران إليها فأخذ يتردد إلى صالونها الأدبي.

يرى دارسُون أنه كتب عنها مقطوعته «الجنية الساحرة»، لكن هذا ليس مثْبَتًا.

وماري الخوري كانت في المستشفى ليلة وفاة جبران، وطلبَت أَن يُطبع وجهه على قناع الموت، ودفعَت تكاليفه.

في بيتها مجموعة لوحات كانت تشتريها من جبران، وكانت بينهما رسائل.

وجهُهُ الباقي ولو... في قناع الموت



G. K. G.

beautify the surrounding gardens into a public park, for a perpetual green and fragrant remembrance.

And in our own West, across this continent, in the great tower of the Shove Memorial Chapel at Colorado College is a set of Westminster chimes cast at Croydon, England, with a master bell weighing six tons, which will strike the hours, and upon this bell are graven the words

YESTERDAY IS BUT TODAY'S MEMORY,
AND TOMORROW IS TODAY'S DREAM.
KAHLIL GIBRAN.



The hands of Gibran

[41]

حرصَت باربره يونغ في الصفحة الأَخيرة من كتيِّبها الأَول (١٩٣١) أن تنشر هذه الصورة المُكبَّرة ليَدَيّ جبران (مقتطعَةً من صورة كاملة له) للدلالة على اهتمامها بيديه: كاتبًا وراسمًا.



صورة قناع يده فور وفاته



قناع الموت المأْخوذ فور وفاته



قناعا وجهه ويده المعروضان في متحف سُميَّة – مكسيكو.



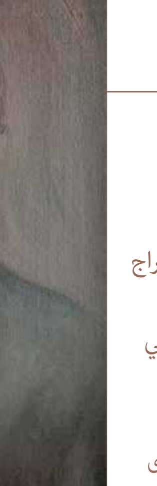
الحديقة العامة في الشارع العاشر غربًا (نيويورك) قبالة المبنى الذي كان يسكن فيه جبران. وغالبًا ما كان ليلًا يمشي بين أشجارها أو يجلس على مقاعدها في لحظات تأَمُّل وصفاء.





هنري زغيب (سنة ١٩٩٢) في حديقة جبران التذكارية التي دشَّنَها الرئيس جورج بوش صباح الجمعة ٢٤ أيار ١٩٩١ على جادة ماساشوستس – واشنطن.







جبران : لوحة غير معروفة

يُسْعِد هذا الكتابَ أَن يَنشُر على هذه الصفحة لوحةً لجبران غيرَ معروفة ولا منشورة سابقًا.

كان كتابي في مرحلته الأَخيرة من الإِخراج النهائي، حين تلقيتُ ذات مساءٍ رسالةً إِلكترونية من الصديق المحامي الأَميركي اللبناني الجذُور شارل معلوف سماحة Charles Malouf Samaha (سانت پيترسبُرغ، فلوريدا) يخبرني فيها أَنَّ لدى نسيبةٍ له: السيِّدة منى معلوف إِندرسون Mouna Maloof Anderson لوحةً زيتية بريشة جبران رسَم فيها جدَّها، واللوحة محفوظة حاليًّا في بيتها.



طبعًا: الأَمر يستاهل تعديلًا في إِخراج صفحات من الكتاب مُنجَزة، لحجز صفحةٍ ونشْر هذه الزيتية.

وبناءً على طلبي السريع، وموافقة السيدة منى، أَرسَل لي الصديق تشارلز صورة الزيتية مع معلوماتٍ طلبتُها منه، هي التالية كما أَفادته بها نسيبتُه منى:

الرجل في الصورة هو نجم حنا معلوف (أَبو راجي)، صديقُ جبران في بوسطن. كان تاجرًا معروفًا، وُلد في لبنان (زبُّوغا) وهاجر إِلى الولايات المتحدة مع موجةِ هجرةٍ لبنانية واسعة مع نهاية القرن التاسع عشر، وسكَن في بوسطن (كما كانت كاملة والدة جبران اصطحبَت أَولادها الأَربعة وهاجرَت من بْشَرّي إِلى بوسطن).

ولنَجْم ابنة اسمُها روز، كانت تدرُس الرسم على جبران (معلومة جديدة: لم يُعرَف عن جبران إِعطاؤُه في بوسطن دُروسًا في الرسم لأَفرادٍ أَو مجموعات). ويبدو أَن روز أَحبَّت جبران بولعٍ شديد وكانت ترغبُ في الزواج منه. فاتحَت والدَها بالأَمر فوافَق، لصداقته المتينة مع جبران. لكنَّ جبران كان يُشيح عن رغبتها (طبعًا دون الإِفصاح عن علاقته العاصِفَة فترتئذٍ بماري هاسكل في بوسطن). وعن منى أَن روز بقيَت عزباء طوال حياتها، ولها لوحاتٌ عدةٌ رسمتْها متأَثِّرة واضحًا بأُسلوب جبران، كما نحتَت تمثالًا نصفيًّا لوالدها نجم.

ولأَن جبران رسم وجوهَ كثيرين من أَصدقائه والأَعلام (وَرَد ذكرُ معظمهم في هذا الكتاب) واضحٌ أَن صديقَه نجم كان جالسًا أَمامه حين راح يكتب بريشته الانطباعية البارعة تفاصيلَ دقيقةً ومعالم مذهلةَ النبض في هيئة الرجل وثوبه ونِظرته (نتذكَّر هنا حوار جبران وصديقه ميخائيل نعيمه – نيويورك، تشرين الثاني ١٩٢٢ – حين كان «ميشا» جالسًا في المحترف وجبران يرسُمه بالقلم الرصاص).

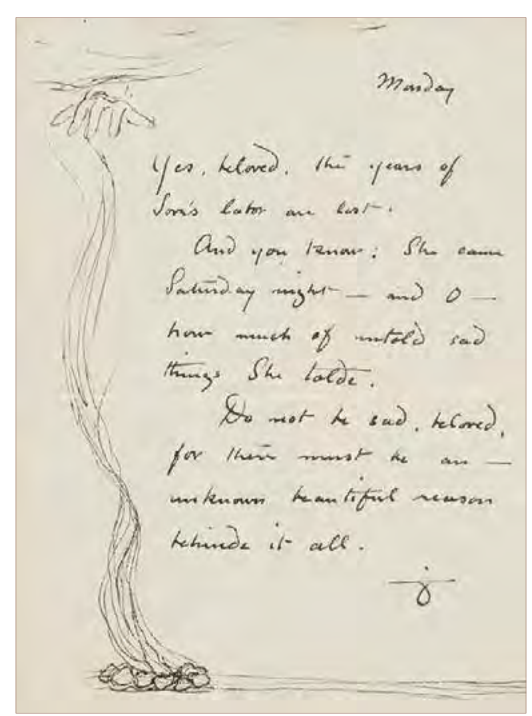
أَنشُرُ هنا صورةَ اللوحة الزيتية، وعليها توقيعُ جبران بالعربية وتاريخها بالأَرقام الهندية ١٩١١ (أَي بعد سنةٍ على عودته سنة ١٩١٠ من پاريس متمكِّنًا في فن الرسم).

مع شُكري للصديق تشارلز ولنسيبته منى التي سمحَت لي، بإِذنٍ خاص، أَن أَنشُر صورةَ جدِّها (للمرة الأُولى) في هذا الكتاب.



الشاعرة جوزفين پيبدي (١٨٧٤ – ١٩٢٢)
عهد كان جبران على علاقة بها فتًى في مطلع شبابه.

وهي التي يقصدها في كتابه الأول («الموسيقى» – ١٩٠٥)، ومطلعه: «جلستُ بقُرب مَن أَحبَّتْها نفسي أَسمع حديثها».



Monday

Yes, beloved, the years of Love's labor are lost.

And you know: She came Saturday night — and O — how much of untold sad things She tolde.

Do not be sad, beloved, for there must be an — unknown beautiful reason behinde it all.

رسالة من جبران وقَّعها بأحرف اسمه الثلاثة في شكل فني، وطرّزها إلى يسار الرسالة برسم له، على عادته في بعض رسائله.

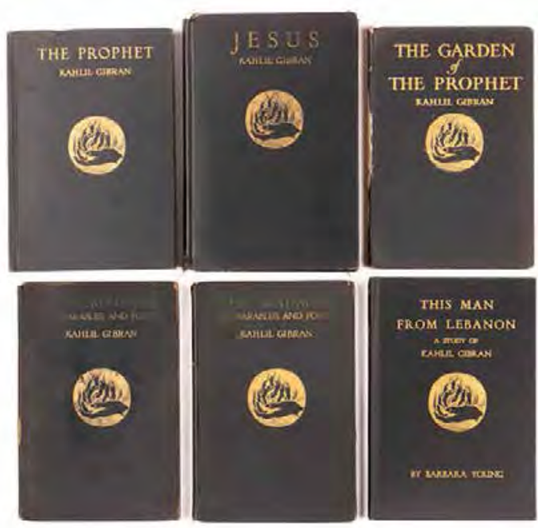


بنك مانهاتن الذي كان جبران يتعامل معه ماليًّا

POET WILLS $14,595 TO SISTER IN HUB

NEW YORK, Nov. 3—Miss Mary K. Gibran of 281 Forest Hills street, Jamaica Plain, Mass., receives $14,595, according to an appraisal of the estate of her late brother, Kahlil Gibran, Syrian poet and author, filed for State transfer tax purposes here today. Mr. Gibran died April 10, 1931. His estate was valued at $49,459 net.

تحويل مصرفي إلى مريانا شقيقة جبران بقيمة ١٤,٥٩٥ دولارًا تُقتطَع من المبلغ الذي أوصى لها به في وصيته، وقيمتُه الإجمالية ٤٩,٤٥٩ دولارًا.



الأغلفة السوداء للطبعات الأُولى من كُتُب جبران
بالإنكليزية لدى منشورات كنوف.

Wednesday

Bring your good appetite with you — the Syrian food is hearty — and come to 73 Beach Street, and there you will find me waiting for you at the door.

But tell me is six o'clock a right time for you?

Your friend
Kahlil Gibran

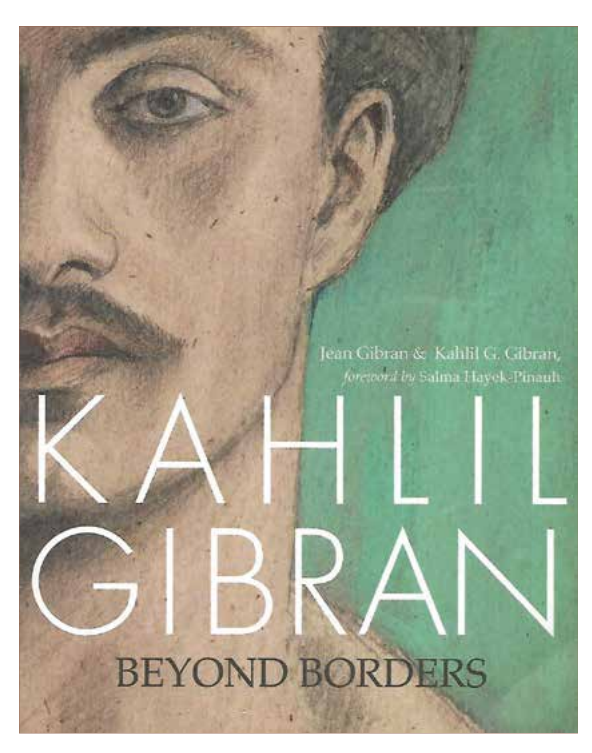
دعوة من جبران إلى موافاته لتناوُل
«الطعام السوري الصحي» في مطعمٍ
عيَّن عنوانه في الرسالة.



أكمَلُ بيبليوغرافيا صدرت عن جبران، وضعها نسيبُه النحات خليل جبران وزوجته جين، وكان لدى خليل جميع الوثائق التي آلت إليه من مريانا شقيقة جبران، ثم قدَّماها لاحقًا إلى متحف سميّة في مكسيكو.

النسخة الأُولى من الكتاب:
«خليل جبران - حياته وعالمُه»

صدرت طبعتُها الأُولى سنة ١٩٧٤، فالثانية سنة ١٩٨١، فالثالثة سنة ١٩٩١.



النسخة الثانية من الكتاب، منقَّحة ومزيدة:
«خليل جبران أبعد من الحدود»

صدرت طبعتُها الأُولى سنة ٢٠١٧ حاملةً مقدمة من خليل جبران (كان توفّي سنة ٢٠٠٨)، أضافت إليها بعده زوجته جين ملاحظات عن إضافات جديدة في هذه النسخة تم اكتشافُها بعد صدور النسخة الأُولى سنة ١٩٧٤.

With kindest thoughts
to
Nathalie S. Colby
from Kahlil Gibran

October
1921

إهداءان من جبران إلى السيدة ناتالي كولِن
على كتابين له («المجنون» و«السابق») في يوم
واحد (تشرين الأول ١٩٢١).

With highest regards
to Nathalie S. Colby
from Kahlil Gibran

October
1921

To Mrs. Bainbridge Colby
with kindest thoughts
of Kahlil Gibran
1926

إهداء جبران إلى السيدة ذاتها (ناتالي
بينْبْرِدْج كولِن) على كتابه «النبي» (١٩٢٦).



الكاتبة جوليا إلسْوورث فورد (١٨٥٩ – ١٩٥٠) في أَواخر حياتها.



جوليا كما رسمها جبران بالقلم الرصاص سنة ١٩٢٧

Boston Aug. 8 1914

My dear Mrs. Ford:
It is so good to hear from you — and to know that you are still on this side of the great ocean!
My sister was quite ill, but she is recovering wonderfully and in a few days she will go with some friends to the country. And then I shall return to New York.

How could you dream of going abroad this summer? Is it not physically impossible? And suppose you could find a steamer to take you to England, do you think for a minute that your friends, and I am one of them, would let you go? Absolutely impossible. It is too dangerous, and the risk is altogether too great. Please stay with us this summer.

Germany will get what she deserves. She has been upsetting the peace and the economic life of Europe by her eternal preparedness for war. And now she is in the midst of it. But my God what a war! It is second to nothing but the deluge!
And yet you are still thinking of going to Europe!
Sincere greetings to Rye and those who dwell in it.
Yours ever
Kahlil Gibran

Thursday

My dear Mrs. Ford:
I have sacrificed much for this exhibition of mine — but the greatest sacrifice I have made was that of not seeing my friends, those friends whom I love and honour so much. But now it is almost over, and I shall soon be able to get out of this hermitage and be my old self again instead of being nothing but a laborer during nights and days. I am almost a wreck. To get about 75 paintings and drawings ready is not a small matter and I have worked and worked and worked. The result of those long months of confinement is to be seen next Monday! Thank God, for I shall sleep next week and I shall feel that I am, after all, a part of life and not a hermit.
And will you not see the exhibition? It would give me such a joy to know that you care for what I have tried to do. That strangely sweet warmth that comes from friends who understand is my only reward.
Most faithfully yours
Kahlil Gibran

If you care to have me send you some of the catalogues to send to your friends just let me know and I shall gladly do so. Mr. Montross and myself think that it is much better to send the catalogue instead of a card.

Sunday

My dear Mrs. Ford,
I returned last night from Boston and found your card in which you have kindly asked me to come to your home and meet those wonderful Duncan children again. And I found also the lovely copy of Imagism which I shall read with a great deal of pleasure. Thank you, thank you again and again.
I have tried to rest in Boston but did not succeed very well. I had to plan for an exhibition in that city. The Boston Art Club is very much interested and will give an exhibition of all my work in the spring. They have the largest and the best gallery in Boston and their shows are visited by thousands and thousands of the best people. I really did not think that the Boston Art Club will offer me their gallery and all the service that goes with it. I feel most grateful.
I wonder if it is possible for me to make a drawing of Miss Duncan? It would mean much to me if she is willing to give me an hour of her time.
Hoping to see you soon, I remain as ever,
Most faithfully yours
Kahlil Gibran

كانت بين جبران وفيلِكس فارس (١٨٨٢ – ١٩٣٩) علاقة أدبية وُثقى. ونادرًا ما ظهر لجبران نص بالإنكليزية تَرجَمهُ عن العربية (حتى ولا من نصوصه هو).

هنا قصيدة فيلكس فارس «تُربة الجدود» بخطِّه (نقلًا عن مجلة «الأُوديسيه» – السنة الثانية – تشرين الأَوَّل ١٩٨٣ – العدد ١٨ – ص ١٦)، وترجمة جبران بخطه (نقلًا عن مجلة «الأُوديسيه» – السنة الثانية – كانون الأَول ١٩٨٣ – العدد ٢٠ – ص ١٦)، مع رسالة جبران بخطه حولها إلى فيلكس فارس (نقلًا عن مجلة «الأُوديسيه» – السنة الأُولى – نيسان ١٩٨٣ – العدد ١٢ – ص ٥).

From the pain of bitter parting
To the laughing, faithless sea:
From the merciless waves to fear,
And then to prison and despair!
Is this what I sought, my Salwa,
When I left you and my home?

And behold me now, in a night
Whose ears are deaf to my cries,
Whose eyes are blind unto my grief.
But what if my morn should come?
And the star of my morn should rise?
What would they bring save memory
To a heart over-burdened with memories?

O my thoughts, my stricken thoughts,
Fly not towards my homeland,
And enter not into my house,
Lest you touch with your dark wings
The sleep-veiled eyelids of my mate.

Oh for a breath from that fragrant vale,
Oh for a draught from that singing stream,
And for a handful from my forefathers ashes
To be strewn, as they lay me low,
Into my lonely grave.

تربة الجدود

للباسم المملوءِ بالغَدْرِ
لمعقِلِ التَّعذيب والأَسْرِ

مِنْ لَوعة التَّوديع للبحرِ
لرحمةِ الأنواءِ والذُّعْرِ

لعلَّة الصَدْرِ
لما تركت النُّور والمأوى
تُفيدني، ودمعتي نَجوى

إلى هُنا قد صِرت يا سلوى
وها أنا، في الليل، لا شكوى

تُسرُّ للفجْرِ
ونجمتي في موطني تلمعُ
ما ينفعُ المحكومَ ما تَنْفَعُ

أنَّى لهذا الفجر أن يَطْلع
وبيننا الأبعادُ لا تُقْطعُ

تَعِلَّةُ الذِّكرِ

لا تُدْخل البَلوى إلى سَكَني
لا يُقْلِقَنْ طيفٌ من الكَفَنِ

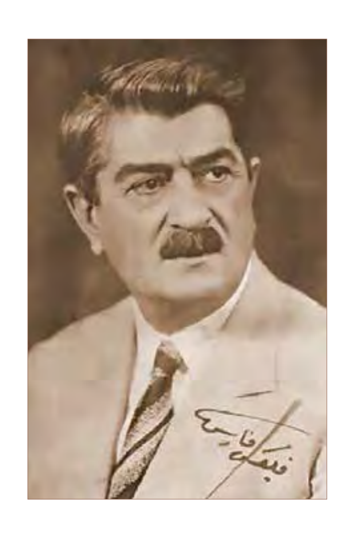
يا فكرُ، لا تَذْهَبْ إلى وطني
لا تُزعجِ الأجفان في الوَسَنِ

شريكةُ العُمْر

ونَهْلةٌ تُطفي لَظَى الصَّادي
حتَّى إذا ما حان الحادي

هل نسمةٌ من ذلك الوادي
أو قبضةٌ من تُرب أجدادي

تُذَرُّ في قبري



أَخي فيليكس

سلام على روحك الطيّبة وقلبك الكبير
لقد سررتُ جدًّا بزوال الألم عنك ورجوع العافية إليك.
نحن يا أَخي بحاجة ماسَّة إلى مواهبكَ، فلا تَدَع العلّة
أَن تقف حاجزًا بين مواهبكَ وحاجتنا.
طيَّه تجد ترجمة قصيدتكَ الجميلة إلى الإنكليزية. لقد تصرَّفتُ بها
بعض التصرُّف فجاءَت كم يريدها الشاعر لا كما يريدها اللغويُّ
المدقِّق. أَبعدنا الله عن جميع المدقِّقين.
أَنت بالطبع تعرف حجم وشكل فرحي بنجاح مشروعكم
في هذه البلاد. ولكنني أَرجوك يا فيليكس أَن لا تُجهد نفسكَ
ولا تُحمِّل قواكَ فوق طاقتها.
بلِّغ سلامي إلى جان والياس مشفوعًا بمودَّتي وأَحسن تمنياتي.

والله يحفظكَ أَخًا عزيزًا لجبران

مساء الإثنين

كانت الشاعرة التشيلية غبرييلّا ميسترال (١٨٨٩ – ١٩٥٧) على إعجاب كثير بجبران. هنا مقال لها عنه يبدو واضحًا فيه إعجابها.





صورة لجبران في محفوظات غبرييلّا ميسترال كتبت تحتها: «صورة خليل جبران اعطتني إياها شقيقته مريانا»

GIBRAN JALIL GIBRAN

Por GABRIELA MISTRAL

"Había nacido en la región del Monte Líbano, y era el árabe común de rostro vulgar; pero en su alma cargaba con todo el Oriente. Finezas extremas de chino había en él; metafísicas indostánicas le relampagueaban en la conversación; unos toques de la espiritualidad pura de la Persia y, a veces el pinchazo de la intensidad judía. Todo ello, pasado por unos escepticismos venidos de Salomón, que daban a uno que otro poema y a su charla misma, cierto sabor de cáscara de nuez, amarga y confortante.

Su fama se enfrentaba con la de Tagore y, para algunos decepcionados de las mieles abusivas del indú, el libanés era superior.

El Oriente se había dado tanto o más cuenta de él, que la Nueva York donde vivía desde hacía veinte años. El ponía bonito orgullo en el aprecio del Oriente y me mostró, con gesto de niño regalón, ediciones de sus poemas mimados, algunos manuscritos, maravillas verdaderas en árabe.

El caos barroco de misticismo neoyorkino lo había maleado un poco y en sus dibujos, especialmente, aparecía esta confusión de su mente en alegorías trascendentalistas de mal gusto, que se balanceaban entre un paganismo rodineano y unos espiritualismos ingenuos, a lo Miss Eddy de la "Ciencia Cristiana".

Hablaba de los dioses que lo visitaban en sus amigos, con una familiaridad swenderborgiana o blakeana.

Pero, el dios que ya estaba tendido en sus entrañas, era el de la postrimería, el dios solapado y amarillo como un chino que los médicos llaman secamente cáncer.

Dos meses después de mi conversación jovial con él, se nos moría el hombre sabio y profundo en un vulgar hospital, entre instrumentos de níquel y catres laqueados de blanco".

— 9 —

AMERICAN WRITERS

SUPPLEMENT XX

Edited by Jay Parini

ANTIN
BOYLE
DI DONATO
FINDLEY
FRANK
FRANZEN
GATES
GIBRAN
LAMOTT
McKNIGHT
MILLER
MIRVIS
SKLOOT
STRATTON-PORTER
STURGIS
URIS
WARREN
WHEATLEY

CUMULATIVE INDEX TO VOLUMES I-IV AND SUPPLEMENTS I-XX AND RETROSPECTIVE SUPPLEMENTS I-II

«كتّاب أميركيون – الملحق رقم ٢٠».
مجموعة نُصوص أدبية وبيوغرافيّة لعدد كبير من المؤلفين منذ القرن السابع عشر حتى اليوم (الطبعة الأُولى ٢٠١٠ في ٥٩٢ صفحة حجمًا كبيرًا). وعلى الغلاف اسم جبران.

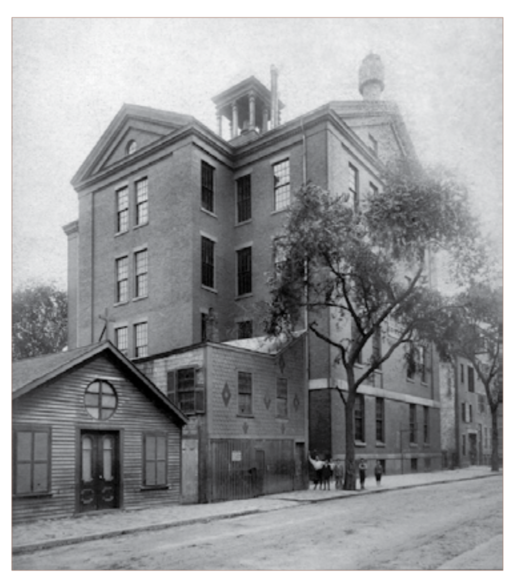
أهمية هذا الكتاب: الاعتراف بجبران بين كوكبة المؤلفين الأَميركيين مع أَن الكثيرين لا يصنّفونه بينهم.

KAHLIL GIBRAN
(1883—1931)

Christopher Buck

KAHLIL GIBRAN

الدراسة عن جبران في الكتاب للأكاديمي كريستوفر بَكْ،
امتدت على ١٦ صفحة (١١٣ – ١٢٦).



«دنيسون هاوس» البيت/المدرسة حيث التحق جبران
أول سنتين من وصوله إلى بوسطن سنة ١٨٩٥.



مبنى دنيسون هاوس الذي أَمضى فيه الفتى جبران سنتين أَول وصوله
إِلى بوسطن سنة ١٨٩٥ وفيه اكتشفَت السيدة فلورنس بيرس موهبته
في الرسم وتحدثت عنها إِلى جيسي بيل التي كتَبت إِلى فْرِد هولند داي
كي يهتم به فكانت تلك أَول نسمة ضوء رسمَت لاحقًا كامل حياة جبران.



جبران في نزهة إلى البرية
في مدينة تاريتاون (نيويورك) سنة ١٩١٥.

عن يمينه عبدالمسيح حداد،
وعن يساره نسيب عريضة.
وإلى يسار الصورة: تمينة عريضة.

جبران خليل جبران لـ«الكون»: الشرق جثة والرقص حولها حرام

بوسطن - ٢٥ آب (اغسطس) ١٩٢٨
كتب المحرر الثقافي

اللقاء مع الاديب والفيلسوف اللبناني جبران خليل جبران، كما الحوار معه صعب، خصوصا اذا تناول الحوار موضوع القضايا الشرقية وما تعانيه الدول العربية من هموم وتحديات تجعلها عاجزة عن المواجهة، خصوصا وان هذه الدول تقبع تحت الاستعمار الغربي وتتوجه بشروطه الامر الذي ترفضه الشعوب العربية وتخنع له انظمتها.

جبران خليل جبران استقبل «الكون» والتقاها في حوار يمكن اختصاره بالتالي:

بدأ جبران كلامه بالقول «انا غريب في هذا العالم. افكر دائما بوطن سحري لا اعرفه. انا غريب عن جسدي وكلما وقفت امام المرآة ارى في وجهي ما لا تشعر به نفسي. انا غريب وقد زرت مشارق الارض ومغاربها فلم اجد مسقط رأسي ولا التقيت من يعرفني او يسمع بي.

■ لكنك ابن هذا الشرق ولا فكاك لك منه؟

- انا من هذا الكون، ولو صادف مولدي في الشرق حيث الصراع دائم بين فكرتين: قديمة مغلوب على امرها، وجديدة على يقظة تقاوم النوم، واليقظة قاهرة لأن الشمس قائدها والفجر جيشها.

جبران خليل جبران

■ وهل وصلت الى حالة يأس من قيامة الشرق؟

- يأس يعني الموت، موت الافكار والطموحات والتجديد. ربما بت على قناعة ان الشرق بات جثة هامدة في ظل خنوع انظمته للدول الكبرى وعجز شعوبه عن اتخاذ المبادرة طالما انها لا تمتلك ثقافة الثورة والانتفاضة.

■ ومتى تتوقع اندلاع هذه الثورة التي تطالب بها؟

- لو ثار قومي على حكامهم الطغاة وماتوا جميعا متمردين لقلت ان الموت في سبيل الحرية اشرف من الاستسلام، ومن يعانق الابدية والسيف في يده كان خالدا بخلود الحق.

■ هذا بيان ثوري يمكن ان يشكل بداية الانتفاضة؟

- هذه دعوة ليس الا. واسأل كيف يثور الشرق وسيوفه مغلفة بالصدأ وثروته مطمورة بالتراب، واعني القول: القلوب المغلفة بالتراب لا تنكسر والاموات لا يبكون، ومشاكل الشرق لا تحلها الا الثورة، ولكن...

■ ولكن ماذا؟!

- ابناء الشرق متعددو الوجوه والاقنعة، ذبنهم رياء ونسيمهم الدعاء وآخرتهم هباء. اكره هذا الشرق لانه يكره المجد واحتقره لأنه يحتقر ذاته.

■ ألهذا الحد وصلت نقمتك على وطنك وامتك، وهي التي كانت نور العالم؟

- كانت وهي اليوم الى زوال. اعود لأقول اليأس موت والرقص امام نعش الميت جنون مطبق.

■ ألا تظن ان افكارك وصلت الى منتهى التطرف؟

- انا متطرف الى حد الجنون، اميل الى الهدم الكلي لأبني الكل من جديد. في قلبي كره لما يقدسه الناس وحب لما يرفضونه. تمنيت لو استطيع استئصال عوائد البشر وعقائدهم وتقاليدهم، لكن العين بصيرة واليد قصيرة.

حوار مع جبران في جريدة «الكون» (آب ١٩٢٥).





Tues. 10th. Dreary morning of thawing snow. Lunched with Kahlil Gibran, a little Syrian artist & poet; he did a drawing of me. He has done Masefield & Yeats with success, & showed me Rodin & Debussy which looked all right. He seems a very nice creature. Nothing commercial about his point of view. Met Alfred Kreymborg, 'the wild man'. /18

الشاعر الإنكليزي سيغفْريد ساسُون (١٨٨٦ – ١٩٦٧) في نص بخطه يذكر فيه أنه تناول الغداء مع جبران الذي وضع رسمًا له.

هنا صورتُه ورسمُه كما وضعه جبران بالقلم الرصاص، ونصُّ ساسون بخطِّه.

فْلُوْيْد ستار (١٨٨٣-١٩٨٠) مُنشئُ «مؤَسسة ستار للأَحداث» (١٩١٣) في أَلْبِيُون (ميتْشِغان) يروي كيف تعرَّف إِلى جبران سنة ١٩٢٨، في مصادفة غريبة.



Kahlil Gibran was a man I called my friend.

On a birthday anniversary, Upton Close and his wife gave me a copy of Kahlil Gibran's little black book called *The Prophet.* Sometime later I was in New York and Mr. Close said "Is there anyone in the city whom you would like to meet?" I replied that I had no desire to meet their Mayor Walker or others of his kind, but I should like very much to meet the man who wrote *The Prophet.* Mr. Close threw up his hands and said "Of all the people in New York, you would pick the one that is inaccessible.

He tried valiantly, I think, to get me an appointment, but without success. One day as we were walking down the street, he said "Kahlil Gibran lives in this building." Well, I heard nothing more about it until one day I was going . . . to keep an appointment . . . I hadn't Kahlil Gibran in mind at all . . . but as though someone spoke to me, I seemed to hear the words "if you would see Kahlil Gibran, go to him at once." So instead of going and keeping my appointment, I stayed on the bus. I got off . . . walked down to the building in which I had been told he lived . . . Away at the back of (a) dim-lighted hall, I could just make out the words "Kahlil Gibran". I lifted the knocker, but the door opened and a man just my height and size stood before me. I said "I have come to see Kahlil Gibran." "I am he, but could you come another time? I have a guest." "No, I can't come again, and I think it will not be necessary. I have merely come to thank you for writing *The Prophet.*" "Come in," he said, "perhaps this friend of mine and you will be kindred spirits." After a bit of conversation, this great poet turned to me and asked "What do you do?" "I work with so-called bad boys." "How I envy you." he said.

Transcripted from a talk by Floyd Starr



مبنى «مؤَسسة فْلُوْيْد» التي أَنشأَها لإِيواء الأَحداث الجانحين والمشرَّدين. وهو دعا جبران إِلى زيارتها فوافق، لكنه توفي بعدها بثلاث سنوات.

YOUR company with friends is requested at an exhibition of drawings studies & designs by M^r GIBRAN KAHLIL GIBRAN together with a small collection of minatures and sketches by the late M^r LANGREL HARRIS to be held at the studio of M^r F. HOLLAND DAY 29 Harcourt Building 23 Irvington Street Boston on the afternoons of April 30th to May 10th inclusive from one until five o'clock

بطاقة الدعوة من فْرِد هولِنْد داي إِلى أَول معرض لجبران،
وهو الذي لم تستطع ماري هاسكل أَن تزوره إِلا في يومه الأَخير
(١٠ أَيار)، حين التقت جبران لأَول مرة وكانت تلك فرصة عُمره الكبرى.

وهنا نص الدعوة:

أَهلًا بك وبأَصدقائك إِلى معرض رسوم ومخططات للسّيد جبران خليل
جبران مع مجموعة صغيرة من المنمنمات والمخططات للراحل لانْغْرِل
هاريس في ستوديو السيد فْرِدْ هولِنْد داي - الشقة ٢٩ من مبنى
هاركورت - رقم ٢٣ شارع أُرْڤنغْتون - بوسطن يوميًّا بعد الظهر بين
الواحدة والخامسة من ٣٠ نيسان إِلى ١٠ أَيَّار ضمنًا

(المبنى احترق لاحقًا واحترقت فيه جميع أَعمال جبران)



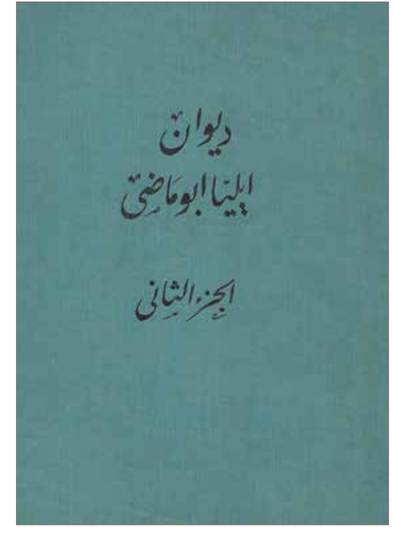
منشور أرسله فْرِد هولند داي للإعلان
عن المعرض (٣٠ نيسان – ١٠ أَيار ١٩٠٤)، وفي اليسار
إِلى الأعلى صورة جبران. وهو أول معرض في حياته.



جبران الفتى في الخامسة عشرة، كما ظهر في صورة فوتوغرافية
لفْرِد هولند داي الذي طلب منه أن يطيل شعره.

In his search for models, Day occasionally found one among the poor immigrant children in the settlement houses of Boston. One of these was Kahlil Gibran, who, thanks to Day's support and goodwill, became his protégé; among other kind deeds, Day arranged an exhibition of Gibran's drawings at Wellesley College. There seems to have been no homosexual attachment between Day and Gibran, but Day was homosexual, as was his publishing partner, Copeland. Day was discreet, but he managed to shock Boston once again with the first frontal male nude photograph ever displayed in that city.

فقرة في كتاب عن فْرِد هولند داي، حول اهتمامه بفتيان بين أبناء المهاجرين من الأحياء الفقيرة
في بوسطن، يتخذهم كنموذج (موديل) في صوره الفوتوغرافية. وفي النص ذكْرُ أن الفتى جبران
كان بين أولئك المُهاجرين الفقراء.



كان جبران سخيًّا في تكريمِهِ رفاقَه أَعضاءَ «الرابطة القلمية»
هوذا إِيليًّا أَبو ماضي يُصدر مجموعته الشِعرية سنة ١٩١٨
ويَطلب مقدمةً لها من جبران فيُلبّي
هنا غلاف المجموعة، ومقدِّمة جبران
ونهاية المقدمة مع توقيع جبران على الصفحة ٥ من الكتاب

مقدمة جبران

الشعرُ عاطفةٌ تتشوَّق إِلى القصيِّ غيرِ المعروف فتجعلُه قريبًا معروفًا. وهو فكرةٌ تُناجي الخفيَّ غيرَ المدرَك فتُحَوِّله إِلى شيءٍ ظاهر مفهوم.

أَما الشاعر فهو مخلوقٌ غريبٌ ذو عَينٍ ثالثةٍ معنوية، ترى في الطبيعة ما لا تراه العيون، وأُذْنٍ باطنيةٍ تسمع من همس الأَيام والليالي ما لا تعيه الآذان.

ينظر الشاعر إِلى وردةٍ ذابلةٍ فيرى فيها مأْساةَ الدهور، ويشاهدُ طفلًا راكضًا وراء الفراشة فيرى فيه أَسرارَ الكون، ويسيرُ في الحقل فيسمعُ أَغاني البلابل والشحارير وليس هناك شحارير وبلابل، ويمشي في العاصفة فيخوض غمار معركةٍ هوجاءَ بين جيوش الأَرض وفيالق السماء.

يقف الشاعر أَمام شَلَّال، فيقول:

فيـه مـن السـيف الصقيـل بريقُـهُ	ولــه ضجيــجُ الجحفــل الجــرارِ
أَبــدًا يــرشُ صخــورَه بدموعــه	أَتــراه يغســلها مــن الأَوزار؟

ويرفع عينيه ليلًا نحو الفضاء فيصرخ:

أَبكــي وتصغــي إِلــى بكائــي	يــا ربّ، هــل تعشــقُ النجــومْ؟

ويلتقي بحبيبه فيهمس:

وددتُ الإفاضةَ قبـلَ اللقـاء … فلَمَّـا لقيتُـك، لـم أَنْبُـسِ
وبِـتُّ وإيـاك فـي معـزلٍ … كأَنـي وإيـاك فـي مجلـسِ

يرى الشاعر ويسمع كلَّ هذه الأُمور من خلال بُرقع الحياة، وأَنتَ واقف بجانبه لا ترى غير مظاهرِها الخارجية، ولا تسمع سوى أَصواتِها المشوّشة، فتقول في ذاتك: «يا له من خياليٍّ مجنونٍ يتمسَّك بخيوط العنكبوت، ويصعد نحو النجوم على سلَّم مصنوع من أَشعة القمر، ويحاول أَن يملأَ جرّته من ندى الصباح بل من السراب».

إي. فالشاعرُ يصعد إلى الملَإِ الأَعلى ولكنْ على سلَّمٍ أَقوى وأَبقى من الجبال. يصعد بعزم الروح، ويتمسَّك بحبالٍ غيرِ منظورة ولكنها أَمتنُ من سلاسل الحديد. يتمسَّك بحبال الفكْر، ويملأُ كأْسه من عصيرٍ أَرقَّ من ندى الفجر. يملأُها من خمرة الخيال، والخيالُ هو الحادي الذي يسير أَمام مواكب الحياة نحو الحقّ والروح.

الشاعر يفعل كل ذلك، وأَنتَ على الأَرض لا تستطيعُ المسيرَ إلَّا على قدميك، ولا الصعودَ إلَّا على سلَّم من الخشب، ولا السُكْر إلَّا من عصير العنب، ولا المسرَّة إلَّا بالربح، ولا الأَلم إلَّا بالخسارة.

الشاعرُ طائرٌ غريبٌ يُفلت من الحقول العلوية، ولكنه لا يبلغ الأَرض حتى يحنَّ إلى وطنه الأَول، فيغرِّد حتى في سكوته، ويسبح في فضاء لا حَدَّ له ولا مدى، مع أَنه في قفص.

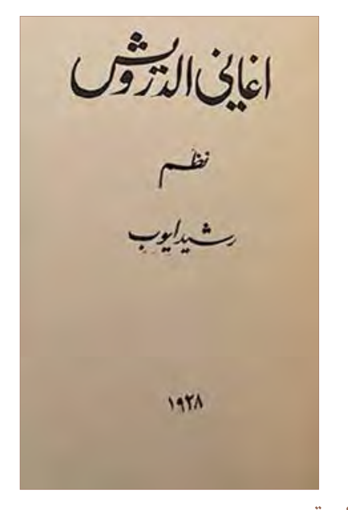
وإيليا أَبو ماضي شاعر.

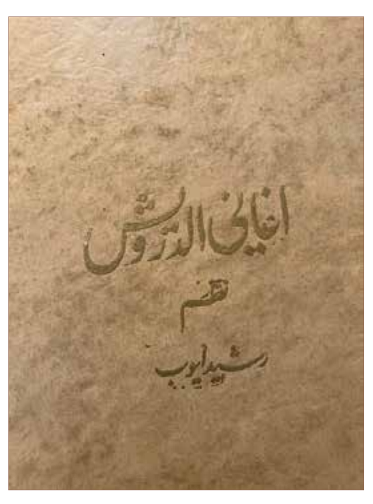
وفي ديوانه هذا، سُلَّمٌ بين المنظور وغير المنظور، وحبالٌ تربط مظاهر الحياة بخفاياها، وكؤُوسٌ مَملوءةٌ بتلك الخمرة التي إنْ لم ترشفْها تظلّ ظمآنَ حتى تَملَّ الآلهةُ البشرَ فتغمرَهم ثانيةً بالطوفان.

جبران خليل جبران

الشاعر طائرٌ غريبٌ يفلت من الحقول العلوية ولكنه لا يبلغ الارض حتى يحن الى وطنه الاول فيغرّد حتى في سكوته ، ويسبح في فضاء لا حدٌّ له ولا مدى مع انه في قفص .

وايليا ابو ماضي شاعر وفي ديوانه هذا سلالمٌ بين المنظور وغير المنظور ، وحبالٌ تربط مظاهر الحياة بخفاياها ، وكؤوس مملوءة بتلك الخمرة التي إن لم ترشفها تظل ظمآناً حتى تمل الآلهة البشر فتغمرهم ثانية بالطوفان .





ومن خدمة جبران زملاءَه في «الرابطة القلمية»
أَن أَصدر رشيد أَيوب مجموعته الشعرية سنة ١٩٢٨
وطلب من جبران رسمًا خاصًّا بها
فوضع جبران هذا الرسم لأَول الكتاب
هنا غلاف الكتاب
وغلافه الداخلي حيثُ الرسم
والرسم في صورة مستقلَّة





وفاء

و

جيرانُوغرافيا

وفاء

ما كنتُ لأُنجزَ هذا الكتاب بالأَمانة التي أَنْشُدُها منذ بدأْتُ العمل عليه قبل أَربع سنوات، لولا وثائقُ أَصلية رصَّعَت دقَّته، وصلَتْني ممن لهم وفائي:

- **جوزف جعجع**، حافظ متحف جبران على صوَر ومعلومات عن جبران.
- **أَنطوان مطر**، على مائيَّتَيه لمدرسة «الحكمة» زمنَ دراسة جبران فيها.
- **فارس مقصود**، على الوثيقة الأَصلية بخَطِّ عمِّه الخوري لاوون مقصود عن مرافقته زيارةَ باربره يونغ مدرسةَ «الحكمة».
- **حارث البستاني**، على السماح بنشر نص والده فؤاد افرام البستاني عن مرافقته زيارةَ باربره يونغ بْشرّي.
- **مَكرم زكُّور**، على ثلاثة أَغلفة من جريدة والده ميشال زكُّور «المعرض» عن وُصول جثمان جبران إِلى بيروت.
- **جوزف أَبي ضاهر**، على وثيقة البرنامج المفصَّل لاحتفالات بيروت وبْشرّي بوصول جثمان جبران إِلى بيروت.
- **أَنجليك بعينو حبَيقة**، على تنسيق الصوَر ووضْع الملاحق الخاصة بالأَسماء الأَجنبية الواردة في الكتاب.

مع امتنانٍ خاص لدوائر الجامعة اللبنانية الأَميركية LAU، رئيسًا وجهازًا قانونيًّا وإِداريًّا وفنِّيًّا، تسهيلًا مراحلَ العمل في إِنشاء هذا الكتاب ليَصدر بهذه الحلَّة الأَنيقة، شكلًا ومضمونًا، عن منشورات «مركز التراث اللبناني» في الجامعة.

جبرانُوغرافيا

- البستاني فؤاد افرام، **مع جبران**، منشورات الدائرة، بيروت، 1983
- جبر جميل، **جبران في حياته العاصفة**، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٨١.
- جبر جميل، **جبران في عصره وآثاره**، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٨٣.
- حنين رياض، **الوجهُ الآخَر لجبران**، دار النهار، بيروت، ١٩٨١.
- خالد غسان، **جبران الفيلسوف**، مؤسسة نوفل، ١٩٨٣.
- دايه جان، **لكُم جبرانكم ولي جبراني**، منشورات مجلة «قبل الياس»، ٢٠٠٩.
- دايه جان، **عقيدة جبران**، دار سوراقيا، لندن، ١٩٨٨.
- الدويهي بطرس وهبه، **الدويهيُّون**، نشر خاص، مؤسسة جوزف د. الرعيدي، ٢٠٠٢.
- زغيب هنري، **جبران، شواهد الناس والأَمكنة**، درغام، بيروت، ٢٠١٢.
- شيبوب إِدفيك، **ذكرياتي مع جبران** (مذكرات يوسف الحويك)، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٧٩.
- فارس فيلِكس، **رسالةُ المنبر إِلى الشرق العربي**، مطبعة «المستقبل»، الإِسكندرية، ١٩٣٦.
- كيروز وهيب، **جبران في متحفه**، بَشَاريا، زوق مكايل، ١٩٧٤.
- مجاعص سليم، **جِنِّيَّة جبران**، دار كُتُب، بيروت، ٢٠٠٩.
- **مجموعة الرابطة القلمية لسنة ١٩٢١**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤.
- مسعود جبران، **جبران حيًّا وميتًا**، دار الريحاني، بيروت ١٩٦٦.
- نجار اسكندر، **أَوراق جبرانية**، دار النهار، بيروت، ٢٠٠٦.
- نجار اسكندر، **قاموس جبران**، الساقي، بيروت، ٢٠٠٨.
- نعَيمه ميخائيل، **جبران خليل جبران، حياته، موته، أَدبه، فنه**، مؤسسة نوفل، بيروت، ط. ٨، ١٩٧٨.
- يمين محسن أ.، **من خلف البحار**، منشورات البيت الزغرتاوي، ٢٠١٩.

Gratefulness

I couldn't have achieved such colossal work without an enormous debt of gratitude to those who helped me with information and documents:

- **Jean Gibran**, for her patient correspondence with valuable information and permission to use documents from her wonderful book: *Love made visible*.
- **Akram Khater**, for his friendship and for issues of *The Syrian World* from the *Moïse A. Khayrallah Center for Lebanese Diaspora Studies* (NCSU).
- **Charles Malouf Samaha**, for issues of *The Syrian World* as well as excerpts and photos related to Gibran.
- **Nadim Shehadi**, for issues of *The Syrian World* from his own collection, and for contacting Albert Shehadi and Princeton University to facilitate the reproduction of texts from the William Shehadi collection.
- **Edmond Ghareeb**, for his generosity in providing private documents and photos of his father Andrew, the translator of Gibran.
- **Elizabeth Davis**, for the rare photo of her great aunt Mary Haskell.
- **Francesco Medici**, for his permission to reproduce his newly discovered documents on Gibran.

Gibranography

- *5ème rencontre internationale sur Gibran*, IMA- Paris, 2020, Center for Lebanese Heritage Press, LAU, Beirut, 2020.
- BUSHRUI Suheil and MALARKEY James Ed., *The enduring legacy of Kahlil Gibran*, University of Maryland, MD, 2013.
- BUSHRUI Suheil and JENKINS Joe, *Kahlil Gibran, man and poet*, One World, Oxford, UK, 1998.
- BUSHRUI Suheil, *The essential Gibran*, One World, Oxford, UK, 2007.
- DAHDAH Jean-Pierre, *Khalil Gibran, une biographie*, Albin Michel, Paris, 1994.
- GHAREEB Andrew, *Prose poems by Kahlil Gibran*, Alfred Knopf, NY, 1934.
- GIBRAN Jean and Kahlil, *Dramas of life, introduction*, Westminster Press, Philadelphia, PA, 1981.
- GIBRAN Jean and Kahlil, *Kahlil Gibran, beyond borders*, Interlink books, Northampton, MA, 2017.
- GIBRAN Jean and Kahlil, *Kahlil Gibran, His life and world*, Interlink books, NY, 1991.
- GIBRAN Jean, *Love made visible*, Interlink books, Northampton, MA, 2017.
- HAWI Khalil, Kahlil Gibran, his background, character and works, AUB, Beirut, 1963.
- HILU Virginia, *Beloved Prophet*, Quartet books, London, 1973.
- KALEM Glen, *Kahlil Gibran collective, the Artist, the Poet, the Man* (Website).
- NAJJAR Alexandre, *Khalil Gibran, l'auteur du Prophète*, Pygmalion, Paris, 2002.
- NAJJAR Alexandre, *Sur les traces de Gibran*, Dergham, Beyrouth, 2011.
- SAMAHA Charles Malouf, *Faris Saleem Malouf, A voice in the dark*, private and limited edition, St. Petersburg, FL, 2019.
- SHEHADI William, *Kahlil Gibran, A prophet in the making*, AUB Press, Beirut, 1991.
- WATERFIELD Robin, *Prophet, Life and times of Kahlil Gibran*, St. Martin's Press, NY, 1998.

تحيةُ وَلاء

أَن تَعمَدَ جامعة كبرى في الشرق، كالجامعة اللبنانية الأَميركية LAU، إِلى تبنِّيها سِفْرًا كالذي بين يديك، وأَن تُتابع، دؤُوبةَ الدقةِ زمنًا وإِنتاجًا، مراحلَ وضْعه تباعًا منذ مطالعها قبل أَربع سنوات، بدءًا بعقْد الاتفاق القانوني مع الناشر النيويوركي «كنوف» على ترجمة كتاب باربره يونغ «هذا الرجُل من لبنان» كاملًا، وتسديد حقوق الترجمة، ثم تأْمين الوثائق الجبرانية الجديدة من مصادرها الأُولى في الولايات المتحدة مع ما يستتْبع ذلك بين مراسلات ومتابعات، فالسهر على تأْمين أَيِّ متوفِّرٍ ضروريٍّ لأَعمال الترجمة والبحث والتنقيب عن كلِّ مصدر أَو مرجع يَرفدُ أَمانةَ النص وعلْميةَ الاستقصاء، بلُوغًا إِلى توفير جميع التسهيلات لإِنتاج الكتاب تأْليفًا وتحريرًا على المستوى الأَكاديمي الأَعلى، وإِخراجًا وطباعةً على المستوى الفني الأَرقى، فإِنجازٌ يليق بسمُوّ الرسالة التي تؤدِّيها هذه الجامعة، جيلًا بعد جيل، عهدًا بعد عهد، إِدارةً بعد إِدارة، إِيمانًا بأَن الجامعة ليست مقعدًا طالبيًّا ومنبرًا تدريسيًّا ومحاضراتٍ وشهادةً وحسْب، بل هي منارةٌ في مجتمعها، حريصةٌ على نموِّه إِنما أَيضًا جديرةٌ بالحفاظ على ذاكرته: ميراثًا من الأَمس مخزونًا من السلَف الأَمين، تراثًا من اليوم أَعلامًا ومعالمَ وعلامات موكولًا إِلى الخلَف الضنين، ليكون إِرثًا هو أَغلى ما تهديه إِلى الوطن في غده المَكين.

الجامعة اللبنانية الأَميركية تتفرَّد باحتضان مركزٍ مختصٍّ بالتراث اللبناني، وتسهَر على دعمه وتلْبيته ومواكبته نشاطًا ومنشوراتٍ وادِّخارَ كنوزٍ من تراث لبنان. وهي بذلك تسجِّل لأَبناء أَجيالنا المقبلة ذاكرةً للمستقبل تجعلُهم يفخرون بانتمائهم إِلى لبنان النهضة والتاريخ والحضارة، وهذا تاجُ ما من أَجله تأَسس في الجامعة (سنة ٢٠٠٢) «مركزُ التراث اللبناني».



مدير المركز

